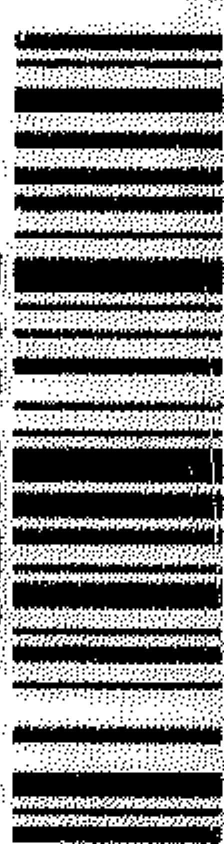
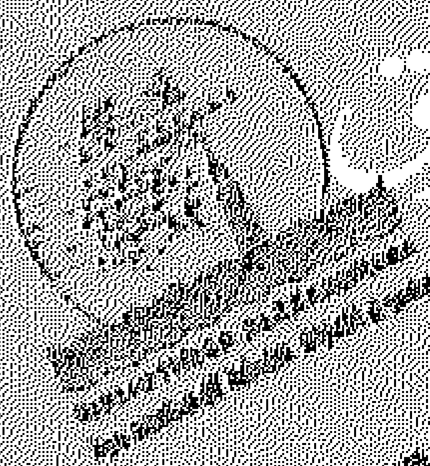



أعلام العرب

٦١

# جمال الدين الأفغاني

## باعث نهضة الشرق





بقلم

المؤرخ الكبير

عبد الرحمن الرافعي

دار
الكاتب
العربي
للطباعة
والنشر

أعلام العَرَبْ

٦١

# جمالُ الدّين الأفغانى

## باعث نهضة الشرق

١٨٣٨ - ١٨٩٧



بقلم

المؤرخ الكبير

عبد الرحمن الرافعي






دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

# مقدمة

تمر السنون وتتعاقب الأيام . وذكرى جمال الدين الأفغانى خالدة تتجدد فى النفوس كباعث نهضة الشرق .

اذا ذكر الزعماء والمصلحون فى الشرق كان هو رائدهم وكان فى طليعتهم . نهض والناس نيام . فكانت دعوته أول نداء دوى فى الآفاق . أهاب بالأمم الشرقية أن تتحد وتتعاون . وتحارب الاستعمار وتقاومه . وتحذر أساليبه ومكايده . وأن تتخلص من النظم الاستبدادية الداخلية التى درج عليها الملوك والرؤساء ، وتحرر العقول والعقائد من نزعات الجمود والركود ، وتنطلق الى آفاق الحرية والعلم . واليقظة والرقى . فكانت دعوته التى عاش عليها ومات من أجلها بداية النهضات التى شملت أقطارا عديدة جابها . وغرس فيها أفكاره ومبادئه ، وكانت مبعث الحركات القومية التى ظهرت فى أرجاء الشرق حينا بعد حين . خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

ظل الشرق قرونا وأجيالا رازحا تحت نير الجمود الفكرى ، والتأخر العلمى . والاستعباد السياسى . وبقى فى سبات عميق . الى أن قيض الله له الحكيم الأفغانى « جمال الدين » فنفخ فيه روح اليقظة والحياة . وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك ، وبالعقول أن تستيقظ ، وبالأمم والجماعات أن تتطلع الى الحرية ، فكانت رسالته الى الشرق مبعث نهضته الحديثة .

واذا أردنا أن نتبين فى كلمة عامة فضل جمال الدين ، ومدى الرسالة التى أداها ، فلنذكر أنه كان فى حياته مصلحا دينيا ،

وفيلسوفا حكيما ، وزعيما سياسيا ، فجمع بين الزعامات الروحية، والفكرية ، والسياسية ، واضطلع بهما معـــا ، فأدى من الناحية الدينية مهمة الاصلاح والتجديد التى أدى مثلهـــا مارتان لوثير للمسيحية ، وأهاب بالأمم الاسلامية أن تفهم الاسلام على حقيقته ، وترجع الى مبادئه الصحيحة ، وفطرته الأولى ، وتطهره من الأوهام والخرافات التى أفضت الى تأخر المسلمين •

ومن الناحية الفكرية ، أدى المهمة التى قام بهـــا فى أوروبا فلاسفة الفكر ، أمثال چان چاك روسو ومونتسكيو وغيرهما ، فعمل على انارة البصائر ، وتوجيه الأفكار الى البحث عن الحقائق، وتحرير العقول من قيود الجمود والتفكير •

ومن الوجهـــة السياسية ، استنهض الهمم ، واستثار فى النفوس روح العزة والكرامة ، والتطلع الى الحرية ، وغرس بذور الحركات الوطنية فى مختلف البلاد الشرقية ، ومحاربة الاستعمار• وقام بمثل العمل الذى اضطلع به زعماء النهضات السياسية فى الغرب ، كواشنطون ، وجاريبلدى ، ومازينى ، وكوشت وغيرهم•

فالذى يجمع بين هذه المهام الجليلة ، ويضطلع بها معا ، فى عهد اشتد فيه ظلام الجهـــالة ، وتفرقت الكلمة ، وعز النصير ، وتشعبت الأهواء ، يجب أن يتســـــامى فى قوة النفس والفكر والوجدان ، الى مراتب العبقرية •

وهذا الكتاب يؤرخ لهذه الشخصية الفذة • ويسجل مراحل كفاح الرائد الأول لنهضة الشرق •

مارس سنة ١٩٦١

**عبد الرحمن الرافعي**

# الفصل الأول

## نشأته والعصر الذى ظهر فيه

ولد جمال الدين الأفغانى سنة ١٨٣٨ م ( ١٢٥٤ هجرية ) . فى « سعد آباد » احدى القرى التابعة لخطة ( كنر ) من أعمال ( كابل ) عاصمة الأفغان ، ووالده السيد صفتر من سادات (كنر) الحسينية ، ويتصل نسبه بالسيد على الترمذى المحدث المشهور، ويرتقى الى سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه، فالمترجم من السلالة النبوية الطاهرة . ويجرى فى عروقه الدم العربى الأصيل . ومن هنا جاء التعريف عنه بالسيد جمال الدين الحسينى الأفغانى .

وقد زعم بعض المتشككين أو المفرضين أن جمال الدين ايرانى لا أفغانى . وهو زعم مختلق يراد منه التشكيك فى أفغانية السيد العظيم . ويدحضه ما اتفق عليه رواة من معاصريه بأنه أفغانى الموطن وتسميته طيلة حياته « جمال الدين الأفغانى » وما قاله رحمه الله عن نسبه . فقد قرر أنه أفغانى صميم . قال مرة « لقد جمعت ما تفرق من الفكر . ولممت شعث التصور . ونظرت الى الشرق وأهله . فاستوقفتنى الأفغان . وهى أول أرض مس جسمى ترابها » . وقال مرة أخرى « انى اضطررت لترك بلادى الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض » .

هذا الى ما عرفه أقرب الناس اليه مثل الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده والأمير شكيب أرسلان . والشيخ عبد القادر

المغربى وماسمعوه منه من أنه أفغانى بحت عربى بالسلالة النبوية التى ينتسب اليها .

ولعل هذا الشك الذى أثاره بعض الايرانيين راجع الى التفاخر بالعظماء والتنازع بين الناس على نسبته اليهم .

ولأسرة جمال الدين منزلة عالية فى بلاد الأفغان ، لنسبها الشريف ، ولمقامها الاجتماعى والسياسى ، اذ كانت لها الامارة والسيادة على جزء من البلاد الأفغانية ، تستقل بالحكم فيه ، الى أن نزع الامارة منها « دوست محمد خان » أمير الأفغان وقتئذ ، وأمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه الى مدينة (كابل)، وانتقل المترجم بانتقال أبيه اليها ، وهو بعد فى الثامنة من عمره، فعنى أبوه بتربيته وتعليمه ، على ما جرت به عادة الأمراء والعلماء فى بلاده .

وكانت مخايل الذكاء ، وقوة الفطرة ، وتوقد القريحة تبدو عليه منذ صباه ، فتعلم اللغة العربية ، والأفغانية ، والفارسية ، وتلقى علوم الدين ، والتاريخ ، والمنطق ، والفلسفة ، والرياضيات، فاستوفى حظه من هذه العلوم ، على أيدى أساتذة من أهل تلك البلاد ، على الطريقة المألوفة فى الكتب الاسلامية المشهورة ،واستكمل الغاية من دروسه وهو بعد فى الثامنة عشرة من عمره .

ثم سافر الى الهند ، وأقام بها سنة وبضعة أشهر يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوروبية ، فنضج فكره ، واتسعت مداركه ، وكان بطبعه ميالا الى الرحلات ، واستطلاع أحوال الأمم والجماعات ، فعرض له وهو فى الهند أن يؤدى فريضة الحج ، فاغتنم هذه الفرصة وقضى سنة يتنقل فى البلاد ، ويتعرف أحوالها، وعادات أهلها ، حتى وافى مكة المكرمة ، سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧م)، وأدى الفريضة .

## بدء حياته العملية

ثم عاد الى بلاد الأفغان ، وانتظم فى خدمة الحكومة على عهد الأمير ( دوست محمد خان ) المتقدم ذكره ، وكان أول عمل له مرافقته اياه فى حملة حربية جردها لفتح ( هراة ) ، احدى مدن الأفغان ، وليس يخفى أن النشأة الحربية تعود صاحبها الشجاعة، واقتحام المخاطر، ومن هنا تبدو صفة من الصفات العالية، التى امتاز بها جمال الدين ، وهى الشجاعة ، فان من يخوض غمار القتال فى بدء حياته تألف نفسه الجرأة والاقدام ، وخاصة اذا كان بفطرته شجاعا ٠

ففى نشأة المترجم الأولى ، وفى الدور الأول من حيـــاته ، تستطيع أن تتعرف أخلاقه ، والعناصر التى تكونت منها شخصيته، فقد نشأ كما رأيت من بيت مجيد ، ازدان بشرف النسب ، واعتز بالامارة ، والسيادة ، والحكم ، زمنا ما ، وتربى فى مهاد العز ، فى كنف أبيه ورعايته فكان للوراثة والنشـــأة الأولى ، أثرهما فيما طبع عليه من عزة النفس ، التى كانت من أخص صـــفاته ، ولازمته طول حياته ، وكان للحرب التى خاضها أثرها أيضا فيما اكتسبه من الأخلاق الحربية ٠

فالوراثة ، والنشأة ، والتربية ، والمرحلة الأولى فى الحياة العملية ، ترسم لنا جانبا من شخصية جمال الدين الأفغانى ٠

ســـار المترجم اذن فى جيش « دوست محمد خان » لفتح ( هراة ) ، ولازمه مدة الحصـــار ، الى أن توفى الأمير ، وفتحت المدينة بعدحصار طويل ، وتقلد الامارة من بعده ولى عهده (شير على خان ) سنة ١٨٦٤ م ( ١٢٨٠ هـ ) ٠

ثم وقع الخلف بين الأمير الجديد واخوته ، اذ أراد أن يكيد لهم ويعتقلهم ، فانضم السيد جمال الدين الى « محمد أعظم » أحد الأخوة الثلاثة ، لما توسمه فيه من الخير ، واستعرت نار الحرب

الداخلية ، فكانت الغلبة لمحمد أعظم ، وانتهت اليه امارة الأفغان، فعظمت منزلة المترجم عنده ، وأحله محل الوزير الأول ، وكاد بحسن تدبيره يستتب الأمر للأمير ، ولكن الحرب الداخلية ، ما لبثت أن تجددت ، اذ كان ( شير على ) لا يفتأ يسعى لاسترجاع سلطته ، وكان الانجليز يعضدونه بأموالهم ودسائسهم ، فأيدوه وناصروه ، ليجعلوه من أوليائهم وصنائعهم ، وأغدق ( شير على ) الأموال على الرؤساء الذين كانوا يناصرون الأمير محمد أعظم « فبيعت أمانات ونقضت عهود ، وجددت خيانات » كما يقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وانتهت الحرب بهزيمة محمد أعظم ، وغلبة شير على ، وخلص له الملك .

بقى السيد جمال الدين فى كابل لم يمسه الأمير بسوء ؛ « احتراما لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوى » وهنا أيضا تبدو لك مكانة المترجم ، ومنزلته بين قومه ، وهو بعد فى المرحلة الأولى من حياته العامة ، ويتجلى استعداده للاضطلاع بعظائم المهام ، والتطلع الى جلائل الأعمال ، فهو يناصر أميرا يتوسم فيه الخير ، ويعمل على تثبيته فى الامارة ، ويشيد دولة يكون له فيها مقام الوزير الأول ، ثم لا تلبث أعاصير السياسة والدسائس الانجليزية أن تعصف بالعرش الذى أقامه ، فيدال من أميره ، ويغلب على أمره ، ويلوذ بايران لكى لا يقع فى قبضة عدوه، ثم يموت بها ، أما المترجم فيبقى فى عاصمة الامارة ، ولا يهاب بطش الأمير المنتصر ، ولا يتملقه أو يسعى الى نيل رضاه ، ولا ينقلب على عقبيه ، كما يفعل الكثيرون من طلاب المنافع ، بل بقى عظيما فى محنته ، ثابتا فى هزيمته ، وتلك لعمرى ظواهر عظمة النفس ، ورباطة الجأش ، وقوة الجنان .

وهذه المرحلة كان لها أثرها فى الاتجاه السياسى للسيد جمال الدين ، فقد رأيت ما بذلته السياسة الانجليزية لتفريق الكلمة ، ودس الدسائس فى بلاد الأفغان ، واشعال نار الفتن

الداخلية بها ، واصطناعها الأولياء من بين أمرائها ، ولا مراء في أن هذه الأحداث قد كشفت للمترجم عن مطـــامع الانجليز ، وأساليبهم فى الدس والتفريق ، وغرست فى فؤاده روح العداء للسياسة البريطانية خاصة ، والمطـــامع الاستعمارية الأوروبية عامة ، وقد لازمه هذا الكره طول حياته ، وكان له مبدأ راسخا يصدر عنه فى أعماله وآرائه وحركاته السياسية ٠

## رحيله الى الهند

لم ينفك الأمير ( شير على ) يدبر المكايد للسيد جمال الدين ، ويحتال للغدر به ، فرأى السيد أن يفارق بلاد الأفغان ، ليجد جوا صالحا للعمل ، فاستأذنه فى الحج ، فاذن له ، فسار الى الهند سنة ١٨٦٩ م ( ١٢٨٥ هـ ) ، وكانت شهرته قد سبقته الى تلك الديار ، لما عرف عنه من العلم والحكمة ، وما ناله من المنزلة العالية بين قومه ، ولم يكن يخفى على الحكومة الانجليزية عداؤه لسياستها ، وما يحدثه مجيئه الى الهند من اثارة روح الهياج فى النفوس ، وخاصة لأن الهند كانت لاتزال تضطرم بالفتن على الرغم من اخماد ثورة سنة ١٨٥٧ ، فلما وصل الى التخوم الهندية تلقته الحكومة بالحفاوة والاكرام ، ولكنها لم تسمح له بطول الاقامة فى بلادها ، وجاء أهل العلم والفضل يهرعون اليه ، يقتبسون من نور علمه وحكمته ، ويستمعون الى أحاديثه وما فيها من غـذاء للعقل والروح ، والحث على الأنفة وعزة النفس ، فنقمت الحكومة منه اتصاله بهم ، ولم تأذن له بالاجتماع بالعلماء وغيرهم من مريديه وقصاده ، الا على عين من رجالها ، فلم يقم هناك طويلا ، ثم أنزلته الحكومة احدى سفنها فأقلته الى السويس ٠

## مجيئه مصر لأول مرة

جاء مصر لأول مرة أوائل سنة ١٨٧٠ م(أواخر سنة ١٢٨٦ هـ)، ولم يكن يقصد طول الاقامة بها ، لأنه انما جاء ووجهته الحجاز ، فما أن سمع الناس بمقدمه حتى اتجهت اليه أنظار النابهين من

أهل العلم ، وتردد هو على الأزهر ، واتصل به كثير من الطلبة ، فآنسوا فيه روحا تفيض معرفة وحكمة ، فأقبلوا عليه يتلقون بعض العلوم الرياضية ، والفلسفية ، والكلامية ، وقرأ لهم شرح ( الاظهار ) (١) فى البيت الذى نزل به بخان الخليلى ، وأقام بمصر أربعين يوما ، ثم تحول عزمه عن الحجاز ، وسافر الى الاستانة ( استنبول ) .

قال الشيخ محمد عبده عن تتلمذه لجمال الدين : « وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية ( الفلسفية ) والكلامية وأدعو الناس الى التلقى عنه كذلك . وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى الى زعزعة العقائد الصميمة وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خيرى الدنيا والآخرة ، فكنت اذا رجعت الى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش (٢) فكان يقول لى : ان الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته . وان أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه . وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة . فلا شىء من العلم بممقوت عند الله ولا شىء من الجهل بمحمود لديه ، الا ما يسميه بعض الناس علما وليس فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلهما الأضرار بالناس » (٣) .

## العصر الذى ظهر فيه

أخذ النضج السياسى لجمال الدين الأفغانى يتكون حوالى منتصف القرن التاسع عشر . وكان لحالة الشرق وقتئذ أثرها

---

(١) متن مختصر فى علم النحو لمؤلفه البركوى .

(٢) خال والد الأستاذ الامام وكان يدارسه القرآن والعلم .

(٣) تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٥ .

فى هذا التكوين • فالاستعمار الأوروبى فى عنفوانه وجبروته • والأمم الشرقية اما خاضعة لهذا الاستعمار أو كانت هدفه ومقصده• ففرنسا تحتل الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ وترنو ببصرها الى البلدان العربية المجاورة •

وفى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تغزو افريقية • كانت بريطانيا تعمل على أن تطأ أقدامها جنوب جزيرة العرب فاحتلت ( عدن ) سنة ١٨٣٩ • ثم أخذت تبسط نفوذها وشرورها على مر السنين فى المناطق القريبة منها والبعيدة عنها بحيث لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى مدت شراكها الى الكثير من الأصقاع الجنوبية من شبه الجزيرة العربية •

وكانت تحتل الهند وتضطهد الأهلين فيها • وقد ثاروا عليها سنة ١٨٥٧ للتحرر من استعمارها • ولكنها أخمدت ثورتهم بالحديد والنار سنة ١٨٥٩ •

وكانت تدبر المكايد لبلاد الأفغان ــ موطن جمال الدين ــ وتعمل على غزوها وضمها الى مستعمراتها وباءت بالفشل المرة تلو الأخرى• ولكنها كانت ماضية فى تحقيق أطماعها واصطناع الأعوان والعملاء فيها •

وهولندة تحتل معظم جزائر الهند الشرقية ( أندونيسيا ) وتبسط على أهلها سلطانها الغاشم •

ومصر تكتنفها المطامع الاستعمارية وتلاحقها • فمنذ أن أخفقت بريطانيا فى حملة فريزر عليها سنة ١٨٠٧ فى مطلع القرن التاسع عشر وفشلت وقتئذ فى احتلالها • أخذت تترقب الفرص لتعاود تحقيق أطماعها الاستعمارية فيها • وتنافست هى وفرنسا فى بسط نفوذها السياسى والاقتصادى عليها وانتزعت فرنسا من مصر سنة ١٨٥٤ امتياز حفر قناة السويس • فكان ذلك غزوا اقتصاديا لها • واشتد التنافس بينها وبين بريطانيا على التدخل فى شئونها •

فالعصر الذى ظهر فيه جمال الدين كان عصر طغيان الاستعمار الأوروبى فى بلاد الشرق عامة · وكان من شأنه أن يؤجج فى النفوس الحساسة مشاعر بغضه وكراهيته والسخط على المستعمرين والدعوة الى محاربتهم ومقاومتهم ·

وكانت الحالة الداخلية لبلاد الشرق بالغة منتهى السوء · فملوكها وأمراؤها يحكمونها حكما استبداديا · ولا يعترفون لشعوبهم بحقوقهم السياسية والمدنية · ولا يريدون أن يتخلوا عن سلطانهم المطلق القائم على الأهواء والشهوات · والنظم الداخلية للحكم قد استشرى فيها الفساد · والجهالة متفشية بين المواطنين · والأمية غالبة عليهم · والعقائد الدينية قد شابتها الأباطيل والخرافات · والجمود مستحوذ علي العلماء والخواص · والأفكار مغلقة لا تنفذ اليها دعوة الحق أو التحرر من قيود التقاليد والأوهام.

فالاستعمار الخارجي · والاستبداد الداخلى · والتأخر والجمود الفكرى · والغفلة الشاملة ، تلك هى العناصر الجوهرية لحالة الشرق فى منتصف القرن التاسع عشر ·

هذه هى حالة الشرق عامة فى العصر الذى ظهر فيه جمال الدين الأفغانى وكان لها ولا ريب دخل أيما دخل فى تكوين شخصيته واتجاهاته ؛ والتمهيد لكفاحه ·

ولكن من الحق أن نقول ان هذه الحالة لم تحرك فى نفوس معاصريه ما حركت فى نفسه · فلماذا كانت العامل المؤثر فى تكوين شخصيته ؟ لقد شعر بهذه الحالة كثير من معاصريه ولكنها لم تصل فى نفوسهم الى درجة الثورة على الأوضاع القائمة مثل ما وصلت فى نفس جمال الدين · فما هو السر فى هذا الفارق ؟ ان الجواب على هذا السؤال يبدو واضحا جليا اذا علمنا أن الأمم يظهر فيها حينا بعد حين زعماء يحملون لواء التحرير ، أو الاصلاح والتجديد ، ويمتازون بناحية من نواحى العبقرية تؤهلهم للاضطلاع

بأعباء هذه الرسالة • ولاشك أن جمال الدين الأفغاني قد امتاز على معاصريه بعبقريته ومواهبه ، فكان واحدا من هؤلاء العباقرة الذين حملوا رسالة النهضة والحرية وغرسوها في نفوس معاصريهم •

فالعصر الذى ظهر فيه جمال الدين الأفغاني ، وظروفه وملابساته ، وعبقريته ومواهبه ، كان لها كلها الأثر المشترك في تكوين شخصيته والتمهيد لكفاحه ودعوته •

## سفره الى الاستانة وأثره فيها
## ثم رحيله عنها

وصل السيد جمال الدين الى الاستانة ، فلقى من حكومة السلطان عبد العزيز حفاوة واكراما ، اذ عرف له الصدر الأعظم « عالى باشا » مكانته ، وكان هذا الصدر من ساسة الترك الأفذاذ ، العارفين بأقدار الرجال ، فأقبل على السيد يحفه بالاحترام والرعاية ، ونزل من الأمراء والوزراء والعلماء منزلة عالية ، وتناقلوا الثناء عليه ، ورغبت الحكومة أن تستفيد من علمه وفضله ، فلم تمض ستة أشهر حتى جعلته عضوا في ( مجلس المعارف ) ، فاضطلع بواجبه ، وأشار باصلاح مناهج التعليم •

ولكن آراءه لم تلق تأييدا من زملائه ، واستهدف لسخط شيخ الاسلام حسن فهمي أفندى ، اذ رأى في تلك الآراء ما يمس شيئا من رزقه ، فأضمر له السوء ، وأرصد له العنت ، حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ هـ ، ( ديسمبر سنة ١٨٧٠ م ) ، فرغب اليه مدير دار الفنون أن يلقى فيها خطابا للحث على الصناعات ، فاعتذر بادىء بدء بضعفه في اللغة التركية ، فألح عليه ، فأنشأ خطابا طويلا كتبه قبل القائه ، وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية، فأقروه واستحسنوه •

وألقى السيد خطابه بدار الفنون ، فى جمع حاشد من ذوى العلم والمكانة ، فنال استحسانهم ، ولكن شيخ الاسلام اتخذ من بعض آرائه مغمزا للنيل منه بغير حق ، ورميه بالزيغ فى عقيدته ، واغتنمها فرصة للايقاع به ، وألب عليه الوعاظ فى المساجد ، وأوعز اليهم أن يذكروا كلامه محفوفا بالتفنيد والتنديد ، فغضب السيد لمكيدة شيخ الاسلام ، وطلب محاكمته ، ولكن الحكومة انحازت الى شيخها ، وأصدرت أمرها الى المترجم بالرحيل عن الاستانة بضعة أشهر ، حتى تسكن الخواطر ، ويهدأ الاضطراب، ثم يعود اليها ان شاء ، ففارقها مهضوما حقه ، ورغب اليه بعض مريديه أن يتحول الى الديار المصرية ، فعمل برأيهم وقصد اليها ٠

على أن جهاده فى تركيا قد ظهر أثره على مر السنين فليس يخفى أن ( مدحت باشا ) الملقب بأبى الأحرار فى تركيا قد وضع مشروع الدستور وأعلن القانون الأساسى ( الدستور ) سنة ١٨٧٦٠ حقا ان البرلمان العثمانى الذى انتخب على أساسه لم يكد يجتمع حتى ألغى اجتمــاعه فى أوائل سنة ١٨٧٨ بأمر الســلطان عبد الحميد ٠ ونفى واضع الدستور مدحت باشا وعاد الحكم المطلق فى تركيا ٠ على أن البذرة التى وضعها جمــال الدين سنة ١٨٧٠ قد أثمرت على مدى السنين حتى حدث الانقــلاب العثمانى وعاد الدستور سنة ١٩٠٨ ٠

---

# الفصل الثاني

## عمله في مصر

جاء السيد جمال الدين الى مصر للمرة الثانية فى أوائل المحرم سنة ١٢٨٨ هـ ( مارس سنة ١٨٧١ م ) ، لا على نية الاقامة بها، بل على قصد مشاهدة منـــــاظرها ، واستطلاع أحوالها ، ولكن ( رياض باشا ) وزير اسماعيل فى ذلك الحين رغب اليه البقاء في مصر ، وأجرت عليه الحكومة ــ راتبا مقداره ألف قرش كل شهر ، نزلا أكرمته به ، لا فى مقابل عمل ، واهتدى الى المترجم كثير من طلبة العلم ، يستورون زنده ، ويقتسبون الحكمة من بحر علمه ، فقرأ لهم الكتب العالية فى فنون الكلام ، والحكمة النظرية، من طبيعية وعقلية ، وعلوم الفلك ، والتصوف ، وأصول الفقه ، بأسلوب طريف ، وطريقة مبتكرة ، وكانت مدرســـــته بيته ، ولم يذهب يوما الى الأزهر مدرسا ، وانما ذهب اليه زائرا ، وأغلب ما يزوره يوم الجمعة ، وكان أسلوبه فى التدريس مخاطبة العقل، وفتح أذهان تلاميذه ومريديه الى البحث والتفكير ، وبث روح الحكمة والفلسفة في نفوســـــهم ، وتوجيه أذهانهم الى الأدب ، والانشاء ، والخطابة ، وكتابة المقالات الأدبية ، والاجتمــاعية ، والسياسية ، فظهرت على يده نهضة فى العلوم والأفكار أنتجت أطيب الثمرات .

وهنا موضع للتساؤل ، عما حمل الخديو اســـماعيل الى استمالة الحكيم الأفغانى للاقامة فى مصر ، واكرام مثواه ، فقد

يبدو هذا العمل غريبا ، لأن لجمال الدين ماضيا سياسيا ، ومجموعة أخلاق ومبادىء ، لا ترغب فيه الملوك المستبدين ، ولم يكن السيد من أهل الملق والدهان فينال عطفهم ورعايتهم ، ويجرون عليه الأرزاق بلا مقابل ، ولكن الأمر لا يعسر فهمه اذا عرفنا أن فى اسماعيل جانبا ممدوحا ، وهو حبه للعلم ، ورغبته فى نشره ورعايته ، وكانت شخصية جمال الدين العلمية ، وشهرته فى الفلسفة ، أقوى ظهورا ، وخاصة فى ذلك الحين ، من شخصيته السياسية ، فلا غرو أن يكرم فيه اسماعيل العالم المحقق ، الذى يفيض على مصر من بحر علمه وفضله ، فترغيبه اياه فى البقاء بمصر يشبه أن يكون فتحا علميا ، كتأسيس معهد من معاهد العلم العالية التى أنشئت على يده ٠

أما آراء الحكيم السياسية ، وكراهيته للاستبداد ، ونزعته الحرة ، فلم يكن مثل اسماعيل يخشاها أو يحسب لها حسابا كبيرا ، لأنه فى ذلك الحين ( سنة ١٨٧١ ) كان قد بلغ أوج سلطته ، فكان يحكم البلاد حكما مطلقا ، يأمر وينهى ، ويتصرف فى أقدار البلاد ومصاير أهلها ، دون رقيب أو حسيب ، وكان مجلس شورى النواب آلة مطواعة فى يده ، والصحافة فى بدء عهدها تكيل له عبارات المديح ، وتصوغ له عقود الثناء ، ولم يكن سلطانه قد استهدف بعد للتدخل الأجنبى ، لأن هذا التدخل لم يقع الا فى سنة ١٨٧٥ ، فليس ثمة ما يخشى منه اسماعيل ، على سلطته المطلقة ، من الناحية الداخلية أو الخارجية ، حين رغب الى حكيم الشرق الاقامة والتدريس فى مصر ، وقد بدأت النهضة التى ظهرت على يد السيد ، علمية ، وأدبية ، ولم تتطور الى الناحية السياسية الا حوالى سنة ١٨٧٦ ٠

وثمة اعتبار آخر ، لا يفوتنا الالماع اليه ، ذلك أن جمال الدين قد بارح الاستانة ، اذ لم يجد فيها جوا صالحا للنهضة العلمية والفكرية ، وقصد الى مصر وقد سبقته اليها أنباؤه وما لقيه فى « دار الخلافة » من العنت والاضطهاد ، وكان اسماعيل ينافس

حكومة الاستانة فى المكانة والنفوذ السياسى ، وينظر اليها بعين الزراية ، ولايرضى لمصر أن تكون تابعة لتركيا ، ولا أن يكون هو تابعا للسلطان العثمانى ، وليس خافيا ما كان يبذله من المساعى للانفصال عن تركيا فى ذلك الحين ، وظهوره بمظهر العاهل المستقل ، فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ، وفى اغفاله دعوة السلطان الى حضور حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، وعزمه على اعلان استقلال مصر التام فى تلك الحفلات ، لولا العقبات السياسية التى اعترضته ، ولا يعزب عن الذهن ما كان بين الخديو والسلطان من مظاهر الفتور والجفاء التى كادت تقطع الرو بينهما ، وأخصها فرمان نوفمبر سنة ١٨٦٩ الذى أصدره السلطان منتقصا سلطة الخديو ٠

ففى هذا الجو هبط جمال الدين مصر مبعدا من الاستانة ، فلم يفت اسماعيل أن يغتنم الفرصة ليحمى العلم فى شخص الفيلسوف الأفغانى ، ولا يخفى ما لهذا العمل من حسن الأثر وجميل الأحدوثة، اذ يرى الناس فيه أن مصر تؤوى العلماء والحكماء ، حين تضيق عنهم « دار الخلافة » ٠ وأن عاهل مصر ، أحق من السلطان العثمانى بالثناء والتقدير ٠ لأنه يفسح للعلم رحابه ، ويوطىء له فى وادى النيل أكنافه ٠

وقد يكون لرياض باشا يد فى اكرام وفادة المترجم ، ولكن اذا علمنا أن وزراء اسماعيل لم يكونوا يصدرون الا عن رأيه وأمره ، ادركنا أن رياض باشا لم يكن الرجل الذى ينفرد بهذا الصنيع ، نحو المترجم ، ومهما يكن من واقع الأمر فان لرياض فضل المشاركة فى عمل كان له الأثر البالغ فى نهضة مصر العلمية والفكرية والسياسية ٠

## أثره العلمى والأدبى فى مصر

أقام جمال الدين فى مصر ، وأخذ يبث تعاليمه فى نفوس تلاميذه ، فظهرت على يده بيئة استضاءت بأنوار العلم والعرفان،

وارتوت من ينابيع الأدب والحكمة ، وتحررت عقولها من قيود الجمود والأوهام ، وبفضله خطا فن الكتابة والخطـابة فى مصر خطوات واسعة ، ولم تقتصر حلقات دروسه ومجالسه على طلبة العلم ، بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان وغيرهم ، وهو فى كل أحاديثه « لا يسأم ، كما يقول عنه تلميذه الأكبر الأستاذ الامام الشيخ محمده عبده من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس الى معالى الأمور أو يستلفت الفكر الى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصـــلحة البـلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينـــالونه الى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر وتنبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصا فى القاهرة » ٠

وقال الأستاذ الامام فى موطن آخر يصف تطور الكتابة على يد المترجم « كان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الاجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد، على ضعف فيه ، ومصطفى باشا وهبى ، على اختصاص فيه ، ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، واما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية ، وما شاكلها ، ومن عشر سنوات ترى كتبة فى القطر المصرى ، لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم، وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصناعة ، ومامنهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه ، أو قلد المتصلين به » ٠ انتهى كلام الامام ٠

فروح جمال الدين كان لها الأثر البالغ فى نهضة العلوم والآداب فى مصر ، ولا يفوتنا القول بأن البيئة التى نهض بها كانت مستعدة للرقى ، صالحة لغرس بذور هذه النهضـــة ، وظهور ثمارها ، أو بعبارة أخرى ، ان مصر بمافيها من الأزهر ، والمعاهد العلمية الحديثة ، والتقدم العلمى ، كانت على استعداد لتقبل دعوة الحكيم

الأفغانى ، ولولا هذا الاستعداد ، لقضى على هذه الدعوة فى مهدها، ولأخفق هو فى مصر كما أخفق فى الاستانة ؛ حيث وجد أبواب العمل موصدة أمامه ، وهذا يبين لنا جانبا من مكانة مصر ، وسبقها الأقطار الشرقية فى التقدم العلمى والفكرى ، والسياسى ، ويزيد هذه الحقيقة وضوحا ، أنك اذا استعرضت حياة جمـــال الدين العامة وما تركه من الأثر فى مختلف الأقطار الشرقية التى بث فيها دعوته ، وجدت أثره فى مصر أقوى وأعظم منه فى أى بلد من البلدان الأخرى ، وفى هذا ما يدلك على مبلغ استعداد مصر للنهضة والتقدم ، اذا تهيأت لها أسباب العمل ، ووجدت القــادة الحكماء ٠

## أثره الأخلاقى والسياسى

جاء المترجم مصر يحمل بين جنبيه عبقرية وروحا كبيرة ، ونفسا قوية ، تزينها صفات وأخلاق عالية ، أنبتتهـــا الوراثة والتربية الأولى ، وهذبتها الحكمة والمعرفة ومحصتها الحياة الحربية التى خاض غمارها فى بلاد الأفغان ، والتجارب التى مارسها ، والشدائد التى عاناها ، جاء وفيه من الشمم والاباء ما صـــدفه عن أن يطاطىء الرأس ويقيم على الضيم ، وفيه من الثبات ومضاء العزيمة ما جعله يتغلب على العقبات التى اعترضته فى ادوار حياته ، فقد رأيت كيف بقى على ولائه للأمير محمد أعظم ، رغم ما أصابه من الهزيمة ولم يخضع لخصمه ( شير على ) ، ورحل الى الهند ، فلم تطق السياسة الاستعمارية بقاءه فيها وأقصته عنها ، وذهب الى الاستانة ، فلم يعرف الملق والدهان ، وجهر بالحق ، واستهدف لعداوة شيخ الاسلام ، فلم يتراجع ولم ينكص على عقبيه ، وانتهى الخلاف باقصائه عن الاستانة ٠

فهذه الأخلاق التى جاء بها جمال الدين الى مصر كانت بلا مراء أقوى مما عرف عن المجتمع المصرى ، فى ذلك العهد ، من خفض

الجناح ، والصبر على الضيم ، وليس يخفى ما للشخصيات الكبيرة من سلطان أدبى على النفوس ، وما تؤثر فيها من طريق القدوة ، فالسيد جمال الدين بما اتصف به من الأخلاق العالية ، أخذ يبث فى النفوس روح العزة والشهامة ، ويحارب روح الذلة والاستكانة، فكان بنفسيته ودروسه وأحاديثه ، ومناهجه فى الحياة ، مدرسة أخلاقية ، رفعت من مستوى النفوس فى مصر ، وكانت على الزمن من العوامل الفعالة للتحول الذى بدا على الأمة ، وانتقالها من حالة الخضوع والاستكانة الى التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم فى عهد اسماعيل ومساوئه · والسخط على تدخل الدول الأجنبية فى شئون البلاد ·

## الحالة السياسية والمالية فى مصر
## كما شهدها جمال الدين الأفغانى

قضى جمال الدين الأفغانى فى مصر ثمانى سنوات وبضعة اشهر من عام ١٨٧١ الى ان نفى منها سنة ١٨٧٩ وقد شهدت هذه الفترة أحداثا كبيرة فى تاريخ مصر وكانت مرحلة هامة من مراحل كفاح جمال الدين · ويقع معظمها فى عهد الخديو اسماعيل · وقد نفى جمال الدين فى أوائل عهد توفيق ·

كان اسماعيل يحكم البلاد حكما مطلقا ، يتولاه بنفسه · وظلت كل صغيرة وكبيرة من شئون الحكومة رهن اشارته بحيث كان يحق له أن يحاكى لويس الرابع عشر ملك فرنسا فى قوله « انما الدولة أنا » الى أن حدث التدخل الأجنبى بواسطة (صندوق الدين) سنة ١٨٧٦ ثم الرقابة الثنائية البريطانية والفرنسية · ثم الوزارة المختلطة . ففلت سلطته بما كسبه الأجانب من التدخل فى شئون الحكومة المالية والسياسية . ولم يكن الوزراء ( أو النظار كما كان اسمهم) سوى موظفين لدى الخـــــديو · يعينهم لادارة النظارات المعروفة فى ذلك العصر · وكانت تسمى ( دواوين ) ·

ولم يكن للنظار من السلطة الا ما يتلقونه عن الخديو · وتضاءلت سلطتهم حتى أمام ( المفتشين العموميين ) وهما مفتش الوجه البحرى · ومفتش الوجه القبلى اللذين استحوذا على السلطة الادارية والمالية فى الحكومة بأمر الخديو · وليس معروفا على وجه التحقيق ما هى الحكمة فى ايجاد هذا النظام الذى يجعل سلطة المفتشين مساوية لسلطة النظار · وبجعلهم أعظم شأنا من هؤلاء · ويظهر أن السبب فى ذلك هو رغبة اسماعيل فى أن تتعارض السلطتان حتى تكون كل منهما رقيبة على الأخرى فيطمئن على سلوك كلتيهما · وهى قاعدة مألوفة فى حكومات الاستبداد ·

كان الحكم اذن حكما استبداديا لا مجال فيه للحرية · حقا ان اسماعيل أنشأ سنة ١٨٦٦ مجلسا سمى ( مجلس شورى النواب ) ولكنه مجلس استشارى لا يملك سلطة قطعية فى أى أمر من الأمور · وقراراته كانت أشبه برغبات ترفع الى الخديو وله فيها القول الفصل · فلم يكن ممكنا أن مثل هذا المجلس يؤثر تأثيرا عمليا فى سياسة الحكومة ولا أن يضع حدا للحكم المطلق . وتدل الظروف والملابسات على أن اسماعيل حين أنشأه لم يعتزم التخلى عن سلطته المطلقة بل أراد أن يجعل منه هيئة استشارية تزيد من رونق الحكم وبهائه (١) ·

هذا من الوجهة السياسية · أما من الوجهة المالية فقد كانت أسوأ منها حالا · لقد كان أكبر آفات اسماعيل الاسراف والاقتراض من البيوت المالية والمرابين الأجانب من غير حساب أو نظر فى العواقب · حتى كبل البلاد حكومة وشعبا بالقروض الفاحشة ·

وفى الجدول الآتى بيان الديون التى اقترضها اسماعيل أو اقترضتها الحكومة فى عهده :

---

(١) عصر اسماعيل جـ ٢ ص ٩٦ ·

## قروض مصر فى عهد اسماعيل

| تاريخ القرض | قيمة القرض | |
|---|---|---|
| سنة ١٨٦٤ | ٥ر٧٠٤ر٢٠٠ | جنيه انجليزى |
| سنة ١٨٦٥ | ٣ر٣٨٧ر٣٠٠ | جنيه انجليزى |
| سنة ١٨٦٦ | ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ | جنيه انجليزى |
| سنة ١٨٦٧ | ٢ر٠٨٠ر٠٠٠ | جنيه انجليزى |
| سنة ١٨٦٨ | ١١ر٨٩٠ر٠٠٠ | جنيه انجليزى |
| سنة ١٨٧٠ | ٧ر١٤٢ر٨٦٠ | جنيه انجليزى |
| الديون السائرة | ٢٥ر٠٠٠ر٠٠٠ | جنيه انجليزى |
| سنة ١٨٧٨ | ٣٢ر٠٠٠ر٠٠٠ | جنيه انجليزى |
| سنة ١٨٧٨ | ٨ر٥٠٠ر٠٠٠ | جنيه انجليزى |

ويضاف الى ذلك المبالغ الآتية التى تلحق بالقروض وترد فى سياقها وهى :

| | | |
|---|---|---|
| المتحصل من المقابلة | ١٣ر٥٠٠ر٠٠٠ | جنية انجليزى |
| دين الرزنامة | ٣ر٣٣٧ر٠٠٠ | جنيه انجليزى |
| ثمن أسهم مصر فى قناة السويس | ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ | جنيه انجليزى |
| ما أخذ من الأوقاف الخيرية وبيت المال | ٥٣٧ر٠٠٠ | جنيه انجليزى |
| مطلوبات من الحكومة لم تدخل فى تسوية الدين العام سنة ١٨٧٦ | ٦ر٢٧٦ر٠٠٠ | جنيه انجليزى |
| المجموع | ١٢٦ر٣٥٤ر٣٦٠ | جنيه انجليزى |

## نظرة عامة فى هذه القروض

كان على البلاد من الدين العام عند وفاة سعيد باشا نحو أحد عشر مليون جنيه • وهو فى الواقع مبلغ جسيم اذا قورن بميزانية مصر فى ذلك العصر •

وقد ندد اسماعيل حينما تبوأ عرش مصر سنة ١٨٦٣ باسراف سلفه سعيد ، واعتزم أن يسير طبقا لقواعد الاقتصاد والتدبير(١)، ونوه بذلك في خطبة ألقاها بحضور وكلاء الدول ، وضح فيها برنامجه الذى اعتزم اتباعه فى الحكم ، فهى بمثابة (خطبة العرش) تفيض بالآمال الكبار والأماني الحسان .

قال فيها « ان أساس الادارة هو النظام والاقتصاد فى المالية، وسأبذل كل جهدى فى اتباع قواعد النظام والاقتصاد ، وقد عزمت أن أرتب لنفسى مخصصات محدودة لا أتجاوزها أبدا ، وسأعمل على ابطال السخرة التى اعتمدت عليها الحكومة فى أعمالها وآمل أن تؤدى حرية التجارة الى نشر الرفاهية والرخاء بين جميع طبقات الشعب وسأعنى كل العناية بتوطيد دعائم العدالة » .

تلك عهود الخديو اسماعيل فى خطبة العرش وأولها اتباع قواعد النظام والاقتصاد .

ولكن لم تكد تمضى عدة أشهر على هذه الدعوة حتى أخذ ينقضها ، ففتح باب القروض متلاحقة بعضها اثر بعض ، واتخذها عادة تكاد تكون سنوية .

ولم تكن حالة البلاد المالية تستدعى الاقتراض ، لأن مصر تعد من أغنى بلاد العالم ، وكانت تستطيع اذا هى وجدت ادارة حكيمة أن تسلك سبيل التقدم والعمران دون أن تحتاج الى القروض ، وعلاوة على ذلك فان ما نشأ عن الحرب الأمريكية الأهلية من ارتفاع أسعار القطن فى أوائل حكم اسماعيل ، قد جعل البلاد فى حالة يسر ورخاء .

واشتملت ميزانية سنة ١٨٦٤ على زيادة فى الدخل على الخرج ، فلم يكن ثمة حاجة الى قرض جديد كما يقول مؤلف ( تاريخ مصر المالى ) الذى عاش فى ذلك العصر وألف فيه كتابه القيم (١) .

---

(١) تاريخ مصر المالى من عهد سعيد الى سنة ١٨٧٦ لبابونو "Paronot" ص ١٨ ، ١٩ .

ولكن اسماعيل اقترض أول قروضه سنة ١٨٦٤ ، وتذرع لتسويغه بحاجة الحكومة الى المال لمقاومة الطاعون البقرى الذى انتاب البلاد فى ذلك العهد ، ولسداد أقساط ديون سعيد باشا ، ويقول مؤلف ( تاريخ مصر المالى ) ان مقاومة الطاعون البقرى كانت حجة واهية ، لأن الفلاحين والملاك هم الذين احتملوا وحـــدهم الخسائر الناشئة عن هذا الطاعون ، ولم يرد بميزانية سنة ١٨٦٤ مما أنفقته الحكومة فى هذا الصدد سوى ١٢٥٫٠٠٠ جنيه ، ولذلك أبدى دهشته من أن الحكومة تلجأ الى الاقتراض على ما فى ميزانية سنة ١٨٦٤ من زيادة الدخل على الخرج .

وقال ان السبب الحقيقى لقرض سنة ١٨٦٤ ان اسماعيل لم يحقق وعود الاقتصاد التى قطعها على نفسه ، بل سار سيرة بذخ وهوى واسراف ، واستكثر من شراء الأطيان والأملاك لنفسه ، والانفاق عليها ، فهذه الأسباب هى التى جعلته يعقد القرض الأول ، وما كان سداد ديون سعيد ، ولا الانفاق على مقـــاومة الطاعون البقرى ، الا ذريعة شكلية لذر الرماد فى العيون .

هذا ما يقوله مؤلف تاريخ مصر المالى ، وهو كاتب مشهود له بتحرى الحقائق والاعتدال فى الرأى ، وليس فى كلامه مبالغة . لأن المعروف عن اسماعيل أنه كان بطبعه ميالا الى الاستكثار من المال والعقار ، وظهرت عليه هذه الميول ، منذ ولايته الحكم ، فقد كان نظار أملاكه ومفتشـــوها يفتنون فى حمل الفلاحين على بيع أطيانهم أو التنازل عنها للخديو ، حتى صار مالكا لخمس أطيان القطر المصرى .

كتبت مدام (أولمب ادوار) Mme Olympe Edward فى كتابها عن مصر تقول عن الخديو اسماعيل : انه لم يكن يهتم الا بجمع الملايين ، وكان يقتنى الأطيان فى كل ناحية قدر ما يستطاع ، ويلجأ الى السخرة لزرعها واستصلاحها ، ويعقد القرض تلو القرض لآجال

طويلة ، تاركا لمن يخلفه فى الحكم أن يسدد ديونه ، حتى كأنه يقصد أن يعقد مهمة الحكم لمن يأتى من بعده(١) ٠

كتب هذا الكلام فى ديسمبر سنة ١٨٦٤ ، ولم يكن مضى عامان على اعتلاء اسماعيل العرش ، فهذا الوصف يعطيك صورة عن ميوله الأولى ، فهو قد بدأ يستدين فى الوقت الذى لم تكن البلاد فى حاجة ما الى الاستدانة ، واستدان ليقتنى الأطيـــان والعقار ٠

لم ينفق اسماعيل شيئا يذكر من قرض سنة ١٨٦٤ على مرافق البلاد العامة بل أنفق معظمه على توسيع دائرة أطيانه وأملاكه ، واشترى فى ذلك الحين قصر ( ميركون ) على ضفاف البوسفور ، ليتخذه مقرا له عندما ينزل الاستانة ، ولم يكن لولاة مصر قصور خاصة بهذه المدينة ينزلون بها من قبل ، ولكن اسماعيل رأى من استكمال مظاهر البذخ أن يكون له قصر فخم لا يقل بهاء ورواء عن قصور السلاطين ، فابتاع ذلك القصر وأنفق المبالغ الطائلة فى توسيعه وزخرفته ٠

وفى ذلك العهد بدأ ينشىء القصور الفخمة فى مصر ، فشرع فى اقامة سراي الجيزة المشهورة ، وتعددت المبانى حولها ، ومدت الطرق الجميلة بين الجيزة والجزيرة ، وأنفقت الأموال جزافا فى سبيل انشائها ٠

فهذه النفقات الباهظة جعلت اسماعيل يفكر فى قرض آخر سنة ١٨٦٥ ولما تمض ثمانية أشهر على القرض الأول ٠

وقد جد سبب آخر دعا اسماعيل الى عقد القرض الثانى ، وهو الأزمة المالية التى عقبت هبوط أسعار القطن ، ذلك أن انتهاء الحرب الأمريكية الأهلية فى أوائل سنة ١٨٦٥ فتح الأسواق أمام القطن الأمريكى ، فتراجعت أسعار القطن المصرى الى مستواها القديم ،

---

(١) كشف الستار عن اسرار مصر لمدام اولمب ادوار Mme Olympe Edward ص ٤٩ ٠

وقد حل الضيق بالأهالى من الفلاحين والملاك ، لأنهم اعتادوا أثناء ارتفاع أسعار القطن أن ينفقوا عن سعة ويستدينوا المال بفوائد فاحشة من المرابين على أمل سداده من ثمن القطن فى الموسم المقبل ( كما حدث سنة ١٩١٩ ، والتاريخ يعيد نفسه ) ، فلما هبطت أسعار القطن وقعوا فى أزمة شديدة عرفت بأزمة سنة ١٨٦٥ ، ولم يدروا كيف يوفون ديونهم ، فاعتزم اسماعيل أن تتدخل الحكومة فى هذه الأزمة ، فحصرت ديون الأهلين وسددتها عنهم للدائنين والمرابين على أن ترجع بها على المدينين مقسطة على سبع سنوات بفائدة ٧ ٪ ، وخصص لهذه العملية ١ر٤٠٠ر٠٠٠ جنيه ٠

ولاشك فى أن اسماعيل لو اتبع التدبير والاقتصاد ، لما كانت الحكومة فى حاجة الى هذا القرض الجديد ، ولا الذى سبقه ، فضلا عن الديون السائرة التى لم يكن يعرف مقدارها ، وهى الديون التى كان الخديو يقترضها بسندات على الخزانة ٠

اقترض اسماعيل قرض سنة ١٨٦٥ من بنك الأنجلو ، وقدره ٣ر٣٨٧ر٣٠٠ جنيه ولم يقبض منه سوى ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه ، ورهن فى مقابلة ٣٦٥ر٠٠٠ فدان من أملاكه ، ويسمى هذا الدين قرض ( الدائرة السنية الأول ) ٠

واستدان قرضا جديدا من بنك أوبنهايم فى ٥ ينـــاير سنة ١٨٦٦ ، وقدره ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه ، ورهن فى مقابله ايرادات السكك الحديدية ٠

وقد جرت المفاوضات بشأن هذا القرض أثناء مفاوضات القرض السابق ، وهذا من أغرب ما سمع فى معرض التبذير وقصر النظر ، وكان قرض أوبنهايم هو الأسبق ، لكن المفاوضات بشأنه طالت ، فلم يطق اسماعيل صبرا ، واستدان من بنك الأنجلو القرض السابق ، ثم تمت المفاوضات الخاصة بقرض أوبنهايم ، فأتم صفقته أيضا ٠

واستدان اسماعيل فى تلك السنة أيضا دينين آخرين من الديون السائرة ، ولم يكن فى حاجة الى هذه القروض ، ولكنـــه

أنفقها على بناء قصوره ، ودفع منها ثمن أملاك أخيه مصطفى فاضل وعمه محمد عبد الحليم فقد كان ميالا الى الاستكثار من الأملاك بكل الوسائل كما أسلفنا ، وامتدت أطمـاعه الى تجريد الأميرين المذكورين من أملاكهمـــا بالقطر المصرى ، وكان يحقد عليهما لمنافستهما اياه على العرش ، واشتد عداؤه لهما لمقاومتهما اياه فى تغيير نظام التوارث ، وقد حصـــل اسماعيل على فرمان مايو سنة ١٨٦٦ الذى جعل وراثة العرش فى بكر أبنائه .

ومن قرض سنة ١٨٦٦ والديون السائر أدى الرشوة التى بذلها لسلطان تركيا ولحكام الاستانة للحصول على هذا الفرمان، وقد بلغت هذه الرشوة ثلاثة ملايين جنيه تقريبا ، ودفع ثمن أملاك الأميرين مصطفى فاضل ومحمد عبد الحليم .

فترى مما تقدم أن هذه القروض ضاعت فيما لا ينفع البلاد، لأن تغيير نظام توارث العرش كان مسألة شخصية لاسماعيل ، وكـــذلك شراء أمـــلاك أخيـــه وعمـــه ، فكأن اســـماعيل اقترض هذه الديون لكى تتسع أملاكه ، وتحقيقا لأطماع شخصية وارضاء لحزازات عائلية لا شأن للبلاد فيها .

واقترض سنة ١٨٦٧ قرضا جديدا قيمته ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه، ولم يعرف سبب ظاهر لهذا القرض ، واختلفت الآراء فى تعليله، ولكن التعليل الصحيح أن الخديو علاوة على القروض السابقة كان لا يفتأ يستدين ديونا سائرة من المرابين الأجانب المقيمين فى مصر، ولم يكن لهذه الديون حساب ظاهر ، ولا حد معلوم ، وكل ما عرف عنها أنها كانت ذات فوائد فاحشة جدا ، وكان العمل فى ذلك الحين قائما على قدم وساق لتجديد حديقة الأزبكية ، وبناء دار التمثيل، ومضمار لسباق الخيل ، وبناء قصور عابدين والقبة والزعفران والجيزة والقصر العالى وسراى مصطفى باشا فاضـــل برمل الاسكندرية ، فكل هذه المبانى كان ينفق عليها من الديون ، ثابتة كانت أو سائرة ، لأن ميزانية الحكومة ما كانت تسمح باقامتها .

وقد بلغت الديون السائرة الى ذلك الحين نحو عشرة ملايين جنيه ، وهو مبلغ باهظ يثقل كاهل الخزانة ، وفوائده تبتلع جزءا كبيرا من الايراد ، فتذرع الخديو الى عقد قرض سنة ١٨٦٧ برغبته في سداد فوائد هذه الديون ، وفى تحويل الديون السائرة جميعها الى دين ثابت ، على أن الديون وفوائدها بقيت كما كانت ، فلا هى سددت ولا فوائدها سددت ، ولا تم تحويلها .

واشترك الخديو فى المعرض العـــام الذى أقيم بباريس سنة ١٨٦٧ ، وظهر فيه بمظهر فخم يأخذ بالألباب ، فأنفق فى هذا السبيل وفى رحلته بباريس ملايين الجنيهات ، وكان غرضه من هذا الاسراف هو الظهور بمظهر العظمة واجتذاب ثقة البيوت المالية الأجنبية لتقرضه من جديد ، وضاع من قبل جانب من هذه الملايين فى الرشاوى والهدايا التى بذلها فى الاستانة ليحصل على لقب ( خديو ) ، وقد نال الفرمان الذى منحه هذا اللقب فى ٨ يونية سنة ١٨٦٧ .

فلهذه الأسباب خلت خزانة الحكومة من المال ، ولجأ الخديو الى الاستدانة من جديد .

واقترض فعلا سنة ١٨٦٨ قرضا جديدا قدره ١١٫٨٩٠٫٠٠٠ جنيه من بنك أوبنهايم ، وكان من شروط هذا القرض أن يكف الخديو عن الاستدانة مدة خمس سنوات .

أنفق اسماعيل من القرض نحو مليونى جنيه فى الاستانة على حفلات وولائم ورشاوى للسلطان ولرجال حكومته .

وأنفق جزءا منه فى اتمام بناء قصـــوره فى عابدين والقبة والعباسية والجيزة وسراى مصطفى باشا بالاسكندرية ، وتأثيثها بفاخر الأثاث والرياش ، من هذا القرض أيضا أنفق النفقات الباهظة على حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، وقد بلغت مليونا ونصف مليون جنيه تقريبا .

ولم تكد تنتهى حفلات القناة حتى اخذ معين الماء ينضب من الخزانة ، وكان اسماعيل مقيدا بما اشترطه فى القرض السابق ،

وهو عدم الاقتراض لمدة خمس سنوات ، فضلا عن أنه خرج من حفلات القناة وقد ألقى فى روع ضيوفه الأوروبيين أن خزائن مصر تفيض بالمال ، وفى الواقع ان مظاهر هذه الحفلات وما أنفق عليها من الملايين، لا تدع مجالا للشك فى ذلك ، فلم يجد من اللائق ولا من السائغ أن يمد يده الى البيوت المالية ويطلب قرضا جديدا !!

ولكنه كان فى حاجة الى المال فابتكر له وزيره اسماعيل صديق ( المفتش ) طريقة خطرة اتبعها فى صيف سنة ١٨٦٩ ، وهى أنه باع الى التجار الافرنج مقـــادير كبيرة من بذرة القطن ، تربى على خمسمائة ألف أردب ، قبض ثمنها نقدا ، ووعد بتسليمها بعد خمسة أشهر ، أى بعد جنى محصول القطن الجديد ٠

ولما انقضى الميعاد اتضح أن الحكومة باعت ما لديها من محصول القطن مرة ثانية . وقبضت ثمنه ، وقد سويت هذه الفضيحة بأن طلبت الحكومة من التجار أن يبيعوها بسعر ٧٨ قرشا ما اشتروه منها بسعر ٧١ قرشا ، واتفقوا على أن تدفع لهم القيمة افادات مالية تسرى عليها فوائد ١٢ ٪ سنويا أى أن ربحهم بلغ ١٠ ٪ سنويا ٠

وتكررت هذه العملية غير مرة فى سنوات عدة ، فقد كانت الحكومة تبيع للتجار الأجانب غلالا ليست فى حوزتها ولا ينتظر أن تحوزها ، وتتسلم الثمن فورا ، فاذا جاء موعد تسليم الغـلال اشترتها من ذات التاجر الذى باعته اياها ، ودفعت ثمنها أوراقا وسندات على الخزانة ، مع فوائد لا تقل عن ١٨ ٪ أو ٢٠ فى المائة، ولا تحتسب الفوائد على المبلغ الأصلى الذى أخذته من التاجر ، بل على المبلغ التالى المقدر ثمنا لغلاله ، وناهيك بما يصيب الحكومة من جراء هذه العمليات من الخسائر الفادحة ٠

واذ كان اسماعيل مقيدا بعدم الاقتراض طبقا لشروط سلفة سنة ١٨٦٨ ، ومن جهة أخرى فقد لفتت القروض وضخامتها أنظار الحكومة التركية ، فحاولت وضع حد لها ، وحظرت على الخديو بمقتضى فرمان سنة ١٨٦٩ أن يقترض الا باذنها ، ولكن اسماعيل

كان يريد الاقتراض بأية وسيلة ، فلم ير بدا من أن يعقد قرضا لحسابه الخاص .

فاستدان في ابريل سنة ١٨٧٠ من البنك الفرنساوى المصرى ٧ر١٤٢ر٨٦٠ جنيه بفائدة ٧٪ بضمان أطيانه الخاصة ، عدا الأطيان التى رهنها سابقا ، ولذلك سمى هذا القرض قرض الدائرة السنية الثانى ، وصدر بواقع ٦٧ فى المائة ، فكانت النتيجة أنه لم يدخل منه الى خزائن الخديو سوى ٥ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه ، ولكنه يسدد على القيمة الاسمية وهى ٧ر١٤٢ر٨٦٠ جنيها فى عشرين سنة ، وبلغ العبء الذى احتملته الدائرة السنية سنويا لأداء هذا الدين ٦٦٨ر٩٦٠ جنيها أى ١٣ فى المائة تقريبا من رأس المال المدفوع .

وبلغت الديون السائرة نحو خمسة وعشرين مليون جنيه .

أما فوائد هذه الديون السائرة ، فلم يكن لها حساب معلوم ، فالسيو جليون دنجلار Gellion Danglar, يقول فى رسائله (١) ان الدائرة الخاصة وهى دائرة الخديو اسماعيل كانت تقترض بفائدة ٢٠٪ و ٢٤٪ فى السنة ، وان الحالة المالية فى السنة التى كتب فيها رسائله ( عام ١٨٦٧ ) كانت سيئة لدرجة أن الموظفين لم تدفع لهم رواتبهم مدة ثمانية أشهر .

## الحالة المالية سنة ١٨٧٠

يتضح مما تقدم مبلغ مابهظ كاهل الخزانة العامة من القروض المتتابعة التى عقدها اسماعيل ، ومقدار الارتباك الذى وقعت فيه الحكومة وأوصلها الى حالة سيئة من فقدان التوازن .

على أن هذه الحالة ، لو عولجت بالحكمة وحسن التدبير ، لأمكن انقاذ البلاد من الكوارث المالية التى وقعت من بعد ، فلو وضع اسماعيل حدا لاسرافه وأهوائه ، لسار بالبلاد فى طريق

(١) رسائل عن مصر الحديثة ص ٦٦ .

مأمون ، وأمكنه مع الزمن اعادة التوازن الى مالية الحكومة ، ولكنه على العكس استمر فى خطته ، وتلت القروض قروض ، حتى فقدت البلاد استقلالها المالى .

ومما جعل اسماعيل يتمادى فى الاسراف والاستدانة أنه لم تكن فى البلاد هيئات نيابية تراقب تصرفات الحكومة ، وتحاسبها على الأموال التى تبددها ، أما مجلس شورى النواب فكان يكتفى بالبيانات الملفقة أو المبهمة التى يقدمها وزير المالية اسماعيل صديق فى كل انعقاد ، ولم يكن بالمجلس شعور بالمسئولية يدفع أعضاءه الى الاعتراض على سياسة الحكومة المالية ، وما جرته من الخراب على البلاد ، وكذلك لم يوجد من بين بطـــانة اسماعيل من كان يعترض اعتراضا جديا على تلك السياسة ، أو يبصر الخـــديو بعواقبها الوخيمة ، ولو وجدت حكومة مسئولة أمام هيئة نيابية صحيحة لما استمر الخديو وحاشيته على هذه السياسة المحزنة .

وفى سنة ١٨٧٠ نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا ، وهى الحرب المشهورة بالحرب السبعينية ، فاضطربت الأسواق فى أوروبا ، وقبضت البيوت المالية يدها عن الاقراض ، وكان الخديو فى حاجة الى المال ، فعمد وزير ماليته الى زيادة الضرائب ، ولكن هذا المعين لم يف بطلباته ، فابتدع طريقة تعد بمنزلة قرض اجبارى يجبى من الأهالى ، أو ضريبة جديدة تفرض على أطيانهم ، وصدر بها القانون المشهور بلائحة المقابلة فى ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧١ .

يقضى هذا القانون بأنه اذا دفع ملاك الأطيان الضرائب المربوطة على أطيانهم لمدة ست سنوات مقدما تعفى الحكومة أطيانهم على الدوام من نصف المربوط عليها ولكى يحصلوا على هذه الميزة يدفعون ضرائب السنوات الست دفعة واحدة أو على أقساط متتابعة ، لا تزيد مدتها عن ست سنوات ، علاوة على الضريبة السنوية ، وتحسب لهم فوائد عما يدفعونه مقدما بواقع ٨٪ .

وقد جعل هذا القانون دفع المقابلة اختياريا ، ولكن الحكومة لجأت فى تنفيذه الى التوريط بالنسبة للباشوات وكبار الأعيان ،

والى الضغط والاكراه والضرب بالكرباج بالنسبة لسائر الأهلين، ولولا الاكراه لما ارتضى الناس المخاطرة بأموالهم ، لأنهم يعلمون مبلغ عهود الحكومة ، وخاصة فى المسائل المالية ، فهم لم يدفعوا المقابلة الا مكرهين ، فكانت ضريبة جديدة أو سلفة اجبــــارية زادتهم ارهاقا وضنكا ٠

وقد استطاعت الحكومة أن تجبى من هذه الضريبة خمســـة ملايين من الجنيهات لغاية آخر سنة ١٨٧١ ، وبلغ مجموع ما جبته منها نيفا وثلاثة عشر مليون جنيه ونصفا لغاية سنة ١٨٧٧ ٠

وانتظر اسماعيل بفارغ الصبر انتهاء السنوات الخمس التى حظر فيها على نفســـــه عقد قروض جديدة تنفيذا لشروط سلفة سنة ١٨٦٨ ، وسعى جهده فى الأستانة وبذل فيها الأموال الطائلة من الرشاوى والهدايا ليلغى فرمان سنة ١٨٦٩ ويحصل على الفرمان الذى يبيح له الاقتراض من غير حاجة الى اذن الحكومة التركية ، فناله فى سنة ١٨٧٢ ٠

فلم تكد تنتهى هذه المدة ويشعر اسماعيل بفك اعتقاله من هذا القيد ٠ حتى عقد قرضا جديدا من بيت أوبنهايم المــــالى قدره ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وهو أكبر القروض من جهـــــة القيمة ، وأسوؤها من جهة الشروط ، وقد دعاه الماليون « القرض الكبير »، وهو حقيق بأن يسمى « القرض المشئوم » ٠

وكانت حجته فى هذا القرض أنه اعتزم سداد الديون السائرة، ولكنه فى الواقع لم يخصص شيئا منه لهذه الغاية ، وبقيت الديون السائرة كما كانت ٠

عقد هذا القرض بفائدة ٧ ٪ وقيمة سنداته ٨٤½ فى المائة ، وبلغ ما دخل الخزانة منه بعد استبعاد النفقات والخصم والسمسرة ٢٠٫٧٤٠٫٠٧٧ جنيه ، أى بنقص ٣٧ ٪ من قيمة الدين الاسمية ، فخسرت الحكومة من أصل القرض نيفا وأحد عشر مليون جنيه ، فى حين أنها التزمت بقسط سنوى لسداده يبلغ ٢٫٢٦٥٫٦٧١ جنيه ، ثم أنها لم تقبض المبلغ نقدا ، بل تســــــلمت منه فقط

أحد عشر مليون جنيه ، والباقى وقدره تسعة ملايين جعلت سندات للخزانة المصرية ·

ومن هذا يتبين أن قرضا ألقى على عاتق البلاد عبئا جسيما مقداره اثنان وثلاثون مليون جنيه ، بلغ صافى ما تسلمته الحكومة منه نقدا أحد عشر مليون جنيه فقط ، وليس فى تاريخ القروض، فى العالم قاطبة ، قرض يعقد بمثل هذه الشروط الجائرة ، بل هذه السرقة العلنية ، كما أنه لا يمكن أن توجد حكومة عندها قليل من الشعور بالمسئولية تقبل التعاقد على مثل هذه الشروط·

ومن تهكم الأقدار أن السنة التى عقد فيها اسماعيل هذا القرض المنحوس هى ذات السنة التى نال فيها فرمان سنة ١٨٧٣ الجامع الذى خوله أقصى ما حصل عليه من المزايا ، أو بعبارة أخرى ان اسماعيل قد بلغ أوج نفوذه الرسمى فى علاقته مع تركيا فى الوقت الذى أشرفت فيه البلاد على حالة من الافلاس أفقدتها استقلالها المالى ثم السياسى ·

واحتاج اسماعيل الى قرض آخر سنة ١٨٧٤ ، فابتدع له وزير ماليته اسماعيل صديق ( المفتش ) وسيلة جديدة يقترض بها من الأهالى دينا سمى ( دين الرزنامة ) ·

كانت مصلحة « الرزنامة » تودع فيها رءوس أموال للمستحقين مقابل دفع معاشات لهم ، فابتكر اسماعيل صديق فكرة جديدة ، وهى أن يستثمر الأهالى أموالهم فى مصلحة الرزنامة ، بأن يدعوا فيها المدخر من هذه الأموال على أن تستثمرها المصلحة فى مشروعات صناعية وتجارية ، وتصدر الرزنامة سندات ايراد دائم بمالا يزيد عن خمسة ملايين من الجنيهات ، على أن تكون المائة فيها مائة ، ويكون ثمن هذه السندات متراوحا بين جنيهين ونصف وخمسة جنيهات ، وتدفع المصلحة فوائد عنها بحساب ٩ ٪ ·

وقد أوجس الأهلون شرا من هذه الطريقة فى ابتزاز أموالهم، لأنهم عالمون بمصيرها ، لكن الحكومة لجأت الى الطريقة التى اتبعتها فى تحصيل المقابلة ، فبلغ ما ساهم فيه الأهالى من سندات

هذا القرض الاجبارى ٣٫٣٣٧٫٠٠٠ جنيه ، لم يدخل الخزانة منها سوى ١٫٨٧٨٫٠٠٠ جنيه ، ولم تدفع من فوائدها سوى جزء من فوائد السنة الأولى ٠

ولم تكف هذه القروض طلبات الخديو وبطانته ، بل استولوا أيضا على ما فى خزائن بيت المال والأوقاف الخيرية من الأموال المودعة على ذمة الخيرات أو لحساب القصر والأيتام ٠

وبلغ ما أخذ من هذا الباب ٥٣٧٫٠٠٠ جنيه ٠

واستمر اسماعيل صديق يستدين بواسطة المالية من المرابين الأجانب ، فازداد الدين السائر تضخما .

وثمة مطلوبات من الحكومة لتجار ومقاولين ودوائر ، أو رصيد حسابات جارية للبنوك ورواتب متأخرة للموظفين وأرباب المعاشات وقد بلغت هذه المطلوبات ٦٫٢٧٦٫٠٠٠ جنيه أضيفت الى الدين السائر ٠

## التدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية

لم يكن ممكنا أن يبقى استقلال البلاد سليما مع بلوغ القروض الحد الذى أوجزناه ، لأن هذه القروض هى أموال أجنبية ، دفعها ماليون ومرابون ينتمون الى دول أوروبية تطمح من قديم الزمن الى التدخل فى شئون مصر ، وهذه الملايين من الجنيهات المقترضة من شأنها أن تفقد البلاد استقلالها المالى ، كما يفقد الفرد استقلاله وكيانه الذاتى اذا ركبته الديون ، فيصبح أسير دائنيه ، والقروض التى استدانها الخديو صار لها من الفوائد ما يبتلع معظم ميزانية الحكومة ، وهذا وحده يعطيك فكرة عن فداحتها ، فلا عجب أن تكون النتيجة فتح أبواب التدخل الأجنبى فى شـــئون مصر على مصراعيه ، وقد بدأ هذا التدخل ماليا ، ولكنه كان يطوى فى ثناياه عوامل التدخل السياسى ، فكان تدخلا مزدوجا ٠

وقد أخذ هذا التدخل شكلا خطيرا لافتا للأنظار سنة ١٨٧٥، حين اشترت بريطانيا أسهم مصر فى قناة السويس ٠ وهى صفقة

خاسرة لأن شراء الحكومة البريطانية أسهم مصر فى القناة كان كارثة على مصر ، اذ كانت أول خطوة خطتها انجلترا نحو الاحتلال الذى وقع سنة ١٨٨٢ ٠

ولما ساءت حالة الخزانة ، ورأى اسماعيل أن البيوت المالية الأوروبية قد تزعزعت ثقتها فى كفاءة الحكومة المصرية ومقدرتها على الوفاء ، أراد أن يقدم لها برهانا على أن مصر مازالت رغم الديون الباهظة قادرة على السداد ، فابتكر وسيلة ظن أنها تصل به الى هذه الغاية ، وذلك أنه عرض سنة ١٨٧٥ على بريطانيا ايفاد موظف مالى كفء يدرس حالة الحكومة المالية ، ويعاون وزير المالية المصرية على اصلاح الخلل الذى يعترف به فى هذه الوزارة ٠

وكان تقدير اسماعيل أن هذه البعثة تحت تأثير ارشاده ونفوذه ، وما يحيطها به من الحفاوة والاكرام ، وما يلوح به أمامها من مظاهر البذخ والاسراف ، لا تلبث أن تقدم تقريرا بأن حالة الخزانة المصرية حسنة تسمح بالثقة بها ، فيرتكن على هذا التقرير، لكى يقنع البيوت المالية الأوروبية باقتراضه من جديد ، فالغاية كما ترى لم تكن متفقة مع مصلحة البلاد ، لأنه على فرض أن هذه البعثة تنساق الى ارشاداته ، فان اقتراضه من جديد لم يكن علاجا ناجعا لحالة البلاد المالية ، بل هو مضاعفة للداء الذى أصابها من القروض ٠

وقد اتجه اسماعيل صوب انجلترا فى طلب هذه البعثة ، لأن فرنسا كانت قد خرجت مضعضعة من الحرب السبعينية ، ومع أنها كانت قبلة أنظاره من قبل ، فان هزيمتها فى تلك الحرب جعلته يدير شراعه نحو بريطانيا ، فطلب اليها ايفاد تلك البعثة .

لبت الحكومة الانجليزية نداء اسماعيل ، لأنها وجدت فى طلبه فرصة جديدة للتدخل فى شئون مصر ، وأوفدت اليه بعثة مؤلفة من أربعة من موظفيها برياســـة المستر « استفن كيف » "Cave" أحد الماليين المعدودين من الانجليز ، ومن هنا جاءت تسميتهـــا « بعثة كيف » ٠

كانت هذه البعثة وما خولها اسماعيل من حق معاونة وزير المالية على اصلاح الخلل الذى أصاب وزارته ، مظهرا من مظاهر التدخل الأجنبى فى شئون مصر الداخلية ، وقد وقع هذا التدخل بعد أن أبرم اسماعيل بيع الأسهم المصرية فى القنـــاة ، فكانتا ضربتين قاصمتين ، أصابتا مصر فى استقلالها المالى وكيانها القومى .

جاءت البعثة الى مصر وفحصت حالة مصر الماليـــة وقدمت تقريرها . أشارت فيه الى سوء حالة المالية المصرية ، واقترحت كشرط ضرورى لاصلاحها أن تخضع للمشورة الأوروبية ، بأن تنشىء الحكومة مصلحة للرقابة على ماليتها برياسة شخص ذى ثقة أشارت تلميحا بأن يكون بريطانيا ، واشترطت أن يحترم الخديو قرارات هذه المصلحة ولا يعقد قرضا الا بموافقتها .

وسارت الضائقة المالية فى طريقها ، وأعوز الخزانة المصرية المال اللازم لأداء أقساط الديون ، وأخيرا عجزت عن الوفاء ، فأصدر الخديو مرسوما فى ٦ ابريل سنة ١٨٧٦ بتأجيل دفع السندات والأقساط المستحقة على الحكومة فى ابريل ومايو ثلاثة أشهر ، ولم يكن تحديد هذه الثلاثة الأشهر الا للمحافظة على الظواهر ، وكان الغرض هو التأجيل الى ما شاء الله ، وأعلن هذا المرسوم فى بورصة الاسكندرية يوم ٨ ابريل ، فكان هذا ايذانا بالتوقف عن الدفع ، أو بعبارة أخرى بالافلاس ، ولما ذاع هذا المرسوم سرى السخط والذعر الى الأسواق المالية الأوروبية ، واستهدف اسماعيل لمطاعن الماليين والمرابين الأجانب ، وانقلبوا يتهددون ويتوعدون ، بعد أن كانوا حتى الأمس يداهنون ويتملقون .

شعر الخديو بارتباك الحالة المالية ، وما تنطوى عليه من الأخطار ، وما يجر اليه سخط الماليين الأوروبيين من العواقب ، فأراد استرضاء الدائنين بوضع نظام يكفل لهم استيفاء ديونهم ، فطلب الى وكلاء الدائنين بمصر وضع النظام الذى يرتضونه ، فقدم وكلاء الماليين الفرنسيين مشروعا بانشاء ( صندوق الدين ) وتوحيد الديون .

واستجاب اسماعيل لمطالب وكلاء الدائنين الفرنسيين ، وأصدر مرسوما في ٢ مايو سنة ١٨٧٦ بانشاء ( صندوق الدين ) ومهمته أن يكون خزانة فرعية للخزانة العامة تتولى تسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية ، وخصص له ايراد مديريات الغربية، والمنوفية ، والبحيرة ، وأسيوط ، وعوايد الدخولية فى القاهرة والاسكندرية ، ايراد جمارك الاسكندرية والسويس وبورسعيد ورشيد ودمياط والعريش ، وايراد السكك الحديدية ، ورسوم الدخان ، وايراد المصلح ( ضريبة الملح ) ، ومصايد المطرية (دقهلية)، ورسوم الكبارى ، وعوايد الملاحة فى النيل ، وايراد كوبرى قصر النيل ، وايراد أطيان الدائرة السنية ، أى أنه خصص لسداد الديون معظم موارد الخزانة المصرية ٠

ولا نزاع فى أنه ، من جهة الحق والقانون ، لم يكن للدائنين الأجانب أن يطلبوا انشاء هيئة مالية رسمية داخل الحكومة بتلك السلطة ، ولكن فكرة الطمع والاستعمار ، وغلبة القوى على الضعيف ، هى التى أملت مشروع صندوق الدين لاستغلال موارد البلاد ، وفرض الوصاية الأوروبية على ماليتها ٠

وفى ٧ مايو سنة ١٨٧٦ ، أصدر الخديو مرسوما ثانيا بتحويل ديون الحكومة ودين الدائرة السنية والديون السائرة الى دين واحد ، سمى ( الدين الموحد ) قدره ٩١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى، بفائدة سبعة فى المائة ، يسدد فى ٦٥ سنة ، والغرض من هذا المرسوم توحيد الديون وتأمين الدائنين على استيفاء ديونهم ٠

ولكى يطمئن الدائنون على حسن ادارة وزارة المالية ، أصدر الخديو فى ١١ مايو سنة ١٨٧٦ مرسوما ثالثا بانشاء ( مجلس أعلى للمالية ) ، مؤلف من عشرة أعضاء ، خمسة أجانب ، وخمسة وطنيين ، ومن رئيس يعينه الخديو ، ويتألف هذا المجلس من ثلاثة أقسام ، القسم الأول يختص بمراقبة خزائن الحكومة ، والثانى بمراقبة الايرادات والمصروفات ( وهى غير المراقبة الثنائية التى سيرد الكلام عنها ) ، والثالث بتحقيق الحسابات ، ويبدى

المجلس ـ رأيه فى ميزانية الحكومة السنوية التى يضعها وزير المالية قبل نهاية كل سنة بثلاثة أشهر ، وعين أحد أعضاء مجلس الشيوخ الايطالى رئيسا لهذا المجلس !

## الرقابة الثنائية البريطانية الفرنسية على شئون مصر المالية

ان انشاء صندوق الدين ، وانشاء مجلس أعلى مختلط للمالية، وتوحيد الديون ، كل هذه الوسائل ، على ما فيها من افتيات على سلطة الحكومة ، لم تقنع الحكومة البريطانية ، ولم تر فيها الكفاية لضمان مصالح الدائنين ، فامتنعت عن تعيين مندوب عنهـــا فى صندوق الدين ، وجاهدت بأن من الواجب وضع تسوية أخرى لكفالة مصالح الدائنين •

والواقع ان هذا لم يكن غرضها الحقيقى ، بل كانت ترمى الى وضع نظام جديد يمكنها من التدخل الفعلى فى ادارة الحكومة المصرية ، ويجعل مصر أكثر خضوعا للدول الأجنبية فى سياستها وتصرفاتها الداخلية ، واتفقت مع فرنسا على خطة موحدة لاكراه اسماعيل على قبول الأوضاع التى يقترحانها ، وأهمها فرض الرقابة الأوروبية على المالية المصرية ، ووضع السكك الحديدية ، وميناء الاسكندرية تحت ادارة لجنة مختلطة •

وتدخل قنصلا انجلترا وفرنسا للضغط على الخديو واكراهه على الاذعان ، فتردد اسماعيل فى قبول هذه المطالب الجائرة ، وقامت فى البلاد حركة استياء شديدة من جورها ، ولكن الخديو خشى على مركزه أن تزعزعه مقاومة الدولتين البريطانية والفرنسية، فنزل أخيرا على ارادتهما ورضى بالرقابة الثنائية سنة ١٨٧٦ •

## الوزارة المختلطة

وأعقب فرض الرقابة الثنائية تأليف ( لجنة تحقيق عليا ) أوروبية سنة ١٨٧٨ لفحص شئون الحكومة المالية • ثم تعيين

وزارة مختلطة فى نفس السنة برياسة نوبار وفيهـــا وزيران أوروبيان أحدهما بريطانى وهو ريفرس ويلسن "Rivvers Wilson" وقد تولى وزارة المالية . والثانى فرنسى وهو دى بلينيير De Blignières وقد تولى وزارة الأشغال . فكان تعيين هذه الوزارة اهانة للبلاد وصدمة لشعور الأهلين الذين سموها الوزارة الأوروبية .

## النهضة الوطنية والسياسية

فهذا التدخل الأجنبى فى شئون البلاد المالية والسياســية والعدوان على استقلالها وكرامتها كان من الأسباب الجوهرية التى حفزت النفوس الى التبرم بنظام الحكم ، والتخلص من مساوئه ، لأن سياسة الحكومة هى التى أفضت الى هذا العدوان الصارخ .

ومن هنا جاءت النهضة الوطنية والسياسية فى مصر ، ووجدت مبادىء جمال الدين الأفغانى وتعاليمه سبيلا الى النفوس ، فكانت من العوامل الهامة فى ظهور هذه النهضة التى شغلت السنوات الأخيرة من عهد اسماعيل وكانت من أدوار الحركة القومية .

كان من مظاهر هذه النهضة نشاط الصـــحف السياسية ، واقبال الناس عليها ، فمن الصحف التى كان لجمال الدين يد فى انشائها أو تحريرها جريدة ( مصر ) التى ظهرت سنة ١٨٧٧ ، وهى جريدة أسبوعية لمحررها أديب اسحق ومديرها سليم نقاش وقد أنشأ الاثنان أيضا سنة ١٨٧٨ صحيفة يومية بالاسكندرية باسم جريدة ( التجارة ) وسياسة الصحيفتين وطنية حماســية تجلت فيها تعاليم جمال الدين وروحه وكانت له فى الصحيفتين بعض المقالات يكتبها أو يمليها على تلاميذه وكانت صحيفة (مصر) تنشر له بعض المقالات تارة باسمه ومرة باسم ( المزهر بن وضاح ) .

وجريدة ( مرآة الشرق ) وقد تولاها سليم عنحورى ثم ابراهيم اللقانى بايعاز من جمال الدين .

وجريدة ( أبو نضارة ) ليعقوب صنوع الذى كان على صلة به .

وكان لهذه الصحف وغيرها فضل كبير فى انارة البصائر

والأفكار وتوجيه الأنظار الى العناية بشئون البلاد عامة وتبرم المواطنين بحالتها السياسية والمالية . فكانت من عوامل النهضة السياسية والأدبية فى البلاد .

ومن مآثر جمال الدين الأفغانى ظهور روح اليقظة والمعارضة في مجلس شورى النواب على يد نواب نفخ فيهم من روحه وعلى رأسهم النائب عبد السلام المويلحى الذى يعد من تلاميذه الأفذاذ. وانك لتلمس الصلة الروحية بينهما ، من الكلمات والعبارات الرائعة التى كان المويلحى يجهر بها فى جلسات مجلس شورى النواب ، فان هذه العبارات هى قبس من روح الحكيم الأفغانى .

وقد جاء ذكر النائب المويلحى ضمن تلاميذ جمـــال الدين ومريديه على لسان سليم العنحورى الأديب السورى حين زار مصر ووصف مكانة جمال الدين بقوله :

« وفى خلال سنة ١٨٧٨ زاد مركزه خطرا وسما مقامه ، لأنه تداخل فى السياسات وتولى رئاسة جمعية ( الماسون ) العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية ، مثـــل محمود باشا سامى البارودى الذى نفى أخيرا مع عرابى الى جزيرة سيلان ، وعبد السلام بك المويلحى النائب المصرى فى دار الندوة، وأخيه ابراهيم ( المويلحى ) كاتب الضابطة ، وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره ، ويعلون بين الناس مناره ، من أرباب الأقلام ، مثل الشيخ محمد عبده ، وابراهيم اللقـــانى ، وعلى بك مظهر ، والشاعر الزرقانى ، وأبى الوفاء القونى فى مصر ( القاهرة ) ، وسليم النقاش ، وأديب اسحق ، وعبد الله نديم فى الاسكندرية».

* * *

دخلت الحياة النيابية منذ سنة ١٨٧٦ دورا جديدا امتـــاز بظهور روح النهضة والمعارضة فى نفوس أعضاء مجلس شورى النواب وبدت هذه الروح فى مناقشاتهم وأعمـــالهم ومواقفهم . وأخذت مظاهر الحياة والنشاط ترتسم فى أفق المجلس بعد أن كان يخيم عليه الخمول والجمود فى الأدوار السابقة .

فلما اجتمع المجلس فى نوفمبر سنة ١٨٧٦ كان جوابه على خطبة العرش مكتوبا بأسلوب جديد وروح جديدة تختلفان عن عبارات التملق البالغ التى كانت ترد فى الأجوبة الســـــابقة ٠ وتضاءلت فيه أساليب العبودية للخديو ٠ مما دل على تطور روح المجلس واستشعار النواب بكرامتهم وحقوقهم ٠ ويمتاز الجواب أيضا بايجاز عباراته وارتقاء أسلوبه بالنسبة لأسلوب الأجوبة السابقة ٠ وهذا ينبىء بتطور الأفكار وتقدم لغة الكتابة والانشاء ٠

وبرز فى ميدان النقاش أعضاء اكفاء برهنوا على حصافة فى الرأى وقدرة فى المنطق ٠ وسداد فى المقصد ٠ نذكر منهم على سبيل المثال ( لا على سبيل الحصر ) : محمود العطار ٠ وعبد السلام المويلحى ٠ ومحمد راضى ٠ وعثمان الهرميل ٠ ومحمود سالم ٠ وبدينى الشريعى ٠ وابراهيم الجيار ٠ وغيرهم ٠

وقد أصدرت الحكومة مرسوما فى يناير سنة ١٨٧٩ قضى بأن القوانين المتعلقة بالشئون المالية تصدر بعد تقريرها فى مجلس الوزراء والتصديق عليها من الخديو ٠ وأغفل مجلس شورى النواب٠ ففى جلسة تالية لصدور هذا المرسوم اعترض النائبان محمود العطار وعبد السلام المويلحى على اغفال المجلس . ومطالبا بعرض القوانين المالية عليه ووجوب اقراره لها ٠ ووافق النواب على هذا الاعتراض ٠ فحدثت أزمة بين المجلس والحكومة ٠ وازداد نفور الأمة من وزارة ( نوبار ) واتسعت حركة المعارضة ضدها داخل المجلس وخارجه ٠

وعطلت الوزارة جريدة ( التجارة ) لأديب اسحق وجريدة ( الوطن ) لميخائيل عبد السيد خمسة عشر يوما لاثارتهما الخواطر فى كتاباتهما ٠

## ثورة ضباط الجيش ـ ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩

وفى خلال مدة التعطيل وقعت ثورة ضباط الجيش على وزارة نوبار ( ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ ) ٠ وكانت هذه الثورة صـــدى لشعور المواطنين ضد هـــذه الوزارة ٠ فقد أسرفت فى ممالأة

الدائنين الأجانب وعينت كثيرا من الأوروبيين فى المناصب الهامة للحكومة · وأهدرت حقوق الموظفين الوطنيين وعزلت طائفة منهم· وأحالت الى الاستيداع ٢٥٠٠ من ضباط الجيش بحجة الحاجة الى ضغط المصروفات ·

فثار الضباط واحتشدوا يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ واتجهوا الى وزارة المالية · واتصلوا بطائفة من أعضاء مجلس شورى النواب ليشاركوهم فى مظاهرتهم · واكتفى بعضهم بالسير فى موكب المظاهرة · راكبين حميرهم · فكان هذا العمل اشتراكا من هيئة المجلس فى المظاهرة · واعتدى الثائرون على ( نوبار ) بالضرب· وطرحوه أرضا · كما اعتدوا على ( ريفرس ويلسن ) وزير المالية· واقتحموا وزارة المالية · وحبسوا باحدى غرفها نوبار وريفرس ويلسن ورياض · وصار الموظفون الأجانب الذين بالوزارة تحت رحمة الثوار ·

زلزلت هذه الثورة مركز وزارة نوبار · فاستقالت في اليوم التالى · وتألفت وزارة جديدة برئاسة توفيق بن اسماعيل وفيها الوزيران الأوروبيان ريفرس ويلسن ودى بلينيير · وخولا حق ( الفيتو ) أي وقف أى قرار لمجلس الوزراء لايرضيان به · فاستمرت الخواطر ثائرة ·

وسلكت وزارة توفيق ازاء مجلس شورى النواب مسلك العنت والارهاق فاستصدرت من اسماعيل مرسوما بانفضاضه بحجة انتهاء مدته · ولم تكن قد انتهت · فرفض المجلس الاذعان لهذا القرار وكتب النواب عريضة بذلك الى الخديو اسماعيل ·

## الجمعية الوطنية ـ ابريل سنة ١٨٧٩

ولم يكتفوا بذلك بل تشاوروا فيما يجب عمله تجاه هذه الأزمة · وأشركوا معهم فى التشاور العلماء وأصحاب الرأى والأعيان والتجار · واجتمعوا جميعا بدار السيد على البكرى نقيب الأشراف · ثم فى منزل اسماعيل راغب وزير المالية السابق

ورئيس مجلس شورى النواب فى أول انشائه ۰ وعقدوا بداره ( جمعية وطنية ) واتفقوا على وضع بيان بما استقر عليه رأيهم ۰ ويتضمن مشروع تسوية مالية يعارضون به المشروع الذى وضعه ريفرس ويلسن وزير المالية والذى كان أساسه جعل مصر فى حالة عجز عن سداد ديونها ۰ أى فى حالة افلاس ۰ وجعلوا أساس مشروعهم اعتبار ايرادات الحكومة كافية للوفاء بمصروفاتها بما فيها أقساط الديون ۰ وذلك بكفالتهم ۰ وتأليف وزارة وطنية ۰ وتعديل نظام مجلس شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها للمجالس النيابية فى أوروبا وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمامه ۰

وقد وقع على بيان الجمعية الوطنية ستون من أعضاء مجلس شورى النواب ۰ وستون من العلماء والهيئات الدينية ۰ وفى مقدمتهم شيخ الاسلام ۰ وبطريرك الأقباط ۰ وحاخام الاسرائيليين ۰ و ٤٢ من الأعيان ۰ و ٧٢ من الموظفين العاملين والمتقاعدين ۰ و ٩٣ من ضباط الجيش ۰

وقدم وفد من الأحرار ( اللائحة الوطنية ) كما سموها الى الخديو اسماعيل ۰ فلم ير بدا من الاستجابة لمطالبهم ۰ وعهد الى محمد شريف تأليف الوزارة الجديدة ۰ فألفها خالية من الوزيرين الأجنبيين ۰ وبدا من خطاب اسماعيل الى شريف أنه يقر اللائحة الوطنية ۰ وقرر فيه مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب ۰ وبذلك اكتملت سلطة هذا المجلس بتقرير هذا المبدأ الذى هو حجر الزاوية فى النظام الدستورى ۰

ولكن الدول الأوروبية وقفت للوزارة الوطنية بالمرصاد وسعت جهدها فى خلع اسماعيل ۰ ووافقتها حكومة الاستانة على مؤامرتها ۰ وأعلنت خلعه فى ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ ۰

وتولى توفيق مسند الخديوية ۰ وكان أبرز عمل له أن أقصى شريف عن الوزارة وعطل الحياة النيابية زهاء سنتين حتى قامت الثورة العرابية ۰

# الفصل الثالث

## جمال الدين والثورة العرابية

لم يكن جمال الدين الأفغانى مناصرا لاسماعيل ، بل كان ينقم منه استبداده واسرافه ، وتمكينه الدول الاستعمارية من مرافق البلاد وحقوقها ، وكان يتوسم الخير فى توفيق ، اذ رآه وهو ولى للعهد ميالا الى الشورى ، ينتقد سياسة أبيه واسرافه ، وقد اجتمعا فى محفل الماسونية ، وتعاهدا على اقامة دعائم الشورى . وقال مرة لجمال الدين على مسمع من الحاضرين « انك أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد » .

ولكن توفيق لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم فى يونية سنة ١٨٧٩ ، فقد بدا عليه الانحراف عن الشورى ، واستمع لوشايات رسل الاستعمار الأوروبى ، وفى مقدمتهم قنصل انجلترا العام فى مصر ، اذ كانوا ينقمون من السيد روح الثورة والدعوة الى الحرية والدستور ، فغيروا عليه قلب الخديو ، وأوعزوا اليه اخراجه من القطر المصرى ، وكان توفيق من الضعف والهوان بحيث لا يخالف أمر رسل الاستعمار الأوروبى .

### جمال الدين والخديو توفيق

ذكر الأمير شكيب أرسلان فى ترجمته للسيد جمال الدين ان أول أثر ظهر لجمال الدين فى ميدان السياسة هو الحركة التى هبت فى أواخر أيام الخديو اسماعيل باشا وآلت الى خلعه من

الخديوية • وكان للسيد اليد الطولى فيها • ولما جلس توفيق باشا على كرسى مصر شكر لجمال الدين مساعيه • لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية فى حقه • وجاء من دس الى الخـــديو الجديد أن السيد لن يقف عند هذا الحد وقد تحدثه نفسه بثورة ثانية وباقامة حكم جمهورى وما أشبه ذلك (١) » •

وفى خاطرات جمال الدين الأفغانى ان الخديو توفيق قال لجمال الدين : « مع الأسف ان أكثر الشعب خامل جاهل • لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقون من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة » فقال جمال الدين مجاوبا « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية واخلاص ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده • ولكنه غير محروم من وجود العالم العاقل • فالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به لسموكم • وان قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد على طريق الشـــورى فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبارادتكم • يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » هذا أهم ما جرى فى هذه المقابلة التى كان فيها الخديو غير راض • وأسر فى نفسه البطش بجمال الدين • ولكن لم يظهر له شيئا من ذلك (٢) .

## نفى جمال الدين من مصر

أصدر توفيق أمره بنفى جمال الدين ، وكان نفيه بقرار من مجلس الوزراء منعقدا برئاسة الخديو ، وكان تنفيذه غاية فى القسوة والغدر ، اذ قبض عليه ليلة الأحد السادس من رمضان

(١) حاضر العالم الاسلامى تأليف لوثروب ستودارد الأمريكى Lcthrop3 Stwdard تعريب عجاج نويهض تعليقات مستفيضة للأمير شكيب ارسلان ص ٢٠١ .

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغانى لمحمد المخزومى باشا ص ٤٦ .

سنة ١٢٩٦ – ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وهو ذاهب الى بيته ، هو وخادمه الأمين ( عارف أبو تراب ) ، وحجز فى الضبطية ، ولم يمكن حتى من أخذ ثيابه ، وحمل فى الصباح فى عربة مقفلة الى محطة السكة الحديدية ، ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة الى السويس ، وانزل منها الى باخرة (١) أقلته الى الهند ، وسارت به الى بمباى .

ولم تتورع الحكومة عن نشر بلاغ رسمي من ادارة المطبوعات بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ ( ٢٦ اغسطس سنة ١٨٧٩ ) ذكرت فيه نفي السيد بعبارات جارحة ملؤها الكذب والافتراء ، مما لا يجدر بحكومة تشعر بشيء من الكرامة والحياء أن تسف اليه ، فقد نسبت اليه السعى فى الأرض بالفساد ، ويعلم الله أنه لم يكن يسعى الا الى يقظة الأمة ، وتحريرها من ربقة الذل والعبودية ، وذكرت عنه أنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » . وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية .

ومن المؤلم حقا أن يتقرر نفى جمال الدين ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديو توفيق باشا وهو على ما نعلم من سابق تقديره للسيد ، ومن وزرائها محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف وقتئذ ، وقد كان من أصدق مريديه وأنصاره ، فتأمل كيف يتنكر الأنصار والأصدقاء لأستاذهم ، والى أى حد يضيع الوفاء بين الناس !! ، ولا ندرى كيف أساغ البارودى نفى السيد جمال الدين واشترك فى احتمال تبعته ، واذا لم يكن موافقا على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة احتجاجا واستنكارا ؟

---

(١) كان نقله الى الباخرة فى صبيحة الثلاثاء ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ – ٢٦ اغسطس سنة ١٨٧٩ .

لاشك أن موقف البارودى فى هذه الحادثة لا يمكن تسـويغه أو الدفاع عنه بأى حال ٠

## جمال الدين أبو الثورة العرابية

نفى جمال الدين من مصر ، على أن روحه ومبادئه وتعاليمه تركت أثرها فى المجتمع المصرى ، وبقيت النفوس ثائرة تتطلع الى اصلاح نظام الحكم ، واقامته على دعائم الحرية والشورى ٠

فجمال الدين هو من الوجهة الروحية والفكرية أبو الثورة العرابية ، وكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه ، وحسبك أن خطيب الثورة العرابية عبد الله نديم كان تلميذا له ٠ ومحمود سامى البارودى رئيس وزارة الثورة كان من أصدقائه ومريديه ٠ والشيخ محمد عبده هو تلميذه الأكبر ، والثورة فى ذاتها هى استمرار للحركة السياسية التى كان لجمال الدين الفضل الكبير فى ظهورها على عهد اسماعيل ، ولو بقى فى مصر حين نشوب الثورة لكان جائزا أن يمدها بآرائه الحكيمة ، وتجاربه الرشيدة ، فلا يغلب عليها الخطل والشطط ، ولكن شاءت الأقدار ، والدسائس الانجليزية ، أن ينفى السيد من مصر ، وهى أحوج ما تكون الى الانتفاع بحكمته وصدق نظره فى الأمور ٠

أقام المترجم بحيدر أباد الدكن ، وهناك كتب رسالته فى ( الرد على الدهريين ) وألزمته الحكومة البريطانية بالبقاء فى الهند حتى انقضى أمر الثورة العرابية ٠

---

# الفصل الرابع

## عمله فى أوروبا

**العروة الوثقى :**

أخفقت الثورة العرابية ، واحتل الانجليز مصر ، فسمحوا للسيد بالذهاب الى أى بلد ، فاختار الشخوص الى أوروبا ، فقصد اليها سنة ۱۸۸۳ ، وتعلم الفرنسية وهو كبير وأول مدينة وردها مدينة لندن ، أقام بها أياما معدودات ، ثم انتقل الى باريس ، وكان تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده منفيا فى بيروت عقب اخماد الثورة ، فاستدعاه الى باريس ، فوافاه اليها ٠

### جمعية العروة الوثقى

وهناك أصدر جريدة ( العروة الوثقى ) ٠ وقد سميت باسم الجمعية التى أنشأتها ، وهى جمعية تألفت لدعوة الأمم الاسلامية الى الاتحاد والتضامن ٠ والأخذ بأسباب الحياة والنهضة ٠ ومجاهدة الاستعمار ، وتحرير مصر والسودان من الاحتلال البريطـــانى ، وكانت تضم جماعة من أقطاب العالم الاسلامى وكبرائه ٠ وكانت الدعوة الى اتحاد الشرقيين تتردد وتتوالى فى معظم مداولاتها ٠ اذ رأى الحكيمان ان تفرق الكلمة هو الثغرة الأولى التى ينفذ منها الاستعمار لتحقيق أهدافه فى البلاد الشرقية ٠

### جريدة العروة الوثقى

وهذه الجمعية هى التى عهدت الى السيد باصدار تلك الجريدة لتكون لسان حالها ٠ فكان مديرا لسياستها ٠ والشيخ محمد عبده رئيسا لتحريرها ٠

واشتركا معا في تحريرها ، وكانت مقالاتها جامعة بين روح جمال الدين ، وقلم الأستاذ الامام ، فجاءت آيات بينات في سمو المعاني ، وقوة الروح ، وبلاغة العبارة ، وهي أشبه ما تكون بالخطب النارية ، تستثير الشجاعة في نفوس قارئها ، وتداني في روحها وقوة تأثيرها أسلوب الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في خطبه الحماسية المنشورة في ( نهج البلاغة ) ، ولا غرو فالسيد جمال الدين هو قبس من نور العترة الحسينية العلوية ، فكأن روح الامام علي تمثلت فيه ، وتجلى أثرها فيما يكتبه أو يمليه .

## هي رد فعل للاحتلال

ذكر الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده يقول : « ان الأفكار في العروة الوثقى كلها للسيد ليس لي فيها فكرة واحدة . والعبارة كلها لي ليس للسيد فيها كلمة واحدة » .

وقد جمع الأستاذ عبد القادر المغربي أحد تلاميذ الحكيم الأفغاني النسخ الأصلية لما ظهر من جريدة ( العروة الوثقى ) فكانت ثمانية عشر عددا وذكر ان هذه صورة ما كان مكتوبا على رأس كل عدد منها :

العروة الوثقى

لا انفصام لها

جريدة سياسية أدبية تصدر يوم الخميس

| | |
|---|---|
| مدير السياسة | المحرر الأول |
| جمال الدين الحسيني الأفغاني | الشيخ محمد عبده |

ترسل الجريدة الى جميع الجهات الشرقية
قد عينت أجرة البريد خمسة فرنكات
فى السنة لمن تسمح بها نفسه (١)
من شـــاء أن يبعث الينا بتحارير
أو رسائل فى أى موضوع كان رغبة
نشره فى الجريدة أو التنبيه على أمر
مهم فليرسلها الى ادارة الجريدة
بهذا العنوان :

6 Rue Hartel, à Paris

وقد صدر من الجريدة ثمانية عشر عددا ٠ ظهر العدد الأول منها فى يوم الخميس ١٥ جمـــادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ ٠

أى قبل أن ينقضى عامان على الاحتلال البريطانى ٠٠ ولقد كانت وقائع الثورة العرابية ٠ والمؤامرات التى دبرتها السياسة الانجليزية لاحباطها ٠ واحتلال انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ ٠ وتغلغل النفوذ البريطانى فى شئون الحكومة كافة ٠ ومحاربة الانجليز للروح الوطنية فى مصر ٠ كل ذلك كان له أثره فى ظهور جريدة العروة الوثقى ٠ بحيث يصح القول بأن صدورها كان رد فعل للاحتلال الأجنبى ٠ وثورة عليه ٠ وكانت كتاباتها دعوة صادقة للجهاد ضد الاستعمار ٠ موجهة الى الأمة المصرية والى الشرقيين كافة ٠ لأنهم جميعا هدف للمطامع الاستعمارية ٠

---

(١) جمال الدين الافغانى — ذكريات واحاديث — لعبد القادر المغربى ص ١٥ ٠

## فاتحة العدد الأول

وفيما يلى فاتحة العدد الأول من جريدة ( العروة الوثقى ) ·

### بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » · هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق ، متعلقا بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل ، فى نجاح العمل ·

« خفيت مذاهب الطامعين ازمانا ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت ، أوغل الأقوياء من الأمم فى سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حدا لا تحتمله النفوس البشرية ·

« ذهب أقوام الى ما يسوله الوهم ، ويغرى به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وان قل عمالها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، فى النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان » ، فان تقلبات الحوادث فى الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه ان ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت فى سواد أمة عظيمة · ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها ، فلم يجز فى زمن من الأزمان امحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها فى العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة ، وان بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال ·

« والذى يحكم به العقل الصريح ، ويشهد به سير الاجتماع الانسانى من يوم علم تاريخه الى اليوم ، أن الأمم الكبيرة اذا عراها ضعف لافتراق فى الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون الى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها قوة أجنبية ، أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه ، فاذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها ، فزعت الى استبقاء الموجود ، ورد المفقود ، ولم تجد بدا من طلب النجاة من أى سبيل ، وعند ذلك تحس بقوتها

الحقيقية . وهي ما تكون بالتئام أفرادها ، والتحام آحادها ، وأن الالهام الالهى والاحساس الفطرى والتعليم الشرعى ، ترشدها الى أن لا حاجة لها الى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها ·

« ان النفوس الانسانية وان بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم الا الى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان ، فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها ، واستأسد ذئبها ، وتنمر ثعلبها ، والتمست خلاصها ، ولن تعدم عند الطلب رشادا ·

« ربما تخطىء مرة · فتكون عليها الدائرة ، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع فى مثله ، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة · وان الحركة التى تبعث لدفع ما لا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر لسيرها ، لا يكفى فى توقيف سريانها أو محو آثارها قهر ذاك القيم واهلاك ذاك المدبر ، فان العلة مادامت موجودة لاتزال آثارها تصدر عنها، فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة ، نعم يمكن تخفيف الأثر أو ازالة علته ورفع أسبابه ·

« جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها فى الأخلاق والعادات والمشارب ، وان لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها ، فكيف بها اذا حملها مالا طاقة لها به ، لاريب أنها تستنكره ، وان كانت تستكبره ، وكلما أنكرته بعدت عن الميل اليه ، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريبا · تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب ·

« ان مجاوزة الحد فى تعميم الاعتداء تنسى الأمم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب ، فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر ، ألزم من التحزب للجنس والمذهب ، وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك فى طلب المنفعة ·

« أبعد هذا يأخذنا العجب اذا أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب أنحاء المشرق فى هذه الأيام ؟ كل يطلب خلاصا ويبتغى نجـــاة وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والأفن (١) ، وان العقلاء فى كثير من أصقاعه يتفكرون فى جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل ٠

« بلى ، كان هذا أمرا ينتظره المستبصر وان عمى عنه الطامع ، وليس فى الامكان اقنـــاع الطامعين بالبرهان ، ولكن ما يأتى به الزمان من عاداته فى أبنائه بل ما يجرى به القضاء الالهى من سنة الله فى خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون ٠

« بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ، ووصـــل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايتـــه ، خصوصا فى المسلمين ، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورا ، وذوو حقوق فى الامرة حرموا حقوقهم ظلما ، وأعزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاما ، وأسود تحولت أنعاما ، ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضر من افراط الطامعين فى أطماعهم ، خصوصا من جراء هذه الحوادث التى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها ٠

« حملوا الى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها ، وشدوا عليها بما لاتألفه فحارت ألبابها ، وألزموها ماليس فى قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع ، فكانت الحركة العرابية العشواء ، فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين ، فاندفع بهم سيل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ، ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا ٠

« لم تكد تخمد تلك الحركة فى بادىء النظر حتى خلفتها حركة

---

(١) ضعف الرأى ٠

أخرى ، وفتح باب كان مسدودا ، وقام قائم بدعوة لها المكانة الأولى في نفوس المسلمين ، بل هي بقية آمالهم ، ولا ندرى الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة ، وربما يوجد من يدرى أن مسببيها فى حيرة من تلافيها ، نعم انهم غرسوا غرسا الا أنهم سيجنون أوهم الآن يجنون منه حنظلا ، ويطعمون منه زقوما • لاجرم هذه هى العواقب التى لا محيص عنها لمن يغالى فى طمعه ، ويغلغل فى حرصه ، ولو أنهم تركوا الأمر من ذلك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ، والقادرين عليه العـــارفين بطرق مدافعته ، أو اقتناء فائدته ، لحفظوا بذلك مصـــالحهم ، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنـــافع الوافرة ، بدون أن تزل لهم قدم أو ينكس لهم علم •

« غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الأهواء • وهو أنفذ عواملهم وأقتلها ، وما علموا أنه وان كان ذريع الفتك الا أنه سريع العطب ، وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب الى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين ، فان بلاء الجور اذا حل بشطر من الأمة وعوفى منه باقيها ، كانت سلامة البعض تعزية للمصابين ، وحجاب غفلة للسالمين ، يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم ، أما اذا عم الضر ، فلا محالة يحيط بهم الضجر ، ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون الى مافيه خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم •

« ان الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما ، ان مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة ، ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظرا لموقعها من الممالك الاسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين • فان كان هذا الباب أمينا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، والا اضطربت أفكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية •

« ان الخطر الذى ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت

به قلوبهم ، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغارا ، وما هذا بغريب على المسلمين ، فان رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة . ومادام القرآن يتلى بينهم وفى آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم .

« ان الفجيعة بمصر حركت أشجانا كانت كامنة ، وجددت أحزانا لم تكن فى الحسبان ، وسرى الألم فى أرواح المسلمين سريان الاعتقاد فى مداركهم ، وهم من تذكار الماضى ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرا ، بل نفيرا عاما ، بل يكون صاخة تخرق مسامع من أصمه الطمع .

« ان أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له فى فتوحاته الا المداهاة ، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد اليه يده الا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الألوان ، متقاربة الأشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الأمراء ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقى مصالح المغلوبين ، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته فى سيره هذا أن لا يأتى من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذى يكفى لتمزيقه رجع البصر ، وكر النظر ، وأن يتماشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها اذا حنقت خنقت، وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم، وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قويا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته، وأن المغيظ لا يبالى فى الايقاع بمناوئه أسلم أو عطب ، فهو يضر ليضر ، وان مسه الضر .

« الا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكرير (١) الممتد من مصر الى مكة ومن مكة الى الهند ،

---

(١) الكرير صوت من الصدر كصوت المختنق .

وكلها تتلاقى بين تراقى المغرورين بقوتهم ، المسترسلين فى جفونهم .

« ان الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمورهم ، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم الى ما هم فيه ، فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وان فى الحاضر منها لنهزة تغتنم ، واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ، ولئن فاتت فكم فى الغيب من مثلها ، والى الله عاقبة الأمور .

« تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار . خصوصا البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع ، لاينون فى السعى ، ولا يقصرون فى الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى ما يشفق منه حى على حياته .

« ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم ، رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالى أوروبا ، وكتبوا على أنفسهم النظر فى أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ، ومناط اليقين ، وفيها موسم الحجيج العام فى كل عام ، يجتمع اليه الشرقى والغربى ، ويتآخى فى مواقعها الطاهرة الجليل والحقير ، والغنى والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات ، والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل .

« ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب الى الظفر ، يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق ،

ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفى عنه شأنهم من اخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربى ، وأن تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم الى الأقطار القاصية ، تنبيها للغافل ، وتذكيرا للذاهل، فرغبوا الى ( السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى ) أن ينشىء تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل أدى حقا واجبا عليه لدينه ووطنه ، وكلف ( الشيخ محمد عبده ) أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ما حمل الأول على الاجابة حمل الثانى على الامتثـــال ، وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال » ·

احتوت المقالة كما ترى نداء قويا للأمم الشرقية أن يتحـــد أبناؤها لدرء الأخطار المحدقة بهم المهددة لكيانهم · وفيها دعوة للمواطنين فى كل أمة شرقية أن يتكتلوا وينبذوا الفرقة والانقسام· ويقاوموا الاستعمار بكل ما لديهم من حول وقوة · وثبات وايمان· وفيها استنكار للاحتلال البريطانى الذى نكبت به مصر سنة ١٨٨٢. واشادة بمركز مصر فى الشرق ودعوة صادقة لتحريرها من نير الاحتلال . وتحذير المصريين من أن يثقوا بوعود الانجليز الكاذبة .

## منهج الجريدة

وفى العدد نفسه مقالة عن منهج الجريدة · جاء فيها :

« سنأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الامكان من بيـــان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضـــعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك مافات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت ·

« ويستتبع ذلك البحث فى أصول الأسباب ومناشىء العلل التى قصرت بهم الى جانب التفريط ، والبواعث التى دفعت بهم الى مهامه حيرة عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب ، وتارة

فيها الخريت (١) ، وضل المرشد ، حتى لا يدرى الســــالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة ، والمزعجات المدهشة ، والمدهشات القاتلة •

« وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين ، حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد فات ، وان العلة بلغت حدها •

« وتحاول اشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة الى قطع دائرة عظيمة ، تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم • وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة انما عرض من الادبار عن المطلوب وهو تحت الجناح ، ويكفى فى الوصول اليه عطفة نظر ، وقطع بعض خطوات قصيرة .

« وان الظهور فى مظهر القوة لرفع الكوارث ، انما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، وهى ما تمسكت به أعز دولة أوروبية وأمنعها (٢) ولا ضرورة فى ايجاد المنعة الى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجأ للشرقى فى بدايته، أن يقف موقف الأوروبى فى نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها •

« وتنبه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتســبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية • فان فقد التكافؤ لم تكن

---

(١) الخريت الدليل الحاذق الذى يهتـدى الى اخرات الارض اى مضايقها وطرقها الخفية .

(٢) يريد روسيا .

الروابط الا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف • وتجعل اهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة ، المدبج بأشكال المجاملة ، شفافا ينم عما وراءه ، وتنقب عن المسالك الدقيقة ، التى يسرى بها الطامعون فى دياجير الغفلات •

« وتهتم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم الباطلة التى يوجهها اليهم من لا خبرة له بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم ، وابطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ماداموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون •

« ولا تهن فى تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية وما يتداوله السياسيون فى شئونهم ، مع اختيار الصادق ، وانتقاء الثابت •

« وتراعى فى جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة فى أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القويمة التى لا تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين •

« ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها ، والحاملين عليها ، لا تظهر اذا أدلجوا ، ولا تنجد اذا غوروا وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق فى أزلى علم الله هدايته • والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم •

« وترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير ، والغنى والفقير ، ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه الا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته على النهج الذى يريده والله الموفق » •

* * *

**اتخذت العروة الوثقى شعارها** ايقاظ الأمم الاسلامية ، والمدافعة عن حقوق الشرقيين كافة ، ودعوتهم الى مقاومة الاستعمار الأوروبى ، والجهاد فى سبيل الحرية والاستقلال •

## منع العروة الوثقى
## من دخول مصر والهند

وقد ذاع شأنها فى العالم الاسلامى ، وأقبل عليها الناس فى مختلف الأقطار ، ولكن الحكومة الانجليزية أقفلت دونها أبواب مصر والهند ، وشددت فى مطاردتها واضطهاد من يقرؤها ، بل كانت تتوجس منها خيفة وتعد العدة لمصادرتها قبل ظهورها ٠

وفى ذلك تقول فى عددها الخامس الصادر بتاريخ ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ ـ ١٠ ابريل سنة ١٨٨٤ ٠

« لو نادينا الغافلين أن انتبهوا ٠ والنائمين أن استيقظوا ٠ واللاهين بحظوظهم أو أمانيهم وأوهامهم أن التفتوا ٠ ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانكليز لو ثبتت أقدامهم فى ديارهم لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم وخطرات قلوبهم ٠ بل على استعداد عقولهم لما عساه يخطر ببالهم ٠ لقال الناس اننا نبالغ فى الانذار ونغرق فى التحذير ٠ ولو بينا لهم أن الانجليز يؤاخذون الأبناء بذنوب الآباء ٠ والأحفاد بجرائم الأجداد ٠ ويطالبون الذرارى بدفائن أسلافهم ٠ وان لم يكن للخلف علم بما ترك السلف ٠ لعدوا هذا البيان منا شططا فى المقال وميلا عن الاعتدال ٠٠٠ » الى أن قالت الجريدة : « فلا نذكر ولا نبين . ولا نحكى ولا نقص . ولكن نعرض عليهم نموذجا من المعاملة لعله يكون للمتبصرين مرآة تحكى ما يغيب عنهم من لوازم السلطة الانكليزية ٠ عزمنا على انشاء جريدتنا هذه . فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الانكليزية المهمة أخذتهم الحدة ٠ واحتدمت فيهم نار الحمية ، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة فى سياسة الانكليز ونفوذها فى البلاد الشرقية . ولجوا فى اغرائها بها . وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة من الدخول فى البلاد الهندية والبلاد المصرية ٠ كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا ٠

الى أن قالت : « ولكن فلتعلم الحكومة الانجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا فى البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى اذا دعا الحال ٠ فان أنصار الحق كثيرون » ٠

ولم تطق بريطانيا صبرا على جريدة العروة الوثقى وعملت على منع دخولها فى مصر والهند ٠ فأوعزت الى الحكومة المصرية بمصادرتها وتغريم كل من توجد عنده من خمسة جنيهات الى خمسة وعشرين جنيها ٠ قالت الجريدة فى هذا الصدد فى عددها التاسع الصادر فى ٢٥ رجب سنة ١٣٠٢ ( ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ ) مايلى :

« انعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة (١) واهتم بالبحث فى شأن ( العروة الوثقى ) ثم أصدر قراره الى نظارة الداخلية المصرية قاضيا عليها بأن تشتد فى منع هذه الجريدة عن دخول الأقطار المصرية ، وتراقب جولاتها فى تلك الديار ، فصدر أمر الداخلية الى ادارة ( عموم البوسطة ) يلزمها الدقة فى ذلك ، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية الى خمسة وعشرين جنيها ( وهى غرامة جسيمة ربما دعا اليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الانكليز فى مصر ) (٢) .

« أما نحن فلا نظن أحدا من النظار المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار ، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلا الى مثل هذا الحكم ، ولا يختلج فى صدورنا أن مصريا من أى مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم ، بل ولا شرقيا ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانبا من العدل ٠

« هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ، ولها سعى بل كل السعى لخيبة آمال أعدائهم ، ولا ترى من مشربها

---

(١) كانت الوزارة برياسة نوبار ٠

(٢) كما جاء فى ( العروة الوثقى ) عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ ٠

مدح زيد ولا القدح فى عمرو ، فان المقصد أعلى وأرفع من هذا ، وانما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد • تلتمس من أبنـــاء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم • ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت انما يكون بعد الأمن من طروق الناهب •

« هذا منهاج ( العروة الوثقى ) علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها الى الآن • فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيا مسلما أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره • ولكنا نعلم أن حركات الآمرين فى القطر المصرى هذه الأيام قهرية لا يخالطها شىء من الاختيار ، والمدير لرحى القهر عليهم هم عمال الانجليز •

« ولا نريد أن نقول للانكليز انهم ظلموا فى هذا الحكم فان الجريدة لم يوجد فيها الى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والأجنبية من كشف مساتيرهم ، وبيان الرزايا التى أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم (١) . لأنهم الانكليز الذين اذا أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين فى الهند واقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه الى ديوان الشرطة ( الضبطية ) فعند وصوله اليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير الى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو اليه ، ويسأله : هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث ؟ فاذا قال نعم • قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا • • فاذا أجابه بأننى درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادى بهذا الا لأنه كتاب دينى ، ضرب له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل يبين فيها رأيه فى الآية أو الحديث ، فان مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه ، ولم يبدل عقيدته ، ولم يبادر بارسال تحريفه وتبديله وخروجه عن

---

(١) الحلول بمعنى الاحتلال .

دينه الى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر — بعثت به الحكومة الى جزيرة ( أندومان ) (١) نفيا مؤبدا . ولو رأيت الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين .

« فدولة الانكليز التى تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم ، وما يمكن أن يهجس من حديث نفوسهم ، لا ريب أنها تعد وجود لفظ الاسلام فى جريدة كافيا لمنعها عن الدخول الى بلاد لها فيها قدم ثابت ، أو تسعى فى تثبيته ، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصا علق عليه هـــذا الاسم من أى جنس كان ، فلا غرابة فى صدور مثل هذا الجور منها ، غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم ، وليس يعجزنا ادخال هذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السلطة الانجليزية الظالمة ، وذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بانشاء العروة الوثقى .

« بلغنا أن بعضا من الناس يسل سيفه ويشحذ سنانه لمناضلة الولى الحميم ، ويقابل ثناءه بالذم ، ومدحه بالقدح ، واحسانه بالاساءة ، ويواجه نصيحته بالظنة . ولا نظن أن هـــذا منه عن عمد ولا اغراء عـــدو ، وانما هـــو لشبهة حجبت نظره عن ادراك الحقيقة . فاذا كشفت له الأيام عن الواقع رجع الى الندم على ما صدر منه ، وكانت له مثابة الى الحق وركون الى الصواب .

« لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع ( العروة الوثقى ) عن دخول القطر المصرى وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها فى هذا المنع ، فان حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شىء فيها سوى الدفاع عن الشرقيين ، وانما منشؤه حكومة انجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها » .

---

(١) جزيرة بالمحيط الهندى .

## تقصد الشرقيين عامة
## لا المسلمين وحدهم

وكانت دعوة ( العروة الوثقى ) موجهـــة الى الشرقيين عامة لا المسلمين وحدهم . وفى ذلك يقول جمال الدين فى عدد ١٨ رجب سنة ١٣٠١ هـ ( ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ ) : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما يخيل اليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا من تطاول الأجانب عليهم والافساد فى بلادهم . وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار التى غدر بها الأجنبيون وأذلوا أهلها أجمعين واستأثروا بجميع خيراتها » .

# الفصل الخامس

## نماذج
## من مقالات العروة الوثقى وأخبارها

نقتطف فيما يلي نماذج من المقالات والأخبار المنشورة بجريدة ( العروة الوثقى ) وسنضع عناوين وهوامش لبعض هذه المقتطفات تيسيرا للتعريف بموضوعاتها وملابساتها ٠

### الاستعمار فى مصر

فى العدد الأول الصادر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ ( ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ ) مقالة تحت عنوان ( مصر ) حملت فيها على سياسة بريطانيا الاستعمارية فى وادى النيل ٠ ووصفت البؤس الذى عانته البلاد من الاحتلال وقالت ضمن ما قالت :

« تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها ففاض خيرها على ما يجاورها من الأقطار الشرقية بل وصل مد نيلها الى أراضى البلاد الغربية وتوارد اليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان وما خاب لها قاصد ولا أخفق فيها سعى ساع فأثرى فى مغانيها الفقراء وعز بها الأذلاء وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ومحط رحال الراجين من الشرقيين ٠ وكل وافد اليها يجد أهلا خيرا من أهله وسكنا خيرا من سكنه ٠ وتكاثرت فيها العناصر الغريبة حتى كان الداخل اليها يخيـــــل له أنه تحت برج بابل يوم تبلبلت الألسن ٠

« وساد بها الأمن وعمت الراحة وضارعت فى كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الأوروبية العظيمة ، وكأن المتأمل فى سيرها هـــذا

يحكم حكما ربما لم يكن بعيدا من الواقع أن عاصمتها لابد أن تصير في وقت قريب أو بعيد كرسي مدنية لأعظم الممالك الشرقية بل كان ذلك أمرا مقررا في أنفس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها. وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر . غير أن الأيام كأنها حسدتها على ما منحته . فعثر العاقل وفرط المالك وأعثر المعجب وتهور الغبي وخار الأفين (١) . فتقرب البعيد وبعد القريب. ونزل بمصر مالم يكن له أثر الا في حواشي طوامير (٢) الأوهام ولا حول ولا قوة الا بالله .

« ألحمت ادارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها ، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف . ففتحت للدسائس أبواب . وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات فتفرق اتصال وتقطعت أوصال فضعفت السلطة الوازعة ونبذت الطاعة والتهبت نيران الفتن .

« قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت في اعادة شأنها الأول الى رأى قويم وعزم ثابت ووازع قوى تدين لسطوته النفوس وان من ذوى الحقوق فيها من يجمع هذه الأوصاف وله من القلوب المكانة العليا . وكان يسهل عليه القيام بما يعهد اليه لكن تحكم طمع وأخطأ ظن فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة .

« أشفقت دولة الانكليز على طريق الهند كما يقال أو ظنت أن آن التقدم بعض خطوات قد آن . فرأت أن اعادة الأمن وتثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها . فكان التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والابعاد والتغريم وما شاكل ذلك مما لا حاجة لبيانه . وعم بعض أنواع الهون حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد الا مسه ضرمه (٣) ما خلا أشخاصا قلائل، وهذه المرهبات على ما بها

---

(١) افن افنا : ضعف رأيه فهو أفين ومأفون .

(٢) الطومار : الصحيفة وجمعها طوامير .

(٣) الضرم : اللهب .

من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لاشرافه على الخطر من وجه آخر ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد ٠

« أليست المالية هي مرمى أنظار دول أوروبا وما وضع نظام في البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم الا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من الحقوق الأوروبية ٠ اليوم رزئت بالنقص في الايراد وحملت من تعويضات متالف الحرب (١) أربعة ملايين من الجنيهات ورميت بنفقات جيش الحلول (٢) وحرب السودان ومصاريف اخلائه ٠ وما يضاف الى كل هذا مما يظهره المستقبل٠ فاختلت الموازين وبطل قانون الجبايات وأى مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة ٠

« عقد العزم على الغاء الجيش الوطنى وهو قوة البلاد وبه فخارها وكأنه لم توجد وسيلة لتنظيم عسكر مصرى وقصر الجهد عن مجاراة محمد على وابراهيم اللذين دوخا كثيرا من الأقطار بجنود مصرية ٠

« واأسفا على حالة الأهالى بعد هذا . حكم من لا دافع لحكمه بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين فى دوائر الحكومة وما منهم أحد الا ويتبعه عائلة وأولاد ولا قوت لهم الا من مرتب عائلهم وما مرن على عمل لكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة ٠ ألم يحس هؤلاء ضر الفقر ألم يعضهم ناب الجوع ألم يهتك مستورهم ؟ ألم يضق ذرعهم ألم يصبحوا كساة بسرابيل الكآبة عراة من أكسية

(١) هى التعويضات التى ألزمت بها مصر عقب الاحتلال البريطانى بدعوى انها مقابل الخسائر والأضرار التى لحقت بالجاليات الأجنبية فى حوادث سنة ١٨٨٢ وخاصة مذبحة الاسكندرية فى ١٠ يونيه سنة ١٨٨٢ وضرب الاسكندرية بقنابل الأسطول البريطانى فى « يوليه » من ذلك العام . ومع أن المسئول عن هذه الخسائر هو الحكومة البريطانية لأنها هى التى احدثتها ، ووقعت فيها . فان مصر قد احتملت عواقبها وتعويضاتها الجسيمة . وقد بلغت أربعة ملايين وربع مليون جنيه .

(٢) جيش الاحتلال .

المسرة ؟ ان لم يكن كل هذا فقد كان جله وان صدى آنينهم يتلى في صفحات الجرائد الوطنية العربية والافرنجية وسيتبع السابقين منهم اللاحقون حتى لا يجد وطنى فى البلاد من المهن الا ما لا يليق بالانكليزى تعاطيه من سفاسف الأمور كما هو فى البلاد الهندية.

« اضطرب ميزان السلطة العـــامة لتعاكس قواها المختلفة فاشتبه الأمر على العمال وظنوا أن لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من أيديهم وحكمـــوا أهواءهم فى أداء وظائفهم فخبطوا وخلطوا . فعمت السجون بأعيان الرعية ورفعت أذناب الكرابيج لتشريح أبدانهم واستعملت آلات التعذيب وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم وثمرات كسبهم وحدث نوع من الحكم المطلق عزيز المثال بعث عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم ولبسوا شيعا وأذيق بعضهم بأس بعض وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .

« غلقت أبواب العمل من وجوهه الرسمية في الادارات وتعطلت أشغال المحاكم وشخصت الأبصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة . فاتسع نطاق الفوضى وارتفع حجاب المنعة وسرى التهاون الى الدوائر العليا وعاد الأمر لقوة الساعد وكثرة الأعوان فعاثت اللصوص وكثر قطع الطرق فى كل ناحية وارتفعت الأصـــوات بالشكوى منهم فى عموم الجرائد الوطنية . فوقفت حركة الأعمال العمومية . وبدت للناس شئون عدلت بهم عن ضرورات معاشهم، وامتنع المدينون من أداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والربويين فقبض المقرضون أيديهم واحتكروا نقودهم لفقد ثقتهم واشفاقهم من الضياع على رءوس أموالهم وان أصيبوا بالحرمان من الربح وابتلوا بالخسارة فى رأس المال من قبيل آخر واشتدت الحاجة بالفلاحين الى ما يعوض عليهم ماشية الحراثة بعدما اغتالهـــا التيفوس والى ما يجددون أو يصلحون به آلاتهم الزراعية ويستعينون به على نجاحها حسب العادة التى ألفوها . فعميت عليهم السبل وضاقت بهم المسالك ولم يجدوا لسد حاجاتهم سبيلا . ففسدت

الزراعة وانتقصت ثمراتها وانحطت أسعار الحاصلات لارتباك الأحوال الى حد ما كان يسمع الا فى القصص وروايات القدماء . ومطالب الحكومة فى ضرائبها ورسومها على حالها الأول مع الاغذاذ فى اقتضائها • فعم العسر وأحاط الضنك وتقوضت آلاف من البيوت التجارية وأتربت أيدى ملايين من عمال الصناعة وأعدم المزارعون قاطبة الا نزر يسير من حفظة الكنوز أو المستأثرين بأموال الكافة نهبا وسلبا • باع الفلاح أثاث بيته وما أبقاه التيفوس من عاملة أرضه بعدما ذهبت الحاجة بحلى حرمه وبناته ليؤدى ما عليه لحكومته ولم ينل من غضاره ما يقوم بحفظ حياته وعاد الى الفطرة الأولى يقتات بأقوات البهائم ويسرح مسارح الحيوانات الا قليلا منهم الله يعلمهم •

« وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية والأخذ بالشبه وان ضعفت واتباع بواطل التهم وان بعدت أو استحالت حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه وبلغ منها مبلغه • فلا ترى مارا بطريق الا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق بأثوابه شرطى يقوده الى السجن أو يقتضى منه فدا • وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر فى كل خطوة عثرة وفى كل نهضة سقطة • وله من كل شاخص دهشة • ومن كل طارق لبابه غشية • أى شقاء ينتظره الحى فى حياته أشنع من هذا ؟

« هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصرى • هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الأنفس مما رزئوا به بعدما تكفل أحباؤهم الأولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضى السابقة • هذه طلائع الاصلاح المبشر به من زمان بعيد على ألسنة رسله • أصبح الأهالى حيارى فى أمورهم تائهين عن رشادهم • لا يعلمون ماذا يحل بهم • يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الأوروبية تسميه ضيقا وعناء وتمنيهم بالانقاذ منه فيحنون اليه ويودون لو رجعوا اليه ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التى هم فيها •

« أبعد هذا يصح لمصرى أن يظن أن تلك الرزايا التى حلت بلاده من نحو عشرين شهرا • كانت مقدمة لاصـــلاحها وتنظيم شئونها • نعم يمكن أن يخطر بالبال أنها تمهيد لعمل صناعى فى الأراضى المصرية كتقويم طرقها واقامة جسورها وتكثير جداولها وتقوية مواد الخصب فيها حتى تعود بعد مدة جنة من جنات الدنيا أو روضة من رياض الآخرة • أما الأهالى فليسوا بموضع النظر فانهم ان هلكوا ورث الأرض بعدهم قوم آخرون •

« فان لم يكن هذا فليكن تمام الاصلاح الذى لا يمثله الخاطر فى وقتنا الحاضر ولا يكفى للبدء فيه سنون معدودة على قيـــاس الاصلاح المنتظر فى بلاد بنجاب ( من الممالك الهندية ) فان الدولة التى تولت اصلاح الشئون المصرية فى هذه الأيام دخلت بلاد بنجاب بهذه الحجة واستولت عليها من مدة أربعين سنة ولم تزل الى الآن حكومتها عسكرية ولم يشرع فيها بتنظيم مدنى • فلينتظر اخواننا المصريون فانا معهم من المنتظرين » •

## انجلترا والمسألة المصرية

وفى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ كتبت مقـــالة عن التواء السياسة البريطانية • ختمتها بأن الحل الوحيد للمسألة المصرية لا يكون الا على أيدى أهلها • قالت :

« ان المسألة المصرية صبغت فى انكلترا عدة صبغات من يوم نشأتها • وكلما عرضت على العقول فى لون خيل لها أنه أجود ما فى الدن • حتى اذا مضى عليه زمان خفى وأعقبه لون جديد وهى فى انتقالاتها هذه لا تزداد الا اشكالا ولا تزيد انكلترا فى انهائهـــا الا ارتباكا •

« كان يود مستر ( غلادستون ) (١) ان ينهج فى سياسته منهج سلفائه من الانجليز يحبو الى مقصده بالأناة والتؤدة ويلتوى فى مسيره الى معاطف متخالفة ويرى أن سلوك الجادة مما لا تقتضيه

(١) رئيس الوزراء البريطانية الذى وقع الاحتلال فى عهدها •

الحكمة ولا يسوغه الحذق حتى يبلغ الغاية ويقطع الخلال ( الطريق بين الرمال ) ولا يظهر له أثر يقتفى أو كان كما يزعمون أو كما يدعى ونادى به على عهـــد ( بيكونسفيلد ) من أنه لا يميل الى الفتوحات وهمه البعد بانكلترا عن المداخلات فى الأمور الأجنبية بالقوة الحربية · الا أن الحوادث المصرية ألجأته الى العدول عن مشربه والتطور بغير طوره · فتضاربت آراؤه وتردد فى أعماله وسار سيرة المتخبط ونشأ من طمعه فى السياسة توعر السبل على حكومته فى بلوغ ماتريد وحدث النزاع بينه وبين بقية الوزراء فيما يجب اتباعه من بعد · وهو الآن فى حيرة بين التمسك بمذهبه السياسى والاستقالة من المنصب وبين الانفلات منه والتعرض للوم العقلاء والسقوط من منزلته فى قلوب أحزابه . وهذه الحيرة مهدت لمعارضيه من الحزب المحافظ طريقا للسعى فى اسقاطه من مكانته السياسية واهباطه من كرسى الوزارة ·

« الذى أباح لمستر ( غلادستون ) أن يركب غير طريقه ويتداخل فى مصر بقوة السلاح ما زعمه من احتياج تلك البلاد الى اقرار الراحة وتخليصها من خلل الفوضى · ومن انكلترا أن تتولى اغاثتها مما وقعت فيه فمد يده لوضع قواعد العدالة وتخليص الحكومة من الضعف واعادة الأمن الى البلاد · وكان يظن أن هذا المطلوب يتم بهدم طوابى اسكندرية والحلول فى ثكن القاهرة · فيكون قد كسب أجرا أو نال ملكا جديدا أو حفظ مصلحة مهمة بأعمال خفيفة ونفقات قليلة وكلمات غير طويلة . ولكن من الأسف لم يساعده التوفيق على نوال البغية ·

« تتابعت الفتن وعلا لياقا (١) حتى لذعه فنبهه لما لم يخطر له على بال فاضطر لسوق العساكر ومداومة الحروب · ومع هــذا لم تؤيد الحكومة التى انتصر لها ولم يكف محمد أحمد ( المهدى ) عن دعوته ولم يهن عزم عثمان دفنة بهذه الصدمات المتتالية وأجمعت

---

(١) اللياق : شعلة النار ·

الجرائد على انه نادى بالحرب الدينية وهو يجمع متفرقة العرب ليزيدها الى قبيلته ويهاجم الانكليز مرة ثالثة .

« فهذه المصاعب شوشت أفكار البرلمان وحركت الخواطر على الوزارة الغلادستونية وتخوف رئيس الوزراء من عواقب المداولات فى المسائل المصرية • فتأخر عن حضور الجلسات من مدة أيام وقام ناظر الجهادية مقامه فى التعبير عن أفكار الوزارة • وفهم من بعض خطاباته أن فى نية الحكومة أن تحفظ الثغور المصرية بعساكرها وأن تحل فى شرقى السودان وأن تتولى ادارة الحكومة المصرية . فقامت الحجة بكلامه هذا لحزب المحافظين ووبخوا الحكومة على ضعفها السابق والتجائها للعدول عن سياستها فى هذه الأوقات ولم يكن من رأى غلادستون أن تصرح الحكومة بمقاصدها وتظهر مشروعها بوجة جلى • ووقع الخلاف بينه وبين ناظر الجهادية وكثير من أعضاء الوزارة على جملة مواضيع فى المسألة المصرية• وزاد الخلاف شدة ميل غلادستون لمراضاة الأيرلنديين وتجافى بقية الوزراء عن رغبته • وثبت الرئيس فى آرائه وهو يفضل الاستعفاء على التساهل فى شىء منها . ومن هذا غلب على الظن انه سيحصل انقلاب فى الوزارة أو فض البرلمان وأكدت قرب ذلك جريدة التيمس وجريدة الديلى نيوز وهى نصف رسمية وجاءت الأخبار الأخيرة متفقة على أن وزارة غلادستون فى خطر •

« فاذا انقلبت الوزارة الانكليزية وخلفتها أخرى من أى حزب كان فما عساها تفعل لحل المسألة المصرية والتخلص من الورطة ؟ أقبل الصيف وصعب على عســـــاكر الانكليز أن تأتى بحركات عسكرية فى أطراف السودان الشرقية مدة أشهر • ويتعذر حفظ المواصلة بين سواكن وبربر والخرطوم • فان طلبوا عساكر هندية كما أنبأ به التلغراف انكشف للهنديين بتكرر طلب العساكر من الهند ضعف القوة البريطانية واجترؤا على حامية الهند وهناك الهول الأكبر • فى هذه المدة وهى غير قصيرة يتيسر لمحمد أحمد ( المهدى ) ودعاته أن يجمعوا قواهم وينالوا من المنعة ما يتعسر

على عساكر الهند مقاومته بل هم الآن على القرب مما نقول • ففى الأخبار الصحيحة أن حالة النيل الأعلى لا ترضى الحكومة الانكليزية• والبلاد المجاورة للخرطوم فى ثوران شديد وقد انقطع الأمل من فتح الطريق بين بربر وعاصمة النوبة ومحمد أحمد مهتم من نحو شهر بجمع قوة عظيمة يساعده على تنظيمها ضباط من أركان الحرب فيهم اثنا عشر أوروبيا وستون ضابطا مصريا نجوا من عساكر ( هكس )(١) • ذكرت جميع ذلك جريدة الديلى نيوز واعترف مستشار خارجية انكلترا أن المواصلة بين شندى والخرطوم منقطعة ولم يصله خبر عن جوردون من حادى عشر هذا الشهر ( مارس سنة ١٨٨٤ ) فاذا ترك هذا الخطب الجلل للقوة الانكليزية فلا نظنه الا يصدع جدار الهند ويذهب بكل ما يعبر عنه بالمصالح الأوروبية فى مصر ( وليكن كذلك ) •

« ولا نظن أن دول أوروبا تسمح بضياع مصالحها فى الأقطار المصرية خصوصا بعض الدول التى كانت تسابق انكلترا فى وادى النيل وانحط مقامها فيه بالتدخل الانكليزى الذى ليست له حدود معروفة ولا غايات معلومة • والى هذا تشير جريدة ( الطان ) الفرنساوية الوزارية حيث تقول : ان انكلترا لا يمكنها أن تضع مصر تحت حمايتها حتى تناقش الحساب بين يدى أوروبا وتنوه به جريدة ( سان بطرسبورج ) حيث تقول ان روسيا ليس فى عزمها أن تفتتح بعمل فى مصر فان انكلترا اعترفت فى جميع الأوقات بأن المسائل المصرية لها هيئة دولية وبناء على هذا لا يمكن القطع فى شىء منها الا باتفاق أوروبا •

« هذا اذا تمكنت انكلترا أن تأخذ على نفسها اطفاء الفتن واجهاد الثورات واستطاعت القيام بما تكتب على ذاتها • ففى نهايته تطالب عند أوروبا بما تقتضيه مصلحة كل دولة منها • فان عجزت كما هو الغالب على الظن أو طال عليها الزمان وهى بين ظفر وانهزام

---

(١) الجنرال هكس قائد انجليزى كان يقود جيشا من المصريين هزم فى موقعة ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٢ أمام قوات المهدى •

ولا تتجاوز فى حركاتها العسكرية شواطىء البحر فلا ريب أن القلق يستفز الدول لطلب وسائل أخرى سوى ما تهيئه دولة انكلترا . وانا نرى وسيحكم الزمان لنا ان شاء الله أن حفظ حقوق الأوروبيين وضبط البلاد المصرية واخماد نيران الفتنة فيها لا يتم الا على أيدى أهلها . ويفعل الله ما يشاء » .

## عبث الانجليز بالأمن فى مصر

## وقالت أيضا فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ :

« انا لله وانا اليه راجعون لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم. ورد تلغراف من القاهرة الى جريدة ( استاندر ) يفيد أن السجون ضاقت بالمسجونين حتى اضطرت الحكومة (المصرية أو الانكليزية) الى اطلاق ألف ومائتين منهم من أرباب الجنايات الخفيفة . وسبب هذه البلية عدم قدرة المجالس على محاكمة جميع المتهمين . لهـذا تذوب المقل بكاء وتفتت الأكباد حزنا (١) » .

## ماضى الأمة وحاضرها
## وعلاج عللهـا

وفى عدد ٢٧ مارس سنة ١٨٨٤ . نشرت مقالة عنوانهـا ( سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ) . أوضحت فيها ان علاج أمراض الأمة مسألة تشعبت فيها الآراء .

---

(١) فى مارس سنة ١٨٨٤ استقال محمد ثابت باشا وزير الداخلية فى وزارة نوبار احتجاجا على تعيين المستر كليفورد لويد Clifford Llooyd وكيلا لوزارة الداخلية وتدخله المستمر فى شئون الوزارة . فقبلت استقالته وتولى نوبار نفسه وزارة الداخلية . وظل كليفورد لويد يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئونها . ومن أمثلة تدخله أنه فى شهر مارس سنة ١٨٨٤ أصدر أمره بالافراج عن عدد كبير من السجناء فى السجون المختلفة بالمديريات كانوا تحت المحاكمة وكثير منهم من كبار الأشقياء وتعللت الوزارة بأن السجون ضاقت بالمسجونين . وكثرت حوادث السطو والسرقات والقتل . والى هذه الواقعة اشارت جريدة العروة الوثقى فى عدد ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ السالف الذكر .

فمن قائل ان الجرائد علاج ناجع فى اصلاح شئونها • وأظهرت الشك فى كفاية الصحف لهذه المهمة . وكيف أن كثيرا من المتعلمين اتجهوا الى محاكاة الغربيين فى أساليب الحياة فازدادت تبعية البلاد للمصنوعات الأجنبية . وانتهت المقالة الى أن الواجب على الأمم الشرقية ان تتبع أصول دينها • ففى اتباعها ما يعيد اليها المجد والمنعة ويرقى باخلاقها وينهض بحضارتها ويوحد صفوفها • قالت:

« أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئا مذكورا ، ثم انشق عنها بماء العدم ، فاذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام ، قوى الأركان ، شديد البنيان • عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدى مديريها عقد المشاكل ، نمت فيها أفنان العزة . بعد ما نبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة ، وكملت القوة ، فاستغلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ، وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لاسعادة الا فى انتهاج منهجها ، وورود شريعتها ، وصارت وهى قليلة العدد كثيرة الساحات ، كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل •

« وبعد هذا كله وهى بناؤها ، وانتثر منظومها ، وتفرقت فيها الأهواء ، وانشقت العصا ، وتبدد ما كان مجتمعا ، وانحل ما كان منعقدا ، وانفصمت عرى التعاون ، وانقطعت روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ، ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه • لا يلمح فى مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية ، وهو فى غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال الا على أيدى الملتحمين معه بلحمة الأمة ، وأنه أحوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده ، والى توفير خيرهم من تنمية رزقه ، وكأنه بهذه الغيبة فى سبات يخيله الناظر اليه صحوا ، وذبول يظنه المغرور زهوا ، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فأبادها،

وحدثت فيهم قناعة البهم ، والرضا بكل حال ، ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم ، أو استفزه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفا ، أو يعيد لها مجدا ، عده هوسا وهذيانا ٠ أصيب به من ضعف في المزاج ، أو خلل فى البنية ، أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال ، وأورده موارد الهلكة ، أو لصار من أقرب الأسباب لزاول نعمته ، ونكد معيشته ، ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس ، فتغل يداه عن العمل ، وتقف قدماه عن السعى ، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبله ، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا ، وقيما على ما أورثوه لأعقابهم ، ويبلغ هذا المرض من الأمة حدا يشرف بها على الهلاك ، ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد ، وطعمة لكل طاعم ٠

« نعم رأيت كثيرا من الأمم لم تكن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت ، وقويت ثم ضعفت ، وعزت ثم ذلت ، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى ٠

وا أسفا ما أصعب الداء ، وما أعز الدواء ، وما أقل العارفين بطرق العلاج ! ٠

« كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقهـــا ، وهى لم تفترق الا لأن كلا عكف على شأنه ؟ أستغفر الله ، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به ، ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه ، نعم ربما التفت الى كل ماهو فى فطرة كل حى من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه ، وهو لا يدرى من أى وجه يحصلها ، ولا بأية طريقة يكون فى أمن عليها ؟ كيف تبعث الهمم بعد موتها ، وما ماتت الا بعد ما سكنت زمانا غير قصير الى ما ليس من معاليها ؟ هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم ؟ وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه ، خصوصا بعدما استدبر المقصد ، وفى كل خطوة يظن أنه على مقربة من

الحظوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه ، المبتهج بأحلامه، وفى أذنه وقر وفى ملامسه خدر ؟ •

« هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها ، وتتناءى أطرافها ، وتتباين عاداتها وطبائعها ؟ هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة ، وتوحد آراءها المتخالفة ، بعد ما تراسم جهل وران غين ، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد ، وكل سـهل وعـر ؟ أيم الله انه لشيء عسـير يعيا فى عـلاجه النطاسي ، ويحار فيه الحكيم البصير • هل يمكن تعيين الدواء الا بعد الوقوف على أصل الداء . وأسبابه الأولى والعوارض التى طرأت عليه ؟ ان كان المرض فى أمة فكيف الوصول الى علله وأسبابه الا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الأحوال وتنوع الأطوار ؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض ؟ والا فان كثيرا من الأمراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر ، ثم لا تظهر الا فى طور آخر ، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها •

«كلا ، انه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة ، وعوارض حياته محصورة ، فكيف بمن يريد مداواة علة طويلة الأجل وافرة العدد ؟ لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون باحياء أمة أو ارجاع شرفها ومجدها اليها ، وان كان المتشبهون بهم كثيرين • وكما أن المتطبب القـاصر فى الأمراض البدنية لا يزيد علاجه المرض الا شدة ، لولا مساعدة الاتفاق والصدفة ، بل ربما يفضى بالمريض الى الموت ــ كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ، ووجوه العلة فيها وأنواعها ، وما يكتنف ذلك من العادات ، وما يوجد فى أفرادها من المذاهب والاعتقادات، وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الأرض ، ومكانتها الأولى من الرفعة ، ودرجتها الحالية من الضعة ، وتدرجها فيما بين

المنزلتين • فان أخطأ طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء ، والوجود فناء ، فمن له حظ من الكمال الانساني ، ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهي ، لا يجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الأمم واصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الأمر العظيم علما أو عملا • نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة ، وطلاب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شيء •

« ظن القوم في هذه الأزمان أن أمراض الأمم تعـــالج بنشر الجرائد ، وأنها تكفل انهاض الهمم ، وتنبيه الأفكار ، وتقويم الأخلاق • كيف يصدق هذا الظن وانا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون الا نجاح الأمم مع التنزه عن الأغراض ؟ فبعدما عم الذهول ، واستولت الدهشة على العقول ، وقل القارئون والكاتبون • لا نجد لها قارئا ، ولئن وجدت القارىء فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه . بضيق في التصور ، أو ميل مع الهوى ، فلا يكون منه الا سوء التأثير ، فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافا • على أن الهمة اذا كانت في درك الهبوط • فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها . مع قصر المدة ، وتدفق سيول الحوادث ان هذا وحقك عزيز •

« ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبعثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها واخلادها الى ما دون رتبتهـــا بدرجات لا تحصر ، ورضاها بالدون من العيش ، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا مشربها ، بل لمن كان خاضعا لسيادتها ، راضخا لأحكامها ، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعـــة من بقاعها ، وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوروبا ، حتى تعم المعارف جميع الأفراد في زمن قريب • ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق ، واتحدت الكلمة ، واجتمعت القوة • وما أبعد ما يظنون؟

فان هذا العمل العظيم انما يقوم به سلطان قوى قاهر ، يحمل الأمة على ما تكره أزمانا حتى تذوق لذته وتجنى ثمرته ، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبا عن سلطته فى تنفيذ ما أراد من خيرها، ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقـــات تلك المدارس وهى كثيرة • وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه ، فهل مع الضعف سلطة تقهر، وثروة تغنى ؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين •

« فان قالوا : يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات ، وافقناهم على الامكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلا لأن يستنشقوا نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر ؟ •••

على أنا لو فرضنا مسألة الدهر ، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الأفراد ، والاستزادة منها شيئا فشيئا ، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية، وأن ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ، ويمكنه من القيام بارشاد الباقى من أبناء أمته ؟ •

واعجبا كيف يكون هذا وان الأمة فى بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبـــة عنها !؟ وكيف بذرت بذورها ؟ وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت ؟ وبأى ماء سقيت ، وبأى تربة غذيت ؟ ولا وقوف لها على الغاية التى قصدت منهــــا فى مناشئها ، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات ، وان وصل اليها طرف من ذلك ، فانما يكون ظاهرا من القول لا بناء على الحقيقة • فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها، وسوقها الى أذهانهم المشحونة بغيرها ، يقوم من أفكارهم ، ويعدل من أخلاقهم ، ويهديهم طرق الرشاد فى افادة اخوانهم •

لعل الأقرب أن ناقلى تلك العلوم ـ وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس اليهم من الأوهام المألوفة فيها ، وما رسخ فى نفوسهم على عهد الصبا ، وما يعظمونه من أمر الأمة التى تلقوا عنها علومهم ـ يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها الا فسادا •

« ماذا يكون من أولئك الناشئين فى علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ، ولو صدقوا فى خدمة أوطانهم ؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم ، يؤدون ما تعلموه كما سمعوه ، لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها ، وما مرنت عليه من عاداتها ، فيستعملونه على غير وضعه ، ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه ، وغفلتهم عن آتيه ، يظنونه على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس ، والحياة لكل روح ، فيرومون من الصغير مالا يرام الا من الكبير ، وبالعكس ، غير ناظرين الا الى صور ما تعلموه ، ولا مفكرين فى استعداد من يعرض عليهم ، وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد ؟ أو يزيدها على مابها أضعافا ؟ وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها وانما هم لها نقلة وحملة .

« فهؤلاء الصادقون الا من وفق الله منهم بعناية الالهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء ، فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها فى اللذة ، وسنه بسن اللبان لا يقبل سواه ، فيسرع اليه المرض ، وينتهى به الى التلف ، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة ، يشتتون بقية الجمع ، ويبددون أخريات الالتئام ان كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط . فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها ، وما قصدوا الا خيرا ان كانوا مخلصين ، ويوسعون بذلك الخصاص (١) حتى تعود أبوابا ، ويباعدون ما بين الضفاف ، حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب تحت اسم النصحاء ، وعنوان المصلحين ، ويذهبون بأمتهم الى الفناء والاضمحلال وبئس المصير .

« شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف منهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب ، وكل

---

(١) الخصاص : الخلل أو الخرق فى الباب .

ما يسمونه تمدنا ، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة ، وسير الاجتماع الانسانى • هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقـر والفاقة ؟ هل نجوا بها من ورطـات ما يلجئهم اليـه الأجانب بتصرفاتهم ؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم ؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف فى الأفكار حدا يميل عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية ، فهى تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا ، وان بادت فى سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان فى كثير من الأمم ؟ •

« نعم ربما يوجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء ، لا تعرف غايتها ، ولا تعلم بدايتها ، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمات أخرى على حسب ما يختارون • ووقفوا عند هذا الحد، ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، وعرضوها بمعرض المباهاة ، فنفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره ، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم • وأهلكوا العاملين فى المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة والكماليات الجديدة . لأن مصانعهم لم تتحول الى الطرز الجديد ، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد ، وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة ، وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها ،

وما كان هذا الا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها •

« علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منـــافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واحتقار من لم يكن على مثالهم ، شؤما على أبناء أمتهم ، يذلونهم ويحقرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم وان جلت ، وان بقى فى بعض رجال الأمة بقية الشمم ، أو نزوع الى معالى الهمم ، انصبوا عليه وأرغموا من أنفه ، حتى يمحى أثر الشهامة ، وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم •

« أقول ولا أخشى لوما : لو كان فى البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الانكليز ــ لمـا بارحوها أبد الآبدين • فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست الا توطيد المسالك ، والركون الى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم ، فيبالغون فى تطمين النفوس وتسكين القلوب ، حتى يزيلوا الوحشة التى قد يصون بها الناس حقوقهم ، ويحفظون بها استقلالهم • ولهذا لو طرق الأجانب أرضا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم، ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم • كأنما هم منهم ، ويعدون الغلبة الأجنبية فى بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم •

* * *

« فما الحيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها ، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها ، والوقت ضيق والخطب شديد ؟ أى

جهوری من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟ أى قاصفة تزعج الطباع الجامدة ، وتحرك الأفكار الخامدة ؟ أى نفخة تبعث هذه الأرواح فى أجسادها ، وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها ؟ الأقطار فسيحة الجوانب ، بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى ، الرءوس مطرقة الى ما تحت القدم أو منفضة الى ما فوق السماء ، ليس للأبصار جولان الى الأمام والخلف واليمين والشمال ، ولا للأسماع اصغاء ، ولا للنفوس رغبات ، وللأهواء تحكم ، وللوساوس سلطان .

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير ؟ ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم بأى سبب يتمكنون ورسل المنايا على أبوابهم ؟ .

لا أطيل عليك بحثا ولا أذهب بك فى مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أستلفت نظرك الى سبب يجمع الأسباب ، ووسيلة تحيط بالوسائل : ارسل طرفك الى نشأة الأمة التى خملت بعد النباهة، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وخيمت بعد المنعة ، وتطلب أسباب نهوضها الأول ، حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل ، فقد يكون ما جمع كلمتها ، وأنهض همم آحادها ، ولحم ما بين أفرادها ، وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رءوس الأمم ، وتسوسهم وهى فى مقامها بدقيق حكمتها ، انما هو دين قويم الأصول ، محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة ، داع الى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران الخسائس ، منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مبانى الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها ، وينادى بمعتقديه الى جميع فروع المدنية .

« فان كانت هذه شرعتها ، ولها وردت ، وعنها صدرت . فما تراه من عارض خللها ، وهبوطها عن مكانتها ، انما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا ، وحدوث بدع ليست منها فى شىء ، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد

اليه الدين وعما اتى لأجله ، وما أعدته الحكمة الالهية له ، حتى لم يبق منه الا أسماء تذكر ، وعبارات تقرأ • فتكون هذه المحدثات حجابا بين الأمة وبين الحق الذى نشعر بندائه أحيانا بين جوانحها.

فعلاجها الناجح انما يكون برجوعها الى قواعد دينها ، والأخذ بامكان على ما كان فى بدايته ، وارشاد العـــامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق ، وايقاد نيران الغيرة ، وجمع الكلمة ، وبيع الأرواح لشرف الأمة ، ولأن جرثومة الدين متأصلة فى النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة ، والقلوب مطمئنة اليه ، وفى زواياها نور خفى من محبته ، فلا يحتاج القائم باحياء الأمة الا الى نفخة واحدة يسرى نفثها فى جميع الأرواح لأقرب وقت • فاذا قاموا لشئونهم ، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم ، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينها ، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانسانى •••

ومن طلب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية ، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ، ولا يزيد الأمة الا نحسا ، ولا يكسبها الا تعسا •

« هل تعجب أيها القارىء من قولى ان الأصول الدينية الحقة، المبرأة عن محدثات البدع ، تنشىء للأمم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف ، وتنتهى بها الى أقصى غاية فى المدنية !؟ ان عجبت فان عجبى من عجبك أشد !!

هل نسيت تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات ، واتيان الدنايا والمنكرات ، حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ، ونور عقولها ، وقوم أخلاقها ، وسدد أحكامها • فسادت على العالم ، وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف • وبعد أن كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون

المتنوعة والتبحر فيها • ونقلوا الى بلادهم طب بقراط وجالينوس وهندسة اقليدس ، وهيئة بطليموس ، وحكمة أفلاطون وأرسطو، وما كانوا قبل الدين فى شىء من هذا ، وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتها ومدنيتها فى التمسك بأصول دينها •

« وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك ، وافتتاح الأقطار ، وطلب السيادة على الأمصار ، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم ، وارتفاع النفوس عن الدنايا . وبعد الغايات ، وعلو المقاصد هى التى هذبت أخلاقهم ، وقومت أفكارهم ، وكفتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الأمور وسوافلها • ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها •

* * *

## تجريد مصر من قوتها الحربية

وفى نفس العدد قالت ما يأتى تحت عنوان ( مقاصد انكليزية فى مصر ) :

« فى كل يوم تلح جريدة التيمس على حكومة انكلترا بوجوب طرد العساكر المصرية الوطنية زاعمة أنه يحل من الأهالى محل القبول ويسرون منه غاية السرور وتشير على الحكومة أيضا أن تجهر بحمايتها لمصر وتظهر للدول أنها تتحمل كل تبعة تحصل من مداخلتها فى تلك البلاد وأن ذلك من مقتضى الحزم فان الادارة المصرية وفروعها فى حاجة الى اصلاح حقيقى ولن يقوم به الا رجال الانكليز •

وهذا من تلك الجريدة وغيرها سوق للحكومة الى اظهار ما اكنته من السلطة على البلاد المصرية وضمها الىممالكها الشرقية . وما كان ذلك خافيا على أحد وان كان بعض المصريين غالطوا فيه أنفسهم عن علم أو جهل والله أعلم •

« وما تطلبه الجرائد من طرد العساكر الوطنية انما هو مقدمة التملك ورسوخ القدم . ثم هى تموه فى تحسين ذلك بدعواها أن

أهالى مصر يفرحون منه • مع أن أول ثورة عسكرية سر بها المصريون على عهد وزارة ويلسون (١) انما كان منشأها العزم على تقليل عدد العساكر واقفال المدرسة العسكرية • فالمصريون وهم هم لا تعقل مسرتهم من طرد حاميتهم الوطنية بل ينزعجون منه غاية الانزعاج»•

## تخـــاذل الشرقيين
## والدعوة الى الوحـــدة بينهم

وكتبت فى عدد ١٠ ابريل سنة ١٨٨٤ ( ١٤ جمادى الثانيـــة سنة ١٣٠١ ) تحت عنوان ( واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ) مقالة أخذت فيها على المسلمين تخاذلهم وتفرقهم واغفالهم شئون اخوان لهم فى بلدان أخرى وعدم اكتراثهم لما يحل بهم ففقـــدوا التضامن بينهم ولم يعد ثمة تعاون بين رجال الدين والســـياسة فى مختلف الأقطار . وبينت أن تفرق الكلمة فى الدول الاسلامية أضعف من شأنها وجعلها هدفا لمطامع أعدائها . ودعت العلمـــاء فى جميع الأقطار الاسلامية الى توحيد كلمتهم وتوفيق الصلات ببينهم لدرء الأخطار عن أوطانهم .

« أن للمسلمين سترة فى دينهم ، وقوة فى ايمانهم ، وثباتا على يقينهم ، يباهون بها من عداهم من الملل ، وان فى عقيـــدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض ، ومما رسخ فى نفوسهم أن فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين . ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين ، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء ، وهذه

(١) تقصد الوزارة المختلطة التى كان يراســـها نوبار سنة ١٨٧٨ وكان فيها وزيران أجنبيـــان . أحـــدهما انجليزى وهـــو ريفرس ويلسن Revers Wilson ، والثـــانى فرنسى ، وهـــو دى بلينيير De Blignières . وقد ســـمتها ( العروة الوثقى ) وزارة ويلسن لأنه كانت له فيها الكلمة النافذة . للتحقير من شأن رئيســـها نوبار وتقصد بالثورة العســـكرية ثورة الضباط على هذه الوزارة سنة ١٨٧٩ وادت الى اسقاطها .

الحالة كما هى فى علمائهم متمكنة فى عامتهم ، حتى لو سمع أى شخص منهم فى أى بقعة من بقاع الأرض عالما كان أو جاهلا أن واحدا ممن وسم بسمة الاسلام فى أى قطر ومن أى جنس صبأ عن دينه رأيت من يصل اليه هذه الخبر فى تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع ، ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به ، بل وعلى جميع من يشاركه فى دينه ، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة فى تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لا يتمالك قلبه من الاضطراب ، ودمه من الغليان ، ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكى عن عجيب .

« المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان ، وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتمدين فى الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام . ومن فروضهم فى سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الأموال والأرواح ، وارتكاب كل صعب، واقتحام كل خطب ، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم فى حال من الأحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم ، وبالغت الشريعة فى طلب السيادة منهم على من يخالفهم الى حد لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره ، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه ، وهذه قواعد مثبتة فى الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات فى كل زمان .

« المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة ، وما يفرض عليه الايمان ، وهو هاتف الحق الذى بقى له من الهامات دينه ، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين فى هذه الأيام بعضهم فى غفلة عما يلم بالبعض الآخر ، ولا يألمون لما يألم له بعضهم ، فأهل بلوخستان كانوا يرون حركات الانجليز فى أفغانستان على مواقع أنظارهم ، ولا يجيش لهم جأش ولا تكون لهم نعرة على اخوانهم ، والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكليز

فى بلاد فارس ، ولا يضجرون ولا يتململون ، وان جنود الانكليز تضرب في الأراضي المصرية ذهابا وايابا تقتل وتفتك ، ولا ترى نجدة فى نفوس اخوانهم المشرفين على مجارى دمائهم ، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم ، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم .

« تمسك المسلمون بتلك العقائد واحساسهم بداعية الحق فى نفوسهم مع هذه الحالة التى هم عليها مما يقضي بالعجب ويدعو الى الحيرة ، ويسبق الى بيان السبب . فخذ مجملا عنه : ان الأفكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وان كانت هى الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم ، لكن الأعمال تثبتها وتقويها وتطبعها فى الأنفس وتطبع الأنفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق ، وتترتب عليه الآثار التى تلائمها .

«نعم أن الانسان انسان بفكره وعقائده الا أن ما ينعكس الى مزايا عقله من مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير ، فكل شهود يحدث فكرا . وكل فكر يكون له أثر فى داعية ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل الى الفكر ، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والأفكار ، ما دامت الأرواح فى الأجساد ، وكل قبيل هو للآخر عماد .

« ان للأخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتمام لولا ما تبعث عليه الضرورات ، وتلجىء اليه الحاجات ، من تعاون الأنسباء والعصبة على نيل المنافع ، وتضافرهم على دفع المضار ، وبعد كرور الأيام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذا يصرفه فى آثارها بقية الأجل ويكون انبساط النفس لعون القريب ، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جاريا مجرى الوجدانيات الطبيعية ، كالاحساس بالجوع والعطش والرى والشبع ، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعيا . فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ، ولم تدع ضرورات

الحياة فى وقت من الأوقات الى ما يمكن تلك الصـــلة ويؤكدها ، أو وجد صاحب النسب من يظاهره فى غير نسبه أو ألجأته ضرورة الى ذلك ، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ، ولم يبق منها الا صورة فى العقل تجرى مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات . وعلى مثال ما ذكرنا فى رابطة النسب وهى اقوى رابطة بين البشر يكون الأمر فى سائر الاعتقادات التى لها أثر فى الاجتماع الانسانى من حيث ارتباط بعضه ببعض . اذا لم يصحب العقد الفكرى ملجىء الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من أشكالها ، فلن يكون منشأ لآثاره ، وانما يعد فى الصور العلمية له رسم يلوح فى الذاكرة عند الالتفات اليه كما قدمنا .

« بعد تدبر هذه الأصول البينة ، والنظر فيها بعين الحكمة ، يظهر لك السبب فى سكون المسلمين الى ما هم فيه مع شدتهم فى دينهم ، والعلة فى تباطؤهم عن نصرة اخوانهم وهم أثبت الناس فى عقائدهم ، فانه لم يبـق من جامعـــة بين المسلمين فى الأغلب الا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال ، وانقطع التعارف بينهم وهجر بعضهم بعضا هجرا غير جميل ، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل ، فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى فضلا عمن يبعد عنهم ، والعالم الهندى فى غفلة عن شئون العالم الأفغانى . وهكذا ، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ، ولا صلة تجمعهم الا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر . أما فى هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم ، بل لا أنساب بينهم . وكل ينظر الى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه .

« كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المســـلمين . أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين فى مراكش ولا لمراكش عنـد العثمانيين ؟ أليس

بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى الشرق ؟

« هذا التدابر والتقاطع وارسال الحبال على الغوارب عـم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم . ولا بلد وبلد . الا طفيف من الاحساس بأن بعض الشعوب على دينهـم ويعتقدون مثل اعتقادهم ، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة اذا التقى بعضهم ببعض فى موسم الحجيج العام . وهذا النوع من الاحساس هو الداعى الى الأسف وانقباض الصدر اذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته ، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته . كانت الملكة كجسم عظيم قوى البنية صحيح المزاج ، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه . فتداعت للتناثر والانحلال . وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم .

« بدأ هذا الانحلال والضعف فى روابط الملة الاسلامية عنـد انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفـاء العباسيون باسم الخـلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد فى أصوله وفروعه كما كان الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم . كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حـد لم يسبق له مثيل فى دين من الأديان ، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام . خلافة عباسية فى بغداد ، وفاطمية فى مصر والمغرب ، وأموية فى أطراف الأندلس . تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة الى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القـوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة .

« وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده وايقاعهم بالمسلمين قتلا واذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى

الالتئام بين الملوك والعلماء جميعا ؛ وانفرد كل بشأنه وانصرف الى ما يليه ، فتبدد الجمع الى آحاد ، وافترق الناس فرقا كل فرقة تتبع داعيا اما الي ملك او مذهب ؛ فضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو الى الوحدة ، وتبعث على اشتباك الوشيجة ، وصار ما فى العقول منها صورا ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض ما فى خزائن النفس من المعلومات ، ولم يبق من آثارها الا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر الى المسامع على طول من الزمان ، وما هو الا نوع من الحزن على الفائت ، كما يكون على الأموات من الأقارب ، لا يدعو الى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع الغائلة .

« وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لاحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعو اليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة فى سلسلة واحدة اذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع انحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون اليها فى شئون وحدتهم ويأخذون بأيدى العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام ، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان ، والقيام بحاجات الأمة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع ؛ فان احكام الربط انما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف ، فلو ابدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل

فشوها بين العامة ، وليس يخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل .

« الا انا نأسف غاية الأسف اذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين الى هذه الوسيلة وهى أقرب الوسائل وان التفت اليها فى هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة ، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم ، فقد دارستهم التجــــارب ببيان لا مزيد عليه ، وما هو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة الى من يبعد عنهم ، ويصافحوا بالأكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة أو ما يخشى أن يمسها بضرر ، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضه وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة ، والى الله المصير » .

## الجيش المصرى بقيادة الانجليز
## والسياسة الاستعمارية فى مصر والهند

وقالت فى عدد ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ (١٨ رجب سنة ١٣٠١) :

« دخل الانكليز مصر فزعموا أن ما كان موجودا من الجنــد الأهلى نفخت فيه روح العصيان فلا يصلح للأعمال العسكرية فطردوه ثم اختاروا من الأهالى جندا جديدا فى عدد قليل . واستلم الرئاسة عليهم ضباطهم البارعون وبعد اشهر اثنوا عليه بحسن النظام وسرعة النجاح وطنطنت بالأطراء عليه جرائدهم ولم نلبث بعد هذا أن رأيناهم يسارعون الى طرد الجند الجديد (١) . فهموا بذلك مرارا مع العزم

---

(١) تأييد لما ذكرته ( العروة الوثقى ) نقول : ان أول ما فكر فيه الاحتلال من التغييرات الجوهرية هو الغاء الجيش المصرى وخلق جيش هزيل يرأسه ضباط من الانجليز . وقد بادر الانجليز منذ الساعة الأولى الى الغاء الجيش الوطنى ، فأصدر الخديو توفيق فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ بايعاز منهم مرسوما بالغاء الجيش المصرى بدعوى مناصرته للثورة العرابية . وكان التعجيل بهذا الاجراء الخطير ذريعة لانجلترا لتسويغ بقاء جنودها فى مصر بحجة المحافظة على النظام =

على استبداله بآخر من أبناء الوطن . وكلما صدتهم بعض الموانع السياسية عن هممهم كتموا أمرهم زمنا ثم عادوا للاشارة اليه تعللا بما ينسبونه الى بعض العساكر . وهو من دسائسهم . وآخر الأمر خفتت أصواتهم واحسوا بعجزهم عن الاستبداد بطرد الحامية الوطنية وعلموا أن لابد فيه من مشورة الدول .

« فى هذه الأيام رغبوا الى الدول فى عقد مؤتمر للنظر فى قانون التصفية وتحويره ووضع نظام للمالية المصرية يخفف عنها بعض اثقالها . فصرحوا فى لائحتهم المرسلة الى حكومات أوروبا بضرورة طرد الجند الوطنى رعاية للاقتصاد وبلزوم تخفيض فائدة الديون المصرية (١) .

« ان الانكليز من ست سنوات جعلوا الضيق فى المالية المصرية ذريعة للانقلاب العظيم الذى حصـــل فى مصر (٢) والزموا الدولة العثمانية بمجاراتهم فى ذاك الانقلاب ودافعوا عن الدائنين وزعموا

---

= فيها . وعندما أوفدت انجلترا اللورد دفرين سفيرها بالأستانة الى مصر وعهدت اليه وضع تقرير عن الحالة فيها . رفع تقريره فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ الى اللورد جرانفيل وزير خارجيتها وقد تكلم فيه عن الجيش المصرى فذهب الى أن مصر ليست فى حاجة الى قوة عسكرية كبيرة للدفاع عنها ( تأمل ! ) وان مهمة الجيش المصرى يجب أن تنحصر فى اقرار الأمن والنظام داخل البلاد . وأوحى بأن لا يتجاوز عدده ستة آلاف جندى ، على أن يتولى قيادته قائد انجليزى يعاونه لفيف من الضباط الانجليز . وبذلك وضع دفرين فى تقريره قاعدة تجريد مصر من كل قوة حربية وهى السياسة التى حرصت انجلترا على اتباعها طول عهد الاحتلال .

(١) المؤتمر الذى تشير اليه العروة الوثقى هو مؤتمر لندن الذى دعت انجلترا الدول فى ١٩ أبريل سنة ١٨٨٤ الى عقده للمفاوضة فى شئون مصر المالية والنظر فى تعديل قانون التصفية . وقد عقد بلندن فى يونيو سنة ١٨٨٤ . ولم يكن عقده لصالح مصر . بل كان مظهرا للحماية المقنعة التى اعتزمت فرضها عليها . لأن عقد مؤتمر للنظر فى شئون مصر المالية دون السياسة معناه اطلاق يد الانجليز فى مصر على أن هذا المؤتمر قد انفض على غير جدوى اذ لم يتفق المؤتمرون على طريقة تسوية حالة مصر المالية .

(٢) يقصد على الراجح خلع الخديو اسماعيل .

من المحال تنقيص شيء من الفوائد وطلبوا من الحكومة المصرية اذ ذاك تقليل عدد حاميتها ليتوفر من النقود ما يصرف لحقوق الدائنين . واليوم عطفوا على المصريين ( عطفة الأب الرحيم ) وبسطوا ايديهم الي الدول يلتمسون مساعدتها لتخفيف الفائدة مع محو حاميتهم الوطنية . اليست البلاد المصرية كسائر بلاد العالم تحتاج الى حامية تحفظ حدودها من الخارج وتصون داخلها من الفوائل التى لا تأمن طروقها حكومة من الحكومات . ان فى تلك القسوة الأولى والمرحمة الثانية كسرا عظيما .

« للانكليز فى مصر مطامع من زمن قديم يعدون سلطتهم عليها من ضروريات شوكتهم فى الهند . وفى خلدهم أن المصريين لو كانت لهم ثروة مالية وقوة عسكرية عظيمة فانهم يحالفونهم فيما يريدون ببلادهم . فضيقوا على المالية فى تلك الأوقات . والجأوا الحكومة لتمزيق قوتها العسكرية ليحصل الضعف فى القوتين المالية والجندية فتمهد لهم طريق ما طمحوا اليه . وكان هذا التدبير سببا فى الانقلاب الذى تبعته هذه الحوادث الهائلة . وبعد ما فتح لهم بضعف الحكومة سبيل المداخلة فى مصر طفقوا يسعون بما جلبوا عليه من الهوينا فى المضى الى مقاصدهم لايجاد عنوان غير التملك يعنون به اقامة عساكرهم ومأموريهم فى تلك البلاد زمنا طويلا . ويكون وضع ذلك العنوان برأى الدول تملصا من الوعد الذى وعدوها به مع ترقب حوادث السياسة فى أوروبا لعل حادثة منها تساعدهم على ابدال العنوان بما هو المطلوب لهم . وراوا من احسن الوسائل لدعوة الدول اليهم عرض المسألة المالية .

« ولما كان من المحتوم فى آرائهم بقاء عساكرهم فى الديار المصرية . فلا بد من طلب وسيلة لطرد الجند المصرى حتى تكون الحاجة الى عساكرهم قائمة . هذه طريقة ربما خفيت على المصريين وغفل عنها كثير من الأوربيين الا أنها من الطرق المتعارفة عند الانكليز . وهى التى سلكوها فى البلاد الهندية ونالوا بسلوكها السلطة المطلقة على تلك الأقطار الواسعة بدون سفك دماء غزيرة ولا مقاومة فتن

شديدة . دمر (١) الانكليز على الهنديين فى أراضيهم وانبثوا بينهم فتمكنوا من تفريق كلمة الأمراء واغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية فتمزقت المملكة الى ممالك صغيرة. ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه . فصارت الأراضى الهندية الواسعة ميادين للقتال واضطر كل نواب أوراجا الى النقود والجنود ليدافع بها عن حقه أو يتغلب بها على عدوه فعند ذلك تقدم الانكليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين وبسطوا لهم احدى الراحتين ببدر الذهب . وقبضوا بالأخرى على سيف الغلب . بدأوا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الأهلية ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ثم أخذوا فى تعظيم شأن جيوشهم الانكليزية وقوادها وما هم عليه من العفة والبسالة والنظام حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه الا بالجنود الانكليزية فأقبل الانكليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الانكليز ويكون بعض الجنود من الهنديين وبعضها من البريطانيين . وما على الحاكم الا أن يؤدى نفقتها . ثم خلبوا عقول أولئك الأمراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض. وصار الانكليز بذلك أولياء المتباغضين وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التى أعدوها للحماية عنها . ففرقة سموها ( عمرية ) وأخرى سموها ( جعفرية ) وغيرها سموها ( كشتية ) ارضاء لأهل السنة والشيعة والوثنيين .

« ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الانكليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام فى القرض وأظهروا غاية السماحة . فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة .

---

(١) دمر عليه : دخل بدون اذن أو هجم هجوم الشر .

وبعضهم بدون فائدة وينتظرون به الميسرة حتى ظن كل أمير أن الله قد امده بأعوان من السماء . وبعد مضى زمان كانوا يومئون الى طلب ديونهم بغاية الرفق . ويشيرون الى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف . فاذا عجز الأمير عن الأداء قالوا انا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم . ونحن ننصحكم أن تفوضوا الينا العمل فى قطعة كذا من الأرض نستغلها ونستوفى منها ديوننا وننفق من غلاتها على الجيوش التى اقمناها لكم ثم الأرض ارضكم نردها اليكم عند الاستيفاء والاستغناء . وانما نحن خادمون لكم فيضعون أيديهم على غضروات (١) الأراضى وفيحائها . وفى أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعا حصينة وحصونا منيعة كما يفعلون ذلك فى ثكن ( أماكن اقامة العساكر ) عساكرهم على أبواب العواصم الهندية . وفى خلال هذا يفتحون للأمراء أبوابا من الاسراف والتبذير ويقرضونهم ويقتضون اقرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمونها الى الأولى ثم يذكون نار العداوة بين الحكام لتنتشب بينهم حروب فيتداخلون فى امر الصلح فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثانى عن قطعة من أراضيه . وهم فى جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين لكل من المتغالبين . وبعد هذا فلهم شئون لا يهملونها فى ايقاع الشقاق بين سائر الأهالى لتضعف قوة الوحدة الداخلية ويخرب بعضهم بيوت بعض حتى اذا بلغ السير نهايته واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم وغلت الأيدى فلا يستطيع أحد حراكا ساقوا الحاكم الى المجزرة بسيوف تلك العساكر التى كانت حامية له واقية لبلاده وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله . ثم خلفوه على ملكه وكانوا يميلون بقوتهم الى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك . فيخلعون المالك ويولون الطالب على شريطة أن يقطعهم ارضا أو يمنحهم امتيازا فيحولون الملك من

---

(١) الارض الطيبة . ويقال هم فى غضراء من العيش اى فى خصب وخير .

الأب للابن ومن الأخ لأخيه ومن العم لابن أخيــه وفى الكل هـــم الرابحون . هذا سيرهم فى الهند وهو على بعد من مراقبة أوروبا. ما فاجأوا أحدا بحرب وما اختطفوا ملكا بقوة مغالبة بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة الا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهاليها ولا بما تطرف به أجفانهم .

« أولئك الانكليز باقعة (١) العالم وأحبال الحيل يريدون اليوم طرد العساكر المصرية . وأرض مصر لا تحرسها الملائكة فلا تستغنى عن حامية . فان تم ما أرادوا زينوا لبعض ذوى السلطة فى مصر أن يطلب منهم جندا انكليزيا يكون خادما له وحافظا لملكه . فان لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق فى الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحهـــم أو غشهم ذهولا عن حقيقة القصد فيقيمونه حاكما خلفا لمن لم تسمح ذمته بالقبول وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوروبا . هذا سر انقلاب الانكليز على الجند الوطنى وقدحهم فى سيرته بعد الثناء على حسن استعداده وسعيهم الى طرده بالأدلة الواهية والعلل الواهنة.

« أما المؤتمر فالداعى اليه أن العدوان فى هذه الأزمان لا يأتيه المعتدون كما كان فى الأحقاب الحالية مشوه الوجه منكر الصورة يعرفه الذكى والغبى . بل من أراد عدوانا فلا بد أن يحفه بمواكب من الأدلة وحفال (٢) من البراهين وهــو ما يعبرون عنه بالحقوق والمصالح . وما أصعب الوقوف على كنه العدوان وهو فى هـــذه الحيلة وتلك الهيئة الجميلة .

« يريد الانكليز عقد المؤتمر ويرغبـــون قصر المداولة فيه على المسألة المالية ليضمنوا ديون القطر المصرى ويكفلوا للدائنين أداء حقوقهم وأخذوا على انفسهم عهدة الانفاق على الادارات المصرية مدة

---

(١) الباقعة : الداهية .
(٢) الخفال : الجمع الكبير .

من الزمان لترخص لهم الدول الاقامة فى وادى النيل الى أمد فيكون تفويض الدول حجة لهم فى التصرف وادارة شئون الحكومة المصرية ما دام السلم مظلا بلاد أوروبا . فاذا حدث حادث حرب فى الدول الأوروبية وما هو ببعيد الوقوع تربعوا فى تلك البـــلاد وأناخوا بكلاكلهم وضربوا بجرانهم على أراضيها وألقوا عصاهم . هذا سر شفقة الانكليز على المصريين وهو سر رغبتهم فى وقوف المؤتمر عند شئون المالية .

« هذه المصيبة العظمى والداهية الدهماء التى تتحفز لتنقض على المصريين هل تمس بحفيفها جانب المانيا . كلا . فان منافع المانيا الحقيقية لا تعلق لها بالمسائل المصرية وهى فى الشغل بما هو أهم منها . وليست دولة ( اوستريا ) بأقرب الى المصائب المصرية من المانيا . على أن كلا من الدولتين ليس فى استطاعتهما تأييد فكرها بالعمل لو مست الحوادث المصرية شيئا من مصالحها . فان مواقع الدولتين لا تساعدهما على الاضرار بدولة الانكليز . أما ايطاليا فهى ساكنة الجأش بما تؤمل نواله فى أفريقية بمساعدة انكلترا » .

## سوء الأحوال فى مصر

ونشرت فى عدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤م ( ٢٥ رجب سنة ١٣٠١م ) رسالة جاءتها من مصر تصف سوء الأحوال فى مصر وتذكر طرفا مما يعانيه المواطنون نتيجة للسياسة الانجليزية قالت :

كتب الينا صديق فاضل من خلص المؤمنين بالقطر المصرى قال:

ان مأمورى الانكليز الآخذين بزمام بعـــض الوظائف المصرية لا يزالون يسعون فى تغرير الأهالى والتحيل عليهم ودس الدسائس بينهم بطرق مختلفة من الترغيب والترهيب كل ذلك ليرضـــوهم بطلب الحماية الانكليزية . الا أن أولئك الأبالسة لا يلاقون فى سعيهم الا خيبة . لأن العلماء وأعيان البلاد قد أحاطوا بغـــايات الانكليز

ومقاصدهم وعلموا أنهم لا يقصدون بالبلاد الا الشر كما لم ينلهـا من حلولهم الا الضر خصوصا وأن روح الحمية والغيرة الدينيـة والوطنية صار لها السلطان الأعظم على نفوس أهالى القطر المصرى فاشتدت انفتهم من تسلط الانكليز فى ديارهم وقاوموا مطالبهـم بعزائم ثابتة وقلوب غير واجفة وهذا هو ظننا بل يقيننا فى أبناء القطر المصرى علمائهم وأمرائهم وحكامهم وأعيانهم وأوساطهم بل وسائر طبقاتهم أن لا تسمح نفس واحد منهم بمجاراة الانكليز فى رغبتهـم وأن لا يطمئن قلبه بالدخول تحت سيادتهم بل ببقاء شخص منهم فى بلاده وعلى مرمى نظره فان وجد بينهم شخص يتخذ الهه هواه ويميل مع الباطل فهو ممن يعرف المصريون سيرته فى افناد (١) ليله وأطراف نهاره فلا يثقون به .

ومما أخبر به الصادق أن كليفورد لويد يجتهد لتسليم رئاسات البلاد الى اناس من طبقة يتوهم فيها سقوط الهمة وسخافة الرأى ليتمكن بهم من اجراء بعض مقاصده لكن لم يتسن له نجاح ولئن نجح فى تحويل الرئاسات من نصابها فلا يلاقى ممن يستلمونهـا الا مثل ما لاقى من غيرهم فان الجميع مصريون يفضلون ظلم أبناء وطنهم على عدل الأجنبى فكيف لو كان الأجنبى لا يقاس بظلمه ظالم .

الى أن قال الصديق الفاضل : أما الفلاحون فأحوالهم سيئة : ضيق وضنك وفقر واعدام مما يفتت الأكباد ويذيب القلوب ويفطر الجماد . الحكومة مضطرة لطلب الأموال وملجأة الى تكليف الفلاحين بدفع ما عليهم والأجانب قائمون على اقتضاء ديونهم منهم والكساد ورخص أسعار الحبوب وثمرات الزراعة لم يجعل فى المحصـولات وفاء بضرورات المعيشة فضـلا عن أداء المطلوبات فكيلة القمح بستة قروش والذرة بأربعة وعلى هذا يقاس . ومن ثم تسمع كل يوم تنعاب اغربة الدلالين فى فناء ديوان الحقانية (٢) على خراب

(١) الأفناد : الطوائف .

(٢) يريد المحكمة المختلطة .

بيوت الفلاحين هذا ينادى على بيع أراضيه باسرها وهذا يتفق عليه بمبيع بعضها والآخر بالحجز على أملاكه والحكومة لا تنى فى طلب ضرائبها قبل أوان المحصولات .

أما أحوال المدن فليست باسعد من أحوال الأرياف خصوصا من تعديات الأجانب على سكانها فالمنازعات والمخاصمات بين الأجانب والوطنيين يقضى فيها على الوطنى بالتغريم والجزاء ولا يؤخذ على الأجنبى فى شيء وان كان هو المعتدى . وان سأل الوطنى أين خصمى فيقال له انه يحاكم فى محل آخر مع انه لم يذهب الى مقام المحاكمة راسا واكتفى فى فصل الدعوى بأحد الخصمين وهو طرز من الحكم جديد ( هذا بعض آثار العدالة الانكليزية ) .

وجاء فى خبر صديقنا هذا رواية كثير من المظالم التى أصيب بها أهل القرى من جراء التداخل الانكليزى فى ادارات الحكومة ضربنا عن ذكرها رعاية لجانب الاختصار بعد وضوحها عند اولى الأمر من المصريين .

أما الأمن فلم يبق له اثر وأما النظام فقد نقص بناؤه واقتلع أساسه واختزن الانكليز نقاضه فى خزائن الآثار القديمة فقويت عصابات اللصوص وجاهروا بالنهب والسلب وهذا خبر تؤكده روايات الجرائد الوطنية المصرية عربية وأفرنجية فانجميعها يشتكى الملل والسآمة منرواية أخبار السوء كليوم ، الا أن من غريبالوقائع هجوم لفيف من السارقين على قرية ( نشرت ) ونواحيها من مديرية الغربية وقتلهم . واحدا وأربعين رجلا فان خبر هذه الواقعة ان صح كان دليلا على بلوغ الاختلال الى درجة فوق ما كنا نتصور نسأل الله السلامة كما نسأله ابدال عسر المصريين باليسر وهو على كل شيء قدير .

## رئيس وزراء مصر
## يستأذن للسفر من وزير خارجية بريطانيا

وكتبت فيعدد ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤هـ (٢٥ رجبسنة ١٣٠١هـ) النبأ الآتي :

« الى اللورد غرانفيل (١) أن يرخص لنوبار باشا بالسفر الى أوروبا مدة غيبة السير بارنبج (٢) فان أصر نوبار باشا على طلب الرخصة فان اللورد غرانفيل يطلب من الخديو أن يستبدله برياض باشا أو شريف باشا . هذا كله والانكليز لا يريدون أن تكون مصر تحت سيادتهم ولا يحبون أن يرفع عليها علم حمايتهم . وليس يدرى ما الغرض من السيادة والحماية سوى التصرف فى الادارة أو التحكم فى أولياء الأمور . هذا وزير مصر الأكبر لا ينال رخصة سفر الا باذن من غرانفيل ولا يأذن له ويرى أن له أمرا على الخديو باستيزار فلان وعزل فلان . فان لم تكن هذه سيادة فما هى السيادة ؟ » .

### وحدة الكلمة والتحذير من الشقاق

وكتبت المقالة الآتية فى عدد ٥ يونيه سنة ١٨٨٤ ( ١٠ شعبان سنة ١٣٠١ ) تحت عنوان ( المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ) تنعى فيها تفرق أهواء الأمم الشرقية وتدعوها الى الاتحاد وتحذرها من الشقاق قالت :

« أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة ، ويهدى اليهما الدين تارة أخرى . وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب ، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه . بل يستلزمه ، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها ، وهما الميل الى وحدة تجمع ، والكلف بسيادة لا توضع . واذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقى بوانيه

(١) غرانفيل Granville وزير خارجية بريطانيا وقتئذ .

(٢) اقلين بارنبج Evelin Barning المعتمد البريطانى فى مصر الذى صار اللورد كرومر .

( يثبت ويقيم ) الى أجل مسمى أودع فى ضآضئه ( أصوله ) هذين الوصفين الجليلين . فأنشأه خلقا سويا ، ثم أستبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين الى منتهى أجله .

« كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها ، ويشتد به بناؤها ، فلابد يوما أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض . ان التغلب فى الأمم كالتغـــذى فى الحياة الشخصية ، فاذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حــركة النمو ، ثم ارتدت الى الذبول والنحـــول ، ثم أفضت الى الموت والهلاك . وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها . وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها ، الا أن تكون متفقـــة فى تحصيل ما تحتاج اليه هيئتها . اذا أحسست من أمة ميـــلا الى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم ــ اذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب فى وجودها وفنائها . وجدنا هذه ســـنة الله فى الجمعيات البشرية ، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب ، وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم الا عند لهوهم بما فى أيديهم ، وقناعتهم بما تسنى لهم ، ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء ، وما أهلك الله قبيلا الا بعد ما رزئوا بالافتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فأورثهم ذلا طويلا ، وعذابا وبيلا ، ثم فناء سرمديا .

« الوفاق تواصل وتقارب يحدثه احساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيلذ لهم كما يلذ أشـــهى مرغوب لديهم ، وبما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به ، وهذا الاحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر فى أحـــوال أمته ، ليجعل جزءا من زمنه للبحث فيما يرجع اليهـــا بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ، ولا يكون همه بالفكر فى هذا اقل من همه بالنظر فى أحواله الخاصة ، ثم لا يكون نظرا عقيما

حائرا بين جدران المخيلة ، دائرا على أطراف الألسنة ، بل يكون استبصارا تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة ، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون فى استحصال مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة فى المكان الأول من النظر ، والدرجة الأولى من الاعتبار ، والشئون الخاصة فى المنزلة الثانية منهما . ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة ، بل يأخذ العقلاء منها سيلا من التفكير ، ويخترطون سيوفا من الهمة ، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة، ونواد من المكنة ، ويستخرجوا دفائن من الثروة ، ويجمعوا ذلك للأمة ، لصيانة حياتها الى حد العمر اللائق بها ، كما يسعى الحازم جهده لتوفير ما يلزم لمعيشته ، وما يطمئن به قلبه فى دفع حاجته مدة العمر الغالب ، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده . وان الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون . ثم تتلوه سائر الأدوار ، وأولها أقصرها وهو سن الطفـــولة ، وبدء الكمال فيما يليه ، فما أرفع همم العقلاء فى الأمم المستبصرة .

« اذا بلغ الاحساس من مشاعر أفراد الأمة الى الحد الذى بيناه ، رأيت فى الدهماء منهم والخاصة همما تعلو ، وشيما تسمو ، واحتراما يقود ، وعزما يسوق ، كل يطلب السيادة والغلب ، فتتلاقى هممهم ، وتتلاحق عزائمهم فى سبيل الطلب . فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم ، كما تندفع السيول على الوهاد ، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا اليه ، ويكون نزوهم على الأمم بعــــد الغلب الأول تدفقا من الطبع لا يحتاج الى فكر وروية الا فى اعداد وسائل الفوز والظفر .

« هذان الأمران : الوفاق والغلب . عمادان قويان ، وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان على من يستمسك بها ، ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقته بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . جاء فى قول صاحب الشرع أن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وأن المؤمن

ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه اذا مس أحـــدها الم تأثر له الآخر . وجاء فى نهيه « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا . وكونوا عباد الله اخوانا » وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة ، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

« هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ، ونهاهم عن التفرق والتغابن وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا أعداء ، ونطق الكتاب الالهى ( انما المؤمنون اخوة ) وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف ، ثم شدد فى وجوب الاصلاح وان أدى الى مقاتلة الباغى فقال ( وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ) وانما أمر الله بالدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة ( ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ) وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم ، فحكم بأن من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ما تولى ، ويصله جهنـــم وساءت مصـــيرا .

« وفى أمره الصريح ايجاب التعاون على البر والتقوى ، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق واعلاء منار الأمة ، وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أن « يد الله مع الجماعة » وكفى بالقدرة الالهية عونا اذا صح الاجتماع وصدقت الألفة ، وقد بلغت مكانة الاتفاق فى الشريعة الاسلامية أسمى درجة فى الرعاية الدينية حتى جعل اجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفا عن حكم الله وما فى علمه ، وأوجب الشرع الأخذ به على عموم المسلمين : وعد جموده مروقا من الدين ، وانسلاخا عن الايمان . ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم « لو دعيت الى حلف الفضول لفعلت » ( حلف الفضول ما كان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم ، وسمى حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يدعو عند

أحد فضلا يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم الا أخذوه منه وردوه لمستحقه ) . فهو من حلف الجاهلية ، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعى اليه .

هذا اجمال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنة بين المسلمين ، بل بينهم وبين غيرهم ممن رضى بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف فى شرعهم ، فان سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه .

« وأما السعي لاعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة ، فلا تجد آية من آيات القرآن الشريف الا وهى داعية اليه ، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه ، حاظرة عليهم أن يتوانوا فى أداء الفروض منه . ومن الأوامر الشرعية أن لا يدع المسلمون تنمية ملتهم . حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وفى السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء فى مجلدات يطول عددها — هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته .

« هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون الى الضيم أن ندعى القيام بفروض ديننا ؟ كيف ومعظم الأحكام الدينية موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية ، فان لم يكن الوفاق والميل الى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب الا به ؟ فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا ؟ هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين ؟ وأيسر شيء علينا اقامتهما وعديدنا مئتا مليون أو يزيد ؟ هل يتيسر لنا اذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

« كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ، ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها الا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه . لو أدينا حقوقا تطالبنا بها تلك الكلمة التى تهل بها السنتنا ، وتطمئن قلوبنا بذكرها ، وهى كلمة الله العليا ،

هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ، وهل كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الأعداء الا وأقدامنا فى صياصيهم ، وأيدينا على نواصيهم ؟

ان لأبناء الأمة الاسلامية يقينا بما جاء به شرعهم ، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقـــوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين ؟ ( أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ) ( ولقـــد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ) .

ولا ريبة فى أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا ، وأى صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب الا الصدق فى العمل ؟ هل يود المسلم لو يعمر الف سنة فى الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الايمان ؟ أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وان يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا الا ولا ذمة ، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ويستخلف فيها بعدنا أبنـــاء جلدته والجالية من أمته ؟

« لا . لا . ان المخلصين فى ايمانهم الواثقين بوعد الله فى نصر من ينصر الله الثابت فى قوله ( أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ) لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم ، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية ، فأين المفر ؟

« المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه الا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة ، وأملاكنا ممزقة ، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى من أيدينا ثم لا نبدى حركة ، ولا نجتمع على كلمة ، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد ؟ واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجرى على لسانه شاهد الاسلام .

« ان الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الإسلام . كل هذه صفات كامنة فى نفوس المسلمين قاطبة ،

ولكن دهاهم بعض ما أشرنا اليه فى أعداد ماضية . فألهاهم عما يوحى به الدين فى قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم ، فسهوا وما غووا ، وزلوا وما ضلوا ، ولكنهم دهشوا وتاهوا ، فمثلهم مثل جواب المجاهيل من الأرض فى الليالى المظلمة ، كل يطلب عونا وهو معه ، ولكن لا يهتدى اليه ، وارى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لايصال أصوات بعض المسلمين الى مسامع بعض . لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم فى اقرب وقت . وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام . وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع . وفى تلك البقعة عشير الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم . فما هى الا كلمة تقال بينهم من ذوى مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها سواكن القلوب . هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية . فان أضفت اليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب . وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقى . ذهبت الى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدا يوشك أن يكون فعلا . وهو مما يؤيد الساعين فى هذا المقصد ويهيىء لهم فوزا ونجاحا بعون الله الذى ما خاب قاصده . وهو ربى اليه أدعو واليه أنيب .

## الوسائل لحفظ كيان الدولة

وكتبت فى عدد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ( ٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١ ) مقالة بعنوان ( أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ) .

أوضحت فيها أن البلاد التى أصيبت فى كيانها واستقلالها كانت هى الظالمة لنفسها اذ كانت تثق بأعدائها الطامعين فيها وتتخذ منهم أولياء فكانوا حربا عليها وأن المترفين فى تلك البلاد كانوا صنائع للاستعمار . وأن القوة والعدل هما أساس الملك . فقالت :

« أهلك الله شعوبا ، وأباد قبائل ، ودمر بلادا ، ولا يزال عدل الله يبدل قوما بقوم ويأتى لكل حين بأناس آخرين . فكم سبقت رحمته غضبه ، جعل لكل عمل جزاء ، وعين بحكمته لكل حادث سببا ، ( ولا يظلم ربك أحدا ) . وليست أفعاله جزافا ، ولا يصدر عنه شيء عبثا . أمر الله عباده بالسير فى الأرض ( قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ) ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف ، فيطيعوا أوامره ، ويقفوا عند حدود شرائعه ، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة .

من كان له قلب يعقل وعين تبصر ، وعقل يفقه ، وتتبع حوادث العالم ، وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض فى تواريخ الأجيـــال الماضية ، واعتبر بما قص الله عليه فى كتابه المنـــزل يحكم حكما لا يخالفه ريب ، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت بها نازلة البــلاء ، وما مسها الضر فى شيء ، الا وكانت هى الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله ، وانتهكت حرماته ، ونبذت أوامره العادلة ، وانحرفت عن شرائعه الحقة ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وأولت من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات .

« كما أن للأغذية والأدوية واختلاف الفصول والأهوية اثرا ظاهرا فى الأمزجة بتقدير العزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الانسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر فى الهيئة الاجتماعية . ولهذا كان من رحمته بعباده تحـــديد الحدود ، وتقرير الأحكام ليتبين الخير من الشر ، ويتميز النفـــع من الضر ، فأرسل الرسل ، وانزل الكتب ، فمن خالف الأوامر الالهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لخزى الدنيا وعذاب الآخرة .

« ان تأثير الفـــواعل الكونية فى أطوار الحيـــاة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر . أما تأثير احوال بنى الانسان فى هيئة اجتماعهم ، فيسهل الوقوف على سره لكل ذى ادراك ، ان لم تكن عين بصيرته عمياء .

« ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأى فى المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة فى المنافع الكلية سببا للقوة واستكمال لوازم الراحة فى هذه الحياة الدنيا ، والتمكن من الوصول لخير الأبد فى الآخرة . وجعل التنازع والتغابن علة للضعف ، وداعيا للسقوط فى هوة العجز عن كل فائدة دينوية أو أخروية ، ومهيئا لوقوع المتنازعين فى مخالب العاديات من الأمم . فمن نظر نظرة فى أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ، ولم يكن مصابا بمرض القلب ، وعمى البصيرة، أدرك سر أمر الله فى قوله تعالى ( واعتصموا بحبل الله جميعا ) وسر نهيه فى قوله ( ولا تفرقوا ) وقوله ( ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ) (١) .

« ان الله تعالى جعل الركون الى من لا يصح الركون اليه ، والثقة بمن لا تنبغى الثقة به ، سببا فى اختلال الأمن وفساد الحال ، فمن وثق فى عمله بمن ليس منه فى شيء ، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية ، ولا تصل به رابطة صحيحة ، وليس فى طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته ، أو كتم سره ، ولا ما يحمله على بذل الجهد فى جلب منفعته ، ودفع المضار عنه ، فلا ريب يفسد حاله ، ويسوء مآله ، وان كان مليكا ضاع ملكه ، أو أميرا بطل أمره ، والحوادث شاهدة ، وأحوال المغرورين ناطقة ، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى فى قوله ( لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ) وقوله ( لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ) وسائر نواهيه المبينة على الحكمة البالغة المرشدة الى مصالح الدارين .

« لكل شخص فى طبقته من أمته عمل مفروض عليه ، وواجب يلزمه القيام به ، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة فى هذه الدنيا ،

---

(١) جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم .

ويعد لها مآلا صالحا فى الآخرة . وهو انسان له قلب واحـــد ، لو جعل معظم همــه فى شىء فاته ســائر الأشياء ، فلو توغل فى الشهوات ، وبالغ فى الترف ، وبطر فيما انعم عليه ، فقد أغفــل فرائضه ، واضر بنفسه ، وحرم من منافعه ، وحل به من عقاب الله أشد الوبال ، وخسر الدنيا والآخرة معا . وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره ، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه فى بلدته ، أو يواطنه فى مدينته . .

وهذه آثار المترفين فى كل أمة تنطق بمالا يعجم الا على أذن صماء ، وتشهد بما لا يخفى الا على بصيرة كمهاء (١) ، وان فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة ( وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين ) . . ( حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون . . لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون ) . . ( ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ) هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم ( ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ) .

« ما أوتى الانسان من العلم الا قليلا . لا يمكن الانسان وحـده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ، ولا أن يطلع على منافع فوائده ليكسبها ، أو يكشف مكامن مضاره فيتقنها ، خلق الانسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بنى جنسه ( وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر .

« هذا مما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة ، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمته ، والقى اليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت ارادته ، وهو الوازع فيه والواضع والرافع . لا ريب أن مثل هذا الشخص أحوج الى المشورة والاستفادة من آراء العقـــلاء ،

---

(١) الأكمة : من يفقد نور عينيه منذ ولادته . والأنثى كمهاء .

وهو اشد افتقارا الى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه ، وقد أمر الله نبيه المعصوم عن الخطأ بالمشورة تعليما وارشادا فقال ( وشاورهم فى الأمر ) وقال فيما امتدح به المؤمنين ( وأمرهم شورى بينهم ) .

أى بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم ؟ وأى بصيرة لا تهتدى الى هذا المنهج القويم ؟ ( أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ) .

« ان وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة الى نفسه لرأى أن بلاده فى كل وقت معرضة لأطماع الطامعين ، وأن الحرص المودع فى طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه ، وليستعبدوا أهله ، ويستأثروا بمنافع أرضهم ، وثمار كدهم ، ويمنحوها أبناء جلدتهم . فعليه وعلى من يشركه فى أمره من عماله ، والحكام النائبين عنه فى ايالاته ، وقواد جيشه ، وعلى كل أرباب الرأى ، ومن بهم قوام الملك ، أن يستعدوا لدفع طوارئ العدوان ، ورفع نوازل الغارات الأجنبية . فلو فرطوا فى اعداد لوازم الدفاع ، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الأطماع ، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم ، ويقوى شوكتهم ، بأى وجه كان ، ومن أى نوع كان ، فقد عرضوا ملكهم للهلاك ، والقوا بأنفسهم فى مهاوى الأخطار .

« هذا مما يفهمه الأبلة والحكيم ، ويصل اليه ادارك الجاهل والعليم . وهو سر الافصاح والابهام فى قوله تعالى ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ) أمر باعداد القوة ووكلها الى الطاقة وحكم الاستطاعة ، على حسب ما يقتضيه الزمان . وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم ، هذا أمر الله ينبه الغافل ، ويذكر الذاهل ، ( فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ) .

« اعطاء كل ذى حق حقه ، ووضع الأشياء فى مواضعها ، وتفويض أعمال الملك للقادرين على آدائها ، مما يوجب صيانة الملك

وقوة السلطان ، ويشيد بناء السلطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ نظام الداخل من الخلل ، ويشفى نفوس الأمة من العلل . هذا مما تحكم به بداهة العقل ، وهو عنوان الحكمة التى قامت بها السموات والأرض ، وثبت نظام كل موجود ، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع فى قوله تعالى ( ان الله يأمر بالعدل والاحسان ) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة فى كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله . كذلك الجور فى الجمعيات البشرية يسبب دمارها . لهذا حثت الأوامر الالهية على العدل ، وكثر النهى فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور . والحكام أولى من توجه أليهم الأوامر والنواهى فى هذا الباب . العدل هو الحكمة التى امتن الله بها على عباده ، وقرنها بالخير الكثير فقال ( ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ) وهى مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير .

« من سار فى الأرض ، وتتبع تواريخ الأمم ، وكان بصير القلب، علم أنه ما انهدم بناء ملك ، ولا انقلب عرش مجـــده الا لشقاق واختـــلاف ، أو ثقة بمن لا يوثق به ، وتخلل العنصر الأجنبى ، أو استبداد فى الرأى ، واستنكاف عن المشورة ، واهمال فى اعداد القوة، والدفاع عن الحوزة ، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها ، ووضع الأشياء فى غير مواضعها ، فيكون جور فى الحكم ، واختلال فى النظام ، وفى كل ذلك حيد عن سنن الله ، فيحل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين .

« لو تدبرنا آيات القرآن ، واعتبرنا بالحوادث التى ألمت بالممالك الاسلامية ، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذى ضربه الله لنا ، وأرشدنا اليه ، وبيننا من اتبع أهواء الأنفس وخطوات الشيطان ، ( ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم ) .

فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة ، وقواد الملة المحمدية ، ان يهتموا بتنبيه الغافلين عما أوجب الله ، وايقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين ، ويعلموا الجاهل ، ويزعجوا نفس الذاهل ، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم ، وليستلفتوهم الى ما أعد الله لهم لو استقاموا ، ويحذرهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع الى ما كان عليه النبى وأصحابه ، ورفض كل بدعة، والخروج عن كل عادة سيئة ، لا تنطبق على نصـــوص الكتاب العزيز ، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية ، وما نزل بها من قضاء الله عند ما حادت عن شرائعه ، ونبذت أوامره ( فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ) .

« على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكيرهم وعد الله ووعده الحق فى قوله تعالى ( وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ) . هذه وظيفة العلماء الراسخين . وما هم بقليل بين المسلمين . ولا نظنهم يتهاونون فيما فرض الله عليهم . ووكل الى ذمتهم . وهم أمناء الدين وحملة الشرع ورافعو لواء الاسلام . وأوصياء الله على المؤمنين . أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بأرشادهم .

## ولاء الخديو توفيق للاحتلال

وكتبت فى عـــدد ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٤ ( ٢٢ شـــوال سنة ١٣٠١ النبذة الآتية بعنوان توفيق باشا ) .

« يتوكأ الانجليز على توفيق باشا فى حركتهم بمصر ويتخذونه آلة لتخريب بلاده وهدم ملكه . وما يكون من شر ينسبونه اليه وما عساه يوجد من خير يصلون نسبته بهم ويردونه الى أنفسهم . وفيما بين ذلك يبغضون اليه الولاية الاسلامية ويحببون اليه اغفال الأصول الدينية . وهو يميل معهم ويمدهم فى مقاصدهم ويطوع البلاد لهم بما بقى له من السلطة الصورية . كما يتظاهر بالتـدين

والمحافظة على الصلوات . فان كان باطنه يطابق ظاهره وكان معتقدا بدين الاسلام فعليه أن يتنحى عن الأمر ويترك الملك لمن يستطيع انقاذه مما هو فيه فتبرأ ذمته من العار الذى يلحقه ويلحق بيت محمد على من تصرفه . فان لم يكن هذا فعليه أن يجهر بعقيدته ويقاوم الانكليز بما فى جهده ويموت شهيدا فى سبيل دينه ووطنه . والا فليس يغنى عنه من الله شيئا أن يظهر عند أهل خاصته وحاشيته انه ناقم على الانكليز كاره لوجـــودهم فى بلاد مصر ويود لو يخـــرجون كما أنبأتنا الأخبار الخصوصية من القطر المصرى .

اذا تمادى توفيق باشا فى سيره الملتـــوى فعلى المصريين أن لا يقعوا صيدا فى يد الانكليز بهذه الحبالة البالية وهذا الفخ الواهن ولينظروا فى شئونهم وما توجبه عليهم فروض دينهم ، والا فما الله بغافل عنهم .

وفى هذا المعنى كتبت الجريدة المقالة الآتية فى نفس العدد :

« كثيرا ما أتينا فى جريدتنا على بيان الانكليز فى تملك الهنـــد وتذليلهم لأهاليه وذكرنا ان سيرة الحكومة الانكليزية فى افتتاح البلاد لا تشابه سير الفاتحين الذين يزحفون بخيلهم ورجلهم على الأقطار فيقتلون ويقتلون حتى يتغلبوا على من يريدون . وقلنا ان الانكليز ملكوا نحو ثلث العالم بلا سفك دماء غزيرة ولا صرف أموال وافرة وانما ملكوا ما ملكوا بسلاح الحيلة . يدخلون فى كل بلد أسودا ضارية فى جلود ضأن ثاغية . يعرضون أنفسهم فى صورة خـــدمة صادقين وآمنة ناصحين طالبين للراحة مقومين للنظام . نادينا مرارا بأن الانكليز اذا ارادوا التدخل فى ملك للشرقيين ورأوا أن القائم به رجل حاذق بصير وأن وجوده فى الملك يبطىء سيرهم الى ما يقصدون بادروا الى التشويش عليه . فاما أن يفسدوا عليه قلوب رعيته ويثيروا عليه أحقادها أو يغروا احد أعضاء العائلة المالكة بالعصيان وطلب الملك ليجدوا فى ذلك وسيلة للدخول فى الأمر . أو يتفقوا مع الوزراء على خلع صاحب السلطة ثم ينصبوا بدله

اما ضعيفا أحمق واما صبيا لم يبلغ الرشد ، اما من أبناء المالك أو آقاربه ـ ليتمكنوا من بلوغ مقاصدهم تحت علمه ويبلغوا غاياتهم باسمه ويقطعوا المسافة الطويلة فى مدة قصيرة بلا ممانع ولا عائق مع اصابتهم جزيل الأجر على ما عملوا فى بداية العمل .

الى أن قالت :

من أدق رجال الحكومة الانكليزية فى فن الحيلة وأمهرهم فى صناعة الخدعة وأطولهم باعا فى النفاق وأحذقهم فى اختراع الوسائل لسلب الأملاك من أربابها وأشهرهم فى عداوة المسلمين ذلك اللورد المحموم ( نور ثبروك (١) ) . كان هذا الرجل البارع حاكما فى الهند. فأذاق أهاليه مر العذاب فى كئوس المحبة والوداد . كم خرب بيوتا وقلب عروشا وكم خفض رفيعا وأذل عزيزا وهو فى جميع سيئاته يبكى بكاء الشفقة ويسكب دموع المرحمة على الهنديين ويقـــول اننى أول انكليزى تهمه رفاهة أهل الهند واننى وحيد بين الانكليز بمحبة الهنود والسعى فيما يعود عليهم بالصلاح والنجاح واننى أستغفر الله ان كنت قصرت فى عمل يوصل بهم الى الفلاح . وينادى فى الهنديين بقوله : وأسفاه أنكم الى اليوم ما عرفتمونى ولا أحطتم بما حواه ضميرى من ارادة الخير لكم هذا هو الكاهن الحاذق فى وعظه « ودونه فى النفاق عبد الله بن أبى سلول راس المنافقين فى الاسلام » ان الحكومة الانكليزية عرفت قدره فى براعته ومعرفته بوجوه المكر وخبرته بأحوال الأمراء الشرقيين وسعة علمه بكيفيات التصرف فى عقولهم وأهوائهم وطرق أخذهم من حيث لا يشعرون ـ واعترفت له حكومته بصدق الطوية فى معاداة المسلمين . لأجل هذا قررت أن تبعثه

---

(١) اللورد نورثبروك Lord Northbrook حاكم الهنـــد العام السابق وقد أوفدته انجلترا الى مصر فى أغسطس ســـنة ١٨٨٤ ومهمته درس الحالة فى مصر وتعرف « النصائح » التى ترى بذلها للحكومة المصرية لكى تستأنف بحث ما أخفق فيه مؤتمر لندن . وقد اكرم الخديو توفيق وقادته . وأخذ يزور المصالح والدواوين ويستقبل الموظفين والأعيان كأنه الحاكم بأمره .

على مصر وعزمت على ارساله اليها مفوضا من قبلها يفعل ما يشاء. ولكن لا نظن حبالته الخداعية تصرع فطانة المصريين وتأخـــذ عقولهم . فان تسنى له نجاح ورضى المصريون على أنفسهم عار الذل ووصمة الضيم فلا يكون الا باستعمال توفيق باشا آلة فى جميع أعماله يستخدمه لادخال مصر فى ملك الحكومة الانكليزية . يلقنه الأوامر السامية ويلهمه الارادات السنية لتذليل أهل بلاده وسوق المصريين لقتل أخوانهم وفتح البلاد الثائرة واقرار السلطة فيها للحكومة الانكليزية . فان تم له ما يريد من تسكين الفتن وتقريب المصريين للرضاء بحكومة تنفر منها طباعهم عمد الى خلع توفيق باشا بأية علة وطلب تولية ابنه عباس لكونه ولدا صغيرا لم يبلغ الحلم واستند فى ذلك الى **الفرمانات السلطانية « يحترمونها اذا وافقت أغراضهم »** وجعل نوبار باشا ديوانا له . نوبار باشا لا يقصر فى هذا العمل ولا يألو جهدا فى ابلاغه الى نهايته . نوبار باشا رجل لا هو مسلم فيغار على دينه ولا هو مصرى فيخشى على وطنه ولا هو عربى فتأخذه النعرة على جنسه ، وبهذا الطريق ينال سلطة فى القطر المصرى مدة لا تنقص عن الباقى من عمره ويكون فى أمان من العزل تحت ظل الحكومة الانكليزية .

الى أن قالت :

هذا هو اللورد نورثبروك الذى تريد حكومة انكلترا أن ترمى به مصر . وهذا هو الاصلاح الذى يقصد اجراءه فيها . لكن رجاءنا فى المسلمين وأملنا فى المصريين وقوة ايماننا بوعود الله وصدق النبأ عما تكنه الحوادث المصرية وتألب الدول على معاكسة الحكومة الانكليزية . كل هذا يبشرنا بخيبة هـــذا الغادر فى قصـــده . والله لا يهدى كيد الخائنين .

وفى عدد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ (٢١ ذى القعدة سنة ١٣٠١) كلمة جاء فيها تحت عنوان :

**( تعظيم توفيق باشا نورثبروك )**

« ورد خبر من القاهرة بوصول اللورد نورثبروك اليهـــا .

وحصلت الملاقاة الرسمية بينه وبين توفيق باشا وقدم اليه رقيما من اللورد ( غرانفيل ) يؤذن ان اللورد نورثبروك هو الوكيل الأعلى للحكومة الانكليزية فى القطر المصرى ويطلب من الحكومة المصرية أن تساعده فى حل المشاكل الحالية خصوصا المسائل المالية . فاظهر توفيق باشا غاية المسرة من تعيينه بهذه الوظيفة واكد له خلوص الوداد وكمال الرضا بجميع مطالبه !

« يظهر أن توفيق سر بقدوم اللورد ( نورثبروك ) وان لم يكن بينه وبينه معرفة خصوصية ولا له سابقة علم بأحواله ولا بما يريد ان يعمله فى بلاده . هذا يمكن ولكن ليت شعرى ماذا يجنى هــــذا الخديو الشاب من مراضاة هذا المخادع وماذا يصيبه من سـهام حيله ؟ بينا فى بعض الأعداد الماضية بعض صفات هذا اللورد وطرفا من أعماله فى الهند . ونذكر الآن عملا آخر منها :

طلب وهو حكمدار الهند ان يمكن السلطة الانكليزية من مملكة ( كابورتال ) وهى مملكة واسعة تتاخم لاهور و ( بتيالة ) فادعى على مهراجتها ( ملكها ) أنه مجنون وهو فى رشاد عقله واعتدال مزاجه وخلعه بهذه الدعوى وسجنه فى ( بكسو ) حتى مات حتف انفــه وقيل بالسم . وكان هذا الملك المخلوع ابن « راندهيرســنك » . ونصب بدله ولدا صغيرا من أولاد كاتب من كتاب ذلك الملك ليعد المملكة بذلك للدخول فى حوزة الحكومة الانكليزية .

« كانت الحكومة الانجليزية تركت لبعض الرجوات المخلوعين غابات صغيرة من بقايا أملاكهم للصيد . فكان أولئــــك المساكين يسلون انفسهم على ضياع ممالكهم بصرف بعض الزمان فيها . فلما جاء اللورد ( نورثبروك ) حاكما فى الهنـــد رآها كثيرة عليهم فنزعها من أيديهم وحرمهم من هذه المنفعة الزهيدة . هذا اللورد هو الذى طلب ( سميع الله خان ) الدهرى ليكون معينا له فى مصر على ارضاء المصريين بحكومة الانكليز . وهو الذى أعطى المبـــالغ الوافرة للمعلم ( بالمر ) لينشرها بين العرب حتى يثوروا أيام الحرب

المصرية ، كما أخبرنا الثقة الصادق من لوندرة ، ولكن العرب قتلوا رسوله وشنق به أشخاص فى مصر بلا جرم . هذا اللورد هو الذى يبتهج توفيق باشا بقدومه . صان الله الأراضى المصرية المقدسة من شر هذا المحتال » .

## سنة الله فى الأمم

ونشرت فى عدد ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ( ٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ ) مقالة تحت عنوان ( ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ) .

« تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدى الى الحق والى صراط مستقيم ، ولا يرتاب فيها الا القوم الضالون » .

هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد ؟ هل كذب الله رسله ؟ هل ودع أنبياءه وقلاهم ؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال ؟ نعوذ بالله !!

هل أنزل الآيات البينات لغوا وعبثا ؟ هل افترت عليه رسله كذبا ؟ هل اختلفوا عليه افكا ؟ هل خاطب الله عبيده برموز لا يفهمونها واشارات لا يدركونها ؟ هل دعاهم اليه بما لا يعقلون ؟ نستغفر الله !

اليس قد انزل القرآن عربيا غير ذى عوج ، وفصل فيه كل أمر ، وأودعه تبيانا لكل شىء ؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . هو الصادق فى وعده ووعيده ، ما اتخذ رسولا كذابا ، ولا اتى شيئا عبثا ، وما هدانا الا سبيل الرشاد ، ولا تبديل لآياته ، تزول السموات والأرض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ) .

« يقول الله ( ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ) ويقول ( ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين )

ويقول (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ويقول (ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ) .

هذا ما وعد الله فى محكم الآيات مما لا يقبل تأويلا ، ولا ينال هذه الآيات بالتأويل ، الا من ضل عن السبيل ، ورام تحريف الكلم عن مواضعه . هذا عهده الى تلك الأمة المرحومة ، ولن يخلف الله عهده وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة ، ومهد لها سبيل ما وعدها الى يوم القيامة ، وما جعل الله لمجدها أمدا ، ولا لعزتها حدا .

« هذه أمة أنشأها الله عن قلة ، ورفع شأنها الى ذروة العلى ، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات ، ودكت لعظمتها عوالى الراسيات ، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات ، وذابت للرعب منها أعشار القلوب ، هال ظهورها الهائل كل نفس ، وتحير فى سببه كل عقل ، واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا : قوم كانوا مع الله فكان الله معهم ، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده . هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر ، معوزة من الأسلحة وعدد القتال ، فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها ، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم ، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم ، ولا عاقها صعوبة المسالك ، ولا أثر فى همتها اختلاف الأهوية ، ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ، ولا راعها جلالة ملوكهم ، وقدم بيوتهم ، ولا تنوع صنائعهم ، ولا سعة دائرة فنونهم ، ولا عاق سيرها أحكام القوانين ولا تنظيم الشرائع ، ولا تقلب غيرها من الأمم فى فنون السياسة .

كانت تطرق ديار القوم فيحتقرون أمرها ، ويستهينون بها . وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة وتمحو أسماءها من لوح المجد . وما كان يختلج بصدر أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن فى نفوسها عقائد دينها ، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها ، لكن كان كل ذلك . ونالت تلك الأمة المرحومة على ضعتها مالم تنله أمة سواها .

نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجـدا فى الدنيا ، وسعادة فى الآخرة .

« هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء مائتى مليون من النفوس ، واراضيها آخذة من المحيط الأتلانتيكى الى احشاء بلاد الصين . تربة طيبة ، ومنابت خصبة ، وديار رحبة ، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة ، وأموالها مسلوبة ، يتغلب الأجانب على شعوب هذه الأمة شعبا شعبا ، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة ، ولم يبق لها كلمة تسمع ، ولا أمر يطاع ، حتى أن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم فى ملمة ، ويمسون فى كربة مدلهمة ، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التى تلم بهم ، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم .

« هذه هى الأمة التى كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهن صاغرات ، استبقاء لحياتهن ، وملوكها فى هذه الأيام يرون بقاءهم فى التزلف الى تلك الدول الأجنبية . يا للمصيبة ويا للرزية !!.

« اليس هذا بخطب جلل ، اليس هذا ببلاء نزل .

ما سبب هذا الهبوط ، وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسىء الظن بالعهود الالهية ؟ معاذ الله ! هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا ؟ نعوذ بالله !

هل نرتاب فى وعده بنصرنا بعد ما اكده لنا ؟ حاشاه سبحانه لا كان شىء من ذلك ولن يكون ، فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا الا عليها ، ان الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سننا متبعة ثم قال ( ولن تجد لسنة الله تبديلا ) .

« أرشدنا الله سبحانه فى محكم آياته الى ان الأمم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود ، الا بعد نكوبها عن تلك السنن التى سنها الله على أساس الحكمة البالغة . ان الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وامن

وراحة حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر ، واشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة ، والتدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء ، لعدولهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامة فى الرأى ، والصدق فى القول ، والسلامة فى الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته ، خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على اعلاء كلمتهم ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية وأتوا عظائم المنكرات ، خارت عزائمهم ، فشحوا ببذل مهجهم فى حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة فى الباطل على الموت فى نصرة الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين .

« هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها فى التحلى بالفضائل التى اشرنا اليها ، وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها . سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ، ولا تتبدل بتبدل الأجيال ، كسنته تعالى فى الخلق والايجاد ، وتقدير الأرزاق ، وتحديد الآجال .

« علينا أن نرجع الى قلوبنا ، ونمتحن مداركنا ، ونسبر أخلاقنا ، ونلاحظ مسالك سيرنا ، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالايمان ؟ هل نحن تقتفى أثر السلف الصالح ؟ هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا ، وخالف فينا حكمه ، وبدل فى أمرنا سنته ؟ حاشاه وتعالى عما يصفون ، بل صدقنا الله وعده ، حتى اذا فشلنا وتنازعنا فى الأمر وعصيناه من بعد ما أدى أسلافنا ما يحبون ، واعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئا ، فبدل عزنا بالذل ، وسمونا بالانحطاط ، وغنانا بالفقر ، وسيادتنا بالعبودية .

نبذنا أوامر الله ظهريا ، وتخاذلنا عن نصره ، فجازانا بسوء أعمالنا ، ولم يبق لنا سبيل الى النجاة سوى التوبة والانابة اليه .

كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا

ويستذلون أهلها ، ويسفكون دماء الأبرياء من اخواننا ، ولا نرى فى احد منا حراكا ؟

« هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون فى الدفاع عن أوطانهم وانفسهم شيئا من فضول أموالهم ، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة ، وان كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة ، ومسكنه الهوان .

تفرقت كلمتنا شرقا وغربا ، وكاد يقطع ما بيننا ، لا يحن اخ لأخيه ، ولا يهتم جار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا فى الآخر الا ولا ذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندافع عن حوزته ، ولا نعززه بما نبذل من اموالنا وارواحنا حسبما أمرنا .

« أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة ولا يمس سواد القلوب ؟ هل يرضى الله منهم بأن يعبدوه على حرف ؟ فان أصابهم خير اطمأنوا به ، وان أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ؟ هل ظنوا أن لا يبتلى الله ما فى صدورهم ، ولا يمحص ما فى قلوبهم ؟ الا يعلمون ان الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره واعلاء كلمته لا يبخلون فى سبيله بحال ، ولا يشحون بنفس ؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمنا وهو لم يخط خطوة فى سبيل الايمان ، لا بماله ولا بروحه ؟

« انما المؤمنون هم الذين اذا قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك الا ايمانا وثباتا ، ويقولون فى اقدامهم : حسبنا الله ونعم الوكيل . كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول فى سبيل الله حى يرزق عند ربه ؟ ممتع بالسعادة الأبدية فى نعمة من الله ورضوان كيف يخاف مؤمن من غير الله ، والله يقول ( فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين ) .

« فلينظر كل الى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان ، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتى يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة ، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين ، وما جعله من خصائص الايمان ، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا .

يا سبحان الله ، ان هذه أمتنا أمة واحدة ، والعمل فى صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء . يثبت ذلك نص الكتاب العزيز ، واجماع الأمة سلفا وخلفا ، فما لنا نرى الأجانب يصولون على البلاد الاسلامية صولة بعد صولة ، ويستولون عليها دولة بعد دولة ، والمتسمون بسمة الايمان آهلون بكل أرض ، متمكنون بكل قطر ، ولا تأخذهم على الدين نعرة ، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية ؟ ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن ، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى ، وتتخذوه اماما لكم فى جميع اعمالكم مع مراعاة الحكم فى العمل كما كان سلفكم الصالح .

الا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرؤا منه ( فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت ) .

ألا تعلمون فيمن نزلته هذه الآية ؟ نزلت فى وصف من لا ايمان لهم . هل يسر مؤمنا أن يتناوله هذا الوصف المشار اليه بالآية الكريمة ، أو غر كثير من المدعين للايمان ما زين لهم من سوء أعمالهم، وما حسنته لديهم أهواؤهم ؟ ( أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ) .

« أقول ولا أخشى نكيرا : لا يمس الايمان قلب شخص الا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الايمان ، لا يراعى فى ذلك عذرا ولا تعلة ، وكل اعتذار في القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله .

وها نحن نرى الانكليز دخلوا ارض مصر واخذوا يجولون فى اطرافها ويمهدون السبل لامتلاكها . ومع ذلك لا نرى من اهاها اقداما فعليا لمصادمة القوة الانكليزية . مع ان كل واحد منهم يزعم نفسه فى اعلى درجات الايمان . ويزيد المتعجب عجبا ان مصر يسكنها من المسلمين اقوام مختلفو الشعوب والأجناس . الا يوجد «حلبى» يكون آية لما كان عليه أسلافنا ودليلا على ان تلك الروح الطيبة لم تنزع منا وان الغيرة والحمية وشهامة الايمان لم يزل بها مقام من نفوسنا . لا ريب عندنا ان أية حركة جزئية كانت أو كلية فى أى قطر من الأقطار التى لها تعلق بحكومة الانكليز يوجب احباط اعمالها وتنكيس أعلامها وخيبة آمالها .

اما لو فاتت المسلمين هذه الربكة التى يعانى الانكليز ما يعانون فيها فليستروا وجوههم بقناع الخجل ولا يغشوا انفسهم بدعوى الايمان واتباع القرآن فانما هى الفاظ على طرف اللسان لا تحكى عن عقيدة فى الجنان .

« مع هذا كله نقول : ان الخير فى هذه الأمة الى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة ، وهذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو أن يكون عارضا يزول ، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأحيوا روح القرآن ، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة ، واستلفتوهم الى عهد الله الذى لا يخلف . لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ، ولرأيت نورا يبهر الأبصار ، وأعمالا تحار فيها الأفكار . وان الحركة التى نحسـها من نفوس المسلمين فى أغلب الأقطار هذه الأيام تبشرنا بأن الله قد أعد النفوس لصيحة حق يجمع بها كلمة المسلمين ، ويوحد بها بين جميع الموحدين ، ونرجو أن يكون العمل قريبا ، فان فعل المسلمون واجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم ، صحت لهم الأوبة ، ونصحت منهم التوبة ، وعفا الله عنهم ، والله ذو فضل على المؤمنين ، فعلى العلماء أن يسارعوا الى هـذا الخير ، وهو الخير كله : جمع كلمة المسلمين ، والفضل كل الفضل

لمن يبدأ منهم بالعمل ( ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ) .

## الوهم

من مقالة نشرت فى العدد نفسه :

« الا قاتل الله الوهم . الوهم طورا يكون مرآة المزعجات . ومجلى المفزعات . وطورا يكون ممثلا للمسرات حاكيا للمنعشات . وهو فى جميع أطواره حجاب الحقيقة وغشاء على عين البصيرة . لكن له سلطان على الارادة وحكم على العزيمة . فهو مجلبة الشر ومنفاة الخير .

الوهم يمثل الضعيف قويا والقريب بعيـــدا والمأمن مخافة والموئل مهلكا . الوهم يذهل الواهم عن نفسه ويصرفه عن حسه . يمثل الموجود معدوما والمعدوم موجودا . الوهم فى كون غير موجود وعالم غير مشـــهود يخبط فيـــه خبط المصروع . لا يدرى ماذا ادركه وماذا تركه . الوهم روح خبيث يلابس النفس الانسانية وهى فى ظلام الجهل . اذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام وتسلطت على الارادات فتقود الواهمين الى بيداء الضلالة . فيخبطون فى مجاهل لا يهتدون الى سبيل ولا يستقيمون على طريق .

« كان الانكليز أمة مجتمعة القوى مستكملة العدد مستعدة للفتوحات . وذلك فى زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفريق الكلمة واختلاف الأهواء وحجبت بالجهل عن معرفة أحـوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم . فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحرا وكرامة . فانتهز الانكليز تلك الفرصة واندفعوا الى الشرق وبسطوا ســـلطتهم على غالب أرجائه . وما دهموا سكانه الا ببعض غرائب الصنعة الأوروبية التى أثارت فيهم خواطر الأوهام . ثم زاد الوهم قوة ما نصـــبه الانكليز من حبائل الحيلة والمكر . حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم

عما فى أيديهم بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم . فسلبوا اموالهم وانتزعوا منهم أراضيهم وأجلوهم عن أملاكهم . فاستغنت الأمة الانكليزية بما سلبت . وأثرت بما نهبت . وترفهت بما ملكت . واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة وأنحاء شاسعة وقواها منقسمة على تلك الأقطار متوزعة فيها . فلا ترى فى كل ايالة من ايالاتها الشرقية الا نزرا من العدد والعدد . وهى فى جميعها ضعيفة واهنة لا تستطيع ذودا ولا دفاعا . وان أخف حركة فى تلك الأنحاء توجب زعزعة فى تلك القوة أو هدمها بالمرة . وقد ظهر هذا الأمر على انفس الأمة الانكليزية . فهى دائما فى رجفة على أملاكها فى خيفة من تمزقها وضياعها . تتوجس من كل حادثة فى العالم وتقلق لأية حركة تحدث فى الوجود . وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة فى قوى الانكليز المتوزعة فى الأنحاء الضعيفة فى جميع الأرجاء .

« ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خفيا على الشرقيين محجوبا عنهم بحجاب الوهم .

يمثل الوهم لكل شرقى ان الانكليز على ما كانوا عليه فى ماضى زمانهم . فمثل الشرقيين مع الانكليز كمثل مار فى مغارة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقة فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعا ضاريا ومفترسا قويا . فينكب عن الطريق وهما وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه . يرتعد ويسقط ويموت خوفا أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتشتبه عليه مسالك الوصول الى غايته . وربما صادف مهلكة فى ضلاله ومتلفة فى غيه . بل لا نخطىء ان قلنا ان هذا الوهم كان متسلطا على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين . فالأوروبيون كانوا ينظرون الى انكلترا فى أملاكها البعيدة كما ينظرون اليها فى جزائر بريطانيا . وكانت حكومة انكلترا متحصنة ممتنعة فى هذه القبة الوهمية متربعة على عرش هذه العظمة الخيالية . يحس الانكليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائما

فى ستره ولا ستار أكثف من الوهم . ولهذا نراهم فى كل حادثة يجلبون ويصيحون ويزأرون ليثيروا بالضوضاء هواجس الأوهام فتحول انظار الناظرين وتفشى بصائر المستبصرين فتحول دون استطلاع الحقيقة . والا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الانكليز .

« ذهب الانكليز الى الهند فى قوى مجتمعة . وتسابقوا مع الفرنساويين وهولاندا والبرتغال فى مدن الأراضى الهندية الواسعة . فحازوا فى هذه المباراة قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء والمكر . وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد . أو طيب قلوبهم . فمالت النفوس الى الانكليز اغترارا وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئا فشيئا وما ابقوا لغيرهم من الدول الا مضائق من الأرض لا تذكر . وأول ما استمالوا به القلوب السالمة قولهم اننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة ( فرنسا وهولاندا والبرتغال ) فانها تريد التسلط على ممالكهم . أما نحن ( الانكليز ) فلا نريد الا تحريركم واستقلالكم .

ثم انا نرى للانكليز الآن فى الهند الأصلية والهند الصينية والبرمان (١) سلطة على نحو مائتين وخمسين مليونا من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الانكليزية طالب للتخلص منها يفضل أية سلطة سواها ظالمة كانت أو عادلة كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الأمم أنه لا توجد حكومة فى العالم تبلغ فى ظلمها مبلغ الانكليز ولا تصل الى ما وصل اليه الانكليز فى الكبرياء والجبروت . ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها وشدة ميلهم للتخلص من تلك السلطة الظالمة لا يوجد فيهم قوة لقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة

---

(١) بورما .

الا خمسون ألف جندى انكليزى . مع أنه يوجد من الممالك الصغيرة التى لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقى لها ما لو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندى . هذا فضلا عمن يمكنه حمل السلاح من أهالى البلاد التى دخلت فى الحكومة الانكليزية وزال استقلالها بالمرة . فلولا الوهم الذى استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها بل عما هو موجود فيها ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة فى قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل والهوان . ولو لمح أولئك المساكين انفسهم لمحة اعتبار وادركوا ما آتاهم الله من القوة الطبيعية ونظروا الى ضعف الانكليز فى الحالة الحاضرة لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم وملجأ النجاة تحت أرجلهم وعلموا أن استقلالهم لأنفسهم وبلادهم لا يحتاج الى تجشم تعب ولا تكلف مشقة . ولا يدعو الى بذل أموال وافرة ولا سفك دماء غزيرة .

« يوجد فى الدول الأوروبية من يهاب دولة الانكليز اعتبارا لما فى سلطتها من الممالك الواسعة والأمم العظيمة مما لم يبلغ عده رعية دولة من الدول ويقيس شأنها وقوتها فى تلك الأطراف القاصية بما يراه فى جزائر بريطانيا ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوى قدرتها عليه فى بريطانيا أو تقترب منها . ولم يلتفت الى أن جسم الانكليز قد مد فى الطول والعرض الى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله ( رق حتى انقطع ) . تفرقت قواهم فى بسيط الأرض حتى لم تبق لهم فى موضع قوة . ورعاياهم فى كل صقع فى ضجر لا مزيد عليه . يترقبون فى كل آن زحفا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين .

لو التفتت تلك الدولة التى تهاب انكلترا الى حقيقة الأمر لما احتاجت فى معارضتها ومنازلتها الى تدبر ومشورة . فقد وصل الأمر من الظهور الى حد لا يحتاج الى دقة الفكر لولا حجاب الوهم . قاتل الله الوهم » .

## التنبيه الى مقاصـــد الانكليز

كتبت فى آخر عدد ظهر من العروة الوثقى (العدد الثامن عشر) الصادر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ ( ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ ) مقالة بعنوان ( عماء بعض النـــاس فى مصر او تعاميهم عن مقاصد الانجليز ) وجهت فيها الخطاب الى بعض من خدعوا فى وعودهم . قالت ضمن ما قالت :

« ظهرت مقاصد الانجليز وانكشفت مضمراتهم . وان كان بعض الغفل فى تلك البلاد المنكودة الحظ ( لا نريد نوبار باشا فانه ضارب فى طريقه ذاهب فى مقاصده ) يتزلف للانجليز بكل مايمكنه لينال بهم ما اشرنا اليـــه مرارا ، تســـول لهم انفسهم اما جهــلا واما طمعا . أن يميلوا مع ريح الحكومة الانجليزية لأنهم يظنون أنها لا تقصد بالبلاد المصرية الا خيرا. فاذا فاض الخير فى البلاد وشملت الراحة جميع أنحائها انجلت العساكر الانجليزية عنها كما جاءت اليها ورجعت الى بلادهم .

« والعجب من هــؤلاء المغرورين كيف لم يعتبروا بحركات اللورد نورثبروك يتجول فى البلاد المصرية ويستدعى اليـــه العمد والمشايخ ويذاكرهم فيما يريد طورا بالسر وآخر بالعلن ويجاذبهم أطراف الأحاديث فيما يمكن أن يتخذ وسيلة لتمكين حكومته من الولاية على تلك البلاد . أما كان يكفى هذا السير لدرك الحقيقة ؟ فيم يعلل الغافلون أنفسهم وأى أوهام تخيـــل لهم ما يظنون ؟ الم يكشف الغطاء عن نية السوء سؤال اللورد نورثبورك للشيخ العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر (١) ومفتى القاهرة حيث افتتح الكلام معه بقوله : ماذا تعلم من أفكار الأهالى لو أردنا ( نحن الانكليز أن نديم الاقامة فى البلاد ؟ فلو لم يكن لدولة الانكليز عزم على

---

(١) هو الشيخ محمد العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية صاحب الفتـــاوى المهدية .

تملك وادى النيل فكيف كان هذا السياسى الداهية يبتدر شيخا من اجل المشايخ وأعلاهم مقاما فى القطر المصرى بهذا السؤال مع ان اقل ما فيه اثارة الظنون واحداث الريب ؟! .

أجابه حضرة الشيخ بما يفيد نفرة القلوب من بقاء الانكليز فى معاهد مصر . فاستدرك اللورد ما فرط منه بقوله انا لا نريد البقاء . ولكن كان اســتدراكه مناقضا لما دل عليه أول سؤاله وما الانكار الا خديعة لا تخفى على الصبيان فضلا عن الراشدين . يريد اللورد بهذه المحاولات أن يستكنه مضمرات القلوب ليتبين له ضروب السير الى ما يقصد من التسلط على أرض مصر حتى اذا سد فى وجهه باب حاول قرع باب آخر .

« اما آن لهؤلاء المخدوعين ان يرجعوا لأنفسهم ويمدوا نظر الانتقاد لحركات هذا اللورد . أى اصلاح يقصده اللورد من طرد العساكر المصرية والغاء كل ما يسمى جنـــدا مصريا ومحو هذا الاسم من دفاتر الحكومة المصرية ؟ ان اللورد يلح بكل اهتمام على استبدال الجند المصرى بأعوان الشرطة والخفر المسمى بالضابطة . ما هذا الاهتمام ان لم يكن من قصده تمهيد الطرق للتسلط التام على مصير ؟ هــذا سبيل سلكه الانكليز فى جميع فتوحاتهم كما نبهنا عليه مرارا وأن هذا الكيس الداهية الانكليزى لا يحيد عنه بعد ما سلكه أســلافه قبله وقفاهم عليه عندما كان حكمدار الهنــد وجنوا ثماره . يجتهد بما فى وسعه لطرد العساكر المصرية وابدالهم بالضابطة ليقترح بعد أيام تبديل رجال الضابطة المصريين باقوام من الجيوش الانكليزية البريطانية أو الهندية تعللا بأخلاق المصريين وعدم أهليتهم للخدمة النظامية وعجزهم عن القيام بوظائف الضبط وصيانة الراحة . وبذلك يجرد الحكومة من جميع قواها وتكون السلطة الانكليزية سائدة فى جميع الجهات بلا معارض لها من طرف الحكومة المحلية » .

## احتجاب العروة الوثقى

احتجبت جريدة العروة الوثقى بعد صدور العدد الثامن عشر فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ ( ٢٦ ذى الحجة لسنة ١٣٠ ) فكان هذا العدد آخر ما صدر فيها . وكان أول عدد قد ظهر فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ . فكأنها أستمرت فى الظهور سبعة أشهر .

ويبدو أن تهاون الشرقيين فى الاقبال عليها وامدادها بالعون والتأييد كان السبب الأول لاحتجابها . وكان لمحاربة الانجليز أثر كبير فى احتجابها . فقد منعت دخولها الى مصر والهند كما سلف القول . فالأمم الشرقية والسياسة البريطانية يتحملان معا تبعة وقف هذه الصحيفة التى كانت أقوى صرخة أيقظت النائمين ونبهت الغافلين . ومع قصر المدة التى عاشتها . فانها عملت فى بعث الشرق اكثر مما عملت صحف اخرى فى عدة سنين . ولقد ظل أثرها بعد احتجابها باقيا مدويا فى الأذهان كلما توالت الأيام والأعوام . ولا ريب أن للحكيم الأفغانى والأستاذ الامام الفضل الأكبر فيما بلغته هذه الصحيفة من المكانة الرفيعة والأثر الخالد فى نفوس الشرقيين جميعا .

## انفصل الحكيمان

بعد أن توقفت جريدة العروة الوثقى عن الصدور انفصل الحكيمان وعاد الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الى بيروت ثم الى مصر سنة ١٨٨٩ ( ١٣٠٦ هـ ) . وانقطع عن الكفاح السياسى وانصرف الى الاصلاح الدينى والاجتماعى . أما جمال الدين فاستمر على الكفاح السياسى اذ انه يراه الأساس لنهضة الشرق .

ويبدو ان اختلاف الحكيمين فى هذا الصدد قد بدأ فى باريس فقد أشار الأستاذ الامام على جمال الدين أن يذهبا الى مكان بعيد غير خاضع لسكان دولة تعرقل سيرهما . ثم ينشئان فيه مدرسة

للزعماء ويختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئين من الأقطـــار الاسلامية . ومن يتوسمان فيهم الخير . ثم يربيانهم على منهج قويم يختارانه . ويعدانهم للزعامة والاصلاح . ولكن جمال الدين لم يقبل هذا الراى وعده تراجعا عن الكفاح السياسى وتثبيطا للعزيمة . ورجح راى جمال الدين مؤقتا فأصدر الحكيمان جريدة العروة الوثقى . وبدأ من اسلوب الجريدة أن الأستاذ الامام اقتنع برأى أستاذه . على انه حين عاد الى مصر سنة ١٨٨٩ رجع الى فكرته التى أبداها فى باريس وانقطع الى الاصلاح الاجتماعى والدينى . وبلغ فيه الدروة . ولقد قلت فى هذا الصدد سنة ١٩٢٧ فى كتابى عن ( الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ) « ونقطة الضعف فى شخصية ( الأستاذ الامام ) هى تخلفـــه عن الكفاح السياسى . واختلافه فى هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغانى . ولقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته الى مصر سنة ١٨٨٩ . فترك أستاذه يعانى متاعب الكفاح السياسى وآلامه ومرارته وكان من قبل عضده وساعده الأيمن . وانك لتلمح تراخى الصلات بينهما ـ حتى الصلات الشخصية ـ منذ ان عاد الى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين من قراءة منتخبات الأستاذ الامام (١) فانك لا تجد فيها رســـالة واحدة كتبها الى السيد فى محنته ومنفاه . بل ان جمال الدين توفى سنة ١٨٩٧ فلا تجد للأستاذ الامام كلمة فى رثاء أستاذه الروحى والفلسفى وزميل جهاده فى ( العروة الوثقى ) . وهذه الناحية هى أثر من آثار الاحتلال »(٢) .

## جمـــال الدين وريـنـــان

جرت لجمال الدين فى باريس ابحـــاث مع الفيلسوف الفرنسى أرنست رينـــان Irnest Renane فى العلم والاســـلام . فقـــد ألقى رينان فى ( السوربون ) محاضرة فى هذا الموضوع قال فيها : أن

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام للسيد محمد رشـــيد رضا الجزء الثانى .

(٢) الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ص ٥٤٢ الطبعة الأولى .

انتاج الأمم غير العربية أكثر من انتاج الأمم العربية . وان التمدن اكثره من انتاج الفرس وغيرهم دون العرب . وزعم أن الاسلام لا يشجع على العلم والفلسفة . والبحث الحر . وان من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو احرقت كتبه . او كان في حماية خليفة أو أمير من المؤمنين . وقد نشرت هذه المحاضرة في جريدة الديبا الفرنسية Journal des-Dêbats وكان ممن رد عليه رئيس البعثة المصرية بفرنسا حينذاك .

ورد جمال الدين على هذه المحاضرة . ونشر رده في جريدة الديبا . وخلاصة رده : أن ما ذكره رينان عن الاسلام ليس هو من طبيعته ونتيجة تعاليمه . بل من عمل بعض من اعتنقوا الاسلام في بعض العهود . وان الاضطهاد الذى قال عنه رينان قد وقع مثله في الأديان الأخرى . فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية لم يتركوا هذا السلاح حتى الآن . وأما عن قوله ان الاسلام لا يشجع العلم . فان الكل يعلم ان الشعب العربى خرج من حال البداوة التى كان عليها قبل الاسلام واخذ يسير في التقدم العلمى والفكرى ويسير في هذا المجال بسرعة لا تعادلها الا سرعة فتوحاته السياسية . فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب وفى كل البلاد التى انضمت لسيادتهم .

وقد أكبر رينان هذا الرد . والتقى به وتباحث واياه في الموضوع وأعجب رينان بعبقريته وسعة علمه وقوة حجته وقال عنه « كنت أتمثل أمامى عندما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد . أو واحدا من أساطين الحكمة الشرقيين » وقال ان جمال الدين الأفغانى خير دليل يمكن أن نسوقه على النظرية التى طالما أعلناها وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس .

# الفصل السادس

## فى فارس وروسيا وتركيا

أخذ جمال الدين ينتقل بين باريس ولندن الى أوائل فبراير سنة ١٨٨٦ ( جمادى الأولى سنة ١٣٠٣ ) .

### فى فارس

ثم استدعاه ناصر الدين شاه فارس فلبى الدعوة وقصد الى طهران فاستقبله الشاه بصدر رحب . واثنى على فضله وجعله مستشاره الخاص فى اصلاح شئون بلاده . فكان له نعم المرشد الأمين . وكانت لهجته صريحة كعادته فى نصح الشاه . وأشار عليه بتغيير كل شأن معيب من شئون الحكومة . وقال بضرورة اشتراك الأمة في الحكم . على أن الشاه لم تألف نفسه اقامة الشورى فى بلاده . فتنكر لجمال الدين اذ رآه ميالا الى اقامة النظم الدستورية .

ولما أدرك جمال الدين تغير الشاه استأذنه فى السفر فأذن له .

### فى روسيا

فذهب الى روسيا وزار عواصمها . فاستقبله الخاصة بالتجلة والاحترام لما سمعوه من مكانته . وكتب عدة مقالات فى الصحف الروسية وكانت لهجته معبرة فى اظهار دسائس السياسة الانجليزية .

وقد دعاه القيصر لمقابلته . واحتفى به كثيرا . على أن القيصر فى خلال حديثه معه سأله عن سبب اختلافه مع الشاه . فذكر له

رايه فى الحكومة الشورية وأن الشاه لا يشاطره رايه فيها وينفر منها . ولم يكن القيصر ايضا يقبل هذا النوع من الحكم فقال : « انى أرى الحق فى جانب الشاه اذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟ » .

فلم يسكت جمال الدين على كلام القيصر . وأجابه فى جراة وفصاحة : « أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون الملايين من رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداء يترقبون الفرص ويكتمون فى الصدور سموم الحقد والانتقام » . فبهت القيصر من هذا الرد . وعلت وجهه علامة الغضب وقطب حاجبيه . ولم يطل الحديث بعد ذلك بل قام من مجلسه ايذانا بانتهاء المقابلة . وودع جمال الدين بغير الشكل الذى استقبله به . اذ كان وداعا فاترا ثم أوعز الى كبار رجال حاشيته أن يسرعوا متلطفين لاخراجه من روسيا .

## فى فارس مرة أخرى

ترك جمال الدين روسيا . وأخذ يتجول فى أوروبا . ولما كان معرض باريس العام سنة ١٨٨٩ رجع جمال الدين اليها ، وفى عودته منها التقى بالشاه فى ميونخ عاصمة بافاريا ، فاعتذر له عما فرط منه ودعاه الى صحبته اذ كان يرغب فى الانتفاع بعلمه وتجاريبه ، فأجاب الدعوة ، وسار معه الى فارس ، وأقام فى طهران ، فحفه علماء فارس وأمراؤها وأعيانها بالرعاية والاجلال .

واستعان به الشاه على اصلاح أحوال المملكة وسن لها القوانين الكفيلة باصلاح شئونها . فعمل بجد فيما عهد اليه ووضع مشروع دستور لفارس يجعلها ملكية دستورية ، ولكنه استهدف لسخط أصحاب النفوذ فى الحكومة ، وخاصة الصدر الأعظم ، فوشوا به عند الشاه ، وأسر اليه الصدر الأعظم أن هذه القوانين وخاصة الدستور تؤول الى انتزاع السلطة من يده ، فأثرت الوشايات فى نفس الشاه ، وبدأ يتنكر للسيد ، ولما اطلع على مشروع الدستور

هاله الأمر حين رأى أن حكمه سيكون مقيدا وأن المجلس النيابى الذى يفرضه الدستور سيجعل الأمة أوسع سلطانا من الشاه . فقال لجمال الدين : « أيصح أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك ملوك الفرس ( شاهنشاه ) كأحد أفراد الفلاحين ؟ » فقال جمال الدين : « اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وانفذ واثبت مما هى الآن . واسمح لاخلاصي أن أؤديه صريحا قبل فوات وقته . لا شك يا عظمة الشاه أنك رأيت وقرات عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك . ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية ؟ » .

جاء هذا الحديث مصدقا لما وشى به الصدر الأعظم لدى الشاه فنفر من جمال الدين نفورا شديدا وأحس بهذا التعبير فى موقف الشاه حياله ، فاستأذن فى المسير الى المقام المعروف ( بشاه عبد العظيم ) على بعد عشرين كيلومترا من طهران ، فأذن له ، فوافاه به جم غفير من العلماء والوجهاء من أنصاره فى دعوة الاصلاح ، فازدادت مكانته فى البلاد ، وتخوف الشاه عاقبة ذلك على سلطانه ، فاعتزم الاساءة اليه ، ووجه الى ( شاه عبد العظيم ) خمسمائة فارس قبضوا عليه ، وكان مريضا ، فانتزعوه من فراشه ، واعتقلوه ، وساقه خمسون منهم الى حدود المملكة العثمانية ، فنزل بالبصرة ، فعظم ذلك على مريديه ، واشتدت ثورة السخط على الشاه .

## دعوة جمال الدين ضد الشاه

أقام السيد بالبصرة زمنا حتى أبل من مرضه ، ثم ارسل كتابا الى كبير المجتهدين فى فارس ميرزا محمد حسن الشيرازى ، عدد فيه مساوىء الشاه ، وخص بالذكر تخويله احدى الشركات الانجليزية حق احتكار التنباك فى بلاد فارس ، وما يفضى اليه من استئثار الأجانب بأهم حاصلات البلاد ، وكان هذا النداء من أعظم الأسباب التى جعلت كبير المجتهدين يفتى بحرمة استعمال التنباك الى ان

يبطل الامتياز ، فاتبعت الأمة هذه الفتوى ، وأمسكت عن تدخينه، واضطر الشاه خوف انتقاض الأمة الى الغـــائه ، ودفع للشركة الانجليزية تعويضا ، فخلصت فارس وقتئذ من التدخل الأجنبى .

## شخوصه الى أوروبا

مكث جمال الدين بالبصرة ريثما عـــادت اليه صحته ، ثم شخص الى لندن ، فتلقاه الانجليز بالاكرام ، ودعوه الى مجتمعاتهم السياسية والعلمية ، وحمل على الشاه وسياسته حملات صادقة فى مجلة سماها ( ضياء الخافقين ) ، ودعا الأمة الفارسية الى خلعه ، وقويت دعوة الحرية فى ايران ، واشتد السخط على الشاه ناصر الدين الى أن قتل سنة ١٨٩٦ بيد فارسى أهوج ، وقيل أن للسيد دخلا فى التحريض على قتله ، وتولى بعده مظفر الدين ، واستمرت دعوة الحرية التى غرسها جمال الدين فى ايران تنمــو وتترعرع حتى آلت الى اعلان الدستور الفارسى سنة ١٩٠٦ .

## ذهابه الى الاستانة واقامته بها

وفيما هو بلندن ورد عليه كتاب من المابين الهمايونى (١) بواسطة رستم باشا سفير تركيا بدعوته الى الاستانة ، فاعتذر أولا ، ثم ورد عليه كتاب آخر بتكرار دعوته فلبى الطلب ، وذهب الى الاستانة سنة ١٨٩٢ .

وكانت هذه هى المرة الثانية لوروده هذه المدينة ، والمرة الأولى كانت فى عهد السلطان عبد العزيز كما تقدم بيانه .

وقد يبدو غريبا أن السلطان عبد الحميد الذى كان نصـــيرا للاستبداد وخصما للحرية ، يدعو الى جواره أكبر زعيم للحـــرية فى الشرق ، وأغلب الظن أنه أراد أن يخدم سياسته فى الجامعـــة الاسلامية باستضافته فيلسوف الاسلام ، لكى يظهر للعالم الاسلامى أنه يرعى العلم والعلماء من الأمم الاسلامية كافة ، ومن ناحية أخرى

(١) السراى السلطانية .

فان تركيا كانت هدفا للمطامع الاستعمارية وكانت تحـــاربها . فبديهى أن رائد التحرر من الاستعمار يرحب بزيارة الأستانة لعله يتخذ منها قاعدة لمحاربة الاستعمار . ولو أن تركيا قرنت هذه الدعوة باقامة دعائم الشورى فى بلادها واصلاح ما فسد من شئون الحكم واعترفت للعرب بحقوقهم ووقفت حيالهم موقفا كريما . لتغير مركزها ولصارت أكثر صمودا للحملات الاستعمارية الأوروبية .

وقد لبى جمال الدين دعوة السلطان ، آملا أن يرشـده الى اصلاح الدولة العثمانية ، لأن مقصده السياسى هو انهاض دولة اسلامية أيا كانت الى مصاف الدول العزيزة القوية ، فسار الى الآستانة لتحقيق هذا المقصد ، وحفه عبد الحميد بالرعاية والاكرام ، وأنزله منزلا كريما فى قصر بحى ( نشان طاش ) ، من أفخم أحياء الآستانة ، وأجرى عليه راتبا وافرا ، قيل انه خمس وسبعون ليرة عثمانية فى الشهر .

ومضت مدة وجمال الدين له عند السلطان منزلة عالية ، ثم ما لبث أن تنكر له ، وأساء به الظن ، اذ كان من اخص صـــفات عبد الحميد اساءة الظن بالناس كافة ، وخاصة بمن يتصلون به ، والاستماع الى الوشايات والدسائس ، وكان الشيخ أبو الهدى الصيادى الذى نال الحظوة الكبرى عند مولاه يكره أن يظفر أحد بثقته . فوشى بالسيد عند السلطان وأوغر عليه صدره فأحيـط السيد بالجواسيس يحصون عليه غدواته وروحاته ويرقبون حركاته وسكناته .

وقيل ان من أسباب استماع عبد الحميد لوشايات الواشين أن السيد جمال الدين التقى مرة بالخديو عباس حلمى الثانى خديو مصر اذ كان يرغب عباس فى مقابلته لما كان يسمعه وهو على الأريكة الخديوية عن فضل الفيلسوف الأفغانى . فلما طلب مقابلته كان جوابه : انه لابد لذلك من اذن السلطان . فاستأذن غير مرة بواسطة بعض رجال المابين . فكانوا يرجئون ويسوفون فى الجواب . وبينما

كان جمال الدين جالسا فى المتنزه المعروف ( بالكاغدخانة ) بالاستانة فى أصيل أحد الأيام جاء الخديو عباس حلمى وحياه وجلس واياه يتحدث اليه . فطار الجواسيس الى السلطان بالخبر . فأرسل يستدعيه اليه ولما لقيه قال : أتريد أن تجعلها عباسية ؟ يشير الى الخلافة . فقال جمال الدين : « ان بنى العباس قد انقرضوا . وبنو على أولى » . ولم يكن يعتقد أن السلطان يقصد عباس حلمى فى حديثـــه .

فبمثل هذه الأوهـــام كان الجواسيس يوسوسون للسلطان ويوغرون صدره على جمال الدين .

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان فى هذا الصـــدد فى كتاب « حاضر العالم الاسلامى »(١) أن السيد كان وعبد الله نديم الكاتب والخطيب المصرى المشهور فى متنزه ( الكاغدخانة ) ، فصادفا الخديو عباس حلمى وسلم بعضهم على بعض وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك ، فقيل أن الشيخ أبا الهدى قدم تقريرا للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديو على الاجتمـــاع فى ( الكاغدخانة ) ، وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة ، ويقول الأمير شكيب : ان السلطان بحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشاية (٢) ، ولكنا نميل الى الاعتقاد أنها تركت أثرا فى نفسه ، وغيرت قلبه على السيد .

وذكر أن الذى أدى الى وحشة السلطان منه استمراره فى مجالسه على القدح فى شاه العجم ناصر الدين ، مما حمل سفير ايران على الشكوى منه الى السلطان ، فاستدعاه ، وطلب اليه الكف عن مهاجمة الشاه ، فقبل ، وكان فى يده حين قابل السلطان سبحة .

---

(١) تأليف المستر ستودارد الأمريكى وتعريب الأستاذ عجاج نويهض وفيه فصول وتعليقات قيمة للأمير شكيب أرسلان .

(٢) حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٢٠٣ .

فجمعها في كفه وقال بصوت جهوري : « امتثالا لاشارة أمير المؤمنين فاني من الآن قد عفــوت عن الشـــاه ناصر الدين » . فدهش عبد الحميد من هذا الجواب وقال له « بحق يخاف منك الشاه خوفا عظيما » .

وخرج جمال الدين من حضرة السلطان الى حجرة رئيس الأمناء فقال له بلطف « يا حضرة السيد ان اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل . واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وانت تلعب بالسبحة فى حضرته » .

فقال جمال الدين « سبحان الله ان جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة . وليس من يعترض منهم . أفلا يكون لجمال الدين حق فى أن يلعب بسبحته كيف يشاء ؟ » فترك رئيس الأمناء حجرته مهرولا خائفا من كلام جمال الدين .

وكان يخاطب السلطان بشجاعة لا يستطيع غيره أن يقلده فيها . ولم يدخر وسعا فى تحذيره من الخونة من رجاله حتى قال له يوما :«ياجلالة السلطان مللت من تعاطينا الشكاية . ومن غيرك صاحب الأمر ؟ خذ بحزم جدك محمـــود وأقص الخائنين من خاصتك الذين يبعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال فى الولايات . خفف الحجاب عنـــك واظهر للملأ ظهورا . يقطع من الخائنين الظهور . وأعتقد أن نعم الحارس الأجل » .

وعند ذلك تنفس السلطان الصـــعداء وقال « ذكرتنى بعهـــد جدى محمود . وما أبعد الفرق بين محيطى ومحيطه . من حالة أوروبا فى زمانه وحالتها اليوم . بين رعيته والرعية اليوم » .

ولكن حدث أن قتل الشاه سنة ١٨٩٦ فاشتدت الريبة فى جمال الدين ، واتجهت اليه شبهة التحريض على قتله ، فأمر السلطان بتشديد الرقابة عليه ، ومنع أى أحد من الاختـــلاط به الا بارادة سلطانية ، فأصبح السيد محبوسا فى قصره .

## مرضه ووفاته

تواترت الروايات بأن جمال الدين مات شبه مقتول ، وتدل الملابسات والقرائن على ترجيح هذه الرواية ، فان اتهامه بالتحريض على قتل الشاه ، وتغير السلطان عبد الحميد عليه ، وحبسه فى قصره ، ووشايات أبى الهدى الصيادى » ، مما يقرب الى الذهن فكرة التخلص منه بأية وسيلة ، هذا الى أن الغدر والاغتيال كانا من الأمور المألوفة فى الآستانة .

واصدق الروايات وأحقها بالثقة فيما نعتقد ، ما ذكره الأمير شكيب ارسلان فى كتاب (حاضر العالم الاسلامى) ، قال ما خلاصته: « انه لما اشتد التضييق على السيد جمال الدين أرسل مستشار السفارة الانجليزية يطلب منه ايصاله الى باخـرة يخـرج بها من الآستانة ، فجاءه المستشار وتعهد له بذلك ، فلما بلغ السلطان الخبر أرسل اليه أحد حجابه يستعطفه أن لا يمس كرامته الى هذا الحد ، ولا يلتمس حماية أجنبية ، فثارت فى نفسه الحمية والأنفة، وأخبر مستشار السفارة بأنه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن ، ولكن الرقابة عليه بقيت كما كانت ، وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى فمه مرض السرطان ، فصدرت الارادة السلطانية باجـــراء عملية جراحية يتولاها الدكتور قمبور زاده اسكندر باشا كبير جراحى القصر السلطانى ، فأجرى له العملية الجراحية ، فلم تنجح، وما لبث الا أياما قلائل حتى فاضت روحه ، ومن هنا تقـــول الناس فى قصة هذا السرطان ، وهذه العملية الجراحية لقـــرب عهد المرض بتغير السلطان على السيد ، وما كان معروفا من وساوس عبد الحميد ، فقيل ان العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمدا ، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا ، بحيث انتهت بموت المريض ( ١ ) .

---

(١) حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٠٤ .

وذكر الأمير شكيب ان المستشرق المعروف الكونت ( لاون استروروج ) حدثه أن المترجم كان صديقه ، فدعاه اليه بعد اجراء العملية الجراحية ، وقال له ان السلطان أبى أن يتولى العملية الا جراحه الخاص ، وانه هو رأى حال المريض ازدادت شدة بعد العملية ، ورجا منه أن يرسل اليه جراحا فرنسويا مستقل الفكر ، طاهر الذمة ، لينظر فى عقب العملية ، فأرسل اليه الدكتور ( لاردى ) ، فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وأن المريض قد اشفى بسبب ذلك ، وعاد الى استروروج ، وانبأه بهذا الأمر المحزن ، ولم تمض أيام حتى فارق جمال الدين الحياة .

وذكر واحد ممن كانوا فى خدمة عبد الحميد ، بعد أن روى له الأمير شكيب هذه القصة ، أن قمبور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الجريمة ، وحقيقة الواقعة انه كان بالآستانة طبيب أسنان عراقى اسمه ( جارح ) ، يتردد كثيرا على جمال الدين ، ويعالج أسنانه ، وكانت نظارة الضابطة ( ادارة الأمن العام ) قد استمالت ( جارح ) هذا بالمال ، وجعلته جاسوسا على السيد ، وصار له عدوا فى ثياب صديق ، وقال صاحب هذه الرواية انه أراد مرة أن يمنع الطبيب المذكور من الاختلاط بجمال الدين ، فأشار اليه ناظر الضابطة اشارة خفية ، بأن يتركه ، وفهم من الاشارة أنه يذهب الى السيد ، ويعالج أسنانه ، بعلم من النظارة ، والسيد لا يعلم بشىء من ذلك ، ويطمئن الى ( جارح ) ويثق به ، ولم تمض عدة أشهر على حادثة الشاه حتى ظهر السرطان فى فك السيد من الداخل ، وأجريت له عملية جراحية ، فلم تنجح ، وجارح هذا ملازم للمريض ، وبعد موته كانوا يرونه دائما حزينا كئيبا ، يبدو على وجهه الوجوم والخزى ، مما جعلهم يشتبهون أن يكون له يد فى افساد الجرح بعد العملية ، أو فى توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل ،

ولما مات السيد بدأ الندم على الطبيب الأثيم وشعر بوخز الضمير يؤنبه على خيانته هذا الرجل العظيم .

وكانت وفاته صبيحة الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧ ، وما أن بلغ الحكومة العثمانية نعيه حتى أمرت بضبط أوراقه وكل ما كان باقيا عنـــده ، وامرت بدفنه من غير رعاية أو احتفال فى مقبرة المشايخ بالقرب من نشان طاش ، فدفن كما يدفن أقل الناس شأنا فى تركيا ، وظل قبره هناك الى أن نقـــل رفاته الى أفغانســـتان سنة ١٩٤٤ .

---

# الفصل السابع

## صفاته وأخلاقه وشخصيته

### صفاته وأخلاقه

وصفه تلميذه الأكبر الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :
« انه يمثل لناظره عربيا محضا ، من أهالي الحرمين ، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين ، من سكنة الحجاز ، ربعة في طوله ، وسط في بنيته ، قمحي في لونه ، عصبي دموي في مزاجه ، عظيم الرأس ، في اعتدال ، عريض الجبهة ، في تناسب ، واسع العينين ، عظيم الأحداق ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل في النظر ، هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلقه ، ما ينطبق على كمال خلقه ، أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته ، وله حلم عظيم ، يسع ما شاء الله أن يسع ، الى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه . فينقلب الحلم الى غضب ، تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب ، اذا هو أسد وثاب ، وهو كريم ، يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر ، عظيم الأمانة ، سهل لمن لاينه ، صعب على من خاشنه ، طموح الى مقصده السياسي ، اذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه ، وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بزخارفها ، ولو بعظائم الأمور ، عزوف عن صغارها ، شجاع ، مقدام ، لا يهاب الموت ، كأنه لا يعرفه ، الا أنه حديد المزاج ، وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة ، الا أنه صار اليوم في رسوخ الأطواد وثبات الأفناد،

فخور بنسبه الى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، لا يعـــد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر ، وبالجملة ففضله كعلمه ، والكمال لله وحده » .

وقال أيضا : « بقى علينا أن نذكر وصفا لو سكتنا عنه سئلنا عن اغفاله . وهو أنه كان فى مصر يتوسع فى اتيان بعض المباحات . كالجاموس فى المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار . وكان مجلسه فى تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية . فكان بعيدا عن اللغو منزها عن اللهو . وكان يوانيه فيها كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم . وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه . لكن الله يحب أن تؤتى رخصـــــه . كما يحب أن تؤتى عزائمه . واى غضاضة على المرء المؤمن فى أن يخرج بعض همه بما أباح الله له . هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الأفغانى أتينا به دفعا لما افتراه عليه الجاهلون . ولو سلكنا فى تاريخه مسلك التفضيل لأدى بنا الى التطويل » .

وذكر عنه الأمير شكيب أرســـــلان أنه كان يعظم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات الا اللذة العقلية العالية ، وأن السلطان عبد الحميد حاول أن يعلق قلبه بالمال والبنين ، ويشغله بزينة الدنيا ، وراوده على الزواج ، فأبى وأعرض ، وكان ينظـــر الى المال نظره الى التراب ، فلا يدخره ، ولا يتناول منه الا ما هـــو ضرورى للحياة ، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضى عسكر مثلا ، فأبى أن يقبل الرتبة وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب ، وكذلك رفض قبول أى وسام مهما كان عاليا .

وقال عنه ( أديب اسحق ) وكان من تلاميذه « عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مريديه ومحبيه طول مدة الاقامة بالمحروسة ( القاهرة ) والاسكندرية . أنه أسمر اللون ، ربعة ممتلىء ، قـوى البنية ، جذاب النظر ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، بجبة وسراويل سوداء تنطبق على الكاحلين ، وعمامة

صفيرة بيضاء على زى علماء الآستانة ، عزب ، عفيف النفس ، قانت . كثير القيام ، لا ينام الا الغلس الى الضحى ، ولا يأكل غير مرة واحدة فى اليوم ، على أنه يكثر من شرب الشاى والتدخين ، قوى العارضة طويل الحجة ، واسع المحفوظ ، نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك أستار الستائر ، ولكنه على فضله ، لا يسلم من حدة المزاج » .

## علو نفسه

ويلوح لنا أن ابرز صفة فى جمال الدين علو النفس ، ولعلها الصفة الجامعة التى تصدر عنها صفاته الاخرى واخلاقه ، وقد احتفظ بها فى اشد الأوقات حرجا ، ولازمته عند اشتداد المحن ، وتعاظم الخطوب ، مما دل على أنها غريزة طبعت عليها نفسه العالية ، وحسبك دليلا على ذلك ما كان من موقفه حين نفى من مصر فى أوائل عهد الخديو توفيق ، فقد أنزل الى البحر فى السويس خالى الجيب ، فجاءه قنصل ايران فى ذلك الثغر ، وكان معه جماعة من الماسونية ، ومعه نفر من تجار العجم ، وقدموا اليه مقدارا من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن ، فأبى أن يأخذ منه شيئا ، وقال لهم « احفظوا المال فأنتم اليه أحوج ، ان الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب » .

وهذه الكلمة وحدها تصور لنا شخصية جمال الدين وعظمته النفسية ، وتصلح أن تكون عنوانا لتاريخه المجيد .

## عقيدته

قال الأستاذ الامام عن مذهبه وعقيدته « اما مذهب الرجل فحنيفى حنفى ، وهو وان لم يكن فى عقيدته مقلدا ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة . مع ميل الى مذهب السادة الصوفية رضى الله عنهم ، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبه ، وعرف بذلك بين معاشريه فى مصر ايام اقامته بها ، ولا يأتى من الأعمال الا ما يحل فى مذهب امامه ، فهو اشد من رأيت فى المحافظة على

أصول مذهبه وفروعه ، أما حميته الدينية فهى مما لا يساويه فيها أحد ، يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله » .

## الرد على الدهريين

تدل رسالته فى ( الرد على الدهريين ) على أنه مؤمن صادق الايمان ، يدعم العقيدة الاسلامية على أسس المنطق والحكمة العقلية ، فهو فيلسوف من فلاسفة الاسلام الأعلام .

وسبب وضعه لهذه الرسالة انه كان فى الهند طائفة تعتنق مذهب الدهريين وتسمى ( النتشرية ) وهى كلمة انجليزية نسبة الى Nature ، ومعناها الطبيعة وقد ترددت هذه الكلمة حين اقامة جمال الدين فى حيدر أباد . وسأله الأستاذ محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بحيدر أباد عن حقيقة هذا المذهب فى كتاب قال فيه « يقرع سمعنا فى هذه الأيام صوت « نيتشر » ويصل الينا من جميع الأقطار الهندية . ولا تخلو بلدة من جماعة يلقبون بهذا اللقب ( نيتشرى ) . فما حقيقة النيتشرية وما مذهبهم وفى أى وقت ظهروا ؟ فكان جواب جمال الدين تأليف رسالته ( الرد على الدهريين ) .

وقد وضع الرسالة باللغة الفارسية التى كانت شائعة بين المسلمين من الطبقة المثقفة بالهند . ونقلها الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الى اللغة العربية أيام كان منفيا ببيروت عقب اخماد الثورة العرابية . ويفهم من مقدمة الأستاذ الامام لترجمة الرسالة أن حكومة الهند الانجليزية كانت تمد للدهريين فى حبل الغواية لتزلزل عقائد الأمة فى الدين وتضعف من مقاومتها للاستعمار البريطانى ، وتلك سياستها فى مختلف البلدان . قال الأستاذ الامام فى مقدمة الترجمة « نحمد الله على الهداية . ونعوذ به من الغواية . ونصلى ونسلم على خاتم رسله . وآله وصحبه هداة سبله . وبعد فقد أتيح لى الاطلاع على رسالة فارسية فى نقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل ، محيط المعرفة الشامل . الشيخ جمال الدين

الحسينى الأفغانى · أما الشيخ فله من لســـان الصدق ورفيع الذكر . ما لا يحتاج معه الى الوصف . وأما الرسالة فعلى ايجازها قد جمعت لارغام الضالين . وتأييد عقائد المؤمنين . ما لم يجمعه مطول في طوله . وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة ما لم يحوه مفصل على تفصيله . دعاه الى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان فى البلاد الهندية . عندما راى حكومة الهند الانجليزية تمد فى الغى جماعة من سكان تلك البلاد . اغراء لهم بنبذ الأديان . وحل عقود الايمان . وأن كثيرا من العامة فتنوا بآرائهم . وخدعوا عن عقائدهم . وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ما تدعيه تلك الجماعة الضالة . وممن سأله فى ذلك حضرة الفاضل مولاى محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بمدينة حيدر اباد الدكن من بلاد الهند . فأجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بانشاء رسالة فى بيان ما كثر السؤال عنه ، وقد حدانى علو الموضوع وسمو منزلة الرسالة عنه الى الاجتهاد فى نقلها من لغتها الى اللغة العربية . فتم لى ذلك بمساعدة عارف أفندى الأفغانى تابع الشيخ المؤلف ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة ان شاء الله » (١) .

وأهم ما فى الرسالة اثبات قيمة الدين وضرورته للانسان وأثره فى رقيه وتقدمه . وأثر الالحاد فى انحطاطه .

وهى تفنيد لمذهب الدهريين . وبيان مفاسدهم . واثبات أن الدين أساس المدنية وأن الكفر فساد للعمران .

وخلاصة رأى السيد أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع فى نفوسهم ثلاث خصال . كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية . وأساس محكم لمدينتها . وفى كل منها حافز يحث الشعوب على التقدم لغايات الكمال والرقى الى ذرى السعادة . ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر ويزعها عن مقارفة الفساد .

العقيدة الأولى : التصديق بأن الانسان ملك أرضى وانه اشرف

(١) ص ٢ من رسالة الرد على الدهريين .

المخلوقات . والثانية يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم . وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل . والثالثة يقينه بأن الانسان انما ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج الى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى . والانتقال من دار ضـــيقة الساحات كثيرة المكروهات . جديرة بأن تسمى بيت الأحزان وقرار الآلام . الى دار فسيحة الساحات . خالية من المؤلمات . لا تنقضى سعادتها . ولا تنتهى مدتها . وبين أثر هذه العقائد فى وعى الانسان .

أما الخصال الثلاث فهى : **الحياء . والأمانة . والصدق .**

وأضح جمال الدين أن هذه الأسس التى اتت بها الأديان هى علة العمران . وعليها تتوقف سعادة الانســـان . وأن الماديين أو الدهريين أو النيتشريين تؤدى تعاليمهم الى انكار هذه الأسس . فتنزل الانسان منزلة الحيوان ، وتفقده الباعث على الخير . وتعده لحياة جامدة ضيقة لا قلب لها . ولا سمو فيها . وفى هذا انتكاس لخلقه . وهدم لكيانه . وحرمان مما أعده الله له .

**وقال عن تأثير الايمان بالله :** لم يبق للشهوة قامع . ولا للأهواء رادع الا الأمر الرابع أعنى الايمان بأن للعالم صانعا عالما بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس . سامى القدرة واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحق فى حياة بعد هذه الحياة . وفى الحق أن هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر ويستأصلان مادة التدليس. وهما أفضل وسيلة لاحقاق الحق والتدقيق عند الحد . وهما مجلبة الأمن ومتنسم الراحة . وبدون هذين الاعتقادين لا تقــرر هيئة للاجتماع الانسانى ولا تلبس المدنية سربال الحياة . ولا يستقيم نظام المعاملات . ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل . وسدت عليها طرق الفضائل . ومن أين لمنكر الجزاء ان يكف نفسه عن خيانة أو يترفع بها عن كذب وعذر وتملق ونفاق .

وقد تقرر أن العلة الغائبة لأعمال الانسان انما هى نفسه وكما سبق . فان لم يؤمن بثواب وعقاب وحساب وعتاب فى يوم بعد يومه . فما الذى يمنعه عن ذمائم الفعال . خصوصا اذا تمكن من اخفاء عمله وأمن من سوء عاقبته فى الدنيا أو راى منفعته الحاضرة فى ركوب طريق الرذيلة والعدول عن سنن الفضيلة . وأى حامل يحمله على المعاونة والمرادفة والمرحمة والمروءة وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الأخلاق التى لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها . ولئن وجد فى أحد الجاحدين شيء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد أو كان أبتر ناقصا لفقد ما عده من سائر صفات الكمال .

وبين أن فى الاسلام قواعد محكمة **تميزه على سائر الأديان** .

**أولها** : صقل العقول بصقال التوحيد . وتطهرها من لوث الأوهام . فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان يتوحد فى خلق الأفعال . وأن من الواجب طرح كل ظن فى انسان أو جماد — علويا كان أو سفليا — يكون له فى الكون أثر من نفع أو ضر أو اعطاء أو منع . أو اعزاز أو اذلال .. أو نحو ذلك من خرافات . كل واحدة منها كافية فى أعماء العقول وطمس انوارها .

**وثانيها** : أن الاسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها . واثبت لكل نفس الحق فى السمو . ومحق امتياز الأجناس . وتفاضل الأصناف . وقوم الناس بالكمال العقلى والنفسى . فالناس انما يتفاضلون بالعقل والفضيلة . لا بأى شيء آخر . وقد لا نجد من الأديان الاخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة .

**وثالثها** : ان الاسلام يكاد يكون منفردا بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل . وتوبيخ المتبعين للظنون . فهو كلما خاطب خاطب العقل . وكلما احتكم الى العقل . تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة . وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة واهمال العقل وانطفاء نور البصيرة .

**ورابعها** : أن الاسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها

بالمعارف والعلوم . وفرض نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم . واقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر . فقال « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .

وعلى هذه الأركان الأربعة بنى الاسلام . وكل ركن منها له الأثر البالغ فى تقويم المدنية وتشييد بناء النظام . وتدعيم السعادة الانسانية . وقد دارت حالة المسلمين رقيا وانحطاطا على حسب تمسكهم بهذه العناصر وتخليهم عنها .

## علمــــه

قال الأستاذ الامام عن علمه : « أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى الا بنوع من الاشارة اليها ، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وابرازها فى صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة فى حل ما يعضل منها ، كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها ، كل موضع يلقى اليه ، يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتى على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه ، واذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والابداع ، وله لسن فى الجدل ، وحذق فى صناعة الحجة ، لا يلحقه فيها أحد ، الا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهدا على ذلك أنه ما خاصم أحدا الا خصمه ، ولا جادله عالم الا ألزمه ، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون ، وبالجملة فانى لو قلت ان ما آتاه الله من قوة الذهن ، وسعة العقل ، ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء ، لكنت غير مبالغ ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وقال أديب اسحق عن ذكائه : « ومن عجائب ذكائه أنه تعلم

اللغة الفرنسية أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها ، ويحفظ من مفرداتها شيئا كثيرا ، فى اقل من ثلاثة شهور بلا أستاذ الا من علمه حروف هجائها فى يومين ، وكان يتتبع حركة المعارف الأوروبية والمكتشفات العصرية ، ويلم بما وضع أهـــل العلم وما اخترعوه جديدا حتى كأنه قرأ العلم فى بعض مدارس أوروبا العـــالية » .

وكان يعرف من اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية جيدا . واسع الاطلاع فى العلوم العقلية والنقلية . وخاصة الفلسفة . كثير المطالعة . لم يفته كتاب ألف فى تاريخ الأمم وآدابها وفلسفتها الا طالعه .

## مجلســـه

كان حين اقامته بمصر يلقى الدروس فى داره ، فكانت محط رجال العلماء والأدباء وأذكياء الطلبة ، يقضى النهار فى بيته ، فاذا جن الليل خرج يتوكأ على عصاه الى قهوة اعتاد أن يجلس فيها أمام حديقة الأزبكية ( قهوة متاتيا ) ، ويأخذ مكانه فى الصدر ، وحوله تلاميذه ومريدوه ، وفيهم الشاعر ، والأديب ، والعالم اللغوى ، والطبيب والجغرافى ، والتاريخى ، والمهندس ، وغيرهم من صفوة أهل الفكر والعلم ، والوجاهة ، فيفيض على محدثيه من بحر علمه.

يقول الأستاذ الامام : « كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها . ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه الى ما يريده وان لم يكن من أهله . وكنت أحسده على ذلك ؛ لأننى تؤثر فى حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسى بالكلام الا اذا رأيت له محلا قابلا واستعدادا ظاهرا » .

وقال سليم عنحورى عن محدثيه : « انهم يتسابقون الى القاء أدق المسائل عليه ، وبسط أعوص الأحاجى لديه ، فيحل عقد اشكالها فردا فردا ، ويفتح اغلاق طلاسمها ورموزها واحدا واحدا، بلسان عربى مبين ، لا يتلعثم ، ولا يتردد ، يتدفق كالسيل من

قريحة لا تعرف الكلال ، فيدهش الســـامعين ، ويفحم السائلين ، ويبكم المعترضين ، ولا يبرح هذا شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيبا ، فيقفل الى داره ، بعد أن ينقد صاحب المقهى كلما يترتب له فى ذمة الداخلين فى عداد ذلك المجمع الأنيق » .

## اتساع أفقه السياسى والاجتماعى

كان واسع العلم فى المسائل السياسية والاجتماعية . يتحدث عنها فيبدى الرأى السديد الدال على الحكمة العالية . والمواهب الخلاقة . والتفكير العميق . والتجارب البعيدة الغور .

## تأثير الفتح العربى فى الأمم

قال عن تأثير الفتح العربى فى الأمم وسبب انتشار اللغة العربية فيها : « بيان تأثير الوفود على قوم بأحسن مما ألفوه ، وانه أفعل الوسائل بعد القهر ، لحكمهم ، ولترك الأثر بينهم ، يكفى النظر فى ظهور الاسلام وفتوحاته . حربا كان أم صلحا ، وانتشاره فى أقل من عصر فى أعظم المعمور من الأرض ، فقد عم جزيرة العرب ، فالشام ، فمصر ، فالعراقين ، فالهند ، فأقصى الشرق ، حتى (الآستانة) ، وها هو قبر خالد أبى أيوب الأنصارى فيها ، و «جامع العرب » فى « محلة غلطة » من أكبر الشواهد .

« نعم ان زحف العرب ووفودهم على البلاد انما كان لتعميم الدعوة الدينية أولا ، والا فأداء الجزية للدخول مع القوم فى حقيقة المساواة ، وللقيام فى حفظ كيان المجموع . وكان من يقبل الاسلام لا اكراه عليه فى قبول العادات وتعلم اللسان . كذلك من أدى الجزية فلا اكراه عليه فى دينه ، وباقى مميزاته ، بل يبقى على مألوفه ، ومؤثرات اقليمه ، وخواصه ، ولا خطر على قلب فاتح اسلامى ان يعمم آداب قومه ولسانهم أو أن يتخذ لذلك أقل الوسائل .

« ان كل من دان بالاسلام ، أو رضى بدفع الجزية قد نازع عن طيب خاطر ، وارتياح عظيم للتعرب . والسبب فى ذلك ، أن وفود العرب حملت معها أخلاقا فاضلة ظهرت أفضليتها بأجلى المظاهر ، مثل الأنفة من الكذب ، والوفاء بالعهد ، ومطلق العدل ، وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والرعية ، واغاثة الملهوف . والكرم ، والشجاعة وباقى الفضائل من الهيئات المتوسطة بين الخلال الناقصة .

« وأمر طبيعى ما لهذه الفضائل والصفات من السلطة الأدبية على من يتخلق بها . لأن الانسان انما ينفعل بروحه وشعوره — والانتخاب الطبيعي فطرى فى الحيوان ، وأشده ظهورا ووضوحا فى الانسان . لذلك انعطفت قلوب الأمم ، على استحسان الوافدين من العرب لبلادهم ، سواء البلاد التى فتحت عنوة ، ووضعت فيها الحرب أوزارها . أو صلحا . وأول مقدمات العادة الاستحسان ، ثم المزاولة حتى ترسخ ملكه .

« والاعجاب بآداب قوم ، باعث على حب التقرب منهم ، وأعظم وسائل التقرب — التفاهم — فيتبارون فى تعلم اللسان . هكذا تم للعرب ورسخ لهم فى معظم ما فتحوه من الأمصار والبلدان والممالك ، آثار أدبية فضلا عن الآثار العمرانية ، من لسان وعادة ، وأخلاق لم يمكن استئصالها ، بل بقيت رغم أنوف من دال من بعدهم من الدول ومن هيئات الحكومات المختلفة . فمصر بينما هى هرقلية رومانية ، و ( المقوقس ) عامل له فيها ، أصبحت فى قليل من الزمن اسلامية فى الأغلبية ، عربية بالصورة المطلقة ، فى كافة مميزات العرب . وهكذا القول فى سورية والعراق ، وغيرهما بدون أن يبذل فى سبيل ذلك التغيير أدنى مسعى ، أو يستعمل له أقل الوسائل كما ذكرنا .

« نعم ان أكبر حامل ، وأفعل عامل ، على تعريب أولئك الأقوام هو الفضائل الأخلاقية ، والصفات العالية ، التى كانت تأتى بها العرب مع بأسهم وشجاعة أبطالهم » .

## كان واجبا على الترك

## أن يجعلوا اللغة العربية لغة الدولة الرسمية

جاء جمال الدين بالاستانة أديب تركى . واطلعه على مذكرات مخطوطة للمؤرخ التركى ضيا باشا يعترف فيها بأن الترك لم يخلفوا فى البلاد التى فتحوها آثار حضارة وعمران . مثلما ترك العرب من آثار مادية وأدبية لا يقوى الدهر على ملاشاتها . ويقول : ان المسلم والمسيحى واليهودى فى مصر والشام والعراق يحافظ كل منهم قبل كل شىء على نسبته العربية فيقول انه ( عربى ) ثم يذكر ديانته . وأن آثار العرب المادية فى الأندلس لا تقل عن آثارهم فى باقى الأمصار . وأغرب من ذلك أن التركى والجركسى والأرناؤوطى وغيرهم من العناصر غير العربية يستعرب متى وجد فى بلد عربى ويمتزج بالمجموعة العربية حتى تخال أنه ( عربى قح ) . وأما فى حكمنا فلم نستطع أن نستترك أدنى فئة ممن حكمناهم من الأمم بكمال العدل الاسلامى والسماح التركى ولين الجانب (كذا).

هذا ملخص ما حوته مذكرات ضيا باشا . وقد سأل الأديب التركى السيد جمال الدين عن رأيه فى تعليل هذه الظاهرة فقال ما خلاصته : أن المرحوم ضيا باشا أشكل عليه الأمر حين اعتقد أن الأتراك شابهوا العرب تماما بمعنى أنهم دخلوا فى دين الاسلام . ولكن فاته أن لكل دين لسانا . ولسان الاسلام هو ( العربية ) . ولكل لسان آداب . ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق . وعلى حفظها تتكون العصبية . فالأتراك أهملوا أمرا عظيما وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح . وأحب أن يعمل بها السلطان ( سليم ) . وهى جعل اللسان العربى لسان الدولة العثمانية وتعميمه بين من دان بالاسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه . ومكارم أخلاقه . ومحاسن عوائد أهله .

فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم وبشكل الدين الظاهرى فقط . بل بفهم أحكامه . والعمل بآدابه . وذلك ماتم ولا يتم الا باللسان وهو أهم الأركان .

ولقد قام السلاطين من آل عثمان بفتوحات جليلة . وقربوا اليهم من كان فى عصرهم من فحول العلماء من المسلمين وقد تفردوا اذ ذاك بمعرفة اللسان العربى . وبعض علومه . وعرف أولئك الفحول قدر اللسان العربى . وغالوا فى التقدير حتى أنهم كانوا ( على ما قيل ) لا يعطون وظيفة علمية الا لمن يحفظ قاموس ( الفيروز أبادى ) العربى . وبقى الترك فى فتوحاتهم على هذه الصورة . وفى مجموعهم به بداوة صرفة . لم يتخذوا غير القوة المادية آلة . ولم ينقلوا سواها للبلاد . انهم تدينوا بالاسلام على أبسط حالاته وأشكاله . ولكن على بعد سحيق من فهم معانى القرآن وآداب اللسان العربى . والعرب لو كانوا مثلهم لما استطاعوا أن يكونوا أحسن أثرا منهم . ولما كان لهم حضارة ولا مدنية . ولبقوا على بداوتهم . همهم فتح البلاد للاستغلال . وجمع الأموال للرفاه والترف . أو للبذخ والسرف .

الى أن قال : أما انتشار اللسان العربى فى غير بلاد العرب . فليس للفاتحين أدنى دخل فيه . ولا اتخذوا له أسبابا ووسائل . بل ان ما وجد فى اللسان العربى من الآداب الباهرة . والحكم والأمثال والمواعظ . هو الذى أحله من الانتشار هذا المحل . حتى أن العرب قبل الاسلام وهم فى تلك الحالة الجاهلية . والبداوة المحضة . وبعدهم عن كل حضارة . كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك مثل كسرى أنوشروان . محلا رفيعا . ويأخذون الجوائز . ويثرون بتجارتهم مع الأعاجم بآداب لسانهم . وما يجرى على ألسنتهم من الحكمة التى تأخذ بمجامع القلوب . هكذا كان الذكاء العربى الفطرى المتوقد . يناسبه سلاسة اللسان وأدبه . فكان اذا ظهر بين العرب حكيم طبيب مثل ( الحرث بن كلدة ) مثلا . استطاع بآداب اللسان وفرط الذكاء أن يقارع ويضارع

أكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدنيته • وكذلك الشاعر فى قبيلته اذا نبغ أجلته القبيلة • واعتبرته حامى ذمارها بأدبه وشعره • وأغنته بالمال والماشية • وأما فى الحضارة الاسلامية • وفى دولها • فكثير ممن برع فى الأدب فأوصله الى مرتبة الوزارة فالامارة •

هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادى • وأما التأثير المعنوى فيكفى أنه من أكبر الروابط التى تجمع الشتات • وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر • فكم رأينا من دول اغتصب الغير ملكها • فحافظت على لسانها حكومة • وترقبت الفرص • ونهضت بعد دحر فردت ملكها • وجمعت اليها من ينطق بلسانها • والعامل فى ذلك انما هو اللسان • قبل كل ما سواه • ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم • ونسوا مجدهم • وظلوا فى الاستعباد الى ما شاء الله •

وقال فى موضع آخر « لننظر فى فتوحات الدولة العثمانية للمالك الاسلامية • من مصر والشام • فحلب • فبغداد • فتونس وسائر الممالك العربية • فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب • وكان لجامعة الدين التأثير العظيم فى قبول الحكم العثمانى • ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها ، وعملت من عهد السلطان محمد الفاتح • أو السلطان سليم • باتخاذ اللسان العربى ــ وهو لسان الدين ــ لسانا رسميا وسعت بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك ، لكانت فى أمنع قوة ، وآمن حصن من الانتقاض، والخروج على سلطانهم • ولكنها فعلت العكس ، اذ فكرت فى تتريك العرب وما أسفهها سياسة ، وأسقمه من رأى ، لأن تدين الأتراك بالدين الاسلامى على جهل باللسان العربى • جعل فى القلوب منزلة ــ ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين . فما قولك لو تعربت ، وانتفى من بين الأمتين ، النعرة القومية ــ وزال داعى النفور والانقسام «بالتركى وبالعربى» ــ وصاروا أمة عربية ــ بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين

الاسلامى من عدل ، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات · لاريب لو تيسر ذلك لكان اعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا — وجمع شتات الممالك الاسلامية تحت لواء سلطان عادل ، همام مثل الفاتح ، أو السلطان سليمان ، أو السلطان سليم غير عسير · ولكن مع الأسف كان عدم قبول فكرة السلطان الفاتح ، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربى — خطأ بينا — لا يضارعه الا توغل العثمانيين فى أوروبا ، وشبه جزيرة البلقان ، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة » ·

## ماهية الجزية

قال جمال الدين فى تفسيرها : ان أهل الكتاب خيرهم الاسلام بين أحد أمرين : اما الاشتراك بأداء الجزية وفيه صـــلاح الأمر الدنيوى للكافة · والمقصد الأعلى من هذا صون النفوس وعدم سفك الدماء بقليل من مال يؤخذ ينصرف فى المنافع والمصالح المشتركة · وفى تعزيز قوة المجموع · وكذلك يدخل به مع القوم فى ساحة مساواة حقيقية · له مالهم وعليه ما عليهم · ولا اكراه عليه فى دينه بل يكون مصانا فى شعائره وأصول عباداته وعاداته من كل أذى ·

واما أن يختار الاسلام فيشارك القوم فى العاجل من دنياهم · وسلطانهم · وفى كل ما حوته أخراهم من نعيم مقيم · والغرض الاسمى فى الحالتين كما ترى هو عدم سفك الدماء ووقاية ذلك البناء الالهى من الهدم · بل يتجسم فيه طلب الهداية لعبادة اله واحد · وتأسيس العدالة · وتوزيع الحق ·

لذلك ترى أن كل مصر أو قطر دان بالاسلام · أو دخل فى حوزته خيم فوق ربوعه السلام · ورتع أهله فى بحبوحة من العدل المطلق · وساد فيه الأمن والأمان · وحصلت المساواة على أصح وجوهها باعتراف كل منصف غربى مثل سبنسر أو كارلايل وغيرهما ·

ممن قالوا الحق ونطقوا بالصدق . وهذا كله لايشبه بصورة من الصور حروب أهل المدنية الغربية الحاضرة التى يشب ضرامها لتوسيع نطاق البلاد بالالحاق . أو بالاستعمار . والنتيجة استبعاد الأمم تحت تلك الصور .

## انكاره على من يقول بسد باب الاجتهاد

عرف جمال الدين بنفوره من التقليد والجمود . فكان يأخذ بالأحسن من الأقوال . ويرد الضعيف منها . ويجتهد فى الاستنباط ، ويتناول الأقرب للصواب وما يقبله العقل .

ذكروا يوما فى مجلسه قولا للقاضى عياض فى ذلك . واتخذوه حجة واشتد تمسكهم بذلك القول . . حتى أنزلوه منزله الوحى . فقال جمال الدين : « ياسبحان الله . ان القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله . وتناوله فهمه . وناسب زمانه . فهل لايحق لغيره أن يقول ماهو أقرب للحق وأوجه . وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الأئمة . وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال الناس ؟ انهم هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم . لقد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا . وقالوا . وأدلوا دلوهم فى الدلاء . فى ذلك البحر من العلم وأتوا بماناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم . وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان » .

ولما قيل له ان ذلك يعد اجتهادا . وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر شروطه .

فتنفس جمال الدين الصعداء وقال : « مامعنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد ؟ وأى امام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين . أو أن يهتدى بهدى القرآن . وصحيح الحديث . أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما . والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية . وحاجيات الزمان وأحكامه . لا ينافى جوهر النص .

ان الله بعث محمدا رسولا بلسان قومه ( العربى ) ليفهم

ما يريد افهامهم · وليفهموا منه ما يقوله لهم « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » · وقال « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » · وفي مكان آخر « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » · فالقرآن ما أنزل الا ليفهم ولكي يعمل الانسان بعقله لتدبر معانيه وفهم أحكامه والمراد منه · فمن كان عالما باللسان العربي · وعاقلا · وعارفا بسيرة السلف · وما كان من طرق الاجماع · وما كان من الأحكام مطبقا على النص مباشرة · أو على وجه القياس · وصحيح الحديث · جاز له النظر في أحكام القرآن وتمعنها · والتدقيق فيها · واستنباط الأحكام منها · ومن صحيح الحديث والقياس · ولا ارتاب في أنه لو فسح أجل أبي حنيفة . ومالك . والشافعي . وأحمد بن حنبل · وعاشوا الى اليوم · لداموا مجدين · مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث . وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهما وتدقيقا ·

« نعم ان أولئك الفحول من الأمة · ورجال الأمة · اجتهدوا واحسنوا ( جزاهم الله عن الأمة خيرا ) . ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن · أو تمكنوا من تدوينها في كتبهم · والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر · وتحقيقهم واجتهادهم. ان هو بالنسبة الى ما حواه القرآن من العلوم · والحديث الصحيح من السنن والتوضيح · الا قطرة من بحر · أو ثانية من دهر و « الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » . وعلمهم مالم يكونوا يعلمون » (١) ·

## الاسلام والاشتراكية

قيل لجمال الدين : ان خير مافي أوروبا من النهضة هو السوسياليزم Socialisme ( الاشتراكية ) وهي التي ستؤدي

(١) راجع ( خاطرات جمال الدين الأفغاني ) لمحمد المخزومي وكتاب ( جمال الدين الأفغاني · تاريخه ورسالته ) وكتاب ( صيحة جمال الدين الافغاني التي بعثت الشرق من سباته وبصرته بحقوقه وواجباته ) لمحمود أبو رية .

حقا مهضوما لأكثرية الشعب العامل • فما رأيكم وهل من تعارض بينها وبين الاسلام ؟ •

فقال جمال الدين ما خلاصته : ان ما تراه من الاشتراكية في الغرب ،وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب ، فى شكله الحاضر ، وأسسه ، وتخبط واضعى مبـــادئه ـ كل ذلك يعكس نتـــائج الاشتراكية ، ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع •

« الاشتراكية الغربية » ما أحدثها ، وأوجدها الا حاسة الانتقام من جور الحكام ، وعوامل الحسد من العمال لأرباب الثراء ـ الذين انما أثروا من وراء كدهم وعملهم ، وادخروا كنوزهم فى الخزائن ، واستعملوا ثروتهم فى السفه وبذلوها فى السرف ، والتبذير ، والترف ـ على مرأى من منتجها ، والفاعل العامل فى استخراجها من بطون الأرض ، ومن ترابها و ••• و ••• الخ • وبالاختصار ثمرات عمل العامل بكل أنواع حاجةالعمران •

« فكل عمل يكون مرتكزا على الافراط لابد أن تكون نتيجته التفريط •

« أفرط الغربيون ( الأغنياء ) فى نبذ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهم ، فأفرط العمال فى مناهضة أهل الثروة ، وغاصبى حقوق الأمة ـ بالمناصب ومسببات الجاه ـ فلا قاعدة دينية يرجع اليها ، ولا سلطان وازع يعمل بقهر لصالح المجموع ، لذلك أصبح أمرهم فى الاشتراكية « فوضى » ولسوف ينعكس أمرها •

« أما الاشتراكية فى الاسلام » فهى ممتزجة بالدين الاسلامى، ملتصقة بخلق أهله منذ كانوا أهل بداوة ، وجاهلية .

« فأول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالاسلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة ـ وأعظم المحرضين على العمل بالاشتراكية هم كذلك من أكابر الصحابة أيضا ـ واليك البيان :

« أما أن الاشتراكية من خلق البداوة فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهم ، ومواساتهم لأهل قبيلتهم وعشيرتهم ، ولا أعد

كثيرا من ذلك بل أجتزىء بمن اشتهر منهم • مثل حاتم الطائى فى السنين المجدبة وكيف انه نحر مالديه ( وهو فرسه ) لمجرد مجىء امرأة من أقصى قبيلة طيىء اذ قالت له : يا حاتم قيل لنا أن عندك لحما ذبيحا فأتيت بصبيتى .

فقال « صدقت » ، ثم نحر فرسه ، وأشعل ناره ( تلك العلامة التى كانت كدعوة للمجموع يعلمون ان هناك طعاما ما ) فيأتون لمكان الدخان فى النهار ، ولشعلة النار ليلا ، ويشتركون جميعهم فى المأكل دون أدنى منة لصاحبها ، لأن الأمر بينهم مناوبة يفعله الميسور . والثرى كل على نسبته وما لديه من سعة . وقد تواتر الخبر بأن حاتم لم يذق من ذلك اللحم شـــيئا مع كونه قرما ، سغبا[1] •

« هذا مثل من الاشتراكية قبل الاسلام ومنه يعلم أن الثروة كانت ولاتزال موجودة فى الأفراد ولكن حسن استعمالها ، وجعل نصيب للآخرين فيما يجعل الاشتراكية أمرا مقبولا ، وصـــفة ممدوحة ــ اذ لا أنانية ، ولا أثرة ، ولا استطالة على الفقير ــ بينما موجد ومسبب ومهيىء تلك النعم كلها ــ هو ذلك العامل الفقير . الذى يسكن كوخا صغيرا .

« هذا ما عليه اليوم أهل الثروة فى الغرب ، وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية ــ وفى نفيرهم روح الانتقام ، والافراط فى المطالبة بحقهم يقابله التفريط فى زجرهم ، وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق ولسوف يتفــاقم الخطب ، وتعم من جراء ذلك البلوى فى الغرب . ولا يسلم منها الشرق .

« أما الاشتراكية فى الاسلام ، فهى خير كافل لجعلها نافعة مفيدة ، ممكنا الأخذ بها لأن القرآن أشار اليها بأدلة كثيرة • منها أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب ( الحمد لله رب العالمين ) فيعلم أن للخلق ربا واحدا وهو مع سائر الخلق من المربوبين على

---

(١) القرم : الشديد الرغبة فى اللحم ، والسغب : الجائع .

السواء • ويرى ، ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب ، والغزاة ، ومن يتولى أمرتهم ، وقيادتهم ، فخاطبهم آمرا ، ومعلما ، ومدافعا ، ومبينا حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ليكون لهم من ذلك الجهاد ، وتلك المساعى نصيب اذ قال « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » .

هذه آية باهرة أوجبت على من يسعى مجاهدا ، ومخاطرا بحياته أن يكون مشتركا معه فى نتيجة غزواته وغنائمه ، من لم يكن مشتركا فعلا ــ فأعطى أولا « الله تعالى » نصيبا ومرجع ذلك النصيب لعباده ــ ثانيا « للرسول » ثالثا « لذوى القربى » وهم لا شك من المستضعفين الذين انما قعدوا عن الاشتراك فى الجهاد ، والسعى وراء الغنائم ، لعلل تختلف أشكالها ، وأنواعها ، ولكن الدين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيبا من مساعى أولئك الأشداء ، الأقوياء المجاهدين ، الخائضين غمرات الموت • كل ذلك نراه مبنيا على حكمة الاشتراك ، ولبث حكم هذه الآية جاريا ، وكان الرضا به شاملا لمجموع المسلمين ، من مجاهد أو قاعد عن الجهاد لعلة ، فبدأ بالدرجة الأولى بعد الله ورسوله بذوى القربى من المجاهدين على درجاتهم • وعطف على من دونهم فى المرتبة الثانية • ممن ليس لهم فى المجاهدين أقرباء • فقال « واليتامى » • ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال « والمساكين » • ثم رأى أن يأخذ نطاقا أوسع فقال « وابن السبيل » • أى عابره • فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلا ، ولا أنفع • ثم جاء فى موضع آخر من الكتاب مقرعا لمن يكنزون الذهب والفضة ، ثم حبذ وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والاسعاف والاطعام ولو كان بهم خصاصة •

وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول فى آيات من القرآن تترى .

ثم قال : « لما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادىء، له طرفان رأى الشارع الأعظم أن تنعم فريق من قوم ، وشقاء فريق آخر في محيط واحد ، وبمساع ليس بينها وبين مساعى الآخرين كبير تفاوت ــ مما لا يتم به نظام الاجتماع ــ وكان النبى صلى الله عليه وسلم « بالمؤمنين رحيما » فجاءه عن طريق الوحى وهو نتيجة تمحيص نزعات النفس البشرية ، وما عسى أن ينجم من المضار أو المنافع لها ــ فوضع للدين أركانا خمسة . ومن تلك الأركان « فرض الزكاة » فى المال ، والركاز والأنعام .. الخ . ثم أضاف اليها كما سبق « غنائم الحروب » ، فأخذ منها قسطا بمقدار الخمس ــ ثم بعد ذلك حرص على بذل « الصدقات » .

* * *

هذا ما قاله جمال الدين الأفغانى عن الاشتراكية الاسلامية ٠ فالاسلام جعل الزكاة من أركانه « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » ٠

فالزكاةهى الاشتراكية الاسلامية . وهى عماد العدالة الاجتماعية والفارق بينها وبين الاشتراكية الغربية أنها فى الغرب قد تطورت وتطرفت . وتولدت عنها الأحقاد و الضغائن بين طبقات الشعب ٠ وجعلت الأمن والنظام فى حاجة الى حاكم بأمره يضع حدا لوقف الحرب بين الطبقات ٠ أو يغلب طائفة المعدمين على طائفة الطبقة الموسرة والمتوسطة اليسار ٠ فى حين أن اشتراكية الاسلام أساسها التعاون التعاطف والتراحم وتجنيب البلاد ويلات حرب الطبقات ٠

والزكاة واجبة فى الأموال النقدية وفى عروض التجارة بنسبة ( ربع العشر ) ٢ر٥ ٪ وتقدر بنحو ذلك فى غيرها ٠ وهى ليست احسانا . بل هى فرض يلتزم به المواطنون بشروطه ، وتشرف الدولة على تحصيله كشأن الضرائب العامة ٠ وهو نظام اجتماعى

سديد يبقى على الملكية الفردية وعلى النشاط الاقتصادى الفردى . ويتدخل فى توزيع العدالة الاجتماعية بين الطبقات وتتولى الدولة صرف حصيلته على ما يحقق مصالح المواطنين جميعا .

## جواز الفائدة اليسيرة فى القروض

قال جمال الدين الأفغانى : ان الاسلام حرض على بذل الصدقات وحرم الربا بنكتة غاية فى الحكمة . وهى أن لا يؤكل الربا أضعافا مضاعفة . وهو ما وقع عليه التحريم . ولكى يكون للامام مخرج اذا اقتضت المصلحة التسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذى لا يثقل كاهل المدين ولا يتجاوز فى برهة من الزمن رأس المال . ويصير أضعافا مضاعفة . وفرق صراحة بين احتيال المرابين المتلبسين بالدين الذين يتظاهرون بتجنب الربا ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مائة درهم يتجرون عند بيعها مع المشترى المضطر بثلاثمائة درهم . وحقيقة هذا الفرق ماهو الا نصيب الربا وعينه. وانما يجعلونه عن طريق البيع . ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربا التى حظرها عليهم الدين . واليك بعض ما جاء فى هذا الشأن من القرآن : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى . فله ما سلف وأمره الى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثيم » وقال « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ورأى الحكيم الأفغانى فى هذا الصدد قريب من رأى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الذى أفتى بأن أرباح صندوق التوفير بمصلحة البريد لا حرمة فيها وهى لا تتعارض مع تعاليم الدين فى شىء .

## سخطه على الاستعمار

## ودعوته الى مقاومته والتحرر منه

قال جمال الدين يصف الاستعمار وأسبابه ومعناه وأهدافه والوسائل لمقاومته والتحرر منه :

« لقد برز الأوروبيون في ضروب السياسة لتوسيع ممالكهم، وتفننوا في ايجاد الوسائل المؤدية لذلك وكان أسبقهم في الدهاء وأكثرهم في الاستيلاء ( الانكليز ) . وهم في مقـدمة من رأى من دول الغرب ـ أن فتح البلاد ، وتملكها بالجيوش ، والكفاح والقتال من مزعجات الأمور وأن الدخول من باب المكر ، واللين ، والخديعة والختل ، أوفر ، وأسهل ، وأقرب وأفعل . فاعتمدت هذا الأخير سلاحا ، ونالت به نجاحا . وتركت الأول وهو ( الحرب والقتال ) وفتح البلاد غلبا وقهرا . ورجعت للثاني . والبسته من الأسماء طيلسانا لين الملمس ، هين الملبس ودعته ( بالاستعمار ) ودعت ما يؤخذ من الممالك ( مستعمرات ) . وجرت في هذا المضمار فكانت ( المجلى ) (١) وحازت قصب السبق وتبعها غيرها من الدول فكانوا ( السكيت ) (٢) .

ان هذا الاستعمار لغة ، واصطلاحا ، مصدرا ، واشتقاقا . لا أراه الا من قبيل أسماء الأضـــداد وهو أقرب الى « الخراب » و « التخريب » والى « الاسترقاق » ، والاستعباد منه الى العمار ، والعمران .

لا تسير دول الاستعمار الا الى البلاد الغنية في ثروتهـــا ، ومعادنها ، وخصب تربتها ومن كان أهلها في الدرك الأسفل من الجهل ، قد خيم عليهم الخمول ، لا يبدون حراكا ، ولا يقربون عراكا .

« واذا صادفت دول الاستعمار ( على طريق الشذوذ ) في

---

(١) المجلى : الفرس الســـابق في الميـدان .

(٢) السكيت : احط مراكبها جريا .

بعض الممالك أو المقاطعات مقاومة من سلطان أو أمير • فما هى الا مناوشة صغيرة مع تلك المعدات الحربية الحديثة ــ وقد سقط الملك ، أو الأمير أسيرا ، فسيق مع أهل بيته ذليلا ، وحجر عليه فى أضيق البلدان ،وأبعدها عن العمران ، وتدخل المملكة ، أو الجزيرة أو المقاطعة وتنتظم فى سلك المستعمرات فيصبح أعزة البلاد أذلاء ، ويحل محل الحرية الشخصية الاستعباد ، وكم الأفواه ــ وينتصب الميزان • ليحاسب من تطرف عينه من الأهلين، أو يشخص ببصره ، أو يلتفت الى ورائه . ليس لأحد من خيرات بلاده شيء • وكل الضرائب ، والضربات ، والشر والويلات • لأهل البلاد وعليهم ، لا يشاركهم فى ذلك أحد .

« هذا اذا كان الدخول للبلاد « بلعبة حربية » ــ وأما اذا دخلوها من باب الانتصار للأمير ، أو تثبيت الملك ، أو قمع الثورة• وكانوا فى لباس الأصدقاء ، الأمناء ، المخلصين أو المحبين للشعب ورقيه ، وتعليمه دروس الحكم الذاتى • ليستغنى عنهم ويحكم بلاده بذاته !! ــ فهناك تبقى مظاهر الأمور محفوظة ، وبعض التقاليد التافهة مأمونة • يشكلون للأحكام ، وادارة مهام البلاد هياكل من الناس ، ويتركون معهم أمير البلاد قبة جوفاء يرجع منها صدى الصوت فقط • وليس له من الأمر الا اتباع الأمر لا غير ومختصر القول ــ أن الاستعمار بمعناه الصحيح ، ومبناه الصريح هو تسلط دول ، وشعوب أقوياء علماء على شعوب ضعيفة جهلاء ولا يخرج عامل الغلب ، والقهر عما ذكرناه فيما سبق وهو أن القوة والعلم يحكمان ، ويتحكمان فى الضعف والجهل . سنة ثابتة ، وقانون متبع فى الكون •

« ولما كان لحياة الأمم والدول ــ أدوار ، وآجال ولحدوثها وتكوينها ، وتعاليها ثم توقفها وانحطاطها أسباب وعوامل هكذا وجب أن يكون الاستعمار خاضعا لتلك النواميس الكونية بمعنى أنه يصل الى حد محدود وأجل معلوم •

« وانقضاء أجل الاستعمار انما يتم بزوال الأسباب التى

مكنت أهله من التسلط واكرهت الشعوب على الخضوع لهم .

« نعم متى ضعف ما كان سببا فى الصعود ـ يحصل الهبوط، والانحطاط ، ـ ومتى زال ما كان سببا فى السقوط يحصل الصعود. دور للحاكم والمحكوم ، وقاعدة هى بحكم اللازم والملزوم .

« يحصل للضعيف من صدمة القوى « دهشة ورجفة » . ويحدث من آثار العلم على الجاهل « خشـــية » فيقف بين هاتين القوتين منذهلا ، حائرا ، ذليلا ، صاغرا كما هو الحال مع أهل الاستعمار ، والمستعمرين . اذ يمر الدور الأول بين تجبر وتكبر، وعسف ، وجور . وأهل المستعمرات قد أدهشتهم المفاجأة ، وأذهلتهم الصدمة ـ فيقابلون كل قول بالسمع والطاعة ويفعلون ما يؤمرون بكمال الخضوع . فيصادرون فى معنوياتهم . من حرية شخصية، وعزة نفسية ، وحرمة ملية ، أو جامعة قومية . ثم يأتى دور القضاء على مادياتهم ـ فيحرمون من خيرات بلادهم ، ومن كسب تجارتهم، واستثمار مناجمهم ، وبالاجمال الحرمان المطلق من كل خير ، وانزال كل شر وضير فيرزحون آخر الأمر تحت أثقال الضرائب وتتحمل أجسامهم مالا تطيق . فعند الوصول الى هذا الحد من ارهاف الحد تظهر على الأمة عندئذ بعض آثار الحياة وهو ما يشبه «الاختلاج » فاذا التقوا أفرادا أخذ كل منهم ينظر الى الآخر فيهزون رءوسهم هزا خفيفا ، ويفركون أيديهم فركا غير منتظم ، ويحكون رقابهم . هذه هى أول مظاهر الثورة ثم تجول الأفكار ، وبعده يبدأ الهمس ، ثم الهذرمة ، ثم ، وثم الى أن يعلو الصوت ، ويرتفع السوط . ويحكم السيف ويأتى من بعده حكم العادل وهو سبحانه ولى المظلومين .

« ولو جاز لدولة أن تشذ فتعامل المستعمرات بشيء من العدل، ولم ترهقهم ظلما ، وتسومهم جورا وعسفا ـ للزم أن يكون ذلك الشذوذ بمعاملة الانكليز لمستعمرة « أميركا » وبينها وبينهم من جامعات اللسان ، والدين ، والمذهب والأخلاق ما يدعو للعطف ، ويحمل على الاقلال من العنف .

« ولكن هيهات !! فليس لقاعدة الاستعمار من شاذ وكلنا يعلم

ما عاناه الأميركانيون من جور الحكومة الانكليزية ، وتفننها بأنواع المظالم ، وسلب أموالهم بأشكال الضرائب . وآخر ضريبة ، أو ضربة نبهت الأميركانيين ودفعتهم لطرح نير انكلترا بقوة السـلاح ، ونهوض الأمة « ضريبة ورقة التمغة » وأن صكوك البيع وكافة العقود والعهود اذا لم تكن محررة على تلك الورقة لا يعمل بها ·· وناهيك بما فى هذا الحكم من الجور وضياع أملاك وحقوق ـ نعم لجأ الأميركانيون فى بدء أمرهم الى ما يلجأ اليه الضعيف · اذ بعثوا بالشكوى الى عاصمة الانكليز ومجلس أشرافهم ـ عقب أن عقدوا جمعية عمومية فى مدينة نيويورك ، وعقب أن أوسـعوا « مأمور بيع ورق التمغة » ضربا واتفقت كلمة الجميع على الرفض · وهذا أول طلائع القوة التى لا يرضخ الانكليز لقوة سواها · وهو اجتماع كلمة « الأمة » ·

خدرت أعصاب الأميركانيين بأبطال ورقة التمغة · وفى الوقت ذاته أحدثت ما يمكنها من سلب مال الولايات المتحدة ، فوضعت رسم الكمرك على ما يدخل اليها من الشاى · وهذا الرسم أكثر سلبا للمال من التمغة ـ وعمدت فى التنفيذ الى استعمال القهر والقوة. ولما كانت روح الحياة فى الأميركانيين قد دبت وجازت وتخطت دور « الاختلاج » و « الهمس » ووصلت الى دور ارتفاع الصوت ، وسل السيف ـ فرمت بالشاى الوارد الى البحر ووقفت للقوة الانكليزية بقوة الأمة الأميركانية · وألقت مقاليد أمورها وادارة حروبها الوطنية الى بطل حريتهم واستقلالهم « الجنرال واشنطون » العظيم ·

السيف أصـدق أنباء من الكتب
فى حده الحد بين الجـد واللعب

« قل لى لو ثابر الأميركانيون دهرا على بث الشكوى من ولاة الانكليز الى مجلس وزراء الانكليز ، واستنفدوا المداد ، وسودوا ما فى الأرض من قرطاس تظلما واستغاثة . هل كان يفيدهم فى استقلالهم شيئا ، أو يكشف عنهم بلاء استعمار البريطانيين ؟ لا والذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف ·

« فقوة كل أمة كامنة فى أفرادها ٠ لا يظهرها الا الاتحاد ٠ ولا يخفيها الا التفرق ٠ فمن رام من الأمم استعادة مجـــدها ، والتخلص ممن أذلها ٠ فليس غير طريق « الاتحاد » ما يوصل الى الغاية وينقذ من البـــلاء ولا غير حب الموت ما ينجى من الموت ٠ وينيل المرء احدى الراحتين ٠ فاما أن يعيش بحريته واستقلاله سعيدا ٠ واما أن يموت دونهما ( بطلا شهيدا ) ٠

« أرونى مملكة ، أو أمة انغمس ملوكها ، وامراؤها فى السفه، والسرف وعم الجهل طبقات الشعب ، وتفرقت كلمتهم فاستكانوا للذل والهوان ٠ ولم يستعبدها الاستعمار ، ويحل فيها الدمار !!٠

« وهاتوا ، مملكة أو قارة ــ اتفقت كلمة أهلها ، وانفت من الذل ، ورفضت الاستعباد واستلت السيف ، وطاب لها الحتف ولم تنل استقلالها والتمتع بحريتها ولو كان المستعمر أعظم الدول قوة واقتدارا ٠

« هل من حاجة للاتيان بالأدلة ، وضرب الأمثلة على أن أصغر الأمم ناهضت أعظم الدول ــ وظفرت بحاجتها ، ونالت حريتها واستقلالها ؟ ٠

من هم اليونان سكنة ولاية المورة ؟ قبل أقل من عصر عندما ناهضت الدولة العثمانية ٠ تلك الدولة التى كانت تحكم ستين مليونا من النفوس اذ ذاك ــ واليونان الى اليوم لم يتجاوزوا فى متفرق المعمورة مليونين ٠

« كم عدد المصريين ؟ وهل تجاوزوا بعد استقلالهم مليونين ونصف مليون نسمة تقريبا ؟! ٠

« ماهو الجبل الأسود ؟ ــ ومجموع سكانه لم يبلغوا عدد سكان محلة « بك أوغلو » فى الآستانة ــ وما هى قوته ، وجيشه ، بالنسبة لقوة ، وجيش الدولة العثمانية ! ٠ وهكذا القول فى بلغاريا ، ورومانيا ٠٠٠

« فبعد هذه الأدلة المحسوسة ، والأمثلة الملموسة ــ لايصح أن

يبقى أدنى ريب • أن المستعمرات لأى دولة مهما تعاظمت قوة ، واقتدارا كالثوب العارى لا يلبث حتى يسترد عند طلب صاحبه بالسنن المعروفة ، والطرق الموصوفة •

وهل يشك المصريون وهم يزيدون عن العشرة ملايين (١) وكلهم أحفاد الغزاة ، الفاتحين من أعز قبائل العرب واخوانهم الأقباط أحفاد أولئك الأشداء الذين تدل آثارهم على عظم هممهم انهم اذا نهضوا لم يظفروا بالاستقلال ، والحرية واعادة المجد القديم لذلك القطر السعيد فحسب ، بلى انهم سينهضون ان شاء الله ، ويعملون متحدين ، معتصمين بحبل الله ، وينالون ما يتمنون بحول الله . والله على كل شيء قدير » .

## طريق الغرب الى استعمار الشرق

قال فى هذا الصدد ما خلاصته « ما من دولة غربية تطرق باب مملكة شرقية الا وتكون حجتها اما حفظ حقوق السلطان . أو اخماد فتنة قامت على الأمير . أو انقاذ نصوص الفرمانات . أو غير ذلك من البهتان . والختل . والخداع . وواهى الحجج .

« فاذا لم تكف تلك الأضاليل . تذرعت اما بحجة حماية الأقليات أو حقوق الأجانب وامتيازاتهم . أو حرية الشعب . أو تعليمه أصول الاستقلال . أو اعطاء الشعب حقه تدريجيا فى الحكم الذاتى . أو اغناء الشعب الفقير بالاشراف على موارد ثروته . فالشعب الخامل يرتاح الى تلك المواعيد ويرضخ للحجر الغربى .

ولأجل أن يصل الغربى الى الاستيلاء على بلد ما . يضع خطته وهى :

أولا ــ اقصاء كل وطنى حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية .

ثانيا ــ تقريب الأسقط همة • والأبعد عن المناقشة والمطالبة بالحق •

---

(١) هذا كان عدد سكان القطر المصرى يوم كتبت هذه المقالة سنة ١٣١٠ هـ ١٨٩٣ م ( خاطرات جمال الدين الأفغانى لمحمد المخزومى ) •

ثالثا ــ الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعا » .

ومن يتأمل فى أقوال جمال الدين الأفغانى يجد ولا ريب أنها صادرة عن ايمان عميق بالحرية والاستقلال . وعقيدة راسخة فى بغض الاستعمار والثورة عليه . ودعوة صادقة الى الشعوب الشرقية أن تنهض وتتحرر من ربقة الاستعباد والاستعمار .

## رأيه فى السلف والخلف

وقال عن السلف والخلف : « الكون يشهد ، والآثار تدل ، ولا من يفكر أن للعرب ، وغيرهم من العجم ــ آثارا ومفاخر أتت من وراء الهمم ، وصدق العزائم معه ، ولكنها يا للأسف وقفت فى أجداث الأجداد ، وجاورت عظام أولئك العظام ــ أعلام المروءة ، عصبة الرحمة ، أولياء الشفقة ، أهل النجدة ، أسود الحمية ، وغوث المضيم يوم الشدة ، شوامخ القوة ، رواسى العدل ــ تلك بعض صفات السلف ــ عثر عليها الخلف بالنبش وهو فى جبانة « الجبن » و « الخمول » ــ وقرأها فى سطور كتاب حادثات الدهر ، وأوراق سجل رجال العالم ــ فطفق يفخر ، ويعدد ، ويصول ، ويطول ، ويقول : نحن من لمعت سيوف أجدادهم بالمشرق ، وانقضت شهبها على المغرب ، فذلت لهم رقاب القياصرة، والأكاسرة ، وخضعت لأمرهم الأمم ، خفقت أعلام فتوحاتهم فوق ممالك الأرض فطهروها من جراثيم الظلم والجور وملأوها بالرحمة والعدل ــ وهكذا لا تزال تسمع كلا من العربى ، والفارسى وغيرهما من الشرقيين ــ يقول نحن أحفاد أولئك الأجداد ، ونحن سلالة وذرية أولئك الأقيال الأمجاد ، ونحن ونحن مما يثير الأشجان ، ويزيد الأحزان .

« نعم أولئك آباؤنا ، وأجدادنا قد جاد الزمان بهم فجاءوا ولكن واسوأتاه ، وامعرتاه ، واخجلتاه ! : ــ اذا هم سألونا عما فعلنا بمخلفاتهم ، وما ورثوه لنا ، واستخلفانا عليه من الممالك ، والأقطار وعظيم المدن ، والأمصار .

« نعم أين أنتم أيها الأجداد ، الأمجاد ، القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الأمة ؟! ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم ؟! .

انحرفوا عن سنتكم — وحادوا عن طريقكم — فضلوا عن سبيلكم — استبدلوا كل فضيلة برذيلة ، وأتوا على كل أمر الله بعكسه ، نبذوا حكمة الدين واتباع شرع سيد المرسلين ، وتفرقوا فرقا ، وأشياعا — الملوك منهم أنزلوا عن عروشهم (١) وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلما ، وأعزة باتوا أذلة ، وأجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أصبحوا سقاما ، وأسود تحولت نعاما ، فأصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفا ، وتحترق الأكباد حزنا أصبحوا فريسة للأمم الغربية لا يستطيعون ذودا عن حوضهم ، ولا دفاعا عن حوذتهم .

ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدى الضال الى سواء السبيل ؟! « انا لله وانا اليه راجعون » .

« نعم — أن للأرواح اشراقا بهياكلها الروحانية — على ما تلبس من الأجسام الترابية فى هذه الدار الفانية ، ومناجاة لمن فيه ذلك الاستعداد « اذ الامداد لا يكون الا على قدر الاستعداد » — فاذا أصغينا بالحس الروحى الى ما تريد أن تناجينا به أرواح أجدادنا لوجدناهم يحرقون علينا الأرم ويزعجهم الألم. وينادوننا : أيها الأحفاد ! تفتخرون بسيوف لمعت بالمشرق — نعم — وقد تركنا لكم تلك السيوف مشحوذة فى أغمادها — فهلا تقلدتموها ؟ وهلا سللتموها فى وجه من اكتسح بلادكم ، وضرب عليكم الذلة والمسكنة .

تفتخرون بما فتحنا وتركناه لكم من الممالك ، وما تحملناه فى سبيل ذلك من المخاطر والمهالك — ولا تخجلون ، ولا تحزنون وقد

---

(١) ممن قاوموا الاستعمار وحاربوه وكانت له الغلبة عليهم .

سلبتها منكم الأعداء وأنتم من مقاعد جبنكم ، وذلكم تنظرون — ولا تتحركون ولا تنهضون وحتى ولا تنطقون .

« تفتخرون بصبرنا ، وثباتنا ، واقــــدامنا ، وبسالتنا ، واعتصامنا بحبل الله واتباع سنن نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم وأنتم على عكس الأمر من أخلاق وصفات ، وما أبعدكم بهذا عن الفخر — وأبعد الفخر عنكم — ولأنتم أولى باطراق الرأس — وغض الطرف خجلا ، وحياء من الله ، ومن أرواحنا فى الملأ الأعلى — التى تبرأ الى الله من صنعكم وقلة ايمانكم بالله ، والعمل بما جاء به رسول الله .

« تفتخرون بتمسكنا بأصول الدين ، وحسن اليقين — والتزام الكتاب والسنة والعمل بأحكامهما — وانه قد استحكمت بيننا رابطة الأخوة فكنا كالبنيان المرصوص — نعم هكذا كنا — أما أنتم فلم يبق من جامعة بينكم الا العقيدة الدينية « وليس فى الجميع » مجردة عما يتبعها من الأعمال .

انقطع التعارف بينكم ، وهجر بعضكم بعضا هجرا غــير جميل — علماؤكم وهم القائمون على حفظ العقائد ، وهــداية الناس اليها — لا تواصل بينهم ولا تراسل مع جمودهم — فالعالم التركى فى غيبة عن حال العالم الحجازى ، والعالم الهندى فى غفلة عن شئون العالم الأفغانى — وهكذا — بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا جامعة تجمعهم ، ولا صلة الا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة ، أو قرابة بين أحدهم والآخر — أما فى هيئتكم الكلية فلا وحدة لكم — بل لا أنساب بينكم وكل ينظر الى نفسه ولا يتجاوزها — كأنه جزء مفصول ، أو عضو مبتــور .

« تفتخرون بأنه غلب على صفاتنا « التعقــل » والتروى ، وانطلاق الفكر من الأوهام ، والعفة ، والسخاء ، والقناعة ، والدماثة، ولين الجانب ، والوقار والتواضع ، وعظم الهمة ، والصبر ، والحلم ، والشجاعة ، والايثار ، والنجدة ، والسماحة ، والصدق ،

والوفاء ، والأمانة ، وسلامة الصدر من الحقد والحسد ، والعفو ، والمروءة والحمية ، وحب العدالة ، والشفقة . نعم من الله بها علينا وهكذا كنا — وأنتم أيها الأحفاد ! ماذا غلب على أكثركم غير السفه ، والقحة ، والبذاءة ، والبله ، والطيش ، والتهور ، والجبن، والدناءة والجزع ، والحقد ، والحسد ، والكبرياء ، والعجب ، واللجاج ، والسخرية ، والغدر ، والخيانة ، والكذب ، والنفاق ، والشح . أفبهذه الأخلاق تحبـــون أن تتغلبوا ، وتعجبون كيف تسلب أملاككم ، وتذلون ؟ أم بهـذا ترومون اللحـاق بنا وقد خالفتمونا سيرة وسيرا — شيما وأخلاقا ؟! .

« هذا بعض ما تحس به أرواحنا من مناجاة أجدادنا لنا — وما أطبق (١) أقوالهم هذه على الحق ، وما أقربها من الصواب ، والواقع . أى بينة لنا على أننا خلف ذلك السلف — وهل يعقل لو ورثنا أخلاقهم ، وحافظنا على فضائلهم ، واقتفينا أثرهم ولم نحد عن سيرهم ، وسيرتهم — نعم لو عملنا بعض ذلك هل كان يسهل سلب الميراث منا ، وأن يستبد بملكنا غيرنا — أم بقينا نحن الوارثين ؟ .

« أن « دعوى » حق الأحفاد فى ميراث الأجداد — هى فى محكمة الكون والبينة التى يصدر من بعدها الحكم — هى اثبات التحلى بفضائل السلف ، والتخلق بأخلاقهم ، والنسج على منوالهـم ، والتزام ما لزموه من السنن ، وجروا عليه بالقول والعمـــل — فعسى أن نوفق للادلاء بتلك الحجة — فتستقيم لنا الحجة — اذ كفانا من الذل مالاقينا ، ومن البلاء ما عانينا » .

## وصفه للانجليزى والعربى ( فى عصره )

قال عن الانجليزى : انه قليل الذكاء عظيم الثبات . كثير الطمع والجشع . عنيد . صبور متكبر .

---

(١) هكذا الأصل والصواب : أن يقال « وما اشد انطباق — أو مطابقة — أقوالهم » .

وقال عن العربى أو الشرقى : انه كثير الذكاء . عديم الثبات . قنوع . جزوع . قليل الصبر . متواضع .

يثبت الانجليزى حتى على الخطأ اذا تسرع وقاله أو باشره .
والشرقى لا يثبت على الصواب . ولا على طلب حقه .
فيفوز الأول بخير النتائج بفضيلة الثبات .
ويخسر الثانى حقه برذيلة التلون وعدم الصبر .

## رأيه فى الأحزاب السياسية فى الشرق

وقال عن الأحزاب السياسية فى الشرق :

« الأحزاب السياسية فى الشرق نعم الدواء ، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب الى بئس الداء . نحسن نحن الشرقيين تأليف الأحزاب السياسية ، لطلب الحرية والاستقلال ، وكل العالم لنا أصدقاء ، ونضطر لتركها والكل لنا أعداء .

« والسبب العامل فى ذلك عدم التكافؤ فى القوى بين الأمة وأحزابها السياسية . يقوم الحزب السياسى ، بعنصر ضعيف ، أو بأفراد إقلائل بينهم اللسن ، والمحنك ، ويعلنون تفانيهم فى خدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد والاستبداد ، ويسرون خدمة أنفسهم . فتتألف على أهل الحزب القلوب ، وتجتمع حولهم الكلمة، بسوق الضرورة ، وداعى الحاجة ، ويستحسن عملهم الغريب ، ويهوسهم الدخيل ، شأن الحوادث المستجدة ، فى انقلاب الأمم من طور الى طور . فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة ، ورفاهة ، وحرية ، واستقلالا ، ومساواة ، على أوسع شكل ، قد لا يمكن حصوله فى البعيد الآجل ، فضلا عن القريب العاجل .

« فيؤازرون الحزب بكل معانى الطاعة ، والانقياد ، والنصرة ، والتضحية ... الخ .

« فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة ، واستحكم له الأمر — ظهرت هنالك فى رؤساء الأحزاب ، الأثرة والأنانية ، ومد حب

الذات عنقه ، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد ، وتحصل فى النتيجة النفرة العامة .

« فتضطر عندئذ لترك الحزب ، وينفرط بالطبيعة عقده ؛ والكل له أعداء » .

وضرب عدة امثلة ، منها ما حصل فى الأفغان وغيرها وما حصل فى حزب عرابى فى مصر .

ثم قال : « لا ينبغى أن يؤخذ من قولى هـــذا أن لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأى والمعنى ، فان الشرق بعد أن أخنى عليه الدهر بكلكله ، ومرت عليه زلازل العنف والجور ، واشكال الاستعباد ـ ان هذا الشرق ، وهذا الشرقى ـ لا يلبث طويلا حتى يهب يوما من رقاده ، ويمزق ما تقنع ، وتسربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل ، فيأخـذ فى اعـداد عدة الأمم الطالبة لاستقلالها ، المستنكرة لاستعبادها .

« على هذا الأساس الاجتماعى التدريجى ، لا مانع يمنع الشرقى من الانخراط فى الحزب بعد الحزب ، وأن يقبل من المواعيد ، ما يصدق وما لا يصدق ، حتى يظهر فى الشرق ما ظهر فى الغرب من أفراد يرون الموت فى حياة وطنهم مغنما ، والحياة فى موت وطنهم مغرما .

« حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذى هو نعم الدواء من داء استعباده ، فيجمع شتات أبنائه الذين كانوا أذلة ، ويصيرهم بنعمة الاخـاء ، والاتحـــاد ، والتعاون أعزة ـ بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الأمناء ، يعملون متضامنين فى صالح مجموعهم ، ونصرة مظلومهم ـ يأخذون ما لهم من حق ، ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون » .

## مقصـــده السياسى

قال الأستاذ الامام عن مقصده السياسى : « انه كان يسعى لانهاض احدى الدول الاسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على

شئونها ، حتى تلحق بالدول القوية ، فيعود للاسلام شأنه ، وللدين الحنيفي مجده ، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الاسلامية ، وله في عداوة الانجليز شئون يطول بيانها » . انتهى كلام الأستاذ الامام .

نقول وقد دل تاريخ السيد على أنه بذل حياته كلها لبعث روح النهضة والحرية في أمم الشرق قاطبة .

فهو أول زعيم للحرية في الشرق ، وأول باعث لنهضته الحديثة ، ولئن لم يشاهد ثمار دعوته وجهوده ، فحسبه أنه غارس البذرة الأولى للحركات القومية التي ظهرت في الشرق منذ نحو تسعين سنة الى اليوم ، والى ما شاء الله ، واذا هو لم يشهد نجاح دعوته قبل موته ، فليس مرجع ذلك اليه ، لأنه قد أدى رسالته على أتم ما يؤديه الزعماء المخلصون ، ولكن عاكسته الأقدار ، واعترضت سبيله عقبات جمة ، بعضها من مكايد الدول الاستعمارية ، وخاصة الدولة الانكليزية ، وبعضها من خذلان ملوك الشرق وأمرائه لدعوته واضطهادهم اياه .

فقد رأيت ما أصابه من الخديو توفيق حين ولي الحكم ، اذ نقض عهده معه ، ونفاه من مصر ، وكذلك فعل معه شاه العجم ناصر الدين شاه ، فقد استدعاه لينتفع من علمه وحكمته ، وما لبث أن تنكر له وحبسه ثم نفاه ، وعرفت ما أصابه في الآستانة على عهد السلطان عبد الحميد ، مما لا حاجة الى تكراره ، وحسبك أن تذكر أنه كان سجينا في قصره ، ومحاطا بالعيون والجواسيس ، حتى لاقى منيته في ظروف تدعو للاعتقاد أنه مات شبه مقتول .

فملوك الشرق وأمراؤه كانوا اذن حربا على جمال الدين ، وكانوا من حيث يشعرون أو لا يشعرون عونا لدعاة الاستعمار في احباط جهوده ومساعيه ، فليس عجيبا أن لا يشهد السيد نجاح دعوته في الاصلاح والحرية ، وقد لقي أيضا خذلانا من أكثر الطبقات ،

فكأنه كان يرسل دعوته فى صحراء مقفرة ، ليس فيها سميع ولا مجيب .

ولا مراء فى أنه قد تقدم الشرق وسبقه الى الحياة نيفا ومائة عام ، فلم يلب الشرق نداءه فى حياته ، ولم تظهر ثمار دعوته الا بعد مماته ، وهذا يزيده فضلا وقدرا ، لأنه قام بدعوته فى وقت عز فيه النصير ، وقل المستجيب الى دعوة الحرية والحق .

وقد شعر السيد ، وخاصة فى أواخر أيامه ، بمرارة اليأس والألم مما لقيه من صنوف الاضطهاد ، ونقض العهود والمواثيق ، وكم كان حقيقا بالألم حين يعرض فى ذاكرته مبلغ ما بذله لأمم الشرق من الاخلاص والتفانى فى خدمتها ، ثم ما أصابه من كبرائها وأمرائها من التنكر والجحود ، وما لقيه من مختلف طبقاتها من الأعراض والخذلان .

ذكر عنه الأمير شكيب أرسلان فى ترجمته (١) : « أنه لقيه بالآستانة سنة ١٨٩٢ ، وكان من شدة ما يجد من الألم لحال الاسلام تخطر له خواطر نادرة فى هذا الموضوع . فقال له مرة « قد فسدت أخلاق المسلمين الى حد أن لا أمل بأن يصلحوا الا بأن ينشئوا خلقا جديدا ، وجيلا مستأنفا ، فحبذا لو لم يبق منهم الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية تسير بهم فى طريق السلامة » .

وقال له مرة أخرى « لم يبق فى الاسلام أخلاق ، فهذا محمود سامى ( البارودى الشاعر الكبير ، رئيس الوزراء أثناء الحوادث العرابية ) عاهدنى ثم نكث معى ، وهو أفضل من عرفت من المسلمين (٢) » . وقال له أيضا « ان المسلمين قد سقطت هممهم ،

(١) حاضر العالم الاسلامى ج ١ ص ٢٠٥ .

(٢) الاشارة هنا فيما نعتقد الى ما كان من نفى السيد جمال الدين من مصر فقد نفى بقرار من مجلس الوزراء وكان محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف فى ذلك الحين واشترك فى هذا القرار .

ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم ، وهو شهواتهم » .

بمثل هذه الخواطر كان يعبر السيد عن أمه من سوء حالة الأمم الشرقية ، وهذا الألم يدلك على مبلغ الشعور الذى تملك لبه ، وأنه كان يشتعل غيرة على الشرق والاسلام ، ويحزن أذ يرى دعوته لم تلق مجيبا ولا نصيرا ، وانك لترى صورة الألم والحزن مرتسمة على محياه فى مرضه الأخير ، وظل هذا الحزن يلازمه حتى فارق الحيـــاة .

وبعد أن مضت عشرات السنين على وفاته سنة ١٨٩٧ ، لم ينهض واحد من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يبحث عن قبره ويشـــيد له ضريحا يليق بذكرى الرجل العظيم الذى أفنى عمره فى بعث الأمم الشرقية وانهاضها ، وبث روح الحياة والحرية فيها ، الى أن قيض الله رجلا من سراة الأمريكان ( المستر كراين ) ، فأخذ يبحث ويحقق حتى اهتـدى الى قبر جمال الدين بالآسـتانة سنة ١٩٢٦ ، فأقام عليه شاهدا فخما من الرخام ، نقش عليه اسم السيد ، وأدى بهذا الصنيع واجبا كان يجدر بسراة الشرقيين وعظمائهم أن يؤدوه .

وهذا المظهر المستمر من نكران الجميل يكشف لك ناحية من أسباب التأخر السياسى والاجتماعى فى أمم الشرق قاطبة ، فان الأمم لا تسلك سبيل النهضة الصحيحة الا اذا عرفت أقدار الرجال الذين أفنوا حياتهم فى سبيل مجدها وعظمتها .

## بعض كلماته الخـــالدة

لجمال الدين الأفغانى كلمات خالدة تدل على عظمة شخصيته وايمانه برسالته وقد مر ذكر بعضها فى خلال الحديث عنه وسنذكر هنا أهمها شأنا (١) .

* * *

ـ لا جامعة لقوم لا لسان لهم . ولا لسان لقوم لا آداب لهم . ولا عز لقــوم لا تاريخ لهم . ولا تاريخ لقـــوم اذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيى آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم . وتنســـج على منوالهم . وهذا كله يتوقف عــلى تعليم وطنى بدايته ( الوطن ) . ووسطه ( الوطن ) . وغايته ( الوطن ) .

* * *

ـ شر أدواء الشرق داء انقســـام أهليه . وتشتت آرائهـــم واختلافهم على الاتحاد . واتحادهم على الاختلاف . فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا .

* * *

ـ الدخول من باب الذل لا يثمر غير الذل . ومعشر الشرقيين فى الفقر خوف الفقر . وفى الموت خوف الموت .

* * *

ـ اذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الأشـــياء الحرية والاستقلال لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك أو المسيطر عن طيب خاطر . وكذلك الاستقلال . بل هاتان النعمتان انما حصلت وتحصل عليهما الأمم بالقوة والاقتدار .

---

(١) كثير من هذه الكلمات وردت فى ( خاطرات جمال الدين الأفغانى ) لمحمد المخزومى ، وقد أضفنا اليها بعض روائع الكلم التى صدرت عن الحكيم الأفغانى .

- ينتصر الحق ويخذل الباطل وان طاوله الكرم وأمهله العفو ومده الغرور .
- بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته . ووصل العدوان عليهم نهايته.
- الانجليز باقعة العالم وأحبال الحيل .

* * *

- أعتقد أن السجن فى طلب الحق من الظالمين العتاة رياضــة . والنفى فى ذلك السبيل سياحة . والقتل شهادة . وهى أسمى المراتب .

* * *

## الذل عـــدو العـــلم

- الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان .

* * *

## العلم والعمل به

- علم قليل مقيد فى الصدور يعمــل به ، خـــير من علوم كثيرة مسطورة فى الكتب ولكن لا يعمل بها .

* * *

- أضعف ما فى هذا العصر : حق لضعيف لا قوة له ، وأقوى شيء : باطل لقوى يجعل باطله حقا .

* * *

- لا خير فى حق لا تدعمه قوة .

* * *

- صاحب الحق قوى ولو كان ضعيفا . والمبطل ضعيف ولو كان قـــويا .

## يمين جمـــال الدين

ـ كان يمينه اذا شاء أن يقسم به قوله : « وعزة الحق . وسر العـــدل » .

* * *

ـ عظمة الملك لا تكون بالتيجان • ووقار العلم لا يكون بالطيلسان•

* * *

ـ « الأكفاء فى العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء » •

* * *

ـ الفقر عدو الفضيلة • والثراء نصير الرذيلة •

* * *

ـ حقيقة الأنفة . وعزة النفس عدم الاتكال على الناس .

* * *

ـ صاحب القلم لا يحتاج الى عصا .

* * *

ـ الافراط فى التواضع دليل على الادعاء •

* * *

ـ ما مات واحد فى حب أمة الا واحبته .

* * *

ـ لا أمة بدون أخلاق . ولا أخلاق بغير عقيدة . ولا عقيدة بغير فهـــم .

* * *

ـ خير موازين الأمم أخلاقها .

ـ يقل العلماء متى كثر المتطفلون والمدعون .

* * *

ـ العلم الصحيح كسب صحيح · بل وراثة لنبوة ·

* * *

ـ لا مانع من السفور اذا لم يتخذ مطية للفجور ·

* * *

ـ خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الأبطال .

* * *

ـ من اعتقد أن لا حياة الا هذه الفانيـــة . فقد خسر الأولى والثانيـــة .

* * *

ـ لا يتم عمل والتآلف مفقود . ولا يكون فشل والاتحاد موجود .

* * *

ـ من عجز عن اصلاح نفسه كيف يكون مصلحا لغيره ! ·

* * *

ـ أمة تطعن حاكما سرا . وتعبده جهرا . لا تستحق الحياة .

* * *

ـ تحتجب الحقائق عن الملوك بقدر تحجبهم .

* * *

ـ حمال الحطب للاتجار به أنفع من حمال الذهب للادخار .

* * *

# فهـــرس

# صدر من سلسلة أعلام العرب

| اسم الكتاب | المؤلف |
|---|---|
| ١ ـ محمد عبده | عباد العقاد |
| ٢ ـ المعتمد بن عباد | على ادهم |
| ٣ ـ جابر بن حيان | د . زكى نجيب محمود |
| ٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون | د . على عبد الواحد وافى |
| ٥ ـ ابن تيمية | د . محمد يوسف موسى |
| ٦ ـ معاوية | ابراهم الابيارى |
| ٧ ـ سيد درويش | د . محمد أحمد الحفنى |
| ٨ ـ عبد القاهر الجرجانى | د . أحمد بدوى |
| ٩ ـ عبد الله النديم | د . على الحديدى |
| ١٠ ـ عبد الملك بن مروان | د . ضياء الدين الريس |
| ١١ ـ مالك | امين الخولى |
| ١٢ ـ القلقشندى | د . عبد اللطيف حمزه |
| ١٣ ـ الطبرى | د . احمد محمد الحوفى |
| ١٤ ـ الظاهر بيبرس | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ١٥ ـ ابن الفارض | د . محمد مصطفى حلمى |
| ١٦ ـ المختار الثقفى | د . على حسنى الخربوطلى |
| ١٧ ـ الوليد بن عبد الملك | د . سيدة اسماعيل الكاشف |
| ١٨ ـ الأصمعى | د . أحمد كمال زكى |
| ١٩ ـ زكريا أحمد | صبرى أبو المجد |
| ٢٠ ـ قاسم أمين | د . ماهر حسن فهمى |
| ٢١ ـ شكيب أرسلان | أحمد الشرباصى |
| ٢٢ ـ ابن قتيبة | د . عبد الحميد سند الجندى |
| ٢٣ ـ أبو هريرة | محمد عجاج الخطيب |
| ٢٤ ـ عبد العزيز البشرى | د . جمال الدين الرمادى |
| ٢٥ ـ الخنساء | محمد جابر الحينى |
| ٢٦ ـ الكندى | د . أحمد فؤاد الاهوانى |
| ٢٧ ـ الصاحب بن عباد | د . بدوى طبانه |
| ٢٨ ـ الناصر بن قلاوون | د . محمد عبد العزيز مرزوق |
| ٢٩ ـ أحمد زكى | انور الجندى |
| ٣٠ ـ حسان بن ثابت | د . سيد حنفى حسنين |

| اسم الكتاب | | المؤلف |
|---|---|---|
| ٢١ ـ المثنى بن حارثه الشيبانى | ... | عقيد محمد فرج |
| ٢٢ ـ مظفر الدين كوكبورى | ... | عبد القادر أحمد |
| ٢٣ ـ رشيد رضا ... | ... ... | د . ابراهيم أحمد العدوى |
| ٢٤ ـ اسحاق الموصلى .. | ... | د . محمود أحمد الحفنى |
| ٣٥ ـ ابو حيان التوحيدى .. | ... | د . زكريا ابراهيم |
| ٣٦ ـ ابن المعتز العباسى ... | ... | د . أحمد امام زكى |
| ٣٧ ـ الزهاوى ... ... | ... ... | د . ماهر حسن فهمى |
| ٣٨ ـ أبو العلاء المعرى .. | ... | د . عائشة عبد الرحمن |
| ٣٩ ـ أحمد لطفى السيد . | ... | د . حسين فوزى النجار |
| ٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين | ... | د . فوقية حسين |
| ٤١ ـ صلاح الدين الأيوبى ... | ... | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ٤٢ ـ عبد الله فكرى ... | ... ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٤٣ ـ عبد الله بن الزبير ... | ... | د . على حسنى الخربوطلى |
| ٤٤ ـ عبد العزيز جاويش .. | ... | أنور الجندى |
| ٤٥ ـ ابن رشيد القيروانى .. | ... | عبد الرءوف مخلوف |
| ٤٦ ـ محمد عبد الملك الزيات | ... | محمود خالد الهجرسى |
| ٤٧ ـ حفنى ناصف ... .. | ... | محمود غنيم |
| ٤٨ ـ أحمد بن طولون ... .. | ... | د . سيدة اسماعيل الكاشف |
| ٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى .. | ... | أحمد سعيد الدمرداش |
| ٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق ... | ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٥١ ـ المهدى العباسى ... . | ... | د . على حسنى الخربوطلى |
| ٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى | ... | د . محمود رزق سليم |
| ٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى ... | ... ... | د . حسين فوزى النجار |
| ٥٤ ـ زرياب ... ... | ... ... | د . محمود أحمد الحفنى |
| ٥٥ ـ الكندى « المؤرخ » ... | ... | د . حسن أحمد محمود |
| ٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى ... .. | ... | د . زكريا ابراهيم |
| ٥٧ ـ ابن النفيس ... | ... ... | د . بول غليونجى |
| ٥٨ ـ السيد أحمد البدوى ... | ... | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ٥٩ ـ المأمون ... ... .. | ... | د . محمد مصطفى هداره |
| ٦٠ ـ المقرى ... ... .. | ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٦١ ـ جمال الدين الأفغانى .. | ... | عبد الرحمن الرافعى |

# دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - يقدم فى ١٠ يناير ١٩٦٧

العدد الثاني والثلاثون

# مجلة الكتاب العربى

رئيسا التحرير

علـى أدهـم

الدكتور عبد الحميد يونس

تطلب من باعة الصحف ومن مكتبة دار التأليف والترجمة
٥ شارع عدلي بمصر ت ٤٦٣٨٣
الثمن ١٠

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

## من مواد هـذا العـدد :

- **إلمامة بأدب المنفلوطى**
  عـلى أدهـم
- **مدخل إلى عـلم السياسة**
  د . راشد البراوى
- **الضفادع بين مترجمين**
  د . عـلى نـور
- **الأرض العـالية**
  د . أحمد كمال زكى
- **السينما التسجيلية**
  د . أنور خورشيد
- **القصة القصيرة فى مصر**
  يوسف الشارونى
- **مسرح الأطفـال**
  إبراهيم مصباح

أعلام العرب

٦٢

# الجاحظ

تأليف

الدكتور أحمد كمال زكي

فبراير ١٩٦٧

دار
الكاتب
العربي
للطباعة
والنشر

## [illegible] الجاحظ

١ - «الجاحظ حياته وآثاره» طه الحاجري (دار المعارف)

٢ - «الجاحظ» — [illegible] ١٩٢٤ [illegible]

٣ - «الجاحظ» — د. [illegible]

٤ - «[illegible]» ١٩٦٦
[illegible]

٥ - أدب الجاحظ — حسن السندوبي

٦ - الجاحظ — حنا الفاخوري

٧ - الجاحظ — معلم العقل والأدب — شفيق جبري

٨ -

أعلام العرب

٦٢

# الجاحظ

تأليف

الدكتور أحمد كمال زكي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

مؤلفات الجاحظ

١ - كتاب الحيوان (ط. الحلبي ١٩٤٧) تحقيق عبد السلام هارون

٢ - " البخلاء — تقديم أحمد العوامري وعلي الجارم

٣ - البيان والتبيين — " عبد السلام هارون

٣ م - المحاسن والأضداد

٤ - ذم القول في البخلاء (رسالة في البخلاء)

٥ - مجموع رسائل الجاحظ — تحقيق د. بول كراوس والدكتور طه الحاجري

٦ - مجموعة رسائل الجاحظ — مطبعة التقدم بمصر

- رسائل الجاحظ — تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

- ثلاث رسائل للجاحظ — نشرها يوشع فنكل

٦ - التربيع والتدوير

٧ - العثمانية

٨ - التاج في أخلاق الملوك

توجد بأسماء مؤلفات ورسائل ص ٦٦ و ٦٧ كتاب "الجاحظ لأحمد محمد الحوفي"

ومنها في ٤٢ كتابا نحو ٢٩ رسالة

مثل: رسالة في [illegible]

" " العشق والنساء

كتاب "البخلاء" للجاحظ تحقيق الدكتور طه الحاجري الطبعة الثالثة ٥٢٠ صفحة (دار المعارف)

# مقدمة

فى أحد أيام المحرم من عام ٢٥٥ / ديسمبر سنة ٨٦٨ أعلنت وفاة أبى عثمان الجاحظ فى البصرة ، وحمل النبأ الى المعتز بالله خليفة بغداد فصرخ فى جزع « لقد كنت أحب أن أشخصه الى وأن يقيم عندى ! » فقال أحد جالسيه : « انه كان قبل موته عطلا بالفالج » .

ولقد كان الخليفة يعلم ذلك من غير شك ، غير أنه أبى الا أن يعلن عن أمنية طالما تمناها سلفه ، منذ أن أفلح المأمون فى ضم هذا الكاتب العظيم الى ديوان رسائله ، وان لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام ودع بعدها العمل الرسمى ، دون أن يودع رجاله ، حتى استطاع أن يصاحب الجميع على اختلاف المشارب وتعقد الأهواء .

ان تلك الأمنية يمكن أن تقفنا بيسر على كنه الطبيعة الفذة التى سجلت للجاحظ آثارا فكرية وفنية ، لا تزال الى اليوم موضع عناية المتأدبين والمجتمعيين .. لا من حيث انها مرحلة تاريخية من مراحل تراثنا العربى ، ولكن من حيث انها نتاج انسانى يكفى أنه نبه على فساد أوضاع حاولت ثورة الزنج ( ٢٦ رمضان سنة ٢٥٥ / ٥ أغسطس سنة ٨٦٩ ) أن تقوم منها ما قدرت على التقويم وفهمته .

وربما بدت المغالاة فى تلك القالة ، الا أن من يقرأ « كتاب البخلاء » الذى وضعه الجاحظ فى آخر أيامه ، الى جانب بعض رسائله التى ترتفع أحيانا الى مستوى الكتب النادرة ، يلحظ أن « صاحب الزنج » أو قائد الثورة كان ينطلق فى الواقع من حيث انتهى « صاحب البخلاء » .

فثمة ضغط واستعلاء ، وأموال وثراء . وتباه وقبض يد ، من جانب السادة الذين أثروا نتيجة تحول المجتمع الاسلامى — فى القرن الثالث الهجرى — من طور الزراعة الى طور التجارة ، وثمة عامة وسفلة ، ورعاع وعبيد ، ينفسون ويحقدون ويحسدون ، ويريدون القوت والعمل والانطلاق .

وهناك علة سياسية تنخر فى عظام الخلافة الهاشمية اسمها « الترك » أطاحت فى عجل — بعد حكم المتوكل — بالمنتصر والمستعين والمعتز ، غير أنها كانت تعمل دائما على أن يكون هناك الغش والرشوة والكذب والنفج والنفاق . لكن بعض هذه أو كلها من الصفات التى يمكن أن تشيع فى الطبقة التى أثرت ، وهذه أشبه ما تكون بكل طبقة بورجوازية — وعذرا عن استخدام هذه التسمية المحدثة — تطل برأسها ، وتريد أن تثبت أقدامها على الأرض .

وهناك تحزب من جانب الأعاجم ، وتعصب من جانب العرب ، وصراع بين الأفكار ، وجواذب كلامية ، ومناقشات سوفسطائية . وكلها تذوب فيما يكتب الجاحظ ويبعث به الى أقاصى الشرق

والغرب ؛ فيعمل عمله فى اثارة الآراء وحفز الهمم وحشد الجهود للتقصى والمتابعة .

ان الجاحظ لا يظل الكاتب الانسانى للعرب أو للمسلمين فحسب ، ولكن فى وسعنا أن نزعم أنه أسـهم أيضا فى تكوين هؤلاء . فلعله أعطى بعض الأبعاد الجديدة للكثير من قضاياهم الأخلاقية ، حتى اننا لنجرؤ فنقول : انه أفاض من سخريته وذكائه عليهم شيئا ربطهم به ــ دون أن يشعروا ــ الى الأبد .

وعلى الرغم من أنه يعترف بفضل واحد كابن المقفع وآخــر كسهل بن هارون ــ وكلاهما عربى اللســان فارسى الدم ــ فالشىء الذى لا شك فيه أنه خرج بالنثر العربى من حــدوده الكلاسيكية الى حيث يصبح ظاهرة اجتماعية عاشت كما ينبغى أن تعيش كل ظاهرة متفاعلة .

وكم كان خليقا بمن تبعه أن ينحو نحوه ، فيعكف عــلى الحياة دون الاكتفاء بنقــل الموروث ــ عن طريق الرواية ــ ويرصدها ذكريات وتجارب ونظرا ومحاولة فهم وتفلسفا !

وانه هو ليسجل ملحوظاته الأولى مبتدئا بمرحلة تعليمه فى الكـتّاب ، وهى الحقبة التى كانت فيها الحياة البصرية تؤذن بالتحول الى بغداد ، واستطاع الحمراء أو الموالى أو أحرار الموالى الفرس ــ ويسمون الآزادمردية ــ أن يتولوا أمــور الحكم ويبسطوا سلطانهم فى القصر والمسجد والسوق ومجلس المناظرة ؛ وقد شاهد مواكب العجم وهى تتوقف أمام قصور البصرة ، وعلى

ضفاف أنهارها الكثيرة ، ورأى انطواء العربى على نفسه فى اقطاعيته التى كان العبيد يتناقصون فيها يوما بعد يوم ، وباع هو نفسه أحقر السلع فى سوق القصارين وسوق الدباغين وفى الكلاء والفرضة ، وشاهد العوائين والمكدين وسمع الى اللصوص ، وعرف حيل المحتالين والمستعرضين ، فبقيت هذه الحياة المحلية منطلقا لآفاق أرحب ، عرف فيما بعد كيف يستغلها فى بعض كتاباته .

وظل طيلة حداثته وهو يرى كيف تتشكل المملكة الاسلامية فى كنف خليفة بغداد ، وكيف أصبح عليه أن يجد فى تحصيل العلم ، كما يجد الموالى ، ليصل الى هذا الخليفة بادئا بعظيم ما فى بلدته ، ومتحولا الى أمير فأمير .

وما كان لأحد أن يأسى على ذلك أو يعارضه ، لأنه كان مبدأ عاما فى عصر تضخمت فيه الأنانية واستبدل بالايثار أثرة . وكان الناس يعزفون عما يعوق حركتهم الى أمام ، ويختارون أقصر الطرق مهما تكن طبيعتها ، ذلك أن المهم هو : خذ ما تستطيع برغم من لا يستطيع !

وقد يعنينا التاريخ الآن ، فهو منتصف القرن الثانى الهجرى . وكان المكان أعقد بقعة سكانية فى العالم ، حيث يتلاقح العرب بالفرس ويمتزج الروم بالزنج ، والزط بأهل السند والبربر والصين ، وثمة كلدانيون أو نبط ودماء أشورية وأخرى عدنانية وقحطانية . وكل هذا يدفع بالحدث الى شباب قلق وذكى وواع وعميق الأغوار ، وبه استطاع أن يقاوم روح العداء

ـــ الشعوبية ـــ التى كان العرب الأصلاء يقابلون بها فى كل مكان ، وان ظل دائما مقدرا أمجاد الأولين من غير العرب .

على أنه اذا كان لابد من أن يظهر الجاحظ على حقيقته ، فلابد من مناقشات مخلصة مع آثاره ، وهى كثيرة كثرة تدهش القارىء الى حد بعيد ، لو أنه عرض لها فى مقدمة كتابه « الحيوان » . ويبدو أن الكاتب نفسه أراد أن يعدد بقلمه ـــ ولو على سبيل التيه ـــ هذه الكتب ، ويبدو أن علينا نحن أن نطيل الوقوف معها لضآلة ما حفظ عن حياته ، برغم هذه الذكريات التى اعتاد أن يسوقها فى ثنايا كتبه بلا ملل .

والقضية على أى حال قضية فرد متطلع ، لكنه كان هين الأسرة . وتمكن من أن يظفر بالكثير ، ويثرى ، ويحتل مكانة بارزة فى مجتمع قد يصل هوانه به الى حد العبث بتفكيره .. فيكتب فى الشيء ونقيضه ، متحدثا عن الكلب والديك مثلا حديثا يبدو عاديا ، أو يبدو كما لو كان صدى لولعه بالجدل العقلى ، أو امتدادا ـــ قد نوه هو به للعجب ـــ لمنافرات الجاهليين ، لكننا لا نلبث أن نتبين صلته الوثيقة بالوضع السياسى أو الاجتماعى ، كما تتبين هذه الصلة ـــ بصراحة ووضوح ـــ فى رسالته المشهورة « مناقب الترك ، وعامة جند الخلافة » .

ومهما يكن من شيء فان الجاحظ الذى كان الخلفاء يتمنون الاتصال به ، مدين لهم ولمن دونهم بكل ما يبدر منهم فى حالات صفوهم وحالات كدرهم وعلى شتى الظروف ، فاذا كان علينا

أن نوفى — بدلا منه — حقهم من التقدير ، فلابد من أن نرجع القهقرى نحو قرن تقريبا نهايته عام ٢٥٥ .

على أننا نتوقف بعض الشيء لنقدم هــذه الصفحات عن الجاحظ ، وما نظننا بحاجة الى اشارة خاصة الى المنهج الذى اصطنع . فقد أخذ به « الأصمعى » أولا ثم « ابن المعتز العباسى » بعد ذلك ، وكان كلاهما محاولة لمزج حياة علم بآثاره وعصره فى اطار من التاريخ المحقق ، وهذا الصنيع — فى رأينا — وفاء لمنطق السيرة الفنية فى حد من حدودها المختلفة .

ولسنا نريد بعد ذلك أن نتطرق الى العمل نفسه ، فهو بين يدى القارىء يتفحصه ويقول فيه كلمته . لكننى أرجو أن أنبه على أنى اذا كنت أفدت من أعمــال المحدثين فى « الجاحظ » وبخاصة جاحظ الدكتور طه الحاجرى ، فقد كانت افادتى الكبرى من آثار الجاحظ نفسه ، بالاضافة الى طبقات المتقدمين وتواريخهم.

كما أرجو أن أنبه على أنى رأيت أن ألحق السيرة بقسم صغير ضمنته شروحا وتعليقات رأيتنى مضطرا اليها ، لالقاء الضوء على ما رأيت أنه لا يمكن أن يظل فى الظلام ، واستغنيت بذلك عن التهميشات المألوفة محددا كل شرح أو كل تعليق برقم خاص .

متطلعا فى نهاية الأمر الى ما اعتاد الجاحظ أن يلفت اليه نظر قارئه ، وهو حسن النظر فى الكتاب ولباقة تناوله ، حتى لا يضيع فى اشتجار القيل والقال . والله المعين .

مصر الجديدة فى يوليو سنة ١٩٦٦ **أحمد كمال زكى**

# الباب الأول

## البحث عن طريق

**١ ـ عمرو بن بحر**

على تلك الدرب التى تخرج من سكة المربد ، وفى بقعة مهملة يغور فيها نهر صغير من عشرات الأنهر التى عرفت بها مدينة البصرة القديمة ، يقف غلامان صغيران بعيدين عن أترابهما يرمقانهم فى لهوهم بهدوء لا يتناسب مع سنهما الغضة ، وفى يد أحدهما ـ وكان أسمر ناتىء الجبهة بارز العينين ـ لوح وبعض أوراق ، وبدا الآخر أطول قامة دقيق الملامح حاد النظر .

ربما كانا فى السادسة أو السابعة ـ فلا أحد يدرى متى ولدا تماما ـ الا أنهما عرفا فى الحى من النجباء ، على خلاف ما بينهما من أصل وأسلوب تنشئة وطريقة حياة . وكان الأسمر القصير يتحدث دائما عن أبيه بحر الكنانى الذى ودع الدنيا ولما يزل فى ريعان الشباب وخلف أمه تعيش به على دخل هين ، وأما الآخر دقيق الملامح فهو لم يكن يعنيه الا أن يردد أنه على هوان أصله ـ على الأقل فى نظر صديقه العربى ـ يستطيع أن يقول ان أباه سيارا ينتمى الى عرق فارسى ثابت .. ولكنها الأيام !

غير أن هذا أو ذاك ليس بأبرز الخصائص ولا بأقواها . وانما العجب العاجب حقا هذه الرغبة التى طالما اعتملت فى صدر الصغيرين .. أيهما يسبق الآخر فى مجال العظمة ؟

كأنما كانا يستشفان الغيب فينبئهما بأنهما من العظمـــاء لا محالة ، أو كأنما اجتمع أهلوهما على أن يصل كل منهما الى ما وصل اليه كبار البصرة ، فحملا الرغبة كلاما وعزما معا . وراحا يجدان ويحفظان ، تسعفهما ذاكرة لاقطة وفطنة ملحوظة ، وعرفهما معلم الكتاب ندين صابرين على مشقة الرواية واستيعاب آيات القرآن . ولم يكن فيها ثمة نقص ولا توان ولا اهمال ، ولعل هذا يفسر وقفتهما الطويلة المتأنية .

فهاهم أولاء الأولاد يلعبون أمام عدة بيوت بعضها من القصب والبعض الآخر من الآجر ، عقدت عليه سحائب الغبار طبقة قاتمة ، وهاهم أولاء يخوضون فى الوحل ويتراشقون بالحصى ونوى التمر ، بينا أمهاتهم من حشوة النساء يصرخن عليهم بلا جدوى ، وهنا يقول الأسمر البارز العينين لابن سيار :

ـــ تترك أمثالك لتلازمنى ومعى هذا ؟

وكان قد أشار الى اللوح والأوراق ، فقال ابن سيار وهو لا يرفع عينيه عن غلمان الحى :

ـــ ان كنت تعنى بأمثالى موالى العرب فان العرب ليسوا سودا يا عمرو .. أتعرف هذا ؟

فقال ابن بحر :

ـــ أعرفه ، ولكن يقال ان فيهم من السود كثيرين سماهم رواة المسجد بالغربان يا ابراهيم !

فقال ابن سيار :

ـــ فأنت اذن غراب الحى يا عمرو !

ويضحك ، ولكن عمرا لا يتركه ينعم طويلا بضحكه ، اذ يسرع فيلقمه حجرا عارضا بهجنته واختلاط نسبه ، فيقول :

ـــ ولكنى لست من بلخ ، ولم ترضع أمى بلبنها غـيرى يابن الحمراء .

تلك سبة ، ولكن ابراهيم بن سيار يعلم أن صاحبه لا يتورع مطلقا عن أن يسلقه بمثلها أو أفحش منها وطالما أثير فغضب ، ولهذا آثر أن يسكت . ولكن بقدر السهولة التى يمكن أن يتحمل بها صبيان هذا النوع من الغمز والتجريح ، كان كبارهما يشقون به بعد أن عصفت العصبية بالمدينة الكبيرة وامتدت الى بغـداد ـــ التى كانت فى ذلك الوقت لا تزال فى نهاية ربع قرنها الأول ـــ وسائر مدن العراق . حقا كان العرب اذ ذاك هم السادة ، لكن القطاعات السكانية الأخرى من « الأعاجم » حملوا الضغن على « سادتهم » خفية وعلانية .

وربما بقى شىء آخر قد يخطىء النظر فى الكشف عنه ، وان تكن الأخبار تحمله ملوّحة به فى وجه هذا الكنانى السليط . ولقد اعتـاد هـذا الشىء أن يؤرقه ، ويحاول هو جهده ـــ بقـدر

ما يستطيع — أن ينقضه ، ولكن ما السبيل ؟ ان ابن سيار يخبره ، ببراءة يصطنعها ، أن أمه تقول لصواحبها وهن فى أفنية دورهن الحقيرة : ان أم عمرو لم تكن زوجا لعربى قح ، ذلك أن رجلها بحر ابن محبوب بن فزارة كان مولى زنجيا لأبى القلمس الكنانى الفقيمى ، وعمل جمالا لواحد من سادة العرب اسمه عمرو ابن قلع .

أهذا ممكن ؟

تلك هى المعضلة ، وأنى له بمن يصحح هذا الوهم الذى يريد أن ينال منه وينحدر به الى حيث يقف الحمراء ؟ وكانت الأم نفسها لا تزجى له رأيا قاطعا ، وطالما راوغت ، وفى كثير من الأحيان كانت تقول له :

— انه الحسد يا ولدى .. فأنت عربى صريح النسب كريم الأصل ، ولن أدعك حتى تأخذ بآداب قومى وجيرتى .

كلام جميل ، ولكن أين هو من الحقيقة ؟

لقد كان ولا شك خليقا أن يستوى على مكان البروز بين الأعاجم — ومنهم صديقه ابراهيم — ثم ينتهى شأنه أو ينتهى شأنهم هم كما انتهى شأن الآخرين ، ولكن أهذا يكفى والقوم من حوله يتصايحون بالنسب ويتهاجون بالهجنة ؟ ان أحدا ليس أحق منه بالدفاع عن أرومته لهذه الشوهة التى تجعله أمثولة بين أقرانه . وليكن عنيدا ، وليكن قوى النفس بالغا فى القوة

النفسية ، فهو على قوته تلك سيظل كالآخرين يبحث عن الأصل العربى الصريح .

وكان من الجائز أن تفسد هذه البلبلة حياته وربما دمرتها ، ولكن صبره وعناده وذكاءه واستعداده العقلى الكبير .. كل أولئك كان يدفعه دفعا الى أمام حتى ضرب المثل بجده معلم الكتّاب ، وتعود هو أن يحمل لوحه فى تيه ليريه لأترابه فى الوقت الذى كان فيه ابن سيار لا يكف عن التنديد به مزحا ، زاعما أن المعلم لا يحبوه بوده الا رثاء على دمامته .

ذلكم هو عمرو بن بحر الذى ولد حول العام التاسع والخمسين بعد المائة ، وانتمى الى بنى كنانة بن خزيمة [1] . وانتماؤه هذا بحق أو بغير حق لم يكن يعنى أكثر من محاولة للتمسك بأهداب الكبر ، وظل ، بعد ذلك أو قبل ذلك ، من أسرة رقيقة الحال انتهى أمرها بأن جاورت أسر الموالى فى هذا الحى الفقير من أحياء البصرة . فضلا عن أن التاريخ يقدر أنه على الرغم من أن عمرو ابن قلع — أحد آبائها الأولين — كان صاحب النسىء [2] فى الجاهلية فانها لم تنجح كثيرا فى التجارة ، وضربتها حركة الفتوح الاسلامية فى مقتل ، حتى أصبحت على الاسلام من عامة القوم ، تقنع بنصيبها الضئيل من العطاء السنوى المقرر .

ولا يحسن الاستطراد بعد ذلك ، فان الطفل ابن الأسرة المغمورة القاطنة فى هذه البقعة الحقيرة من أحياء البصرة كان يحث خطاه الى الشهرة ، دون أن تكون هناك خطة معينة لتنشئته .

بل ربما كانت أمه التى راحت تكفله بمشقة كانت تطمع فى أن يجيد الكتابة ليعمل أى عمل ، ولكن لا بأس فى الوقت نفسه من أن يمتهن أية مهنة تدر عليه وعليها أى ربح !

وعندما كان يردد على سمعها أسماء شيوخ الجامع من أمثال : « الخليل بن أحمد » و « ثمامة بن أشرس » و « أبى الهذيل العلاف » و « الأصمعى » و « أبى عبيدة » كانت تهز كتفيها وتقول له :

ـــ سينفعونك يا بنى ، ولكن هل تستطيع أن تصل اليهم ؟ أرجو ذلك بشرط ألا نبيع بقية ما خلفه لنا أبوك .

ويؤكد لها انه عندما يقترب من واحدة من حلقات هؤلاء الشيوخ يفهم الشىء الكثير ، ويعلن أيضا انه يجد لذة كبيرة عندما يحضر مناقشة بين الأصمعى وأبى عبيدة ثم يخبرها أن سريا اسمه أبو عمران مويس بن عمران يثنى عليه دائما ، كلما التقى به فى المسجد ، فتقول :

ـــ ان كنت تظفر منهم بطائل : فأنت مشكور يا عمرو ، وهم مشكورون .

وتسكت ويضطرب هو ، غير أنه يحس أنه مكلف باحتمال تبعة محورها لقمة العيش . ومثل هذا خليق بأن يبدل أطوار النفوس فى بعض المواقف ، وبخاصة مواقف الأزمات ، ولهذا لم يكن يجد غضاضة اذا امتدت يده الى ما يمنحه له مويس ، وكان على ندرته يرضى أمه شيئا ما ويثيره هو شيئا ما . وتبدو

الظروف كلها فى هذه المرحلة المبكرة من حياته متعاقدة على أن يسير فوق الشوك على نحو يثير حفيظته على البشر ، ويملأ نفسه بالحنق على الانسان ، ويوجه سخطه الى هؤلاء الناعمين فى قصور بغداد ودور البصرة الكبيرة ـــ ومنها دار مويس التى كانت ملتجأ للعلماء والمتناظرين ـــ لكنه فيما يبدو كان يقبل كل أمر بيسر لا يخلو من تساؤل ، أو لعله راض نفسه على ذلك ، بل ربما هون على نفسه بضحكة ما . وستكبر هـــذه الضحكة مع الأيام ، لا لتصبح مجرد قهقهة عالية ، وانما لكى تكون دنيا كاملة من السخرية والسحر والمرارة .

لكنه من ناحية أخرى كان يراقب ويدقق ويحصى ويطيل السمع الى أصوات الناس والحيوان ، ولعله قلد صوتا أو حركة أو أقبل على حشرة من الحشرات يقلبها وينخسها فى بطنها بمسمار . وأكثر ما كان يلذ له ـــ بل لعله الأمر الوحيد الذى يجارى فيه صبيان الكتاب ـــ أن يعدو وراء أحد الكلاب الضالة ويحصبه بالحجر ، أو يلقى عليه لوحه اذا رآه نائما فيرض عظامه (٣) .

لمـــاذا ؟

لا ندرى ، فليس كل شىء يمكن تفسيره فى سلوك غلام يعيش ظروفا مضطربة فى عصر تتشابك فيه القيم !

ويحدث فى يوم من الأيام أن تنقلب الآية ـــ وهذا يهزه ـــ فيرى كلبا يصول وسط أبناء الحى عاويا نابحا ، والجميع يجرون منه فيصرخ قائلا :

— انها لحظة من لحظات الثأر .. يا غوثاه !

وهناك واحد من أصحابه الصغار — اسمه مهدى — يقف بجانب حانوت أبيه القصاب ، فيثب عليه الكلب وثبة تطيح باللوح ثم يدفع بفمه الى وجهه . وقد رأى عمرو أن من العبث منع هذا الكلب عما هو فيه ، واكتفى بمراقبة المعركة غير المتكافئة . وكانت النتيجة : أن الكلب تمكن من فقع ثنيته فى موضع الجفن من عين صاحبه اليسرى ، فخرق اللحم الذى دون العظم الى شطر خده ملقيا به على وجهه وجانب شدقه ، بينما راحت الدماء تنبثق بقوة ، حتى ظن من رآه أنه مقضى عليه لا محالة ، وبخاصة عندما شوهد لا ينبس كأنما أسكته الفزع الأكبر (٤) .

**٢ ـ أبو عثمان**

حكى عمرو حكاية مهدى لأمه ، فأعلنت عن اشفاقها المصطنع بتقليب شفتيها ، ثم نصحته بترك مداعباته الثقيلة للكلاب وغيرها . بل راحت تندد بكل ما تراه منه من اهتمام بالحيوان عامة ، فالعاقل من لا يشغل نفسه الا بما يملأ كمه من أكياس الدراهم ! .

ولم يكن فى الواقع يريد أن يكون عاقلا بالحدود التى ترسمها أمه ، فهناك السلحفاة التى أودعها دهاليز بيته ، وهناك جرذ اعتاد أن يراه يقفز هنا وهناك كلما هدأت حركة البيت ، ولحظ أكثر من مرة ثعبانا يطل برأسه من احدى فجوات الجدار المشرف على السبخة الآسنة .. وقالت له أمه : انه يطلب الجرذ ! وأما الفراشات

والضفادع والبراغيث ، فهى دنياه التى يرتادها ، أو يحب أن يرتادها كلما ترك لوحه وورقه .

على أن أمه ذكرت ان صاحبه ربما مات ، فما دام الكلب قد أعمل فيه أنيابه على هذا النحو الذى وصفه ، فلابد أن يكون مكلوبا ، والكلب داء خطير يبدأ بأن ينبح المصاب به ويعطش أشد العطش ثم قد يبول علقا فى صورة الكلاب قبل أن يموت .

وقد انتهز فرصة فراغه من بيع ما معه من السكر الأبيض ، فأسرع الى بيت مهدى يدفعه فضوله أكثر مما تدفعه رغبته فى السؤال عن سلامته ، فاستقبلته أمه حفية به .. انها أطيب من أمه ، وقالت له انه نائم ، فسألها :

— هو بخير يا أماه ؟

أجابت :

— الله لطف به وقد خيط موضع الجرح .

قال :

— أبال جروا أم هرا يا أماه ؟

فأجابت :

— لا ، وشفاه الله !

وظل ينتظره أياما حتى رآه ذات يوم فى الكتاب ، فأخذ يمطره بوابل من الأسئلة ، ولا يرى فى وجهه من القطع الا موضع الخيط الذى خيط به ، وسرعان ما تبين خطأ أمه ، فلما عاد اليها قال :

— ان ما ذكرته عن الكلب الكلب يحتاج الى مراجعة ، وسآتيك يوما بالحق الصراح .

على أن محاولاته فى سبيل ذلك توقفت فجأة ، فقد نزحت أسرة ابراهيم بن سيار عن الحى فجأة ، وأحس هو فراغا لم يكن يملؤه استرجاعه أيامهما الأولى ، وقد أصر على أن يحمل النبأ لمعلمه فما زاد هذا على أن قال :

ــ اذن فقد فقدنا درهما يابن بحر !

ويأخـذه عجب أى عجب ، ولكنه لا يلبث أن يدرك قيمة الدراهم ، وهنا يعاهد نفسه على أن يظل وفيا لها . بل ربما فهم بوضوح سبب حرص أمه على أن تربط بين العقل والدراهم دائما ، بل لابد أن يكون حديث الناس عن البخل والجود صدى لهذه الرغبة التى أفصح عنها معلم الكتاب الجشع .

ــ المال هو كل شيء !

ومن أجل المال يجب أن يشتغل ويتعلم ، وما على أمه الا أن تهيىء له الفرص أو تتركه يخط مصيره بيده دون أن يشغلها صغر سنه ، فهو قادر على أشياء كثيرة ، وهو يجذب اليه فى كل وقت عيون الناس وعقولهم ، ولقد يسمع أحيانا من يقول « ما هو بانسى هذا الحدقى الصغير » فيتألم بعض الوقت ولكنه لا يلبث أن يسرى عن نفسه بما تعود أن يقبل عليه .

ولقد بدا واضحا أن أبا عمران مويس بن عمران عقد العزم على أن يتعهده ، ولم يجد هو غضـاضة فى ذلك ، بل ربما هنأ نفسه . وفى الأيام التالية كان يبثه لواعجه ، ويحدثه عن آماله ومتاعب أمـه . واعتاد مويس أن يمتحن حفظه لمقطعات الشعر

وأراجيز البدو ، فيعجب أن تتسع ذاكرته لكثير مما يسهل نسيانه ، ويقول :

ــ ما أشبهك بالمتكلمين فى حداثتهم !

وكان هو من المتكلمين أو مخالطا لهم على الأقل ، وكثيرا ما خاض فى مسائل الاعتزال والارجاء بآراء مسددة ، وشد الغلام الى مجالسهم وحثه على أن يحفظ قصائد صفوان الأنصارى وسليمان الأعمى وهما يردان على بشار بن برد فى تفضيله النار على الأرض ، ويعرضان لمسائل من العلم الطبيعى .

ولقد كبر عمرو وكنى بأبى عثمان علانية ، بعد أن هجس بالكنية خاطره طويلا ، وفى المسجد دار بجماعة من رفاقه حريصا على أن يخاطبوه بها ، فجلس الى موسى الأسوارى الذى يجتمع العرب والفرس حوله فيفسر لهم آيات القرآن الكريم بالعربية والفارسية جميعا ، ثم انتقل الى مجلس الخليل بن أحمد . غير أنه لم يكد يستقر شيئا حتى لمح صديقه ابراهيم ، وكان أبوه سيار يمسك بيده حتى اقترب من الشيخ فسلم وقبل ما بين يديه ، وان هى الا لحظات قصار حتى كان ابراهيم هدفا لأسئلة الخليل .

ان المسجد يستقبل اليوم الشخص الذى وعد بالشهرة !

وقد بدأت المناقشة عادية ، ثم ما لبثت ان ارتفعت الى المستوى الذى يجاوز مجرد حفظ آيات القرآن ومتون اللغة . وبدا ابراهيم عملاقا ، واكتسى وجهه قناعا من الصرامة والجد ، وتصور عمرو أنه لا يمكن أن يكون ــ برغم حداثته ــ دون أحد من شباب

الشيوخ الذى يجلسون هنا وهنالك . وعلى الرغم من أنه هو كان يمكنه أن يجيب عن الأسئلة التى راح الخليل يسددها لابراهيم ، فان هذا استلب الألباب بهدوئه وثقته وبعباراته المركزة المنغومة .

ومن بعيد كان مويس يرقبه ، فلما انتهى المشهد قدم عليه وهو يقول :

ـــ يمكنك من الآن أن تسبقه ، بل يمكنك أن تكون أكبر من هؤلاء الشيوخ ، لكن على ألا تقول ما ترك الأول للآخر شيئا ، وسأعطيك من الكتب ما تقدر على استيعابه ويزيدك فضلا وعلما .

وأعطى كتبا فى أخبار العرب ومنازلهم ومنافراتهم وأنسابهم ، فكان يحفظ منها وينقل بعضها الى كراريس زحمت أركان غرفته المتواضعة ، واستطاع أن يطمئن ـــ فيما بينه وبين نفسه ـــ الى أنه ليس دون صديقه ابراهيم . لكن أمه ، فيما يبدو ، ساءها ذلك ، أو لعلها لحظت كسادا فى تجارته المحدودة ، وقد عبرت عن استيائها بطريقة عجيبة ، فقد حدث أن طلب منها الطعام فجاءت اليه تحمل طبقا فوقه عدة أوراق وكراسات ، ولما سألها :

ـــ ما هذا يا أماه ؟

أجابت :

ـــ هذا الذى تجىء به كل يوم !

فخرج مغتما الى المسجد الجامع فلم يجد أحدا من أصحابه ، غير أن مويس بن عمران لمحه وشاهد شحوبه واكفهرار وجهه فسأله برفق :

ـــ ما شأنك يا أبا عثمان ؟

وكالعادة حدثه بما جرى ، فصحبه الى بيته وقدم اليه الطعام . حتى اذا استوفى منه حقه مد اليه يده بكيس فيه دنانير وهو يقول :

ـــ أشبع أمك يا ابن بحر بما تشتريه من السوق ، أيكفى خمسون دينارا ؟

وهتف أبو عثمان :

ـــ خمسون كاملة ؟

فضحك مويس وهو يدفعه الى الخارج ، وقال :

ـــ لا تنقص شيئا والله !

وسرعان ما كان أبو عثمان فى السوق يشترى الدقيق والزبيب والزيت والتمر ، ولم يرجع الا وحمالون يتبعونه بمئونة كبيرة ، وعندما رأت الأم كل هذا صاحت قائلة :

ـــ من أين لك هذا ؟

قال :

من الكراريس التى قدمتها الى !

**٣ ـ فى المربد**

على الرغم من أن أبا عثمان كان متهلل الخاطر منطلق الوجه ، فقد بدا فى ذلك اليوم من عام ١٧٠ عابسا . ان ابن سيار أنهى اليه نبأ وفاة الخليل بن أحمد ، وذكر له : ان ذكرى الراحل ضاعت فى تولية يحيى البرمكى الوزارة للرشيد .

لم يعرف بالنبأ من قبل ، لأنه انقطع أسبوعا أو نحوه فى

استظهار بقية ما أعطاه له مويس ، والاستعداد للسفر الى البادية مع جماعة من المسجديين ، وبخاصة بعد أن اطمأن الى أن المتبقى من الخمسين دينارا يهيىء لأسرته قوتها على نحو مرض طوال غيابه . على أنه اضطر الى أن يندد أمام صاحبه بقول سمعه من الخليل ولم يرض عنه وهو : « تكثر من العلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ » ورد عليه ابن سيار بأنه يوافق على ذلك تماما ، لأن القليل وحده للصدر ، فى حين أن القليل والكثير للكتب . وقال أبو عثمان : ان الموافقة قد تجوز من حيث المبدأ لأن الانسان يستطيع فعلا أن يدرب نفسه على استيعاب ما فى أى كتاب ، ثم أعلن عزمه على أن يقوم بذلك بطريقة تضمن له أسباب المعرفة بالقدر الذى يجب أن يرفعه على الجميع .

وفى هذه اللحظة برز من ناحية قصر زربى فى المربد أبو سعيد الأصمعى وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتنافسان على مشيخة اللغة فى المسجد بعد وفاة أبى عمرو بن العلاء ، وأسرع ابن سيار فجذب يد صاحبه ليبتعد به عن طريقهما ، وهو يقول :

ـــ لنتجول فى المربد يا أبا عثمان .. فهذا خير من لجاجهما .

فقال عمرو :

ـــ لعلك لا ترتاح الى أبى سعيد ؟

قال :

ـــ ربما .. لكن لم تسأل عن السبب ؟

قال عمرو :

ـــ حملته على الحمراء .

فرفع ابن سيار يديه صائحا :

ـــ ما هذا ؟ كأنك أصبت بما أصيب هو به من تعصب أعماه عن الطريق السوى .

قال عمرو :

ـــ أراك تردد ما يقوله الموالى فى الجامع ؟

فصاح ابن سيار :

ـــ وأزيد أنه سلفى متزمت وأكاد أكرهه .

قال عمرو :

ـــ ربما كنت مثلك لا أميل اليه يا أبا اسحاق ، لكن يجب أن تجعل للرجال أقدارا . واذا كان لابد أن تتكلم فى هذا فلماذا ندع أبا عبيدة وفيه ما يسوء وينوء .

قال ابن سيار :

ـــ رواياته عن لصوص العرب ؟

قال عمرو :

ـــ أولى أن تقول : أحاديثه عن مناقب الحمراء ، لكنك تنسى لحيته ووساخة وجهه أو قل دمامته .

وهنا انفجر ابن سيار ضاحكا ، ثم استدار الى عمرو فجأة وهو يقول :

ـــ أتتكلم عن الدمامة يا أبا عثمان ؟

وراح يتفرس فى وجهه ، بينما شعر عسرو كأنما الدنيا تدور به ، وكان لابد أن يتماسك وأن يواجه صاحبه بكل ما يملك من عنف ، فقال بعد قليل :

ـــ أنت تعيرنى يا أبا اسحاق ؟

ـــ ربما .. لكن ..

ـــ تعيرنى بقبح خلقتى ؟

ـــ أنا لا أقصد تماما أن ..

ـــ اذن فلعل هذه الخلقة تدهشك !

ـــ ربما .. لكن ..

ـــ اذن نبئنى ما الذى يدهشك على وجه التحقيق !

ـــ لقد أخطأت يا أبا عثمان .

ـــ هل هما عيناى الجاحظتان كأنهما بطن حوت مبقور ؟

ـــ حاشا يا أخى .. لم يخطر هذا لى على الاطلاق .

ـــ اذن فأنفى الأفطس ما ..

ـــ وهل أنفك أفطس يا أبا عثمان ؟

ـــ هو كما ترى .

ـــ أنا لا أرى شيئا .

ـــ فلعلى اذن أبدو بلا أنف ؟

ـــ بل ها هو ذا يغطى معظم وجهك .

ـــ ومن أجل ذلك تسكتنى به عن أبى عبيدة ؟

ـــ كلا والله .. انك واهم واننى لأتحاشى النظر اليك !

ـــ وما يدعوك الى هذا يا أبا اسحاق ؟

ـــ لقد كنت ..

ـــ أفاشمئزازا منه ؟

ـــ أستغفر الله ما عن هذا لى .

ـــ أم لم تسترح الى صغر أذنيه ؟

ـــ انهما جميلتان يا أخى .

ـــ ما بالك هكذا تضطرب ، وعهدتك قادرا على الكلام ، على أننى أريحك فأقول اننى بهذا الوجه القبيح لراض ، وبقصر قامتى لشاكر الى الله ، فان سألتنى قلت : قبح الوجه الذى أغنانى عن نظرات الفضوليين أمثالك يعلمنى أن الناظر فيه ان كان فطنا رأى فيه مقابلا للحسن كى يتدبر بديع صنع الله ، وان كان بليدا لم يزده النظر الا حسرة على أنه لم يوهب اللسان ليبين كم هو قبيح وأين يوضع بين كل مليح . على حين تكفينى قامتى القصيرة عن التوسع فى ابتياع الأقمشة ، حتى اذا جعت يوما وطلبت مع جوعى الكساء كفانى الله مؤونة استبدال أحدهما بالآخر ، وقدرت على الاثنين فسترنى الله وأطعمنى .

وهكذا راح أبو عثمان يضرب فى صنوف الكلام دون أن

يلحظ تجمع بعض القوم حوله ، وبدا كما لو كانوا أخذوا بنصاعة بيانه وقوة منطقه . غير أنه لم يلتفت اليهم الا عندما ارتفع صوت من بينهم يقول فى قوة ووضوح :

ـــ انه يذكرنى بحداثتى يا أبا عبيدة .

وقال أبو عبيدة :

ـــ فلننتظر ماذا يقول الآخر .

وكان لابد أن يتكلم ابن سيار ، فقال فى هدوء :

ـــ تظن أنك غلبتنى يا أبا عثمان ؟ موعدنا الغد ان كان فى العمر بقية ، وان غدا لناظره قريب !

وانصرف عجلا ، فارتفع صوت أبى عبيدة يقول للأصمعى وهو يسحبه من يده ليبتعدا :

ـــ انه يتكلم كما يتكلم الرجال ، وأحسب ما قاله خاله أبو الهذيل صحيحا ؛ حفظ القـرآن والتوراه ويحفظ الانجيـل والزبور !

ودوت هذه الكلمات فى أذنى أبى عمرو فجاشت نفسه ، وراح يضرب فى الطريق سـاهما ، ولم يتوقف عن السير والتفكير الا عندما ألم بجماعة من المربديين يجلسون الى أبى جعفر العنبرى الراوية الذى بدأ يجذب اهتمام أبى عمرو بتدفق فصاحته وطرافة أخباره وسمعه يقول :

ـــ يقول المروزى للزائر اذا أتاه وللجليس اذا طال جلوسه

« تغديت اليوم ؟ » فان قال نعم ! قال « لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب » وان قال لا ! قال « لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح » .

وضحك المتجمعون وعلا ضجيجهم ، ولم يكفوا عن ذلك حتى قال أبو عثمان وقد استطاب الحديث :

ـــ وهكذا لا يصير فى يده على الوجهين قليل ولا كثير .

وتطلع اليه العنبرى وقال :

ـــ أهو أنت ؟

فقال ضاحكا :

ـــ لست غيرى على أى حال .

وعاد المربديون يضحكون ، فلما سكتوا قال أبو جعفر العنبرى :

ـــ ان سمعت الى مثل هذا الحديث دائما ورويته فلن تجنى الكثير ..

قال عمرو :

ـــ اننى أمعن فى قراءة الكتب وأحفظ الأشعار والأخبار وأجلس الى حلقات المسجد ، وفى المربد ألزم أبا مجيب وعبيدا الكلابى ولا أهمل حلقتك .

قال العنبرى :

ــ رواياتنا لا تغنيك عن البادية يا أبا عمرو ؛ فاعقد العزم وسافر ، أو فاصحبني من غد الى الجزيرة أسمعك من الأعراب مالم تسمعه قط .

قال عمرو :

ــ كنت عزمت على الرحلة قبل قولتك يا أبا جعفر ، وما دمت على السفر من غد فخذني معك .

ومن المؤكد أن هذا الرجاء يتمشى مع رغبته التى أبداها لأمه ، لكنه يحلله من اتفاقه مع أصحابه المسجديين الذين أبدوا رغبتهم فى السفر معه منذ أيام . فان صحبتهم وان كانت تسرى عنه وتضحكه ليس ينبغى أن تكون هدفا للضحك ؛ لأن للمزح موضعا ، وله مقداراً متى جازهما أحد صار الخير خطلا ؛ واليوم للعمل فقط .. للتحصيل العميق الذى لا يكون الا حيث يوغل الأعراب فى الصحراء ، ويطمئنون الى الشيح والقيصوم ، ويغنون للخيل والنوق ، وما أروعها حياة !

انه يريد أن يكون راوية .. ربما أفضل من الأصمعى أو من هذا الذى هواه مع ابن سيار ، لماذا ؟ لا يدرى ، ولكن ندر بين أئمة العلم من لم يتحيز الى الحمراء ، وقد تحيز أبو عبيدة . ذلك ظاهر تماما ، فى حين كف الأصمعى عن أن يفصح عن رأيه بوضوح، فليكن .. والغد قريب ، وقد تكون الرحلة القادمة ــ أول رحلة له ــ مفتاح هذا الغد .

## ٤ ـ الرحلة الأولى

لماذا يصر الناس على أن يتصوروه غرا ؟

هل اثنا عشر عاما ـــ أو نحوها ـــ بالقليل عليه ليبدو عاقلا حصيفا يمكن أن يجلس الى الأخفش ، ويحفظ عن الأعــراب مشافهة ، ويعد نفسه بالاتفاق مع أبى جعفر العنبرى لأن يتخرج فى رواية الحديث على أبى يوسف يعقوب القاضى (٥) .

القضية ليست قضية سنوات قليلة من العمر ، فثمة كثيرون دونه سنا ، وأثاروا الدهش بذكائهم وسرعة تحصيلهم ، ولكنها قضية استعداد واصرار ورغبة فى التفوق ، ولديه هو ذلك بغض النظر عن ضآلة جسمه التى قد تثير بعض الشكوك فى قدرته على التحمل !

ولقد عانى هو ذلك منذ أول يوم بدأت فيه رحلة العلم ، وساءه أول ما ساءه أن رفقاءه راحوا يعاملونه معاملة الغلام الصغير ولا يخاطبونه فيما يشــكل عليهم ، وينصرفون عنه بأحاديثهم الجادة ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن كل مرة يدفع فيها الى الاختبار يرتفع الى مستواهم بسهولة . وكانت عيناه الواسعتان اذا هدأت نفسه أغلقتا فى أناة فترة ، ثم انفتحتا على بريق صاف ينساب معه صوته ، وهو يمسح على كل أثر سيىء يمكن أن تتركه كلمة « حدقى » أو كلمة « جاحظ » .

بل كان الذين يدعونه باحدى الكلمتين لا يجدون مفرا من الاحداق به ما وجدوا أنفسهم فى فراغ يستطيع هو ملأه ، فكان

يفتنهم برواياته . ولا يلبث أن يلقى عليهم بآراء يقع فيها على الفكرة الشائعة .. فخلف الأحمر شاعر أكثر منه راوية ، والمستقبل لأبى نواس شاعر البصرة العاشق ، وابن المقفع أعظم الأعاجم الذين تعلموا اللسان العربى وكتبوا به .

وكان الطريق رائعا لم تبرح صورته مخيلته على الاطلاق ، وكان عمرو عندما وقف على بئر الحفير — جنوب غربى البصرة بأربعة أميال — قد سأل عن آل الأصمعى من باهلة ، وكأنما كان يريد أن يتثبت مما يشاع عن هوان هذه القبيلة . ولم يجد أحدا لم يرتفع بخلف أبى عمرو بن العلاء — يريد الأصمعى بطبيعة الحال — الى عليين ، وزاد ابن أخيه سران فتحدث عن أسرة سلم ابن قتيبة الباهلى ، وعن دورهم التى تزحم البصرة مجدا وأناقة وثراء .

وهنا ود عمرو أن يسمع من أى أحد حكاية الأعرابى الذى سووم على أن يدخل الجنة بشرط انتمائه الى باهلة ، فرضى بعد لأى وعلى ألا يعرف أهل الجنة ذلك !

هو لم يعرف لماذا ، ولكنه كان يرى أنهم يدعون والادعاء آفة الحى . وقد ودعهم غير حميد أو غير محمود ، فسيان ذلك ، ملقيا بنفسه مع القافلة فى الطريق المنحدرة جنوبا ، وهو يروى هجاء اليزيدى للأصمعى قائلا :

وما أنت ، هل أنت الا امرؤ      اذا صح أصلك من باهله !

ولم يكن فى النية الاتجاه الى الحجاز ، ولهذا ودع الركب سكة الحجاج المتجهة شرقا فى بادية العراق مارة بدومة الجندل . وولى وجهه الى البحرين ضاربا فى أرض بكر ، وحيث كانت تنزل طسم وجديس ، ومنى عمرو نفسه بأخبار عن القديم .

وبدت أرض الطريق معشبة والسماء صافية . الا أن الحر كان لا يطاق ، وزاد النفوس اشتعالا أعرابى عرفه أبو جعفر باسم يزيد بن كثوة العنبرى . وكان من الممكن ألا يلفت اليه هذا الأعرابى أحدا ، الا أن قرابته لأبى جعفر من ناحية واغراقه فى استعمال غريب اللغة من ناحية أخرى جعله هدفا . فأثار الاعجاب والدهش ، ونقل عنه عمرو جانبا من نوادره ، ولما ودعوه أبى الا أن يختم أعجب ختام فقال :

ـــ ارووا عنى .. أتيت بنى كش فاذا عرس ، وبلق الباب فادرنفق وادمج فيه سرعان من الناس . وألصت ولوج الدار ، فدلظنى الحداد دلظا دهورنى على قمة رأسى . وأبصرت شيخان الحى هناك ينتظرون المرية فعجبت اليهم ، فوالله أن زلنا نظار نظار حتى عقل الظل ، فذكرت أخلائى من بنى تبر فقصدتهم وأنا أقول :

تركت بنى كش ومـــا فى ديارهم
عوامد واعصوصـــين نحو بنى تبر
الى معشر شـــم الأنوف قـــراهم
اذا نزل الأضياف من قمع الجـــزر

وانصرفت وأتيت بنى كش واذا الرجال صتيتان . واذا أرمداء كثيرة وطهاة لا تحصى ولحمان فى جثمان الأكام (٦) .

وبرحيله أثيرت مسألة الأغراب وقضية البلاغة ، وبالقـدر الذى وعاه عمرو انتهى الى أن البلاغة ليست بالضرورة من قبيل كلام ابن كثوة ، كذلك ليست التعبير بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، حتى وان فهم هذا الكلام كما يفهم الناس عن النبطى الذى قيل له : لم اشتريت هذه الأتان ؟

فقال : أركبها وتلد لى (٧) .

وكان فى الجماعة شاب اسمه قاسم التمار لمح فيه عمرو خفة ونزقا ، غير أنه أنس به ، فلما قال « البلاغة هى ألا يبلغ الأمر بنا حدالاكتفاء بالتمر » ضحك الجميع وأقبلوا على الزاد من الجردق وقطع الجبن والزيتون والبيض وغيرها مما يسهل حمله فى رحلة طويلة يعلم الله متى تنتهى .

ولقد كان فى نية عمرو أن يرجع برجوع أبى جعفر ، ولكن بوصوله الى بادية البحرين — وهى بقاع خصـبة تكثر فيها الثمار — غيّر رأيه . فقد تعرف بابن أحد سراة البصرة يدعى عبد الرحمن ، وقدمه هذا الى أبيه عبد الملك بن صالح الهاشمى .. رجل عملاق مهيب ، صارم الوجه كبير العمامة ، يبدو كأنه قائد جيش كبير ، الا أنه كان ولعا بانشاد الشعر وحكاية النوادر . وعندما رأى فى عمرو راوية أصيلا دعاه الى ركبه ضيفا ، وكانت هذه الدعوة بداية صداقة ستظل بعد ذلك أعواما .

كان عبد الرحمن أكبر من عمرو شيئا ما ولكن طول قامته كان يضيف الى عمره الحقيقى سنوات ، فضلا عن أن ولعه بركوب الخيل والخروج للقنص كل صباح كان يملأه فتوة وحيوية . ولقد رأى فيه عمرو كل ما افتقده فى نفسه . غير أنه لم يحسده . لأنه كان يرى أنه يمتاز عنه بالذكاء .

وقد وصل عمرو مع ركب عبد الملك الى القطيف والخط على الساحل ؛ وشاهد الأماكن التى جرت فيها الوقائع بين نجدة الخارجى وبين عبد القيس ، وسمع الى عبد الملك وهو يصف تلك الوقائع وكيف انتصر الخوارج . وزاد فروى أن الرماح الخطية تنسب الى هذا المكان ، لأنها تصنع فيه . ومن القطيف الى نجد أنفق الركب ستة أشهر ، التقى فيها عمرو بالكثيرين ، وعرف من عبد الملك وابنه الكثير ، ودون فى أوراقه مالم تسعفه ذاكرته على حفظه ، لكنه أسف لأنه لم يعرف ما كان يود أن يعرفه عن طسم وجديس .

واذا كانت متاعب الرحلة قد بلغت منتهاها بعمرو ، فقد وجد هو على مشارف نجد منابت العرار والخزامى ؛ وتصور الشعراء الذين رتعوا بين مرابضها وغنى بما يحفظ من أشعار المجانين أو عشاق ليلى . وكان انتقاله الى القلب مرتبطا بخطة رسمها عبد الملك بعناية ، وأحيط هو علما بتفاصيلها ؛ عندما حطت الرجال بين جبلى أجأ وسلمى اللذين اعتصمت بهما طىء منذ قديم واعتزت بهما فنسبا اليها .

وفى هذا المكان تفتحت عينا عمرو على القصص والأساطير . ووعى الكثير من أخبار العماليق وجرهم وجاسم وغيرهم من عشائر اليمن . الا أنه كان يميل بهواه الى كل ما هو عدنانى . وقد صرح بذلك لعبد الملك فى احدى جلساته المسائية التى يطيب فيها السمر على نور القمر .

ولم يكن بد من أن تثار الموازنة بين قحطان وعدنان . وكان من رأى عمـرو أن العدنانيين هم أرباب الفصاحة . ويمدحون بشدة العارضة وثبات الجنان ، وكثرة الريق . والعلو على الخصم مع ميل الى التحبير والطلاقة . ولم يجد عبد الملك عناء شديدا فى اقناعه بأن فى اليمانيين من لا يقل شأنا عما ذكر ، وفيهم على أى حال من الشعراء امرؤ القيس ، ومن الخطباء قس بن ساعدة ، ومن السجاعين شق وسطيح .

وقد انبرى أحد المرافقين ـــ ويدعى سهل بن هارون ـــ بعد أن سكت عبد الملك فندد بمن يعنى بهذه التفرقة . وادعى أن ما ينسب الى كل من عـدنان وقحطـان فيه من تزيد الرواة ما لا سبيل الى انكاره ، لكن الأجدى أن يطال النظر فيما دوّن فى كتب الأعاجم الباقية ، وترجم بعضها ابن المقفع قبل مقتله .

وأسكته عبد الملك ، وحمد فيه ذلك عمرو . فان سهلا من موالى يحيى البرمكى فيما يبدو ، أو هو من بنى الأحرار .ولحظ أنه كثير الاشادة بفضل الشعوب القديمة ، كما أنه يصدر عن بخل

ملحوظ ؛ ومع ذلك فقد أعجبه قوله : « سياسة البلاغة أشد من البلاغة ؛ كما أن التوقى على الدواء أشد من الدواء » .

هناك من الموالى غير سهل كثيرون ..

يملأون المساجد فى العراق . ويروون الأخبار ، ويقصون ، ويفسرون القرآن ، ويسوقون الأشعار القديمة وربما اختلقوها .

وهاهم أولاء يسافرون ليلتقوا بالأعراب كما التقوا بهم فى المربد ؛ حتى يستطيعوا أن يفصلوا فى أمر البلاغة كما فصل فيها من قبل ابن المقفع ، وهاهم أولاء ينصحون بالتبين والتثبت وبالتحرز من زلل الكلام كأن العربية لغتهم .

هنالك تثور الدماء فى أعراق عمرو ، فيزداد اصرارا على التحصيل . ويروح يضرب هنا وهناك وحيدا فى أغلب الأوقات ؛ ولا يعود الا بعد أن يكون قد اطمأن الى أنه لم يخرج من البصرة عبثا .

وقد انتهز فرصة قيام قافلة الى بلده ، فكتب لأمه وأرسل لها شيئا ، كما كتب للأخفش ومويس بن عمران وأبى يوسف القاضى .

**٥ ـ فى المعترك**

وفى الجحفة ـــ على أربع مراحل من مكة فى طريق المدينة ـــ نزل الركب بعد سفر طويل ، حيث كان فى انتظارهم رهط من الأعراب تحدثوا طويلا عن الدارمى وشعره ونوادره وبخله

وظرفه . وافتتن عبد الرحمن بن عبد الملك بمغامراته مع كواعب الحجاز ، وخاض مع عمرو فى حديث طويل عن المتفتيات [8] اللائى كان الدارمى يهفو اليهن ، فيثرن عليه الجميع .

واشتعلت الدماء فى عروق عمرو .. لأول مرة يحس أنه يحتاج الى هذه العلاقة التى سعد بها الدارمى مع المتفتيات ، فأين هن ؟

ويسمع الى أعرابى يقول انه — أى الدارمى — اجتمع ذات يوم ببعض منهن هنا فى هذا المكان ، وربما فى ظل هذا الغيل ، أو ربما عند ذلك السفح المنحدر فى يسر .

وضحك عمرو بلا سبب ، غير أن صورة المتفتيات كانت تملأ عليه فكره ، وراح يتصور قدودهن وصدورهن وخصورهن ، والخمار الذى يريد أن يغطى محاسنهن .. ولكن هيهات ! يستطيع الرجل أن يعرف ما وراء ملابسهن ، ويناقش هو عبد الرحمن ، ويعطى له عبد الرحمن من الأوصاف ما يريد أو أكثر مما يريد ، ولم ينقطع الحديث بينهما الا بعد أن آمن بأن كل الذين سمع عن مغامراتهم النسائية محقون .

لكن أين هو منهم ؟

هو قبيح ، وهم على وسامة ملحوظة .. هذا شىء لا تخطئه العين ، وربما لو انفرد بواحدة اذا أتيح له أن يلقاها هنا فى الجحفة حتى وان كانت عجوزا من صواحب الدارمى أو من بناتهن — فالزمن بعيد بينه وبين ذلك الظريف البخيل — لحسبته شيطانا أو مسخا أو جنيا ، ولولت مولولة !

الا أن عبد الرحمن يخبره بأن الرجل لا يقاس بجمال الا جمال الروح ، ويطمئن هو .. فان أكثر من فى الركب يجمعون على أنه طبع على نفس جميلة ! وهو يحدثهم ويأسرهم بحديثه ، وهو يلقى عليهم بقصصه فينجذبون اليه ، وهو برغم شوهته ينزل بينهم منزلا طيبا .

ويخرج هنا وهنالك .. فاذا كل شيء تغير .. زحف العمران حيث كانت منازه الدارمى ، وأقيمت الدور ، ولا أحد من النساء يسفر عن وجهه الا نفر من الأعرابيات يسرعن الخطو ليختفين كلما وقعت أنظارهم على أى رجل .

لكنه يفيد كما أفاد الرواة من قبله . وفى كل يوم كان يشهد جديدا ببصيرته ، وتعى حافظته من الحكايات والأخبار وشوارد اللغة ما لا تستطيع حافظة غيره أن تعى . وكان قد أخذ نفسه بشيئين : أن يجمع من أشعار الجاهليين وأخبارهم ما وسعه ، وأن يتعـرف الى لغتهم وبيئتهم وحيوانهم ، واهتم بصفة خاصـة بالحيوان .

وهكذا أضحى عمرو مشغولا بأكثر من عمل ، فلما آذن الركب بالعـودة كان كمن خلق خلقا جديدا . وبدا شابا مفكرا معتزا بما لديه فى أعماقه وأوراقه ، ووعد عبد الملك وابنه عبد الرحمن أن يزورهما كل يوم فى دارهما الفارهة .

غير أن دخوله البصرة بعد نحو عامين ملأه غبطة ، وبعد أن سلم على أمه وأخته أسرع الى المسجد الجامع ، وهناك عـلم

بأشياء عجيبة . فأما صديقه ابن سيار فقد أصبح من رواد قصر مويس ، وقيل له انه يستطيع بسهولة مجادلة أهل الكلام والصابئة ويناقشهم ، وأما أبو عبيـدة والأصمعى فقد رحلا الى بغداد فآثر الفضل بن الربيع وزير القصر — الأصمعى ورد أبا عبيدة ، وقيل فى ذلك ان العرب ظفروا فى معركة من معاركهم مع الحمراء ، وأما سهل بن هارون فقد كان فى انتظاره رسول يستدعيه الى البرمكى ليؤمره على امارة من الامارات .

وهذه أشعار النواسى الماجنة تملأ المسجد الجامع ويرددها المسجديون ، وكان على رأسهم شاعر اسمه الجماز وراوية اسمه أبو هفّان ، وكلاهما حمل الضغن لعمرو ، لأن «خلقته» لم تعجبهما.

وقد غادر المسجد الى داره وفى نفسه كمد شغله طول طريقه ؛ فلم يملأ عينيه بالرياض والنهيرات والمباقل والكروم . ولم يستروح رقة الهواء على الرغم من هجمة الشتاء المفاجئة ، لا ولم يسمع الى غناء البائعين على سلعهم ولم يقلد هو أصواتهم كلما وجد نفسه على مسافة تبعده عن أى شخص يمكن أن يسمعه .

أتراه فشل ؟

لماذا يسأل هذا السؤال ؟

هل لأن صديقه ابن سيار قد جمع حوله القلوب وحظى بما لم يحظ هو به ؟ لقد كان موضع أنظار الجمع الذى جاب معه الجزيرة . لكن هذا الجمع محدود ، وأين عدده من هذه الأعداد المتزايدة التى تتردد على قصر مويس كل يوم ، وفيها المتكلمون

الذين لا يقدر عليهم الا الضالعون فى العلم ، والناظرون فى كتب الأولين ، والحافظون حكمة اليونان .

كأنه محتاج الى بداية جديدة .. بل هو محتاج حقيقة الى النظر فيما نظر فيه ابن سيار ، وليكن ما يكون . فان احتجت أمه على شيء فهو يستطيع أن يوفر لها المال ، ولما لم يكن شاعرا ـــ وقد رجا ذلك عبثا ـــ ولا كاتبا مع أنه يوطد عزمه على ذلك . فسوف يتجه الى الاتجار بأى شيء ، ولا داعى لانتظار عطاء من واحد كمويس ولا آخر كعبد الملك الهاشمى .

٦ ـ مع الأيام

فتن أبو عثمان عمرو ـــ الشاب الصغير ـــ بدار عبد الملك ابن صالح ، ولكنه لم يهمل قصر أبى عمران مويس بن عمران . وبين الاثنين كان يحضر مجالس آل سليمان ، وهم أبناء سليمان ابن على عم السفاح ، وأقربهم الى قلبه محمد بن سليمان وكان ذا نزعات عربية لا يتهاون فيها قط ، كذلك أخوه اسحاق الذى كان بيته مليئا بالأسفاط والرقوق والدفاتر والقماطير .

لكن عندما قلد الرشيد عبد الملك ـــ وبينهما عمومة ـــ امارة العواصم ، ورحل هذا الى حلب ومعه ابنه عبد الرحمن أحس عمـــرو بفراغ هائل ، وانقطعت صلته بالجـــوارى اللائى كان عبد الرحمن يقدمهن له فيعبثن به ويعبث هو بهن ، ويتحسسهن ويسألهن عن أعمق أسرارهن ـــ وقد كانت تلك هواية تشبه هواياته الأخرى من مراقبة الحيوان الى تقليد الأصوات ـــ التمس

المتعة فى قصر على بن سليمان حيث كان يجمع المغنين وعلى رأسهم الموصلى الذى كان جوهرة الموالى وأكثرهم حفظا للشعر الرقيق ورقم الموسيقى ، وكان يترك بغداد الى البصرة ثلاث مـرات أو أربعا كل عام .

وعلى الرغم من أنه قوبل فى دار الهاشمى مقابلة سيئة فى أول الأمر ـــ وبخاصة من الجماز وأبى هفان الذى اتضح انه صديق ابن سيار ـــ فقد استطاع بمعونة أبى نواس أن يحتل مكانة مرموقة ، ويسيطر على الأفئدة بخفة روحه وفكاهاته التى لا تنتهى ، بل انه كان عندما يقسو على أحد لا يفقد صداقته ، والدليل على ذلك بيتاه اللذان قالهما فى الجماز عندما تراشقا بتهم « الأصل » وقال هو على البديهة :

نسب الجماز مقصـــور اليه منتهـــــــاه
تنتهى الأحساب بالناس ولا تعـــدو قفاه

ولما شوهد يبيع السمك والخبز فى سيحان وقال له أبو هفان « أن تعمل جمـــالا كجدك الأول خير من أن تبيع بيع النبط » قال له :

ـــ يا ابن الفاعلة لأنت والله أحوج الى لسانى منك الى كفى ، ولكن لن أفعل حتى تكون لك فطنة اللئيم وغفلة العليم ، وأين هـــذا ؟

وعندما بلغ عليا نبأ هذه المساجلة قال له وهو يمزح مومئا الى أبى نواس :

ـــ أى صديقيك عندك أثقل عليك يا أبا عثمان ؟

قال عمرو :

ـــ تعنى الجماز وأبا هفان ؟

أجاب :

ـــ نعم .

قال عمرو :

ـــ والله ليس ابن هانىء بأثقل منهما على أى حال !

وضج المجلس بالضحك ، وكان من الحاضرين محمد بن على ابن سليمان أتى أباه زائرا فقال للحضور :

ـــ لو صبرنا عليه قليلا لجعلنا فى زمرة الثقلاء !

فقال عمرو :

ـــ حتى أعرف معدن الثقل أسكت يا أبا على !

قال محمد :

ـــ كأنى بأبى اسحاق يتكلم .

فصاح عمرو :

ـــ من تعنى ؟

أجاب قائلا :

ـــ ابراهيم بن سيار ، وكان يطرق مجلسى فى دارى قبل سفره الى حران ، وعساك تزورنا يا أبا عثمان .

قال أبو هفان :

ـــ عندما يعود أبو اسحاق ان شاء الله .

على أن هذا لم يكن ليصرفه عن الجد ، حتى وان كان فى دور الأبالسة ، فما بالنا بدور المهالبة والباهليين ـــ هذا من قبيل الاقرار بالأمر الواقع لأنه كان لا يحبهم ـــ وولد جعفر بن أبى جعفر المنصور وآل نوبخت الذين وفدوا على البصرة مؤخرا وفتحوا بيوتهم للأدباء ، والتقى عمرو عندهم بعلى البصير وعمرو ابن عبد الملك الوراق وأبى مسلم ، وعمرو الخاركى وابن أبى عيينة وابن يسير وابن مناذر وأبى الشمقمق الشاعر العجوز الذى كان يخافه بشار .

أسماء لأعلام كثيرة .. أصحابها مكدون وأثرياء . وفيهم اللص والشريف ، وفيهم خبيث اللسان وعفيفه . وفيهم الطيب الأصل والحقير المطعون فى نسبه ، وفيهم الرجل الذى يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء والرجل الذى يطلب الكأس والمرأة وحكايات المجون ويجتمع بعصابات السوء ويطرق الحانات والأديرة .

وقد يجد عمرو نفسه يرتاد دكاكين الوراقين متصفحا . ويجد نفسه مرات ـــ ولا سيما ليلا ـــ على بساط خضرة يداعب كأسا ، ويتطلع الى غانية أو غلام ، ويرقص على لسان شمعة ساهرة .

وربما كان المناقش الفطن فى جلسة علم بالجامع ، وربما كان

النديم الذى يجيد فنون الأدب والمزح فى جلسة شراب عند آل سليمان أو آل نوبخت .

وبعد هذا ينفرد بنفسه يكتب ويسزق ما يكتب أو ينقل ويجوّد نقوله ، الا أنه يحرص دائما على أن يكون مع الاخوان دون أن يثقل عليهم ودون أن يضيقوا هم به . وقد يوصيهم بتحامى كل ما يجر الى الملاحاة والتفاخر بالحسب والنسب ، مع أنه فيما بينه وبين نفسه يضيق بتيه الحمراء والآزادمردية .

ووقع فى هذه الأثناء شىء كان له أبعد الأثر فى ثقافته وان كان هدفه الاساءة الى العرب أولا أو العمل على الحد من ثقافتهم التى انحصرت ـــ اذ ذاك ـــ فى تفسير القرآن ورواية الشعر .

لقد بدأ البرامكة فطرحوا فى دكاكين الوراقة تراجم لكتابات الساسانيين ، وعمل سهل بن هارون على نشر ما ترجم من حكم الفرس ، وفى الوقت نفسه كانت ثمة قطع فارسية من الـ « خداى نامة » والـ « آيين نامة » ثم ظهر فجأة كتاب « البيكر » بالعربية وبقلم ابن المقفع [٩] ، ودعت الآزادمردية الى قراءته فاذا هو التاريخ الأسطورى للفرس .. يمجد ملوكهم ويصف حروبهم ويتحدث عن سدنة نيرانهم ، ورغب عمرو فى الاطلاع على النص الفارسى فاذا فيه صور ونقوش غريبة .

وعلى الرغم من ارتفاع ثمن « الكاغد » الذى نقلت اليه هذه الكتب فانها كانت تحت يدى كل من يطلبها . وأفاد منها عمرو افادة عظيمة ، ودفعته الى التماس كتب ابن المقفع الأخرى ، وكان هو نفسه معجبا به أيما اعجاب .

ولما كان ذلك الكاتب قد نقل عن اليونانية أيضا ـ فيما يروى ـ فقد سهل اتصال عمرو بالفكر الاغريقى . وكان يرى فى كتابيه « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » شبها بما يروى عن أرسطو وسائر فلاسفة اليونان مما هو مذاع على أنه من كلام الناس المحفوظ .

على أن أصحابه لم يكونوا يدعونه يهنأ باطلاعاته تلك ، فاذا أصر عليها تطوع واحد منهم ـ وليكن أبا هفان مثلا ـ فزعم أنه لا يقرأ الرسالة أو الصحيفة أو الكتاب لأنه متعطش للمعرفة ولكن لأنه لا يجد ما يفعله . وعندما يقول له انه انما يتجر كما اتجر رسول الله ، يزيد فيقرر أن الأولين لم يقولوا ان القراءة تجارة .

ويمضى هو ..

ثم يعن له أن يجرب حظه فى وضع كتاب ، ويخطر له أن يؤلف فيما رأى أن يؤلف فيه وهو مع عبد الملك فى الجزيرة ، الا أن رسولا من هذا الأمير لا يلبث أن يأتيه ، فلا يمر يوم حتى يكون فى الطريق الى آسيا الصغرى وقد ترك جانبا ما شغل به نفسه أياما .

**٧ ـ معارف جديدة :**

صادف وصول عمرو الى بغداد خروج جيش الرشيد بقيادة الفضل بن يحيى البرمكى لمحاربة يحيى بن عبد الملك العلوى ، وكان هذا قد شق عصا الطاعة على أمير المؤمنين عام ١٧٦ وقويت

شوكته ببلاد الديلم . فلم يتعرف الشاب الصغير على معالم بغداد كما ينبغى ، وان يكن أخذ بكثرة قبابها التى كانت ترتفع على عمد دقاق . ولفت نظره بوجه خاص قبة خضراء يسميها النـــاس « تاج بغداد » وفى رأسها فارس رامح .

والشوارع مزدحمة ، والساحات غاصة بالحمير والبراذين . وكانت الجمال تلوذ بالجدران كأنها تتوجس شرا من هذه الحركة المستمرة . ها هنا تظهر الملامح العربية ـــ كما يقول الأعاجم ـــ وتؤكدها العقـــل القليلة التى تتوارى خلف القلانس . وحتى الشيوخ كانوا يلبسون الطيالس السود ، وتقرطق الغلمان بقراطق الجوارى اللائى يحببهن عمرو ، ويغدون أمامه فى رقة ورشاقة .

وهذا قصر الخلد على شاطىء دجلة الغربى حيث ينساب الماء رخيا ونظيفا ، والجند ينزحون عنه جماعات ، ومن وراء قصور تشيد ، سمع عمـــرو أنها ليحيى البرمكى ولأولاده وسراريه . ثم اختلطت الصور ، فيقول عمرو لرسول عبد الملك :

ـــ تلك اذن بغداد مدينة السلام والعرفان .

فيقول الرسول :

ـــ أجل يا أبا عثمان .

فيقول ثانية :

ـــ لقد عرفت لماذا تشد الناس اليها .

وفى الرصافة على الضفة الغربية كثير من العسكر الخراسانية والأساورة ، وثمة بعض العرب . ودخلا الجامع ـــ وكان نظيفا

وان لم يكن فى عظمة جامع البصرة — وصليا فيه ثم تفرجا على دار الوزارة البرمكية شمالى الرصافة حيث الشماسية التى غدت المحلة الرسمية ، ومنها تصدر الكتب والأحكام .

وقد ودعا بغداد غير آسفين — فان عبد الملك خير من يقصد كما صرح عمرو لرسوله — ووصلا الى حديثة . وهناك علما بنبأ عزل عبد الصمد بن على والى دمشق لفشله فى اخماد الفتنة التى نشبت بين المضرية واليمانية فى البلقاء . وقابلا ابراهيم بن صالح الأمير الجديد ، وعدلا عن الاتجاه غربا الى تدمر ؛ مفضلين الضرب فى الجزيرة شطر ديار بكر عن طريق الفرات . أو أحد فروعه تارة والبرارى والقفار تارة أخرى .

وبين صنوف السمك والحيوان وعجائب الخطط والآثار عاش عمرو أسابيع لم يعش مثلها قط .

رأى النار تنبثق من الأرض فجأة فى قفار سود . فتذكر نيران العرب والعجم ، كما تذكر قول فلاسفة البصرة وبعض من وصل اليها من حكماء حران — التى سافر اليها صديقه ابراهيم — من كمونها وظهورها على نحو يختلف عن الضرام الذى يخرج من الشجر ، وعن الشرر الذى يخرج من الحجر .

كذلك رأى الثلج فى بقاع ليست شديدة البرد ، ولحظ أن بلدة ما قد تكون أبرد وثلجها أقل أو معدوم حتى كأنما الماء لا يجمد للبرد فقط .

وعلى طولِ النهيرات كان يقع على أنواع عجيبة من السمك والغرانيق والكراكى . وفى السماء يلمح العقبان والصقور والغربان ؛ وفى البرارى الثعلب وابن آوى والخنزير والذئب والضب ؛ فكان يقول « قرأت أن النـاس لا يضربون المثل الا بما يجدون من أصناف الوحش فقالوا أحذر من غراب ؛ وأسمع من فرخ العقاب ، وأهدى من قطاة ، وأهدأ من الليث ؛ وأكسب من الذئب ، وأخدع من ضب ، وأروغ من ثعلب ، وأظلم من حية » .

وحكى للرسول فيما حفظ عن هشام بن سالم — وهو من رهط ذى الرمة الراجز — أن حية أكلت مرة بيض مكّاء ؛ فجعل المكاء يحوّم فوق رأسها وهو يسكو أى يصفر صفيرا حسنا ، فاذا دنا منها وفتحت هى فاها تريد التهامه ألقى فيه حسكة ؛ ولم يزل يلقى فى فمها الحسك حتى أخذ بحلقها وماتت ؛ وأنشد الشاعر فى هذا :

ان كنت أبصرتنى فذا ومصطلما فربما قتـل المكاء ثعبـانا

وكان لابد أن يحكى الرسول بدوره لعمرو ، وعلى هذا النحو تعاقب القصص والنوادر ؛ وبعضها يأخذ برقاب بعض ؛ حتى وصلا الى منطقة الثغور وقد امتلأت أوراق عمرو بأطرف ما وقع عليه بصره .

كذلك دوّن أمورا عن بعض الأحجار والمعادن كالنوشادر الذى يصنع بتقطير الشعر وتدبيره وكان يقال انه لا ينبع الا من

عيون حمئة فى جبال خراسان ، والأرحاء العظيمة التى صنعت من حجارة سود أصلها رماد صنّع بطريقة خاصة . والتوتياء التى دبرت من أقليميا النحاس ، والمرداسنج الذى يستخرج من طبخ الرصاص .

لكن بقدر ما عقد من آمال على لقائه لعبد الملك وابنه منى بالخيبة ، فقد كانت نفسه قد سولت له أن يتوج اللقاء بقصيدة ينشدها بين يدى القائد العظيم . واستطاع فى الساعات القليلة التى كان يفرغ فيها الى نفسه ــ بعد عمليات التدوين التى أصبحت لازمة له ــ أن يظفر بعدة أبيات تفوح منها رائحة ظنها تغطى على عيوب الفطرة وفجاجة الموهبة .

وكان يعرف تماما أنه قبيح ، وأن أى قوة فى الأرض لا يمكن أن تحمى مستقبليه من ثقل شوهته . ومن ثم كان لابد أن يعمل على التخفيف من هذا الثقل بالكلمة الحلوة ، ولذلك جعل استهلاله :

ألا رب يوم جميل ذهب يعود بعودى بعد التعب

الا أنه لم يكد يردف بالبيت الثانى حتى أشار اليه عبد الملك قائلا وعشرة آذان على الأقل تنصت :

ــ ما تعبنا والله يا أبا عثمان ولم تذهب الأيام الجميلة .

فأطرق عمرو شيئا وقال وقد بهت :

ــ لعلى أخطأت .

قاز عبد الملك :

ـــ بل أخطأك الشعر .

قال عمرو :

ـــ أنا أعلم أنى لست شاعرا ولكن الشعر كثيرا ما يكشف عن المستور .

قال عبد الملك :

ـــ اذن هات مستورك يا أبا عثمان .

فمضى فى انشاده واصفا مجلس عبد الملك الذى سبده كوكب يضىء بنور المجد وأرضه سندس وحيطانه نرجس وأعلاه ذهب ؛ حتى قال :

وجئنا بما شـــاء من نادر　　　فبدلته بالهموم الطرب

فقال عبد الملك مقاطعا :

ـــ أما النادر فلم نعرفه بعد ؛ ولكنى أرجو أن يكون فى مجيئك الطرب يا أبا عثمان .

وانطوى عمرو على نفسه مفكرا .. انه فعلا ليس مؤهلا لأن يكون شاعرا ، لكن مكانه باعتباره راوية حافظا ليس محل خلاف على الاطلاق ؛ فهل هذا يكفى ؟ وهل يكفى أيضا أنه يرصــد ما يراه فى سفره ؟ ومن يدرى فلعله اذا حاول أن يقدم صــورة لقدرته على الانشاد نجح وحقق ما ينشده ؛ غير أن هذا أمر يحتاج الى مراجعة مستأنية ، والطريق على أى حال لا يزال أمامه طويلا طويلا .

## ٨ ـ بين السياسة واللهو

لم يكد يمضى يومان على وصول عمرو الى حلب حتى خرج عبد الملك بن صالح الى الصائفة ليوقع بالروم ، وأناب ابنه عنه فى الامارة . فانتهى عمرو الى الاقتناع بأن ما ينبغى عمله انما هو التجول والقراءة فى النهار ، وأما الليل فقد كان للغناء والشرب والقيان ، على الرغم من أن عبد الملك كان يحظر الخوض فى أسباب اللهو .

لكن عبد الرحمن كان يقول ان أباه عندما كان فى بغداد ـ منذ أسابيع ـ خلع سيفه فى دار جعفر البرمكى ووضع سواده وعمامته ولبس ثياب المنادمة وشرب كما لم يشرب من قبل أحد ، ويعقب على الواقعة بهذه العبارة التى بدت غريبة فى أذنى عمرو :

ـ أتراه كان يتوسل بذلك ليشد ظهر أخى ابراهيم بصهر من أولاد الرشيد ويوليه مصر (١٠) .

وكان عمرو يعلم أن أخا عبد الرحمن ـ وهو غير شقيق ويقيم دائما فى بغداد مع أمه الفارسية ـ أثير لدى أبيه على الرغم من أنه ليس ندا له فى امارته . وأخبره كاتب الأمير واسمه قمامة أنه يظفر به كثيرا كلما ذكر للبرامكة ، مع أن عبد الرحمن يؤكد أن أباه على هاشميته برمكى أكثر من الفضل وجعفر حاكمى بغداد الفعليين . وأنه ساعدهما على رفع الحجر عن العلويين ـ وهم المنافسون لبنى هاشم ـ وبارك ادخال بنى سهل قصر الحكم برغم أنهم فرس ومجوس هذه الأمة .

وانكبتاه !

أهناك شيء بين الأب والابن ؟

وهل تتكرر حكاية يوسف النبى أو الأمـــر نقمة من جانب عبد الرحمن على الآزادمردية ، ومن ثم فهو عائب على أبيه أن يرد معهم موردا واحدا ؟

وشرع يكتب ، ولكنه توقف . فهناك أشياء كثيرة لا يجد نفسه قادرا على تسجيلها فى الكاغد ، حتى لكأنه غير صريح تماما عندما يمسك بالقلم . وبرغم جهوده للانطلاق من أسر المالأة فقد كان يحس أن عبد الرحمن الهاشمى على صواب فى حين يخطىء أبوه ، لكن الورق لا يتسع أمامه لهذه الحقيقة الكبيرة لأن وراءها أن يبعد هو عن علوية وزلزل سوى الجوارى اللائى يزحسن مجلس المنادمة .

وأراد أن يخرج الى السوق ، وكان مرافقه قمامة ثرثارا عظيما ، يقول كل شيء ولا يفهم الا القليل . ويحثه دائما على أن يستخدم الأسجاع ويتكلف الزخرفة ، كما يسأله أن ينظر الى الغلمان نظرة العاشق المدنف لأن فيهم فتنة . بل ان من فضل الغـــلام عـــلى الجارية أن هذه اذا وصفت بكمال الحسن قيل هى وصيفة غلامية أو كأنها غلام ، وأكثر من هذا قول الله تعالى « يطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » ولم يقل يطوف جوار فاتنات .

واهتز عمرو ، ولم تستطع معالم حلب ولا تاريخها ولا ناسها ولا أشجارها وأنهارها أن تشغله عن دبيب الدم الذى يكاد يفجر

عروقه . ولقد ظن قمامة أنه أقنعه ، وكان هو قد اقتنع فعلا ، لكن اقتناعه كان فى موضوع آخر بعيد عما تكلم فيه قمامة وأسهب .

ان صراعا بين الأب والابن يوشك أن يقع . ولتذهب الجوارى والغلمان الى حيث ألقت رحلها أم قشعم ، لكن هل لم يعرف المأفون — أى قمامة — أن الله عز وجل ذكر الحور العين أكثر مما ذكر الغلمان ، وأن ريح الجارية أطيب ومشيتها أحسن وصوتها أرق وقلبه — قبل ذلك — اليها أميل ؟

وكان الزحام قد اشتد فى السوق ، وتجمع الناس فى قلق وعصبية وصراخ أمام الخوانك والدكاكين والعربات والحمير ، وراح عمـال المحتسب يتحركون هنا وهناك ، ويضربون بعض المارة بالسياط ، فقال عمرو لقمامة :

— لنعد يا أبا عوف قبل أن تصيبنا سياط هؤلاء .

قال قمامة :

— وعليّ هذه العباءة يا أبا .. .. ..

وسقط أحد السياط فوق ظهره قبل أن يكمل ، فكان أسرع من الهرة فى الفرار ، وأما عمرو فقد كان حانوت القماش خير ملجأ ، واضطر الى أن يدفع عشرين درهما كانت مما يدخره لأمه . وكان قمامة قد انتظر تفرّق العمال ، حتى اذا أمن الغارة ظهر يصب لعنته على الشرط الجهلاء .

ولكن عمرا قال ناقلا الحديث وجهة أخرى ربما كانت تشغله أو ربما وجد فيها مخرجا من ثرثرة قمامة :

ـــ أتنكر يا أبا عوف أن الأمير لسان لبنى العباس ؟

أجاب :

ـــ عباسيته فوق الشك يا أبا عثمان .

قال عمرو :

ـــ فلماذا يقال عنه انه برمكى ؟

قال قمامة :

ـــ وهل هناك تضارب يا أبا عثمان ؟

أجاب عمرو :

ـــ لا أعتقد ، وانما هى أشياء أهم بكثير من حديثك عن الغلمان والجوارى والحمير والمزح .

فقال قمامة :

ـــ لا تعرض بى يا أبا عثمان فانتى لأستجم نفسى ببعض الباطل ، كما يقول أبو الدرداء ، مخافة أن أحمل عليها من الحق ما يملها .

قال عمرو :

ـــ أرجو على أى حال أن تجعل باطلك ما يجرى فى حلب ، والرأى أن تتحدث مع الابن وأبيه .

فقال قمامة :

ـــ يا سيدى وأين نحن الذيول من الرؤوس !

وكانت تلك اشارة الى أن قمامة ينفض يديه من كل ما يجرى فى قصر منبج ، فقال له عمرو :

— اذن فلنخض فى الباطل ، ولتنزل على رأسك الصواعق .

— وحينما وصلا الى القصر وقد أقبل الليل ، كان قمامة قد انقلب انسانا آخر يتقطر أدبا ويذوب خجلا . فى حين اتجه عمرو الى صديقه فى غرفته الخاصة ، فقاما وصليا ، ثم أفضيا فى الحديث حتى جاء وقت الحجامة . واذا بحجام يقبل عليهما بمشرطه فيريحهما شيئا ، ويقدم اليهما الطعام فيأكلان ويغسلان أيديهما ويضمخان نفسيهما بالخلوق ، وبعد ساعة دعا عبد الرحمن حاجبه ، وقال :

— فليبدأ الغناء ، ولا يدخل علىّ أحد .

وسرعان ما ارتفع من وراء الديباج ضربات شجية من آلة ذات أوتار ، وهمهمات رخية تقول :

— يا مولاى .. أى الأصوات تريد ؟

فالتفت عبد الرحمن الى عمرو ، وهو يقول :

— هذه درة اشتريتها من قنسرين .. كنت يومذاك لا أريد أن أزيد متاعبى بشراء جارية فوق العشر اللائى أملك ، لكن النخاس دفع الىّ بأبدع أديبة وأرق مغنية ، قولى أى شىء يا درة .

وانساب صوتها مع الايقاعات الهادئة ، وهنا صاح عبد الرحمن قائلا :

— ارفعى الستار يا درة فهذا أخى أبو عثمان عمرو أكرم ضيف وأخلص حبيب .

وبأسرع من حركة الستار قال عمرو :

ـــ على ألا تنظرى فى وجهه وتقولى أعوذ بالله !

وتم كل شيء على ما قدر . وشغل نفسه بمتابعة الأجساد والسيقان وحركات الأذرع والأصابع ، ومال عليه عبد الرحمن وهمس :

ـــ اختر يا رجل أي واحدة منهن غير درة ، فانها وحياتي سابقتك الى فراشك .

وعندما اختلى بمن اختار ، ارتكب أول معاصيه . فقد رأى أنه أهدر عشرين عاما فى لحظة طيش ، وأباح لنفسه أن يخطيء . على أن عبد الرحمن قال له فى الصباح :

ـــ انها غدت ملك يسينك فأين المعصية يا أبا عثمان ؟

**٩ ـ ليس ابليسا !**

لو امتد بقاء أبى عثمان عمرو عاما واحدا فى الشمال ، ورأى عبد الملك بن صالح يغزو أرض الروم حتى يبلغ أنقرة ويفتتح عمورية ويشهد الفداء [١١] بين المسلمين والمسيحيين فى طرسوس ، لرأى بنفسه ما ربما حوّله من مسامر ومنادم وراوية الى جندى .

لكن عمرا كان قد اضطر الى العودة الى البصرة عقب سماعه بموت أمه ، ولم يعد الا بعد أن زوجت أخته ، وفاته زيارة الرشيد لحلب ومنبج واغداقه العطاءات والهدايا على من قابله .

وكان فى صحبة الرشيد من ود مخلصا أن يلتقى به ، الا أن

الذى أدهشه هو وجود صديقه ابراهيم بن سيار مع الحاشية . وكان قد جاء من الرها مع بشر بن المعتمر المعتزلى الكبير ، وسمع عمرو أن مناظرة كلامية جرت بينه وبين هشام بن الحكم أمام أمير المؤمنين ووزيره يحيى بن خالد البرمكى ، وظهر هو عليه بما لفت اليه الأنظار .

كيف هذا ؟

أترى اختلط على القوم أمر العالم الحقيقى والمدعى المنتحل ، أم وصل صديقه بقدرة منه واستطاعة ؟

انه لا يأمن أن يجاوز ذلك السؤال الى الطعن عليه بقول أو اشارة ، فيوهم غيره بما يحب أن يوهم به نفسه ، ويومىء الى من يشد ظهره فى مجلس أمير المؤمنين من غير أن يستحق مجالسته ، أو التشرف بالتحدث اليه .

لقد قيل « كل مجر فى الخلاء يسر » [١٢] فهل وصل هو الى هذه الدرجة مع أنه أخذ نفسه بألا يحسد ، وألا يغمط حق الناس وينكر ما فيهم من فضائل ؟ ألا ما كان أصدق عمر بن الخطاب عندما قال : « ما أحدث الله بعبد نعمة الا وجدت له عليها حاسدا ، ولو أن امرأ كان أقوم من السهم لوجدت له غامزا » .

على أنه اذا كان حاسدا فليس شك فى أن صديقه المحسود أحسن لأن الحسن محسود وليس يعدم ذاما على الاطلاق ، فيا سوء ما آل اليه مصيره ! لكنه على أى حال لا يزال يستطيع أن

يعرف موضـع خطوته ، وسيسير . وفى أيامه الممتلئة بالثغور ـــ سـواء تلك التى قضـاها فى حلب أو قنسرين أو أنطاكية أو طرسوس ـــ أحاط بالكثير وخبر الكثير ، وأدرك أن القضية يمكن أن تصبح منافسة شريفة اختار هو حدودها من بعيد ، وليس ينبغى أن يفسح مجالا للعداوة لأن لهذه عقلا تسوس به نفسها فينجم قرنها وتبدى صفحتها فى أوقات الهتر ، وهذا شىء يرفضه .

وكان وراء ذلك كله عامة القوم ، يشغلونه ، ويخوضون فى الموضوع على نحو آخر .. من يكون هذا الشاب البصرى ؟ لقد فضح الرافضى ، لكن ألا يكون قد منح فرصة لم يمنح مثلها خصمه .. اننا لا نريد هذا ، فحسب أمير المؤمنين أنه افتتح حصن الصفصاف ، وعقد الصلح بين الروم والمسلمين ، وغدا يكون السلام .

وذات يوم ـــ بعد رجوع عمرو من أنطاكية ـــ وقف يتفرج على نخاس يبيع الجوارى وحوله جمهور من المشترين والفضوليين، وكان يقول :

ـــ هذه هى البضاعة الجوهر .

وصاح رجل بصوت حاد :

ـــ أهى أم بضاعة أمير المؤمنين ؟

قالت امرأة عجوز :

ـــ ما يقدمه أبو عبد الرحمن أثمن ولكن ينفس عليه !

وعجب عمرو ، فقد نمى الى العامة ما يجرى فى منبج اذن . فما عسى يكون الأمر فى غد ؟ وصاح الرجل ذو الصوت الحاد :

ـــ بضاعة أمير المؤمنين هى الأفضل .

قالت العجوز :

ـــ لا تسأل عن الأفضل واشغل نفسك بالقيان يا عبد الله .

وانصرفت متعجلة فقال النخاس وهو يشير الى البنات :

ـــ هن من حور الجنة .

وتذكر عمرو حديثه مع قمامة : عن القيان والغلمان ، وعما يجرى فى منبج ، فقال :

ـــ أى جنة تقصد يا رجل ؟

فأجاب النخاس وهو يتفرس فى وجهه :

ـــ جنة أنطاكية يا ابليس .

فرفع عمرو يديه الى لحيته التى تفنن فى تشذيبها وقال دون أن يفقد زمامه :

ـــ أتريد أن تهيننى أم تهين ابليس ؟ ان كانت الأولى فوالله لا يقدر على ذلك عبد مثلك حتى وان كنت أبيض اللون وأنا أسوده ، فليس فى السواد ما يشين ، وقد شرف به سعيد بن جبير وأنت لا شك جاهل قدره فيما خوّف به الحجاج الثقفى ، وازدان به بلال مؤذن رسول الله ، والمقداد بن الأسود أول من عدا به فرسه فى سبيل ربه ، وعنترة بن شداد الذى شغلت عن بطولاته بابتياع القيان ، ولقمان الحكيم الذى كان يقول : « ثلاثة لا تعرفهم

الا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الخوف ، والأخ عند حاجتك » ولست واحدا من هؤلاء ولن تكون . وان كانت الثانية فما أعلم أن بينى وبين ابليس ما يجعلنى أفزع الى الذود عنه وحماية عرضه ، وما يرضيه هو فيما أعلم أيضا أن يهب الى نجدته منك من يرى وكيله عندك ، وهو عقلك ، تحكمه على هواك وتلقى اليه أزمة أمرك ليسلك بك طريق الشوك ، ويسلمك الى الخسران .

عند ذلك صرخ الناس ، واجتمع بعضهم عليه يشدون جبته ويدقون على يده . ومن بين الجموع برز اليه شاب حسن الهندام جميل السمت وراح يقول له :

ـــ اسمح لى أيها الرجل ، فلعمر الحق ما فى الأرض أبدع مما شهدت ، وأنا فى مثل هذا ، وأبى قاض ويعدنى لأن أكونه ، حكم ترضى حكومته . ولقد شهدت من براعتك ما يجعلنى أقول : انه أنت ، فاذا صدق حدسى فلن تكون الا الجاحظ الذى لهج بذكرك أصدقاؤك فى جامع البصرة ومريدها .

قال عمرو :

ـــ هو أنا عمرو الجاحظ فمن تكون ؟

أجاب الشاب :

ـــ أنا .. أنا محمد بن أحمد بن أبى دؤاد وأكنى أبا الوليد .

**١٠ ـ فى المسجد الجامع**

فى سنة ١٨٢ وقعت عدة أحداث كان من الممكن أن تقلب خطط عمرو الجاحظ رأسا على عقب ، ولكنه تماسك وأسرع

الى البصرة راضيا من كل الغنيمة بالاياب . فلقد بايع الرشيد لابنه عبد الله ــ وابن مراجل الفارسية ــ بالعهد بعد أن ظن الناس أنه خص به ابنه محمد الأمين . وعندما رجع عبد الرحمن ابن عبد الملك من أفسوس فى غزوة الصائفة وأوقع بجيش قسطنطين وهز عرشه ، قبض عليه أبوه لأنه خاض فى ولاية العهد بحديث لم يرقه ، وان كان قد نزل بردا وسلاما على قلوب أم جعفر زبيدة وأخيها عيسى بن جعفر والفضل بن الربيع ــ وهم يشكلون الحزب العربى مع جماعة بنى هاشم فى قصر الرشيد ــ فسعوا لدى عبد الملك الهاشمى بالعفو .

وكان دخول عمرو الى البصرة ــ وقد ترك حلب كالهارب ــ فى الهاجرة وعرفه القوم .. العينان البارزتان ، والقامة القصيرة ، والأذنان الصغيرتان ، واللحية الدقيقة ، وكانت الجبة قاتمة والعمامة بيضاء مضطربة ، وفى القدمين نعلان غاليتان ، وأما قلبه فقد تركه للجارية التى وهبها له عبد الرحمن ولم يتمكن من اصطحابها .

ان احساسا بالمرارة يجتاح أعماقه ، ولكنه بدا منفرج الشفتين يتسلى برؤية المزدحمين ، واسراع الحمراء بقلانسهم فى تيه عجيب ، وكأنهم راضون بحركة الرشيد التى تنطوى على نصر للفرس . وفى سيحان رأى قوما من البرامكة يتظاهرون بفضل يحيى بن خالد الذى حفر نهرا ، وأقام سوقا ، وشيد عمارات ، وتقدم اليه قاسم التمار وقال وهو يعانقه :

ــ هأنتذا يا أبا عثمان .

فصرخ عمرو قائلا بفرح :

ـــ أجل هأنذا فكيف أنتم ؟

أجاب قاسم :

ـــ لا نزال نعيش ولكنى والله ذهب منى الأطيبان !

قال عمرو :

ـــ الأطيبان يا رجل ؟ وأى شيء الأطيبان ؟

قال :

ـــ قوة اليدين والرجلين .

قال الجاحظ :

ـــ أعرف أنهما كانا الشباب والقوة ، فمتى صارا هكذا ؟

أجاب :

ـــ اليوم أو أمس لا أدرى !

وضحك الصديقان ، وان اختلفا على سبب سرورهما . فأما عمرو فكان فى نفسه من غفلات صاحبه ما وجد فيه تفريجا وتأسية ، وأما قاسم فكان يظن أنه وقع على الشاردة . وضربا فى الشوارع قليلا وهما يتذاكران رحلتهما الأولى ، ثم ألم عمرو ببيت أخته فى حى بنى كنانة ، وفى الطريق الى المسجد الجامع قال قاسم :

ـــ قل لنا الحكاية .

ـــ أية حكاية ؟

ـــ حكاية أسفارك حتى لنظن أنك تكره هذا البلد .

ـــ بل أحبه ، ولكن فى السفر افادة .

ـــ كما أفاد رجالنا .. الأصمعى والنـــواسى وأبو الهذيل وابن الضحاك الخليع وابراهيم بن سيار ؟

ـــ لا أظن . ولكن هل عد ابراهيم من الرجال يا أبا يعقوب .

ـــ انهم يقولون انه زهرة البصرة ، وفى دار أبى عمران يعقد مجالس المناظرة ، ويظهر على أهل النظر والجدل .

ـــ اذن لنعدل عن المسجد الى دار أبى عمران ، فلى شوق الى أن ألقاه ، ولينتظرنى أبو يوسف يعقوب الى غد لأذاكره حديث رسول الله .

ـــ لا أرى أن نذهب الى دار أبى عمران الساعة .

ـــ لم ؟

ـــ لأنه فى المسجد الآن يشهد ابن سيار فى مجلس جذل وعدنا به أمس ، عندما أخبرنا أن الحسينية جارية الرشيد ظهرت عليه .

ـــ ماذا تقول .. كيف ؟

ـــ لا أدرى ، ولكن يقال انه سألها فى ثمانين مسألة (١٣) فأجابت عنها بحضرة الخليفة ، ثم سألته عن مسائل فلم يقدر على جوابها .

وبقدر ما امتلأ صدر عمرو سرورا بعد أن سمع عن انكسار صاحبه ما سمع ، تشوّف الى لقاء الحسينية . فلابد أن تكون قد

وصلت الى مستوى من الفكر والثقافة لم يرق اليه ابراهيم . ومعنى ذلك أن ما يظنه كمالا فى بعض الأحيان ليس كمالا . وما يوضع موضع التقديس ليلا لا يلبث أن ينهار اذا طلع عليه النهار . وتلك هى الحياة .

ودخلا الجامع ، وبدأ عمرو فعانق الأخفش عناقا حارا ، واحتضن برفق شاعرا اسمه محمد بن يسير وسأله عن أبى نواس فذكر له أنه ارتحل الى بغداد ومعه أبو هفان الذى أصبح وراقه وراويته ، وتحلق حوله أصدقاؤه المسجديون ، فراح يشد على أيديهم ، وأصواتهم تملأ صحن الجامع فتمتد العيون اليه من بين الأعمدة الكثيرة التى يرتفع عليها السقف الكبير .

وثمة وجوه بيض وأخرى سود تلمع ، والقلانس تختلط بالعمائم وعشرات النماذج من الملابس السندية والشامية والعراقية والبدوية . وسعى عمرو حتى لمح أبا عمران ، وكانت نظرة واحدة منه الى حيث يجلس كافية لتكشف له عن خطورة الموضوع الذى يثار ، وعن يمينه كان أستاذه المحدث أبو يوسف يعقوب شاحبا يبدو عليه الارهاق ، وثمة شاب يقف ويقعد ، فيه مرح وعلى وجهه ذكاء .. انه هو صديقه ابراهيم ، وقد نما وطال عوده ودقت لحيته ، وبدا أكبر سنا مما هو عليه . وكان أبو الهذيل يتطلع نحوه وهو يبتسم ، ويهز رأسه حينا بعد حين .

وتلاقت العيون ، لكن الحديث لم ينقطع ، وكان ابراهيم يقول فى حماس :

— ان خبر التواتر لا يضطر ، لأن كل واحد منهم يجوز عليه الغلط والكذب ، وكذلك يجوز على جميعهم . ومن المحال أن يجتمع ممن يجوز عليه الغلط وممن يجوز عليه الكذب من لا يجوز عليه الكذب (١٤) .

وارتفع ضجيج من بين الجالسين ، فى حين اتخذ عمرو مجلسه بجانب شخص عرف منه أنه اسماعيل بن غزوان أحد أصـــدقاء أبى عمران وعاشق احدى جواريه ومن أشهر مرتادى مجالسه فى داره ، فسأله :

— فيم يتحدثون ؟

أجاب :

— بين أبى يوسف وأبى اسحاق أشياء فى الحديث ورواية الخبر .

ودار رأس عمرو . فهل وصل ابراهيم الى حيث يناقش مثل أبى يوسف القاضى ؟ حقيقة ليس للسنور كبير نفع ، بل ربما كان كثير الأذى حتى لتربى على منافع الكلب ، ولكن أنى له بهذه المعرفة الفقهية التى تدفعه الى أن يتكلم على ذلك النحو من الثقة ؟ واستمر يقول :

— وقلتم فى سؤر السنور وسؤر الكلب ما قلتم ، ثم لم ترضوا به حتى أضفتموه الى نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وعلا صوت من بين المتحلقين يقول :

ـــ أوليس نبيك يا مارق ؟

ـــ وصاح ابن غزوان وهو يتطلع الى ابراهيم وقد سكت :

ـــ أفكان يطعن ؟

ولم يتلق اجابة . لأن الأمور اختلطت بعد ذلك . فقد اندفع ابراهيم نحو عمرو ، وهو يصرخ فى فرح صادق :

ـــ مرحى بالجاحظ مرحى !

وغمغم عمرو تأدبا ، الا أنه لم يستروح منه نعته اياه بالجحوظ، ألأنه وسيم طويل وأنا .. أنا الحدقى الأسود القصير من دون الناس جميعا ؟ لكنه من الحمراء ، ويستحق لذلك أن يجلد لو خلى بينى وبين ما أريد أن أفعل ، أو أمسخه سلحفاة تدب كالمختالة بدرقتها المزركشة أو أليق به « البيش موش » الفأرة التى عندهم وتغتذى بالسموم فلا تموت ويموت منه غيره . ومع ذلك فهو يقبلنى ، لا ضير ، انه تائق لى ، وحافظ لأيامنا الأولى .. ما أبعدها !

ـــ ها قد زدت بسطة فى الجسم والعقل يا أبا اسحاق ، وسأظل أنا دونك حتى يلج الجمل سم الخياط .

وضحك بقوة ، ثم أقبل على شيوخ الحلقة فحيا وقبل الأرض بين أيديهم ، وكان أبو عمران أكثر الحضور احتفاء به .

## ١١ ـ المفاجأة

ولم يطل جلوس أبى عثمان عمرو الى أبى يوسف كثيرا ، وانما هى أشهر قليلة فارق القاضى بعدها الحياة . وعد أكثر

المتصلين بعمرو هذه الوفاة منّة من الله عليه ، كأنهم استبشعوا أن يتفرغ لما لم يهيأ له على الاطلاق .

فهو لا يملك سمت المحدثين ، ولا له تقواهم وبرهم . وهو الى المتكلمين أميل والى جدلهم أحب . ومن ناحية أخرى لا يكاد يعف ، ويفتقد القدرة على منع لسانه من أن يلغ فى دماء من يعرفه ومن لا يعرفه ، بل قد ينتهى به الأمر الى التعريض بنفسه هو .

وعلى الرغم من أنه راح يجلس بانتظام الى أبى عبيدة معمر ابن المثنى وأبى زيد الأنصارى يتلقى عنهما اللغة والنوادر والغريب والملح ، والى الأخفش يأخذ عنه النحو ويسمع الى آرائه فى عروض الخليل وكتاب العين الذى وضعه ، كذلك على الرغم من حرصه على مخالطة أبى الهذيل والاستماع اليه وهو يبدى آراءه فى ذات الله والقرآن والنفس والحواس ، وفى أساتذته من أمثال عمرو ابن عبيد وعثمان الطويل صاحب واصل بن عطاء .. فان عمرا لم يقلع عن مخالطة عابثى المسجديين والمربديين كالخاركى وأبى الفضل والجماز وقاسم التمار ، وعندما كان يسأله اسماعيل ابن غزوان عن سبب اصراره على ذلك يقول :

— ألا ترى أنك وأنت تنشط لمثل ما يقول أبو الهذيل أو الى ما يجرى فى دار صاحبنا أبى مويس تأخذ نفسك بشىء من اللهو مع جاريته ؟ انى والله لمثلك ، ولولا أنى أجد الى التلهى سلما لما حببت سوء حالى الىّ ولما شوقت نفسى الى رضى وشيك ومتعة قريبة .

وحدث فى هذه الفترة أن مر بالبصرة حاجا صديقه عبد الرحمن ابن عبد الملك الهاشمى . وكان من الممكن أن تقتصر المقابلة على التحية والاعراب عن الشوق أو قد تزيد الى ارتياد حانة وتجييش ساقية ، لولا أن أخبر بأن « جاريته » التى وهبت له فى الشهر الأخير من الحمل .

فقد أصبح عمرو اذن أبا ..

هكذا بسرعة ، ودون أن يتخذ للأمر أهبته ، وبلا أية ضرورة لأن يكون له ولد وهو لا يزال عالة على عطاء الأشراف وان كسب من كده فهو النادر الذى لا يكاد يحفظ رمقا .

ان أبواب الرزق محدودة يا عبد الرحمن ، ليس أمامى فحسب وانما أمام غيرى من أعلام البصرة أيضا .. أبو عبيدة نفسه ، والأخفش ، وأبو الهذيل ، حتى صاحبى ابراهيم أصبح ينظم الخرز فى أسواق البصرة ، وأخبرنى أمس بعد أن خلونا لأنفسنا أنه جاع حتى أكل الطين وباع قميصه ليطعم من ثمنه .

لكن أحملت الجارية منه ؟

هذه مسألة لا يمكن الزعم أن الاخبار بها حجة يلزمنى بها عبد الرحمن ، فربما كذب ، بل قد يكذب غيره على النحو الذى بسطه ابراهيم فى معرض حديثه عن خبر المتواتر ، وفى هذه الحال لا يمكن أن أقبل الدعوى أساسا .

وكأنما كان عبد الرحمن يقرأ أفكاره ، لأنه قال له :

— لقد أخبرتني أنك أحسنت المضاجعة يا أبا عثمان . فاهنأ بقطعة منك : وسبحان البديع الخلاق .

وبوغت عمرو ولكنه قال بلا تفكير :

— يا عبد الرحمن ادع لربك فى البيت الحرام أن يكون لولدى — ان جاء — عقلى وصورة أمه : فقد استدللت بالذى أراه عدلا ولا يصرفنى عنه فرط تهاونك وعدم اكتراثك .

قال عبد الرحمن :

آن لك أن تبنى بها على الملأ !

يا للكارثة ..

ويصبح الحدقى أو الجاحظ أو عمرو الذى يدور هنا وهناك ويرتاد المجالس مربوطا بامرأة يعرفها الناس : ويقول بعضهم اذا رأى بهاءها « ما أجدرها بواحد مثلى ينسيها شوهته ويحبب اليها الفسوق » واذا كان على تقوى مؤرق العجلى أو سفيان بن عيينة قال « يا هذا : مثلك فى أدبك وحسن معرفتك لا يرضيه أن يعرضها للتهمة ويقفها موقف سوء ، فعليك اتقاء الله » ويقول ثالث .. لكن مهما تكن الأقوال فان جماعات أهل الحكمة يرون أن واجبا على كل حكيم أن يحسن الارتياد لموضع البغية . وأن يحدد أسباب الأمور ويمهد لعواقبها ، فانما حمدت العقلاء بحسن التثبت فى الأوائل لأنهم يعملون عند استقبالها بحسب ما تؤول به الحالات فى استدبارها ، ولأكن حكيما يا عبد الرحمن .

ولقد ودعه وهو يعمل فكره فيما قد تأتى به الأيام وفيما قد يروض نفسه حتى يذللها على تقبل الآتى ؛ لأنه سبب من أسباب بقائه . وهذا ما ينبغى أن يقدر على وجهه الصحيح . ففيم الجزع ولم ؟ وأى انسان لا يخطر بباله أن العالم على خلاف ما يرجوه دائما ان من المأثور أن ما يشتهى عسر المنال .

### ١٢ ــ الاغراء

صحا الجاحظ ذات يوم على نبأ يقول ان كتاب « الأصول الخمسة » الذى نشره مؤخرا أبو الهذيل فى أصول الاعتزال وعلومه لكى يعترف من يقرؤه بفضل هذه الجماعة حاملة لواء العلم والكلام فى البصرة ؛ يطعن فيه هشام بن الحكم الرافضى ؛ ويزعم أن أكثر ما فيه له هو ؛ وعلى هذا لابد من طرح القضية أمام نخب العلماء فى المسجد أو فى نادى أى دار من دور آل سليمان أو آل جعفر .

وتحير عمرو ثم دفعته مقابلته لصاحبه ابراهيم النظام الى سلسلة من الشكوك والتساؤلات . وقد ذكر له صاحبه وهما معا فى الطريق الى العلافين لمقابلة أبى الهذيل فى داره أن بين المعتزلة والرافضة تأثيرا متبادلا لكثرة ما ينشب بينهما من المناظرات ؛ وأنه اذا كان لهشام ـــ على سبيل المثال ـــ كتاب فى الرد على الثنوية فسيصدر عن المعتزلة كتاب مثله يتولى هو ، أى النظام ؛ كتابته .

وازدادت حيرة عمرو . فقد اختير صاحبه لتلقى اليه أزمة أمور هذه الجماعة ويكتب باسمها ، وأما هو فلا يزال يبحث عن

طريقه ولا يزال يساير ويروى النوادر ويحاول الكتابة فلا يستطيع . وان استطاع . فلا يخرج ما يكتب عن كلمات ابن المقفع وابن عطاء والحسن البصرى .

هيهات ..

ما يكاد ذو التكلف يخفى على أهل الغباوة ، فكيف على مثله من المتصفحين ؟ وكأنه يعلم ما فى صدرى وان أخفته المؤانسة به فيدعونى الى الاتصال بخاله لأتثبت وأعرف طريقى ، لكنى الى غير ما ينشده راغب ، ومن تمام شكرى لربى ولى كل نعمة الشكر له على دعوته . ثم يكون التمام فى الاذن بالانصراف الى المسجد أو الى المربد .

قال ابراهيم :

— كلا يا أبا عثمان ، فلن أدعك حتى تحضر مناظرة اليوم وسيشهدها فى فناء الدار بالعلافين كثيرون من علية القوم فى بغداد والكوفة والبصرة .. ثمامة وبشر والكسائى وسهل بن هارون وأبو نواس وأبو العتاهية وأبان اللاحقى ومسلم بن الوليد ، وربما حضرها جعفر البرمكى ان غاب عنها الفضل ابن الربيع الذى يقال انه اليوم فى ضيافة آل سليمان بالمربد .

قال عمرو :

— فيم هذا يا أبا اسحاق ولم أزل أبقاك الله بالموضع الذى تعرف من جمع الأخبار والكتب والنظر فيها ؟

وعادت بعمرو الى الوراء ذاكرته ، وعرض له صدامهما القديم فأحس بالهوان . فقد مكن الله لهذا النظام من أسباب المقدرة ومهد له فى تمكين العلم مالم أنحله بأية حيلة ، ولا بلغته بتقرب أو بتفقه أو بتصيد كل عجيب ونادر . على أنه تعالى يؤثرك بفضل دونى ، أو لعله مكنك ليبلو خبرى ويختبر شكرى ويحصى أثرى ليوفينى أجرى . فليكن ذاك زادى حتى يقع أمر كان مفعولا ، والا فهل من العقل أن أغبن حظى من دينى ، وألا أجهد حتى يكون أغلب أفعالى الطاعة مع الندامة عند الاساءة ؟ وأرجو أن لا أندم .

وكانا قد دخلا العلافين مقتربين من دار أبى الهذيل ، وهنا قال النظام :

ـــ استعد يا أخى لأمور عظيمة وليوفقنا الله !

### ١٣ ـ مجلس من المجالس

لم يسفر اجتماع أبى الهذيل وابن الحكم عن شىء ذى بال ، غير أنه ترك أثرا أو آثارا فى نفس عمرو . فضلا عن احساسه الزائد بالغيظ ازاء اصرار المتناقشين على مناداته بالجاحظ خلال خوضه معهم فى الحـــديث الذى أكد قدرته على الجدل ، رأى أن من الضرورى ليكونوا أكثر اقتناعا التخلى عن أقوال حكماء الاغريق وآرائهم ـــ وان يكن أعجب بأرسطاليس ـــ وطرح التشديق وبعد الصوت والمعاظلة والتصعيب الى الوضوح والسهولة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . ولو هيىء لأحد أن يبلغ من بيان لسانه ولطف مداخله واقتداره على نفسه أن يفهم

العامة معانى الخاصة ويكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء ؛ لأصبح البليغ التام .

لكن الجدير بالعجب فى هذا كله أنه كان من بين المتكلسين من أدركته حرفة الأدب فعلا . الا أنه لم ير فيهم أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب ــ وكان على رأسهم : سهل بن هارون وابراهيم ابن المدبر وعمرو بن مسعدة ــ فانهم بدوا أمامه على النحو الذى يرجوه لنفسه من الدقة والاصابة والبعد عن التوعر والسوقى .

وفى الوقت الذى أعجب فيه بسهل ــ وقد رآه معتدل القامة مقبول الصورة حسن الاشارة بعيدا عن الفدامة حتى لكأن النظام صاحبه صورة منه ــ أحس كراهية بالغة لأبان اللاحقى الذى قدّم على سائر شعراء المجلس لأنه نظم ليحيى البرمكى فى بغداد « كليلة ودمنة » شعرا ؛ وأعطاه لذلك عشرة آلاف دينار .

لا مجال للموازنة بين الرجلين ؛ وليس ايناسه بسهل راجعا الى قدم معرفته به ــ فقد التقى به من قبل فى رحلة الجنوب ــ وانما القضية أن أبانا ينتحل الأدب والشعر والعلم ويستطيع غيره ــ وليكن هو نفسه ــ أن ينظم كل كنوز العربية ويأخذ ألفا فقط أو حتى ألف درهم !

لكن الى أين يا أبا عثمان ؟ فأنا لم أر ظالما أشبه بمظلوم من حاسد نعمة ؛ فان كربى دائم . وما أريد هذا ؛ لأننى أعلم أن المقصر فى صناعة العلم هو الذى ينتقص كل ما يرد عليه من منظوم وغير منظوم ؛ ولكأن هذا الشاعر الكوفى الآخر ــ مسلم بن الوليد ــ

يريدنى وهو يقول بعد أن أفضت الجلسة الى الشعر « يخيل الى نوكى الشعراء أنهم لا يقضى لهم بجودة الشعر الا بهجائى والطعن فى شعرى ولسان يهجى به عرضى » لكننى لم أتنقص من نظمه وانما أسأل لماذا لم تتح لى هذه الفرصة . هل لأنى عربى وهو من الحمراء ؟

انه منذ استولى آل برمك على مقاليد الحكم فى بغداد وكل شيء يخرج من صعب الى أصعب ، برغم الهدوء الذى يسود جميع ربوع البلاد . فالسلالات الكبيرة من الأموية والعلوية والخوارج قاتلت الى أن أنهك القتـــال قواها ، وها هم أولاء حكام بغداد — وفيهم الآزادمردية — قد تفننوا فى ابتناء القصـــور واقتناء الجواهر ، ويعاقرون بنت الحان فى دعة واسترخاء ، ويخرجون الى القنص ما لم يجدوا شيئا يفعلونه وقد زهدوا فى الاستماع الى أمثال أبى نواس وأبى العتاهية ومسلم وأبان .

وبمثل صعوبة الموقف صعبت حيـــاتى ، حتى وان طلبنى للسامرة والمذاكرة عبد الملك فى الثغـــور أو محمد الهاشمى ومويس هنا ، وينتهى الأمر بأن أطالب بتهيئة نفسى لأكون من المعتزلة وأقرأ على النظام — كما اقترح أبو الهذيل بخبث وأيده بشر بن المعتمر الذى يغمزه ويلمزه من حين الى حين — كتب الاعتزال .

هم يعيشون هذه الحياة الناعمة بفضل الأموال التى تعتصر من العـــامة بغيا وظلما ، وبفضل دروس العلم التى تستقى من

« خداى نامة » و « آيين نامة » والأدبين الصغير والكبير اللذين كتبهما ابن المقفع كما كتب كليلة ودمنة .

هم يتبارون تباريا عنيفا فى اجتذاب النابهين من غير العرب الأصلاء . واذا كان قد قبل بينهم واحد كالأصمعى — وهو العربى القح — فلميزات خاصة أو لظروف شاذة ، فمن أكون أنا ، مع أن فى وسعى أن أبتكر لكل بلاط شيئا طريفا يناسب ظروفه وطبيعته ؟ أنا قادر . وهم يعلمون أنى قادر . الا أنهم ينصرفون عنى عامدين .

**١٤ ـ ساعة لهو**

كان عمرو يحلق بأفكاره فوق منبج محاولا أن يقدر للمستقبل أمورا وأمورا عندما دخل عليه أبو نواس بصحبة محمد بن مناذر . فاستقبلهما باشا وراح يقول :

— فاسقان معا فى بيتى !

قال ابن مناذر :

— ألى يقال هذا الكلام ؟

قال :

— مادمت عالقا بعبد الوهاب الثقفى .

وقال أبو نواس :

— وأنا .

قال عمرو :

ــ ظريف ولكن ..

قال أبو نواس :

ــ لست كالجماز تنال منه يا أبا عثمان !

قال عمرو :

ــ هذا العيار السليط تنشط لمثله يا ابن هانىء ؟

فقال أبو نواس :

ــ بل أنشط للأعلام وأكسفهم . وقد بدأت باللاحقى ، أترى يرضيك أن تسمع حكايته ؟

قال عمرو :

ــ اتركه فى ركوب الفواحش واتنياب الحانات ومنادمة السفلة والسوقة .

فقال أبو نواس :

ــ عندما قصدت بغداد وعرضت بضاعتى على آل برمك نفس علىّ أبان لسموى وشرف قولى ، وعندما جالسته خرجت من مجلسه بنونيتى التى رميته فيها بالزندقة (١٦) فراح يدس لى عند جعفر بن يحيى ، وبخاصة بعد أن عرض علىّ جعفر كلبة لأسميها له فقلت « قد سميتها أم أبان » . ولما قدم الفضل من خراسان سأله جعفر أن يجعل أبانا على عطاء الشعراء وتمييز ما يهنّأ به من الشعر ، ففعل ، وأعطاهم على مراتبهم وطبقاتهم . فلما جئت لقبض جائزتى أعطانى درهمين ، فرفعت يدى وصفعته قائلا « سارق غلة أمه ، قد بلغنى أن أمك كسبت عشرة دراهم

فخنتها » فضحك الفضل وقال لجعفر : « مر أبانا ليصالحه » ومنذ ذاك وهو يهش فى وجهى ويستدح قولى حتى ما فيه من عبارات المتكلمين التى سألت توضيحها .

وهنا قال ابن مناذر :

ــ هذه شهادة طيبة . فهم يقولون : ان أبانا خير حكم . وهو فوق الأرض . من كثير من رجالات بغداد .

قال عمرو :

ــ هذا اعتقادك ؛ ولا أدرى ما أقول لك فيه ؛ ولكنه جعل قرة عين آل برمك ؛ وهو غير جدير .

قال أبو نواس :

ــ ليكن ما شاء وشاؤا أن يكون ؛ بيد أنى أروى لأبى عثمان من شعرى ما يحفل بألفاظ المتكلمين عساه يحفظه ويثبته فى أضابيره ؛ سأسمعكما فى الغزل ؛ ولكن لا حاجة الى هذا الآن بقدر حاجتنا الى أن ندلج الى الطفوف فان بها حانة رفاعة ؛ وهى غير بعيدة من قصر أنس بن مالك ؛ ولم أر مثلها قط فى نظافتها وطيبها وحسن شرابها ؛ وأنا أشتهى أن أسكر وأقيم بها أياما بعيدا عن العلم والسياسة وتدبير من يدبر .

قال عمرو :

ــ أن نمضى معك الى الموضع الذى وصفت فلا اعتراض ، وأنك تريد البعد عن السياسة والعلم فشىء من خاصتك ؛ لكن ماذا تعنى بتدبير من يدبر ؟

قال أبو نواس :

ـــ يا عم للناس تأس وعادات وتقليد للآباء والكبراء ؛ لكن لم يعلمونا أن نخوض فى أمر الدولة بما يخوضون . فلنبتعد !

ثم خرجوا . وأشرفوا بعد حين على البطائح ليروا أشجارا وكروما لم يروا مثلها قط نزهة وحسنا . وكانت أنهار البصرة تفيض هنا وهنالك . وتغور فى الأرض ؛ فتنبت الأعشاب الخضر والصفر ؛ وتملأ العيون بهاء . وما وصلوا الى حانة رفاعة حتى قوبلوا بعاصفة من الترحيب ؛ فثم الجماز وداود بن رزين الواسطى . وعمر الوراق والحسين الخليع ومسلم بن الوليد . وانقبض عمرو قليلا ؛ غير أنه لم يلبث أن اندمج وانبسط . وقد بدأ رزين ـــ وهو راوية لشعر بشار ـــ فأنشد ما يحفظ على الأقداح الدائرة . فقال الوراق :

ـــ ألا يذكركم اجتماعكم هذا بشىء ؟

فقال مسلم :

ـــ بالجنة التى وعد الله بها المتقين .

فقال عمرو :

ـــ بعيدة والله عنكم !

فقال الوراق :

ـــ ما عنيت هذا ؟

قال أبو نواس :

ــ بغارة الكرخ التى قلت فيها « يا ناظرا فى الدين ما الأمر » .

فقال الوراق :

ــ بل بزيارتنا لمنزل عنان جارية الناطفى ، ولم يكن معنا أبو عثمان وكان فضل الرقاشي وابن الخياط ، هنالك تناشدك الى وقت الظهر ، فلما كان موعد الانصراف سأل بعضنا « أين نحن العشية » فكل قال « عندى » واحتكمنا بالشعر الى عنان .

قال داود :

ــ أنا قلت « قوموا الى قصف لهو » ..

قال أبو نواس :

ــ لا حاجة بنا الى هذا . ولنقل فى اجتماعنا اليوم شيئا جديدا . ولنتراض بحكم الجاحظ فيكم .

## ١٥ ــ مشروع

ولقد نهبا الطريق الى دار محمد بن سليمان بن على ، ولدى الباب لقيهما عبد أسلمهما الى قهرمان عدل بهما الى ردهة مفروشة الصحن ، ملبسة الحيطان بالوشى الدقيق . ولم يمض الا القليل حتى طالعهما سيد الدار مهللا ، وأنشأ يقول فى مزح يشبه الجد :

ــ قد طالما طلبتك يا أبا عثمان فلم تأت الا بدعوة ابن الربيع ، أخذك منا الكلام ، وزندقة الحمراء .

وأشار الى الرسول فانصرف ، بينما قال عمرو ، وقد داخله القلق :

ـــ حاشا يا مولاى ولكن ..

قال الأمير :

ـــ فأنت اذن كاره ؟

قال الجاحظ :

ـــ بل أعمل بما قال رسول الله : زر غبا .

وفى هذه اللحظة دخل الفضل بن الربيع فحيا . ونودى على « الغلام » فدخل مولى أسود عليه ثياب موشية وعمامة صفراء فقال الأمير :

ـــ ادع بالمائدة .

فمد سماط وضع عليه الخبز ، وجدى مشوى وبقول . ولم يزل الخدم يضعون ويرفعون ، وعمرو يتستم دهشة وهو يأكل :

ـــ يا للحداثة وما تصنع بأهلها !

وقال الفضل :

ـــ جمعتنا يا أبا عثمان أكلة عربية وبعدها ..

وسكت ريثما يضع الخدم الحلوى والنبيذ والنقل والريحان ، وما انتهوا حتى دخل شاب عليه طيلسان أصفر وسراويل وشى مسدول ، وفى يده عود خيزران ملون . فقبل أيدى الجماعة ، واتخذ جلسته على مبعدة وهو يمد أصابعه يلمس بها الأوتار . ولم تكد الأنغام تتدافع كسلى ناعمة حتى دخلت جارية راحت تتخطر ، وقد انفلتت من تحت قلنسوتها خصلات من شعرها الى

قبائها المذهب ، وتحيط خصرها منطقة بزنار أخضر غرقت فى لحمها ، فما تكاد تبين الا معاليقها ، وفى قدميها نعل مدبجة الدروز .

ها أنت ذا يا أبا عثمان ترى جاريتك .. أم ولدك ، بل ربما كانت جاريتى أكثر جمالا ، لكن أين هى ؟ وماذا فعل الله بها ؟ لابد أن تكون وضعت . واننى لأنتظر البريد كل يوم بشىء ولا يأتى ، أفتكون ماتت أو مات ولدى ؟

ــ ألا قلت شيئا يا أبا عثمان .

قال عمرو وقد اضطرب وان كانت الأريحية تهزه :

ــ والله انها لمعان لا يحسن كشفها الا شعراء البلد ، وأين أنا من ابن هانىء والخليع والرقاشي وابن مناذر ونحوهم ؟

قال الفضل بسرارة :

ــ هم بين أيدى آل برمك ، فكيف لا تنزلون الميدان ؟

وأشار ابن سليمان الى الراقصة والعازف فانصرفا ، وأغلق عليهما الباب ، فقال عمرو :

ــ لا نملك الأداة .

قال الفضل :

ــ ويسلب حق أمير المؤمنين ؟

قال عمرو :

ــ ان كان علىّ أن أفعل شيئا فعلته ، فماذا ترى ؟

قال الفضل :

ـــ اجمع قلوب العرب حولنا ما دام يحيى وأولاده استأثروا بالحمراء ، وبمن هواه مع الحمراء : أتدرى ما كان ؟

فهز عمرو رأسه . فاستطرد الفضل يقول :

ـــ على بن حمزة الكسائي يؤدب محمد الأمين . واليزيدى يؤدب أخاه عبد الله ، وسهل بن هارون يلوذ بجعفر البرمكى ، وسلم الخاسر يقصد الفضل أخاه الكبير . والشيبانى القاضى صاحب أبى حنيفة يدعو للبرامكة ، ومثله أبو عبد الرحمن الهاشمى أمير الثغور .. كل الرجال يجتمعون مع خصومنا يا أبا عثمان ، ونقعد نحن للفرجة ، والله لن تقوم لنا قائمة حتى يكون عندنا مثل ما عندهم . وها نحن أولاء نبدأ بالأصمعى ويونس بن حبيب . وحدثنى عنك عبد الرحمن بن عبد الملك ابن صالح الهاشمى .

وعلى هذا النحو استمر الفضل يتكلم ، حتى اذا قال له « ابدأ بالمجديين ثم اكتب اذا أردت الكتابة ، وستمد بالمال ما طلبته » . انفرجت أساريره ، فهل يا ترى جاءه الفرج وانتهت بذلك ـــ ولو مؤقتا ـــ مشكلة طالما أعيته الحيل فى حلها ؟

## ١٦ ـ الكتاب الأول

مضى كل شيء بعد ذلك على ما قدّر .. بسرعة ، وباحكام ، وبصورة جعلته يبدو مغامرا محظوظا ، وان يكن نكب بالابن الذى جاء وجاءت به أمه الى البصرة !

واذا نحن تابعناه وصدقناه فيما يقوله عن نفسه ، كان علينا أن نعترف له بأنه لم يصبح مغامرا عن حاجة الى المال فحسب ؛ بل كذلك عن طبيعة مزاجه وتكوينه .. ذلك المزاج الذى بذرت فيه موهبة الفنان أروع البـــذور ، فكان الثمر متنوعا مختلف الألوان .

وهو معنى على الدوام ـــ ربما لهذا السبب ـــ بايجاد تبرير فلسفى لاتجاهه فى الحياة ، ما دام لا يؤذى أحدا ولا يفتات على الحقيقة « الكلية » فليكن ما يكون . وقد عرضت عليه مرات فرص الالتحاق بأى بلاط ، ولكن ما من اغراء استطاع أن يستدرجه الى دفء الوظيفة وأمن الاستقرار .

ولا بأس بعد ذلك من أن يؤلف الكتب ويعتق ورقها ثم يبيعها منســوبة الى الأقدمين . وطلب اليه مــرة أن يتكلم عن منطق أرسطو ، فزعم أن لديه كتابا له خصه به أحد سكان الأبلة . وسئل عن النبر فى اللاتينية والفارسية فقال فيه مالم يستطع أحد أن يصدقه فيه أو يكذبه . وعرضت أمامه مشكلة موسيقية فأفتى فيها ، وبيّن أصولها عند العرب وغير العرب على حد سواء .

وكانوا يسألونه عن اللصوص والشطار فيجيب ، وعن النساء والمعلمين فلا يتوقف ، وعن العقائد والملل فيفلسف ويشعّب القول ويفرّع ، وعن السياسة والدين فلا يتردد ، وعن الرقص والمبارزة ومهارشة الديوك وركوب الخيل ولعب الشطرنج وطسم وجديس وعاد وثمود فيعيد ويزيد ولا يكل أو يمل .

وفى كل مرة كان يكسف بحسن طالعه وذكائه ولباقته نور غيره ، بل ربما كان يظهر على أمثال أبى عبيدة من الشعوبيين بصورة تضعه فى الجوزاء . وباختصار ظهر فى السنوات الأربع التى أصبح فيها « أبا عثمان » أن فى استطاعته أن يكون أستاذا فى أى علم بسهولة مطلقة ، لما أوتيه من توقد فى الذهن وسرعة فى التمثل . وقد روّع النظام فى جلساته التى كانت تعقد فى دار أبى عمران .

وبدا فى تلك الأثنــاء سعيدا . فالمــال بين يديه ، وبيوت آل سليمان وآل جعفر مفتوحة أمامه ، والكوفة تدعوه ، ويونس ابن حبيب يعلن ليلة وفاته أنه وحيد عصره ، والحمراء تحسب له ألف حساب . الا أن شيئا واحدا شوه دنياه المقبلة عليه : وهو ولده الذى تمنى أن يكون فى جمال أمه وكمال عقله .. لقد كان بقبحه هو وبجهلها ! ولما مات شيعه بدمعتين ، ولم يشفق على أمه التى أعادها الى الثغور بألف لعنة .

لقد علمته التجربة أن « الزوجة » عبء . وان تكن « المرأة » مرغوبا فيها أبدا .

واذا كانت المرأة تصد عنه لشوهته ، فليس ما يمنع من أن تقبل عليه ما دام يملك الدرهم والدينار . وكل المعلومات الأساسية فى أى ميدان من ميادين « الأسرة » تقفه على هذه الحقيقة : فلماذا العبء الذى يحمله على كاهله مدى حياته ؟

ومن ذلك ما حدث فى بغداد قبل نكبة البرامكة ، اذ قال له أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد البصرى ـــ الذى قابله

لأول مرة فى أنطاكية وزاره فى البصرة مرات — يقول رسول الله « مسكين مسكين رجل لا زوجة له ، مسكينة مسكينة امرأة لا بعل لها » فلم يتردد فى أن يؤكد لأبى الوليد أن الزوجة اذا صاحبت زوجها شيبت رأسه وسهكت ريحه وسودت لونه وكثرت بوله ، فضلا عن أن الزوجات — عادة — مصايد ابليس وحبائل الشيطان . يتعبن الغنى ، ويكلفن الفقير ما لا يجد . وهذا كله لا يلزم أحدا بالزواج ، وان يكن الحديث الشريف لا يحمل معنى الأمر ، ورب ضارة نافعة على أى حال !

ومرة ثانية قيل له « بم تملأ أيامك اذا مللت القراءة ؟ » قال :

— بالكتابة .. وقد رأيت أن أجمع من نوادر النساء والمعلمين ما يروع ويعجب .

وشوهد بعد ذلك متأبطا كتابا ذكر أنه فيس سنى « عمرا » مثله من الأدباء ، ولم يعثر بين من حمل هذا الاسم على معلم واحد ، وهذا من حسن الطالع من غير شك !

### ١٧ — هذا القبيح الوسيم

اصطحب عمرو صديقه قطربا — وكان من رجال النحو — بعد أن ودّعا الأخفش أستاذهما على موعد فى المسجد غدا ، وقصدا به الى دار أبى عمران لملاقاة النظام . لقد شغف قطرب بمجالس هذا المتكلم ، ولعل هذا ما قرّبه الى الجاحظ ، لأن هذا لم يكن يمل الجلوس اليه . وعلى أنهما عند وصولهما علما أن النظام اضطر الى السفر الى بغداد بناء على دعوة من الرشيد توسط له

فيها ثمامة بن أشرس ، وقيل : ان جعفر بن يحيى البرمكى أراد فى الوقت نفسه أن يختبره فى مسائل عرضت له فى أحد كتب أرسطاليس .

ولقد وجد عمرو نفسه بعد سفر صديقه ــ الذى بدأ يحتل فى نفسه مكان الأستاذ ــ يتولى عنه شرح آرائه ، وان يكن فى بعض الأحيان يحاول التعليق عليها . وعندما نبهه الى خطأ هذا الأخفش ــ وكان مجادلا يحسن الخوض فى مسائل الكلام ــ ذكر له أن صديقه فى الواقع أكثر أهل الأرض تنقلا ، وأسرعهم اعتقادا ، وأقلهم على ما اجتبى ثباتا .

يجب أن تعلم ويعلم غيرك أنى لا أتنقصه ، ولكننى أقرر واقعا . انه فرضى عروضى ــ وأنا أكره العروض ــ وحاسب ومنجم ونساب وحافظ للقرآن الكريم ، ويعرف تفسيره ويعالج الكيمياء ويروى كلام الأوائل ويقول الشعر اذا أراده ويستطيع مناقشتك فى النحو . بيد أنه يسأم طول الروية فتجىء كلماته لا كما جاءت كلمات واصل فى « الأصول الخمسة » محكمة واضحة . فما معنى قوله : ان القرآن حق وليس تأليفه بحجة ، وانه تنزيل وليس ببرهان (١٧) . وما معنى أن الارادة لا تضاف الى الله على الحقيقة ، واذا وصف بها شرعا فى أفعاله فالمعنى أنه خالقها ومنشئها على حسب ما علم (١٨) وهل يقبل العامة أن يقول لهم « لا جزء الا وله جزء : ولا بعض الا وله بعض ، ولا نصف الا وله نصف » ليقولوا : أبدعت والله وأحسنت ؟

ان كتبه فى حاجة الى بيان واستدراك ، كالكتب التى تكتبها أنت أيها الأجلع الذى لا تنطق شفتاك أبدا ، والفارق بينكما أنه يقول : ان كتبه لله ، دعنى أسألك فسنقول هذا تماما .

ـــ أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟

قال :

ـــ أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى اليه قلّت حاجة الناس اليّ فيها ، وانما قد كسبت فى هذا التدبير ، اذ كنت الى التكسب ذهبت . ولكن ما بال النظام وأصحابه يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذ مثلى فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ، ولا يفهم أكثرها !

ومر فى هذه الأثناء الجماز ، فأعجبه المنظر .. الأستاذ والتلميذ قبيح وأقبح منه ، وكلاهما محب للآخر لدمامته . ولعلهما يشفقان بعضهما على بعض ، ولكن الجماز يسخر قائلا :

ـــ وافق شن طبقة .

فيقول الجاحظ :

ـــ كأنك استوعبت علوم عصرك ، فرحت تروى الأمثال ، ألا هل اكتفيت فقعدت الى قحف الخنزير تأكل فيه قيء الكلاب(١٩).

فعدل عنه وهو يقول :

ـــ والله لأرمينك أيها الأسود بأبى هفان .

وهل يظن هذا البخيل المتطفل الشويعر ، هاتك عرض أمه أنى ألين له ولغيره ، والمرء بعلمه وعقله وليس بحسنه وبياض لونه ؟ ألم يكن عبد الله بن عباس أدلم ، وكان آل أبى طالب سودا وأدما وقال رسول الله « بعثت الى الأحمر والأسود » وقد علم أننا نحن العرب لسنا حمرا ولا بيضا فقد عنانا بقوله الأسود ؟

وليأت بأبى هفان . فليس فى وسعه أن يكون أثقل علىّ من غيره من الثقلاء ، ولكنى عنه منصرف الى ما أخذت به نفسى من شرح ابراهيم ، الا اذا وقعت الواقعة فتكون نهايتى ونهايته ، والخير فيما يفعله الله .

**١٨ ــ عن الشعر**

لو يسخ الخنزير مسخا ثانيا ما كان الا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه وهو القذى فى عين كل ملاحظ

وقيل له ان الناظم هو أحمد بن سلامة الكتبى ، فمر عليه بدكانه وصاح « لافضّ فوك » وأسرع على حماره الى أبى هفان قاصدا اللهو معه وسؤاله عما أشيع من حبس الرشيد لأبى نواس فى المطبق ، فقابله على الباب غلام عجمى فقال له :

ـــ من أنت ؟

أجاب :

ــ الجاحظ !

فدخل الغلام الى أبى هفان ، وهو يصيح قائلا :

ــ الجاحد على الباب .

وسمعه فضحك ، ولما عاد اليه بعد قليل ، ليعيد سؤاله عن اسمه قال له :

ــ قل له الحدقى !

فدخل الغلام وهو يصيح « الحلقى » فاندفع خلفه قائلا :

ــ ردنا الى الأول أيها الغلام !

وكان فى المنزل جماعة من أهل العلم والنادرة فيهم أبو البصير الشاعر ، وأبو العيناء الراوية الأعمى ، فراحوا يخوضــون فى ضروب من الحديث جعلتهم يتعرضون لشيوخهم ، ثم تطرق الحديث الى السياسة . وكعادة الجاحظ فى حملته على الشعوبية والتنديد بما تفعله هذه الأيام ، قال :

ــ على فضل بعض بنى الحمراء ففيهم من صبأ وأســاء ، وبالأمس قرأت صفحات من الامامة فرأيت جدلا عقيما ، تماما مثل ما رأيت من أبى عبيدة ، وهو ينقد شعر العرب وحياتهم .

قال أحد الجالسين :

ــ ان شئت فدع الامامة الى غيرها .

قال أبو البصير :

ــ فليكن الشعر .

قال أبو هفان :

ـــ فهل أنشدكم من شعر بشار وابن هانىء ؟

قال أبو العيناء :

ـــ بل ليقل الجاحظ ماذا يعيب نقد أبى عبيدة وهو شيخ البصرة وراويها وعالمها ، ولو مكنوه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ؟

قال الجاحظ :

ـــ ما دام أبو عبيدة لا ينقل من الشعر الا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام فلا خير فيه ، والدليل أنه قدم قصيدة ما فى وصف المطر على قصيدة أوس بن حجر المشهورة . هل أقرأها ؟ اننى والله أتعجب من هذا الحكم .

وخرج من فوره ، وانه على ظهر حماره يخب اذا المنادى يعلن وحوله الصبية والنساء والرجال المتسكعون :

ـــ يا أهل الحلة ، يا أهل الحلة ، قضى أمير المؤمنين على آل برمك ، وصادر دورهم !

**١٩ ـ على مدار الأيام**

ملأت الشائعات البصرة بعد ذلك عن سبب النكبة ، فمن قائل : ان السندى بن شاهك صاحب الشرطة الذى تولى عملية الايقاع بالبرامكة أطلع الرشيد على كتاب بخاتم جعفر بن يحيى الى أخيه موسى يسأله فيه التوجه الى الحجاز لاصطحاب يحيى العلوى

الى خراسان والدعوة له فيها ، وقائل يزعم أن الفضل بن الربيع دس الأصمعى عند أمير المؤمنين حتى غيّره على البرامكة ببيانه الناصع وسحر حديثه ، وقائل : يؤكد أن الفضل هذا أوغر صدر الرشيد على كثير من بنى هاشم — وعلى رأسهم أبو عبد الرحمن عبد الملك بن صالح أمير الثغور — فقبض عليهم ، وقائل : ان أمير المؤمنين طلب من يحيى البرمكى ألف ألف درهم من ستة آلاف ألف وردت من فارس فاعتذر كما اعتذر ابنه جعفر عن عدم مده بعشرة آلاف ، وقائل : بل السبب هو حب نشأ بين العباسة أخت الرشيد وجعفر ، وهكذا ..

وان هى الا أسابيع قلائل حتى وردت الأخبار الحقيقية ، لكن الناس أبوا الا أن يخوضوا فى الأمر على النحو الذى يحبون ، الا أن شيئا واحدا نزل على أبى عثمان الجاحظ نزول الصاعقة ، اذ صح ما روى : أن الرشيد قبض على أبى عبد الرحمن الهاشمى أمير الثغور ، وأودعه سجن الفضل بن الربيع وزيره .

وروى العائدون من بغداد أن ابن الهاشمى وكاتبه قمامة فرّا الى أمير المؤمنين ، ووشيا بالرجل مدعيين أنه سعى للخلافة تطبيقا لمخطط برمكى ينفذ بعد فشل مشروع تولية يحيى العلوى ، وقد جاء الرشيد بأبى عبد الرحمن فحبسه .

وبكى عمرو ، فقد كان الهاشمى شهما ، ولا يمكن أن يكون قد دبر أمرا ضد أمير المؤمنين ، على رغم ما كان بينه وبين الفضل البرمكى . غير أن الشىء الذى لا أصدقه هو وشاية عبد الرحمن

بأبيه ، الا أن يكون هناك شيء ما . فما هو ؟ ألا ما أشق ما تدل عليه الآية الكريمة « ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » ألى هذا الحد يصل أمر هذه الأمة ؟ وماذا أفعل ، وفيم بقائى بين قوم لا يجمع بينهم سوى البغض والكراهية والحقد ؟!

وفى هذه الأثناء وصلته دعوة من ثمامة بن أشرس ، فخاف . وجاءته رسالة أخرى من صديقه ابراهيم النظام ، فاشتد خوفه . ان البصرة ظلت له حتى اليوم حصن أمان وخير موئل ، ولما رأى أبا عبيدة يشد رحاله الى قصر الخلد — محاطا بتوصيات اسحاق الموصلى — رجا أن لا يعود .

كان ذلك عام ثمان وثمانين ومائة على وجه التحديد ، أى فى السنة التى تلت النكبة ، وقدم بدلا منه الأصمعى يحكى ويحكى . فاذا دار السلام دار عذاب ، واذا الأخ فيها عين على أخيه والابن يسعى بأهله ، وكل يقول : « رضينا بالله حكما وبأمير المؤمنين حاكما » .

وعقد الأصمعى حلقته فى المسجد . فتحلق حوله كثيرون منهم الرياشى والتوزى وأبو عبيد القاسم وابن شبة والجمحى والترمذى ، ووجد الجاحظ نفسه يقصده ويسمع اليه . انه عذب الحديث حقيقة ، ولابد أن يكون قد لعب لعبة ما — عند الرشيد — فى القضاء على البرامكة الذين كان يكرههم تعصبا للعرب . هل أسأله ؟ ولكنه متجهم مقطب دائما ، ويغيظنى منه

هزاله وركوبه ذلك الحمار الأعجف الذى لا يليق برجل صاحب أمير المؤمنين سنوات عدة فوسع عليه وأغناه .

ويمر عام وعام ، فاذا ما كان يعيبه على الأصمعى يقع هو فيه . وتثور فى وجهه من جديد مشكلة المال فيحاول الكتابة ، ولكن كتبه لا تنفق ، فى حين تجد كتب النظام صديقه رواجا أى رواج . فيعود من جديد الى ما أخذ به نفسه قبل من تأليف بعض الكتب ونحلها للأولين . على أنه وهو يخطط للرد على الشعوبية لم يجد مفرا من اعلان اغتباطه بوفاة يحيى البرمكى عام ١٩٠ ، ثم ود لو سافر الى الرقة — مع الأصمعى — ليصل حبله بحبل الخليفة . وقد أبت الظروف الا أن تجعله رهين بلده ، يرصد للشعوبية التى عادت فشمرت عن ساعد الجد باتساع نفوذ أسرة بنى سهل المجوسية .

ثم يموت الفضل بن يحيى ، ويعقبه الرشيد ، ويتولى الأمين الخلافة . فاذا كل شىء يبدو كما لو كانت شمس العرب فى السمت ، ويروح الجاحظ يغزو بآرائه جميع منتديات البصرة والكوفة دون أن يهتم كثيرا بسلطان بنى سهل الذى كان يتسع شيئا فشيئا فى بغداد . وطبق مبدأ « عش كما تريد » على نحو أطلقه من كل الحدود .

فهو عربى أولا ، ولا عليه بعد ذلك أن يتسرى من الجوارى والفتيات — ما وجد المال — بما تطرب به نفسه . ولا بأس اذا رأس عصابات المجان ما كان ذلك على مبعدة من أعين الرقباء ،

ولا يرده شيء عن ارتياد المواخير ما دامت لا تؤلب عليه أحدا من المعتزلة الذين أصبح علما بينهم .

والغريب أنه وجد من أهل بلده من راح يدافع عنه هجوم خصومه الذين كانوا من قوة اللسن . واضطغان الحفيظة بحيث هزوه أكثر من مرة ، وصرح محبوه بأنه كان يأخذ من اللهو أسمحه . ومن النعيم أبعده عن الاثم .

على أنه — وهذا أغرب — كان يرى أن ارضاء العامة ومصانعة بعضهم مصانعته للكثير من الأشراف والأغنياء يحفظه من كل ما يعصف به . وتطبيقا لهذا المبدأ الثانى ، وهو « أرض العامة تأمن شرهم » وقد اقتضاه التوسع فى مخالطة الأفاقين والمغامرين والشطار نجح فى توطيد مركزه ؛ وأفاد من ناحية أخرى تعلم لهجاتهم — وكانت به خاصة اتقان اللغات بأقصر زمن — وتشرب عاداتهم مدعيا أنهم الأصدقاء الحميمون .

ولم ينكر عمرو فى يوم من الأيام أن حياته تلك بعيدة من الأكدار ، بل انه علي العكس جاهر بها فيما بعد عندما كتب كتبه الضخمة . ولم يشأ أن يخدع أحدا بمثل قوله « اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل » لأنه كان يتبع ذلك بكثير من الاعترافات التى تجعل استعاذته من فتنة القول والعمل مجرد شعار لا طائل وراءه .

واذا كان قد اعتاد بعد ذلك أن يستعيذ من التكلف لما لا يحسن ، فلأن هذا يشكل فى الحقيقة مبدأه الثالث ، وهو

« الصراحة أولا » . وفى حدود تلك الصراحة يمكن أن يقول أى شيء عن أى شيء ، غير أنه يجعل ازاءه تحفظا واحدا هو ألا يظنه أحد شاطرا من الشطار أو نصابا أو مخادعا أو أحد أقطاب الجهجاه الذين كانوا يذهبون الى نصرة الكذب والدفاع عنه !

وعلى ذلك فليقل آراءه الخطيرة فى الشعوبية والامامة ، كما يقول آراءه فى جميع أصناف الناس والأدباء والعلماء دون خشية وبلا اعتبار لما يثيره كلامه من ضغينة أو حسد .

فالشعوبية تطعن على العرب المخصرة فى خطبها وكذلك القنا والقضيب والاتكاء على القوس ، لماذا ؟ وهل يعيب العرب أن كانوا رعاة ابل وغنم ، وكانت رماحهم من مرّان ، وأسنتهم من قرون ؟ وهل نسى الشعوبية أنهم أهل كفر وعبيد ثأر ، وخضعوا للعرب ، ولبسوا الخفاف ، ولم يكونوا أهل بديهة ؟

والامامة لا تصلح الا بالنص والتعيين ظاهرا مكشوفا ، وقد يكون أهلا لها ــ كما يقول سائر المعتزلة ــ كل من كان قائما بالكتاب والسنة . لكن لا يستحقها الا الأفضل ، ولا يجوز صرفها الى المفضول .

والمعلمون والنساء خير رأى فيهم قول بعض الحكماء : لا تستشيروا معلما ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء ، كما لا تدع أم صبيك تضربه لأنه أعقل منها وان كانت أسن منه !

والأصمعى الذى رماه بالقدرية ، وجعل يقول له وهو يمسك

نعله المخصوفة بالحديد : « نعم قناع القدَري » بخيل ويأخذ بالمثّانية .

والنظام — صديقه وأستاذه معا — واش لا يحفظ السر ، مع أنه قال فيه :

حبى لعمــرو جوهر ثابت      وحبــه لى عرض زائل
به جهــاتى الست مشغولة      وهو الى غيرى بها مائل

وأما أبو عمران الذى فتح له بيته وأعطاه من ماله فهو بخيل ، وان يكن هو والكذب لا يأخذان فى طريق ، ولم يكن عليه فى الصدق مئونة لايثاره له ، حتى كان يستوى عنده ما يضر وما ينفع.

الى غير ذلك من الأقوال التى تجاوز الأعلام الى المعالم ، وتصل التجربة بالأخلاق حتى ليصبح البكاء عنده صالحا للطبائع اذا وافق الموضع ولم يجاوز المقدار ، وخير كلام الاماء ما كان لحنا ، وكل عزيز تحت القدرة ذليل .

**٢٠ ـ الى المأمون**

كان فى البصرة علويون ، ورغم أنهم لم يكونوا من الكثرة بحيث يشكلون خطرا كبيرا على الوضع العام للبلد — الذى توزعه سلطان السنة والاعتزال — فقد ألحوا على قضية الامامة الحاحا كاد يودى بالدولة منتهزين فرصة الصراع الذى نشب بين الأمين وأخيه المأمون .

وراح الجاحظ — الذى ظهر من سلوكه أنه يعد نفسه لأن يكون كاتب رسائل يضمنها آراءه لمعارفه وأصحابه تاركا الرواية

لأصحابها من أمثال الأصمعى وأبى عبيدة ـــ يشارك فى القضية مشاركة ايجابية . وكان حريصا دائما على نفض الغبار عن ثيابه كلما اضطر الى الطعن فى على بن أبى طالب ، مع اعلان احترامه له أحيانا وتخطئة من حاربه . واضطر فى كثير من الأحيان الى أن يقول « الشيعة رجلان زيدى ورافضى » وكان يغلب على علوية البصرة الزيدية ، وهم أتباع زيد بن على الذى قتل سنة ١٢٢ ، فى حين غلب الشيعة الرافضة على الكوفة وسموا بالامامية ، وأخذ يردد آراء الأولين ـــ كأنها له ـــ مدعيا أنه انما يريد أن يعرض من الشيعة فى أحسن لبوسهم ، ويذكرهم بخير صفاتهم .

وصادف هذا هوى فى نفس المأمون ، وكان ميزان القوة قد أخذ يرجح به ، كما لم يثر المعتزلة لأن الزيدية كانوا أقرب الفرق الاسلامية الى الاعتزال . فلما انكسر الأمين ، وعقد المأمون للفضل ابن سهل من جبل همدان الى التبت ومن بحر فارس الى بحر الديلم ، وولى أخاه الحسن بن سهل ديوان خراجه [٢١] ، وتلقى بغبطة انتصار قائده طاهر بن الحسين فى الأهواز وواسط والمدائن وصرصر ، كان على الجاحظ أن يجاهر بآرائه تلك وبخاصة أنه أرضى المعتزلة ارضاء كاملا ، وهل لم يكن زيد فى الأصل الا تلميذا لواصل بن عطاء أول المعتزلين ؟

غير أن هذا أوقع الجاحظ برغم كياسته ولباقته فى حـرج التوسط ، فيما درج عليه الحمراء من حب للعلوية ، وآمله أن يتغنى العامة ـــ الذين يؤثرهم ـــ بقول الفضل بن سهل عندما كان المأمون فى خراسان :

ـــ أنت نازل فى أخوالك ، وبيعتك فى أعناقهم .

فأخواله هم الفــرس ، وكان الخراســانيون يشيرون اليه بابن الأخت ، فى الوقت الذى كان الموتورون فيه يصيحون :

ـــ فليقض على بنى هاشم ، فهم سند الأمين !

وأشاعوا أن عبد الملك بن صالح لم يقتله الفضل بن الربيع ، وانما قتله جند المأمون . وبعد حصار طويل فتح الطريق ، وأخذت فلول المحمدية أتباع الأمين تذوب فى السواد . وأقبل على البصرة مئات فيهم الحسين بن الضحاك الخليع يعلن أن أبا نواس قضى وأن العلوية يطلون برأسهم فى عناد ، فثار من ثار فى البصرة . وجاهر بعضهم بغضبه على المأمون . واشتبك بعض آخر فى نقاش كان واحد كالأصمعى ينهيه بقوله :

ـــ والله لن أترك ما أنا فيه من حبى لأرومتى : أما الحمــراء فلن تظفر منى الا بمثل ما أظفرتها به من قبل حتى وان تكن اليوم أخوالا للامام ، وأما العلوية فهم فى مخاصمتى حتى يكفوا .

وعبثــا حاول الجاحظ أن يخفف من غلوائه ، وما أشرف عام ١٩٩ على نهايته حتى كانت الكوفة تشق عصا الطاعة بقيادة ابن طباطبا ، وقتله أبو السرايا ليقيم مكانه ولدا من آل على ، ثم يزحف باسمه على البصرة ويوقع بأهل واسط . ولقد حرص أبو السرايا على أن يستميل الى جانبه البصريين ، فلما أسقط فى يده نكل بهم ، فتوارى أمثال الأصمعى لئلا يلحق بهم أذى علوى أو مأمونى ، فى حين نشط الجاحظ . حتى تصحو البصرة ذات

يوم من سنة مائتين على نبأ يقول : ان أبا السرايا ترك الكوفة هاربا ، فكان لابد أن تعلن البصرة ولاءها لهرثمة بن أعين قائد المأمون . وكان ما أثار دهشة الجاحظ أن يأمر المأمون هرثمة بالقضاء على كل ما للعلويين من نشاط ، وفى ذات الوقت يبايع لعلى الرضا بولاية العهد سنة ٢٠١ .

ولم يجد الجاحظ ما يفعله فى تلك الحقبة الصاخبة المليئة بالتناقض ، الا أن يعود الى أوراقه ينسق الشتيت منها ، عاقدا عزمه على نشر سلسلة من الكتب يتعيش بثمنها . فأصدر « كتاب النساء » و « كتاب اللصوص » سلك فيهما مسلك الرواية ، ولم يلقيا رواجا كبيرا . وفى هذا الوقت وصلته للمرة الثانية دعوة من ثمامة بن أشرس والنظام ليزور بغداد ويتصل بأولى الأمر فيها ، فتردد .

ولكن الدعوة دفعته الى أن يخرج بكتاب « الاعتزال » وأتبعه بكتاب « وجوب الامامة » متجاوبا مع أحداث العصر والبلد ، ومحاولا أن يفصل فى مقالات تلك المشكلة التى تشعبت بين التقديس المتطرف لها وبين انكار القول بوجوبها ثم بيّن القول بضرورة توحيدها والقول بجواز تعديدها . وحينذاك يصدر المأمون أمره الى العلماء بالاسهام العملى فيها ، ويرسل للجاحظ من بغداد أحد أساتذته القدامى — هو أبو محمد اليزيدى المتوفى سنة ٢٠٢ — أن يكتب فى أمر الامامة ويبعث بكتابه أو كتبه الى مرو حيث يقيم المأمون .

وهنا يجد أبو عثمان الجاحظ الفرصة مهيأة أمامه ليصل الى ما تمنى أن يصل اليه . وفى ذات الوقت يستطيع أن يعلق رأيه فى مشكلة العرب والفرس ما دامت النزعة الفارسية شيعية بطبيعتها ، وما دام فى قدرته أن يكشف عن أبعاد هـذه النزعة وقيمتها . ولم يفته بطبيعة الحال أن يبدو عادلا ، فيتنكب طريق الأصمعى التى تصخب بالصراخ ضد الحمراء ويختار طريق المصانعة ناشرا كتابه « فضل الفرس » دون أن يقبل فيه تهنئة أحد ، ورفض أن يتحدث أبو عبيدة بتوفيقه فيه ، وقد أتبعه بكتاب « التسوية بين العرب والعجم » .

ولقد طرح أمر الامامة فى أكثر من كتاب استعان عليها بوراق اسمه أبو يحيى زكريا بن يحيى أسعفه بسرعة يده وجودة خطه ، فأعد « الدلالة على أن الامامة فرض » مستبدلا اياه بكتابه الأول « وجوب الامامة » كما أعد « كتاب الامامة على مذهب الشيعة » و « كتاب الرافضة » و « كتاب حكاية قول أصناف الزيدية » .

وطيرت الكتب الى المأمون ، ولم يكن الا قليل حتى عرف أنها جاءت على ما أمر به بعد أن استشار فيها اليزيدى وقرأها . وهنا أرسل له فشد اليه الرحال مصطحبا وراقه ، فلما مثل بين يديه قال له :

ـــ قد كان بعض من نرتضى عقله ونصدق خبره خبّرنا عن هذه الكتب باحكام الصنعة وكثرة الفائدة ، فقلت له قد تربى الصفة على

العيان ، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة ، فلما فليتها أربى الفلى على العيان كما أربى العيان على الصفة .

وسكت قليلا ، ثم أشار الى كتاب الامامة على مذهب الشيعة وقال :

ـــ وهذا كتاب لا يحتاج الى حضور صاحبه ، ولا يفتقر الى المحتجين عنه ، قد جمع استقصاء المعانى واستيفاء جميع الحقوق ، مع اللفظ الجزل والمخرج السهل .

# الباب الثانى
## شـيخ الكتـاب

### ١ ـ ديوان الرسائل

صحت نية الجاحظ عقب هروبه من بغداد سنة اثنتين ومائتين على اللحاق بالمأمون فى مرو ، بعد أن خلعه عمه ابراهيم بن المهدى وبايع لنفسه وتلقب بالمبارك . وكان من الصعب على وزيره الفضل بن سهل أن يعمل له شيئا على الاطلاق ، وعجز تماما عن أن يجمع له الجموع أو حتى يستميل أقطاب المعتزلة ــ من أمثال ثمامة بن أشرس وأحمد بن أبى دؤاد ــ وطائفة الكتاب التى بدأ يتزعمها محمد بن عبد الملك الزيات مزاحما ابراهيم بن العباس الصولى .

كانت هناك أنباء بعزم المأمون على المقاومة ، وقيل انه استخلف على خراسان غسان بن عباد ، لكن لما وصل الى سرخس ،وصاحب وصوله مقتل الفضل وهو يستحم ، رأى من العبث أن يشارك بأى عمل يقربه من الرجل الذى عقد عليه آماله فى هذه المرحلة من حياته .

وبينما كان ينزل ضيفا على ابن أبى دؤاد قاضى القضاة ــ وقد عرفه به ابنه أبو الوليد محمد ــ فى ضيعته بالمدائن نمى اليه وصول ابراهيم بن المهدى اليها ، فاضطرب وجزع . الا أن الغد

لم يلبث أن أسفر عن عجيب ، ذلك أن ابراهيم تركها فجأة الى العاصمة ، بعد أن جاءته الأنباء بوصول المأمون اليها وخلعه هو عن عرشها . وهنا لم يجد الجاحظ بدا من أن يعاود طرق أبواب القصر من جديد ، لكن سماعه بقيام الفتن فيها قتل فى أعماقه تلك الرغبة فرجع الى البصرة يجرر أذيال الخيبة ويجتر الغصص .

وفى بلده جاءته الأنباء ، ولكن ما الجدوى فيها ؟ وانكب على الكتابة ، ولو نظرنا الى هذه الرسائل المنوعة التى قام بتأليفها على البديهة ، وفى أوقات قصيرة ، لوجدناها كافية لأن تجعل منه رجلا علميا . لكنه كان بعزيمته وحبه للحياة يتمسك بالبقاء ، لا حيث هو وانما حيث يطمع أن يكون . ومن ثم كان حرصه على الاتصال بثمامة والنظام وأحمد بن أبى دؤاد . ومع ذلك كان لا ينى يتساءل : لماذا الحرص على أن يربط نفسه بأثقال حياة معينة ؟ أليس فى أن يعيش مائة حياة متنوعة خير كل الخير ؟

اننى لا أريد المال فى واقع الأمر ، ولكنى أريد مسرات هذه الدنيا مهما تكن الوسيلة اليها . ان الشىء الذى اخال أنى أملكه هو الذى يملكنى فى الحقيقة بحكم تعلقى به ، والموضع الذى أظن أنى قادر على أن أتحرك فيه هو سجنى الذى أعد لكى أموت فيه .

ليس فى الأرض ما يحزب كثيرا ويسرى ، فليكن ما يكون على أن أغدو ــ حقيقة ــ سيد نفسى .. لكن كيف ؟

ولم ينتظر الا انقضاء العام ليعرف الجواب ، فقد أخطر بدخول

المأمون بغداد سنة أربع ومائتين . ووصل الى القصر بدعوة من ثمامة بن أشرس ، تزكيها شهادة الخليفة بدقة كتبه فى الامامة ، وحسن الاشارة عنه من جانب أحمد بن أبى دؤاد . وقد تأكد من انتهاء متاعبه عندما أسكن قريبا من دار ثمامة ، وعرف كثيرا من علية القوم ، وألحق بخدمته قهرمان زنجى وتسرّى بجارية . وعلى الرغم من أن آماله اذ ذاك كانت لا تجاوز اسناد فرع المكاتبات من ديوان الرسائل اليه — حتى وان كان ذلك على حساب سهل بن هارون الذى كان يسعى الى ترك دار الحكمة اليه — فقد مكنت له صلته بالخليفة من أن يخلف على الديوان ابراهيم بن العباس أكثر من مرة فى غيابه ، ثم أنهى اليه رسول ثمامة ذات يوم وهو جالس مع وراقه زكريا فى بيته الخبر الأكبر :

— مولاى أبو معن يقرئك السلام ويهنئك بالديوان على أن توافيه الساعة قبل أن تلقى أمير المؤمنين فى قصر الخلد .

وأسرع الجاحظ الى دار ثمامة ، فاذا هو يخرج بنفسه اليه ويعانقه على الباب ، ثم يأخذ بيده الى الفناء الواسع الذى فرشت أرضه بالبسط الملونة ، وألقيت الوسائد والنمارق حول سماط مستدير الى حيث يكون قريبا من البستان المليء بأنواع الورود والرياحين والفاكهة .

ولم يكن هناك الا ابريق النبيذ وكأسان وطبقان مملوءان نقلا وبقلا ، وقد بدأ ثمامة ، فملأ للجاحظ كأسه ، وعب من الأخرى ثم قال :

— لقد جاءتك طواعية فما ترى يا أبا عثمان ؟

قال الجاحظ :

— ما كان لى يا أبا عثمان فقد أتانى ولكنى أخشى ابن هارون وابن خاقان وابن الخصيب ونجاح بن سلمة وآل وهب ، وكلهم كما ترى يصلح للرياسة وكتب للخليفة ، ومن ورائه جماعة تشد أزره .

قال ثمامة :

— على أنى أراهم دونك وينتقصهم عنك أمير المؤمنين ، وقد ذكر لى أنه اختبرهم فما وجد فيهم مثلك من يجمع لأقطار الكلام ويتمكن فى الصناعة حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة .

فتساءل الجاحظ بقوله :

— والجماعة ؟

فأجاب ثمامة :

— أفتسأل يا أبا عثمان عن الجماعة بعد ما كان من أمر كلامنا عنهم فى مجلس بشر بن المعتمر أمس ؟

ثم خرجا الى قصر الخلد ، وكان مقاما على شاطىء دجلة وموضعه وراء باب خراسان ، ويحوى من العجائب ما يتضاءل ازاءها قصر الذهب الذى بناه المنصور فى وسط بغداد ، وجعل له القبة الخضراء التى ترى من أطراف المدينة البعيدة وتروع بتمثال

الفارس الرامح الذى يتسنمها . وقد صادف دخولهما القصر خروج ابن الزيات وابن أبى دؤاد ، فتبادلوا السلام ، حتى اذا توسطا الردهة التى تفضى الى مجلس المأمون ، قال ثمامة :

ــ بينهما يا أبا عثمان ما لو حمله جبلا طيىء لناءا ، لكن ما يقع بينهما حتى اليوم لا يعدو الوعيد والصخب .

قال الجاحظ :

ــ كأنهما فأران يتحرش كل منهما بالآخر ولا ..

قال ثمامة :

ــ أعرف ما تقول !

وأدخلا على المأمون ، فاذا هو جالس فى صدر البهو علــى سرير من الآبنوس مموه بالذهب وملتصق بحائط زينته النقوش الدقيقة ، وأحمد بن خالد الأحول وزيره الى جانبه وعدة من الخدم الترك يحدقون بهما . وقد أحس الجاحظ على الفور مدى ما يكنه الخليفة لثمامة ، كما لم تغب عنه نظرة الشكر التى ابتعثت من عينى الوزير فقــد كان ثمامة رشحه للمنصب بعــد موت الفضل ابن سهل .

وقد سلّم الجاحظ فأحسن السلام ، فقال المأمون وهو يلتفت الى ثمامة :

ــ ينحى قليلا يا أبا معن حتى يسكن روعه وواصــل أنت ما انقطع من حديثك عن الاستطاعة !

فقال ثمامة :

ــ يا أمير المؤمنين خير من يقوم بذلك أبو عثمان هذا ، وقد شرفت برئاسة أعمال الديوان وما عليه الا أن يتحدث فى ذلك ليرينا كيف يكون الشكر منه .

**٢ ـ أيام الديوان الثلاثة**

لا مناص من الاعتراف بواقع لا حيلة له فيه ، وهل فى وسعه أن ينكر أنه غير راض على رغم ظفره بالمنصب الرفيع . لقد وجد أعوانه من الكتاب فى خلق حلوة وعلى تظرف أهل الفهم ، وبدا على كثير منهم وقار العلماء ، فجاذبهم الحديث وامتحنهم فوجدهم كالزبد يذهب جفاء .

فعلام أغبط نفسى ؟

وأى غناء فيمن سألته سؤال الامام لأبى معن ، فأجاب اجابة العوام ، أو اجابة مخالفينا فى القدر .. هل تعرف فى كتاب الله تعالى أنه يخبر عن الاستطاعة أنها قبل الفعل ؟ فلم يتذكر حتى قوله تعالى : « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وانى عليه لقوى أمين » وبعضهم قال : سئلت أن تخبر عن الله فأخبرت عن عفريت لو كان بين يدى لبزقت فى وجهه ! وكان على أن أقول لو كان مثل هذا القول كفرا وافتراء على الله ومغالبة وتفويضا للمشيئة الى نفسه ، لكان سليمان ومن حضره من الجن والانس أحق بالانكار . بل لم يكن العفريت فى هذا الموضع هو الذى يسرع فيه ويذكر الطاعة ولا يتقرب فيه بذكر

سرعة النفوذ ويبشر فيه بأن معه من القوة المجعولة ما ينهيأ لمثله قضاء حاجته فيكذب ، ثم لا يرضى بالكذب حتى يقـول قولا مستنكرا ويدّعى قوة لا تجعل له ، ثم يستقبل ـــ بالافتراء على الله تعالى والاستبداد عليه والاستغناء عنه ـــ نبيا قد ملك الجن والانس والرياح والطـير وتسـيير الجبـال ونطق كل شيء ، ثم لا يزجره ، فضلا عن أن يضربه ويسجنه ، فضلا عن أن يقتله[٢٢].

عجبا لك ، فان الله تبارك لم يجعل ذلك القول قرآنا ويترك التنبيه على ما فيه من العيب الا والقول كان صدقا مقبولا ، وقد سمعه رسول الله وتلاه على الناس ـــ وما زالوا يتلونه فى مجالسهم ومحاريبهم ـــ أفما كان فى جميع هؤلاء واحد يعرف معرفتك أو يغضب لله تعالى غضبك ؟

وفى اليوم الثانى أراد أن يمزح وكان قد أدخل عليه أبو العيناء الذى اصطفاه ضمن من اصطفى من أصدقاء بغداد ، فأسر الى حاجبه أن يصل به الى حيث لا يستطيع خروجا أو رجوعا اليه . وبعد ساعة من المحاولات الفاشلة صاح أبو العيناء وكان أعمى :

ـــ يا أبا عثمان قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك !

وتسامع بالنبأ ندماؤه وأصدقاء اللهو ـــ السدرى والجماز والتمار وأبو هفان ـــ فقالوا :

ـــ ألم يقرأ فيما يقرأ : اذا ارتفعت فلا تنس وضاعة أصلك ؟

ـــ ها أنذا محسود ، وأعيّر بما كنت أعيّر به غيرى . فالأيام دول واليوم اذا كان لى فلا ندرى أين الغد منا ، وان كنا نخوض

فى القدر على ما نريد ويريد أبو اسحاق والعلاف وثمامة وبشر ومعبد . معاشر الكتاب ما أعلم أهل صناعة أكثر الى التقاطع عند الاحتياج منكم ، وأنا فى ذروة الزهد فى التعاطف عند الاختلال . وانه ليبلغنى أن رجلا من القصابين يكون فى سوقه ، ويتلف ما فى يديه يخلى له القصابون سوقهم يوما ، ويجعلون له أرباحهم فيكون بربحها منفردا ، وبذلك يسدون خلته ويجبرون منه كسره .

وفى اليوم الثالث دخل عليه عمرو بن مسعدة ثم عمر بن فرج ونجاح بن مسلمة ، وقالوا ما قالوا . وسمع الجاحظ فأحسن السمع ، واذا كل أهل الديوان ذوو فضل وعلم وأخلاق . ولما خرجوا دخل عليه أحمد بن عبد الوهاب وهو من رفقة محمد ابن عبد الملك الزيات وأحد الشيعة المتطرفين الذين يقولون بالمناسخة والرجعة ، وقد قدم الجانب الآخر من الكتاب هابطا بسهل بن هارون الذى ينفس على الجاحظ مركزه ومنتقصا من ابن أبى دؤاد الذى يقحم نفسه فى زمرة هى منه براء ، ومشيدا بابن الزيات الذى لا يمكن أن يجاوز درجته هو ، وبعد ذلك حيا وأفاض عليه مما يراه أهلا من ثناء هو من نعيم الدنيا ، فقال الجاحظ :

— حمدا لله طعمنا حتى بشمنا .

قال أحمد :

— لا يا أبا عثمان ، والا فلمن الحجى ، وسداد الرأى ، والجرثومة النبيلة والنسب الأصيل ؟

قال الجاحظ :

ــ فقد رأيتك أطنبت باحمادى وحكست بفضلى على نحو ما فعل بعض أغثاث شعرائنا بالبصرة . أتدرى ماذا كان من أمره ؟ دخل يوما على رجل من أشراف الوجوه يطعن فى نسبه فقال « انى مدحتك بشعر لم تمدح قط بشعر هو أنفع لك منه » قال « ما أحوجنى الى المنفعة ولا سيما كل شيء منه يخلد على الأيام ، فهات ما عندك » فقال :

سألت عن أصلك فيما مضى ... أبناء تسعين وقد نيّفوا
فكلهم يخبرنى أنه ... مهذب جوهرة يعرف

فقال له : « قم فى لعنة الله وسخطه ؛ فلعنك الله ولعن من أجابك » .

قال أحمد كالمستنكر :

ــ فأنا كهذا الغث اذن يا أبا عثمان ؟

قال الجاحظ :

ــ لا أعرف والله ، غير أنى لست ممدوحه على أى حال !

قال فى صفاقة :

ــ أنت وفقك الله فوق الظنة وعلى أكثر مما تصف ، الا أن يشاء شانئوك الطعن فيك ؛ والانتقاص من قدرك ، مدعين أنك لا تجيد الا أبعاضا شتى .

قال الجاحظ :

ــ ألم يدروا أن من الأبعاض يلتئم الكل ، والكل أشكال ؟

ولست أدّعى رحمك الله الاحاطة بكل الأشكال ، لكن من عجز عن نظم البعض وعن وضعه فى مواضعه كان عن بلوغ آخره وعن استخراج أى شىء فيه أعجز ، والمتح أهون من الاستنباط والحصد أيسر من الحرث . ألا دعنى أذكر أن هذا الباب ان فتح صعب اغلاقه ، فثمة من هو أكثر منى رواية أضعافا ، وأجود منى حفظا بعيدا وأوسع علما وأتم عزما وألطف نظرا وأصدق حسا ، وأغوص على البعيد الغامض وأفهم للعويص المتمنع ، ولكن الجلوس اليه ها هنا هو الأمر المعجز . وانى والله لتارك هذا المجلس لغيرى ممن يكتمل فعله وقوله جميعا ، ان كنا قصرنا فجئت تذكرنا بالكمال ، وهو المحال . وما أشك أن عند الوزراء فى ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء ، وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء ، وعند الأنبياء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الأنبياء . وقد أردت أن لا أكون واحدا من هؤلاء شئت أو لم أشأ ، لأن الذى عند الله أكثر ، والخلق يا ابن عبد الوهاب عن بلوغه أعجز !

واتنفض خارجا ، ولم يعد الى مجلسه هذا بعد ذلك قط . أما المأمون فقد عجب ، ولكنه قال :

ـــ لا شك أن قل شهداؤه وكثر خصماؤه .

فى حين أقبل الكتاب بعضهم على بعض يتخاشنون ويتلاومون ، وقال قائل فيهم :

ـــ خلت الحلبة . .

وأعلن سهل بن هارون أسفه ، ولكنه أضاف قائلا :

ـــ طالما قلت : انه ان ثبت فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب !

## ٣ ـ العجلة تدور

ازداد اعجاب المأمون بالجاحظ ، وبه فتن هذا الرجل وسعى من أجله فى المجالس . وفى الوقت نفسه راح يسجل كل ما قيل عنه أو يحفظه ، ناقلا عن الجميع .. يستوى فى ذلك خصومه وملازموه ، وان يكن نقله عن ثمامة وسهل بن هارون أعم . وكان عام عشرة ومائتين من الأعوام الحاسمة فى حياته ، فقد شهد له أمير المؤمنين فيه بالفضل على الجميع ، وحضر حفل دخوله ببوران بنت الحسن بن سهل وظفر منه بجارية أديبة أريبة ـــ وهذا شيء لم يقع لأحد ـــ وتخلى عن ضيعة سميت له عندما نثر ابن سهل رقاعا على المدعوين ، وفيها أسماء الضياع التى أزمع اهداءها لعلية القوم فى يوم الزفاف .

ولم يلبث غير قليل حتى كان من القلة التى حضرت محاكمة ابراهيم بن المهدى الذى بايع لنفسه بالخلافة ، ثم هرب حتى قبض عليه متنكرا فى زى امرأة وأدخل على الخليفة [٢٣] وجلس هو الى جانب ثمامة وأحمد بن أبى دؤاد وابنه محمد وابن الزيات والمعتصم والعباس بن المأمون .

وعلى قدر الحضور تفاوت الزى ، فثمة من كان يضع المبطنة ، وثمة من كان يلبس الدراعة أو القباء ، وفئة من الجند لبست الوشى وأخرى ارتدت القزاكند [٢٤] ، وعلقت الخناجر . وكان ابراهيم بن المهدى يحجل فى قيوده ، الا أنه انحنى طويلا ثم غمغم :

ـــ السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فقال المأمون ، وقد احمر وجهه الأبيض ، وراح يمسح على لحيته المسترسلة :

ـــ لا سلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلأك يا ابراهيم.

ولكنه بعد أن عفا عنه قال فى نفسه « هذا هو الرجل العظيم ، وهذه هى الجسارة التى تسكن له ، حتى وان لم يتحصن من الكوارث كما ينبغى . ولكنها المغامرة التى أعشقها ، والتى يبسم لها أصحاب الجدود . لقد رفعته كما رفعه جده ، ومحال أن أجد الشقاء فى ظل من يرفعه هذان ، لأننى أؤمن بهمـــا ايمانى بأن الغد لى » .

ان آراءه تبـــدو لى أشد أثرا مما يفتى به يحيى بن أكثم وابن أبى دؤاد ، على تفاوت ما فى قلب كل منهما من هوى الى الجماعة (٢٥) والاعتزال ، لكنى حرى أن أشعر بالخوف اذ أتبين ما ينبغى أن يؤديه مقابل جعل عجلة الأيام تدور برغم تنازع القوى.

يجب أن نقدر وندبر .. هـــذا حق ، لكن ليس على طريقة ابن الزيات الذى أحبه وأكره فيه غروره ، وليس على طريقة صديقه ابراهيم الصولى فى الشره والرقاعة ، أو أحمد بن عبد الوهاب فى اللؤم والطيش والجهالة ، أو ..

لكن ما بالى أعود الى أخذ الناس بعيوبهم ؟

اننا لا نستطيع أن نهيمن على الحياة بطريقة أى منهم ، لكننا نستطيع اذا اخترنا أطيب ما فيهم وحددنا الطريق . ولقد هيئت لى السبيل ، وتمكنت منهم يوما فهل ترانى أبتئس لأنى انقطعت ؟

هذا هو العام الحادى عشر يأتى والناس بين مؤيد للعن معاوية وتصويره فى صورة الخارج على الاسلام ، وبين معارض لذلك لأن له صحبة فيكون سبّه بدعة .

وكان الجاحظ يرى أن يسب معاوية كما رآه ثمامة ، وكما أوعز الى أمير المؤمنين أن يراه (٢٦) ، وفى الجانب الآخر وقف يحيى بن أكثم ومعه الوزير أحمد بن أبى خالد ، وأهل السنة ، وعاصفة من الكراهية .

على أى حال أمر المأمون مناديا ذات يوم فنادى « برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير ، أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وكان لابد للجاحظ من أن يشارك فى المعركة ، فأخرج « كتاب امامة معاوية » محاجة عن صنيع الخليفة ، ودعما لرأى ثمامة وتسفيها لرأى النابتة (٢٧) الذين أثارهم استجابة المأمون للمعتزلة .

وقد لا يستبعد مطلقا أن يكون ثمامة هو الذى دفع الجاحظ الى تأليف ذلك الكتاب ويقدمه الى ابن أبى دؤاد ، كما لا يستبعد أن يكون الجاحظ قصد به الى ثمامة نفسه لأنه كتب فى رسالة النابتة « وقد كتبت مد الله فى عمرك كتبا فى مفاخرة قحطان ، وفى تفضيل عدنان ، وفى رد الموالى الى مكانهم فى الفضل والنقص ، والى قدر ما جعل الله لهم بالعرب من الشرف » (٢٨) . وكان أبو معن ثمامة على قمة المشتغلين بهذه القضايا الى جانب اهتماماته بقضية خلق القرآن التى ظل أحمد بن حنبل بطلها الى سنوات !

### ٤ ـ مناقشة

ولا بأس من أن نناقش كتبه آنئذاك ، فان آراءه فيها تبدو عظيمة الحيوية . وهى تمزج بين النظر السياسى والنظر الدينى ، وتوحد بين العقيدة من حيث هى احساس عارم بالقومية ، ورغبة صادقة فى تحقيق فكرة الانسانية . وكم تبدو لنا حياته فى تلك الفترة شيئا معقدا مثقلا بضروب المنافحة اذا ما قورنت بحياة صديقه النظام الذى آثر الكلام ، وكاد يتجنب الأغمار الذين كان يحس أنه مطالب بجمعهم على رأيه فى الاعتزال .

اننا ننظر الى ما قبل والى ما بعد ، ونوازن ونقدر ، وأغلال الحكم تصل صليلا لا ينقطع فى أعقابه كلما حرك قدميه ، أو أمر كاتبه أبا يحيى زكريا أن يكتب . فهو معتزلى وأصدقاؤه معتزلة ، وأمير المؤمنين نفسه « أعظم » من يفكر فيهم ويدبر . لكن اذا كان من الناس من ينكر « فكرتهم » الاعتزالية ـــ وهى شاملة للغاية ـــ فلابد أن يوفقوا أولا بينهم وبين أنفسهم . فثمة عرب ، وهم موزعون بين قحطانية وعدنانيـــة . وثمة مسلمون ، وهم مفترقون على موال وعرب . وثمة بيض وسود وشيعة وسنية ، وبين أولئك فئات وجماعات وزمر وشيع وأحزاب .

أما القحطانية والعدنانية التى أشار الى قضيتهم لمحا فى كتابه « النابتة » ، فقد برزوا فى اطار أدبى لم يخف قط الصراع القبلى الذى لم يختلف فى هذا العصر عما كان عليه أيام الأمويين ، وامتد الى حكم المنصور والمهدى العباسيين .

وأما الموالى والعرب فقد جمعهم فى كتاب واحد ذكره فى الحيوان بقوله : « وعبتنى بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أن القول فى فرق ما بين العرب والعجم ، هو القول فى فرق ما بين الموالى والعرب » (٢٩) . وعنى بوجه خاص بوصف حياتهم ورصد تاريخهم وايراد حججهم بصورة جعلت الموالى دون ما كانوا يتطلعون اليه اذا قيسوا بالعرب ، غير أن الأمر لا يخلو من محاولة ذكية منه استهدفت التقريب بين الجميع على قاعدة اجتماعية عريضة . فلقد « جعل الله المولى بعد أن كان عجميا عربيا بولائه ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيا بحلفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا » .

وهناك كتابان له يسهمان فى المعركة بطريقة ايجابية : أولهما « كتاب الصرحاء والهجناء » والثانى « كتاب فخر السودان » وتبدو القضية فيهما متماسكة الأطراف . ذلك أن الصرحاء هم العرب الخلص والهجناء هم أولادهم من الاماء أو الجوارى — وقد جعل الكتابة عنهما على سبيل المحاكمة ، يدلى الأولون بحججهم ويرد الآخرون عليهم — ولما لم يهيأ للسود الخلّص (٣٠) أن يقولوا شيئا فى الكتاب الأول فقد أفرد لهم الثانى يصولون فيه ويجولون قاصدا الزنج ومن اليهم من سكان النوبة والحبشة فى المحل الأول ، وجاعلا فى المرتبة الثانية أهل السند والهند وسرنديب وزنجبار والصومال ، وبعض قبائل العرب القتم من أمثال بنى سليم بن منصور وأهل الحرة . وسيكون لهذه الجماعات

دورها الخطير فيما بعد ، وذلك عندما تلعب دورها فى الثورة التى نشبت فى منتصف القرن الثالث ، وكادت تطيح بالعباسيين الى الأبد [٣١] .

واذا كان من جدوى بعد أن تقاضته الحياة فى اطارها الواسع — العدنانى والقحطانى والشعوبى — كل ما أنفقه من جهود متفاوتة البواعث ، فجدوى بعث عنصر له مقوماته وتاريخه وأبطاله وشعراؤه المنافحون عنه . فهناك أرياط وأبرهة والنجاشى ، وهناك الأغربة كعباس بن مرداس وعنترة وسليك بن السلكة وبلال والمقداد بن الأسود وسعيد بن جبير ، كما أن هناك من الشعراء من لم ينبه اليهم سوى الجاحظ وهم الحيقطان وعكيم وشيخ ابن رباح . وكأنه راح يشير الى نفسه ممتدحا فيهم خصالا بغض النظر عن سواد لونهم الذى عملت الطبيعة فيه عملها ، وكأنه أيضا كان يطلب من المجتمع أن يدع هؤلاء لكى يعيشوا كما يريدون تطبيقا لمبدئه الذى كان يحرص على احترامه .

ومن بعيد كان يقدم الدليل العملى على أن « الصراحة أولا » هى التى تملى عليه أن يقول كل شىء عن أى شىء !

وما كان له بعد ذلك أن يسكت عن مشكلة « خلق القرآن » وكان يلح عليها صديقه وولى نعمته ثمامة بن أشرس . ونطالع فى كتاباته أنه اضطر الى أن يواجهها بصراحته المعروفة ، لكن بدأ بها مجرد مراقبة لهذا الشيخ الذى كان يقعد فى المسجد الجامع ببغداد — هو ابن حنبل — ويهاجم كل عالم يستعين بالعقل والقياس

فى المسائل الاعتقادية ، مركزا أولا على الحارث بن أسد المحاسبى الزاهد المتصوف ، ثم متطرقا الى نقد محاولات أمير المؤمنين أن يعلن القول بخلق القرآن بعد أن اعتنقه رسميا فى ربيع الأول سنة ٢١٢/٨٢٧ ؛ يسنده الى جانب ثمامة أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة .

على أن الجاحظ لم يكن رجل علم ودين فحسب ، وانما كان أيضا رجل دنيا يعرف أنها أبدع ما تكون فى حضن جارية وعلى مائدة نبيذ وبين أمثال التمار والجماز والسدرى من المتماجنين اللاهين .

وهو يؤكد أن « الجميع » مثله .. حتى الخليفة نفسه ، وهذا السنى المتزمت — يعنى ابن أكثم — يرفض الا أن يجعل كاتبه زيد بن أيوب قوادا ، فى حين كان النظام يصرح — وقد أصبح العلم فى الاعتزال — أن معاشرة الغلمان لا تهبط بقدر الرجل قط !

واذن فليكتب فى هذا الجانب اللاهى الطريف . وفى سنة خمس عشرة ومائتين يضع « كتاب المقينين والغناء والصنعة » فى صورة رسالة (٣٢) تنقسم قسمين : أولهما فى دفع اتهام الخصوم — عنه بصفة خاصة — والثانى : فى بيان مزايا القيان وصناعة التقيين ، موضحا كثيرا من حياة المقينين المؤثرين للذة ؛ ومحددا أبرز العلاقات التى تنشأ عادة بين القيان ورواد دورهم من الربيطين .

ولم يكن الجاحظ بحاجة الى أن يقول « فوضعنا فى كتابنا هذا حججا على من عابنا بملك القيان ، وسبنا بمنادمة الاخوان وتقم

علينا اظهار النعم والحديث بها » لأنه هو نفسه كان يجاهر بحقه فى أن يعيش دون أن يجعل لاستقباح الناس واستحسانهم سبيلا الى منعه من نعمة متاحة ، وبخاصة أن « كل شيء لم يوجد محرما فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمباح مطلق » ولم نعلم للغيرة فى غير الحرام وجها ، ولولا وقوع التحريم لزالت الغيرة ولزمنا قياس من أحق بالنساء فانه كان يقال : ليس أحد أولى بهن من أحد ، وانما هن بمنزلة « المشام والتفاح » الذى يتهاداه الناس بينهم !

ومع كل هذا فقد كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، وتزوج الحسن بن على حفصة ابنة عبد الرحمن ، على الرغم من أن المنذر بن الزبير كان يهواها ، وكان معاوية يأتى بالجارية فيجردها من ثيابها بحضرة جلسائه ، ونظر المأمون الى سكر فاحتال حتى وقع عليها ثم خلى سبيلها ، مع أنه دفع فيها عشرة آلاف درهم .

تلك هى الخطوط العريضة لشخصية الجاحظ الشهوان .. جريئة مقدامة ، ولا تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل أن يشيخ ويتحمل مسئولية رجل العلم والدين والأخلاق . وربما لا يبدو فيها حكيما ، غير أنه يكشف بوضوح عن أن أيامه فى بغداد غدت مهرجانا صاخبا ـــ لعله كان أشد مهرجانات بغداد ـــ قصبة اللهو والبذخ والجوارى والنبيذ ـــ تبذلا . ولكنه نجح فى أن يظهره برصانة يحدها المنطق ، وتتراءى لعيوننا أشباح القيان والربيطين

والمقينين فى مظهر مشروع ، على أساس الفكرة التى تقرر أن تجارة الرقيق من التجارات القانونية التى تقع عليها المساومات والمشاراة بالثمن ، ويحتاج البائع والمبتاع الى أن يستشفا « البضاعة » ويتأملاها تأملا بينا .

وأنا يا هؤلاء المستمتعين بالنعمة — من أمثال موسى بن اسحق بن موسى ومحمد بن خالد وعبد الله بن أيوب وأبى الخيار وأبى الرنال ومحمد بن هارون كبة — مبين لكم الحسن وأساليب مكالمة القيان ومفاكهتهن ومغازلتهن ، وكاشف أيضا عن الحب والهوى والمشاكلة والالف (٣٣) ، وله ابتداء فى المصاعدة ووقوف على غاية ، وهبوط فى التوليد الى غاية الانحلال ووقف الملال .

قد تقولون عنى متبجح مدع مغرور ، ولكنى أصدقكم كل شىء . فلى نظرى وخبرتى الطويلة التى تطالبنى بأن أقول لكم مثلا : ان عشق القيان — على كثرة فضائلهن — آفة ، وان اللذات كلها انما تكون بالحواس ، ولا شىء بعد ذلك كما يزعم المتصوفة والنساك !

٥ ــ رحلة جديدة

وفى البذندون — وهى قرية بينها وبين طرسوس يوم — قضى الجاحظ مع أمير المؤمنين المأمون آخر يوم فى حياته ، وكان لثمان خلون من رجب سنة ثمانى عشرة ومائتين ، وتناول معه فيه بالتعليق على عملية امتحان القضاة والشهود فى خلق القرآن ، وامتناع ابن حنبل من التسليم بذلك والقاء القبض عليه .

ثم انسحب بعد أن دخل المعتصم ليأخذ قسطه من الراحة مع أخيه على ضفة النهر ويأكلا من رطب جيء به اليهما على عجل . وكان قد أعد عدته ليعود الى بغداد ، بعد أن تاق اليها وزهد — على حبه للرحلة — فيما اعتاد أن يراه كلما خرج مع الخليفة غازيا أرض الروم أو زائرا الثغور .

ان الشيخوخة تسلمه الى شيء من الفتـور ، ولكنه فتور سرعان ما يزول اذا أطلق لنفسه العنان فاستمع الى الغناء ، واحتضن القيان ، وأنشد الشعر ، وروى النوادر التى كان يتفنن فى عرضها . وربما اضطر أحيانا الى مخاشنة رفقائه ، وكان هؤلاء يسكتون عنه خشية سلاطته وسرعته الى التهكم ، سئل أبو هفان ، وقد طال تعريض الجاحظ به « لم لا تهجوه وقد ناد بك وأخذ بمخنقك ؟ » فقـال :

— أمثلى يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست الا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة .

وقبل أن يموت سـهل بن هارون بأيام قال له صديقه مع ابن زياد « يعيبك هذا الجاحظ فى المجالس وتسكت عنه ؟ » فقال :

— والله لئن أجبته لجاوز ما أقول المجالس الى الدفاتر ، فنال اذن من الشيبة وأضاع الهيبة .

لكن ماذا يفعل ؟

انه يريد شيئا لم يقــدر عليه أحد . ليس للمنصب الرفيع أطمح . فأنا لا أزال كما كنت ، وكل ما جد من حالى اليوم أنى بدأت أخاف . وأعوذ بالله من الضعف وما يجر من المطامع الدنية ، والهمة القصيرة ، ومن ابتــذال الحرية ، وان نفسى والله أبيّة ما سقطت وراء همة ، ولا خذلها ناصر عند نازلة ، ولا استرقها طمع رخيص .

ولكن فى هذه السن .. سنى أنا أطالب الكبير ، فما عساه يكون ليرضى أمير المؤمنين ويغبط به هذه الطغمة الملتفة حوله ؟ وقبل أن يأتيه الجواب صاح صائح :

ــ أمير المؤمنين محموم .

ونقل المأمون وهو نصف متيقظ ، وزاره طبيبه المرافق له ــ وهو أبو زكريا يحيى بن ماسويه ــ ووصف الدواء . ولكن لم تكد شمس اليوم تغيب حتى كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يوصى لأخيه المعتصم .

لقد جــرى كل شىء بسرعة ، وكان وصــول الجاحظ الى دار الســلام يوم مبايعة المعتصم وهو يشعر بمرارة حقيقية ، ويتوجس خيفة من هذا الخليفة المربوع الذى حمل ذات يوم بابا من حديد يزن سبعمائة رطل وخمسين ، وفوقه عدل فيه مائتا رطل وخمسون . وعندما شغب عليه الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون ود لو تم الأمر للعباس ، ولكن الخليفة الجرىء واجه الجند

بابن أخيه فانصاعوا له (٣٤) . وماتت رغبة لم تكد تولد حتى وئدت مسرعة .

غير أن ما تعاقب من أحداث دل على أنه كان أكثر تشاؤما مما ينبغى ، بل دل على خطأ التشاؤم بوجه عام . فقد استمر كل شيء كما كان وان يكن وزر الفضل بن مروان ، وظلت سياسة الدولة واتجاهاتها الدينية وقضاياها الفكرية قائمة على القواعد التى أرساها المأمون . واذا كان ثمامة بن أشرس قد مات فقد أصبح رجل القصر أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ، وعلت مكانة ابن الزيات الذى كان الجاحظ يجله ويروى شعره فى مجالسه الخاصة والعامة .

وقبل أن ينتقل الى سامرا وقعت الجفوة بينه وبين النظام ، وكان هذا قد بدأ ينفس عليه التفاف الناس حوله ومناقشته آراءه وتزيده عليها أو انتقاصه منها أحيانا ، وربما شعر بأنه بعد أن تشرب الاعتزال وحفظ أصوله وشعّب فيها وفرع أصبح خطرا عليه لما يمتاز عنه بنصاعة البيان وسرعة اللسان . والعجيب أنه كان فى الوقت نفسه يشكو « هجر » صديقه له وانصرافه عنه الى فلان وفلان .

ولا تتحدث المصادر عن حقيقة ما كان بينهما ، غير أننا اذا تعجلنا وقلنا ان عام ٢٣١ ــ وفيه مات النظام ــ لم يكن النهاية الحقيقية للعلاقة بين الصديقين لم نخطىء ، كما لا نخطىء حين نزعم أن التنافس القديم الذى خمد سنوات عاد عارما أيام

المعتصم ، وبخاصة عندما أصبح الجاحظ شيخا من شيوخ الاعتزال له مريدوه ، ينتقلون اليه فى سامرا حيث يجتمعون به فى داره التى كانت تلاصق دار ابن الزيات .

ولكن علاقته بهذا الرجل تلفت النظر ، فقد طغت على كل علاقاته الأخرى ، وربما كانت أحد مبررات شكوى النظام . وكان ابن الزيات نفسه قد وصل بسرعة الى الوزارة — بعد أحمد ابن عمار الذى خلف الفضل بن مروان ، واستقبح منه المعتصم جهله فعزله — من النماذج التى يرتاح اليها الكثيرون . فهو عالم وأديب وشاعر وسياسى ماهر ومفكر طموح ، تولى أولا ما كان يتولاه للمأمون من عمل « المشمس والفساطيط وآلة الجمازات » ثم كتب فى القصر مصاحبا لعمرو بن مسعدة وابن خاقان وابراهيم ابن العباس ، ولما جاء أبو عثمان المازنى بغداد راح يقول كلما اختلف تلاميذه فى احدى مسائل النحو : « ابعثوا الى هذا الفتى الكاتب — ابن الزيات — اسألوه واعرفوا جوابه » .

اننا لا نلبث أن نرى الجاحظ فى ركاب ابن الزيات ، حتى فى ساعات سخطه ، وكان هو فى الواقع حاد المزاج متقلب الهوى ، يرضى فيصل الى أقصى درجات الرضى الكامل ، ويسخط فينتهى به السخط الى الحقد المدمر .

وفى هذه الفترة — بوجه خاص — تمكن من أن يصل الى الشىء الذى لم يقدر عليه أحد ، وطالما بحث هو عنه ، وعرف أنه لابد أن يكون سفرا عظيما ، يسكت به جماعة الكتاب . وقبل أن

يسلى على وراقه « كتاب البخلاء » ملأت الدنيا كتيباته التى اعتاد أن يبعث بها الى معارفه وفيها يثير ما يثير من القضايا ويبسط ، ما جعله شيخا للكتاب .

٦ ـ مدح التجار

ـ ما رأيك يا أبا عثمان فيما صنع أمير المؤمنين بابن حنبل ؟

وتطلع الجاحظ الى عينى ابن الزيات ، كأنه يريد أن يستشف ما وراءهما ، ثم قال :

ـ لقد أوجع أبا عبد الله قاضى القضاة ، والسعيد يا أبا جعفر من وعظ بغيره .

قال ابن الزيات :

ـ فأنت اذن كاره اطلاقه واطلاق الهدايا له .

قال الجاحظ :

ـ بل معجب به ، فانه لما ضرب سوطا قال باسم الله ، وفى الثانى قال : لا حول ولا قوة الا بالله ، فلما ضرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق وهذه فرية ، فلما ضرب الرابع قال : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » . ويروون أن تكة سراويله عندما قطعت لم تظهر عورته لأنه رفع رأسه الى السماء وقال : اللهم انى أسألك باسمك الذى ملأت به العرش ان كنت تعلم أنى على الصواب فلا تهتك لى سترا !

قال ابن الزيات :

ـــ مالهذا قصدت يا أبا عثمان ، ولكنى سألت رأيك فيما صنع أمير المؤمنين بأحمد ؟

قال الجاحظ :

ـــ هذه حكاية قديمة يا أبا جعفر .

فقال ابن الزيات :

ـــ انها اليوم تتكرر أو مثلها يحدث ، فما رأيك ؟

فقال الجاحظ :

ـــ أرضى العامة وأغضب متكلمينا ، على أننى أزعم أنه على فضله لا يدرى من العلم الا أندره ، وما حمل الناس على القول بخلق كتاب الله الا لأن أخاه رحمه الله أوصى اليه بذلك .

قال ابن الزيات :

ـــ ونفخ به فى أذنيه أبو عبد الله وزمرته .

قال الجاحظ :

ان ابن أبى داود على حق .

قال ابن الزيات :

ـــ هو والله من فقهاء السوء .

قال الجاحظ :

ـــ ليس أكثر سوءا من ابن أكثم يا أبا جعفر .

قال ابن الزيات :

ـــ أعرف رأيك فى الحاشية يا أبا عثمان ، وكلهم من جلة الكتاب ، فلماذا ترفعه عليهم وفيه نعومة الأفعى وبفمه سمها ؟

قال الجاحظ :

أشار على المعتصم بك للوزارة ، فلماذا تنفر منه وتعاديه ، وتريدنى على أن أتحول عنه ؟

فأجاب ابن الزيات بحدة :

ـــ لتحوله عن الجادة ، وسيفعل بنا الأفاعيل اذا لم نصده ونقصده بسهامنا .

قال الجاحظ :

ـــ والله يا سيدى لا أدرى ، ولكننى أنصح بالريث ، وان يقظة الفهم للواعظ مما يدعو النفس الى الحذر من الخطأ ، والعقل الى تصفيته من القذى .

قال ابن الزيات :

ـــ مرحى مرحى .. هذا كل ما نظفر به منك ، ولكنى أطلب منك الساعة أن تختار واحدا منا ، ووالله من لم يكن من خاصتى فهو عدوى حتى تقوم الساعة .

فقال الجاحظ بهدوء :

ـــ اننى أختارك يا أبا جعفر ، ولكنى أزعم لك أنك كثّرت شانئيك ، ومنذ احتجبت دون الناس ولم تأذن للضعيف منهم حتى ينبسط لبيانه تنهشك ألسنة يعلم الله أنى أريد قطعها بيدى قبل أن يقطعها سيفك .

قال ابن الزيات

ــ وماذا تنتظر من طغمة ساءها قعودى هـذا المقعـد ، وقالت يتولانا تاجر يبيع الزيت ، وقد ربينا نحن فى الديوان كما ربى آباء لنا من قبل ، وأمس فقط وصلتنى رقعة فيهـا هذا الشعر الذى أهجى به قاله ابن أبى دؤاد الكبير :

أحسن من خمسين بيتا سدى    جمعـك اياهنَّ فى بيت
ما أحـوج الناس الى مطرة    تذهب عنهم وضر الزيت !

وكان فى مجلس ذم فيه التجارة ، وامتدح أعمال السلطان .

قال الجاحظ :

ــ فليقل ما شاء أن يقول ، وأما أنا فسأجيب عنه فى كتاب يصفنا وقد كنت تاجرا أيها الوزير بما نحن أهل له من كريم الخصال .

وانصرف مسرعا الى داره القريبة وعاد فى الغد ومعه « رسالة مدح التجار وذم عمل السلطان » ولم يشرع فى قراءتها الا بعد أن تساءل :

ــ من فى الديوان يا أبا جعفر ممن تراه جعلته هدفا لى ؟

قال ابن الزيات :

ــ عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وابنا المدبر ، ومحمد ابن الفضـل الجرجرائى ، وابراهيم الصـولى ، وابنـا وهب وابن الخصيب ، و ....

قال الجاحظ : ربما اختلفنا بعض الشيء ، ولم أذكر اسما واحدا على أى حال ، ولكنى وصفت خصومنا بأنهم من حشوة أتباع السلطان ، وسيشعر كل من يقرأ كتابى من المقصود وغير المقصود بما أقول :

وراح يقرأ الرسالة . فاذا ثمة فئة فتقتها الفطنة وأرهفها التأديب تعترف بفضيلة التجار لأن فى محيطها نشأ الاسلام « وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه من عباده ، والمؤتمن على وحيه من أهل بيت التجارة ، وهى معولهم وعليها معتمدهم » . وقد كان الرسول نفسه تاجرا ، فعلى أى شيء يعتمد هؤلاء الكتاب وأصفياء الخليفة فى مخاصمتهم لنا ، وهم شعوبية ؟ أعلى الماضى ؟ وهل لم يجدوا فى ماضينا نحن التجار من سبق الى الفضل والعلم والأدب ؟

ومن ناحية أخرى نرى أن أكثر وجوه المعتزلة تجار ، فمحال أن تجد هذه الحاشية فينا ما يشين ، وما قالت هذه ما قالت الا حسدا وحقدا . مع أن الأولى بها أن تكون أحرص على الصلح بين الناس ، مادامت تتولى أمر الناس .

### ٧ ــ الواثق

بعد هذا الكتاب اشتدت ضراوة الحاشية وزاد كيدهم ، وأثيرت العصبية على نطاق جمع وجوه القوم وعامتهم . ولكن ابن الزيات كان من القوة بحيث مضى فى طريقه لا يلوى على

شيء . وأتاح للجاحظ الفرص فكتب « فضل هاشم على عبد شمس » و « كتاب أخلاق الملوك » ليجنب الخليفة وآله ماترششه المعركة . وفى الوقت نفسه جمع اليه قواد الترك ليجعل معظم رجال الجيش خارج الصراع الفعلى ، فألف « كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة » منبها الى أن هذا الجنس أصبح قوة يحسب لها ألف حساب ، وبخاصة بعد أن أقصوا عن بغداد وكونوا طبقة تمتاز بالقوة والصرامة والجراءة . ولا تعرف « الملق ولا الخلابة » ، ولا النفاق ولا السعاية ، ولا التصنع ولا النميمة ، ولا الرياء ولا البذخ على الأولياء ، « ولا البغى على الخلطاء » وهذه كلها صفات معروفة فى عمال الدولة وكتابها وأمرائها من غير بنى هاشم .

ولما كانت ماردة أم المعتصم تركية ، وكان هو يميل بهواه الى الترك فقد حرص الجاحظ — وكأنه أحس أن الكتاب لابد واصل لأمير المؤمنين — على أن لا يذكر سوى فضائلهم . وأما نقاط الضعف ومواطن الغمز ، فقد ضرب بها عرض الحائط ، مذكرا اياه فى الوقت نفسه بضرورة التنبه اليهم وبما ينبغى أن يكون عليه موقفه ازاء سائر الأجناس « من الحلم فى موضع الحلم ، والعفو فى موضع العفو ، والتغافل فى موضع التغافل ؛ درءاً للفتنة وايثارا للسلامة » .

واذ أصبح ابن الزيات فى مأمن من الغارة راح يضرب بعنف وبلا شفقة حتى أصبح يردد بين حين وحين « الرحمة خور فى

الطبيعة » . وجعل تنورا من حديد وبه رؤوسها الى الداخل يعذب فيه من يوقع به ، متذرعا بأنه لا يفعل ذلك الا ليحفظ للدولة كيانها وهيبتها .

وبلغت به الجرأة حدا كان يراجع فيه الخليفة . ولقد طلب اليه ذات يوم أن يعطى ابنه هارون الواثق عشرة آلاف ألف درهم يستعين بها على أموره ، فدافعه مدافعة متصلة أحوجته الى أن شكاه لأبيه المعتصم ، فأنكر هذا عليه تأخير المال فقال :

ـــ يا أمير المؤمنين ، العدل أولى بك وأشبه بعقلك ، ولك عدة أولاد ، أنت فى أمرهم بين خلتين : اما أن تسوى بينهم فى العطية فتجحف ببيت المال ، واما أن تخص بعضهم فتخيف على الباقين .

فقال له :

ـــ قد رهنت لسانى بشىء ، فماذا أصنع فيه ؟

قال :

ـــ تأمر لباقى أولادك بأشياء أخر من اقطاعات وصلات ، وتطلق لهارون صدرا من المال وتدافعه بباقيه ، وتتسع أنت قليلا ، وتدبر الأمر بعد ذلك بما يراه أمير المؤمنين .

فقال له :

ـــ وفقك الله ، فما زلت أتعرف الخيرات فى رأيك والسداد فى مشورتك !

وتأدى الخبر للجاحظ ، فقال :

ـــ أتظن هارون يسكت ؟

فأجاب :

ـــ بلغنى أنه قال : ان أفضيت الخلافة قتلنى الله ان لم أقتله .

فتساءل الجاحظ :

ـــ وماذا أعددت لهذا الأمر ؟

أجاب :

ـــ فى بنى هاشم من هو أولى منه بهذا الأمر يا أبا عثمان .

ولكن الأيام لم تمهل أحدا ، فمات المعتصم وبويع لهارون الواثق فى اليوم نفسه الذى ودع فيه أبوه الدنيا ، وكان ذلك لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين . وكان أحمد ابن أبى دواد وراء البيعة ، فآثر ابن الزيات أن يختفى . ولكن حاجة البلاد اليه أبقت عليه ، فقد استدعاه الخليفة الجديد ، ولما مثل بين يديه قال لمولاه وصيف .

ـــ امض الى دايتى وقل لها توجه الىّ بالدرج الذى كلمتها فيه .

فمضى وصيف فوافى بالدرج ففتحه ، وأخرج رقعـــة دفعها الى ابن الزيات فقرأها . واذا فيها بخط يده حلف بعتق عدة

من عبيده ، وحبس عدد من خيله ، وبوقف عدة ضياع ، وبصدقة مال جليل أنه اذا ظفر بابن الزيات قتله ، ولهث الوزير ، ثم قال :

ـــ يا أمير المؤمنين أنا عبد من عبيدك ، فان وفيت بيمينك فأنت محكم ، وان عفوت وصفحت كان أشبه بك .

فنهض الواثق بجسمه العريض الطويل ، وربت عليه قائلا :

ـــ لا والله لا يمنعنى من الوفاء بيمينى الا النفاسة أن يخلو الملك من مثلك .

وأمر بعتق العبيد الذين حلف بعتقهم وبوقف الضياع وحبس الخيل وصدقة المال ، فكان هـذا مازاد فى بطش ابن الزيات . وأخذ ينكل بالكتاب والمستوزرين من أمثال سليمان بن وهب ، وأحمد بن الخصيب ، وابراهيم بن العباس الصولى ، وقد قال هذا الأخير :

ايه أبا جعفـر وللدهر كر ... ات وعمـا يريب متسـع
أرسلت ليثـا على فرائسه ... وأنت منها فانظر متى تقع
لمظتـــه قوته وفيـك له ... اذ تقضت أقـواته شـبع

ومن ناحية أخـرى جعل أحمـد بن أبى دؤاد يغرى الواثق بالايقاع بهذا الطاغية ، وأمر الشاعر على بن الجهم ، فقال فيـه أرجوزته :

هارون يا ابن سيد السادات
أما ترى الأمـور مهمـلات
تشكو اليك عـدم الكفـاة

ولقد هم الواثق بالقبض عليـه ، ولكن عامله اسحاق ذكر للجاحظ أنه قال له :

— أمثل ابن الزيات مع خدمته وكفايته يفعـل به هـذا ، وما جنى عليك ولا خانك ، وانما دلك على خونة أخذت ما اختانوه ، فهذا ذنبه ؟

قال الواثق :

— لقد طغى حتى انه ليتحدث فى ولاية عهدى بما لا أحب .

قال اسحاق :

— ليس ينبغى يا أمير المؤمنين أن تعزل أحدا حتى تعد لمكانه جماعة يقومون عليه ، فمن لك بمن يقوم مقامه ؟ ان كان لابد لك أن تفعل شيئا ، فأصلح بينهما !

قال الخليفة :

— من هما ؟

فأجاب اسحاق :

— الوزير وقاضى القضاة !

## ٨ ـ مزاح وسخرية

كل شيء اذن كان مهيئا لكي يكتب الجاحظ ، ولكن أسلوب ابن الزيات لم يعجبه على الاطلاق ، ولا سيما بالنسبة لموقفه من ابن المدبر وابن العباس الصولى ، ومن ناحية أخرى كان يحرص على التمسك بصداقة أحمد بن عبد الوهاب المتعالم ، وابن الجهم المتشاعر . ولعله آلمه أن يقبض عنه يده شيئا فى أيامه الأخيرة على الرغم من أنه جعل له فى البصرة ضيعة كبيرة مســـاحتها أربعمائة جريب سميت « الجاحظية » والغريب أنه كان يلح عليه أن يكتب أشياء عن البخلاء .

فى هذه الآونة كتب الجاحظ « رسالة الجد والهزل » بعد أن جفاه ابن الزيات ، أو بعد أن كان يتعمد تغافله بصورة جعلتــه أشبه بالاهمال الذى يورث الاغفال ، مما دفع بالجاحظ الى أن يترك سامرا وبغداد ويلزم الجاحظية معلما وراوية وشيخا كبيرا .

وفى الرسالة يصرح بأن ما بينهما لا يمكن أن يكون قطيعة . حقا هنالك خلاف ، ولكنه خلاف قائم على أن ابن الزيات صاحب تناج وصناعته جودة الخط ، وهو صاحب كلام وصناعته جودة المحو .

وابن الزيات كاتب خراجى زرعى ، وهو أمى عشرى نخلى ، وقد «بلغ الآن من جرمى فى مساواتك فى خبز الخشكار ، وايثارى الباقلى ، والمعرفة بتقدير المدن ، واجراء القنى ، أن أنفى من جميع

الأرض ، وأن تجعل فى دمى الجعائل ، فانى قد هجرت الخبز البتة الى مواصلة التمر ، ونزلت الوبر بدلا من المدر » .

لم يقم عداء حقيقى ، ولكن الجاحظ آثر العزلة ، وكأنه أحس أنه أشرف على النهاية . غير أنه كان يأخذ الأمور من وجهها الضاحك ، أو لعله وجد أن خير ما يواجه به الأمور هو أن يسخر منها . وقد انتهز فرصة مرور أحمد بن عبد الوهاب على البصرة فى طريقه الى الحج سنة ٢٣١ — وكان فى حاشية جعفر بن دينار أحد قواد الأفشين فى حرب بابك — فالتحم معه فى ملاحاة كلامية خاشنه فيها ، وكان من نتائجها « رسالة التربيع والتدوير » وفيها جماع رأيه فيه وفى أمثاله الذين طالما ضايقوه وضيقوا عليه ، وفى ذات الوقت تتضمن فلسفته وثقافته ونظرته الى الحياة . فأحمد بن عبد الوهاب من الرافضة المشبهة — ويبدو أنه استأثر بما كان له عند ابن الزيات بعد فراقه — وهو على صلفه وفى بحره الطامى من التيه لا يعرف من أمور الدنيا شيئا ، ولا يفقه فى العلم، ويدعى الحكمة وقول الحق والصواب ، مع أن « الخطأ كثير غامر ، ومستول غالب ، والصواب قليل خاص ومقموع مستخف »

أحمد بن عبد الوهاب هذا مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول ، وهو مربع حتى لتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا . ثم هو جعد الأطراف قصير الأصابع ، ومع ذلك يزعم السباطة والرشاقة ، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد رفيع العماد ، عادى

القامة عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة فى الجسم والسعة فى العلم ، وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد » .

والجاحظ على أى حال لا يرى حقيقة أن خصمه على هذه الدرجة من التشويه الخلقى ، ولكنها السخرية والرغبة فى التهكم والولع بالجدل والسفسطة . وما كان له بعد ذلك أن يغمض عينيه عن تشويه عقله بالقاء الأسئلة أمامه وتركها بدون جواب، عارضا لقضية أصل الانسان وما بينه وبين القرد من تشابه ، ومتكلما عن نظرية اللون ومشكلة انتقال الصوت وعمليتى المد والجزر وأثر القمر فيهما ، وما استفاض من أخبار بعيدة غريبة كأنها الأساطير .

وعلى هذا النحو يقمع مراء هذا المتعالم الصفيق ، ويظهر هو مرنا للغاية ، قادرا على أن يصول ويجول متمكنا من أن يتسع بالحوارين العقلى والنفسى اتساعا شديدا . فاذا هو يقف تارة فى جانب القصر يحتج له ، وتارة أخرى يقف فى جانب الاعتدال ، ثم قد يحتج للطول ويدلى فى احتجاجه بمختلف البراهين. وفى كل ذلك يمد خصمه ويطويه ، ويبسطه ويبعجه ويدوره ، ويتركه فى آخر الأمر مسخا مضطربا مخلطا لا هو انسان ولا هو حيوان ، ولا يفكر ، ولا يحس . وليس فى ذلك أى عجب ، لأن العيون تخطىء والحواس تكذب « وما الحكم القاطع الا للذهن وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل » وهذه أشياء افتقدها ابن عبد الوهاب :

« الناس وان قالوا فى الحسن كأنه طاقة ريحان ، وكأنه خوط بان ، وكأنه قضيب خيزران ، وكأنه غصن بان ، وكأنه رمح رديني، وكأنه صفيحة يمانية ، وكأنه سيف هندوانى ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان .. فقد قالوا كأنه المشترى ، وكأن وجهه دينار هرقلي، وما هو الا البحر ، وما هو الا الغيث ، وكأنه الشمس ، وكأنها دارة القمر ، وكأنها الزهرة ، وكأنها درة ، وكأنها مهاة ! فقد تراهم وصفوا المستدير العريض بأكثر مما وصفوا به القضيف والطويل، وقلت : وجدنا الأفلاك وما فيها ، والأرض وما عليها ، على التدوير دون التطويل ، وكذلك الورق والتمر والحب والثمر ! وقلت : والرمح ان طال فان التدوير عليه أغلب لأن التدوير قائم فيه موصولا ومفصلا ، والطول لا يوجد فيه الا موصولا ، وكذلك الانسان وجميع الحيوان ! وقلت : ولا يوجد التربيع الا فى المصنوع دون المخلوق ، وفيما أكره على تركيبه دون ما خلى وسوم وطبيعته ، وعلى أن كل مربع ففى جوفه مدور . فقد بان المدور بفضله ، وشارك المطول فى حصته . ومن العجب أنك تزعم أنك طويل فى الحقيقة ، ثم تحتج للاستدارة والعرض ، فقد أضربت عما عند الله صفحا ، ولهجت بما عند الناس » .

## ٩ ـ كتاب البخلاء

وفى البصرة ترامت اليه الأخبار ، فلا يزال الكتاب والمستوزرون يشنعون عليه ، وابن الزيات ـــ على ما ذكر له ابراهيم بن السندى بن شاهك الذى يزوره ـــ ودع الأدب الى

تعقب الخصوم ، ولم يعد يتذاكر مع غيره الا عيوبه فيما ألف ، وأما رسالة التربيع والتدوير فلم تفعـل أكثر من اثارة الغيظ والحسد .

وعندما قيل له : ان الحسن بن وهب كاتب ابن الزيات سعى لأبي تمام حتى وافق ابن الزيات على أن يوليه بريد الموصـل ، قال :

ـــ لا يزال الشعر عنده بخير ولله الحمد .

فقد أحس أنه يحبه عندما راح ابن السندى ينشده شعره . غير أنه فجع عندما وصل البريد فى اليوم التالى بموته وهو لم يزل فى الأوج ، وبعدها بيوم واحد جاءه نعى صديقه ابراهيم النظام ، فاستقبله بالصبر الجميل وقال :

ـــ بدأت والله مهمتنا فى الكلام .

ولكنه كان قد شرع فى املاء وراقه أشياء عن البخلاء ، وقرر ان أتمه ليخرج به الى الوزير فنال الجائزة منه أو الموت . وكان عزمه على أن يقدم شيئا لم يقدمه أحد أو لم يقدر عليه أحد حافزا الى أن يتكىء على نفسه ، وان يكن اعتمد أخبارا كثيرة حفظها فى أوراقه . فراح يولد الأقوال ، ويضع الأحاديث ، ويفتن فى ذلك شتى الأفانين . وعلى ما فعل فى « التربيع والتدوير » وفى أكثر كتبه أخذ يحتج ، ويسوق الروايات على لسان بعض من عرفوا بالبخـل ممن عرفهم كسهل بن هارون والأصـمعى والكندى

والثورى والمروزيين . وحرص تماما على الذهاب بحججه مذاهب مختلفة ، فهو يسوقها مرة ، مساق الجد — وان شابتها السخرية — ومرة أخرى يزجى بها فى تهكم مرير .

وبين الأحاديث المسهبة ، والرسائل الطويلة والنوادر المقتضبة ، والقصص الطريفة — حرصا على استجلاب الرغبة ودفعا للسأم والملل — عاش أياما نسى فيها موت ابراهيم ، وأسف المعتزلة عليه ، ثم أعلن أنه أتم الكتاب ، وقد استدعى كاتبه بعد يوم راحة وقال له :

— أما وقد انتهينا من الجسم ، فلنجعل الوجه جميلا ، اكتب يا أبا يحيى : تولاك الله بحفظه ، وأعانك على شكره ، ووفقك لطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته !

وتوقف قليلا وابتسم ، لكنه راح يقدح زناد فكره . أى شىء كان بينهما ؟ وماذا كان يقول له عندما كانا يتذاكران ملح الحرامى ، ويقرءان كلام سهل بن هارون ، ويتناقشان فيما ألف عن سراق الليل ولصوص النهار ؟

— ذكرت حفظك الله أنك قرأت كتابى فى تصنيف حيل لصوص النهار ، وفى تفصيل حيل سراق الليل ، وأنك سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عورة ، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع ، ونبهك عليه من غرائب الحيل فيما عسى أن لا يبلغه كيد ولا يجوزه مكر ، وذكرت أن قدر نفعه عظيم ، وأن التقدم فى درسه واجب .

ومرة أخرى توقف .. فالانسان مجبر على أن يقول الحق ، ومـاذا اذا اعترفت فأرضيت نفسي وأشبعت غـروره ، اكتب يا أبا يحيى أم قد تعبت وأخذتك الشيخوخة :

ــ وقلت اذكر لى نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء وما يجوز من ذلك فى باب الهـزل ، وما يجوز منه فى باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحا والراحة جماما . فان للجد كدا يمنع من معاودته ، ولابد لمن التمس نفعه من مراجعته .. وذكرت ملح الحرامى ، واحتجاج الكندى ، ورسالة سهل بن هارون ، وكلام ابن غزوان، وخطبة الحارثى ، وكل ما حضرنى من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم، ولم سموا البخل اصلاحا والشح اقتصادا ، ولم حاموا على المنع ونسبوه الى الحزم ، ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع ، ولم جعلوا الجود سرفا والأثرة جهـلا ، ولم حكموا بالقوة لمن لا يميل الى ثناء ولا ينحرف عن هجاء .. بالله توقف يا أبا يحيى ، ولكن أليس هو هكذا ؟ هو من الذين يحكمون بالقوة ويهجو ويغيظ .. أكمل يا رجل ! ولم احتجوا لظلف العيش على لينه ، ولمره على حلوه ، ولم لم يستحيوا من رفض الطيبات فى رحالهم ، مع استهتارهم بها فى رحال غيرهم ، ولم تتايعوا فى البخل ، ولم اختاروا ما يوجب ذلك الاسم مع أنفتهم من ذلك الاسم ، ولم رغبوا فى الكسب مع زهدهم فى الانفاق ، ولم عملوا فى الغنى عمل الخائف من زوال الغنى ، ولم يفعلوا فى الغنى عمل الراجى لدوام الغنى ، ولم وفروا نصيب الخوف وبخسوا نصيب الرجاء ، مع

طول السلامة وشمول العافية ، والمعافى أكثر من المبتلى ، وليست الفوائد أقل من الحوائج . بل كيف يدعو الى السعادة من خص نفسه بالشقوة ، فكيف ينتحل نصيحة العامة من بدأ يغش الخاصة ؟

لنتمهل يا أبا يحيى ، فقد توردنا العجلة موارد الهلاك .. لا تتحدث ، دعنى أفكر .. اكتب الآن :

ــ ولم احتجوا مع شدة عقولهم لما أجمعت الأمة على تقبيحه ، ولم فخروا مع اتساع معرفتهم بما أطبقوا على تهجينه ، وكيف يفطن عند الاعتدال له ويتغلغل عند الاحتجاج عنه الى الغايات البعيدة والمعانى اللطيفة ، ولا يفطن لظاهر قبحه وشناعة اسمه وخمول ذكره وسوء أثره على أهله ؟

ان هذا يرضينى يا أبا يحيى ، وقد أثير به من أثير ، ولكن هل تطول الحياة أكثر من هذا ؟ اكتب يا حبيبى :

ــ وكيف وهو الذى يجمع له بين الكد وثقل المرزئة وبين السهر وخشونة المضجع ، وبين طول الاغتراب وطول قلة الانتفاع ، ومع علمه بأن وارثه أعدى له من عدوه وأنه أحق بما له من وليه؟ أو ليس هو أظهر الجهل والغباوة وانتحل الغفلة والحماقة ثم احتج لذلك بالمعانى الشداد وبالألفاظ الحسان وجودة الاختصار ، وبتقريب المعنى وبسهولة المخرج واصابة الموضع ، فكان ما ظهر من معانيه وبيانه مكذبا لما ظهر من جهله ونقصانه ؟ ولم جاز أن يبصر بعقله البعيد الغامض ، ويغبى عن القريب الجليل ؟

ونهض الجاحظ فألقى نظرة على الصفحـــة ، ونصح بالأناة وتجـويد الخط ، ثم عاد فجلس ناشـــطا الى الاملاء . فذكر أن الوزير طلب منه أن يبين له ما الشيء الذى خبل عقولهم وأفسد أذهانهم ، كما أراد أن يسمع شيئا عن « علة خباب فى نفى الغيرة » و « علة الجهجـاه فى تحسين الكذب » و « مذهب صحصح فى النسيان » ولولا أنك تجد هذه الأبواب وأكثر منها مصورة فى كتابى الذى سميته كتاب المسائل لأتيت على كثير منه فى هـــذا الكتاب ، فأما ما سألت من احتجـاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخـلاء فسأوجدك ذلك فى قصصهم ان شـــاء الله مفرقا وفى احتجاجاتهم مجملا ، فهو أجمع لهذا الباب من وصف ماعنـــدى دون ما انتهى الى من أخبارهم على وجههـــا ، وعلى أن الكتاب يصير أقصر ويصير العار فيه أقل .

وسكت مليا ، ثم استطرد :

ـــ ونبتدىء برســـالة سهل بن هارون ، ثم بطـرف أهل خراسان لاكثار الناس فى أهل خراسان ، ولك فى الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة أو تعرف حيلة لطيفة أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت فى ضحك منه اذا شئت وفى لهو اذا مللت الجد .

ان ابن الزيات صارم دائما ، وهو من أجل ذلك فى حاجة الى أن يخفف عنـــه بالضحك . واذا كان من حقه أن ينقـــد الكتاب ـــ وهو لا يستر عنه عيبه ـــ فليس له أى حق فى انتقاصه « ولولا

أنك سألتنى هذا الكتاب لما تكلفته ولما وضعت كلامى موضع الضيم والنقمة ، فان كانت لائمـــة أو عجز فعليك وان كان عذر فلى دونك » .

١٠ ـ على حافة الهاوية

عندما دخل الجاحظ سامرا عرف أن الواثق مات ، وهرع الى دار ابن الزيات مسلما مستسلما فوجده مشغولا فى اختيـــار من يخلف الامام الراحل . وعلم أنه يريد أن يبايع الناس لابنه محمد، وفعلا طلب الدراعة السوداء والقلنسوة له ، ولكن ابن أبى دؤاد أصر على أن يلى الخلافة أخوه جعفر المتوكل .

كان ذلك يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وشـــهد الجاحظ بعينيه كيف أحضر المتوكل ليقوم اليه أحمـــد بن أبى دؤاد فى آل عباس ، ويلبسه الطويلة ويعممه ثم يقبله بين عينيه ، ويقول وابن الزيات يتميز غيظا :

ـــ السلام عليك يا أمير المؤمنين .

وتطلع نحوه المتوكل بسحنته السـمراء وعينيـه الكبيرتين ، وقال :

ـــ وعليك وعلى المسلمين السلام .

وفى الطريق الى الدار قال ابن الزيات للجاحظ :

ـــ أتدرى لماذا استوزرنى أمير المؤمنين ؟

أجاب :

ـــ ومن غيرك يصلح للوزارة ؟

قال :

ـــ ابراهيم بن العباس والجرجرائى وابن خاقان وايتاخ ، ولكن أتدرى لماذا اختارنى ؟

فهز الجاحظ رأسه نفيا ، فقال ابن الزيات :

ـــ ليوقع بى بعد اذ يبين للناس أنى أخطأت وهو خليفة ، وبينى وبينه وهو أمير من أسباب القطيعة ما يكفى لقتل أمة . ولكن دعنا نعش يومنا يا أبا عثمان ولنقرأ كتابك .

وكانت الأيام التالية حزينة ، وان يكن الوزير لم يخف فرحه بالكتاب ، وبعد أربعين يوما دخل ايتاخ على ابن الزيات فى داره ـــ وكان معه الجاحظ يذاكره الروايات ـــ ليقول ان الخليفة بعث فى طلبه ، ولم يمض الا قليل بعد خروجهما حتى عاد ايتاخ فى نفر من الشرط وكبسوا الدار ونهبوها ، وساقوا أمامهم من فيها من غلمان وجوار ودواب ، وقد فر الجاحظ قافزا من فوق سور القصر الى بيته المجاور وهو يصرخ ويده فوق ساقه :

ـــ انها النهاية والله !

وقد أنفق فى بيته أياما مستخفيا علم خلالها أن قاضى القضاة ابن أبى دؤاد هو الذى حرض على ابن الزيات . وطالب بتعذيبه متهما اياه بالكفر وعدم القول بخلق القرآن وعطفه على ابن حنبل وصحبه ، فأدخل التنور الذى صنعه هو لخصومه ، وكان عندما يطلب الرحمة يقول الموكل بتعذيبه :

ـــ الرحمة خور فى الطبيعة أيها الوزير !

وكان محمد بن الفضل الجرجرائى قد ولى الوزارة ؛ فتعقب أصحاب ابن الزيات بعد موته ، ومن ورائه ابن أبى دؤاد يشجعه ويدله عليهم واحدا واحدا . فما كان من الجاحظ الا أن خرج من مخبئه قاصدا الى البصرة ، ولكن قبض عليه ، وأدخل على أحمد ابن أبى دؤاد مقيدا بقيود ثقيلة . فرآه فى جمع من أصدقائه تبين فيهم ابنه أبا الوليد محمدا ، واسحاق الموصلى ، وأبا العيناء ، ومحمد بن منصور ، وكانوا يضحكون . ولم يكد يلق بالتحية فى صوت واهن راعش حتى سئل :

ـــ ولم هربت ؟

فأجاب :

ـــ خفت أن أكون ثانى اثنين اذ هما فى التنور :

وقال قاضى القضاة :

ـــ وما علمتك الا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنيعة ، معددا للمساوىء !

قال الجاحظ :

ـــ قد تصلحنى الأيام يا أبا عبد الله .

فقال :

ـــ والله لا تصلح منك ؛ لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ، وسوء اختيارك .

قال الجاحظ ، وقد بدأ يتماسك :

ـــ خفض عليك أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر علىّ خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسيء وتحسن أحسن عنك من أن أحسن فتسيء ، وأن تعفـــو عنى فى حال قدرتك أجمـــل من الانتقام منى .

قال ابن أبى دؤاد :

ـــ قبحك الله ، ما علمتـــك الا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت لسانك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد » ؟

قال :

ـــ تلاوتها تأويلها أعز الله القاضى .

فتفكر ابن أبى دؤاد ساعة ثم قال :

ـــ جيئوا بحداد .

فصرخ الجاحظ :

ـــ أعز الله القاضى ليفك عنى أو ليزيدنى ؟

فقال :

ـــ بل ليفك عنك .

وتنفس الجاحظ الصعداء ، فلما جاء الحداد وبدأ عمله غمزه اسحاق الموصلى أن يعنف بساقه ، ويطيل أمره قليلا ، ولكن الآلام

القيد ــ ولا سيما على ساقه التى أوجعتــه يوم قفز سور ابن الزيات ــ كانت فادحة ، فما أسرع ما رفع كفه ولطم وجهــه ، وهو يقول :

ــ اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ســاعة . وعمل ساعة فى لحظة ، فان الضرر على ساقى وليس بجذع ولا ساجة .

فضحك أهل المجلس ، بينما التفت القاضى الى ابن منصور قائلا :

ــ أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه .

قال الجاحظ وهو يتحامل على نفسه واقفا :

ــ كنت أعلم أنك لن تأخذ الصديق يا أبا عبد الله !

وقال ابن أبى دؤاد لغلامه :

ــ صر به الى الحمام ، وأزل عنه الأذى ، واحمل اليه تخت ثياب وطويلة وخفا .

فلبس ذلك ، ثم رجع فتصدر المجلس ، وهنا قال القــاضى بمرح :

ــ هات الآن حديثك يا أبا عثمان .

قال الجاحظ :

ــ ان كان لابد فاجعله ايجابا على بشكرك ودعنى أبسط لسانى بتقريظك بكتاب حررته لابنك أبى الوليد قبل الغمــة ، وحفظته حتى يقضى الله أمره .

قال ابن أبى دؤاد :

ــ فيم يا حبيبى ؟

قال :

ــ فى الفتيا !

قال :

ــ فقد كنت تراجعه اذن ؟

أجاب :

ــ بل أراجع اختلاف الناس فى الأصول التى عليها اختلفت الفروع وتضادت الأحكام .

## ١١ ـ جائزتان

هذه الغبطة لم يطل أمدها ، بل لعلها لم تجاوز ذلك المجلس قط . وبدا الجاحظ بعد ذلك كئيبا متهافت الأطراف ثقيل احدى الساقين متخاذل النفس حتى كأنه ممرور محترق أو ممرور ملتهب ، الا أنه لم يعف نفسه من الكتابة . وبلغ من اصراره على البقاء أن راح يتندر بالأطباء الذين كانوا يعودونه ــ وعلى رأسهم يحيى ابن ماسويه وسلمويه ــ ويصفون له الدواء ، وقال لابن أخته يموت بن المزرع وهو يدلك ساقه :

ــ قتلوا المأمون بدوائهم مع أنه بشم من الرطب ، ولما اعتل الواثق علة الموت داووه على أنه يعيش من يومه خمسين عاما ، فهلك بعد عشرة أيام !

وبعد أيام خرج بكتابه « نقض الطب » زلزل به العلاقة بينه وبين أطباء العصر كله . ووافق ذلك اعتلال قاضى القضاة ، وكان كتب له يسترضيه مرات ، ويذكره بأن من عاقب فقد أخذ حظه ، ولكن الأجر فى الآخرة وطيب الذكر فى الدنيا على قدر احتمال العفـو .

هى نفس المرء على أى حال ، يغريها الجـاه ويبعدها عن الأصفياء . تحسب أن التواضع اذا كان من التلاد عند فئة فهو مستطرف منها ، وأرجو يا أبا عبد الله الا أن تكون كمثل عيسى ابن مريم عندما قيـل له « ما رأيت كاليوم كلما أسمعوك شرا أسمعتهم خيرا » فقال « كل امرىء ينفق مما عنده ، وليس فى أوعيتكم الا الخير والرحمة » .

ولماذا تزور عنى وكنت صفيك وأنا صديق ابنك ؟

ألأنى على ما ترى من ضعف البنية وتيبس النفس ؟ لكن من فى مجالسك يفضلنى حديثا ويسبقنى فكرا .. خذ هذا شعرا ، وان لم أكن يوما شاعرا :

لا ترانى وان تطاولت عمـدا　　بين صفيهم وأنت تسـير
كلهم فاضـل علىّ بمـال　　ولسانى يزينـه التحبير
فاذا ضمنا الحـديث وبيت　　فكأنى عـلى الجميع أمـير

ولكن الفالج دهم قاضى القضاة فكان مبررا كافيا لكثير مما جاء فى « كتاب نقض الطب » . ولم يتوجس الجاحظ طويلا لأن المتوكل

أسند كل ما كان يتولاه للدولة من قضاء القضاة وولاية المظالم الى ابنه أبى الوليد محمد . حدث هذا فى جمادى الآخرة من سنة ٢٣٣ وفى الأيام الأولى من رجب استدعاه أبو الوليد وصحبه الى المتوكل ليقوم بتأديب ابنه محمد المنتصر .

وكانت مقابلة لا ينساها ، فلقد استبشع الخليفة منظـر ـ فهم الجاحظ ذلك تماما ـ وان يكن راح يحمـل عـلى الشيخوخة ، ويقول :

ـ لقد ضجرت من المشايخ ، وأريد أحداثا يعملون لى .

وأمر وصيفا التركى فصرف له عشرة آلاف درهم أفرحته بقـدر ما تألم ، وفى الطريق الى داره لقى محمـد بن ابراهيم المصعبى ، وهو يريد الانصراف الى بغداد فعرض عليه الخروج معه والانحدار فى حراقته .

وكان من العبث أن يرفض ، فضلا عن أنه كان يحس أن سامرا لم تعد مناسبة له تماما . فركب فى الحراقة ، حتى اذا انتهت به الى فم نهر القاطول نصب المصعبى ستارة ، وهو يقول :

ـ لنخفف عنك الآن يا أبا عثمان .

وأمر بالغناء فاندفعت عوادة تقول :

كل يوم قطيعـة وعتـاب ينقضى دهرنا ونحن غضـاب
ليت شعرى أنى خصصت بهذا دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

وسكتت ، فأمر الطنبورية فغنت :

وارحمتا للعاشـــقينا ما ان أرى لهم معينــــا
كم يهجرون ويصرمو ن ويقطعون فيصبرونا

فقالت لها العوادة :

ـــ فيصنعون ماذا ؟

أجابت :

ـــ هكذا يصنعون !

وضربت بيدها الى الستارة فهتكتها وبرزت كأنها فلقة قمر ، وما كان منها الا أن ألقت نفسها فى الماء . وعلى رأس محمد بن ابراهيم غلام وسيم بيده مذبة ، فأتى الموضع الذى تضطرب فيه الجارية ، وأنشد :

أنت التى غـــرقتنى بعــد القضا لو تعلمينا

واندفع فى أثرها ، فأدار الملاح الحراقة فاذا هما معتنقان قليلا ، ثم غاصا بعد ذلك الى الأبد فارتاع الجميع . وكان المصعبى أشد القوم جزعا حتى ان الجاحظ نسى أشجانه على الشابين فى غمرة حزنه ، فلما قال له :

ـــ يا عمـــرو ، لتحدثنى حديثا يسلينى عن فعـــل هذين والا ألحقتك بهما !

لم يجد كبير عناء فى التماس العذر له . وحضره حديث يزيد ابن عبد الملك وقد قعد للمظالم يوما وعرضت عليه الرقاع ، فمرت

به رقعة فيها : ان رأى أمير المؤمنين أن يخرج الىّ جاريته «صباح» حتى تغنيني ثلاثة أصوات فعل . فاغتاظ يزيد من ذلك ، وأمر من يخرج اليه ويأتيه برأسه . ثم أتبع الرسول رسولا آخر يأمره أن يدخل اليه الرجل ، فأدخله ، فلما وقف بين يديه قال له :

ـــ ما الذى حملك على ما صنعت ؟

قال :

ـــ الثقة بحلمك والاتكال على عفوك .

فأمره بالجلوس حتى لم يبق أحد من بنى أمية الا خرج ، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها فقال لها الفتى :

ـــ غنّ :

أفاطم مهلا بعض هـــذا التدلل
وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

فغنته ، فقال له يزيد :

ـــ قل !

فقال الفتى لصباح :

ـــ غنّ :

تألق البرق نجـديا فقلت له
يا أيها البرق انى عنك مشغول

فغنته ، فقال له يزيد :

ـــ قل !

فقال الفتى :

— يا مولاى تأمر لى برطل شراب .

فأمر له بما طلب ، فما استتم شربه حتى وثب قائما . وصعد على أعلى قبة ليزيد ورمى بنفسه فمات ، فقال يزيد :

— انا لله وانا اليه راجعون ، أتراه الأحمق الجاهل ظن أنى أخرج اليه جاريتى وأردها الى ملكى ؟ يا غلمان خذوها بيدها واحملوها الى أهله ان كان له أهل ، والا فبيعوها وتصدقوا بثمنها .

فانطلقوا بها الى أهله ، فلما توسطت الدار نظرت فرأت فى الوسط حفيرة أعدت للمطر ، فجذبت نفسها من أيديهم وهى تنشد :

من مات عشقا فليمت هكذا     لا خـــير فى عشق بلا موت

وألقت بنفسها فى الحفرة على رأسها فماتت !

ابك أيها الأمير فأنا أزعم أن البكاء صالح للطبائع ، ومحمود المغبة اذا وافق الموضع ولم يجاوز المقدار ، ولم يعدل عن الجهة .

ابك ، فالبكاء دليل على الرقة والبعد من القسوة ، وربما عُدَّ من الوفاء ، وشدة الوجد على الأولياء .

ابك ، فالبكاء من أعظم ما تقرب به العابدون واسترحم به الخائفون ..

لقد كتبت ذلك لو كنت تقرأ ، وكتبت أيضا : أن بعض الحكماء

قال لرجل اشتد جزعه من بكاء صبى له « لا تجزع فانه أفتح لجرمه وأصح لبصره » وضرب عامر بن قيس بيده على عينه ، فقال « جامدة شاخصة لا تندى ! » .

ونهض محمد بن ابراهيم وقد خفف عنه ، وقال :

ـــ ما كان أعظم البلية يا أبا عثمان ، لكن ما أسرع ما سريت عنى ! ووالله لولا أن فينا حفاظا على الود لكان من أمرنا ما لا يجوز ، وعلى أى حال لك جائزتنا .

ووصل الجاحظ الى دار السلام بجائزتين .. احداهما من أمير المؤمنين ، والأخرى من أحد كبار الأمراء المصعبيين !

**١٢ ـ حاجة الأمة والجاحظية**

ما تعاقب بعد ذلك من سنين أثبت للجاحظ أن أبا الوليد لم يستطع كأبيه أن يمسك أمير المؤمنين للاعتزال ، وقد بدأ الأمر بتقصى المتوكل أحوال ابن حنبل وبالسكوت حتى اشتداد سواعد الجماعة من جديد . وقابل الجاحظ ذلك بالقعود فى المسجد لمراجعة أصول المعتزلة ، واستذكار كتب ابراهيم وابن عطاء والعلاف ، مع بسط آراء ثمامة حتى شملت جميع أمور المعاش . ومن ناحية أخرى نادى بضرورة التجاوب مع السلطان ، بعد أن كان من رأيه أن السلطان سوق يجلب اليها كل شىء لينفق فيها ، والحقيقة أنه لا ينفق فيها الا العلم والبيان عنه .

وقد اعتاد أن يبعث لأبى الوليد بالكتب ، وفى المقابل كان هذا

يمده بحاجته الى المال . وفى احدى رسائله اليه ذكر له أن الصراع اشتد بين محدثى البصرة وأصحاب الرأى من أهل الكوفة ، تماما كما اشتد بين أهل السنة وأهل الاعتزال ، ثم وعد أباه فى رسالة قدم بها كتاب الفتيا اليه — وكان تحدث عنه من قبل — بأنه يزمع اصدار عدة كتب « ليس يمنعنى من أن أهديها اليك معا الا ما أعرف من كثرة شغلك ، وكثرة ما يلزمك من التدبر فى ليلك ونهارك » .

لكن اذا كانت هذه الكتب مما ليس « من باب الطفرة والمداخلة ولا من باب الجوهر والعرض ، بل هى كلها من الكتاب والسنة وبجميع الأمة اليها أعظم الحاجة » فقد كتب لغيره عن « الاستطاعة وخلق الأفعال » و « الناشىء والمتلاشى » و « أحدوثة العالم » وفى « الرد على من زعم أن الانسان جزء لا يتجزأ » . والكتاب الأخير يبين تماما أنه فارق أستاذه وصديقه ، وتفرد باتجاه أطلق عليه أصحابه وخصومه معا « الجاحظية » كما يبين أنه يذهب الى أشياء قال بها ثمامة فى أن « لا فعل للعبادة الا الارادة وأن سائر الأفعال تنسب الى العباد ، على معنى أنها وقعت منهم طباعا ، وأنها وجبت بارادتهم » (٣٥) .

وأول الكتب (٣٦) « كتاب نظم القرآن » يحتج فيه لنظم كتاب الله وغريب تأليفه وبديع تركيبه ، ويرد فيه على النظام بصفة خاصة عندما يجعل الاعجاز « الصرفة » فقد تصح ، ولكن ليس على طول الخط ، لأن القرآن فى الواقع معجز فى نفسه .

وثانى الكتب « كتاب آى القرآن » يعرف فيه فصل ما بين الايجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات .

وثالثها « كتاب مسائل القرآن » جعل موضوعه أهم القضايا التى ناقشها كتاب الله بقوله « يسألونك عن .. » .

وأما أبو الوليد فقد كتب له كثيرا ، ولكن أشهر كتبه اليه « رسالة المعاش فى الأدب وتدبر الناس ومعاملاتهم » (٣٧) أراد فيها أن ينبهه الى دوره فى تنظيم حاجة الأمة ، بعد أن أصبح رجلا فى قمة رجالاتها . فهو مهما يكن لابد أن يبصر ، وهو اذا أراد أن يكون حكيما ، فمن الضرورى أن يحسن الارتياد لموضع البغية .

وانى عرفتك ـــ أكرمك الله ـــ فى أيام الحداثة وحيث سلطان اللهو أغلب على نظرائك وسكر الشباب المتحيف للدين مستول على لداتك ، فاختبرت أنت وهم ففقتهم ببسطة المقدرة وحميا الحداثة وطول الجدة ، مع ما تقدمتهم فيه من الوسامة فى الصورة والجمال فى الهيئة . وهذه كلها أسباب توجب الانقياد للهوى . ولجج من المهالك لا يسلم منها الا منقطع القرين فى صحة الفطرة وكمال العقل .

لكن .. كل هذا واضح ، والوقوف عنده ليس أكثر من ازجاء الشكر ، ومن لم يشكر للناس لم يشكر لله .

« فرأيت أن أجمع لك كتابا من الأدب جامعا لعلم كثير من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الأشياء ، وأخبرك بأسبابها ،

وما اتفقت عليه محاسن الأمم ، وعلمت أن ذلك من أعظم ما أبرك به ، وأرجح ما أتقرّب به اليك ، وكان الذى حدانى على ذلك ما رأيت الله قسم لك من الفهم والعقل ، وركّب فيك من الطبع الكريم » .

وهكذا يمضى فيحدّثه عن أن العقل المطبوع لا يبلغ غاية الكمال الا بمعاونة العقل المكتسب ، والبرايا كلهم عـلى ذلك النحو ، ومن ثم فليأخذ فى وصيته . فليخف الله ولا يغتر به ، وليجعل العدل والنصفة فى الثواب والعقاب حاكما بينه وبين اخوانه ، وعليه ألا يفرط فى الكبر لأنه يدعو الى مقت الخاصة ، كما عليه ألا يفرط فى المؤانسة والانقباض والحذر والمضرة والمنفعة ، لأن الافراط فى أى منها ينتهى الى ما لا تحمد عقباه .

« واعلم أنك ستصحب من الناس أجناسا متفرقة حالاتهم متفاوتة منازلهم ، وكلهم بك اليه حاجة ، وكل طائفة تسد عنك كثيرا من المنافع ، لا يقوم بها من فوقها ، ولعلهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك » .

لكن احذر يحيى بن أكثم . انه يوغر صدر الخليفة عليك وعلى ابنك كما أوغر هذا صدره على !بن الزيات ، ولا تخلينه من عنايتك على أن تعلم أنه سيمر بك فى معاملاته حالات تحتاج فيها الى مداراته ، والذى تعامل به الصديق هو ضد ما تعامل به العدو « فالصديق وجه معاملته المسالمة والعدو وجه معاملته المداراة والمواربة ، وهما ضدان يتنافيان يفسد هذا ما أصلح هذا ، وكلما

نقصت من أحد البابين زاد فى صاحبه ان قليل فقليل ، وان كثير فكثير » .

يستطيع ابن أكثم أن يدفع بنجم الاعتزال الى الأفـــول ، فلا يعود لواؤنا يخفق فى سماء العلم ، والمقادير ربما جرت بخلاف ما تقدر الحكماء فينال بها الجاهل فى نفسه المختلط فى تدبيره ما لا ينال الحازم الأريب الحذر « فلا يدعونك ما ترى من ذلك الى التضييع ، والاتكال على مثل تلك الحال ، فان الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدّم الحذر فجاءت المقادير بخلاف ما قدر كان عندهم أحمد رأيا وأوجب عذرا ممن عمل بالتفريط ، وان اتفقت له الأمور على ما أراد » .

ومن يدرى ، فلعل غضب أمير المؤمنين على بعض حاشيته كايتاخ ـــ الذى كان اليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالى والبريد والحجامة ـــ بعض ما يؤذن بجد لا يطمأن فيه ولا يقر .

وكان مقتل ايتاخ فى عام ٢٣٥ بعد أن نظم المتوكل العهـــد لأولاده الثلاثة وثار الترك ، وقيل ان ابن أكثم راح يقول له : « كلهم لا يقول بخلق القرآن وهم عصبتك ومعتمدك عليهم فأرضهم » .

وأرض أنت أصدقاءك يا أبا الوليد واستكثر منهم « فانهم جند معدون لك ينشرون محاسنك ويحاجون عنك ، ولا يحملنك استطراف صديق ثان على ملالة للصديق الأول ، فان ذلك سبيل

أهل الجهالة » واعلم أن الحكماء لم تذم شيئا مثل ما ذمت أربع خلال هى : الكذب ، والغضب ، والجزع عند المصيبة ، والحسد « وبقدر ما ذمت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة فكذلك حمدت أضدادها » .

واعلم أنك موسوم بسيما من قارنت وأن كثرة العتاب سبب للقطيعة وأن اطراحه كله دليل على قلة الاكتراث لأمر الصديق ، واقتصد فى مزاحك ولا تنشر محاسنك بنفسك ، « وارتد لنعمك مغرسا تنمو فيه فروعها ، واعلم أن استصغارك اياها يكبرها عند ذوى العقول وسترها منك نشر بها عندهم » فانشرها بسترها وكبرها باستصغارها .

ولكنى أطلب أن أقول كلمتى وأصدق النصح ، وقد يرى بعض من يحسدنى على ما أنا فيه أنى أنافق ، فهل من النفاق أن أقول الكلمة الطيبة والكلمة الطيبة صدقة أيها القاضى العادل ؟

احذر الحذر كله الاغترار بثلاثة أمور ، فان من عطب بها كثير وتلافيها صعب شديد « أحدها أن لا تولى جسائم تصرفك وتقلد مهم أمورك ووثائق تدبيرك الا امرأ صلاحه موصول بصلاحك ، أو أن تأنس أن تغتر بمن تعلم أن بصلاحك فساده ، وبارتفاعك انحطاطه وبسلامتك عطبه ، فان من كان هكذا فأنت ملك بموته ، أو أن تجعل مالك كله فى عقدة واحدة أو حيز واحد أو وجه منفرد ان اجتاحته جائحة أو نابته نائبة بقيت حسيرا » .

على أنى أوصيك برياضة نفسك أنت حتى تذللها على كل

الأمور المحمودة التى عرضتها ؛ ومن ثم لابد أن تكون المساهلة فى أخلاقك أغلب عليك من المعاسرة ، والحلم أولى بك من العجلة ، والصبر الحاكم عليك دون الجزع ، والعفو أسبق اليك من المجازاة بالذنوب والمكافأة بالسوء .

« أسأل الله المبتدىء بكل نعمة ، والمتولى لكل احسان أن يصلى على محمد خيرته من خلقه ، وصفوته من بريته ، وأن يتم عليك نعمته ، ويشفع لك ما خولك من نعمته بالنعمة التى يؤمن معها الزوال فى جواره ومرافقة أنبيائه ، والسلام عليك ورحمة الله » .

**١٣ ـ عاصفة**

وفى العام نفسه ـــ أى عام ٢٣٥ ـــ فرض المتوكل على الذميين لبس الطيالسة العسلية ، وشد الزنانير . وركوب السروج بعد أن يعمل لها من المؤخرة كرتان ، كما أمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب . وكان هذا ايذانا بزيادة مشـــكلات الخليفة ومن يتصل به ، كما كان مجالا للجدل العنيف بين المسلمين والمسيحيين . وأسهم الجاحظ فى المعركة بكتاباته عن الاسلام ، وبخاصة بعد أن راح الباطنية ينتهزون الفرصة ، ويدلون بآرائهم التى تريد أن تهدم صروح الاعتزال .

وبعد أن كتب « خلق القرآن » رد على دعاة التشبيه فى كتاب لم يكد يفرغ منه حتى بعث برسالة لأبى الوليد يقول له فيها بعد المقدمة : « وقد كتبت ـــ مد الله فى عمرك ـــ فى الرد على المشبهة

كتابا لا يرتفع عنه الحاذق المستغنى ، ولا يرتفع عن الريض المبتدىء » .

ويبدو أنه أراد أن يستفتيه فيه ، لأنه بعد قليل يقول له : « فأنا أسألك — أكرمك الله — أن ترى هذا الكتاب وتقرأ ما خف عليك منه ، فان يصلح الكلام وكان كما وصفت ، وكما ضمنت حثثت على قراءته وعلى اتخاذه وعلى تخليده وعلى تدوينه » .

وهو ينافح عن المعتزلة بايراد الحجة والمنطق والمناظرة العقلية ، فيدحض بسهولة الباطنية المشبهة التى كان سندها الأول قوة العاطفة الدينية التى تلين قلوب العامة وتشدها اليها . وحرام — على أى حال — على كل متكلم عالم وفقيه مطاع وخطيب مفوه ان كان عنده من الأمر شيء الا أن يأتى أبا الوليد به ويذكره بما عنده ، قل أو كثر وصادف منه شغلا أو فراغا .

« على أننا لم تنطق الا بألسنتكم ولم نحتذ الا على مثالكم ، ولم نقو الا بما أعرتمونا من فضل قوتكم . وعلى أهل اللسن من الخطباء معاونتكم ومكاتفتكم » .

اننى جاد وتركت الهزل جانبا . فلعلها الشيخوخة ، ولعلها أحوال الدنيا ، ولعلها المسائل العويصة أثقلت علينا ، أو لعلها المشاكلة فى الصناعة التى ان كانت توجب الضغن من الحاسد تدفع المحسود الى الحرص واصطناع المشقة ابتغاء المثوبة . غير أنى اذا كنت دفعت بالكتاب اليك دون أبيك — وهو لا يزال

كبير الأثر — فلأنى أعرف أنك تجرى معه فى الأمور مجرى واحدا ، ولعل قائلا أن يقول : وكيف لم تذكر أمير المؤمنين والمعتصم برب العالمين الذى حقق الله به الدين وسدد به الثغور ؟ قلنا« ان عقل الرسول يدل على مرسله واعتدال القناة يدل على حذق المثقف ، ومديحك الوزير راجع الى من اختاره » .

على أن هذا لا يمنع من أن للمتوكل مغامز .. فمن فى حاشيته غير قاضى القضاة ووزيره الكاتب الرقيق المجدود عبيد الله ابن يحيى بن خاقان ؟ والبقية أصحاب مجون ومصطنعو نادرة .. لا على ما يحتشم أبو العيناء والجماز — قطبا القصر — لكن على ما يتبذل أبو حسان النملى وحمدون النديم والكتنجى ومانى الموسوس وأبو العبر الرقيع الذى كان من بيت الخلافة وأبو العنبس الصيمرى الذى شغل قضاء الصيمرة زمنا (٣٨) .

ولو كان الجاحظ فى مثل نشاط هؤلاء ، وقد اختلط بذوى الفضل والذكر الحسن من أمثال ابراهيم بن السندى وابراهيم بن العباس وابراهيم بن المدبر وأبى العباس المبرد — وقد أعلن هذا تلمذته للشيخ أبى عثمان — لبرز فى الهزل والمضاحك ، كما لم يظهر أحد ولتمسك به أصفياء المتوكل .. وصيف حاجبه وبغا الصغير وباغر التركى ورجاء الحضارى !

ومع ذلك فقد كان الجاحظ اذ ذاك فى أحسن أيامه رخاء ، وكان الوزير يغدق عليه ورتب له مرتبا مستديما كل شهر ، فى حين تولاه بالرعاية والسؤال عنه وذكره للمتوكل داعيا اياه لسامرا

من جديد الفتح بن خاقان مولى الخليفة ونديمه الأثير [٣٩] . وكانت فتنة النصارى قد بلغت أقصاها ووعد الجاحظ بالكتابة فيها ؛ فلما صدر عن رسالته « فى صناعة القوّاد » قاصـــدا بها أمير المؤمنين [٤٠] بعث اليه الفتح يقول : « ان أمير المؤمنين يجدّ بك . ويهش عند ذكرك ؛ ولولا عظمتك فى نفسه لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعـــدك عن مجلسه ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه . وقد كان ألقى الىّ من هذا عنوانه فزدتك فى نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك ، فاعرف لى هذه الحال واعقد هذه المنة على كتاب الرد عـــلى النصارى وافرغ منه وعجل به الىّ ؛ وكن من جدا به على نفسه وتنال مشاهرتك قد استطلقته لما مضى ؛ واستسلفت لك لســـنة كاملة مستقبلة ؛ وهذا مـــا لم تحتكم به نفسك ؛ وقد قرأت رسالتك فى بصـــيرة غنام ، ولولا أنى أزيد فى مخيلتك لعرفتك ما يعترينى عند قراءتها والسلام » .

ولا يمكن الزعم أنه كان لأبى الوليد أو لأبيه فضل عـــلى الجاحظ فيما وصل اليه هذه الفترة ؛ فقد كان قاضى القضاة قد وقع فريسة لغضب الخليفة فأقصاه عن مناصبه سنة ٢٣٧ ، وحبسه هو واخوته فى ديوان الخراج ، وأمر بالتوكيل على ضياعه وضياع أبيه ، وأمر بهما فحـــدرا الى بغـــداد حيث مات أبو الوليـــد سنة ٢٣٩ ، ومات أبوه من بعده محسورا فى أوائل سنة ٢٤٠ .

وكان موت أبى الوليد نهاية للاعتزال فى القصر ؛ فقد تولى

يحيى بن أكثم قضاء القضاة ، وساعد الخليفة الذى كان يتسنن خفية — ومعه الفقهاء من أهل السنة الذين التف الحزب العربى فى المملكة ضدهم — على أن ينهى الناس عن الكلام فى خلق القرآن وأمرهم بالتسليم وبالتقليد ، وحرر ابن حنبل من كل ما فرض عليه من قيود قبل أن يموت سنة ٢٤١ .

انها عاصفة مدمرة ، وكان من الممكن أن تطيح بالجاحظ لولا مساندة الفتح ، وعبيد الله بن يحيى له ، ولولا خوضه فى الدفاع عن الدولة ضد الذميين (٤١) — الذين استمر اضطهادهم وحظر الحاقهم بالوظائف الحكومية — واشتداد شوكة الأتراك الذين حاول هو أن يؤلف بين قلوبهم لتسلم صدورهم فى رسالة بعث بها الى الفتح (٤٢) .

على أنها تركته وقد تحطم ، فقد ثقلت عليه علة ساقه ، ثم لزم داره مفلوجا مكثرا من الحديث عن الحسد والعداوة — وقد بعث لعبيد الله بن يحيى بن خاقان رسالة فى هذا الموضوع — ليقول بصراحة : انه أصبح يلقى من الناس الكراهية بوجهيها ، اذا كانت مستورة فهى الحسد واذا كانت سافرة فهى العداوة .

وفى سنة ٢٤٣ رجع الى البصرة لما نزح المتوكل الى دمشق هاربا — بعد أن لحظ فشل سياسة التعاون مع الفرس والترك — وفيها عاد ذهنه الى التوقد يكتب ، كما خطط لكتاب كبير كان فكر فى اهدائه لابن أبى دؤاد يوم ثار جدل بين النظام ومعبد حول ضروب معينة من الحيوان . ولكن الرسل لم تلبث أن جاءته بنبأ رجوع الخليفة الى سامرا ، بعد أن اكتشف مؤامرة لقتله ،

وكان فى صفه رجاء الحضارى . فبدأ من جديد يتطلع الى سامرا بخاصة ، بعد أن تمكن أبو الفرج نجاح بن سلمة من أن يقبض رزقه عنه ، وفعلا أعد العدة . وجعل فى مقدمة أعماله انجاز قصيدة يخاطب بها هذا الكاتب الذى كثر شامتوه وحساده ، وبعث بها فى رسالة حرص على أن يضمنها أسماء من كنيته « أبو عثمان » وفى القصيدة يقول : (٤٣)

أقام بدار الخفض راض بخفضـــه
وذو الحزم يسرى حين لا أحد يسرى
يظن الرضى شـيئا يســـيرا مهونا
ودون الرضى كأس أمرّ من الصــبر
ســواء على الأيام صاحب حنــكة
وآخـــر كاب لا يريش ولا يبرى
خضعت لبعض القوم أرجـو نواله
وقد كنت لا أعطى الدنيــة بالقسر
فلما رأيت المـــــرء يبذل بشره
ويجعل حسن البشر واقيـــة التبر
ربعت عــلى ضلعى وراجعت منزلى
فصرت حليفا للدراســـة والفــكر
وشـــاورت اخوانى ، فقال حكيمهم
عليك الفتى المرى ذا الخلق الغمر
أعيذك بالرحمن من قول شـــامت :
أبو الفرج المأمول يزهد فى عمــرو

## ١٤ - الرجل المريض

لم أعد سيد نفسى ولا أنا مستطيع أكثر مما يستطيعه غيرى. لقد أدخلت على المتوكل فتهاتر الجلساء واستخفوا بى والخليفة يضحك! وعندما دخل ابراهيم بن العباس نهض اليه الفتح ابن خاقان وسكت أصحاب الهزل. أفلم يقل أمير المؤمنين: لا يهزأن أحد بين يدى حتى يقوم ابراهيم!

وعاد الى داره ثقيل الخطو واعتكف، ولم يخرج الى الناس حتى أتم «كتاب الزرع والنخل» وأهداه الى ابراهيم بن العباس؛ فبعث اليه بالحسن بن مخلد — وكان يخلفه على ديوان الضياع — وسلمه خمسة آلاف دينار؛ وفى اليوم التالى زاره وقبله على رأسه وهو يقول:

— زه زه. والله أحسنت على ما رأيت من أشياء لم تعجبنى.

فتساءل الجاحظ:

— فى هذا الكتاب؟

فأجاب:

— فيه وفى غيره.

فأطرق الجاحظ مفكرا منكرا؛ فصاح ابراهيم:

— ان اليوم والله يوم سرور بك وبما تكتب فما هذا الغم؟

قال الجاحظ:

ـــ والله ان الحق أولى بمثلى وأشبه ، انى لم أدفع الا بكل ما عندى فان قصرت فذلك عزمى .

فنهض ابراهيم وهو يقول :

ـــ بل أعلم أن وراءك لا يزال الكثير ، فهلم أبا عثمان !

وخرج ولم يعد ، لأنه مات . وأما الجاحظ فقد جلس يفكر ، وعبثا حاول ابن أخته يموت رده الى نفسه . على أنه عندما دخل عليه بعض صحبه وحدثوه بما عاد يثور حول نقاش النظام ومعبد بصدد الكلب والديك قال بحده :

ـــ لولا أنى شرعت فى كتاب عن البلدان لكتبت فى هـذا الموضوع كتابا ، ولكنى أتمه ان شاء الله .

قال بعضهم :

ـــ لقد أتى شيخا المعتزلة على كل شىء فيه ولم يعد لك ما تقول فيه .

فقال الجاحظ :

ـــ اذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح !

ثم لم تمنعه العلة من أن يمضى فيما اعتزمه ، حتى اذا دخل عليه رسول من عند المتوكل يستدعيه شوقا الى حديثه قال بأسف :

ـــ وما يصنع أمير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذى شق مائل ولعاب سائل .

ورفع يدا ثقيلة الى عينيه يمسح دموعا بدأت تنحدر ، واتجه أحدهم اليه يقول :

ـــ وما يقول الأطباء يا أبا عثمان ؟

أجاب :

ـــ ما قلته فى كتاب نقض الطب .

وضحك ، ثم قال لوراقه :

ـــ أتحفظ شعر عوف بن محلم الخزاعى ؟

قال الوراق :

ـــ عن أيش يا أبا عثمان ؟

قال الجاحظ :

ـــ عما أنا فيه من حال ما ترى فهو يقول :

ان الثمانين وبلّغتهـــــــا قد أحوجت سمعى الى ترجمان

وقد جزتها والله ووهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا ، وما أحسب أن يكشف الابتلاء عن محمدة ، بعد أن قضت لى تجارب الحداثة بالتقدمة الا أن يشاء الله !

هكذا راح الرجل المريض يعيش ، متخوفا من انقضاء سنيه وانطفاء شمعته حينا ، ومشفقا حينا آخر على أن يقصر فيأخذه الكاشحون والشامتون . وما كانت زيارات المبرد وسائر صحبه

بالتى تملأ عليه فراغه ، بل على العكس طالما شكا قلة الأعــوان وندرة العواد ، حتى كأنما الأيام أدبرت عنه الى الأبد .

لقد رفعه الجد وألقى به من بلد الى بلد ومن ولى الى ولى ، وأوقع فى حبائله ألوانا مختلفة من الرجال ، وجعل منه رجلا يخشاه الكثيرون ، ويحسده الكثيرون . فاذا هو على استعداد لأن يرمى فى كل مقصد ، ويزج به الى كل قضية ، ويطرح اطراح الابتلاء الشديد ليطفو فى نهاية الأمر فوق الأحداث .. وأما اليوم !

لا حيلة لى فى الأمر ، وتلك سنّة الله فى أرضه ، تفترق البرايا كلهم وتتفاوت بهم منازلهم لتكون العلل التى يوجب بعضــها بعضا ، ففيم الشكوى وفيم البحث عن الشىء الذى يحتال لقلوبهم به حتى تستمال ، وحتى تؤنس بعد الوحشة ، وتسكن بعد النفار ؟

وعلى هذا المنوال تمضى حياته حتى يسمع ذات صباح من سنة سبع وأربعين ومائتين بقتل المتوكل والفتح بن خاقان بعد ليلة صاخبة شهدها البحترى الشاعر الكبير ، ووضع نهاية لها بسيفه باغر التركى ومعه عشرة من الأعوان الملثمين تبرق سيوفهم فى ضوء الشموع .

وقد أذاع كل من أوتامش وبغا الشرابى النبأ ، وأعلنا عزل الوزير عبيد الله بعد أن طلبا أن يبايع الناس لأبى جعفر محمــد المنتصر بن المتوكل . وتم الأمر بسرعة ، وجاء أحمد بن الخصيب ــ وكان بينه وبين الجاحظ قطيعة ــ وزيرا فأقصاه عن القصر بقدر ما استطاع .

## ١٥ ـ السنوات التسع الأخيرة

لم يسكث المنتصر فى الحكم سوى ستة أشهر مات بعدها . فخلفه المستعين أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم سنة ثمان وأربعين ومائتين ، وأسرع هذا فنكب أحمد بن الخصيب وقلد مكانه ابن يزداد فشجاع بن القاسم كاتب أوتامش ، وأطلق يد أوتامش هذا فى بيوت الأموال حتى استناء الجميع . وراح وصيف وبغا يتآمران ضده مع الجنود ، فلما قتل استفحل أمر باغر . فقرر الرجلان قتله أيضا ، وقد أدرك هو ذلك ، وعلم أن الخليفة فى صفهما فجمع أعوانه وقال لهم :

ـــ الزموا الدار حتى تقتل المستعين وبغا ووصيفا ونجيء بعلى ابن القاسم أو بابن الواثق فنعقده خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن فى غير شىء !

وهرع المستعين الى وصيف وبغا وقال :

ـــ ما طلبت اليكما أن تجعلانى خليفة وانما جعلتمانى وأصحابكما ثم تريدان أن تقتلانى .

ولما نجح حزب وصيف وبغا فى قتل باغر أسرعا ومعهما الخليفة الى بغداد يصحبهم جلة العمال والكتاب وجماعة بنى هاشم ، وعبثا حاول أتراك سامرا ارجاع المستعين . ومن هنا قرروا خلعه وتولية أبى عبد الله محمد بن المعتز بن المتوكل ، وبويع له بالفعل فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وأرسل جيشه ـــ وكان معظمه من المغاربة والفراعنة ـــ الى بغداد فتم له فتحها .

على أن المعتز سرعان ما اختلف مع الأتراك ؛ لأنهم كرهوا ميله نحو المغاربة والفراعنة . ومما زاد الأمر تعقيدا خلو دور الأموال من المال ، حتى لقد اضطر المعتز الى أن يستقرض أمه قبيحة — وكانت مثرية للغاية — وترفض الأم ، فلا يكون نصيبه بأحسن من نصيب أبيه . فيقتل عشية يوم الجمعة لليلة خلت من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين .

وقبل ذلك بسبعة أشهر — أى فى شهر المحرم — مات الجاحظ وهو فى البصرة وقد أصيب بالنقرس علاوة على الشلل ، وكان يطلى نصفه الأيسر بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض لما أحس به من خدره وشدة برده ؛ وقد زاره المبرد قبل موته فقال له :

— كيف أنت ؟

فأجاب قائلا :

— كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك تقدم سنى :

أترجو أن تكون وأنت شيخ — كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب — دريس كالجديد من الثياب

وزاره باسم المعتز كل من بختيشوع بن جبريل وسلمويه وابن ماسويه ، فأما بختيشوع فانه لما سمع قوله :

— اصطلحت الأضداد على جسدى ، ان أكلت باردا أخذ برجلى وان أكلت حارا أخذ برأسى .

قال :

ـــ لا حول ولا قوة الا بالله !

فى حين انبرى ابن ماسويه يقول فى شماتة :

ـــ أتتحدث عن المضادة أيها العجوز ؟

وتململ الجاحظ . فقد تذكر أنه اجتمع بابن ماسويه على مائدة أحد الوزراء أو الكتاب الكبار ـــ فلم يعد يتذكر تماما ـــ وكان فى جملة ما قدم مضيرة بعد سمك فامتنع ابن ماسويه من الجمع بينهما ، فقال له :

ـــ أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضادا له ، فان كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له ، وان كان من طبع واحد فلنحسب أن قد أكلنا من أحدهما الى أن اكتفينا .

فقال ابن ماسويه :

ـــ والله ما لى خبرة بالكلام ولكن كل يا أبا عثمان وانظر ما يكون فى غد !

فأكل هو نصرة لدعواه فكان أن عجز عن تحريك قدمه ، وعزى ابن ماسويه ذلك الى مسألة الطبع وضده . ونسى هـذا المتطبب أن للسن حكمها ولقيد ابن أبى دؤاد فى ساق عليلة أثره الذى لا يمكن أن يغفل .

وأما ابن ماسويه فقد راح يستوضحه الحكاية التى ينسبها الى ثمامة فى « كتاب نقض الطب » ويقول فيها ان الأطباء زعموا أن الذباب اذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ، وانه عندما

لسعه زنبور حكك على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن ، ثم قال له :

ـــ لولا أن أمير المؤمنين طالبنا بعيادتك لما قلت لك تطبب بهذا الدواء !

وأعطاه القنينة ومضى ، فدخل عليه فى أهل البصرة جماعة فسألوه عن حاله فأجاب :

عليل من مكانين من الأسقام والدين

ووالله أنا فى العلل المتناقضة التى يتخوف من بعضها التلف !

واشتد جزع أهل البصرة ، وراح القاصى منهم والدانى يتذاكر فضله وعلمه ، ويحكى عن كتابين عظيمين أشار الى وجودهما فى مكتبته وهما « الحيوان » و « البيان والتبيين » . ثم أخذ الأغراب يتوافدون على داره حتى اذا كانت ليلة موته دخل عليه أحد وجوه البرامكة ـــ صاغ ماله عشرة آلاف اهليلجة فى كل اهليلجة ثلاثة مثاقيل قبل أن يفد على البصرة ـــ فحدثه عن « الحيوان » الذى كتبه ثم رجع اليه فزاد فيه ونقح ، وفى نهاية الزيارة تذاكر معه البرامكة ثم قال :

ـــ لقد انجبر بهم خلق كثير فسقيا لهم ورعيا .

فدعا له البرمكى ثم قال :

ـــ أسألك أن تنشدنى شيئا من شعرك .

فقال :

ـــ والله ما أدرى ما أقول ولست بشاعر ، ولكن اليك هذين البيتين :

لئن قدمت قبـــلى رجال فطـــالما
مشيت عـلى رسـلى فكنت المقدما
ولكن هـذا الدهـر تأتى صروفه
فتبرم منقوضـا وتنقض مبـــرما

وبعد ذلك قام . فلما قارب الدهليز صاح الجاحظ قائلا :

ـــ أرأيت مفلوجا ينفعه الإهليلج ؟

أجاب :

ـــ لا والله !

فقال الجاحظ :

ـــ فان الاهليلج الذى معك ينفعنى فابعث لى منه .

فتعجب البرمكى وقال « أفعل » ثم خرج يتساءل كيف وقف على خبره مع كتمانه اياه . ولما أرسل له مائة اهليلجة لم يقدر له أن يتسلمها ، فقد حدث أن تحامل على نفسه الى غرفة كتبه وما كاد يجلس وحواليه الأسـفاط والرفوف والقماطير والدفاتر ، حتى انهالت الكتب فوقه دون أن يستطيع حراكا . فقضى عليه فى الحال ، فحوقل الناس وترحموا عليه ، وبكى المعتز فقال بعض صحبه :

ـــ لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام النعماء .

وبكاه أبو العيناء بدمع غزير ، فسئل :

ـــ ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟

فقال :

ـــ ليت شعرى ، وأى شىء كان الجاحظ لا يحسن !

## ١٦ ـ كلمة يستغنى عنها

تلك السنوات التسع لا تعطينـــا شيئا كثيرا عن الجاحظ فى الحياة العامة . فقد أقصى عن السياسة وكان دائما من كتابها فابتعد ، ولكن بالقدر الذى لا يجعله فى الظلام . فهو يراسل ابراهيم بن المدبر ويضع « كتاب آل ابراهيم بن المدبر فى المكاتبة » وهو يتصل بسليمان بن وهب وغيره من الكتاب والمستوزرين ويكتب « رسالة فى مدح الكتاب » بعد أن ذمهم ، وظل على علاقة طيبة بأبى الحسن عبيـــد الله بن يحيى بن خاقان . على أنه استدعى اكثر من مرة الى قصر الخلافة ، فكان يرفض مرة ويجيب أخرى ، وقد تمنى المعتز قبل مصرعه أن يكون احد خلطائه .

وليس مناص من الاعتراف بأنه من العسير أن نصدق كيف وهو فى هذه الأحوال ــ وقد كان مريضا يخف عليه الفلج ويزيد ــ يظل حاضر الذهن متوقد الدهر ، فيحدث عواده وتلاميذه .. دون مزح ،لأنه كان قد انتهى الى حيث لا يكون الا تظرف أهل الفهم والى أن الشيخوخة ألزم لها وقار العلم .

على أنه لا ينى يشكو ، ومن ذا الذى يعيش مقيدا بالقلم ناظرا فى ثبت المراجع ثم لا يمل أو يكل ؟ فضلا عن المرض الذى لا شك كان يلقى عليه ظلالا من الأسى حزنا على ما فاته من اللذاذات والمتع .

اننا حريون أن نشعر بالدهش اذ نتبين فداحـــة الثمن الذى اداه مقابل محاولاته لاتزانه العقلى مع سلوك فنى محدد ، وانه لثمن عملتـــه الترسل والاستطراد واصـــطناع الأسلوب العلمى الجدلى مبتعدا عن الأسلوب الغنائى .. أسلوب الرجل الشهوان

الذى أحب الحياة فى كأس نبيذ (٤٤) وأكلة شهية (٤٥) وبدن لدن، وأغنية حلوة (٤٦) .

هذا ما نراه فى كتابيه « الحيوان » و « البيان والتبيين » .

ويجب أولا أن لا نصدق ما يروى انه أهدى الأول لابن الزيات فأعطى خمسة آلاف دينار ، وخص بالثانى ابن أبى دؤاد فظفر منه بمثل ما ظفر به من ابن الزيات (٤٧) فهذه الرواية التى يرويها ياقوت الحموى على لسان الجاحظ لم تظهر الا فى كتابه منقولة عن ميمون بن هارون ، أحد القلة التى عقد بهم الجاحظ صلة فى آخريات أيامه ، وظهورها على هذا النحو يشكك فيها . فضلا عن أن الأصل فى موضوع الحيوان ــ ولم يكن فى حدس الجاحظ أن يكبر باستطراداته التى غلب عليها الأدب ولاحظها وهو يملى ــ كان مما يشغل المتكلمين أو المعتزلة بوجه خاص ، والملاحظ بصفة عامة أن ابن الزيات كان كمويس بن عمران صديقا للمعتزلة أكثر منه مفكرا منهم . والدليل على ذلك أنه لم يشترك فى محاكمات ابن حنبل التى برز فيها ابن أبى دؤاد بصورة مزرية آثمة ، بل يمكن أن نزعم أن « البيان والتبيين » أكثر موافقة لمزاج ابن الزيات الفنى لأن الأدب أغلب عليه ، أو هو من المجالات التى يميل اليها ذلك الوزير الأديب الشاعر .

فهل معنى ذلك أن ابن أبى دؤاد هو صاحب « الحيوان » أو هو من أهدى اليه الكتاب فمنح الجاحظ جائزته الكبيرة ؟ .

الاجابة لا لشىء بسيط هو أن « تاريخ » الحيوان بما أثبت فيه من روايات عن متعاصرين محدثين (٤٨) يجعل لانتهائه زمنا يقع بعد موت قاضى القضاة ، الا أن يكون الجاحظ شرع فيه ولم يتمه الا بعد انتهاء حياة ابن أبى دؤاد .. الأب والابن على حد سواء ! .

انـنــا ننظر الى ما قبل والى ما بعـــد ، ونحاول أن نتحقق فلا نستطيع . فقط نعرف أن الجاحظ كتب الحيوان بعد الجدل الذى نشب بين النظام ومعبد وكتبه أيضـــا وهو مريض أو وهو شديد المرض ـ أى أن الكتاب صادف احدى السنوات التسع الأخيرة ـ حتى ليقول : « أول ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب ، والرابعة انى لو تكلفت كتابا فى طوله وعدد الفاظه ومعانيه ثم كان من كتب العرض والجوهر والصفرة والتوليـــد والمداخلة والفرائز والنحاس لكان أسهل واقصر بابا واسرع فراغا . لانى كنت لا افزع فيـــه الى تلقط الأشعار ، وتتبع الأمثال ، واستخراج الآى من القرآن والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور فى الكتب » (٤٩) .

واذا مضينا مع النص نرى الجاحظ يخاطب من قصـده بالكتاب بقوله « فان وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ ومن سوء تاليف ، أو من تقطيع نظام ومن وقوع الشىء فى غير موضعه ، فلا تنكره بعد أن صورت عندك حالى التى ابتدأت عليها كتابى » .

أما من هو فلا دليل عليه ، ومن ثم لا يبعد أن يكون هـــذا ـ أى مخاطبة شخص ما فى الكتابة ـ منحى فنيا استهدف به الجاحظ تقريب القارىء اليه واستهواءه اذ يدغدغ عواطفه ويربت عليهـــا .

واذا انتقلنا الى «البيان والتبيين» وهو يلى «كتاب الحيوان» تاريخيا اذ يقول الجاحظ فيه « وهذا الباب يقع فى كتاب الانســان من كتاب الحيوان ، وفى فصل ما بين الذكر والأنثى ، وليس هذا البـــاب مما يدخل فى البيان والتبيين ولكن قد يجرى السـبب فيجرى معه بقدر ما يكون تنشيطا لقارىء الكتاب » (٥٠) نجـد الشىء نفسه ، اى اننا نرى من يحرص الجاحظ على مخاطبته « وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم اطالة الخطبة بأعظم مما يحـدث عن العى من اختلال

الحجـــة ... ثم أعلم أبقاك الله أن صاحب التشديق والتقعير والتعقيب من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عى من يتكلف الخطابة » (٥١) .

وفى هذه الحال لا نجد أكثر مما قلناه فى « الحيوان » على أن نوضح أن فى الكتاب موقفا عربيا خالصا يضيق دائرة البحث عن المهدى اليه اذا كان شخصا بعينه . اذ يجعله عربيا صليبة ؛ فهو يقول فى أحد أجزاء الكتاب « أردنا أبقاك الله أن نبتدىء هذا الجزء من البيـان والتبيين بالرد على الشعوبية فى طعنهم على خطباء العرب » (٥٢) ولما كان الكتاب فى فنون النثر والشـــعر وتاريخها الى أيام الجاحظ فقد وجب ان يكون هذا الشخص أديبا فى المحل الأول .

هـذا شيء ، واما الشيء الآخر فهو أن الـكتابين — على رغم اختلاف موضوعيهما لأن الأول يشتمل على وصف الحيوان وطباعه وأثر البيئة فيه ، ولأن الثانى يشتمل على صورة للبيان العربى كما يرسمها متكلم أشتدت عنايته به — يخرج كلام الجاحظ فيهما مخرج الشمول الأدبى ، بحيث يمكن أن يزعم زاعم أن الدراسات المتعلقة بالحيوان وجدت من السهل فى اثارتها للنزعات الانسانية أن تعتمد العبارة الأدبية فضلا عن أحاديث الأدب التى كان يتعمدها شحذا لهمم القراء وتنشيطا لهم (٥٣) .

ولقد يكون « كتاب الحيوان » بعـد ذلك مظهرا من مظـاهر الخصومة بين العربية والشعوبية — فثمة من يتعصب للبعير ، وثمة من يتعصـب للفيل (٥٤) — فيلتقى من هنا بالبيان والتبيين ، لأنه اعلان عن انشط مظهر من مظاهر الحياة العربية وهو لسانها . فالجاحظ من ثم معلم وأديب ، قرأ لأرسطو وجالينوس وفليمون وبطليموس ، وأحاط بحياة الفرس وأساطيرهم ، وعرف الكثير عن اليهود والنصارى تماما ، كما حفظ للعرب حياتهم وقصصهم وأخبارهم وتقاليدهم .

ان العلم ببساطة فى فهم الجاحظ ـ على ما يظهر فى كتابيه العظيمين ـ هو التجربة المستقاة من الذات نفسها وعن طريقها ومن الاطلاع المستديم ، ورسالة العلم ببساطة أيضا فى فلسفة الجاحظ ـ على ما يظهر فى الكتابين نفسيهما ـ هى ارسال المعلومة الى المتلقى بأى طريقة حتى ولو كانت هذه الطريقة مزج الجد بالهزل ! .

والحق الذى لا شك فيه أن أبا عثمان عمرو بن محبوب الجاحظ ـ ولم يكن بالرجل الفسيح الخيال ولا برجل العاطفة ـ ولم يجد أمامه أحدا من المعاصرين ولا من اللاحقين يشبهه ؛ بل ان كثيرين من السلف من أهل صنعته حاولوا أن يقلدوه فكان مصيرهم الاخفاق الذريع . ولعل الشىء الوحيد الذى يستطيع غيره من الكتاب أن يدافعوه عنه ، هو استخدام التراث العربى بلغة تحررت كثيرا من قيود الماضين مع الارتفاع بها الى مستوى المسلامة والاتقان ! .

تم الكتاب

## شروح وتعليقات

(١) يراجع تاريخ بغـداد ١٤ : ٣٥٨ — ٣٦٠ ، معجم الأدباء ٦ : ٥٦ وحرص الدكتور طه الحاجرى على الا يرفض أية رواية عن عام ميلاده ( الجاحظ ، حيـاته وآثاره ٨٩ ط . المعارف سنة ١٩٦٣ ) فى حين أصر شـارل بلا على أن يكون ميلاده فى عام ١٦٠ ( الجاحظ فى البصرة وبغداد ٩٢ ط . دار اليقظة العربية سنة ١٩٦١ ) . وبخصوص عروبتـه تتشابك الآراء فى دعاوى مختلفة تسلم كنانيته من الخلاف فيها ، فقد يكون كنانيا صليبة وليس فى هذا شيء ، وقد يكون كذلك بالولاء على ما يرويه يموت ابن المزرع ابن بنت أخت الجاحظ نفسـه فيما بعد ، وهنا ينبغى ان نسلم بأن من العرب الأقحاح من كان مولى للعرب الأقحاح ايضا فى الجاهلية .

(٢) النسيء تقليد جاهلى أبطله الاسلام ، وكان لفقيم حق تاخير حرمة الأشهر الحرم ـ ذى القعـدة وذى الحجة والمحرم ورجب ـ لغيرها رغبة منهم فى القتـال فيهـا ، واكتسـبت لذلك فضلا نفاه القرآن بقوله تعالى فى سورة التوبة « انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما » .

(٣) سيرصد الجاحظ أشياء مثل هذه فى كتابه « الحيوان » راجع منه ١ : ٢٨٣ على سبيل المثال ط . الحلبى سنة ١٩٤٧ .

(٤) لم ينس الجاحظ هـذه المعركة فدونها بدقة فى كتابه السابق مع تعليق عليها يكشف عن حدة ذكائه ويقظته ٢ : ١٤ .

(٥) توفى هذا الرجل سنة ١٨٢ هـ ( راجع المسعودى فى مروج الذهب ٢ : ٢٦٥ ط . البهية سنة ١٣٤٦ ) وكان يقال ان الجاحظ

أخذ النحو عن الأخفش والكلام عن النظام وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد — معجم الأدباء ٦ : ٥٦ .

(٦) فى البيان والتبيين ١ : ١٧٤ كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد ، على أنه قد كان وضع منزله فى آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة .

بلق البـــاب : انفتح على مصراعيه ، أدرنفق ، اندفع فيـه النـــاس بسرعة ، أدمج : دخله النـــاس جماعات ، ألصت ولوج الدار : حاولت دخول الدار ، دلظني : دفعني ، الحداد : البواب ، شيخان الحى : شيوخ القبيلة ، المرية : المرأة يريد العروس ، صـــتيتان : فريقان ، أرمداء · جمع رماد يريد الرماد المتخلف من الوليمة .

(٧) المعنى فى العبارة صحيح ، ولكنه فتح لأم « تلد » .

(٨) المراهقات : اللائى خدرن ومنعن من اللعب مع الصبيان ·

(٩) راجع الجاحظ ، حيـاته وآثاره للدكتور طه الحاجرى ١٥٢ ط . المعارف .

(١٠) راجع القصة بالتفصيل فى العقد الفريد ١ : ٢٦٦ ط . لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٤٨ .

(١١) كان ذلك عام ١٨١ .

(١٢) هذا مثل يضرب للرجل تكون فيه التى يحمدها من نفسه ولا يشعر بما فى الناس من الفضائل ، وأصله أن الرجل اذا أجرى فرسه فى مكان لا مسابق له فيه يفرح بما يرى من فرسه .

(١٣) راجع محمد باقر الموسوى الأصفهانى فى روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ٤٣ ط . ايران سنة ١٣٠٧ .

(١٤) راجع ابن حزم فى الفصل ٥ : ٧٥ .

(١٥) تحسن مراجعة الحيوان ٢ : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ـ ٤ : ٣٢٠ ـ ٥ : ٢٤٨ ـ ٦ : ٣٩٩ .

(١٦) يشير الى قوله :

جالست يوما أبانا لا در در أبان
ونحن حضر رواق الأمير بالنهروان

راجع الحيوان ٤ : ٤٤٨ .

(١٧) حجج النبوة ص ١٤٧ ط . القاهرة سنة ١٩٣٣ .

(١٨) مقالات الاسلاميين ١٩٠ - ١٩١ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ .

(١٩) روى أنه قيل للجماز : رأيناك فى دهليز فلان وبين يديك قصعة وأنت تاكل ، فمن أى شىء كانت القصعة وأى شىء فيها ؟ قال : قىء كلب فى قحف خنزير ( البخلاء ٦٤ ) .

(٢٠) الحياة الأدبية فى البصرة للمؤلف ٩٦ ط . دار الفكر بدمشق ١٩٦١ ومقالات الاسلاميين ١ : ٧١ ـ ٧٤ .

(٢١) فى كتاب الجاحظ « القول فى البغال » ويسمى أيضا « البغل » الذى يرجح أنه ذيل للحيوان ما يدل على أن الجاحظ كان سنة ١٩٩ بالنهروان عندما كان الحسن بن سهل قادما من خراسان ـ راجع الجاحظ ، حياته وآثاره ٢١٤ .

(٢٢) راجع الحيوان ٢ : ١٩١ .

(٢٣) الخبر بالتفصيل فى الأغانى ٩ : ١١٨ ط . دار الفكر ببيروت سنة ١٩٥٥ .

(٢٤) البيان والتبيين ٣ : ١٠٤ والقزاكند فارسية من قز اى حرير ومن آكند أو آغند أى محشو بتقدير قبا اى قباء أو ثوب ، فيكون المعنى ثوبا محشوا قزا اى مبطنا به .

(٢٥) يريد أهل السنة ، وفى الحديث الشريف « .. وان أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة وهى الجماعة » الفرق بين الفرق لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى ١٠ ط . مكتب نشر الثقافة الاسلامية سنة ١٩٤٨ .

(٢٦) هذا راى أساسى من آراء المعتزلة نجده عند الحسن البصرى أولا وهو شيخهم وأول من قال بالقدر ، وضمنه بشر ابن المعتمر ارجوزتهالمشهورة فقال « يبدأ من عمرو ومن معاوية » .

(٢٧) اى الأغمار والنشء الصغار ويراد بهم أهل الحديث السنيين الذين نبتوا أيام الجاحظ ونادوا بالاحتجاج لمعاوية ، ثم اشتغلوا بالسياسة حتى هددوا عرش الخلافة ، فأمر المأمون بالتنكيل بهم .

(٢٨) أشار الى هذه الكتب فى الحيوان عندما قال فى مقدمته : « وعبتنى بكتات القحطانية وكتاب العدنانية فى الرد على القحطانية، وزعمت أنى تجاوزت فيه حد الحمية الى حد العصبية وأنى لم أصل الى تفضيل العدنانية الا بتنقص القحطانية . وعبتنى بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أنى بخست الموالى حقوقهم ، كما أنى اعطيت العرب ما ليس لهم » راجع المقدمة ١ : ٤ ، ٥ .

(٢٩) يذكره ياقوت فى معجم الأدباء ٦ : ٧٧ بكتاب « التسوية بين العرب والعجم » وذكر أيضا كتاب « فخر القحطانية والعدنانية » .

(٣٠) تكلم فى « الصرحاء والهجناء » عن السودان أشباه الخلص وقصد بهم العرب .

(٣١) المقصود ثورة العبيد التى اشتعلت نارها فى السادس والعشرين من رمضان سنة ٢٥٥/٨٦٩ واستمرت أربعة عشر عاما . وكان عامة الثوار من زنج الصومال وزنجبار الذين عملوا فى سهول

البصرة ، ورأسهم « بهبوذ » الفارسى الذى تسمى باسم محمد ابن على زاعما انه عربى قح .

(٣٢) ذكرها ياقوت باسم كتاب المغنين مرة واخرى بذلك الاسم ٦ : ٧٧ ، ٧٨ ونشرها عبد السلام هارون باسم « كتاب القيان » ــ رسائل الجاحظ ٢ : ١٤٣ ط . الخانجي سنة ١٩٦٥ .

(٣٣) ذكر ياقوت فى قائمة كتب الجاحظ « كتاب النساء » مع « كتاب الجوارى » ــ معجم الأدباء ٦ : ٧٦ ، ٧٧ ويبدو أنه اراد أن يجعله جزءا من أجزاء الحيوان لأنه وعد أن يتكلم فى « فصل ما بين الذكورة والاناث » وقارىء الكتاب لا يجده فكأنه شرع فيه فلما طال جعله مستقلا ، وليس في أيدينا من هـذا الكتاب الا بقايا مضطربة على ما نرى فى هامش الكامل للمبرد ١ : ١٣٠ ــ ١٦٦ ط . مصر سنة ١٣٢٣ ويرى الدكتور طه الحاجري أن هذا الكتاب في حقيقته أول كتاب عن الحب في العربية وليس كتاب الزهرة لداود الظاهري ــ الجاحظ ، حياته وآثاره ٤٣٨ .

(٣٤) العقد الفريد ٥ : ١٢١ ط • لجنة التـأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨ وتاريخ أبى الفدا ٢ : ٣٥ ط . القسطنطينية سنة ١٢٨٦ .

(٣٥) حاول أبو منصور البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » أن يلخص الجاحظية فى الاعتزال مشنعا منددا ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣٦) اعتمدنا على مجهود الدكتور طه الحاجرى فى حصر انتاج هذه الفترة للجاحظ ــ راجع الجاحظ ، حيـاته وآثاره ٣٢١ وما بعدها .

(٣٧) تسمى أيضا « كتاب الآداب » كما جاء فى العقد الفريد ٣ : ٢٨ وينبغى أن نقرر هنا أن اعجاب الجاحظ بابن المقفع ــ الذى رأيناه منذ قديم ــ ظهر فيها ليس فى بعض الصياغات فحسب على الرغم من أن منهج ابن المقفع اعتمد الرواية فى حين اعتمد الجاحظ

النظر والاستقصاء ، وانما أيضا فى وقوعهما على المحفوظ من كلام الناس وتصفحهما عقول العاملين بأخلاق النبيين وذوى الحكمة من الماضين والباقين ، هذا مع ملاحظة ان الجاحظ كان يبدو فى بعض الأحيان فى موقف المعارض لكثير مما ذهب اليه ابن المقفع .

(٣٨) فى مروج الذهب ٢ : ٣٦٩ ، ٣٩٤ أن أحدا ممن سلف من خلفاء بنى العباس لم يظهر فى مجلسه من العبث والهزل والمضاحك ما اظهره المتوكل ، كما قيل انه لم تكن النفقات فى عصر ما مثلها فى أيام المتوكل . وقد انفق على الهارونى والجعفرى اكثر من مائة الف الف درهم مع الاكثار من الموالى والجند الشاكرية ، ومات وفى بيوت المال أربعة آلاف ألف دينار وسبعة آلاف الف درهم . ولا يعلم أحد فى صناعته فى جد ولا هزل الا وقد حظى بمال موفور منه ، وكان من أبرز شعراء عصره البحترى والخليع وعلى بن الجهم .

(٣٩) كثيراً ما يختلط الأمر على الدارسين ــ كعبد السلام هارون ومحمد خفاجى ــ فلا يفرقون بين أبى الحسن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المتوكل والمعتمد وبين الفتح بن خاقان بن أحمد أو ابن غرطوج الذى كان أبوه أحد قواد المعتصم ، ونشأ هو فى القصر حتى أنزله المتوكل منزلة الأخ . وقد صرع ليلة هوجم المتوكل ، ووصف المسعودى ٢ : ٣٩٣ مقتلهما وصفا مؤثرا ، ومدحه البحترى بشعر كثير ، واعترف المبرد بفضله عليه ، وذكر أبو هفان أنه أحد ثلاثة اهتموا بالكتب والآخران الجاحظ وعلى ابن يحيى المنجم الأديب المتطبب .

(٤٠) راجع رسائل الجاحظ ١ : ٣٨١ وفى الرسالة يقول الجاحظ « فخذ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الأدب فانك ان أفردتهم بشىء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوا » وهذا يبين بسهولة مضمون الرسالة .

(٤١) كتب فى هذه الأثناء « كتاب الرد على النصارى » و « كتاب الرد على اليهود » .

(٤٢) الرسالة فى كتاب رسائل الجاحظ ١ : ٥ بعنوان « مناقب الترك » وهى قسمان أولهما كتبه الجاحظ أيام المتوكل ، وثانيهما كتبه أيام المعتصم ، ولكنه ضم الجزء الثانى الى الجزء الأول وقدمه الى الفتح بن خاقان قائلا ان الجزء الثانى لم يتح له أن يصل الى المعتصم « لأسباب يطول شرحها » .

(٤٣) القصيدة كاملة فى الرسائل ١ : ٣٢٥ وقد اختار منها ياقوت أبياتا تختلف فى صياغتها عما أثبت فى قصيدة الرسائل — معجم الأدباء ٦ : ٧٩ واكتفيت أنا بصنيع ياقوت .

(٤٤) أنظر له « رسالة فى مدح النبيذ » مع أنه كتب « رسالة فى ذم النبيذ » وله أيضا « الشارب والمشروب » — معجم الأدباء ٥ : ٧٧ .

(٤٥) كتاب البخلاء أوضح صورة لذلك .

(٤٦) راجع له « رسالة الجوارى » و « كتاب الأنس والسلوة » و « كتاب القينين والغناء والصنعة » .

(٤٧) راجع ياقوت فى معجم الأدباء ٦ : ٧٥ .

(٤٨) فى الحيوان عن محاولة أحد المعاصرين تعليم الذئب ٧ : ٢٥٣ أن الخصى العبدى الفقيه حدثه عن ذلك « فى الأيام التى قام بها أمير المؤمنين المتوكل على الله » أى أن كتاب الحيوان وضع أو شرع فى وضعه خلال السنوات التسع الأخيرة .

(٤٩) راجع الحيوان ٤ : ٢٠٨ .

(٥٠) البيان والتبيين ١ : ١٩٥ ط . التجارية سنة ١٩٤٧ .

(٥١) السابق ١ : ٢٩ ، ٣٠ .

(٥٢) السابق ٢ : ٣ .

(٥٣) كان الجاحظ يقول « متى خرج – يريد القارىء – من آى القرآن الى الأثر ومتى خرج من أثر صار الى خبر ، ثم يخرج من الخبر الى الشعر ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس سداد . ثم لا يترك هذا الباب ولعله يكون أثقل والملال اليه أسرع حتى يفضى الى مزح وفكاهة والى سخف وخرافة ولست أراه سخفا » .

(٥٤) يمكن أن نجعل المناظرة فى الفأر والسنور ردا من العرب على المجوس ، لأن زرادشت – على ما أورد الجاحظ فى الجزء الرابع من الحيوان – يزعم أن الفأرة من خلق الله وأن السنور من خلق أهرمن أو أبليس : ويقول عن غانم العبدى الرفيع ٧ : ٣٥ « فمن حمقه أنه هندى وهو يتعصب على الفيل » اذ المفروض أن يقف فى صفه ! .

# فهرست

الصفحة



## البـــاب الأول
## البحث عن طريق

الصفحة



## الباب الثاني

## شيخ الكتاب

# صدر من سلسلة أعلام العرب

| اسم الكتاب | المؤلف |
| --- | --- |
| ١ ـ محمــد عبده ... ... ... | عباس العقاد |
| ٢ ـ المعتمد بن عباد ... ... ... | على أدهم |
| ٣ ـ جابر بن حيان ... ... ... | د . زكى نجيب محمود |
| ٤ ـ عبــد الرحمن بن خلدون ... | د . على عبد الواحد وافى |
| ٥ ـ ابن تيمية ... ... ... ... | د . محمد يوسف موسى |
| ٦ ـ معـــاوية ... ... ... ... | ابراهم الابيارى |
| ٧ ـ سـيد درويش ... ... ... | د . محمد أحمد الحفنى |
| ٨ ـ عبد القاهر الجرجانى ... ... | د . احمد بدوى |
| ٩ ـ عبد الله النديم ... ... ... | د . على الحديدى |
| ١٠ ـ عبد الملك بن مروان ... ... | د . ضياء الدين الريس |
| ١١ ـ مالك ... ... ... ... ... | امين الخولى |
| ١٢ ـ القلقشندى ... ... . ... | د . عبد اللطيف حمزه |
| ١٣ ـ الطبــرى ... ... ... ... | د . أحمد محمد الحوفى |
| ١٤ ـ الظاهر بيبرس ... ... .. | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ١٥ ـ ابن الفــارض ... ... ... | د . محمد مصطفى حلمى |
| ١٦ ـ المختار الثقفى ... ... ... | د . على حسنى الخربوطلى |
| ١٧ ـ الوليد بن عبد الملك ... ... | د . سيدة اسماعيل الكاشف |
| ١٨ ـ الأصمعى ... ... ... ... | د . أحمد كمال زكى |
| ١٩ ـ زكريا أحمــد ... ... ... | صبرى أبو المجد |
| ٢٠ ـ قاسم امين ... ... .. ... | د . ماهر حسن فهمى |
| ٢١ ـ شكيب أرسلان ... ... ... | أحمد الشرباصى |
| ٢٢ ـ ابن قتيبة ... ... ... ... | د . عبد الحميد سند الجندى |
| ٢٣ ـ أبو هريرة ... ... ... ... | محمد عجاج الخطيب |
| ٢٤ ـ عبد العزيز البشرى ... ... | د . جمال الدين الرمادى |
| ٢٥ ـ الخنسـاء ... ... ... ... | محمد جابر الحينى |
| ٢٦ ـ الـكندى ... ... ... ... | د . أحمد فؤاد الاهوانى |
| ٢٧ ـ الصاحب بن عبـــاد ... ... | د . بدوى طبانه |
| ٢٨ ـ النـاصر بن قلاوون ... ... | د . محمد عبد العزيز مرزوق |
| ٢٩ ـ أحمــد زكى ... ... ... | أنور الجندى |
| ٣٠ ـ حسان بن ثابت ... ... ... | د . سيد حنفى حسنين |

| اسم الكتاب | | المؤلف |
| --- | --- | --- |
| ٣١ ـ المثنى بن حارثه الشيبانى | ... | عقيد محمد فرج |
| ٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى | ... | عبد القادر أحمد |
| ٣٣ ـ رشيد رضا ... ... | ... | د . ابراهيم أحمد العدوى |
| ٣٤ ـ اسحاق الموصلى ... | ... | د . محمود أحمد الحفنى |
| ٣٥ ـ ابو حيان التوحيدى .. | ... | د . زكريا ابراهيم |
| ٣٦ ـ ابن المعتز العباسى ... | ... | د . أحمد امام زكى |
| ٣٧ ـ الزهاوى ... ... ... | ... | د . ماهر حسن فهمى |
| ٣٨ ـ أبو العلاء المعرى ... | ... | د . عائشة عبد الرحمن |
| ٣٩ ـ أحمد لطفى السيد .. | ... | د . حسين فوزى النجار |
| ٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين | ... | د . فوقية حسين |
| ٤١ ـ صلاح الدين الأيوبى ... | ... | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ٤٢ ـ عبد الله فكرى ... ... | ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٤٣ ـ عبد الله بن الزبير ... | ... | د . على حسنى الخربوطلى |
| ٤٤ ـ عبد العزيز جاويش ... | ... | أنور الجندى |
| ٤٥ ـ ابن رشيد القيروانى .. | ... | عبد الرءوف مخلوف |
| ٤٦ ـ محمد عبد الملك الزيات | ... | محمود خالد الهجرسى |
| ٤٧ ـ حفنى ناصف ... ... | ... | محمود غنيم |
| ٤٨ ـ أحمد بن طولون ... ... | ... | د . سيدة اسماعيل الكاشف |
| ٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى .. | ... | أحمد سعيد الدمرداش |
| ٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق ... | ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٥١ ـ المهدى العباسى ... .. | ... | د . على حسنى الخربوطلى |
| ٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى | ... | د . محمود رزق سليم |
| ٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى ... ... | ... | د . حسين فوزى النجار |
| ٥٤ ـ زرياب ... ... ... | ... | د . محمود أحمد الحفنى |
| ٥٥ ـ الكندى « المؤرخ » ... | ... | د . حسن أحمد محمود |
| ٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى ... ... | ... | د . زكريا ابراهيم |
| ٥٧ ـ ابن النفيس ... ... | ... | د . بول غليونجى |
| ٥٨ ـ السيد أحمد البدوى ... | ... | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ٥٩ ـ المأمون ... ... ... | ... | د . محمد مصطفى هداره |
| ٦٠ ـ المقرى ... ... .. | ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٦١ ـ جمال الدين الأفغانى .. | ... | عبد الرحمن الرافعى |
| ٦٢ ـ الجاحظ ... ... ... ... | ... | د . أحمد فهمى زكى |

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر تصدر في ١٠ فبراير ١٩٦٧

العدد الثالث والثلاثون من

# مجلة الكاتب العربي

رئيسا التحرير

علي أدهم

الدكتور عبد الحميد يونس

يطلب من باعة الصحف وفي
مكتبات المراكز القومية للتوزيع
ومكتبات الدار القومية ، ووكلاء
التأليف والترجمة ، ووزارة الثقافة
بالمحافظات الثمن ١٠ قروش

من مقالات هذا العدد النقدية .



عدا الأبواب الثابتة

أعلام العرب

٦٣

# ابن ماجد الملاّح

دار
الكاتب
العربي
للطباعة
والنشر

أعلام العرب

٦٣

# ابن ماجد الملاّح

تأليف

الدكتور أنور عبد العليم

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

# مقدمة

يزخر التراث العربى الذى آل الينا من القرون الوسطى بقصص الأسفار والمغامرات البحرية التى قام بها الملاحون والتجار العرب فى المحيط الهندى وبحر الصين فيما بين سيراف ( علـــى الخليج الفارسى ) وكانتون بالصين منذ وقت متقدم كالقرنين التاسع والعاشر بعد الميلاد كما فى قصص « التاجر سليمان » و « أبو زيد السيرافى » وهى القصص التى انتشرت انتشارا واسعا بعد ذلك فى الأدب العربى وكانت الأصل المشترك لمثيلاتها فى الآداب الأوربية أيضـــا كما انتهت اليه بحوث المستشرقين الأجانب من أمثال العلامة الهولندى دى خويه (De Goeje) ( ١٨٩٠ – ١٨٩٣ م ) (١) أثنـــاء تحليله للأساطير الأوربية المبكرة . وتدخل هذه القصص كلها فى محيط الأدب الشعبى ( الفولكلور ) العالمى للقرون الوسطى .

وفى نفس الوقت وصلتنا من تلك القرون أيضا كتب « العجائب » التى تصف الغريب من حيوانات البحر وظواهره وأهواله كما فى كتاب « عجائب الهند » لبزرج بن شهريار ( القرن العاشر الميلادى أيضا ) وتحفة الألباب لأبى حامد الأندلسى الغرناطى ( حـــوالى ١١٦٠ م ) وعجائب المخلوقات للقزوينى ( ١٢٨٠ م ) وعجائب البر والبحر للدمشقى الصوفى ( ١٣٢٥ م ) .

وتعكس مثل هذه الكتب والقصص بشكل واضح عمق التجربة العربية للملاحين والتجار العرب فى البحار الجنوبية ، سواء أكان

---

(١) M. de Goeje (1890-3) La legende de St. Brandan (1 & 2) Leiden.

ذلك فى المحيط الهندى ( بحر الهند كما كان يسمى ) وجزره وخلجانه أم فى البحار المترامية التى دفعتهم مغامراتهم اليها كأرخبيل الملايو وبحر الصين ، الا أن هذه القصص والحكايات لم تكن فى جملتها ذات طابع علمى أو عملى يوصلنا الى الاستدلال على الخبرة الملاحية العلمية للملاحين العرب فى ذلك الوقت ، والتى كانت ولا شك على درجة كبيرة من التقدم .

واذا كان الأمر كذلك فأين هى المؤلفات العلمية ذات الطابع التكنيكى لهؤلاء الربابنة العرب التى تصف مسالك الملاحة فى أعالى هذه البحار ووسـائل ضبط المجرى والقياس أو تشرح الآلات والأدوات التى استعملوها فى السير فى البحر . وهل كانت لديهم خارطات بحرية تحدد مجرى السفينة فى عرض المحيط كما يفعل القباطنة اليوم ؟ واذا لم تكن مثل هذه المعلومات قد دونت فى الكتب ، فهل كانت الخبرة الملاحية العربية فى ذلك الوقت سرا محفوظا فى الصدور يتوارثه الأبناء عن الآباء ويخشى تدوينها فى بطون الكتب والمخطوطات ؟ أو أن ثمة مؤلفات قد كتبت بالفعل فى فنون البحر على أيامهم ولكنها فقدت أو لم تصل الى أيدينا أو لم ينسخ منها الناسخون القدر الكافى حيث لم تكن بذات أهمية كبيرة لهم .

ومهما كان السبب فالمكتبة العربية جد فقيرة فى مثل هذه المؤلفات التى يمكن أن نصفها أو نحددها تحت عنوان « فنون البحر والملاحة الفلكية » من بين كتب التراث العربى الجمة التى آلت الينا من العصور الوسطى .

والواقع ان الاعتقاد قد ساد لفترة طويلة من الزمن بأن مثل هذه الكتب لم تكتب على الاطلاق الى أن اكتشف فى العشرينات من هذا القرن مخطوط عربى قديم يرجع عهده للمائة التاسـعة الهجرية ( القرن الخامس عشر الميلادى ) كانت مكتبة المخطوطات بباريس قد حصلت عليه فى عام ١٨٦٠ من أستاذ جزائرى تولى التدريس فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس فى ذلك الوقت . وظل المخطوط

المذكور منسيا فى أرشيف المكتبة تحت رقم ٢٢٩٢ ، رغم اشارات عابرة عنه ، حتى الثلث الأول من القرن العشرين حين قام المستشرق الفرنسي الألمعي جبريل فراند (١) Gabriel Ferrand بالتحقق من قيمته العلمية فنشره لأول مرة بين سنوات ١٩٢١ ــ ١٩٢٣ بطريقة التصوير الفوتوغرافى وعلق عليه . ونسخة باريس المشار اليها عليها تعليقات على الهوامش وبها اخطاء فى النحو والصرف وفى الوزن والقافية .

ويحتوى هذا المخطوط على تسعة عشر مؤلفا فى الملاحة الفلكية وفنون البحر لربان عربى من عمان يدعى شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى أو النجدى كما كان يسمى عاش فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجرى .

**ويعتبر هذا المخطوط فى الواقع اهم وثيقة فى الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصـــور الوسطى على الاطلاق . وتنحصر اهميته فى أنه أقدم الوثائق الجيدة التى وصلتنا والتى دونت عن الملاحة وفنون البحر فى البحار الجنوبية بين الساحل الشرقى لأفريقيا وبلاد الصين بلغة من اللغات ، كما انه يرد فيه لأول مرة ذكر اسم لعلم جديد هو (( علم البحر )) بمعناه الواسع مما نعرفه اليوم باسم علم الاقيانوغرافيا أو الاقيانولوجيا Oceanography or Oceanology ولهذا أثره الكبير فى تاريخ العلوم .**

**ثم ان هذه الوثيقة لتلقى كثيرا من الضوء على مقدار ما بلغه العرب من تقدم فى فنون البحر والملاحة حتى القرن الخامس عشر وعلى مدى تأثر البرتغال بالفكر العربى وبالتعاليم والتقاليد الملاحية العربية بشكل عام وفى المحيط الهندى بشكل خاص . وفضلا عن ذلك فان هذه الوثيقة لتحتوى أيضا على كثير من المصطلحات العلمية**

---

(١) G. Ferrand (1921-3) : Instructions rautiques arabes, Paris.

**والفنية التى تعتبر فى حد ذاتها ثروة كبرى للغة العربية فى الوقت الذى نسعى فيه لتعريب العلوم .**

ولقد عثر فى دمشق فى عام ١٩١٩ على نسخة أخرى من المخطوط المذكور قام بالتعليق عليها ومقـــارنتها بنسخة باريس المستشرق جبرييل فران أيضا . وفى مكتبة باريس أيضا مخطوط آخـــر برقم ٢٥٥٩ يحتوى على خمس رسائل ملاحية للشيخين احمـــد ابن ماجد وسليمان المهرى يرجع عهده لمنتصف القرن السادس عشر الميلادى ، ولكنه ليس بنفس القيمة التى عليها مخطوط ابن ماجد وحـــده .

ولقد عثر الأستاذ كراتشكوفسكى المستشرق الروسى بمكتبة الاستشراق فى لننجراد على ثلاث « أراجيز » أخـــرى لابن ماجد لم يسبق نشرها ، قام بنشرها والتعليق عليها الأســـتاذ تيودور شوموفسكى الذى نشر كتابه باللغة الروسية فى عام ١٩٥٧ .

ويقال ان ثمة رسالة لابن ماجد بجدة وأخرى بالموصل أيضا وثالثة بفينا ولكن لم يتأكد المحققون بعد من صحة هذه الوثائق .

وشملت الدراسات التى أجريت حول مؤلفات ابن ماجد من واقع هذه المخطوطات الشكل العام لها والتحقيق من وجهة النظر التاريخية وشرح بعض الألفاظ بالاضافة الى دراسات قليلة للغاية عن الناحيتين العلمية والفنية لمحتوى هذه المخطوطات .

وقد اتيح لنا الاطلاع على بعض أعمال ابن ماجد لأول مرة فى لننجراد فى صيف عام ١٩٦١ وعلى نسخ مصورة من مخطوطى باريس سالفى الذكر بالاضافة الى النزر اليسير الذى كتبه المستشرقون بلغات مختلفة عن هذا الملاح العربى . وتفتقر المكتبة العربية فى الواقع الى دراسة جادة عن ابن ماجد والتعريف به والى نشر مؤلفاته . وجدير بالذكر فى هذا الصدد اننا لم نعثر على أى مرجع لابن ماجد باللغة العربية سوى مقال كتبه عنه الأستاذ محمد ياسين الحموى

فى دمشق عام ١٩٤٧ بعنوان « الملاح العربى » وعلى مقال آخر كتبه بعد ذلك بعشر سنوات الأستاذ حسن كامل الصيرفى فى مجلة المجلة عام ١٩٥٧ بالاضافة الى شذرات عنه هنا وهناك فى بعض الكتب التى تعرضت لتاريخ الملاحة .

ولا ترجع شهرة الربان العربى الى كونه مؤلفا ترك للتراث العربى ذخيرة هامة من المؤلفات العلمية والتكنولوجية عن البحر وفنون الملاحة فحسب بل الى أنه كان أيضا المرشد لسفينة فاسكودى جاما البرتغالى من ثغر مالبندى على خط عرض ٣ درجات جنوب خط الاستواء على الساحل الشرقى لأفريقيا الى كلكتا فى عام ١٤٩٨ م . وقد اعترفت حكومة البرتغال نفسها بذلك الأمر مؤخرا فأقامت نصبا تذكاريا فى مالبندى يخلد هذه المناسبة (١) .

وقد كلفتنا دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة منذ أكثر من ست سنوات بتقديم كتاب فى سلسلة « أعلام العرب » عن ابن ماجد ، لكننا تهيبنا أول الأمر هـذا العمل نظرا لصعوبة المادة من ناحية ولعدم توفر المراجع من ناحية أخرى ، ولكننا مع هذا كنا ننتهز فرصة السفر للخارج فى مناسبات شتى سواء أكانت لتلبية دعوات لحضور مؤتمرات علمية أم فى مهمة علمية للجامعة ، فننقب ما استطعنا فى مكتبات المعاهد والجامعات الأجنبية حتى توفرت لنا مادة كنا نقوم بدراستها من آن لآخر بين زحمة العمـل بالجامعة والاشراف على بحوث طلاب الدراسات العليا ، ووضح لنا فى النهاية ان هذا الموضوع لا يمكن أن يستوعبه كتاب واحد فى مثل حجم كتب سلسلة أعلام العرب ، بل ان الأمر ليتطلب تقديم ابن ماجد وأعماله ومؤلفاته لقراء اللغة العربية من جديد وبشكل مستوف فى

(١) أخبرنى بذلك أستاذ من جامعة شرق أفريقيا أطلعنى على صورة فوتوغرافية للنصب المذكور صيف عام ١٩٦٦ .

موسوعة ضخمة حفاظاً على هذا التراث العربى الخالد من الضـياع وللتعريف به لقراء العربية على حقيقته ، وهو ما نتمنى أن يتم فى يوم من الأيام .

هذا وقد دعتنا هيئة المؤتمر الدولى الأول لتاريخ علوم البحار الذى عقد فى امارة موناكو فى ديسمبر عام ١٩٦٦ الى القـاء بحث فى المؤتمر المذكور عن ابن ماجد وأعماله (١) .

ولقد قسمنا كتاب ابن ماجد هذا الذى نضعه بين أيدى قراء العربية لأول مرة ضمن سلسلة أعلام العرب الى بابين : الأول منهما يتعلق بتاريخ هذا الملاح وسيرته وبتاريخ الملاحة العربية واثرها على الفكر البرتغالى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، مع التنويه بقصة ارشاد ابن ماجد للملاح البرتغالى فاسكو دى جاما الى الهند ، ثم بعد ذلك قدمنا للقارىء قائمة بمؤلفات ابن ماجد مع استعراض عام لها .

أما الباب الثانى من الكتاب فيتناول الناحية الفنية عند ابن ماجد وهو ما جمعناه تحت عنوان « فنون البحر والملاحة » ، وفيه تعرضنا لدستور البحر الذى وضعه ابن ماجد كما استخلصناه من هـذه المؤلفات وللسفينة والمجرى والبحر والرياح وما اليها ، ثم لقياساته الملاحية وأرصاده وذلك بشكل عام من واقع هذه المؤلفات ، وبالرجوع الى المصادر المختلفة التى تكون قد تناولت مثل هذه النواحى .

---

(١) ALEEM, A.A. (1967) : Ahmad ibn Magid, an Arab Navigator of the XV th. Century and his Contributions to Marine Sciences. Proc. First Intern. Congress of the History of Oceanography. Monaco.

ويلزم التنويه بأن كل ما استشهدنا به من كلام ابن ماجد شعرا كان أو نثرا انما أبقيناه على حاله عملا بأمانة النقل رغم ما قد يبدو فيه من اخطاء لغوية واضحة .

ولا يسعنا فى ختام هذه المقدمة الا أن نزجى الشكر لدار الكاتب العربى للطباعة والنشر ( الدار المصرية سابقا ) التى حفزتنا على اتمام هذا العمل ، ثم للقسم الثقافى وقسم المخطوطات بالجامعة العربية ثم للسادة أمناء دار الكتب والخزانة التيمورية بالقاهرة على معاونتهم الوثيقة فى جمع المراجع والرجوع الى الكتب النادرة والمخطوطات .

الاسكندرية فى يوليو ١٩٦٦

**دكتور انور عبد العليم**

استاذ ورئيس قسم علوم البحار
بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية

# الباب الأول

## سيرة وتاريخ

الفصل الأول ـ سيرة ابن ماجد وحياته .

الفصل الثاني ـ أثر الفكر العربي على الملاحة البرتغالية .

ـ تاريخ البوصلة البحرية .

الفصل الثالث ـ قصة ارشاد ابن ماجد لفاسكودى جاما الى الهند عام ١٤٩٨ م .

الفصل الرابع ـ مؤلفات ابن ماجد .

# الفصل الأول

## سيرة ابن ماجد وحياته

في مستهل كتاب « الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » لشهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي صفة من الصفات العديدة التي كان ينعت بها هذا الربان وهي « رئيس علم البحر وفاضله وأستاذ هذا الفن وكامله » . وقد أمكننا جمع اسمه ونسبه وكناه المتعددة التي طالما صدر أو ختم بها أو ضمنها المؤلف كتبه وأراجيزه وأشعاره ، فهو الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي ( نسبة الى نجد في الحجاز ) وهو حاج الحرمين الشريفين المكنى بالمعلم أو المعلم العربي وناظم القبلتين ( مكة وبيت المقدس ) وبشهاب الدنيا والدين وبأسد البحر وبليث الليوث وبرابع ثلاثة من المعالمة المشهورين في البحر وهم محمد بن شاذان وسهل بن أبان وليث بن كهلان . وقد اطلع هو نفسه على رهماني ( مرشد ملاحي ) بخط حفيد ليث بن كهلان يرجع تاريخه الى سنة ٥٨٠ هـ . ويقول ابن ماجد ان خبرة هؤلاء الرجال محدودة على الرغم من ذلك فهم لم يركبوا البحر الا من سيراف ( على الخليج الفارسي ) الى بر مكران ( على ساحل السند ) (١) .

ثم يعدد ابن ماجد في كتاب الفوائد معالمة البحر المشهورين من غير هؤلاء منذ ظهور الاسلام حتى وقته وأولهم محمد بن شعبان

(١) استطعنا تحقيق مثل هذه المواقع بالرجوع الى المصادر المختلفة ( المؤلف ) .

فى اليمن وهو من الازد ثم محمد بن أحيحة بن الحاج الأوسى ثم محمد بن مسلمة الأنصارى وقد عاصر النبى صلى الله عليه وسلم ويذكر بعد ذلك المعلم خواشير بن يوسف بن صلاح الاركى ( من سيراف على الظن ) وكان يسافر فى حوالى عام ٤٠٠ (١) هـ فى مركب دبوكرة الهندى · وفى ذلك الوقت أيضا اشتهر من النواخيذ (٢) ( الربابنة ) أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى الفضل المغيرى· وكان أكثر علم هؤلاء كما يقول ابن ماجد فى كتاب الفوائد أيضا « فى صفات البرور ومسايرات البرور أكثرها من تحت الريح » وواضح أنه يعنى أن خبرتهم كانت تنحصر فى **الملاحة الساحلية** ولم تكن كبيرة فى البحر الطليق .

وينحدر ابن ماجد نفسه من أسرة ربابنة فقد كان أبوه ربانايلقب بربان البرين ( أى بر العرب وبر العجم ) وقد دون هو الآخر تجاربه الملاحية فى مصنف ضخم هو « أرجوزته الحجازية » التى تضم أكثر من ألف بيت فى وصف الملاحة فى البحر الأحمر ، وكان جده هو الآخر ملاحا مشهورا .

أما عن سبب تأليف كتاب الفوائد فيقول ابن ماجد « ألفته وصنفته لركاب البحر ورؤسائه وفيه وما اشتبه من الحاوية ( يعنى حاوية الاختصار فى أصول علم البحار وهو مؤلف له سابق على كتاب الفوائد ) وغيرها على الطالبين · وسميناه كتاب الفوائد ، وهو مشتمل على فوايد كثيرة غوامض وظواهر .. » ويضيف المؤلف فى موضع آخر سببا جديدا وهو أنه « يخاف أن يدركه الموت ونوادر الحكم فى القلوب » .

---

(١) يوافق ١٠٠٩ ـ ١٠١٠ ميلادية .

(٢) ومفردها «ناخذه» وهى كلمة فارسية معناها ربان أصلها « ناو = سفينة ، خده = صاحب » أى صاحب السفينة وكانت شائعة الاستعمال فى المحيط الهندى فى القرون الوسطى .

ولا يعرف على وجه التحقيق تاريخ ميلاد هذا الربان الماهر والمعلم القدير حتى ولا تاريخ وفاته الا أن الثابت أن نشاطه كان ينحصر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ( أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى ) .

وقد لوحظ ان بعض مؤلفاته مؤرخة فى ختامها وبعضها غير مؤرخ ففى النسخة التى بين أيدينا من كتاب الفوائد ( مصورة عن مخطوط باريس رقم ٢٢٩٢ ) ، يختتم المؤلف هذا الكتاب بقوله :

« وختمنا هذا الكتاب فى عام خمس وتسعين وثمان مائة على الاختصار بقولى اوصيكم بتقوى الله وقلة الكلام وقلة المنام وقلة الطعام ونستغفر الله من التقصير والزيادة والنقصان » وهـــذا التاريخ يوافق عام ١٤٨٩ — ١٤٩٠ م .

ويرى جبرييل فران أن ابن ماجد ربما نسخ بنفسه هذا الكتاب على سنوات مختلفة وعدل في بعض فقراته وهذه السنوات هى على الترتيب ١٤٧٥ م ، ١٤٧٨ م ، ١٤٩٠ م وهى التى تمت على عهد السلطان أشرف قايتباى الذى حكم بين سنوات ٨٧٣–٩٠١ هـ ( ١٤٦٨ — ١٤٩٥ م ) كما هو مذكور فى بعض فقرات فى النسخة الوحيدة الأخرى من كتاب الفوائد المعروفة بمخطوطة دمشق والتى عثر عليها ضمن مخطوطات أخرى فى عام ١٩١٩ فى سوريا . وهذه النسخة الأخيرة كتبها بخط يده « راجى عفو ربه أحمد بن محمد بن يحيى الحمال الحلبى » . وكان الفراغ من كتابتها « تجاه الكعبة المعظمة يوم الثلاثاء عاشر شهر ربيع الأول سنة واحد والألف » .

وقد وجـــدنا فى نسخة باريس من كتاب الفـوايد ما يؤيد تاريخ كتابة هذا المخطوط فى عام ٨٩٥ هـ كما ذكرنا ، اذ يقرر ابن ماجد فى تاريخ جزيرة سقطرة ما يلى « وتولي عليهم سعد بن مبارك ابن فارسي بعد أن حاصرها ثلاثة اشهر كاملة وجاءوا فأخرجهم من حصار الشحر الى بلدهم حضرموت وكان عليها حينئذ بدر بن

محمد الكثيرى فخرجوا فأجاروه ومن عنده فى عام **أربعة وتسعين وثمانمائة** وفى هذا التاريخ ( صارت ) جزيرة سقطرة للمهرة » . ومن التواريخ الأخرى فى كتاب الفوائد تاريخ حادث وقع له فى البحر القلزمى ( البحر الأحمر ) عام ٨٩٠ هـ ( الموافق ١٤٨٥ م ) ولولا انه استعان بأبيات كان يحفظها من ارجوزة لأبيه تصف مسالك هذا البحر لتحطمت سفينته .

والثابت أيضا أن ابن ماجد ألف « حاوية الاختصار » حوالى عام ٨٦٦ هـ ( ١٤٦٢ م ) أى قبل كتاب الفوائد بنحو ثلاثين سنة .

ويؤرخ ابن ماجد لأرجوزته الذهبية فى متنها بعام ٨٩٣ هـ ( الموافق ١٤٨٨ م ) بقوله :

عام ثمان ماية مع تسعينا    وبعدها ثلاثة وفينا
وكان بالتقدير في تلك السنة    الحج والنيروز ما احسنه
فى ليلة الجمعة بالصواب    وقل ما يأتى بالحساب

وعلى الرغم من أن فران ( ١٩٢٨ ص ٢١٣ ) يذكر بأن الأرجوزة المخمسة لابن ماجد ليس لها تاريخ وهى التى مطلعها :

تأمل وشاور واسهر الليل واعزم
وحقق ودقق واحفظ السر واكتم
واصبر واجمل ما سمعت لتسلم
لتبقى رئيسا فى الرجال مقدم
تأمل وشاور واسهر الليل واعزم

الا أننا وجدنا لها تاريخا وذلك فى المقطع الأخير الذى يقول فيه ابن ماجد :

ونظمى لهذى الاستوايات فاعلم    على عام تسعماية وستة مقدم
تعد من الهجرات للمتقدم    بأول نيروز وشهر المحرم
تأمل وشاور واسهر الليل واعزم

ومعنى هذا أن تلك الأرجوزة ربما كانت آخر ما كتب ابن

ماجد اذا صح هذا التاريخ وهو عام ٩٠٦ (١) هـ وهو بذلك أيضا يكون قد كتبها بعد نسخه لكتاب الفوائد لآخر مرة بنحــو عشر سنوات أى فى عام ١٤٩٩ م أو ١٥٠٠ م . ولهذا التاريخ شأن خطير أيضا ـ اذا صح ـ اذ أن ابن ماجد يكون قد كتب هذه الأرجوزة بعد أن أرشد أسطول فاسكودى جاما الى الهنـــد **ومن العجيب الا يرد فيها ذكر لهذه المغامرة .**

ومهما يكن من شيء فقد وضح مما تقدم أن نشاط ابن ماجد ينحصر كما ذكرنا فى أواخر النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، ويبقى مع ذلك تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته مجهولين ، وعلى الرغم من أن ملاحا عربيا آخر هو سليمان المهرى كان معاصرا بعض الوقت لابن ماجد وترك لنا هو الآخر مؤلفات ملاحية قيمة يرجع تاريخ احداها الى عام ٩١٧ هـ ( ١٥١١ ـ ١٥١٢ م ) وتوفى بعد ابن ماجد بالتأكيد الا أنه لم يذكر لنا شيئا فى مؤلفاته يستدل منه على تاريخ وفاة ابن ماجد وبذلك يبقى هذا الأمر مجهــولا فى الوقت الحاضر الى أن تظهر مخطوطات جديدة أو يتضح من المقارنة بأحداث أخرى ما يمكننا من التكهن بهذا التاريخ .

يبقى بعد ذلك تاريخ ميلاد الربان وقد استطعنا أن نحدده على وجه التقريب بين سنوات ٨٣٥ ـ ٨٤٠ هـ . وذلك بالتمعن فى قصيدة المؤلف المسماة « بضريبة الضرائب » وهى قصيدة رائية . ويقول فران (٢) ( ١٩٢٨ ص ٢١٣ ) ان هذه القصيدة غير مؤرخة أيضا الا اننا استطعنا أن نعثر على تاريخها فى متنها نفسه وكذلك استطعنا أن نقدر عمر الربان وقت تأليفها . وهى قصيدة طويلة تقع فى ١٩٢ بيتا .

---

(١) ورد ذكر هذا التاريخ أيضا فى الأرجوزة السفالية لابن ماجد التى نشرها شوموفسكى عام ١٩٥٧ ( المؤلف ) .

(٢) G. Ferrand : Introd. à l'astronomie rautique arabe, 1928 Paris.

أما عمر الربان وقت كتابة القصيدة فلابد أن يكون قد تجاوز الستين بسنوات قليلة فقط ، ربما بسنتين أو نحو ذلك ، وذلك يتضح من مطلع القصيدة نفسها الذى يقول فيه ابن ماجد :

شباب برأسي أعجب الناس من امرى
أتاني عقيب الشيب، في آخر العمــــر
وأى شباب بعد ستون حجـــة
سما فى السما فوق السماكين والنسر (١)
وما ذاك الا فيض علم كســـبته
على البحر حتى صار بحر (٢) على بحر

وأما العام الذى كتب فيه ابن ماجد هذه القصيدة فيتضح هو الآخر من الأبيات الآتية وهى تقع قبل آخرها بنحو ٢٠ بيتـــا اذ يقول :

أنا فرحتي فى ليلة قد ترتبت — كأنى أعطيت المنى ليلة القـدر
مهـدبة فى تسع مأية قد أتت — اذا هى قد تمت وفيت لها نذرى
فلله در القائمين بشـــكرها — عليهم سلامى ولو غيبت فى قبرى

وواضح من ذلك أن عام ٩٠٠ هـ هو الذى كتبت فيه القصيدة ويتمنى المؤلف أن يوفى نذره بتمامه ، ولربما كان هذا النذر هو حج بيت الله كما تعود أن يفعل . ويوافق هذا التاريخ عام ١٤٩٤-١٤٩٥م .

وعلى هذا الأساس يقع تاريخ ميلاد أحمد بن ماجد فى حوالى عام ٨٣٨ هجرية ولا نعتقد أن أحدا ممن درسوا ابن ماجد قد سبقنا بهذا الرأى .

واذا رجعنا الى كتاب الفوائد والنسخة المتداولة منه ( نسخة باريس ) مذكور فيها صراحة تاريخ الانتهاء من تأليفه على التحديد بسنة ٨٩٥ هـ فيكون ابن ماجد قد كتب هذا الكتاب وهو في سن

---

(١) السماكين والنسر الواقع من النجوم الملاحية المشهورة .

(٢) G. Ferrand : Introd à l'astronomve rautique arabe 1928 paris

السابعة والخمسين من عمره ، كما يكون قد كتب الحاوية وعمره ثمانية وعشرون عاما .

وفى كتاب الفوائد أيضا استرعى بصرنا رقمان آخران كررهما المؤلف أكثر من مرة الأول منهما العدد « ٥٠ سنة » وذكره فى معرض مراقبة صاحب السكان ( الدفة ) فيقول « والحذر كل الحذر من صاحب السكان ( لئلا ) يغفل عنه فانه أكبر أعدائك فلم تدرى عند النتخة من غريمك من أهل السكان . وما صنفت هذا الكتاب الا بعد أن مضبت لى **خمسين سنة** وما تركت فيها صاحب السكان وحده الا ان أكون على راسه أو من يقوم مقامى » .

أما الثانى فهو العدد « ٤٠ سنة » ذكره فى معرض تحقيق قياساته البحرية والفلكية فيقول « كان جدى عليه الرحمة محقق ومدقق ولم يقر لأحد فيه وزاد عليه الوالد رحمةالله عليه بالتجريب والتكرار وفاق علمه علم ابيه . فلما جاء زماننا هذا وكررنا قريبا من **أربعين سنة** وقد حررنا وقدرنا علم الرجلين النادرين وورخناه وجميع ما جربناه وأرخناه ـ انكشف لنا عن أشياء وحكم » .

معنى هذا أن ابن ماجد يكون قد تولى قيادة المركب منذ صباه وكان على علم بمطالع النجوم الملاحية ومغاربها وسنه نحو سبعة عشر ربيعا .

فهل يتفق هذا التاريخ . وما كان عليه ابن ماجد من عمر يسمح له بتحمل المسئولية ؟ وقبل أن نجيب بنعم نستدرك بأن هذه الأرقام ( ٥٠ سنة ، ٤٠ سنة ) تقريبية بالطبع . كما نقول فلانا فى العقد الرابع من عمره أو الثالث فهناك مع ذلك خطأ احتمالى لعدد من السنين يقل عن عشرة . ثم ان هذه الأرقام تعكس الى حد بعيد وصادق مدى خبرة ابن ماجد فى البحر . فلا شك أنه تولى قيادة المركب وهو بعد حدث صغير مع أبيه ربما وهو فى سن العاشرة من عمره وكان أبوه دائما يحثه على مراقبة عامل الدفة ثم

انه لم يقم بقياسات مستقلة الا بعد ذلك بنحو عشر سنوات حينما كانت سنه بين السابعة عشرة والعشرين وفيها تولى مسئولية المركب والقياس مسئولية تامة ، ويتفق ذلك تماما وقوله انه انفق قرابة أربعين سنة فى تحقيق قياساته اذا فرضنا انه كتب هذه النسخة من كتاب الفوائد وسنه ٥٧ سنة .

ولسوف يزول العجب كذلك اذا علمنا أن هذا الربان قد حصل قسطا نافعا من علوم الحساب العربى والهندى والزنجي وحساب أهل جاوه والصين منذ كان حدثا يافعا ، مكنه من مقارنة قياسات الآخرين كما يقول فى الفصل الحادى عشر من الحاوية « فى تقاويم يعرف بها الساعات ودخولها .. الخ » . :

قد راح عمرى فى المطالعات
وكثرة التسآل فى الجهات
وكم رأيت في خطوط الشول (١)
ونظمه والنثر والفصول
وكم نظرت فى الحساب العربى
وحسبة الهند مذ كنت صبى
فلم أر فى اتفاق أصلى
فى القمر(٢) والزنج (٣) صحيح النقل
وفى جنوبى جاوه والصين
والفال (٤) علما صادقا يقين

ولمطلع قصيدة « ضريبة الضرائب » عندنا دلالة خاصة أخرى تتمثل فى البيت القائل :

---

(١) الشول أو الشوليان طائفة من الهنود على الساحل الغربى للهند ( ساحل كروماندل ) .

(٢) القمر هى جزيرة مدغشقر .

(٣) الزنج هى ساحل الزنج فى افريقيا الشرقية بين ممبسة وكلوة .

(٤) الفال : جزيرة أمام ساحل مليبار فى الهند وهى من جزر اللكاديف .

شباب براسي أعجب الناس من أمرى
أتاني عقيب الشيب في آخـــر العمر

فمنه نستشف أن ابن ماجد على الرغم من تجاوزه الستين من عمره في ذلك الوقت الا انه كان رجلا جم النشاط متوقد الذهن والقريحة وصحيح البنية باعترافه مما أدى الى عجب الناس ، وأغلب الظن انه قد عاش لسنوات عديدة بعد هـذا التاريخ وربما قد أوفى على السبعين من عمره ان لم يكن قد أصابه حادث مفاجىء في البحر أو على البر . وليس طول العمر بالشيء المستبعد في الأحوال الطبيعية على رجل مثل ابن ماجد قضى أغلب حياته في البحر يتنفس الهواء النقي ويعيش في بساطة ، متفرغا لعمله لا يشغل باله بعرض الدنيا وزينتها . فقد كان رحمه الله ـ عفيف النفس ورعاً تقيا مخلصا لربه ولمهنته زاهدا في المال يبدأ رحلته دائما بالصلاة ، كما يتضح من كتاباته . ولكل ذلك معنى خاص لدينا سنذكره فيما بعد . ونكتفي بأن نؤيد ما نقوله الآن بفقرات من كتاب الفوائد ، فهو يحض الربابنة على النظافة والطهـــارة في البحر بمثل قوله :

« وينبغي انك اذا ركبت البحر تلزم الطهارة فانك في السفينة ضيف من أضياف الباري عز وجل فلا تغفل عن ذكره » .

كما نستشهد أيضا بأبيات من شعره في مناسبات مختلفة كما في مثل قصيدته المكية :

ركبت على اسم الله مجرى سفينتي
وعجلت فيها بالصـــلاة مبـــادر

أو كما في أرجوزته المسماة « نادرة الابدال » :

تركت اشتغالي بالمها والجـــآذر
وصرت مغرى بالنجـــوم الزواهـــر

وفيها يقول أيضا :

اقليل من النـــاس الذين أراهـــم
عفاف يرون الحـــق خـــير المآثر
يقولون لى كان الفـــــلانى ولم أر
مخلف علـم مثـــل ما فى دفاترى
فلـــم أر الا ســـارق ومقـــامر
ووغد وحجـــاج عن العـــلم قاصر
اذا ما رأيت الشخص فى البر خلتـه
معـــد وفى النتخـــات غاو وخاسر

ولا أدل على صدقه كذلك من أنه لا ينكر فى موضع من كتاب الفوائد من أنه قال بعض أشعار فى الخمر وهو « فى عصر الشبيبة » وقت أن كان صغيرا .

ولربما لاحظ القارىء كذلك عدم تقيد المؤلف بالوزن والقافية فى شعره أو حتى بقواعد الاعراب فى كثير من الأحيان . ويرجع الحموى ( ١٩٤٧ ) ذلك الى أن القطر الذى نشأ فيه ابن ماجد وهو عمان تعرض لغزوات الفاتحين كثيرا واستوطنه الهنود والزنج والفرس والأحباش واختلطت فيه اللغات فى ذلك الوقت . ونحن لا نوافقه تماما على هذا الراى وانما نعزوه الى أن العصر كله الذى عاش فيه ابن ماجد كان عصر اضمحلال أدبى أفقد فيه السجع المفتعل كثيرا من بهجة اللغة والتعبير . على أن ذلك لا ينقص بحال من الأحوال من قدر ابن ماجد ولا من علمه وفنه الذى تخصص فيه، فهو رجل بحر مجرب موهوب خبير بالنجوم وبمسالك الملاحـة الساحلية وفى أعالى البحار وبالبحر وبعواصـفه وأنوائه وتقلب أحواله ، مشغول بقياساته الفلكية التى أنفق فيها عمره ، وعلى الرغم من أن له موهبة فى الشعر فهو لم يتسع له الوقت لتنميتها وصقلها وانما ترك نفسه على سجيتها وعبر عن أفكاره بالأراجيز خير تعبير ولربما كانت هذه هى الوسيلة المثلى لأمثاله . ثم يجب أن لا ننسى أيضا أن ابن ماجد ربان يخاطب أهل فنه ومهنته بلغة المهنـــة

وبالمصطلحات التى كانت دارجة عند عمال البحر فى المحيط الهندى في ذلك الوقت ولا يزال بعضها يستعمل الى الآن هناك .

وبهذه المناسبة يرى بعض المستشرقين أن كتابات ابن ماجد صعبة شاقة كالرموز تحتاج الى مفاتيح لحلها ، وهم يعنون بذلك بالطبع أراجيزه التى ضمنها قياساته الفلكية وتعبيراته الملاحية على نحو ما فعل ابن مالك فى الألفية ، ولهم عذرهم فى ذلك من غير شك. والواقع أن دراسة ابن ماجد دراسة مجدية لتحتاج الى الملم بكثير من فنون البحر والملاحة ، مما لا يتيسر تحصيله للكثيرين من طلاب الدراسات الانسانية ، كما انها لتحتاج فى نفس الوقت الى معرفة بأصول الكلمات والمصطلحات الملاحية التى استعملها ابن ماجد وسليمان المهرى وأمثالهما من ملاحى المحيط الهندى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد . وبعض هذه الكلمات يرجع الى لغات فارسية أو هندية أو سواحلية أو جاوية . وقد يسر هذا الأمر الأخير للباحثين بعض التيسير تلك الدراسات التى أجراها جبريل فران المستشرق الفرنسى فى مطلع هذا القرن (١) ومن قبل اكتشاف مؤلفات ابن ماجد والتى توصل اليها من وراء خدمته الطويلة فى أرجاء المحيط الهندى مثلما فى جزيرة مدغشقر وجزر الكومور واندونيسيا وغيرها ، ثم أن دراسة ابن ماجد لتحتاج أيضا الى تحقيق لمواقع الأمكنة والبلدان التى ورد ذكرها في كتاباته وفى مرشداته الملاحية . وأخيرا فلا تتم هذه الدراسة الا بمعرفة أدوات الملاحة وآلاتها التى كانت مستعملة عند العرب فى ذلك الوقت وكذلك معرفة أسماء النجوم والكواكب التى رصدها ومدلولاتها الحديثة .

---

(1) G. Ferrand : Relations des voyages et textes géographiques arabes, persans et turks relatifs à l'extrème orient du VIIIe. au XVIIIe. siècles. Paris 1913.

( فى جزءين طبع باريس ) .

وثمة سبب آخر نراه جديرا بالذكر فى معرض صعوبة المادة العلمية لابن ماجد ويتلخص فى أن بعض الكلمات الأصلية للمؤلف قد أصابها التصحيف على أيدى من نقلوا مخطوطاته ممن قد لا يكون لهم كبير دراية بالمادة المنقولة ، ولا ادل على ذلك من أن النسخة التى بين أيدينا من كتاب الفوائد قد كتبت بعد نحو قرن من تاريخ كتابة المخطوط الأصلى للمؤلف .

وجدير بالذكر أن مؤلفات ابن ماجد وسليمان المهرى من بعده لتعد فى جملتها وثيقة هامة تلخص لنا التراث الملاحى فى المحيط الهندى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد ليس فقط بالنسبة للتجربة العربية بل أيضا بالنسبة لتجارب الفرس والهنود وأهل جاوه وساحل الزنج .

على أن عدم تقيد ابن ماجد بالوزن والقافية فى شعره أو بقواعد الاعراب لا يعنى من ناحية أخرى أنه كان قليل الحظ من الثقافة . وتدل كتاباته على أطلاع واسع والمام بكتب وآثار من سبقوه ليس فقط بالنسبة لمؤلفات الجغرافيا الفلكية والجغرافيا الرياضية ، بل أيضا بالنسبة لكتب الأدب والاشعار . فهو يستشهد فى كتاب الفوائد مثلا ، بأبيات من معلقات امرىء القيس وعمرو بن كلثوم والمهلهل عدى أبن أبى ربيعة من شعراء العصر الجاهلى وكذلك بأبيات من عمر بن أبى ربيعة والطغرائى وأبى نواس وغيرهم . وفى موضع آخر من كتاب الفوائد يعدد المؤلف كتبا متخصصة يجدر « بمعالمة البحر » قراءتها فنراه يقول :

« بل انا نقول للمعالمة ونعرف الغافلين منهم وندلهم على الكتب الكبار التى لم تتم صنعتهم الا بها مثل كتاب المبادىء والغايات تصنيف رجل مغربى من أهل مراكش (١) ومثل كتاب التصاوير (٢)

---

(١) يعنى كتاب جامع المبادىء والغايات فى علم الميقات لأبى على الحسن ابن عمر المراكشى الذى ألفه حوالى عام ٦٢٧ هـ ( = ١٢٣٠ م ) .

(٢) يعنى كتاب عبد الرحمن بن عمر ابو الحسين الصوفى المكنى بأبى الحسن الصوفى ( القرن الرابع الهجرى ) .

فان فيه جميع الكواكب بصورهن وبعدهن ودرجاتهن وطولهن وعرضهن . وكذلك فى كتاب تقويم البلدان ( لأبى الفداء ) (١) وفى الاختصار الشحبتية ( ؟ ) وزيج الفتيك بن شارخ بن تمرلنج (٢) الذي ملك الدنيا بعد أربعة مسلمين وكافرين .. وكان بليغا فى علم الفلك عمدة جميع العجم . وفى هذا الفن كتاب المجسطى لبطليموس وهو كتاب يونانى عرب منه المأمون(٣) بن هرون بعض أجزائه . ومن كتب هذا الفن أيضا كتاب البتانى وزيج ابن الشاطر المصرى وعليه أكثر كلام الديار المصرية وكتاب أبى حنيفة الدينـــورى وكتاب الطوسى وكتاب أبى المجد اسماعيل بن ابراهيم الموصلى ويسمى مزيل الاثبات عن مشتبه الانتساب وكتاب المشترك لياقوت الحموى وكتاب بن حوقل ( ٣٦٧ هـ ــ ٩٧٧ م ) ( المسالك والممالك ) فانه مستوفي العرض والطول والدرج والبلدان والجبال والمدن والبحيرات والأنهار .. فانى وقفت على أكثر مما ذكرت » أى أنه قرأ كل تلك الكتب واكثر منها .

ونحن نميل الى الاعتقاد بأن ابن ماجد كان ملما بلغات كثيرة مثل اللغة السنسكريتية ولغة جاوة والزنج ( السواحلية ) وفارس بالطبع . وأن رجلا فى مثل ذكائه قد خالط واطلع على ما دونه معالمة هذه البلاد بلغاتهم وقضى بينهم زمنا طويلا لابد بطبيعة الحال أن يلم بلسانهم . ونحن نؤيد ذلك بما سبق أن أوردنا من أبيات من الحاوية تدل على اطلاعه على ما كتب معالمة هذه البلاد كما قارنها وحققها ، ثم انه استخدم كثيرا من المصطلحات من هذه اللغات أيضا

---

(١) وهو عماد الدين اسماعيل أبو الفدا المتوفى بحماة فى عام ٧٥٨ هـ ( ١٣٥٧ م ) وقد نشر هذا الكتاب المستشرقان رينو ودى سلان عام ١٨٤٠ بباريس .

(٢) يقصد زيج الغبيك لأولوج بيك بن تيمورلنك ( تمرلنج ) المتوفى عام ٨٥٣ هـ = ( ١٤٤٩ م ) ، واغلب الظن أن هذا التصحيف مرده لناسخ المخطوط الأصلى لابن ماجد .

(٣) عصر المأمون ( ١٩٨ ــ ٢١٨ هـ = ٨١٣ ــ ٨٣٣ م ) .

وبخاصة من الفارسية التى أجادها من غير شك بحكم اقامته على الخليج الفارسى فى جلفار واتصاله بمعالمة هذا الخليج . ثم انه ليكتب فى كتاب الفوائد بيتا بعينه للفردوسى بالفارسية ويعقبه بترجمة له بالعربية هي :

خف من الله ولا تؤذ أحـــد     هذا طريق الحق لا تخشى احد

أما عن ثقة ابن ماجد بنفسه واعتداده بعلمه عن يقين فلا حد لهما . ويتضح ذلك فى مواضع كثيرة من كتاباته ، بل فى كل ما كتب تقريبا سواء ما نظم أو نثر ــ ولطالما نعت هو نفسه بأنه رابع الليوث أو رابع لثلاثة وهم كما المحنا من قبل جهابذة هذا الفن ، ولكنه سرعان ما يستدرك بأن ذلك كان تواضعا منه ، وهو فى الواقع يفوقهم جميعا ، وذلك بأدب يدعو الى الاعجاب ، ويتضح ذلك فى أكثر من موضع مثلما في قوله :

« ونهاية المتقدم بداية المتأخر ، وقد عظمنا علمهم وتأليفهم وجللنا قدرهم رحمة الله عليهم بقولنا انا رابع الثلاثة ، وربما فى العلم الذى اخترعناه فى البحر ورقة واحدة تقيم فى البلاغة والصـــحة والفائدة والهداية والدلالة بأكثر مما صنفوه » .

ويبلغ اعتداده بنفسه مداه مرة أخرى فى أرجوزته المســـماة بميمية الأبدال وفيها قوله :

حصرت نجوم الأفق في البحر هاديا
بها سالك البحر المحيط الأعظـــم

بخـــير قياسات وجـــــم فوائد
فلم يعترض لى غـــير جحش معمم

ومنها قوله :

والقوا ســـلاح الجهــــل لما تحققوا
مقالى فى عــــرب وعجـــم وديلم

بقـــــولى رابـــع لثـــــــلاثة .
فحق لحســـــادى تموت وتغتـــم

**بوادر علـــم البحـــر عنى تفرعت**
**وخير صفات البحر تصدر من فمى**

ولكأنه ، رحمة الله عليه ، كان عليما بظهر الغيب حين اختتم قصيدته المسماة « ضريبة الضرائب » بقوله :

فان تجهلوا قدرى حيـــاتى فانمـــا
سيأتى رجال بعدكم يعرفوا قدرى

وها قد تحققت نبوءة هذا الشيخ الملاح القدير بعد نصف قرن من موته تقريبا على يد الأميرال التركى سيدى على بن حســـين الشاعر والأديب والملاح التركى الذى كان يسمى أيضا باسم « كاتب رومى » كما سيرد ذكره ، ثم مرة أخرى فى القرن العشرين على أيدى المستعربين من أقطار الأرض المختلفة . . . من روســـيا من أمثـــال كراتشكوفسكى وشوموفسكى ومن فرنسا من أمثال جبرييل فران ومن سويسرا من أمثال دى سوسير ومن ألمانيا من أمثال بروكلمان وغيرهم وغيرهم ممن أجهدوا أنفسهم فى التعرف على هذا الربان العربى ودراسة مؤلفاته . . ناهيك أيها الشيخ بملاحى الشرائع من أهل عدن الذين يقرأون لك الفاتحة والاخـــــلاص ( كما طلبت فى أراجيزك ) كل يوم كلما خرجوا الى عرض البحر (١) .

---

(١) يقرر ذلك الرحالة الانجليزى ريتشارد بيرتون Richard Burton فى كتابه « السبيل الى أفريقيا واستكشاف هرر » طبعة لندن عام ١٨٥٦ م عن رؤيته لبحارة عدن يقراون الفاتحة « للشيخ ماجد مخترع البوصلة البحرية » ويقرر برنسبس J. Princeps ( فى فــران ١٩٢٨ ) انه فى أوائــل القـــرن المـــاضى كان ملاحو جزر المالديف يستعينون بمرشد ملاحى يسمونه « كتاب ماجد » به رسم لوردة الرياح العربية ، وابن ماجد نفسه يطلب ممن يقرأ =

ولقد اعترفت حكومة البرتغال أخيرا بفضل هداية ابن ماجد لفاسكودىجاما الى الهند من بلدة ماليندى بكينيا على الســـاحل الافريقى فأقامت له هناك نصبا تذكاريا يخلد هذه المناسبة ، وقد علمت بهذا الأمر من استاذ من جامعة شرق أفريقيا فى نيروبى أطلعنى على صورة فوتوغرافية لهذا النصب التذكارى فى ماليندى للملاح العربى .

= مؤلفاته أن يتلو له الفاتحة وسورة الاخلاص .. انظر الى قوله فى الحاوية :

اســـــأل الرحمن يا معـــوانى اذا تلـــوت النظم والمعـــــانى

اقرا لى الحمـــد مـــع الاخـــلاص تنفعنى فى العـــرض والخـــلاص

# الفصل الثاني

## ١ - أثر الفكر والتجربة العربية على الملاحة البرتغالية في القرون الوسطى

لا ترجع شهرة ابن ماجد الى كونه ملاحــا قديرا فحسب ــ لا يزال أهل عدن يقرأون له الفاتحة ما خرجوا الى البحر ــ ولا الى مؤلفاته الغزيرة فى علوم البحار والملاحة والتى لم تكتشف الا فى القرن العشرين ، وانما اكتسب هذا الملاح فضلا عن كل ذلك شهرة دولية حين عرف انه هو نفسه الربان الذى قاد سفينة المــــلاح البرتغالى الشهير فاسكو دى جاما Vasco de Gama لأول مرة من ثغر مالیندی فى مملكة كامبايا ( كينيا الآن وتقع مالیندی قريبا من خط عرض ٥٣ جنوب خط الاستواء وبجوارها شعب الملندى وعمود فاسكودى جاما وهما من المعالم الملاحية على الخرائط الحديثة ) وكان الساحل الافريقى فى ذلك الوقت عبارة عن ممالك صغيرة مستقلة يحكمها سلاطين عرب من الشحر وحضرموت واليمن .

ولما لهذا الحادث من أثر خطير في تاريخ الملاحة فاننا سنحكى القصة ببعض التفصيل فى الفصل القادم مستعينين بشتى المراجع التى أمكننا الرجوع اليها فى هذا الصدد .

ويجدر بنا قبل أن نفعل ذلك أن نمهد للموضوع بكلمــــة عن الجغرافيا الملاحية عند العرب فى العصر الوسيط حتى أواخــر القرن الخامس عشر وعن مدى تأثر البرتغال بالفكر العــــربى وبالمعلومات الملاحية العربية التى مهـــدت لهــم السبيل ولاشك للفتوحات البحرية الكبرى التى قاموا بها بعد ذلك .

واذا كان من المرجح أن عرب اليمن كانت لهم صلات تجارية بحرية بالهند وبساحل أفريقيا الشرقى من قبل ظهور الاسـلام بقرون ، الا أن من الثابت أن عرب شبه الجزيرة قد انتشروا بسرعة عجيبة فى أرجاء المحيط الهندى عقب ظهور الاسلام مباشرة سواء للتجارة أو للتبشير بالدين الجديد الذى دخلت فيه الأمم المجاورة أفواجا . ولم يكد القرن الثامن الميلادى ينتهى حتى كانت هنـاك جاليات اسلامية قوية فى سرنديب ( سيلان ) وعلى ساحل الزنج ( شرقى أفريقيا ) ، وفى عام ٧٥٨ م (١) كانت الجالية العربية ومعهم الفرس المسلمون من القوة فى خانفو ( كانتون ) بالصين حتى انهم كان يخشى بأسهم ، وفي مرة هددوا بقيام ثورة هناك .

وفى عصر الأمويين ( القرن الثامن الميلادى أيضا ) امتدت الدولة الاسلامية الكبرى من الأندلس غربا حتى أواسط الصين شرقا . كما امتدت تبعا لذلك خطوط التجارة والملاحة لهذه الدولة العظمى فشملت بحر الروم ( البحر الأبيض المتوسط ) والبحر الأحمـر والمحيط الهندى بأسره وبحر الزنج والخليج الفارسى وأرخبيل الملايو وبحر الصين . بل كانت تجارة الصين الخارجية أغلبها فى أيدى العرب تقريبا فى ذلك الوقت .

وفى عصر المأمون ( القرن التاسع الميـلادى ) ترجمت الآثار اليونانية والفارسية والهندية فى الجغرافيا الفلكية والرياضية الى اللغة العربية ومنها كتاب المجسطى لبطليموس . وسرعان ما استوعبت عقول العرب المتفتحة وذكاؤهم اللماح هذه المعلومات وزادوا عليها . فظهرت مؤلفات ابن خرداذبه ( القرن التاسع الميلادى ) والخوارزمى ( القرن التاسع الميلادى ) والاصطخرى وابن حوقل والمقـدسى من جغرافى القرن العاشر الميلادى والبيرونى والادريسى ( من القرن

(١) انظر : Lewicki T. (1936) : Les premiers commercants arabes en Chine. *Rocz-Orient*, II, p. 176.

الحادى عشر والثانى عشر ) والقزوينى وياقوت والنابلسى ( من جغرافيى القرن الثالث عشر الميلادى ) وأبو الفداء وابن بطوطة ( فى القرن ١٤ م ) وغيرهم ممن ألفوا فى الكزموجرافيا وفى الجغرافيا الوصفية والفلكية والرياضية فيما بين القرنين التاسع والرابع عشر بعد الميلاد .

كما ظهر أيضا القصص البحرى وأدب المغامرات ممثلا فى رحلة التاجر سليمان ( ٨٥١ م ) التى زاد عليها أبو زيد حسن السيرافى فيما بعد ، وفيها وصف ممتع وشيق لأخبار الملاحين والتجار بين سيراف على الخليج الفارسى والصين وما تعرضوا له من أهوال فى تلك الرحلات ، كما ظهرت أيضا كتب العجائب التى تصف الغريب من حيوان البحر والبر وظواهره مثل عجائب المخلوقات للقزوينى وعجائب البر والبحر للدمشقى الصوفى ، وكل ذلك كان مادة طيبة فيما بعد لمغامرات السندباد البحرى ولقصص ألف ليلة وليلة كما هو معروف .

ويذكر المقدسى فى كتابه احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ( ٣٧٥ هـ ــ ٩٨٥ م ) أن الربابنة فى بحر الصين كانوا يحملون « دفاتر » يستعينون بها على الملاحة ومعرفة الطريق مما يؤيد الرأى بأن الملاحين العرب قد عرفوا المرشدات الملاحية والخارطات البحرية منذ القرن العاشر الميلادى . والعرب بهذا العمل يعتبرون أنفسهم بأنهم قد تحرروا من النظريات الكلاسيكية التى ترجع أساسا للمذهب اليونانى واتخذوا من تجربتهم الشخصية الواقعية أساسا جديدا للجغرافيا الملاحية نقضوا به كثيرا من التصورات الجغرافية اليونانية القديمة . ولما لأهمية المقدسى فى هذا الصدد ، فاننا نؤثر أن نقتبس من مقال له يقص فيه ملاحظاته على سواحل شبه جزيرة العرب من القلزم الى عبادان تؤيد هذا الرأى ، اذ يقول :

« وأما أنا فسرت فيه ( المحيط الهندى ) نحو ألفى فرسخ ودرت

على الجزيرة كلها من القلزم الى عبادان سوى ما توهت بنا المراكب الى جزائره ولججه وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشئوا من ربابين واشاتمة .. ووكلاء وتجار ورايتهم من ابصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره فسالتهم فيه وعن أسبابه وحدوده **ورايت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها** فعلقت من ذلك صدرا صالحا بعد ما ميزت وتدبرت ثم قابلته بالصور التى ذكرت . وبينا أنا جالس مع أبى على بن حازم أنظر فى البحر ونحن بساحل عدن اذ قال لى مالى اراك متفكرا ؟ قلت أيد الله الشيخ ، قد حار عقلى فى هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه والشيخ اليوم من أعلم الناس به لأنه أمام التجار ومراكبه أبدا تسافر الى أقاصيه . فان رأى أن يصفه لى صفة اعتمد عليها وارجع من الشك اليها فعل ، فقال على الخبير بها سقطت ثم مسح الرمل بكفه ورسم البحر عليه لا طيلسان ولا طير وجعل له معارج متلسنة وشعبا عدة ثم قال هذه صفة البحر لا صورة له غيرها . وأنا أصوره ساذجا وأدع الشعب والخلجان الا شعبة ويلة لشهرتها وشدة الحاجة الى معرفتها وكثرة الأسفار فيها وأدع ما أختلفوا فيه وارسم ما اتفقوا عليه » .

ومعنى مقال المقدسى هذا أن معلومات الربابنة العرب عن المحيط كانت تعتمد على الخبرة العملية لا على نظريات بطليموس القديمة ، كما أن خرائطهم كانت واقعية غير محشوة بضور لا معنى لها مثل الطيلسانات وصور الطير التى كانت تتمثل فى الخارطات الجغرافية منذ عهد بطليموس ، بل كان أعتقاد النظريين يتمثل فى أن الأرض على شكل طائر . وظلت صور الحيوانات والطيور ممثلة فى خرائط العصور الوسطى الاوربية حتى وقت متأخر جدا ومنها صور آدميين ينفخون الرياح من أفواههم ويمثلون الجهات الأربع أو الجهات التى تهب منها الرياح .

ويلاحظ المسعودى ( القرن العاشر الميلادى أيضا ) (١) نفس ملاحظة المقدسي بالنسبة لربابنة سيراف وعمان وكذلك بالنسبة لربابنة البحر الرومى ( الأبيض المتوسط ) وفقا لما سمعه من ملاحى الشام الذين عرفوا هذا البحر جيدا والذين يذكر من بينهم أثنين بالذات . وهذا مقاله هو الآخر :

« ووجدت نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة من السيرافيين والعمانيين عن البحر الحبشى فى أغلب الأمور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم مما حكينا عنهم المقادير والمساحة وأن ذلك لا غاية له في مواضع منه وكذلك شاهدت أرباب المراكب فى البحر الرومى من الحربية والعمالة والنواتية وأصحاب الأرجـــل والروسا ومن يلى تدبير المراكب والحرب فيها مثل لاوى المكنى بابى الحارث غلام زرافة صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق وذلك بعد الثلاث مابة ( ٩١٢م ) يعظمون طول البحر الرومى وعرضه وكثرة خلجانه وتشعبه . وعلى هذا وجدت عبد الله بن وزير صاحب مدينة جبلة من ساحل حمص من أرض الشـــام ولم يبق فى هذا الوقت وهـــو سنة أثنين وثلاثين وثلثمائة ( هجرية ) أبصر منه بالبحـــر الرومى ، ولا أسن منه ، وليس فيمن يركب من أرباب المراكب من الحـــربية والعمالة الا وهو ينقاد الى قوله ويقر له بالبصر والحذق وما هو عليه من الديانة والجهاد القديم فيه » .

ويقول كراتشوفسكى ( جـ٢ ، ١٩٥٧ ) (٢) على هذا الأساس ان أدب الجغرافيا الملاحية نشأ فى نفس الوقت مع أدب القصص والمغامرات البحرية ولكنه لم يجد طريقه الى التدوين ولهذا السبب فلم يصل الينا . ولا ريب فى أن سيراف وعمان كانتا موطنا لهذا

---

(١) فى مروج الذهب ( ٩٤٣ م ) .

(٢) الأدب الجغرافى العربى ترجمة صلاح الدين هاشم عثمان ونشرته مؤخرا جامعة الدول العربية .

النوع من الكتابات التى عرفت باسم « الراهمانات أو الراهنامجات » اى المرشدات الملاحية . وقد مر علينا كيف دون ابن ماجد كثيرا من هذه المرشدات على صورة أراجيز وهو وان ظهر فى عهد متاخر جدا الا أنه يعدد لنا فى كتاب الفوائد الربابنة المشهورين منذ القرن الأول للهجرة ( القرن السابع الميلادى ) . ويعدد لنا أئمة هذا النوع من المؤلفات من أمثال أشياخه الثلاثة المتقدمين عليه وكيف أنه اطلع على ارجوزة ملاحية لحفيد احدهم وهو الشيخ ليث بن كهلان يرجع تاريخها الى عام ٥٨٠ هـ ( = ١١٨٤ م ) . ولفظ راهنامج فى الواقع فارسى الأصل مشتق من كامتى « راه » و « نامه » والأولى بمعنى طريق والثانية بمعنى كتاب ، أى « كتاب الطريق » ومعناه المرشد الذى يهتدى به الربابنة فى البحر فى معرفة المراسى وغيرها كالشعب ونحو ذلك ، وقد حرفت هذه الكلمة الى رهمانج وجمعه رهمانجات والى « رمانى » أيضا ، وقد شاع استعمال هذه الكلمات فى اللغة العربية .

ومما يؤيد الرأى بان العرب قد صنعوا خارطات بحرية ممتازة للارشاد الملاحى ان الأميرال البرتغالى الفونسو البوكيرك Alfonso de Albuquerque أرفق فى تقرير له لملك البرتغال عام ١٥١٢ م خارطة بحرية كبيرة لملاح من جاوة موضح عليها رأس الرجاء الصالح والبرتغال والبحر الأحمر والخليج الفارسى وجزائر الملوك ومسالك ملاحية الى الصين وجزيرة ( فرموزا ) . كما ان فاسكودى جاما نفسه يقرر أنه وجد الملاحين العرب على الساحل الافريقى يستخدمون ( البوصلة ) وآلات دقيقة ملاحية وخارطات بحرية .

وادخل العرب أيضا تعديلات قيمة على آلات الملاحة والرصد منذ عرفوا الملاحة فى عرض المحيط . ومن هذه الآلات الاسطرلاب وهى آلة قياس ارتفاع الشمس والنجوم ولم يصنع منه أحسن مما صنع العرب بشهادة اوربا نفسها . وفى متحف باريس اسطرلاب من صنع أحمد بن خلف من منتصف القرن العاشر

الميـــلادى يفوق فى صناعته وتدريجه ما صنع من هذه الآلة فى اوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادى . والاسطرلاب فى ابسط صوره عبارة عن قرص مستدير مقسم الى درجات به ذراع متحرك مثبت من المركز ومؤشر يتخـــذ الموضع العمـــودى على الافق ولاستعماله يحـــرك الملاح الذراع على الدائرة ليقيس الزاوية بين النجم القطبى مثلا والاتجاه الرأسى الذى يدل عليه المؤشر وعلى ذلك تكون الزاوية المكملة للزاوية المحصـــورة بين الذراع والمؤشر مساوية لارتفاع القطب فوق الافق .

وبخـــلاف الاسطرلاب فقد عرف العرب أيضا ربع الدائرة ( المعروفة الآن باسم الكوادرنت ) وهى آلة تمثـــل قوسا قدره ٩٠ درجة من الاسطرلاب وتقيس ارتفاع الاجـــرام فوق الافق هى الأخرى عن طريق قياس زاوية الظل أيضا . ومن ربع الدائرة عرف الأوربيون فى القرن السابع عشر سدس الدائرة أى آلة السدس Sextant المعروفة حاليا فى الملاحة ويعزى ابتكارها لاسحق نيوتن . ويلاحظ أن الاســـطرلاب وربع الدائرة اختراع عربى بالنسبة للاوربيين المسيحيين على الأقل نقلوا فكرتيهما عن العـــرب ابان الحروب الصليبية وان شاع استعمال مثل هذه الآلات عنـــد الفرس والهنود من قبل . هذا وقد استعمل البرتغال الاسطرلاب ربما لأول مرة فى عام ١٤٥٥م أثناء رحلاتهم على الساحل الغربى لافريقيا ، كما استعمل ملاحهم ديجو جوميز Diego Gomez ربع الدائرة فى عام ١٤٦٢ م .

أما عن الجداول الفلكية والأزياج فقد بلغت حدا من الاتقان والدقة عند العرب لم تبلغه جداول الهند وفارس وغيرهما وذلك من قبل أن تعرف اوربا هذه الجداول .

ويعتمد كل من الاسطرلاب وربع الدائرة في قياس زاوية ارتفاع النجم فوق الافق على الخيط والثقل المدلى من المركز والذى يتخذ دائما الوضع الرأسى بالنسبة للأفق . ولما كان الأمر

كذلك فانه يصعب جدا القيام بقياسات دقيقة لارتفاع النجوم فى البحر من على ظهر المراكب نظرا لحركة الأمواج والرياح ، ولذلك نلاحظ ان ابن ماجد والملاحين العرب قلما استعملوا الاسطرلاب في عرض البحر وانما استعملوه على البر او فى الموانى ، وكان لديهم ادوات أخرى اكثر ملاءمة للعمل بالبحر وكانوا فى ذلك أكثر تفوقا من غير شك على البرتغال . ويؤيد ذلك ما ذكره « بنسودا » عام ١٩١٢ فى كتابه (١) بعنوان « الملاحة الفلكية عند البرتغال فى عصر الكشوف الكبرى » وفيه يقتبس المؤلف من خطاب مؤرخ بتاريخ أول مايو سنة ١٥٠٠م. أرسله الربان البرتغالى جان للملك مانويل ملك البرتغال بوصفه قائد اسطول بعثة الفارس كابرال Alvarez Cabra ، يقول : يخيل لى أنه من المستحيل قياس ارتفاع نجم فى البحر بالآلات التى لدينا ( الاسطرلاب ) وثبت من تجربتي أن الخطأ الناتج من قلقلة السفينة يصل الى ٤ـ ٥ درجات كفرق للقياس من الأرض » .

## تاريخ البوصلة البحرية

ظهرت البوصلة الملاحية اول ما ظهرت فى الدنيا عند أهل الصين وعند العرب . وثار جدل كبير بين الباحثين عمن يكون أول من ابتكرها من هؤلاء . ولكن يخلط الباحثون فى أصل البوصلة دائما بين أمرين يختلفان تماما . أولهما الابرة المغناطيسية نفسها وثانيهما تقسيم دائرة الأفق الى الجهات الأربع الأصلية والأقسام الصغيرة المتساوية التى بين كل جهتين منها وذلك على ورقة أو لوح وهو ما يعرف باسم « وردة الرياح » والأصل فيها لبيان معرفة اتجاه الريح ومن أين تهب اذا علمنا جهة واحدة من الجهات الأصلية وذلك سواء بالليل أو بالنهار . ووردة الرياح العربية مبنية على التقسيم الليلى

---

(١) J. Bensaude (1912) L'Astronomie nautique au Portugal à l'epoque des grandes decouvertes, Bernes.

لدائرة الأفق أى على الاستدلال على الشمال بالنجم القطبى وهى مقسمة الى ٣٢ قسما فلكيا وتعتبر أسبق فى الوجود وفى الاستعمال فى الملاحة من الابرة المغناطيسية . فاذا أمكن رؤية النجوم ليلا فى السماء الصافية ـ كما هى الحال فى أغلب الوقت فى بلاد المشرق فلن تكون هناك أذن حاجة الى الاستدلال على الشمال بالمغناطيس أو بالابرة المغنطة .

وقد استدل العرب (١) على الشمال بنجوم بنات نعش أو بالنجم القطبى ( الجاه ) وعلى الجنوب بقطب السهيل ، وعرفوا الرياح الشرقية باسم الصبا والغربية باسم الدبور . وفى ذلك يقول القدماء :

مهب الصبا من مطلع الشمس مايل
الى الجدى والشمآل حتى مغيبها
وبين سهيل والمغيب تحققت
دبورا ومطلعها اليه جنوبها

وكان أهل الصين هم الآخرون لديهم وردة للرياح من صنعهم ولكن تقسيمها يختلف تماما عن التقسيم العربى . فبينما يعتمد التقسيم العربى على مطلع ومغيب نجوم معينة فان التقسيم الصينى يعتمد على اسقاط خط الاستواء السماوى على الأفق الأرضى ويعتمد على حركات الشمس على مدار السنة ( فصول السنة ) ومن ثم فهو تقسيم نهارى .

ويرد ذكر وردة الرياح العربية أيضا فى رحلة التاجر سليمان ( ٨٥١ م ) فى القرن التاسع الميلادى وفيها يقول المؤلف **( وأما بحر هرقند (( خليج البنغال )) فله ريح غير هذه ما بين**

---

(١) والثابت أن العرب قد ربطوا بين اتجاه الرياح ومطالع النجوم ومغيبها من قبل الاسلام بقرون ويتضح ذلك من الشعر الجاهلى ومن كلامهم فى علم « الانواء » وقد أفرد البيرونى فصلا ممتعا لذلك فى كتابه « الآثار الباقية » الذى نشره ساشاو عام ١٨٧٨ م .

**المغرب الى بنات نعش »** . وواضح من هذا النص استخدام مواقع النجوم فى التعرف فى الجهات الأصلية . وبعـد هذا التاريخ بمائة عام تقريبا يذكر المسعودى ( ٩٤٣ م ) فى مروج الذهب قوله « .. **ففلك البروج يسمى الفلك الكلى وبه يكون الليل والنهار لأنه على قطبين ثابتين مما يلى الشمال وهو قطب بنات نعش والآخــر مما يلى الجنوب وهو قطب سهيل »** .

ومن الثابت أن أهل الصين هم اول من عرف خواص الحجر المغناطيسى الذى يشير فيه طرف واحــد من ابرة او قضيب ممغنط يعلق تعليقا حرا من الوسط الى اتجاه الشمال ، ويرجع ذلك لقرون متقدمة ربما الى عهد أسرة « هان » الشرقية حوالى سنة ٣٠ ــ ١٠٠ بعد الميلاد ، ولكنهم لم يستخدموا هذه الخاصية فى الملاحة البحرية ، وان كان من المؤكد أيضا أن أهل الصين قد استفادوا بها فى السفر بالبر لمعرفة اتجاههم وذلك فى القــرن الثالث الميلادى كما هو مثبت فى آثارهم ، ولكن لا توجــد آثار مدونة حتى اليوم تؤيد الزعم بأن الصينيين اســتخدموا الابرة المغناطيسية فى البحر قبل القرن الحادى عشر الميلادى وهو نفس الوقت تقريبا الذى استعملها فيه العرب . وقد بحث هذا الموضوع كثير من المؤرخين والمســتشرقين الأجانب وعلى راســهم « فران ( ١٩٢٨ ) (١) ودى سوسير ( ١٩٢٣ ) (٢) وكلابروث (١٨٣٤) (٣) .

وكانت اوربا تجهل تماما كل شيء عن البوصلة البحــرية

---

(١) G. Ferrand (1928) : Introduction à l'astronomie nautique arabes, Paris.

(٢) Leopold de Saussure (1923) : L'origine de la rose des ventes et l'invention de la Boussole. Arch. Sci. Phys. et Nat. vol. 5, Geneve.

(٣) J. Klaproth (1834) : Lettre à M. le Baron de Humboldt sur l'invention de la Boussole, Paris.

واستخدامها فى الملاحة حتى وفدت سفنهم ـ كما وضحنا من قبل ـ الى المشرق ابان الحروب الصليبية فعرفوا البوصلة من العرب لأول مرة وشاع استعمالها بعد ذلك فى أوربا ، بل كانت تعد أعظم اكتشاف ملاحي بالنسبة لهم لأن سماءهم تكتنفها الغيوم والسحب في أغلب أوقات السنة وبخاصة فى الأصقاع الشمالية ولا يسهل دائما التعرف على الجهات الأصلية ليلا بالنجوم فى تلك الأصقاع .

ويقرر كلابروت (١٨٣٤) « ان المراكب الصينية منذ عصر اسرة تانج T'ang فى القرنين السابع والثامن الميلادى كانت تتاجر مع الهند والعرب فى المحيط الهندى حيث كانت أغلب التجارة الصينية فى ذلك الوقت في يد الملاحين العرب ، وكانت السفن تخرج من ميناء كانتون ( خانفو أو الزيتونة عند العرب ) عبر مضيق ملقا فجزيرة سرنديب ثم الى راس كومرين ( على ساحل الملبــــار ) فالساحل الغربي الشمالي للهند ومن ثم تتجه الى سيراف والفرات على الخليج الفارسي . وكان هذا الطريق مطروقا ومعروفا منذ القرن الثانى الميلادى تقريبا ومن ثمة فلم يكن هناك ما يستدعى استخدام البوصلة البحرية » . ويضيف هذا المؤلف قوله :

**« على أن اقدم وصف مدون للبوصلة الملاحية فى كتب الصين ليرجع الى الفترة ١١١١ ـ ١١١٧ بعد الميلاد وهو أقدم ما عثرت عليه فى كتبهم حتى اليوم » .**

ويرى « فران » أن كلابروت لم يطلع على مرجع آخر يرجع عهده الى عام ١٢٩٧ م ( فى وصف كمبوديا ) أشار اليه هيرث Hirth فى كتابه « التاريخ القديم للصين » وفيه وصف لكانتون وتجارتها فى الفترة فيما بين سنوات ١٠٨٦ ـ ١٠٩٩ ( القرن ١١ الميلادى ) وللمراكب التى كانت تسير بين كانتون وسومطرة والموانى العربية فى المحيط الهندى . وفي هذا المخطوط القديم نبذة عن معرفة الاتجاه تدل على أن البوصلة قد استعملت فى الملاحة فى ذلك الوقت ننقلها كما يلى « **عندما يكون الجو صحوا يتعرف الربابنة**

**على الاتجاه بالنظر الى النجوم ليلا أو الى الشمس نهارا . ولكن عندما يغيم الجو يستعين الربابنة بالابرة ( التى تشير الى الجنوب ) وفى عرض البحر لا يسقط المطر ، وعندما تمطر السماء تكون الأرض قريبة )) .**

أما فى التراث العربى فيوجد ما يدل على أن العرب قد عرفوا خواص الابرة المغناطيسية منذ الوقت الذى كانت مراكبهم تحمل فيه التجارة بين كانتون والمحيط الهندى . وفى مخطوط بمكتبة باريس برقم ٢٧٧٩ ( عن فران ) بعنوان « كتاب كنز التجار فى معرفة الأحجار » لمؤلفه بيلق القبجاقى مكتوب عام ٦٨١ هـ ( ١٢٨٢ م ) يذكر فيه المؤلف أن ربابين بحر سوريا كانوا يتعرفون على الجهات الأصلية فى الليالى الحالكة عندما لا يرون النجوم — **بابرة معلقة فى حلقة من خشب السنط تطفو فوق الماء فتشير الى الشمال** .. ويضيف المؤلف بأنه رأى بعينيه ذلك فى رحلة بحرية قام بها من طرابلس الشام الى الاسكندرية فى عام ٦٤٠هـ (١٢٤٢م).

ويضيف المقريزى فقرة مماثلة فى كتابه « الخطط » الذى كتبه فى مصر بين سنوات ١٤١٠ — ١٤٣٠ ( أوائل القرن الخامس عشر الميلادى ) ولكن الابرة فى هذه الحالة تختلف عما ذكره صاحب كتاب « كنز التجار » فهى **قطعة رقيقة من المعدن مطروقة على شكل سمكة تطفو فوق الماء ، فعندما تستقر السمكة يشير فمها الى الجنوب** . ويقول المقريزى ان الملاحين في بحر الهند كانوا يستدلون على الجهات الأصلية عندما لا يرون النجوم ليلا بهذه الطريقة . وللاشارة الى القطب الجنوبى دلالة خاصة هنا بالنسبة للملاحة فى المحيط الجنوبى .

واذا كان الأمر كذلك فلابد أن الملاحين العرب فى المحيط الهندى كانوا يستعينون ببيت الابرة منذ وقت متقدم كما أسلفنا ، ولا يمكن الحكم على أن الصينيين قد سبقوا العرب الى استخدام البوصلة فى الملاحة ، بل ان المرجح أن العرب عرفوا خواص الحجر المغناطيسى

أثناء تجارتهم مع الصينيين ثم طبقوا الفكرة لمعرفة الاتجاه أثناء سير السفينة بالبحر . وسواء أكان الفضل فى ابتكار البوصلة البحرية يرجع للعرب أم لأهل الصين فان كلا منهم كانت له طريقته الخاصة وتقسيمه الخاص لدائرة « وردة الرياح » . ومن المعلوم أن وردة الرياح العربية كانت أدق وأثبت فى تقسيمها من الدائرة الصينية وأنها كانت ابتكارا عربيا خالصا ، ساعدت الأحوال الطبيعية من صفاء السماء وانتظام الرياح الموسمية فى المحيط الهندى ووضوح مجاميع النجوم فى المنطقة الاستوائية على نشأتها فى ذلك المحيط . ومهما يكن من شيء فقد سبق الشرق أوروبا بثمانية قرون على الأقل فى الاستعانة ببيت الابرة فى التعرف على الجهات الأربع الأصلية .

وليست البوصلة فقط هى التى أخذت أوربا فكرتها عن العرب فى العصور الوسطى ، بل أخذت عنهم أيضا فكرة خطوط العرض . وعلى الرغم من أن هذه المشكلة قديمة ترجع الى وقت بطليموس والعصر اليونانى غير أن أوروبا لم تفطن اليها مرة أخرى الا بعد أن ترجمت مؤلفات بطليموس وبخاصة كتابه « المجسطى » من العربية الى اللاتينية فى العصور الوسطى وكان الأصل الاغريقى لهذا الكتاب قد فقد أو نسى تماما .

ومما لا ريب فيه أيضا أن العرب كانوا أسبق من أهل أوربا بزمن طويل أيضا فى معرفة الوقت وتحديده الى جانب تحديد الاتجاه سواء أكان ذلك فى البر أم البحر . **ولتقدم العرب في «علم الميقات» سبب قوى هو حاجتهم لتحديد الزمن لمعرفة أوقات الصلاة ، مثلما كانت حاجتهم ماسة أيضا الى تحديد القبلة فى الممالك والأمصار التى فتحوها** . ويزخر التراث العربى برسائل وكتب قيمة ألفت سواء في المشرق أو فى المغرب ( الأندلس ) فيما بين القرنين التاسع والخامس عشر الميلادى وذلك فى علوم الميقات وفى تحديد الاتجاه وخطوط طول البلاد وعرضها . وكان العرب يتعرفون على الوقت نهارا بالمزولة وليلا بتحديد حركات القمر والنجوم فى أبراج السماء .

أما في الجغرافيا الوصفية فقد كانت سواحل المحيط الهندى وجزره معروفة جيدا للعرب وبتفصيل كبير بينما هى مجهولة تماما بالنسبة للبرتغال وذلك حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا . ولقد عرف أهل اليمن وعدن بخاصة فيما عرفوا الساحل الافريقى الشرقى كله تقريبا ، وذلك حتى قبل الاسلام بزمن . ثم وصف الرحالة والمؤلفون العرب بعد ذلك هذا الساحل بتفصيل كبير ورسموه . فالمسعودى ( المتوفى عام ٩٥٦ م ) وصف ساحل الزنج ( شرقى أفريقيا ) حتى سفالة ورسم ابن سعيد هذا الساحل فى عام ١٢٥٠ م بين جبل الندامة ( الموقع المعروف باسم راس كورينت Cap de Corrientes ) ومقديشو . كما وصف ابن الوردى ( ١٣٥٠ م ) الساحل بين رأس جردفون ( على الساحل الافريقى المقابل لجزيرة سوقطرة ) وموزمبيق جنوبا ، وكان أهله على وقته « كلهم مسلمين بينهم القاضي والامام » وكان هذا الساحل ينقسم الى امارات صغيرة مستقلة يحكمها ملوك أو سلاطين عرب من حضرموت والشحر واليمن . وحتى القرن الخامس عشر الميلادى كان للعرب فى المحيط الهندى خارطات ملاحية تفوق في دقتها ما كان مستعملا عند الأمم الأخرى . وخلال هذا القرن أيضا كان للعرب مركز مرموق فى جميع مراكز التجارة على سواحل المحيط الهندى سواء فى بلاد الزنج حتى سفالة أو فى الخليج الفارسى أو فى جزر جاوة وسومطرة أو على سواحل ملبار وباقى الساحل الغربى للهند وساحل الدكن ( السند ) بالاضافة الى جزر المحيط نفسه . ويقرر كامرير (١) ان العرب كانت لهم حظوة واحترام فى ذلك الوقت عند رجال الجمارك فى الهند « بينما كان الهندوس من أهل البلاد تجـــارا وملاحين مغمورين » .

فاذا كان هذا شأن العرب في المحيط الهندى حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وسمعتهم الملاحية تطبق الآفاق عن طريق

---

(1) A. Kammerer (1935) : La mer rouge depuis l'entiquite.

تجار التوابل والعاج ومنتجات الهند من الحـــرير والمنسوجات وغيرها التى كانت تنقلها مراكبهم الى القلزم وحتى الى فنيســـيا بايطاليا فلابد أن أنباءهم كانت تصل الى أسماع أوربا أولا بأول وبخاصة الى أهل أسبانيا والبرتغال الذين كانوا يعدون العـــدة للقيام بمغامرة كبرى وهى محاولة الوصول الى الهند عن طريق الدوران حول أفريقيا أى عن غير طريق البحر الأحمر الذى كان العرب لا يزالون يسيطرون عليه فى المشرق .

ولابد من أن يكون البرتغال قد جهدوا أنفسهم أيضا فى التعرف على علوم العرب الملاحية والافادة منها قبل أن يقدموا على مغامراتهم الملاحية الكبرى بل كانوا يسعون للحصول على هذه المعلومات بكل الطرق الممكنة ، ولا مانع من أن يستعينوا بالجواسيس اذا اقتضى الأمر ، وهذا ما حدث بالفعل .

وفى ذلك الوقت ــ أى فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى كان الصراع مريرا بين الأسبان والعرب فى الأندلس ، حتى ان كريستوف كولمبس ( وهو ايطالى الجنسية ) قام برحلته سرا من أسبانيا فى ٣ أغسطس عام ١٤٩٢ قاصدا الهند ولكنه اكتشف نصف الكرة الغربى وعادت مراكبه الى أسبانيا في ١٥ مارس سنة ١٤٩٣ .

ولعب التجار اليهود دورا هاما فى نقل المعلومات العربية الى البرتغال منذ أمد بعيد . وفى هذا الصدد يحدثنا ابن خرداذبة ( ٨٤٦ م ) عن التجار اليهود الرذانية الذين كانوا يعيشون فى الأندلس ويتكلمون اللغات العربية والفارسية والأفرنجية والأندلسية والصقلبية ويقومون برحلات بين المشرق والمغرب لهذا الغرض « برا وبحرا ويجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى الحجاز وجــدة ويمضون الى السند والهند » .

بل ان من هؤلاء الجواسيس اليهود من استطاع الحصول على خارطات عربية من المحيط الهندى وقدمها للبرتغال .

فمن الثابت أن بعثة من هؤلاء التجار البرتغال وعلى رأسهم **الفونسودى بايفا** Alfonso de Paiva **وبيروكوفيلهام** Pero de Covilham ذهبوا الى مصر سرا وسافروا من القلزم الى عدن على احدى المراكب العربية ويقال انهم أخذوا مركبا عربيا من عدن بعــد أن تظاهروا بالاسلام ووصلوا الى الهند قبل فاسكودى جاما بعشر سنوات حيث زاركوفيلهام قاليقوت وجوا . ومن هناك عاد الى سفالة على ساحل افريقيا الشرقى ( على خط عرض ٢٠° جنوبا ) وعرف بذلك سر بلاد التوابل فى هذه الرحلة التى كان قد استقى المعلومات عنها فى مصر قبل رحيله . ويقال ان كوفيلهام هذا كان خبيرا بأغلب لغات الشرق . وحين عودته من هذه الرحلة الى مصر علم بموت صديقه دى بايفا والتقى فى القاهرة بيهوديين آخرين هما الحاخام **ابراهام دى بيا ويوسف لاميجو** وكانا هما أيضا في مهمة سرية خاصة من البرتغال ، لابد من انها كانت للتجسس وجمع المعلومات كذلك ، اذ أبحر دى كوفيلهام مرة أخرى مع الحاخام ويوسف لاميجو الى هرموز ومن هناك تفرقوا . وقد استعان دى كوفيلهام فى هذه الرحلة بكتاب ابن بطوطة ثم ذهب من هرموز الى زيلع ومنها الى الحبشة وتمكن من العودة الى مصر ثم الى البرتغال . ويقال انه أحضر معه فى هذه الرحلة خارطات ملاحية عربية من المحيط الهندى (١) .

واذا كان هذا شأن التجار والجواسيس البرتغال فى أواخر القرن الخامس عشر وسعيهم لجمع المعلومات عن الهند وعن قوة العرب فى المحيط الهندى **فللعلماء منهم فى لشبونة شأن آخر لعب فيه اليهود أيضا اليد الطولى** ، ويعكس هذا التاريخ بشكل واضح أثر الفكر العربى على الملاحة البرتغالية فى ذلك الوقت وقبل ان يقدم البرتغال على المغامرة الهندية .

ويمتد هذا التاريخ فى الواقع الى ما قبل القرن الخامس عشر

---

(١) انظر كامرير : جزء ٢ ( ١٩٣٥ ) .

بمدة طويلة ويرجع على وجه التحديد الى عام ١٢٩٠ ميلادية وهى السنة التى أقام العرب فيها في لشبونة جامعة ترعرعت فيها علوم الرياضة والفلك على يد الأساتذة العرب . وفى عام ١٤٩٢ م وهو نفس العام الذى قام فيه كولمبس بمغامرته فى المحيط الأطلسى قام الأسبان بطرد اليهود بالجملة من قشتالة وكان عددهم نحو ١٢٠ الف شخص ، فلجأ هؤلاء الى البرتغال وأخذوا معهم علوم العرب الملاحية وجداولهم الفلكية وكانوا قد نقلوها من العربية الى اللغة العبرية واحتفظوا لأنفسهم بأسرارها . ومن بين هذه العلوم علم «المرشدات الملاحية» والخارطات المعروفة باسم «البورتولانات»(١) portulans ، وكانت مدرسة قشتالة تعد من المدارس الرائدة فى هذا العلم .

ونقل اليهود الأسبان بذلك علوم الملاحة العربية الى لشبونة وكان لها أكبر الأثر فى نجاح الرحلات التى قام بها البرتغال بعد ذلك .

ومن بين من ذهبوا الى لشبونة رجل يدعى مارتن بهايم Martin Behaim كان خبيرا بالجداول الفلكية والملاحية وأسس فى لشبونة مدرسة للرياضيات والفلك عرفت فى ذلك الوقت باسم الجونتا Junta ، وقد ساعدت هذه الجماعة على امداد فاسكودى جاما فيما بعد بالجداول الفلكية الخاصة بالملاحة حول افريقيا .

وعلى الرغم من كل هذا فلم يستطع هذا الملاح أن يجرؤ على اختراق المحيط الهندى وحده من الساحل الافريقى الى الهند كما

---

(١) البورتولان كلمة ايطالية ظهرت فى القرن الثانى عشر الميلادى وهى مشتقة من كلمة بورتو ( أى ثغر ) وهى عبارة عن خارطات ملاحية توقع عليها طرق الملاحة والخلجان والرءوس والثغور وبها خطوط مستقيمة مرسومة حسب وردة الرياح . انظر كامرير جزء ٢ (Histoire de la cartographie orientales):

سنرى فى الفصل الثالث ؛ وحتى الحملة البرتغالية الثانية للهند التى خرجت من البرتغال في ٩ مارس سنة ١٥٠٠ م بقيادة الفارس كابرال Alfarez Cabral استعانت بمرشـــــدين من جـــوزرات اصطحبهما كابرال معه من ماليندى الى كاليكوت بعد ان غرقت ثمانية مراكب من أسطوله المكون من أربع عشرة سفينة أثناء دورانهم حول أفريقيا وموزمبيق .

---

# الفصل الثالث

## قصة إرشاد ابن ماجد لفاسكودى جاما إلى الهند في عام ١٤٩٨

قام البرتغال بعدة محاولات ملاحية حول الساحل الغربى لأفريقيا منذ بداية النصف الثانى من القرن الخامس عشر بيد أن محاولاتهم لم تصل بهم الى حد بعيد ، فوصلوا الى سواحل غينيا فى عام ١٤٥٥ م ثم فى عام ١٤٦٢ م ، مستعينين بالأسطرلاب وربع الدائرة كما تقدم القول .

اما أول عهدهم بجنوب أفريقيا ثم بالمحيط الهندى بعد ذلك فيرجع لعام ١٤٨٧ ــ ١٤٨٨ م أى قبل دى جاما بعشر سنوات تماما وذلك حين نجح ربانهم المسمى برتليمو دياز Bartholomeo Diaz في اجتياز رأس العواصف وذلك عن طريق الملاحة الساحلية أى السير بحذاء الشاطىء الافريقى طول الوقت . وسميت هذه الراس فيما بعد باسم رأس الرجاء الصالح .

وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ اجتاز فاسكودى جاما رأس العواصف أيضا فى مغامرته الكبرى للوصول الى الهند .

وقد تمت رحلة فاسكودى جاما هذه فى أول عهد الملك مانويل الثانى الذى حكم البرتغال بين سنوات ١٤٩٥ ــ ١٥٢١ م . أما دى جاما نفسه فقد ولد فى عام ١٤٦٠ م وقام بالرحلة الأولى هذه الى الهند بين أعوام ١٤٩٧ ــ ١٤٩٩ م أى وهو في سن السابعة والثلاثين من عمره .

وكان فاسكودى جاما رجلا متوسط الذكاء والتعليم ولكنه يتميز بعزيمة قوية . أما أسطوله الذى رافقه فى هذه الرحلة فكان يتكون من ثلاثة مراكب ( وفى قول آخر اربعة ) من النوع الذى عرف باسم « الكرافل » وكان العرب يطلقون على هذا النوع من السفن اسم « غراب » وسميت سفن دى جاما على اسـماء قديسين ، فسفينة القيادة التى عقد لواؤها لدى جاما نفسه كانت تسمى باسم سان جبرائيل . واصطحب دى جاما شقيقه بولو Polo da Gama معه فى هذه الرحلة وعينه قائدا على السفينة الثانية وكانت تسمى باسم سان رافائيل . وجدير بالذكر أن هذه السفينة قد غرقت فيما بين ميناء كلوة وممبسة بعد عودة الأسطول من الهند . أما السفينة الثالثة واسمها « بريو » أو « سان ميجيل » ، فقد تولى قيادتها نيقولا كولخا وكان جملة بحارة هذا الأسطول ١٥٠ فردا .

بدأ دى جاما رحلته من البرتغال فى يوم ٢٥ مارس سنة ١٤٩٧م بعد أن قضي ليلته يتعبد فى دير قريب من الميناء . ثم احتضن الساحل الافريقى طول الوقت حتى وصل الى رأس الرجاء الصالح فاجتازها فى يوم ٢٢ نوفمبر من نفس السنة . ثم واصل رحلته على الساحل فوصل اقليم ناتال فى يوم عيد الميلاد وسميت هذه الأرض بذلك الاسم تيمنا بالمناسبة ( وكلمة Natal تعنى الميلاد ) .

وفى يناير عام ١٤٩٨ م فقد دى جاما السفينة « بريو » على الساحل الافريقى شمال ناتال نتيجة العواصف ، وحمل بحارتها على السفينتين الأخريين الباقيتين . ثم انه واصل الملاحة شمالا بعد ذلك على الساحل حتى بلغ ثغر مالين‍دى فى مملكة كامبيا ( كينيا الآن ) على خط عرض ٣° جنوب خط الاستواء ، وذلك فى شهر مارس من نفس السنة . وهناك ألقى مراسيه لبضـعة أسابيع ليستقى خلالها معلومات عن الهند ، وعرف أنها تبعد عن مالين‍دى بنحو ٦٠٠ فرسخ . وفى تلك المدة تصادق دى جاما مع ملك مالين‍دى وطلب اليه أن يدله على مرشد يصحبه الى الهند ، وكان قد تبادل

الهدايا مع هذا الملك ووطد الصلة معه . الا أن ملك ماليندى تباطأ أول الأمر في ارسال الربان ، وفى يوم ٢٢ ابريل عام ١٤٩٨ زار السفينة البرتغالية التى كان دى جاما عليها أحد أقرباء الملك فاحتجزه دى جاما كرهينة حتى يفى الملك بوعده ، فأرسل الأخير فورا للربان البرتغالى « وبانا مسلما » من جوزرات يدعى « المعلم كاناكا » معتذرا فى نفس الوقت عن تباطئه فى تنفيذ رغبة الأميرال البرتغالى . وهذه رواية المؤرخ البرتغالى دى باروش . ويستطرد دى باروش في ذكر تفاصيل المقابلة التاريخية بين الملاح المسلم وفاسكودى جاما وكيف أن الأخير قد دهش لمعلومات الربان العربى وبخاصة بعد أن أطلعه على خرائط وآلات عربية تستعمل فى رصد النجوم ( وكان البرتغال يعتمدون على معرفة خطوط العرض برصد الشمس ) وسرعان ما أيقن دى جاما أنه عثر فى شخص الربان المسلم على كنز ثمين مما دفعه على الابحار فورا الى الهند دون تباطؤ ( يوم ٢٤ ابريل سنة ١٤٩٨ ) فوصل كلكتا بعد ٢٢ يوما دون عناء . وفى رواية أخرى أن دى جاما أبحر من ماليندى الى الهند يوم ٦ أغسطس سنة ١٤٩٨ م فوصل الى كلكتا يوم ٢٦ أغسطس من نفس السنة الا أن رواية دى باروش فى رأينا وفى رأى الكثيرين هى الأصح .

ومن المعروف أن فاسكودي جاما نفسه لم يترك لرحلته مذكرات بخط يده ، وقد أرخ لهذه الرحلة الكتاب البرتغالى القدامى من أمثال لوبيز دى كاستنهيدا (١) ( ١٥٥٤ م ) وخوادى باروش (٢) ( ١٥٥٣ م ) المتقدم الذكر . كما أن من المعلوم أيضا أن زلزالا قد أصاب البرتغال فى عام ١٧٥٥ م ودمر جانبا كبيرا من قصر الهند فى برشلونة وفقدت بسببه كثير من الوثائق الأصلية والخرائط التى كانت محفوظة فى أرشيف المستعمرات البرتغالية . ولهذا السبب

(١) F. Lopez de Castenheda : Historia de descobrimento e conquista da India pelos Portugueze (1554).

(٢) Joao de Barros : Da Asia (1553).

فقد اختلفت الروايات حول تفاصيل رحلة دى جاما الأولى الى الهند وحول اسم الربان المسلم الذى قاده اليها . ومن بين هؤلاء المؤرخين البرتغال من قال أيضـــا ان اسمه كان المعلم كانا Cana وجدير بالذكر أن لفظ معلم أو « معلمو » باللغة السواحلية كان منتشرا بين الربابين فى المحيط الهندى فى ذلك الوقت ويعنى الربان ويماثل لفظ « ناوخده » الفارسى .

اما لفظ « كانا » أو « كاناكا » ، فهو يعنى بلغة السنسكريت « الحاسب » أو « المنجم » والمقصود به هنا الخبير بالملاحة الفلكية . ومن أقوال ملاحى المحيط الهندى المسلمين القديمة فى ذلك الوقت ان المعلم كالامام كلاهما عاهد الله على القيادة ، فكما لا يستطيع الأخير ترك الصلاة فان المعلم لا يستطيع أن يترك السفينة .

وهكذا تشير أغلب المذكرات البرتغالية التى دونت عن رحلة فاسكودى جاما الى أن الأميرال البرتغالى قد اصطحب من ماليندى ملاحا مسلما ( وفى قول عربى ) يرشده للطريق الى الهند ولكن اسم هذا الملاح لم يذكر صراحة فى هذه المذكرات سوى بكلمات معلم أو معلمو أو كانا أو كاناكا . وتقول « يوميات الرحلة » : اننا بارحنا ماليندى يوم الثلاثاء ٢٤ ابريل ومعنا الربان الذى أرسله الملك (ملك ماليندى ) ووجهتنا بلد يسمى كواليكوت ( كلكتا ) التى حدثنا عنها الملك المذكور واتخذنا اتجاهنا الى الشرق نحو هذا البلد » .

ويقول المؤرخ البرتغالى دامايو دى خوا Damaio de Goes « ان ملك ملندى أعطى فاسكو دى جاما ربانا عربيا من جوزرات يدعى المعلم كانا » وفى موضع آخر من مذكراته يقول « انه الربان كاناكا » .

**ويرجع الفضل فى الواقع فى التعرف على أن ابن ماجد كان هو المرشد الذى قاد أسطول فاسكودى جاما الى الهند الى جهـود المستشرق الفرنسى الألمعى جبرييل فران عام ١٩٢٢ (١)** وقد اهتدى

---

(١) G. Ferrand (1922) : Le pilote arabe de Vasco de Gama au XV siècle. Annal. de Geogr. tom 31, pp. 289-307.

« فران » الى المصدر الأصلى الذى ورد فيه ذكر ابن ماجد صراحة على أنه هو المعنى بهذا الأمر وذلك فى **مخطوط لقطب الدين النهروالى يرجع تاريخه الى عام ١٥٧٧ م** بعنوان **« البرق اليمانى فى الفتح العثمانى »** وقد لقى هذا الكتاب عناية أيضا من المستشرق الشهير سيلفيستر دى ساسى ( ١٨٩٤ ) . وتوجد من هذا المخطوط نسخة بدار الكتب بالقاهرة محفوظة بالخزانة التمورية . وقد اطلعنا على هذه النسخة ونورد هنا نص المقال المتعلق بابن ماجد فى هـــذا المخطوط :

يقول النهروالى تحت باب « فى ذكر انتقال الدولة باليمن من بنى طاهر الى الأمير حسين من الجراكسة » : وقع فى أول القرن العاشر ( الهجرى ) من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين الى ديار الهند وكانت طايفة منهم يركبون زقاق سبتة ( مضيق جبل طارق ) فى البحر ويلجون في الظلمات ويمرون خلف جبال القمر ــ بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أى أبيض وهى مادة أصل بحر النيل ــ ويصلون الى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل فى مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثانى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفاينهم وتتكسر ولا ينجو منهم أحد ، واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون فى ذلك المكان ولا يخلص من طايفتهم أحــد الى بحر الهند الى أن خلص منهم غراب ( سفينة ) الى الهنـــد فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر الى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له **أحمد بن ماجد** صاحبه كبير الفرنج وكان يقـال له الاملندى ( الى ملندى ) ( بمعنى ألأميرال ) وعاشره فى السكر فعلمه الطريق فى حال سكره وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا فى البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا في بحر الهند وبنوا فى كوة ــ بضم الكاف العجمية وتشديد الواو بعدها هاء اســـم

لموضع من ساحل الدكن هو تحت الفرنج الآن ـ من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمـــداد تترادف عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا ونهبا ويأخذون كل سفينة غصبا الى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه (١) ابن محمود شاه بن محمد شاه سلطان كجرات ( جوزرات ) يومئذ الى السلطان الأشرف قانصوه الغوري (٢) يستعين به على الفرنج، ويطلب العدد والآلات والمدافع لدفع ضرر الافرنج عن المسلمين ولم يكن أهل الهند اذ ذاك يعرفون المدافع والمكاحل والبندقيات يومئذ وممن أرسل الى السلطان الغوري يطلب منه النجدة على الافرنج السلطان عامر بن عبد الوهاب لكثرة ضرر الافرنج بالمسلمين في بحر اليمن واستعمال المدافع ونحو ذلك ، فجهز السلطان قانصوه من كبار مقدميه الأمير حسين الكردي وأصحبه طايفة كبيرة من اللوند كبيرهم سليمان الريس وجهز لهم عمارة ( أسطول ) عظيمة واغربه نحو الخمسين بمدافع كبيرة وضربانات وولاه نيابة جدة .. فأول ما جاء بنى على جدة سورا محيطا بها في عام سبع وعشر وتسعماية ( ٩١٧ هـ ) .. » .

هذه هي رواية قطب الدين النهروالي عن أن ابن ماجد كان هو المرشد الحقيقي لفاسكودي جاما الى الهند . وهو نص على جانب كبير من الأهمية لقي عناية خاصة من أوساط المستشرقين الأجانب، ويتفق في تسلسل الحوادث مع الوقت الذي كان نشاط ابن ماجد مرموقا فيه على ساحل الزنج وفي جوزرات بالهند . وقد عاش النهروالي نفسه ( ٩١٧ هـ ـ ٩٩٠ هـ = ١٥١١ ـ ١٥٨٢ م ) في وقت كان اسم ابن ماجد فيه لا يزال على لسان ربابنة المحيـــط الهندي والخليج وكتبه لا تزال في أيديهم . غير أن الجزء الخاص

(١) حكم مظفر شاه بين سنوات ( ٩١٧ ـ ٩٣٢ هـ ) = ( ١٥١١ ـ ١٥٢٥ م ) .
(٢) حكم الغوري بين سنوات ( ٩٠٦ ـ ٩٢٢ هـ ) = ( ١٥٠١ ـ ١٥١٦ م ) .

بسكر ابن ماجد في هذه الرواية مبالغ فيه ويرى هذا الرأى اغلب المستشرقين النصارى وتؤيدهم فيه . وقد سبق أن وضحنا ما كان عليه هذا الربان من متانة فى الخلق وتمسك بأهداب الدين واوردنا نصوصا عن ورعه وعفته من واقع مؤلفاته فى أول هذا الكتاب . ونزيد على كل ذلك أيضا أمرا آخر نستنتجه من تحليل شخصية ابن ماجد نفسه ، اذ نراه فى عام ١٤٩٨ م شيخا قد تجاوز الستين من عمره حج بيت الله الحرام ، فكيف تسول له نفسه وهيبته فى هذه السن أن يعاشر فى السكر رجلا مثل دى جاما يعتبر فى مثل أبنائه . ثم كيف يطمئن دى جاما نفسه على سلامة أسطوله اذا ما قاده رجل فى حالة سكر . ان أغلب الظن أن موضوع السكر هذا مدسوس على الرجل ـ لتبرير واقعة معرفة البرتغال للطريق الى الهند ، وهم الذين لم تظهر نواياهم الاستعمارية السيئة الا فيما بعد . ولقد عز على المسلمين أن يرشد ملاح مسلم من بينهم سفينة للفرنجة . هذا ولم يرد في وثائق المؤرخين البرتغال اية اشارة لهذا الموضوع ولو كان حقيقة لما ترددوا فى أن يدونوه .

أما لماذا قبل ابن ماجد ــ أن صحت الرواية ــ أن يرشد اسطول دي جاما الى الهند ، فقد كان ذلك كما أشرنا بتكليف من ملك ماليندى ولربما اعتبره الربان العربى تكريما له . والمسئول فى الواقع هو ملك ماليندى هذا الذى أغراه البرتغال وأغدقوا عليه الهدايا وربما هددوه أيضا بأسر قريبه كما تواتر فى الروايات عن الحادث .

بقيت ملاحظات صغيرة أخرى على مقال النهروالى عن وقائع تاريخيه وجب تصحيحها منها أن هرموز قد فتحها الفونسو البوكرك عام ١٥٠٧ م أى قبل بناء مستعمرة Goa جوا البرتغالية على ساحل الهند الغربى . كما أن كلمة « الملندى » يعتبرها فران تحريفا للفظ البرتغالى « الميرانتى » Almirante ، وهو بمعنى رتبة الأميرال التى كان يحملها فاسكودي جاما . والواقع أن العرب استخدموا هذا

اللفظ بالفعل عن البرتغال (١) . وكذلك موضوع منبع النيل من جبال القمر الذى ورد فى مقال النهروالى هو خطأ جغرافى وقع فيه كتاب القرون الوسطى بلا استثناء .

ويجرنا مقال النهروالى أيضا الى استعراض الحوادث التى وقعت فى المحيط الهندى فى النصف الأول من القرن السادس عشر بين البرتغال من ناحية والعرب والعثمانيين من ناحية اخرى لما لهذه الحوادث من أهمية فى تاريخ الملاحة العربية ولاتصالها بعثور أميرال عثمانى هو سيدى على ريس بن حسين الذى تقدم ذكره فى هذا الكتاب على مؤلفات ابن ماجد بعد نحو خمسين سنة من وفاته اثناء الحملة التى قام على رأسها من مصر . وقد ألف هذا الأميرال كتابا فى الملاحة سماه « محيط » باللغة التركية استقى اغلب مادته من مؤلفات الشيخين ابن ماجد وسليمان المهرى كما سنرى بالتفصيل فيما بعد .

ويبدأ هذا التاريخ بالطبع بلحظة التقابل بين الأميرال البرتغالى فاسكودى جاما وبين « ابن ماجد » فى مالندى حيث حدثت بينهم مناقشات عن طريق مترجم برتغالى يجيد العربية . ويذكر دى باروش المؤرخ البرتغالى الشهير للرحلة بأن دى جاما أطلع « الربان العربى » علي اسطرلاب خشبى كبير قطره نحو ٦٠ سنتيمترا كان يأخذ به أرصاده وعلى بوصلة ملاحية ومربع ( كوادرنت ) ولم يبد الربان العربى أى دهشة لما رأى ، بل الذى أخذته الدهشة هو الأميرال البرتغالى نفسه حين أطلعه « ابن ماجد » على اسطرلاب عربى من المعدن وعلى آلات مربعة واخرى مثلثة من الخشب كان يأخذ بها أرصاده وكذلك على خارطات ملاحية عربية

---

(١) يقول ابن خلدون فى المقدمة « قيادة الأساطيل من مراتب الدولة وخططها فى ملك المغرب وافريقية مرؤسة لصاحب السيف وتحت حكمه فى كثير من الأحوال ويسمى صاحبها فى عرفهم الملند بتفخيم اللام منقولا من لغة الفرنجة فانه اسمها فى اصطلاح لغتهم » .

ممتازة موضح عليها خطوط الطول والعرض وليس بها كل ذلك الحشو الذى كانت خارطات البرتغال تزخر به مما يعوق الربان عن التعرف على الطريق بسهولة . ووضح من هذه المقابلة كذلك ان الربابنة العرب كانت لديهم طرق مختلفة كذلك لحساب خطوط العرض تتفوق على تلك التى كان يستعملها البرتغال . فبينما كان هؤلاء يتبعون بطليموس ( وقد اعتمد دى جاما فى رحلته على نسخة مترجمة من كتاب المجسطى وعلىجداول جماعة الجونتا كما ذكرنا ) فى الاستعانة بحساب ارتفاع الشمس بالاسطرلاب ، ويستعملون دائرة محيطها ٣٦٠ درجة ، كان العرب يستخدمون الحساب الميلى بقياس ارتفاع النجوم ومواقعها بالنسبة للنجم القطبى وهى طريقة أدق فى الحساب كما كانوا يستعملون وحدة « الأصبع » فى الارتفاعات و « الزاما » للمسافات ويقسمون حقتهم ( بوصلتهم ) الى ٢٢٤ درجة وطريقتهم التى كانت تعتمد على رصد نجوم في نصف الكرة الجنوبى والنجم القطبى الجنوبى ( السهيل ) كانت أمثل طريقة للملاحة الفلكية فى المحيط الهندى . وسرعان ما وضح لفاسكودى جاما من هذه المقابلة للملاح العربى أنه أمام ند خطير ، بل كنز ثمين لا يمكن التفريط فيه كما أسلفنا القول .

ولربما كان هذا هو السبب فى أنه أبحر بعد يومين من مقابلته لهذا الملاح متخذا سبيله الى الهند على الفور دون أدنى تأخير .

وحالما وصلت البعثة الى كلكتا أرسل فاسكودى جاما أحد أعوانه مع ابن ماجد لمقابلة رجال الجمارك ليخبرهم بمجيئه وقضى ابن ماجد مع هذا الرجل ليلته عند صديق له من مفتشى الجمارك يدعى أبو سعيد كان على صلة وثيقة به فى مكان خارج كلكتا يدعى « كايوكات » . والى هنا تنتهى أخبار ابن ماجد فى المصادر البرتغالية. ويقال أيضا أن فاسكودى جاما قد بعث بمخطوطات عربية ملاحية الى الملك مانويل ملك البرتغال من المحيط الهندى . .

وما ان عرف البرتغال الطريق الى الهند وتجارة التوابل والثراء

حتى بدأت حملاتهم الاستعمارية تترى لاحتلال السواحل والمراكز الهامة فى المحيط الهندى وارسلوا البعثات تلو البعثات تؤيدها مراكب الاسطول ومعها العسكر والبنادق والمدافع كما فى مقال النهروالى ثم أخذوا فى تحصين المواقع وبناء القلاع في مراكز الدفاع الهامة ، ولا تزال آثار هذه القلاع باقية حتى اليوم على الساحل الافريقى والهندى .

ولم تكد تنقضى سنة واحدة على عودة دى جاما من الهند حتى كانت حملة أخرى فى طريقها الى المحيط الهندى بقيادة ديوجو دياز واكتشفت هذه البعثة جزيرة مدغشقر يوم ١٠ أغسطس الموافق ١٥٠٠م وهو يوم القديس سانت لورنسو ولذا سمى البرتغال هذه الجزيرة فى أول الأمر بجزيرة سانتو لورنزو وكانت معروفة عند العرب باسم جزيرة القمر .

ولقد عثرنا فى القصيدة « السفالية » الطويلة لابن ماجد التى « تصف المجارى والقياسات من مليبار الى كنكن وجوزرات والسند والأطواح الى السيف الطويل ومنه الى نواحى السواحل والزنج وأرض السفال والقمر وجزره .. الخ » على بيت من الأرجوزة **يدل على أن ابن ماجد قد عرف بنزول البرتغال الى جزيرة مدغشقر فهو يقول :**

وخشب الافرنج قد جاءوها
وملكوها بعد أن غازوها

وهو يعنى أن مراكب الافرنج قد نزلوا « بمدغشقر » وجزر الكمور المجاورة وغزوها واستولوا عليها . ولهذا الأمر دلالة كبيرة فى تاريخ ابن ماجد اذ يدل على انه شهد مطلع القرن السادس عشر كما ألمحنا من قبل .

واستولى البرتغال أيضا فى وقت مبكر جدا من القرن السادس عشر على موزمبيق وساحل الزنج وسفالة وأقاموا تحصينات فى

مواقع من هذا الساحل الافريقي الذى لم يلقوا مقاومة كبيرة فيه لتفوقهم من حيث العدة حيث كانت معهم البنادق والمدافع والبارود ـ ليتخذوا من هذه المواقع خطوطا للامدادات لغزواتهم الأخرى لعمان والخليج الفارسى التى كانت أكثر تحضرا وتحصينا . ويحدثنا ابن ماجد أيضا في نفس القصيدة السفالية عن عودة الأفرنج الى الهند مرة أخرى فى عام ٩٠٦ هجرية فيقول :

وبعد ذا فى عـــام تســعماية    وست جاءوا الهنـــد بأخايه
واشتروا البيوت ثم ســـكنوا    وصاحبوا وللســـوامر ركنوا
والنـــاس تضرب فيهم الظنونا    ذا حاكم أو سارق مجنــونا

ويوافق هذا التاريخ عام ١٥٠١ ميلادية . والواقع أن البرتغال عادوا مرة أخرى للهند فى أواخر عام ١٥٠٠ م فى أسطول من ست مراكب بقيادة الفارس كابرال وتظاهروا بالتجارة وكان معهم يهودى يدعى جاسبار للتفاوض مع الزامورين ملك كاليكوت لشراء التوابل وتصدى له التجار العرب فضرب كابرال كاليكوت بالمدافع ووصلت للبعثة البرتغالية حامية ثالثة بقيادة جان دى نوفا فى عام ١٥٠١ م وأخيرا عاد فاسكودى جاما نفسه حاكما عاما على الهند فى عام ١٥٠٢ واعمل القتل والنهب والحرق فى مراكب المسلمين واستولى على ما فيها من توابل وبضائع وظهرت ميول البرتغال الاستعمارية بجلاء فى تلك الحملة . واذا كان ابن ماجد قد دون مثل هذه الوقائع في أرجوزته فلا يتضح من كلامه أنه أرشد البرتغال الى الهند مما يجعلنا نتشكك فى صحة الرواية التى أوردها فران وأقرها معــه علماء السوفيت ، وعلى أى حال فان هذا الأمر يحتاج الى مزيد من التحقيق وربما أفردنا له بحثا مستقلا · ثم توالت حملات البرتغال بعد ذلك فى المحيط الهندى .

فقاد الحملة البرتغالية الى جنوب شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر الأميرال البرتغالى الفونسو البوكيرك Alfonso de Albuquerque

فاستطاع أن يقفل خليجعدن عام ١٥٠٧ م ويستولى علىعمان وهرموز. ويدين هذا الملاح بفتوحاته لمنطقة عدن والخليج الفارسي الى خارطة بحرية عربية من عمل ربان عربي يدعى عمر . ويقـول في مذكراته Commentarios

(( ان ملاحا مسلما وقع فى أسر البرتغاليين عند جزيرة سوقطرة وكان ربانا عظيما ذا معرفة جيدة بهذا الساحل قد أعطاه مرشدا للطرق البحرية مبينة عليه جميع موانى مملكة هرموز وهو من وضع ربان آخر يدعى عمر كان قد صحبه ( البوكيرك ) فى البحر )) .

وكانت حملة أخرى بقيادة البرتغالى فرنشيسكودا ليميدا قد توجهت فى نفس الوقت تقريبا الى ساحل الملبار بالهند واستولت عليه . وفي عام ١٥٠٨ أرسل السلطان الغورى حملة لمحاربة البرتغال على ساحل الهند بقيادة الأمير حسين الكردى ولكن داليميدا انتصر عليها فى معركة ديو Diu أو Dyo على ساحل المليبار وحتى ذلك الوقت لم يكن البرتغال قد أقاموا قلعة فى « جوا » الى الشمال .

ويلاحظ أن أقدم خريطة برتغالية للمحيط الهنـــدى يرجع تاريخها الى عام ١٥١٠ م ويظن انها رسمت بمعرفة بيدرو راينل Pedro Reinel الكرتوجرافى البرتغـــالى الشـــهير . وعلى هــذه الخريطة مواقع هرمز فى الخليج الفارسى ثم مقديشو ـ ماليندى ـ ممبسة ـ كلوه وموزمبيق وسفالة على الساحل الافريقىبالاضافة الى قناة موزمبيق وجزر ساحل الزنج مثل بمبا وزنجبار ومافيا ثم جزر المحيط الهندى الجنوبية مثل الدبراء ومايوتى وكومور ثم جزيرة سانت لورنزو أو « مدغشقر » . كما وضحت عليها أيضا مواقع راس جردفون والصومال وسوقطرة على الساحل الافريقى ومواقع سيلان والملبار والمديف واللكاديف من ناحية الهند ، وتعد هذه الخريطة من أجود الخرائط التى رسمت للمحيط الهندى حتى ذلك الوقت .

هذا وقد استطاع البوكيرك أيضا دخول البحر الأحمر عام ١٥١٣ م واحتلال كمران ومصوع ٠ وقد أرسل الأمـــير حسـين الكردى من الهند الى السلطان الغورى يطلب نجدة فجهز الأخير حملة ثانية فى السويس برئاسة الريس سليمان وتقابل فى جدة مع الأمير حسين الكردى وتمكن المصريون فى هذه الحملة من تحرير اليمن من أيدى البرتغال في عام ١٥١٦ ـ ١٥١٧ م وفى نفس السنة احتل العثمانيون مصر وسقطت دولة المماليك وتولى سليم الأول حكم البلاد كما هو معروف .

ومنذ ذلك الوقت اخذ نفوذ البرتغال يقوى فى المحيط الهندى والخليج الفارسي والبحر الأحمر فأرسل العثمانيون فى عام ١٥٣٨م حملة أخرى لكسر شوكة البرتغال بقيادة سليمان باشا التركى الذى استطاع أن يستولى على عدن وجدة ولكنه فشل فيما عدا ذلك .

وكرر العثمانيون المحاولة بحملة أخرى كبيرة جهزت فى السويس أيضا قوامها ٣٠ سفينة وعليها ١٦ ألف مقاتل على رأسهم قائد بحرى كبير هو « بيرى ريس » ، وأبحرت هذه الحملة عام ١٥٥١ م الى عمان فاستولت على مسقط فى عام ١٥٥٢ م ثم دخلت الخليج الفارسى لاسترداد هرموز من أيدى البرتغال الا أن عاصفة شتتت أسطول بيرى ولم يبق معه سوى ثلاث سفن بينما لجأت ١٥ سفينة أخرى من الأسطول المصرى العثمانى الى نهاية الخليج فى البصرة ٠ ومن هذه السفن الثلاث فقد بيرى واحدة فى جزر البحرين وعاد بمركبين فقط على ساحل حضرموت ثم الى البحر الأحمر عن طريق باب المندب فوصل السويس . وبيرى هذا أصله من جزيرة قورسيقا وكان ملاحا ممتازا الا أن الحظ لم يواته ، وانتهى أمره بقطع رأســه فى مصر نظير فشله .

وقد ألف بيرى ريس هذا كتابا بالتركية سماه « بحرية » كما يقال انه رسم خريطة للدنيا عثر على نصفها ممزقا في مكتبة سراى

استنبول فى عام ١٩٢٩ قام بدراستها الأستاذ كاله Kahle فى برلين عام ١٩٣٣ .

وبعد ذلك جهز العثمانيون حملة ثالثـــة كبرى فى السويس عام ١٥٥٤ قوامها ٢٠ سفينة بقيادة أميرال تركى يدعى ســـيدى على ريس حسين ويلقب « بكاتب رومى » أو بالجلبى نسبة الى حلب الشام وقد تقدم ذكره وذلك لاسترداد السفن التى آوت الى البصرة والعودة بها سالمة . فوصل سيدى على الى شـــط العرب وسحر ومسقط وعلى هذا الساحل تقابل مع ٣٤ سفينة برتغالية ، ولكن عاصفة شتتت الأســـطول البرتغالى ، واستطاع سيدى على التوجه بمراكبه الى ديووسورات فى الهند واضطر لالقاء مدافعه فى البحر ليخفف حمولة المراكب ، ولم تصل الى سورات سالمة سوى تسع سفن من اسطوله . وهناك اشتراها أمير سورات ووعد بارسال ثمنها الى القسطنطينية ثم تم تسريح بحارتها واختار على ريس من بينهم خمسين بحارا ليصحبوه فى رحلة العودة الى أرض الوطن بطريق البر عن طريق السند وخراسان واخيرا وصل تركيا فى عام ١٥٥٧ م . وقابل السلطان التركى وأطلعه على مسودات كتابه « محيط » . وقد قوبل على ريس في أحمد آباد عاصمة كجرات ( جوزرات ) باحترام كبير وكان كاتبا وشاعرا فى نفس الوقت كما المحنا ، فافاد من وقت فراغه فى انهاء الجزء الأكبر من كتابه الشهير فى البحرية المعروف باسم « محيط » الذى كتبه باللغة التركية . والذى يعرف فى مخطوطة ڤينا باسم « المحيط فى علم الافلاك والأبحر » وهذه المخطوطة منقولة عن أصل الكتاب بديار بكر فى عام ٩٦٦ هـ ( ١٥٥٩ م ) أى والمؤلف لا يزال على قيد الحياة .

ويقول كراتشكوفسكى « ان هـــذا الكتاب لم ير النور الى الآن في صورته الكاملة » وتوجد منه نسخة ثانية محفـــوظة في نابولى يرجع تاريخ نسخها الى عام ١٥٧١ م . وقد نشر قسما

كبيرا من هذا الكتاب فى الثلاثينيات من القرن الماضى المستشرق همر Hammer ثم قام بترجمته من اللغة التركية فى أواخر القرن الماضى المستشرق النمساوى ماكس بيتنر Max Bittner كما علق عليه من الناحية العلمية العالم النمساوى توماشك Tomaschek ، فى عام ١٨٩٧ م (١) .

وكان هذا الكتاب قبل اكتشافات فران يعد بالاجماع أتم وصف للبحار الجنوبية على الاطلاق على الرغم من أنه لم يلق كبير عنـــاية فى تركيا نفسها ، كما أن مؤلفه لم يكن جاهلا باخبار اكتشـــاف الأسبان والبرتغال للعالم الجديد كما انه اعتمد اعتمادا كبيرا على مصادر عربية ومؤلفات سابقة .

ويقول المستشرق السوفيتي كراتشكوفسكي ان كتاب « محيط » يحتوى مقدمة وعشرة أبواب تنقسم بدورها الى عدد من الفصول. فالباب الأول يبحث فى الاتجاهات الجغرافية وتقسيم قبة السماء وابعاد النجوم وارتفاعها . وهنا يرد لأول مرة بالنسبة للعلم الاوربى تفسير لفظ « اصبع » . أما الباب الثانى فيبحث فى اسس التقويم الشمسي والقمرى وفى السنين البيزنطية والقبطية والفارسية . ويتناول الباب الثالث تقسيم بيت الابرة ومنازلها ويتكلم المؤلف فيه أيضا عن « الترفا » . أما الباب الرابع فيصف الطرق البحرية الساحلية الى الغرب والشرق من رأس كومورين ، كما يتحدث فيه المؤلف أيضا عن الدنيا الجديدة وعنها يقول « انها ليست من الربع المعمور من الأرض أو من الأقاليم السبعة وقد اكتشفها البرتغال منذ أكثر من خمسين عاما » . ويتعلق الباب الخامس بالكلام على الحساب والمصطلحات الفنية المستعملة بين الملاحين .

---

(١) Die Topographischen Capitel des Indischen Seespiegels "Mohit".

اما الباب السادس فيتناول ارتفاع النجوم التى تستعمل في قياس « عرض الموانى والجـــزر كالنجم القطبى والفرقدين والنعش » ويبحث الباب السابع فى المسافات بين الموانى والطرق المستعملة فى تحديدها ومعنى اصطلاح « الزام » . اما الباب الثامن فيتحدث عن الرياح الموسمية مع تحديد مواقيت هبوبها . ويصف الباب التاسع ثلاثين طريقا بحريا تشمل القسم الجنوبى من البحـــر الأحمر والسواحل الافريقية والآســـيوية للمحيط الهندى . وأما الباب العاشر والأخير فيتحدث فيه المؤلف عن الاخطار التى يتعرض لها الملاحون مثل الأعاصير وغيرها .

ويرى توماتشك ان كتاب « محيط » اثر نادر بل هو الوحيد من نوعه فى الشرق الذى يبحث فى المسائل البحرية فى القـــرون الأخيرة من العصور الوسطى ويعتقد هذا المؤلف أيضا أن الكتاب « يجمع بين دفتيه مادة لا مثيل لها يمكن مقارنتها بافضل الآثار البرتغالية من هذا الطراز » كما يضيف بأن « خارطات البرتغال قد خضعت لتأثير الخارطات الشرقية وهـــو أمر يوافقه عليه كونتى روسينى أيضا » . هذا وتوفى ريس على مؤلف كتاب محيط عـــام ١٥٦٢ م .

وعلى الرغم من أن أحمد بن ماجد وسليمان المهرى كانا معروفين للعلماء الاوروبيين عن طريق هـــذا الكتاب « محيط » الا أننـــا ندين بالفضل للمستشرق فران كما ذكرنا فى العثور على مؤلفات ابن ماجد ونشرها . وقد أمكن الربط بين كتاب محيط ومؤلفات هـــذين الشيخين ربطا تاما ووضـــح ان سيدى على اعتمد على هـــذه المؤلفات اعتمادا كبيرا في تاليفه « المحيط » . بل يذهب بعض المستشرقين الى حد القول بأن ريس على قد نقل نقلا مشـــوها من كتب الشيخين، ويقول فران مكتشف المصادر العربية لكتاب محيط « فى الواقع أن سيدى على ريس لم يفعل شيئا ســـوى أن ترجم هذه المصادر ترجمة حرفية مـــع اضافات تافهة أتت

بنتائج عكسية أحيانا » ويتفق المستشرق كاله Kahle مع فران في هذا الرأى (١) .

**ونحن لا نوافق تماما على هذا الرأى فالواقع ان ريس عـــلي لم يغفل فضل الشيخين العربيين في مقدمة كتابه بل انه ليؤكد أنه اعتمد اعتمادا كبيرا في تاليفه على محادثاته مع الربابنة العرب في الخليج الفارسي والمحيط الهندى ، كما اعتمد أيضا على مؤلفات الشيخين ، بل ويعـــددها بالاسم أيضا . يقول ســـيدى ريس ابن حسين في مقدمة كتابه (( محيط )) :**

« في عام ١٥٥٤ م أقمت خمسة شهور في مدينة البصرة حيث بدات الرياح الموسمية ثم اقلعت للهند ودامت هذه الرحلة ثمانية شهور ولم أدع فيها فرصة تمر دون أن أشغل نفسي في الحـديث بامور الملاحة مع نوتية الساحل . وكذلك جمعت الكتب التى ألفها البحارة المحدثون أمثال **أحمد بن ماجد من جلفار وسليمان المهرى من الشحر من عرب الجنوب . مثـــل كتاب الفـــوائد والحاوية ( لابن ماجد ) وتحفة الفحول و ( المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر ) وقلادة الشموس لسليمان المهرى وتعمقت في دراســـتها كلها ، اذ الملاحة بدون هذه الكتب جد متعذرة . ووجدت من اللازم نقلها الى اللغة التركية في كتاب يكون دليلا للربابنة الذين تهمهم معرفة مثل هذه الامور . وترجمتي لهذه الأسفار العربية انتهت بمعونة الله القدير جل شانه وقد حوى كتابي هذا أشياء مفيـــدة غريبة كثيرة تتعلق بالملاحة وسميته محيط )) .**

فمن هذا يتضح بجلاء أن هجـــوم بعض المستشرقين على

---

(١) في هذا الصدد يقول فران ما نصه :

Tous les renseignements nautiques et astronomiques contenus dans le "Mohit" ne sont que la traduction turke, *parfois mediocre*, des textes arabes faisants l'objet de la présente publication.

« ريس علي » ليس له ما يبرره اذ يعترف الرجل صراحة بأنه ترجم « هذه الأسفار العربية » الى التركية واضاف اليها من خبرته ومعلوماته . ثم انه يقول عن ابن ماجد فى موضع آخر « **هذا افضل ربابنة الشاطىء الهنـــدى الغربى فى القـــرنين الخامس عشر والسادس عشر مقدرة ونزاهة تغمده الله برحمته** » .

ومما يسترعى النظر أن كتاب « محيط » ، وقد كتبه صاحبه بعد ابن ماجد بنحو خمسين سنة ( وقبـــل كتاب النهروالى ) ، وهو فى نفس الوقت ملاح قدير تهمه أخبار الملاحة ــ هذا الكتاب لم يرد فيه اشارة الى قصة ارشاد ابن ماجد لفاسكودى جاما الى الهند ، ولو أن « سيدى على » قد سمع من ربابنة بحر فارس أية أشارة لقصة الارشاد المذكورة لما تردد في ذكرها .

---

# الفصل الرابع

# مؤلفات ابن ماجد

كتب ابن ماجد أغلب مؤلفاته فى النصف الأخير من القـــرن الخامس عشر كما وضحنا من قبل . وكتب سليمان المهرى الذى اعتمد اعتمادا كبيرا على ابن ماجد هو الآخر مؤلفاته فى الربع الأول من القرن السادس عشر . وترجم سيدى على ريس فى كتابه محيط ( عام ١٥٥٧ م ) قدرا كبيرا من آراء الشيخين فى منتصف القرن السادس عشر .

ويرى بعض المستشرقين أن مؤلفات ابن ماجد يصل عددها الى الأربعين ، بينما يرى آخرون أنها فى حدود الثلاثين مؤلفا . ومهما يكن من شىء فلابد أن بعض هذه المؤلفات قد فقدت أو ضاعت كما لم تصلنا اية خارطات عربية عن ابن ماجد أو سليمان المهرى.

وسنقوم في هذا الفصل باستعراض مؤلفات ابن ماجد من واقع مخطوط باريس المشار اليه فى صدر هذا الكتاب مع المؤلفات التى نشرها تيودور شوموفسكى عام ١٩٥٧ فى لننجراد مقتبسين بعض أبيات أو شذرات من هذه المؤلفات ، وسنتولى تحليل مادتها العلمية تحليلا موجزا أيضا فى القسم الثانى من هذا الكتاب . وهذه المؤلفات على الترتيب هى :

### ١ ـ كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد

يعتبر هذا الكتاب فى الواقع أهم مؤلف لابن ماجد وهو يقع فى ١٧٦ صفحة بكل صفحة منها ١٩ سطرا ، وفى كل سطر نحو ١٣ كلمة وهو مكتوب بخط واضح يقرأ . ويحتوى على مقدمة واثنى

عشر فصلا أو « فائدة » . ولما لم يكن قد سبق نشر شيء منه باللغة العربية فانا نورد هنا مقدمة الكتاب ومقتطفات من كل فصل :

يقول المؤلف في المقدمة بعد البسملة ما نصه :

« الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم وبعد فاني رأيت العلوم فى الدنيا أسمى مفخرا وأجل مرتبة واشرف منقبة لقوله صلى الله عليه وسلم وتحريض ساير الأنبياء على طلب العلم حتى قيل ما من علم قبيح الا والجهل به أقبح منه فكيف وهذا علم لم تعرف قبلة الاسلام الا به ولا أصح منه والدليل على صحته انى أقول وأفعل به فيا طالما قد أتينا بالمراكب من الهند والشام والزنج وفارس والحجاز واليمن وغيرهم **بقصد لا يميل عن جهة البلد المطلوبة** بأموال وأرواح وهذا دليل مؤكد ان هذا العلم يدل على القبلة فيحتاجون اليه أهل الفرايض . وقد قرا علينا فيه كثير من علمائهم وقضاتهم لمعرفة القبلة واستحسنوه وعملوا به دون غيره من العلوم التقريبيات كنصب الدايرة وركز العود فيها ومعرفة طول مكة وعرضها وطول البلد الذى أنت فيه وعرضه ثم طول وعرض جميع البلدان والجزر الجنوبية فى البحر وما يحتاجون فيه علم ، وعلمنا يحكم على جميع ذلك لأن البحر أكثر من البر فرتبنا الكتاب ليرتقى الانسان به فان أمكنه المعرفة بعلم الدايرة والأطوال والعروض ومعرفة جهات الكعبة والأرياح الأربعة وهى **شمال ودبور وجنوب وصبا** وهذه الأرياح الأربعة الشهيرة فى الدنيا ..

فان قدر الانسان أن يفعل شيئا غير معرفة البحر وحسابه فليفعل واذا عجز عن قبلة المدن والجزر اللاتى فى البحر المحيط فليعمل بعلمنا فاجتهدوا فيه فانه علم نفيس ولا يتم الا بتمام العمر وما لا يدرك كله لا يترك جله . **وينبغي أن لا يتكبر فيه الانسان كما قال** المصنف فى حاويته شعرا :

وينبغي البعد عن الخيلاء     عند كمال العلم والنهاء

وينبغى لعارف هذا العلم أن يسهر الليل ويجتهد فيه غاية

الاجتهاد ويسأل عن أهله وعن حزبه حتى يحصل مراده لأنه علم عقلي وكثرة السـؤال فيه ترقية لباقيه فيعلم ما لا يعلمه فتتم به رياسته لأن من أدعى الرياسة بغير كمال أسبابها وادواتها فقد أخطأ كما قيل شعرا :

رياسات الرجـــــال بغير علم ولا تقوى الاله هي الخساسة

واعلم أيها الطالب ان كل علم يحتمل أن يشتغل به طالبه من المهد الى اللحد كلما تفنن فيه وادمن عليه ظهر له منه شيء لم يكن عند غيره حتى يكون مصنفا فان أتقنت هذا العلم لمعرفة القبلة كان خيرا لك من أن تغفل به فان ركبت البحـر تكون عارفا به مطمئن القلب ولو كنت تاجرا فأنت مطمئن القلب لم تحتج الى أمـــوال وان احتجت اليه لجمع المال والجـــاه اليه الزمان فافعـــل به ( ولا ) تكن ذا غفلة فان الخطأ فيه مضل وأدعى لتلف الأرواح والأموال وهو أصعب شيء بعد خدمة الملوك . وساير العلوم خطاؤها لفظي يمهلك وهذا لم يمهلك والعلم فحل لم يعطك بعضه حتى تعطيه كلك .. وقال على رضى الله عنه قيمة كل امرىء ما يحسنه وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يطاع بالعلم وشر الدنيـا والآخرة مع الجهل وأجود ما قيل فى ذلك نظما ( شعرا ) فيه قولنا :

العلم لا يعـــرف مقـــداره الا ذوى الاحسان عنـد الكمال

فهأنا ذا اختصرت منه ما يليق لأهل زمانى فى هذا الكتاب المسمى بكتاب الفوايد في أصول البحر والقواعد الفنه وصنفته لركاب البحر ورؤسائه وفيه ما اشتبه من الحـــاوية وغـيرها على الطالبين وبالله التوفيق وقد سميناه كتاب الفوايد وهو مشتمل على فوايد كثيرة غوامض وظواهـــر اثنى عشر فايدة ( كذا ) وهى : ( الفائدة الأولى .. الخ ) . . .

ويختتم المؤلف هذا الكتاب بقوله :

« وختمنا هذا الكتاب فى عام خمس وتسعين وثمانماية على الاختصار بقولي أوصيكم بتقوى الله وقلة الكلام وقلة المنام وقلة الطعام

ونستغفر الله من التقصير والزيادة والنقصان » ويضيف الناسخ بعد ذلك قوله « تم الكتاب بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه وهو الكتاب المسمى بكتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد وذلك فى يوم الأحد المبارك سابع عشر ربيع الثانى فى سنة أربعة وثمانين وتسعماية (٩٨٤هـ) احسن الله عاقبتنا وبالله التوفيق ولكم . . الخ » .

**واضح من هذه المقدمة أن المؤلف يؤكد أهمية هذا العلم وانه من العلوم المضبوطة العقلية يمكن الربان من الوصول الى البلد المطلوب دون ميل أو انحراف كما تعرف به خطوط الطول والعرض ومنها يمكن تحديد القبلة أو مواقع البلدان بالضبط بدل الطريقة الشمسية التى تعتمد على سقوط ظل الأعمدة فى دائرة مقسمة . كما يمكن للانسان أن يتكسب به عيشه وأن يركب البحر وهو مطمئن القلب والنفس .**

**ثم ان المؤلف بعد ذلك يؤكد أهمية التجربة واكتساب الخبرة بزيادة التحصيل ودوام السؤال عن المسائل الغامضة فيه وينصح الربابنة بالبعد عن الخيلاء عند كمال العلم .**

أما الفصل الأول أو **الفائدة الأولى** فيبدأه المؤلف بذكر تاريخ تطور علوم البحر على أيدى سلسلة من الربابنة ثم نجــــده متأثرا بطريقة الكتابة فى القرون الوسطى فيدون أخبارا قديمة ربما لتشويق القارىء وأغلب الظن أنه استقاها عن المصادر العديدة التى رجع اليها أو سمع بها وعن الكتب التى قرأها وذلك مثل ترتيب صنع سفينة نوح وأبعادها وذكر الطوفان وتحديد جبل الجودى وأغلب هذه الأخبار مدونة فى كتب العجائب ، ولكنه لا يطيل فيها كثيرا وسرعان ما يعود الى ذكر ربابنة البحر المشهورين من أمثال محمد ابن شاذان وسهل ابن ابان وليث بن كهلان وكيف عثر هو نفسه على « رهمانى » يرجع تاريخه لسنة خمسماية وثمانين هجرية بخط حفيد الأخير ثم يشيد بعد ذلك بالمعلم « خواشير بن يوسف بن صلاح الاركى » الذى كان يسافر في عام أربعمائة من الهجــرة فى مركب

دبوكرة الهندى ثم يحدد وضعه هو نفسه بين هؤلاء الربابنة ويقول تواضعا منه انه رابع الثلاثة ولكن علمه وتجربته فى الواقع تفوق تجربتهم جميعا ، وكيف ان بداية المتأخر هى نهاية المتقدم » وقد وقرتهم بقولى انى رابعهم لتقدمهم فى الهجرة فقط وسيأتى بعد موتى زمان ورجال يعرفون لكل واحد منا منزلته . ولمـــا اطلعت على تأليفهم ورأيته ضعيفا بغير قيد ولا صحة بالكلية ولا تهذيب هذبت ما صح منه وذكرت الاختراعات التى اخترعتها وجربتها عاما بعد عام فى نظم الأراجيز والقصايد وفى هذا الكتاب عام ثمانين وثمان مائة فاستحسنوه الماهرين من اهل هذا الفن وعملوا به واعتمدوا عليه فى شدايدهم مثل رؤيا الجبال ومثل القياسات وأسماء النجــوم ومعرفتها والهداية بها » .

وواضح من هذه الفقرات الأخيرة أن كتاب الفوائد قد أعاد المؤلف كتابته أكثر من مرة من بينها عام ٨٨٠ هـ ثم عام ٨٨٤ هـ ، وان الربابنة الماهرين قد أفادوا منــه سواء أكان ذلك عن طريق القياسات الفلكية التى أعاد هو تحقيقها مرارا أو عن علامات البر من جبال وما اليها . ويضيف بعد ذلك قوله كيف كان القدماء أكثر حذرا وانهم كانوا يعدون للرحلة وللسفينة اعدادا تاما ليضمنوا السلامة فى البحر فيقول :

« وفى الحقيقة أن الناس كانوا فى الزمان الأول أكثر حــزما ولا يركبون البحر الا بأهله ( أى مع الربابنة الماهرين ) من شــدة الحزم والخوف والحذر من البحر ويعدوا للمركب اعتــدادا ( اعدادا ) جيدا ولا يؤخرون الموسم ولا يشحنون المركب غير العادة ونحن أكثر منهم علما وتجربة وكل فن من فنون البحر له أصل » .

ويعدد هذه الفنون كالآتى : السفينة ثم المغناطيس أو ( بيت الابرة ) « وهو دليل على القطبين » ثم نجوم اخنان الحقة ( وردة الرياح ) وأسمائها ويقول ان تقسيم ( وردة الرياح ) قديم قبــل « زمن النبوث » المتقدم ذكرهم ثم يذكر صفات البزور اى العلامات

الساحلية من جبال وما اليها وله فيها اضـــافات مبتكرة افادت الملاحين بالتجربة . ويستشهد بأبيات من الحاوية تؤيد رأيه .

وفى هذه الأبيات يخاطب الربابنة بقوله ان ما جاء بكتابه عن علامات تدل على التعرف على البر صحيح مجرب .

وبلغ من دقته في تحديد مثل هذه العلامات قوله انه « لم يضف شيئا له شبيه ( على الساحل ) فى أعلاه وأسفله على مسيرة زامين أو أقل أو أكثر » ( أى على مسيرة نحو ٦ ساعات بالشراع ) .

كما يحـــذر من الاعتماد على الأنجـم والاخنان فى المضايق الخطـــرة .

ثم يصف بعد ذلك تقسيم وردة الرياح العربية الى ٢٢٤ أصبعا أو درجة تنتظم فى « ٣٢ » قســما أو ( خنا ) ويلخصــها ببيتين يستشهد بهما من « حاوية الاختصار » بقوله :

ومندل الاخنـــان والمنـــازل لها أصـــابع شهرت يا عاقل
سبعون مع سبعين مع سبعونا واربع مع عشر يحســـــبونا

ومثل هذه الأبيات التى يلخص فيها المؤلف اصطلاحاته الملاحية قد تبدو لأول مرة كالألغاز يصعب حلها ولكن بدوام القراءة والتفهم يستطيع الانسان التوصل الى مدلولها ، والبيت الأخير يلخص عـــدد الأصـــابع والدرجـــات كما قلنا فى الدائرة وهى ( ٧٠ + ٧٠ + ٧٠ + ١٤ = ٢٢٤ اصبعا ) . وهو قد جعل عدد المنازل في تقسيم الدائرة كعدد منازل القمر اى ٢٨ والاخنان لتقسيم الحقة ( الدائرة ) عددها ٣٢ على عدد « أخنان المركب » . وقد يدخل البعض من النجوم فى المنزلة القمرية ويدخل فى خن الحقة . والأصابع وقسمتها على الاخنان والمنازل « والترفات » مأخوذة من درج ( تدريج ) الاصطرلاب كما يقول .

أما الفصل الثانى أو **الفائدة الثانية** ففيها ملخص جميـــل للمعلومات والارشادات التى يجب على الربان الاحاطة بها ومنها

« معرفة المنازل والاخنان والدير والمسافات والباشيات والاشارات وحلول الشمس والقمر والرياح ومواسمها ومواسم ( السفر ) في البحر وآلات السفينة وما يحتاج اليه الربان منها وما يضرها وما ينفعها » . وكذلك يحتوى هذا الفصل أيضا على طريقة القياس وعلى نظام مطلع النجوم الملاحية ومغربها ( وهى من نجوم المنطقة المدارية ) وكذلك اشارات قرب البر كالطين ( طبيعة القاع ) والحشيش ( الطحالب والنباتات ) والحيات والحيتان والموارز ( الحيوان ) والأرياح ( الرياح ) وتغير الأمواه (يقصد خواص المياه) ومد البحر وجزره . وهذه كلها كما نرى معلومات اقيانوغرافية من الطراز الأول يجدر بربان البحر الاستدلال عليها وملاحظتها .

ويشتمل **الفصل الثالث** على ذكر المنازل الفلكية والنجوم الملاحية التى يهتدى بها الربان فى عرض البحر وهى :

| | | |
|---|---|---|
| البطين | الثريا | البلدة |
| الدبران | الهقعة | سعد الذابح |
| الهنعة | الذراعين | سعد بلع |
| النثرة | الطرف | سعد السعود |
| الجبهة | الزبرة | سعد الأخبية |
| الصرفة | العواء | الفرع المقدم |
| الغفر | الزبانان | الفرع المؤخر |
| الاكليل | القلب | بطن الحوت |
| الشولة | النعائم | الشرطين |

ومن أراد زيادة المعرفة عن هذه النجوم واصول تسميتها فانا نحيله الى كتاب أبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى المتوفى عام ٤٤٠ هجرية بعنوان « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ففيه وصف ممتع لمجموعات النجوم وأصل تسميتها ولعلم الأنواء المشهورة عند العرب وارتباطها بالمناخ ـ وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الألمانى « ساشاو » كما ألمحنا من قبل .

ثم يلي ذلك فى **الفائدة الرابعة** ذكر الأخنـان وهى الجـدى ـ الفراقد ـ النعش وسهيل ـ الناقة والحمارين العيوق والعقرب ـ والواقع والاكليل ـ السماكين والنير ـ الثريا والجوزاء ثم الطائر **ويقول أن لهذه النجوموالصور بروجا ودرجاتودقائق ومحال طول وعرض وجهة وبعد وممر يقصر عن ادراكها معالمة البحر وركابه .**

ومما توصل اليه ابن ماجد أيضا تقسيمه للنجوم والكواكب حسب درجة لمعانها الى ست مراتب (١) فيقول هذا نجم من القدر الأول أو من القدر الرابع مثلا ، ومن أقواله المأثورة فى هذا الصدد « ونجوم قياسنا أنور من النجمين الأوسطين » أو قوله « العقرب هو نجم خفاق منير » . أو قوله عن الدبران « كلاهما أحمر من القدر الثانى » أو قوله :

الم تر سير النيرات مخالفـا لشهرتهم سير السها والنعايم

« فالمراد بالنيرات السبعة الكواكب السيارة والسها والنعايم المراد بهم الثوابت » وفى هذا الفصل أيضا مرشدات ملاحية للسير بهذه النجوم ليلا بين السواحل المختلفة .

وفى الفصل الخامس ( **الفائدة الخامسة** ) يعدد المؤلف أسماء الكتب والمراجع الفنية التى يجدر بمعالمة البحر استيعابها وأغلبها فى الجغرافيا الوصفية والفلكية والرياضية مما أوردنا ذكره فى موضع سابق .

أما الفصل السادس ( **الفائدة السادسة** ) فتتعلق « بالديرات الثلاثة » كما صنفها المؤلف وهى القسمة الأولى والقسمة الثانية والقسمة الثالثة وتأتى فى الترتيب بعد المنازل والأخنان . ويتكلم المؤلف فى هذا الفصل عن « بيت الابرة التى تسمى السمكة وسمكة لحقة » ويحضرنا فى هذا المجال ما سبق أن أشرنا اليه من كلام

(١) هذا هو نفس التقسيم منذ العصر اليونانى القديم .

المقريزى فى « الخطط » عن ملاحى المحيط الهندى الذين يهتدون الى القطب بسمكة من الحديد المطروق تطفو فوق الماء فيشير رأسها إلى القطب .

وفي هذا الفصل أيضا يحذر ابن ماجد المعالمة من علل البحر وأخطاره فيقول :

« واعلم ان للبحر عللا فاحذر منها أولها نوم المعلم وحط الجاه فى الليل ( النجم القطبى ) فى مكان وفى النهار فى مكان غيره وذلك مما يطول الطريق ويحسب المعلم انه يجرى فى مجرى وهو يجرى فى غيره من قلة معرفته أو من فساد حقه ( بوصلته ) ــ خصوصا عند الموجة ( ارتفاع الموج ) والتقاصير ( الأماكن الضحلة ) والمركب الناقع المزمن فى الماء ( أى الذى يرشح فيه الماء فيثقل ) فيحسب المعلم أن المركب شاد على صدره وهو يجرى على العمرانيات ، وقد وقع علينا كل ذلك فصرفنا أنفسنا فيه .. والحذر كل الحذر من صاحب السكان لا يغفل عنه فانه أكبر أعدائك فلم تدرى عند النتخة من غريمك من أهل السكان وما صنفت هذا الكتاب الا بعد أن مضت لى خمسون سنة وما تركت فيها صاحب السكان وحده الا أن أكون على راسه أو من يقوم مقامى » .

وأما الفصل السابع أو **الفائدة السابعة** فتتعلق « بالباشيات » والقياسات ( ويقصد بالباشى هنا ارتفاع النجم فوق الأفق فى حالات معينة ) . ويقول « فران » ان هذه الكلمة ليست عربية ولا فارسية ولا هندية . ويستدل من هذا القياس على خط العرض .

وهو يؤكد هنا فى هذا الفصل أيضا فائدة التجريب مرة أخرى فيقول « فوالله ما صنفت هذه القياسات المنتخبات الا بعد أن كررت عليهم عشرين سنة » ويضرب المؤلف أمثلة حية على أهمية التدقيق فى قياس ارتفاع النجم ويقول :

« فانى لم أترك فى السماء نجما الا وقد درجته وعرفت نقصانه وزيادته » أو قوله « فقياسات بحر قلزم العرب وبر الملل فيما يلى العجم وبر العرب لم يحوزها فى زمانى غيرى »

وهو يصف فى هذا الفصل أيضا طريقة القيـاس الصحيحة فيقول :

« وأعلم ان للقياسات عللا فمنها اذا قمت من النوم ينبغى أن تغسل وجهك وعينيك بماء بارد وتجود الجلسة وتجعل النجـم ( المقيس ) عن النجم الذى يلقى وجهك سبعة أخنان كالجاه والطاير ويكون الخشب ( آلة القياس ) الكبار ضيقات القياس ومد بهم يدك ما استطعت والأربع الصغار نفيسات وقصر بهم يدك ما استطعت والأربع المتوسطات قياسهم عادة وذلك لاتساع ذيل الأفق وانكفاف أعلى الأفق فافهم أنا أدركنا جميع كسور هذه الصنعة · وينبغى أن يكون بين النجم المقيوس وبين الخشبة خيطا وبين الماء والخشبة كذلك خيطا . والدخن ( الضباب ) من مفسدات القياس وفساد الجلسة والباشى الفاسد . والقياس باليد اليسرى من فســاد القياس ( أيضا ) » .

وأما الفصل الثامن ( **الفائدة الثامنة** ) فيتعلق بالاشـارات والسيارات وترتيب المركب والعسكر فيبدأ بالسفينة وهى على البر لم تنزل الى البحر بعد ويقول أن على الربان الماهر أن يتفقد خللها قبل انزالها الى الماء وبخاصة مكان وضع « البوصلة » ويذكر طريقة لمعرفة اتجاه الريح وينصح الربان أن يستخدم البوصلة للتأكد من صحة قياسه بالليل فيقول :

« تأمل الجاه بالليل وحطه فى مكان يوافق المكان الذى حكمت عليه بالحقة ( بالبوصلة ) بالنهار حتى لا يكون بالنهار مجرى وبالليل مجرى ويطول الطريق » .

وفي هذا الفصل أيضا يتكلم ابن ماجد عن الطـوفان والرياح

وأوقاتها ومواقع حدوثها ولا يكتفي بهذا بل يذكر أيضا ظواهر وعلامات طبيعية تحت الماء وكذلك العلامات البيولوجية المميزة للمنطقة البحرية ومنها الحشائش البحرية والطيور كالمنجى والقرعا والأسماك المشهورة مثل البتان والتهاول ، وذلك فى مثل قوله « فاذا رأيت هـذه العلامات يكون بينك وبين بر الصومال مسيرة نحو ١٢ ساعة تقريبا بالشراع اذا كانت الريح مواتية » .

ويذكر كذلك طائرا أزرق فى بطنه بياض يسميه « أم الصنانى » ويقول انه من علامات جزيرة سقطرة وانت قادم عليها من الجنوب . ومن علامات البر كذلك رؤية الجبال والمعالم الأرضية ، ومن ذلك قوله عند القدوم على ساحل الهند لدخول جوزرات « أنك اذا رأيت جبل جلنار وقد قبت رأسه قطعة واحدة وهى عنك فى مطلع العيوق ( نجم ) فأنت بشوران بلد التنبول وان ظهرت لك قمتان من هذا الجبل وكانت شرقية فأنت بشوران للمغارب » .

ويعدد بعد ذلك كثيرا من هذه المعالم على سواحل الهند والسيلان وغيرها . وجميعها أشارات جد نافعة للملاحين . وينهى هذا الفصل بقوله « وقد وصفنا جميع مناتخ بحر الهند لأنها أعم نفعا وأكثر استعمالا مع أهل هذه الصنعة » .

أما الباب التاسع أو **الفائدة التاسعة** فتتعلق بدورة البحر على جميع الدنيا وفيه وصف جغرافى للسواحل والنتخات ومعالمها المشهورة على الساحل العربى والافريقى للمحيط الهندى وفى البحر الاحمر من باب المندب الى القصير والسويس . وفى هذا الباب يرجع المؤلف القارىء أيضا الى كتب المسعودى وابن حوقل فى تقويم البلدان . ولا يقتصر ابن ماجد في وصفه للسواحل على المحيط الهندى وانما يصف أيضا البحر الرومى ( الأبيض المتوسط ) وكيفية الوصول اليه بالدوران على سواحل أفريقيا . وعلى الرغم من أن ابن ماجد ربما كان قد أحاط علما بهذا البحر من محادثاته مع معالمة الشام الذين لم يكن أفرس منهم فى معرفة « البحر الرومى » كما

يقول المسعودي وكذلك من قراءته لكتب تقويم البلدان ـ فان هناك احتمالا كبيرا أيضا فى أن يكون عرب الأندلس قد داروا حول افريقية ووصلوا الى المحيط الهندى من الغرب قبل البرتغال . ولئن كان ابن ماجد قد اختصر وصف الساحل الغربى لأفريقيا ولم يذكر لنا شيئا عن طوله بمقياس الزمن الذى تقطعه المركب فى البحر ولا شيئا عن موانيه المشهورة ـ الا أنه يقرر أن هذا الطريق كان فى الزمن القديم طريق الفلفل ( التوابل ) وذلك قبل أن يكتشفه البرتغال بزمن طويل ، وانا نميل الى الاعتقاد بأن الملاحين العرب قد داروا حول أفريقيا سواء من الغرب الى الشرق أو بالعكس ومما يؤيد هذا الرأى أنه عندما وضــــع « فرامورو » Fra Mauro مصوره الجغرافى فى عام ١٤٥٧ م ذكر أن ملاحا عربيا ابحر حوالى عام ١٤٢٠م من المحيط الهندى حول القارة الافريقية فظهر بالمحيط الأطلنطى(١) . ومن المعروف أيضا أن المصريين القدماء قد داروا حول هذه القارة من الشرق قبل ذلك بقرون طويلة . وثمة وثيقة عربية أخـرى لجغرافى عربى من غرناطة هو ابن سعيد ( ١٢٥٠ م ) الذى ألف كتابا شهيرا بعنوان « جغرافية الأقاليم السبعة » كتبه على نهج « الأدريسى » ( أبى عبد الله ١١٠٠ ـ ١١٦٥ م ) فى كتابه ( نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ورد فيه أن ملاحا عربيا يدعى ابن فاطمة دار حول أفريقيا من الغرب الى الشرق ووصف سواحل السنغال ومدغشقر وكيف كانت جالية هندية تعيش فى مدغشقر فى ذلك الوقت ( انظر أيضا كرامر : تراث الاسلام ١٩٣١ ) .

ويتضح أيضا من الرجوع الى المصادر البرتغالية عن تاريخ

---

(١) انظر المرجع الآتى :

الأرض المجهولة للمستشرق الهولندى هننج عام ١٩٣٩ باللغة الالمانية :

Hennig R. : Terra incognita

Eine Zusammenstellung und Kritische

Bewertung etc ... vol. 4, 1939.

البرتغال فى جنوب شرقى أفريقيا أن ملاحيهم حين نزلوا بناتال وموزمبيق فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى علموا أن العرب قد وصفوا هذا الساحل قبلهم بزمن طويل بأنهاره وخلجانه ومرافئه.

أما الفصل العاشر أو **الفائدة العاشرة** فتتعلق بوصف الجزر الكبار المشهورات المعمورات . وأولها بطبيعة الحال جزيرة العرب وابن ماجد يصفها ويصف تاريخها ويقول انها كانت منفصلة عن الأرض والتحمت بعد طوفان نوح ، والجزيرة الثانية الكبرى هى جزيرة القمر « **وهى الآن جزيرة** ( يعنى أنها هى الأخرى كانت ملتحمة قديما بالأرض ) وطولها قريب عشرين درجة وبينها وبين بر السفال وجزره جزاير وشعبان ( شعب مرجانية ) وكل ذلك لم يمنع المسافر أن يجوز بينهم • وجزيرة القمر منسوبة لقامر بن عام بن سام بن نوح وعلى جنوبيها بحر دقيانوس وهو البحر المحيط بالدنيا وهو مبتدأ الظلمات الجنوبية على جنوب هذه الجزيرة » .

والمقصود بالقمر بطبيعة الحال هى جزيرة مدغشقر وفى قول آخر يسميها « مدكسكر » .

أما الجزيرة الثالثة فجزيرة شمطرة ( سومطرة ) وهى الجزيرة التى يمر بها خط الاستواء .. « وشمطرة لها عدة سلاطين كفرة وهى معدن الأفيال البيض والكافور وبسبس الزباد (١) الخاص المبتاع بوزن الذهب » .

أما الجزيرة الرابعة « وهى جاوة على جنوب خط الاستواء فى الاقليم الأول الجنوبى .. وهى أقل فى الكبر من شمطرة ويسكنها الكفرة والاسلام وسلاطينها كفرة وهى مدن اللبان الجاوى وجزر الصندل على جنوبيها للمشارق وكذلك جزر العقاقير » .

---

(١) الزباد هو طيب معروف يؤخذ من سنور الزباد وهو حيوان ثديبى صغير من العائلة السنارية وهو غالى الثمن — ويسمى هذا الطيب أيضا باسم « الزهم » .

والجزيرة الخامسة « تسمى الغور وهى معدن الحديد الغورى والسيوف الصافية القاطعة لجميع الحديد واسمها بالجاوى لكيوف .. وأهلها ذوو بأس شديد ما عليهم من الشجاعة مزيد » .

والجزيرة السادسة « وهى سيلان على شمالى خط الاستواء وعلى جنوبى بحر الصوليان ( كرماندل ) جزر بحر الهند من الجنوب والمشارق ولها عدة سلاطين من الكفرة وهى جزيرة قريبة الاستدارة .. وبينها ( وبين ) بحر قايل معدن لؤلؤ يعمر في بعض السنين ويخرب فى بعض ( يعنى مغاصات اللؤلؤ حيث ينمو محار اللؤلؤ المشهور ) وهى معدن الأفيال والقرفة والياقوت النفيس .

أما الجزيرة السابعة « وهى زنجبار ممتدة على بحر الزنج ذات أشجار وأنهار وفيها أربعون خطبة ( يعنى أن بها أربعين مسجدا تقام فيها الصلاة ) تحكم عليها سلاطين الاسلام » .

أما الجزيرة الثامنة « فهى البحرين وتسمى « أوال » وفيها ثلاثماية وستون قرية وفيها الماء الحالى ( شبه العذب ) من جملة جوانبها .. وحواليها معدن اللؤلؤ وعدة جزر كلها معادن اللؤلؤ يأوى عليها قريب ألف مركب وفيها جملة قبايل من العرب وجملة تجار وفيها جملة من النخيل المثمرات .. والخيل والابل والبقر والأغنام .. وفيها عيون جارية .. ورمان وتين واترج وهى فى غاية العمارة » ثم يذكر بعد ذلك تاريخ سلاطينها .

أما الجزيرة التاسعة « فهى جزيرة ( ابن جاوان أوبرخت ) مما يلى الهراميز ، وفيها خمسمائة حائك يحوكون الحرير ويسكنها العرب والعجم وفيها الفواكه والكروم والبطيخ .. » .

أما الجزيرة العاشرة « فهى سقطرة وهى جزيرة عامرة قريبة التدوير أصغر من الجزاير المتقدم ذكرها ، طولها وعرضها قريب خمسين فرسخا وهى على مشارق بر الصومال تسكنها اهماج النصارى وقيل بقية اليونان .. وفيها خلق كثير قريب عشرين ألف

آدمى وقد ملكوها من قديم الزمان خلق كثير فلم تتم الا لأهلها »
ثم يذكر القبائل التى حكمتها واغلبهم من المهرة ( من اليمن ) ثم
ملوك الشحر وحضرموت .

واما الفصل الحادى عشر ( **الفائدة الحادية عشرة** ) فتتعلق
بمواسم السفر من السواحل المختلفة وهذه المواسم فى الواقع تتفق
مع مواسم الرياح وملاءمتها للسفر فى البحر ويتبع ابن ماجد
التقسيم المعروف بالنيروز (وهى السنة الفارسية وتبدأ فى ٢١ مارس
وهو دخول الشمس برج الحمل ) ومن هذا التاريخ يبدأ الحساب
فيقال مثلا مائة النيروز أى بعد مائة يوم من بدء السنة وهكذا .
وبديهى أن مواسم السفر تختلف على السواحل المختلفة وتبعا
للجهة المقصودة .

وهو على سبيل المثال يقول « واما خير الخروج من باب المندم
( المندب ) وما يليه مثل الحديدة وعدن فى أول ماية وثمانين
النيروز » .

« ... فهذه مواسم أول الريح الكوس ( الغربية ) من اليمن
وعدن اذا خرج فى مايتين وثمانين الى حدود ثلثمائة ولا خير
فيما بعدها » .

وأما تعريفه للأرياح فهى الصبا والشمال والقبول والدبور .
فالصبا هو الأزيب والقبول هو الذى يواجه المركب والدبور هو
الريح التى تهب من خلفها . والقبول والدبور هما الرياح الموسمية
في فصليها وهى تهب من الغرب للشرق صيفا ومن الشرق للغرب
شتاء .

ويراعى ابن ماجد فى مواسم السفر ايضا حالة المد والأمطار
فيقول فىأماكن أخرى «ولا خير فيما بعد ذلك لأن المد عليها (يكون)
قويا شديدا » ويعنى بالمد هنا التيارات المائية .

أو قوله « الخروج من بر الهند لبر العرب أوله ثلثماية وثلاثين النيروز من جوزرات وكنكن » .

وفيما يتعلق بالبحر الأحمر يقول « وخير السفر فى البحر الذى فى الأقاليم الشمالية فى الماية ومن مسك اليمن مسك الحجاز لأن بحر القلزم العربى لم يتغلق ( يقفل ) خصوصا على المراكب المعتدة ( القــــوية ) .

وفيما يتعلق بالسفر من ساحل الزنج يقول « ولكن اهل جميع الأقاليم الجنوبية اذا ارادوا السفر بآخر أرياح الدبور فلابد لهم من الأمطار الى جدود خط الاستواء وكفى بذلك أرض أهل سفالة والأخوار الى أرض الزنوج مثلهم أرض تيمور لجاوة وما يليها ومن ملوك الغور ولجاوة وجميع الجزر الجنوبيات لم يسافرون ( كذا ) الا فى آخر الديمانى كل واحد منهم على قدر مكانه ومركبه » .

وهو يحذر من الدخول للموانى فى المواسم الحرجـــة فيقول « والحذر كل الحذر من النتخات وضيق المواسم عليها ولو عرف لكل نتخة موسمها . . » .

أما الفصل الثانىعشر (**الفائدة الثانية عشرة والأخيرة**) فيتعلق بوصف البحر الأحمر ( بحر القلزم ) وجزره وشعبه المرجانية .

ويهتم ابن ماجد بهذا البحر ويفرد له نحو العشرين صفحة من كتاب الفوائد ويصف شعبه بدقة والمسافات بين المراسى المختلفة ويتكلم عن الشعب أحيانا تحت اسم الظهار ( من ظهرة أو مكان مرتفع ) ويتكلم أيضا عن طبيعة القاع في بعض الأماكن مثل قوله « وأمرية بر العرب فهى الحجر ( صخر ) والرمال وأما أمرية بر العجم فهى رمال . وكذلك يتكلم عن الأعماق فى مداخل البرور بدقة كبيرة ويحذر من الشعب الخطرة مثل شعب عيسى « فاحذره بالليل كل الحذر فانه شعب خافى لم يكسر عليه الموج وقد وقع عليه

مركب محمد بن مرعى الاسكندراني في سنة تسعين وثمان مائة في الهجرة نصف الليل .. » .

ومهما يكن من شيء فقد عرضنا الكتاب بما اتسع له مجال العرض هنا ، وان كنا قد كرسنا له مثل هذا الاهتمام بالنسبة للمؤلفات الأخرى لابن ماجد التي سيرد ذكرها ، فما ذلك الا لأن « كتاب الفوائد » يعتبر في الواقع أكبر عمل علمي لابن ماجد وقد كتبه بعد الانتهاء من « الحاوية » واراجيز أخرى كثيرة وضمنه كثيرا من الارشادات والقواعد الأساسية في الملاحة - على أننا على الرغم من ذلك لم نتعرض كثيرا لأرصاده وقياساته والأدوات التي أتمها بها ونؤثر أن نؤجل ذلك الى القسم الثاني من هذا الكتاب الذي يتناول فنون البحر عند ابن ماجد .

ولا بأس هنا من أن نقارن كتاب الفوائد لابن ماجد بمؤلفات أخرى مماثلة صنفها ربان عربي ظهر في المحيط الهندي هو الآخر بعد ابن ماجد بزمن وجيز وهو سليمان المهرى وقد تقدم ذكره عند الكلام على المصادر العربية لكتاب « محيط » التركي في الملاحة .

وأصل سليمان المهرى من بلاد الشحر على الساحل الجنوبي لحضرموت وكان سكان هذه البلاد منذ الزمن القديم ملاحين مهرة وعلى صلات بسواحل أفريقيا الشرقية وكذلك بسواحل الهند وارخبيل الملايو .

ولسليمان المهرى خمسة مصنفات في الملاحة مكتوبة نثرا ومحفوظة بأجمعها في مخطوط باريس رقم ( ٢٥٥٩ ) وأكبر هذه المصنفات هو « **العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية** » الذي يرجع تاريخ تأليفه الى عام ٩١٧ هـ ( ١٥١١ م ) أى بعد ابن ماجد بزمن يسير . وينقسم هذا الكتاب بدوره الى سبعة أبواب : الأول منها يبحث في أصول الملاحة الفلكية مع تعريف بالمصطلحات.

والباب الثاني يتحدث عن النجوم . والباب الثالث عن الطرق البحرية « فوق الريح وتحت الريح » أى الى الغرب والشرق من رأس كومورين . أما الباب الرابع فيتناول الطرق الموصلة للجزر الكبرى والباب الخامس يبحث فى قياس الجاه والفرقدين ( النجمين ɣ ، B من نجوم الدب الأصغر ) والنعش ( وهى ثلاثة نجوم، ∝ ،B، ɣ من الدب الأكبر ) . أما الباب السادس فيتناول الرياح الموسمية بالمحيط الهندى ويصف الباب السابع البحر الأحمر ( بحر القلزم ) ويلى ذلك وصف لكثير من طرق الملاحة .

أما المصنف الثاني الكبير للمهرى فبعنوان « **كتاب المنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر** » وينقسم هو الآخر الى سبعة أبواب تسبقها مقدمة فى معرفة « الأزوام والترفا » وهذه الأبواب هى :

١ ـ في علم دير البحور المعمورة المشهورة .

٢ ـ فى قياس الأصلى وسائر القياسات .

٣ ـ فى صفة الجزر والقياس عليها .

٤ ـ فى المسافات على قياس الجاه ( النجم القطبى ) والفرقدين .

٥ ـ فى معرفة الأرياح والمحذورات .

٦ ـ فى علامات قرب البرور .

٧ ـ فى معرفة حلول الشمس والقمر فى البروج .

وفي ختام الكتاب يقدم المؤلف وصفا لخمسة طرق ملاحية .

وللمهرى فوق ذلك رسالة بعنوان « **تحفة الفحول فى تمهيد الأصول** » الباب الأول منه فى صفة الأفلاك والنجوم وفى المغناطيس وبيت الابرة والثانى فى تقسيم الدائرة الى اثنين وثلاثين خنا والثالث فى الأزوام والرابع فى الطرق الملاحية الساحلية والتى

فى عرض البحر والخامس في تحديد ارتفاع النجوم والسادس فى المسافات بين المواني والسابع فى الأرياح والعواصف . وله رسالة رابعة فى علم التواريخ وخامسة بعنوان « رسالة قلادة الشموس واستخراج قواعد الاسوس » . ومؤلفات سليمان المهرى فى مجموعها تتبع نفس المنهج الذى سار عليه سلفه ابن ماجد ، بل هى فى كثير من الأحوال شرح لتلك المؤلفات . ويتفق الرجلان على أن علم البحر وفنونه من العلوم العقلية التجريبية .

وتقسيم الدائرة عند المهرى يختلف بعض الشيء عن تقسيم ابن ماجد فهى عند سليمان تنقسم الى ٢١٠ أصبع بينما عند ابن ماجد تنقسم الى ٢٢٤ أصبعا أو درجة .

وعلى الرغم من أن نشاط سليمان المهرى قد عاصر فتوحات البرتغال فى المحيط الهندى فلا ينعكس في كتاباته أى أثر لهم اللهم الا فى شذرات قليلة ربما سمع عنها من ربابنة آخرين وذلك مثل قوله فى المنهاج الفاخر « وقالت الأفرنج أن البر ممتد الى نعش سبعة في الماو والله أعلم » .

## ٢ ــ حاوية الاختصار فى أصول علم البحار

وهذا هو المؤلف الثانى الكبير لأحمد بن ماجد ، ألفها شعرا من بحر الرجز وتقع فى نحو ٦٠ صفحة يبدأها بمقدمة تقع فى ٢٢ سطرا ننقلها بنصها كالآتى :

« حاوية الاختصار في أصول علم البحار تصنيف المعلم أسد البحر الزخار شهاب الدين احمد بن ماجد ابن عمرو بن فضل بن دويك بن أبى الركايب النجدى عفا الله عنهم وسلمه وغفر له ولوالديه ووالدينا ولجميع المسلمين آمين يارب العالمين . » .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

« الحمد لله على حسن توفيقه والهام الحق بتحقيقه والهداية لأسباب الخير وطريقه ونصره فى تغريب الفلك وتشريقه أحمده على معرفة الهمناها وأمدها لسلسبيل البحر ورحيقه وفصاحة تدهش بليغ اللفظ ووجيزه والصلاة والسلام على النبى الأمى وعلى آله وصحبه وفريقه ، أما بعد :

خذ التواضع ( ؟ ) ورقيق اللفظ وجزله فان التصنيف لمثل هـذه الأرجوزة زكاة الافهام وتحديد سر دراسـة الليالى والأيام . اقبلت بى اليها طاعة ملك الأملاك ومدبر العالم والأفلاك لقوله جل من قائل (( وعلامات وبالنجم هم يهتدون )) فتحققت ظنونى وشاهد قلبى وعيونى ان فيها وبها بعد الله تعالى الهداية ومما حل به على نظمها خشيتى ايقاع الجهل على البرية واندراس العلم ونزوله بساحة من ليس له فيه أهلية . فوضعت فيها من الألفاظ الغريبة والحكمة الربانية بمشيئة الله تعالى ما أرجو به انشراح صـدور ذوى الألباب عندما يدهمهم من شدة ومصاب ، صفيتها مما سلك فى عصرى من الأراجيز المصنفة والرهمانجات الواسعة المؤلفة كثيرة التردد والتكرار مستحسنة لكافة الجمهور وهى ( للمهموم ) اقالة وحضور وكان قصدى الاختصار واسقاط الحشو من هوش الاكثار لئلا يستطيلها الملول ولا يتفرغ لقراينها المشغول فرحم الله من تصفح ما يجده من الزلل ويصلح ما فيها من خطأ وخلل . وهى الأرجوزة المسماة بحاوية الاختصار فى أصول علم البحار مشتملة على أحد عشر فصلا تصنيف العبد الفقير بالعجز والتقصير أقل عباد الله وأحوجهم الى رحمة ربه العلى الكبير بقية السلف وعمدة الخلف المعلم الشهير أحمد بن ماجد بن عمرو بن فضل بن دويك ابن أبى الركايب النجدى عفا الله عنهم وعن جميع المسلمين آمين . يا كافى يا شافى يا هادى يا معين )) .

ويرجع تاريخ تاليف الحاوية لعام ٨٦٦ هـ ( ١٤٦٢ م ) وهو التاريخ الذى استطاع « فران » أن يتوصـــل اليه من مقارنة سلسلة التواريخ التى يتحدث فيها ابن ماجد عن فيضان نوح والاسكندر والتاريخ الهجرى والمسيحى .

وتقع الحاوية كما رأينا فى المقدمة فى أحد عشر فصلا تضم فى مجموعها ١٠٨٣ بيتا وهى على الترتيب :

**١ ـ الفصل الأول :**

فى ذكر اشارات تحتـــاج اليها الربابين كالطين والحشيش والبلد والمارزه وما أشبه ذلك . ويقع هذا الفصـــل فى ٥٥ بيتا . ويبدأه كالآتى :

الحمد للخـــالق ذى الجلال القـــاهر الفرد بلا مثـــال

وفيه يذكر الاشارات التى تعين الربان على معرفة قرب البر فى قوله :

والطين والحيـــات والأطيـــار
والحوت والحشيش خـذ أخبارى

أو قوله :

تغـــير الأمواه فى الحـــالات
يحصـــل من طل ومن حيـــات
حتى يصـــير الماء مثل النـــور
فذاك لا يخـــفى على النحـــرير
وان رأيت المـــاء قد تغـــيرا
مارجة الشباب فمنه الحـــذرا

وهذه ملاحظة هامة جديرة بالاعتبار وان دلت على شىء فعلى أن ملاحنا العربى كان قوى الملاحظة ، فانه يدون هنا ـ ربما لأول

مرة ـ ظاهرة **الاضاءة الفوسفورية**(١) التى تنجم عن حيوانات وكائنات دقيقة تعيش فى تجمعات عظيمة على صفحة الماء وينبعث منها ضوء جميل بالليل يضيء صفحة الماء ، وهذه الظاهرة تبدو من آن لآخر فى أنحاء متفرقة من المحيط الهندى وتدل فى أحوال كثيرة على تغير طبيعة الماء .

أما الحيات التى يتكلم عنها ابن ماجد فمشهورة على ساحل الهند وهى ثعابين صغيرة ذات ألوان زاهية تتنفس الهواء ، والجوى وتستطيع أن تبقى تحت الماء نحو نصف ساعة وهى سامة جـــدا وخطرة للغاية ولدغتها مميتة وسمها يفوق فى مفعوله سم الكوبرا بمائة مرة أو نحو ذلك ، وقد عثرنا على بعضها على جزر المحيط أثناء رحلة الكشف العلمى الدولية للمحيط الهندى التى اشتركنا فيها فى أواخر عام ١٩٦٤ . وابن ماجد يؤكد هذه الظاهرة مرة أخرى فى بيتين من الحاوية هما :

والقدماء الفضـــلاء الثقـــات توافقوا فى صـــحة الحيـــات
من جاه أحد عشر لجاه خمس خصوص بالهند فدتك نفسى

ويحدد فى البيت الأخير خطوط العرض التى توجد فيها هذه الحيات وبخاصة على سواحل الهند .

### ٢ ـ والفصل الثانى :

« فى المنازل والأخنان والجرى عليهم ومقابلاتهم وعدد أصابعهم فى السماء وهى أصابع غير الترفا ومعرفة الترفا وما يتعلق بذلك » .

---

(١) تعرف هذه الظاهرة باسم الاضاءة البيولوجية Bioluminescence ، وقد شاهدناها مرارا فى المحيط الهندى وتتسم بها نباتات وحيوانات كثيرة فى البحار الحارة سواء أكانت وحيدة الخلية مثل البكتريا أو البلانكتون أو عديدة الخلايا مثل قناديل البحر وديدان البحر الوهاجة ، ويستطيع المسافر فى المحيط الهندى فى الليالى المظلمة أن يقرأ على الضوء المنبعث منها كتابا بسهولة وبخاصة اذا كان فى مركب شراعى قريبا من سطح الماء ( المؤلف ) .

وعدد أبيات هذا الفصل ٦٠ بيتا ويبدأه بقوله :

فأول معــــرفة المنـــــازل هاكها شــامية يا ســـائلى
الشرطين والبطــــين والثريا والدبران بعـــــدهم تهيـــا
وهقعة من بعـــدها والهنعــــــة ما فى صفاتى لك قــط حرفة

وهى اسماء مجاميع النجوم وعددها ٢٨ منزلة .

ثم يذكر الأخنان بعد ذلك وعددها كما ذكرنا فى كتاب الفوائد عند ابن ماجد ٣٢ خنا أو قسما تشير الى مطلع ومغيب نجــوم معينة هى التى يجملها فى الأبيات الآتية :

وبعد ذا معــــرفة الأخنـــان بدورة المركب يا اخـــوانى
الجاه والفرقد والنعش معــــا ناقتـــه والبارقولى أســـــمعا
والكاثر المشـــهور والسماك والنجـم .. انشقاق الأفلاك
وخلفها الجوزا ثم الشــــعرى وبعدها الاكليل والعقرب ترى
ثم الحمـــارين مع الســــهيلى التير المعترف الســــــعيلى
والمحنث الدانى لنحـــو القطب مؤرخ عنـــد المـلا فى الكتب
فهــــذه معرفة المشـــارق والغرب ما أوصفه للحـــاذق

## ٣ ـ أما الفصل الثالث من الحاوية فبعنوان :

فى قواعد الباشيات ومعرفة النيروز العـــــربى والسلطانى والسنين العربية والرومية والقبطية والفارسية واستخراجهم بما وافق من الحساب وعدد أبياته ٤٠ بيتا ، ويبدأ هذا الفصل بقـــوله :

وان ترد معـــرفة البـــاشى فاسمع حـــديث ثقـــة ماشى
فى الفلق أو فى موســم الأسفار أو كل فصل فيه لا تمـــارى
اذا رأيت يا فتى باشــــــيا أو مستقلا صـــار مســتوية
واعلم بأن الفجــــر مبتـــداه وان أتى المغرب خذ ســـواه

ودعـــه ســـتة شـــــهور حتى ترى قياســـــه يدور
بالفجر واعـــلم انه مســتقل فقسه ســـتة أشهر يا رجل
من آخر الليـــل لأول الليــــل أوصيك في ذلك يا خليــــلى

وبعض الربابين كان يقيس تلك النجـــوم الملاحية المشـــهورة من العام للعام وبعضهم كل ستة شهور للتحقق من صحة أرصادهم. والأصح كما نعرف اليوم من أصول الملاحة الفلكية قياس النجم كل شهر مرة .

وفى هذا الفصل يذكر أيضا السنة القمرية والسنة الشمسية :

فالسنة الناقصة القمـــــرية والزايدة تعـــرف بالشمسية
والقبط والفرس معـــا والروم عامهم يزيد عنهـــــم يـــوم

٤ ـ اما الفصل الرابع فبعنوان :

في معرفة الباشيات ومواسمها وشهورها وثبوت قياســـها وزواله على حساب النيروز وذكر ما يتعلق بصعود الجاه ونزوله وصعود الفراقد ونزولها وما يتعلق بذلك .

وعدد أبيات هذا الفصل ١٦٧ بيتا ويبدأه بقوله :

وأن ترى النيروز منه قد مضى عشرون يوما بل أقل وانقصا
يصح فى البحر القياس الأصلى الصادق المشهور فى ذا الشغل

وفى هذا الفصل يقول اذا انقضى نصف شـــهر كانون الأول حينئذ تعتدل « الفراقد » فى المشرق ولا يكون للجاه من باشى ، وعلى ذلك خذ قياسك على نجوم « الواقع » ثم « التير » .

ويفصل فى هذا الفصل أيضا مواسم النجوم المشـــهورة فى القياس على تقويم النيروز فيـــذكر « باشى الزبانا وباشى منزلة النعائم وباشى سعد بلع وباشى المقدم وباشى الشرطين وباشى الدبران

وباشي المرزم وباشى الذراع وباشى منزلة الطرف لتقدم المنزلة على نجمها » .

٥ ـ الفصل الخامس بعنوان :

فى معرفة ديرة العرب والحجاز والسيام وآخر بر الســـودان والكاتم مما صح عنه الأخبار والنقول والخليج البربرى والسومال والريم والزمر وجـزائر القمر . ويقع هـذا الفصل فى ١٣٢ بيتا وأوله :

وبعد هذا هـاك شرح الديرة     مختصرا بنظم ذى بصـــيرة

وفى هذه المرشدة الملاحية يعتمد ابن ماجد على قياس نجم القطب الجنوبى ( سهيل ) .

٦ ـ الفصل السادس بعنوان :

فى بحث الزنج فى معرفة ديرة العجم والهند والصوليان والناة والبنج والسيام الى تحت الريح كبلطيون والمهراج والصين والغور بما صحت به الأخبار . وهو فصل في ١٠٦ بيتا أوله :

وبعـــد ذا أشرح بر فارس     والهنـــد والســيام للممارس

وفيها يصف مسالك الملاحة الى هـذه الجهات بالاهتـــداء بنجوم معينة ويحدد قياساتها فى المواسم المختلفة أيضا .

٧ ـ الفصل السابع بعنوان :

فى معرفة دير الجزر ومطالعها والمهراج وشمطرة وألفـــال ( اللكاديف ) والقمر واليمن وسواحل الحبشة وسومال واطواح ومكران وما بينهم وما يتعلق بهم مما صحت عنه الأخبار فى علم البحر الزخار . وفيها أيضا وصف لمسالك ملاحية كالمتقـــدم ذكرها ويقع هذا الفصل فى ١٨٣ بيتا وأوله :

ومن ملاقة ان تكن مســـافرا     لنحو جـــاوا فافهم الأشايرا

( يعنى من جزيرة ملقا لجاوة )

٨ ـ الفصل الثامن بعنوان :

فى معرفة الحسابات من بر العرب الى بر الهند جاه خمسة الى جاه اثنى عشر وذكر مسافات على أربعة رؤوس وذكر أزوامه وما يتعلق بذلك والله أعلم بالصواب . وهو فصل فى ٦٨ بيتا أوله :

أما المسافة بين بر العـــرب    وبين بر الهند فهى عنـــدى
وعنـــد كل الخلق اربعينــا    بين زجد والحد يا فطينـــا

يعنى اربعين زاما بين رأس زجد فى الهند ورأس الحـــد جنوبى الجزيرة العربية « والزاما » كما قلنا سابقا نحو مسيرة ٣ ساعات فى البحر أى حوالى ١٢ ميلا بحريا باعتبار السرعة ٤ أميال فى الساعة ٠ وعلى ذلك تكون هذه المسافة بين الرأسين مساوية ل

٤٠ × ١٢ = ٤٨٠ ميلا بحريا

٩ ـ الفصل التاسع بعنوان :

فى معرفة القياس الجاه والفراقد والنعش عند اســـتقلال الصرفة وهو القياس الأصلى على جميع الرؤوس المشهورة لسواحل البحر المحيط الواغل للشمال وهو بحر الهند . ويحـــوى هذا الفصل ٦٧ بيتا وأوله :

أما قياس البحر يا مهـــذبا    قياسه الأصلى الذى قد جربا
فى مـــتقل الصرفة فوق الراس    واعتــــدلا فراقد القيـــاس

١٠ ـ الفصل العاشر بعنوان :

فى معرفة تغنى عن الاستوايات وقطع الأزوام وذكر ما يتعلق بالربان كتفصيل القلع ومعرفة جرى الماء فى الباحة والبحـــر المحيط الواغل بين بر السودان والهند والصين ومعرفتها .

**ويحتوى هذا الفصل على ٧٠ بيتا وأوله :**

والاســـتوايات فجـــربوها لكنمـــا النســـاخ غيروها

## ١١ ـ الفصل الحادى عشر بعنوان :

فى تقويم يعرف به الساعات ودخولها والسبعة السيارة وأزوام الجمة والقمر ومعرفة النجم الزوجى ودلايل طوفان بما وافق ذلك الحساب والله أعلم بالصواب .

ويحتوى هذا الفصل على ١١٤ بيتا وأوله :

ومن أحب معـــرفات الزام وقسمة الجمـــة بالتمـــام
فليقيد فى جمـــلة المنـــازل ما كان منها طالعـــا وآفـــل
والبدر بالليل معـــا والشمس لكل ساعة منزل وســـدس

وهو كما نرى يختص بالتوقيت وطرق حسابه سواء بمنازل القمر ليلا أو بالشمس نهارا وكذلك فى فصول السنة المختلفة حيث تتغير البروج .

وبعد أن عرضنا محتويات كتاب الفوايد وحاوية الاختصار وهما أطول ما كتب ابن ماجد نثرا ونظما سنورد هنا أراجيزه الأخرى التى الفها وهى في جملتها لا تخرج عن كونها مرشدات ملاحية لبيان طرق الملاحة بين الســـواحل والموانى والرءوس المختلفة . ومن بين هذه الأراجيز ما هو طويل ومنها ما هـــو قصير وسنذكرها بعناوينها للتيسير .

## ٣ ـ الأرجوزة المعربة
## التى عربت الخليج البربرى وصححت قياسه

وهى من حافونى الى باب المندم ( المندب ) مسيرة السير وصفاته والقياس عليه واشتقاق ديرة المطالقة لبر العرب وصفات مجارى زيلع والمناتخ لها .

وهذه الأرجوزة تحوى ١٧٨ بيتا ويرجع تاريخ تأليفها الى عام ٨٩٠ هـ ( ١٤٨٥ م ) وأولها :

يا سائلى عن صفة المجـــارى ثم قياس الأنجـــم الدرارى
وعن صـــفات البر والديرات ديرة المطلق افهم الصـــفات

## ٤ ـ أرجوزة قبلة الاسلام في جميـــع الدنيا

ولها مقدمة منثورة من ٣١ سطرا وفيها يصف طريقة مبسطة لمعرفة القبلة بالاستعانة ببيت الابرة ، فحط الابرة أمامك وصـــل على أى خن جاء فى النظـــم على أى بلد أنت بها واقبض ببعض الأدلة المشار اليها عند عدم الحقة (عدم وجود بيت الابرة أوخللها)، وتسمى هذه الأرجـــوزة أيضا بتحفة القضاة وتحتـــوى على ١٣٦ بيتا .

وأولها :

باسم الاله المستعان ابتـــدى مصـــليا على النبى احمـــــد

ويرجع تاريخ تأليفها الى عام ٨٩٣ هـ ( ١٤٨٨م )

## ٥ ـ ارجوزة بر العرب فى خليج فارس

وتحتوى هذه الأرجوزة على نحو ١٦٠ بيتا ولا يعرف تاريخ كتابتها وأولها :

يا طالعا من آخـــر الفـــرات والبصرة الفيحاء خذ وصاتى

## ٦ ـ ارجوزة فى قمسة الجمة على انجم بنات نعش بالتمام والكمـــال

وتحتوى على ٦٨ بيتا وأولها :

يا قاسم الأرزاق لم ينس أحد فرد غياث المستغيثين صـــمد

## ٧ ـ أرجوزة كنز المعالمة وذخيرتهم

## فى علم المجهولات فى البحر والنجوم والبروج واسمائها وأقطابها

وتقع هذه الأرجوزة فى ٧١ بيتا ويرجع تاريخ تأليفها الى قبل عام ٩٠٠ هـ وأولها :

يأيها الناس ماذا شئتموا قولوا　　الأرض معلومة والبحر مجهول
من أجل ذلك قالوا انه خطر　　وراكب البحر مفقود ومخبــول

## ٨ ـ أرجوزة فى النتخات لبر الهند وبر العرب

## من جاه اثنى عشر لجاه أصبع عن كل بر

وتحتوى على ٢٥٥ بيتا وأولها :

يا طالب النتخة بالحقــــايق　　من كل بر بقيـــــاس فائق
عليك بالنظـم الصحيح الرايق　　واعمل به عن صادق ابن صادق
أودعته أرجــوزة لى واضحة　　فانتخ بها وادع لنا بالفاتحــة

## ٩ ـ أرجوزة ميمية الأبدال تقاس على ستة أوجه

وعدد أبياتها ٦٤ بيتا وأولها :

سهاد حكت عينى عصارة عندم　　وكل نجوم الليل تسأل عن دمى

## ١٠ ـ أرجوزة مخمســـة

وتقع في صفحتين ونصف وأولها :

تأمل وشاور واسهر الليل واعــزم
وحقق ودقق واحفظ السر واكتـم
واصبر واجمــــل ما سمعت لتسلم
لتبقى رتبتنا فى الرجـــال مقـــدم
تأمل وشاور وأســهر الليل واعزم

وقد سبق أن أشرنا اليها فى أول الكتاب

## ١١ ــ أرجوزة فى عدة أشهر الرومية وكل شهركم هو

وتقع فى ١٣ بيتا وأولها :

خيار شهور الروم يا خير خــــلانى
نظمت الى القاصى من الناس والدانى
ثلاثين نيســـــانا حـــــزيران مثـــله
وايلول ايضــــا ثم تشرينك الثــانى

## ١٢ ــ الأرجوزة المسماة ضريبة الضرائب

وأبياتها ١٩٢ بيتا وأولها :

شباب برأسى اعجب الناس من أمرى
أتانى عقيب الشيب فى آخر العمر

وقد سبق أيضا أن نوهنا بهذه الأرجوزة فى أول الكتاب عند الكلام على سيرة ابن ماجد .

## ١٣ ــ الأرجوزة المنسوبة لأمير المؤمنين على بن ابى طالب كرم الله وجهه فى معرفة المنازل وحقيقتها فى السماء وأشكالها وعـــددها على التمام والكمال

وعدد أبياتها ٤٧ بيتا :

وأولها :

الشرطين فهو رأس الحمـــــل اذ بدا فى وقتـــه المعتـــدل
ثلاث نجمات كما خــط الألف لكنه عن القـــوام منحـرف

## ١٤ ــ القصيـــدة المكية

## وهى من مكة لجدة الى فرتك لكالكوت ودابول وكنكن وجوزرات والأطواح وهراميز

وعدد أبياتها ١٧٢ بيتا وأولها :

فؤادى أسير الحى من شـــعب عامر
أحوم عليها بالدجـــا والهواجـــر

## ١٥ ـ أرجوزة نادرة الأبدال في الواقع وذبان العيــوق

وتحتوى على ٦٨ بيتا وأولها :

تركت أشتغالى بالمها والجآذر وصرت مغرى بالنجوم الزواهر

وقد سبق أن لمحنا بهذه الأرجوزة ايضا فى أول هذا الكتاب

## ١٦ ـ القصيدة البائية المسماة الذهبية

## فى بحث المرق والمغزر والعمل عليه والمنكاب والأشاير كالطين والأرياح وصحة الترفاعلى الرأس فى أيام الغلق والنتخات بالكوس

وعدد أبياتها ١٩٣ بيتا وأولها :

بدأت باسم الله ربى وخالقى ومستخلفى في جيرتى وأقاربى

وقد كتبها حوالى عام ١٤٧٨ م فى حكم سلطان المماليك البرجية أشرف قايتباى ( ١٤٦٨ ـ ١٤٩٧ م ) .

## ١٧ ـ الأرجوزة المسماة بالفايقة

## فى قياس الضفدع ويسمى فم الحوت اليمانى ويسمى بساكب الماء ويسمى الظليم الفرد ويسمى النهر وقيده سهيل .

وعدد أبياتها ٥٧ بيتا وأولها :

أقول والفلك تجرى بالشراعين فى ليلة تر فيها الكرا عينى

## ١٨ ـ البليغة فى قياس السهيل والرامح

وعدد أبياتها ٦٣ بيتا وأولها :

سهرت وغيرى خالى البـــال هاجع ،

غرام ومثلى كيف يهنـــا المضاجع

١٩ ـ فصل فى معرفة قياس الملازة
وهو فصل قصير فى نحو صفحة أو أقل ويليه فصول مماثلة فى القصر هى :

٢٠ ـ فصل فى معرفة النتخة الجاه عشرة فى أرض جوزرات .

٢١ ـ فصل فى معرفة البلدة فى أرض جوزرات .

٢٢ ـ فصل فى معرفة البلدة على جاه عشرة .

٢٣ ـ فصل فى معرفة المنتخ .

٢٤ ـ فصل في معرفة البلدة اذا كان من داخـــل الباب ( باب المندب ) .

٢٥ ـ فصل فى معـــرفة جوزرات على جاه عشرة وديع من المـــارزة .

٢٦ ـ فصل فى معرفة ديرة القطب من روس بر العرب . أما الأراجيز التى نشرها شوموفسكى فى لننجراد عام ١٩٥٧ فهى :

٢٧ ـ الأرجوزة السفالية :

فى معرفة المجارى والقياسات من مليبار وكنكن وجوزرات والسندوالأطواح الى السيف الطويل ومنه الى نواحى السواحل والزنج وأرض السفال والقمر وجزره ونوادر علوم جميع ما فى تلك النواحى الى آخـــر الأرض من الجنوب وذكر قياسات يعرف بهم المعلم النقصان والزيادة فى جميع الأخنان ووصف نوادر فى تلك الطرق من القياسات والدير والمجارى وسكان الأرض وملوكها ومواسمها وسفرها على ما يليق بذلك المكان وسفره .

وهى قصيدة طويلة فى أكثر من سبعماية بيت أولها :

الحمد لله الذى أنشأ المــلا     من عدم جل تعــالى وعــلا

وهى كما نرى حاوية جامعة تطــرق فيها لوصــف الكون ( الكوزموجرافيا ) والسواحل والبلدان ومعادنها وثرواتها وعادات أهلها الخ وفيها يصف نيل مصر وذهب النوبة والأهرامات ٠

ويقول المؤلف ان هذه القصيدة « السفالية » (نسبة الى سفالة) خير معوان على الســفر فى البحار الجنوبية ٠ ولربما كانت هى القصيدة الوحيدة التى يرد فيها ذكر « الافرنج » ( وهم البرتغال ) فى أعمال ابن ماجد وذلك فى مثل قوله عن جزيرة مدغشقر :

**وخشــب الافرنج قد جاءوها     وملكوها بعــد أن غازوها**

أو قوله عن السير فى البحار الجنوبية :

لا غيرها فى هــذه الطريق     أعــم منهــا علم بالتحقيق
**وسوف تزداد بهــذى الطرق     من الفرنج معرفة وحــذق**

وأغلب الظن أنه كتبها في السنين الأولى من القرن السادس عشر الميــلادى ٠

وفيها يتكلم أيضا عن عــودة الأفرنج فى عام ٩٠٦ هجــرية ( ١٥٠١ م ) الى كاليكوت مرة أخرى كما ألمحنا من قبل ٠

٢٨ ـ **الأرجوزة المسماة بالمعلقية** من بر الهند الى بر سـيلان وناك بارى وشمطرة وبر السيام ومعلقة وجاوه وما كان فى طريقهم من الجزر والشعبان ونتخاتهن وصفتهن والبلد فيهن وقفاصى وغيرها وجميع ما يتعلق به المشارق والجنوب والفور والصين الى حدود الحرات وغيرها الشارفة على البحر المحيط الذى لا خلفه سوى جبل قاف ٠

وأولها :

عزمت والعزم حميد فى السفر　　لا سـيما من بلدة فيها ضرر
طالب تحت الريح بالاذعـان　　فى مركب يطـير كالعقبـان
من أرض كاليكوت بالعنـاية　　بأول الستين قبل المـاية

٢٩ ـ **الأرجوزة التائية** وهى من جدة الى عدن فى وصف المجارى والقياس فى البحر الكبير وأولها :

سرت نسمة الفردوس من أرض مكة
بريح الصبا فاشتاقت السير حلبتى

**٣٠ ـ الأرجوزة (( الهادية )) فى علم البحر .**

وعدد أبياتها ١٥٥ بيتا ومطلعها :

الحمد لله الحسيب الهـادى　　فى بره والبحـر للرشـاد

**٣١ ـ قصيدته فى علم البحر .**

أبياتها ٣٣ بيتا ومطلعها :

خليلى هيـا واسـمعا در منطقى
فلا عاش من يخفى العـلوم ولا بقى

**٣٢ ـ الأرجـوزة (( السبعية )) فى ذكر سبعة علوم من علوم البحـار .**

وأبياتها ٣٠٥ بيتا ومطلعها :

تبـارك الرب الذى هـدانا　　فى بحره المسجور اذ أنجـانا

والقصائد الثلاث الأخيرة محفوظة بمكتبة باريس فى المخطوطة رقم ٢٥٥٩ مع مؤلفات سليمان المهرى التى تقدم ذكرها . هـذا

ولابن ماجد فوق ذلك قصائد أخرى وأراجيز لم تصلنا الى اليوم ، وهو يشير الى أبيات منها فى كتاب الفوائد . أما الرسالة التى يقال انها موجودة في الموصل تحت اسم « الميل » وتلك المحفوظة فى ڤينا بعنوان « فكرة الهموم والغموم .. الخ » فلا نعلم على وجه اليقين عما اذا كانتا لابن ماجد أو لغيره وأغلب أنهما نسبتا خطأ اليه .

# الباب الثانى

## فنون البحر والملاحة

### عند ابن ماجد

الفصل الأول — السفينة .

الفصل الثانى — الربـــان .

الفصل الثالث — المجرى .

الفصل الرابع — الملاحة الفلكية عند ابن ماجد :

(أ) مجموعات الكواكب والنجوم .

(ب) آلات الرصد والقياس عند العرب .

(ج) تقسـيم وردة الارياح العربية وبيت الابرة .

(د) وحدات القياس عند ابن ماجد .

الفصل الخامس — مصطلحات علمية :

(أ) مصطلحات ملاحية .

(ب) مواقع بعض الأماكن الجغرافية .

(ج) اسماء النجوم الملاحية ومرادفاتها .

# الفصل الأول

## السفينة

لم يجد ابن ماجد مناصا من أن يسير على سنة الأولين فيبدأ بذكر تاريخ الربابنة أو المعالمة المشهورين الذين سبقوه وسمع بهم أو أطلع على مؤلفاتهم ولا يرجع بنا هذا التاريخ بعيدا سوى الى فجر الاسلام (١) ( القرن الأول للهجرة ) أو السابع الميلادى ، فيعدد

---

(١) الواقع ان العرب قبل الاسلام لم يكونوا ميالين لركوب البحر فكانت خبرتهم بفنونه محدودة الى أن جاء الاسلام وحفز القرآن الكريم فى محكم اياته المسلمين على ركوب البحر كما فى الآية « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ، هـذا وقد حذر سيدنا عمر فى أول الأمر العرب من مقـابلة العدو بحرا لعلمه بأن الأمم الأخرى كالفرس والروم كانوا أقـدر من المسلمين على ركوبه والقتال فيه . وأول من غزا من المسلمين بحرا هو معاوية ابن أبى سفيان حين غزا قبرص عام ٢٨ ــ ٢٩ هجرية وكتب له النصر فى هذه الغزوة وصالحه أهلها على الجزية . ثم هزم المسلمون بعد ذلك أسطول قسطنطين بن هرقل فى موقعة ذات السوارى المشهورة بمياه الاسكندرية عام ٣٤ هـ . ومنذ ذلك الوقت قويت شوكة المسلمين فى البحر وتعلموا صناعة السفن وفنون الحرب البحرية وأتقنوها وبنوا دورا للسفن فى عكا وصور وطرابس والاسكندرية والقيروان والأندلس وعلى شاطىء المحيط الأطلسى أيضا . ويلخص ابن خلدون تطور الملاحة العربية فى قوله « ان العرب لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافة البحر وركوبه . والروم والافرنجة ــ لممارستهم أحواله ومرباهم فى التغلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النوتية فى حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر =

اسماء الربابنة الذين سمع عنهم وتواترت اليه اخبارهم واشهرهم ثلاثة ظهروا فى العصر العباسي وهم الرجال المشهورون : محمد ابن شاذان وسهل بن ايان وليث بن كهلان وقد اطلع هو نفسه على رهمانى أو مرشد ملاحى بخط حفيد هذا الأخير يرجع تاريخه لسنة ٥٨٠ هجرية كما ذكرنا من قبل .

ويستشف من كلام ابن ماجد من مواضع أخرى من كتاب الفوائد ان خبرة هؤلاء الربابنة بالبحر كانت محدودة كما ان سفنهم لم تكن بمتانة السفن التى كانت على عهده .

ولئن كان هذا هو التاريخ الحقيقي الثابت عند ابن ماجد فهو يعود مرة أخرى الى السير على نهج المؤلفين الذين سبقوه أيضا ـ وبخاصة من مؤلفى « كتب العجائب وغرائب الدنيا » فيذكر رواية تكرر ذكرها فى تلك الكتب عن أول من ركب البحر وصنع الفلك فيحكى قصة سيدنا نوح ويقول « ان أول من صنع السفينة نوح عليه السلام باشارة جبريل عليه السلام » ثم يصف بعد ذلك سفينة نوح وكيفية صنعها بل وأبعادها أيضا وهى معلومات قدوردت فى الكتب المتقدم ذكرها وليس لها سند موثوق به يمكن الرجوع اليه . وابن ماجد ينسج على منوال هؤلاء الكتاب فيقول « ان سفينة نوح قد رتبت على صفة الأنجم الخمسة من بنات نعش الكبرى . . واختلف الرواة فى طولها وعرضها وقيل أنها كانت أبعمائة ذراع طول وماية ذراع عرض وماية ذراع عمق محتوية بغير دقل ولها مقذافين (كذا) » ثم يصف بعد ذلك الطوفان ويحدد جبل الجودى بقوله « وهو جبل بين العراق والشام فى ديار بكر . . . فلما استوت

---

= ولقتالة استحدثوا بصراء به فشرهوا الي الجهاد فيه وانشأوا السفن فيه والشواني ( السفن العظيمة ) وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من امم الكفر . واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب بهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والأندلس » .

**السفينة وتعلمت الناس صنعة السفن على جميع سواحل البحر في الأقاليم التي قسمها نوح بين أولاده .. فصار كل يعمل السفن في البحريات والخلجان واطراف البحر المحيط حتى انتهت الدنيا لعصر بني العباس »** .

وبصرف النظر عما ورد في تفاصيل القصة وصنع السفينة من خيال لا يتفق والواقع العلمي وليس هنا مجال التعليق عليه الا اننا قد نخرج برأي هام من كلام ابن ماجد وهو قوله **ان الناس تعلموا صناعة السفن على سواحل البحر وان اول ما سير الانسان السفينة كان في الخلجان والأماكن المحمية وذلك قبل ان يخرج الى عرض البحر** . ولقد اهتدى الرجل الى هذا الرأي بسليقته وفطرته وهو رأي يوافق المنطق والعقـــل يؤيده كل من بحث في تاريخ الملاحة وصناعة السفن .

فالقول بأن سكان الســـواحل هم أول من صنع السفن قول سليم للغاية لأن مثل هؤلاء الناس طالما شاهدوا الأسماك وتصميم جسمها وكيف تسبح في البحر بالزعانف التي تشبه المجاديف وتنطلق في الماء بجسمها ذي الخطوط الانسيابية التي تجعل مقاومة المـاء له اقل ما يكون . كما شاهد سكان السواحل أيضا حيـوانات البحر الأخرى التي تطفو فوق الماء بزوائد تشبه الشراع تدفعه الريح ، وان من الأسماك ما له مثل هذه الصفة أيضا كسمكة الشراع المعروفة في المحيط الهندي بخاصة . وسكان السواحل منذ الزمن القديم أيضا تعلموا بالخبرة والمراس دورة الرياح على مدار السنة وشاهدوا المد والجـــزر وعرفوا كيف يتأثر بدورة القمر في منازله المختلفة مما يؤهلهم ليكونوا ملاحين بالفطرة على أية حال .

ومن مشاهدة سكان القرى الساحلية لجذوع الأشجار وفروعها تطفو فوق الماء ، تمكن هؤلاء الناس من صنع قوارب بدائية من قطعة واحدة تمثل جذعا لشجرة مجوفة . واستخدموا الواحا من

الخشب كمجاديف ثم رأوا بالخبرة أيضا ان مثل هذا القارب البدائى قد لا يستقر فى البحر مع الأمواج فوازنوه بقطعتين مستعرضتين من الخشب تبرزان كثيرا عن القارب ، وكلا النوعين من هـذه القوارب لا يزال مستعملا عند سكان الجزر المترامية فى المحيط الهندى التى لا يملك مستوطنوها أدوات للنجارة أو آلات حديدية . وقد شاهدت بنفسى هذه القوارب فى جزر الكومور التى تقع على خط عرض ١٢° جنوبا خط الاستواء فى وسط المحيط الهندى وعلى سواحل كينيا وتنجانيقا أيضا .

ورويدا رويدا تعلم الانسان بالخبرة والمران كيف يبنى مركبا بسيطا من جذع شجرة تمثل قاع المركب ثم يربط حولها الواحا أو فروعا مناسبة من الشجر تمثل جانبى المركب ويوثق هذه مع بعضها بحبال متينة يجدلها من ألياف النباتات المتسلقة أيضا ثم يسد الفروج التى بين الألواح أو يكسوها بجلود الحيـوان حتى لا ينفذ الماء من خلالها (١) .

ولا ريب فى أن الشراع جاء فى مرحلة متأخرة من صنع القوارب وذلك بعد أن تعلم الانسان كيف يصنع مركبا من الأخشاب يتوازن فى الماء .

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة تقدمت خلالها صناعة السفن الشراعية الخشبية تقدما كبيرا على أيدى صناع الحضارات الانسانية الأولى من أهل مصر والصين وفارس وبلاد النهرين ثم سكان مملكة سبأ فى اليمن فى عهودها الأولى الزاهرة .

ولئن كان المصريون القدماء والفينيقيون والفرس القدامى وأهل الصين قد سبقوا العرب فى صنع المراكب الشراعية الكبيرة ربما لتوفر

---

(١) انظر فصل « السفن والملاحـة » فى كتابنا بعنوان « ثروات جديدة من البحار » ( تحت النشر بدار الكاتب العربى للطباعة والنشر ) .

الأخشاب الضرورية فى هذه الدول ، الا أن العرب سرعان ما اتقنوا هذه الصناعة وبخاصة بعد الفتوحات الاسلامية الكبرى فى فجر الاسلام وجلبوا لصناعة السفن الأخشاب الملائمة من غابات آسيا ومن الهند ومن جزر أندونيسيا والملايو ومن ساحل أفريقيا الشرقى أيضا وصنعوا لهم طرازا خاصا من المراكب الكبيرة لها أشرعة مثلثة الشكل ، وقد ورد ذكرها فى مؤلفات ابن ماجد وفى رحلة التاجر سليمان ( ٨٥١ م ) . وفيها وصف مسهب للطريق الملاحى بين سيراف وخانفو على ساحل الصين . وكان هذا الطريق يمر بخليج البنغال وساحل الملبار وجزر نيكوبار وساحل سيلان وساحل الملايو الغربى ثم بسايجون ومنها الى الصين . ولا تزال تلك المراكب العربية حتى اليوم تذرع المحيط الهندى بين عدن والهند وتنتقل فى البحر الأحمر من اقصاه الى أدناه وتعرف الآن باسم « الضو » Dhaw . وعرف العرب عن الفرس منذ القرن الأول الهجرى أيضا كيف يعنون بمراكبهم ويخرجونها الى البر من آن لآخر لصيانتها وازالة الأعشاب العالقة بقاعها « وسد ما تفتق من خرزها » وهى العملية التى تعرف اليوم باسم « القلفطة » . وكانوا يستخدمون الزيت فى طلاء المراكب . وفى مقال أبى زيد السيرافى فى رحلة « التاجر سليمان » التى تقدم ذكرها ما يؤيد هذا المعنى . يقول السيرافى ( ٩١٦ م ) فى معرض الكلام على الحوت وفوائده :

« وذكروا أن بقرية سيراف بيوتا لطافا سقوفها من ضلوع هذا الحوت . . وسمعت من يقول انه وقع فى قديم الأيام الى قرب سيراف منه واحدة . . فوجد قوما يصعدون الى ظهرها بسلم لطيف . . والصيادون اذا ظفروا بها طرحوها فى الشمس وقطعوا لحمها وحفروا لها حفرا يتجمع فيها الودك ( الزيت ) ويغرف من عينها ( الزيت أيضا ) بالحرارة اذا اذابته الشمس . . **فيجمع ويباع على ارباب المراكب ويخلط باخلاط لهم تمسح بها مراكب البحر ويسد بها خرزها وما تفتق منها . . .** » .

وكلام السيرافى هذا وثيقة جميلة تدل على مدى عناية العرب فى القرون الوسطى بمراكبهم البحرية وصيانتها ودهانها من وقت لآخـــر .

بيد أننا يجب أن ننوه بأن سفن البحر الأبيض المتوسط حتى ذلك الوقت كانت أكبر وأمتن من سفن المحيط الهندى ، ولم تكن الدفة المزدوجة معروفة فى المحيط الهندى ويؤيد ذلك قول ابن جبير فى رحلته المشهورة بأن السفائن ذات الدفتين لم تكن موجودة فى غير البحر الرومى . كما يقول ماركو بولو فى مذكراته بأن سفن هرموز ( على بحر فارس ) لم تكن تدخل المسامير فى صنعها ولا تطلى بالقار وانما بزيت يتخذ من دهن الحوت مما يؤيد كلام السيرافى المتقدم ذكره . هذا بالاضافة الى أن غالبية سفن المحيط الهندى كانت ذات شراع واحد .

على ان ابن ماجد نفسه ، امعانا منه فى الحرص على المركب ، يؤكد ضرورة معاينة المركب بعد صنعها وقبل أن تنزل الى البحر لضمان السلامة للركاب والأمتعة والشحنة فيقول « تأمل فى السفينة وهى فوق الأرض واكتب جميع خللها » .

وينوه كذلك بضرورة معاينة المكان الذى توضع فيه البوصلة خشية أن يكون صانع السفينة قد أخل بالقاعدة التى تحكم اتزان هذه البوصلة فيقول « جلس الحقة فى مكانها وتفقد كل التفقد أولا فى نصب الحقة لأن من المراكب ما يكون فى نجارته خلل فيعدى عن مجراه فاستدرك الأمر بأوله ... » .

وابن ماجد يطلق على السفينة أحيانا اسم **الخشب** كما رأينا فى أرجوزته السفالية حيث يقول :

وخشب الافرنج قد جـــاءوها ومـلكوها بعـــد أن غــــازوها

واحيانا يحدد نوع الخشب الذى تصنع منه السفينة وقد كانت تصنع أحيانا من خشب الساج على عهده وهو أرقى أنواع الخشب كما نرى فى أجوزة نادرة الابدال فى قوله :

على ظهر معتد من الساج هللت عليه المسا والصبح سبع العشائر

وابن ماجد يؤكد أيضا ضرورة العناية بالأجهزة وأدوات الملاحة قبل قيام المركب وتفقدها وضبطها ، ومن أهم هذه الأدوات : المرشد الملاحى ( أو الراهمانج ) والحقة ( بيت الابرة ) والفانوس وآلة سبر الأعماق أو ( البلد ) وأدوات القياس التى يرصد بها ارتفاع النجوم ، وقد وقفنا على بيتين فى حاوية الاختصار يوضحان ذلك كما يلى :

وجـــدد الآلة قبل الســـفر كحقة أو قياس أو حجـــــر

والبلد والفانوس والرهمـــانج وان تكن ســـافرت كمن حجج

وأما عن بيت الابرة فيقول (( **المغناطيس الذى عليه المعتمد ولا تتم هذه الصنعة الا به وهو دليل على القطبين** )) .

وهو من فرط عنايته بالرحلة يشبه الخروج بالمركب كمن يخرج للحج .

وابن ماجد يعدد من أدوات السفينة فوق ذلك (( **السكان** )) وهو الدفة « **والأنجر** » (١) وهو ما نعرفه الآن بالمخطاف أو « الهلب » الذى يوثق المركب بالقاع ، ويردد ابن ماجـــد كثيرا اصطلاح « واطرح الانجر » بمعنى « ارم المخطاف » والكلمة « أنجر » هى نفس الكلمة التى تستخدم فى اللغات الأوربية وقد كان « الأنجر » يربط بالحبال ، وعندما تشتد الريح ويعلو البحر يوصى ابن ماجد باستخدام السلاسل مما يدل على أن الربابنة على عهده كانوا يستخدمون سلاسل الحديد لتثبيت المخطاف ، وهو يتكلم أيضا عن « دبوسة المركب » أى مقدمتها فى قوله « وأنا أراها وأنا قايم على دبوسة المركب » .

---

(١) هذه الكلمة رومية فى الأصل .

وابن ماجد قلما يذكر من طاقم السفينة (١) ، ســوى **الربان** وصاحب **(( السكان ))** وهو يهتم اهتماما شديدا بالأخير لأن عليه يتوقف الطريق الملاحى الذى تسلكه المركب . فيوصى الربان بأن يضع عينه دائما على صاحب السكان فيقول « تأمل جميع الآلات خصوصا فى السكان فى كل حين وساعة » . « **وتفقد فى جميع الركاب والعسكر** وتأمل نهوضهم لتكون عارفا بهم عند الشدة » .

كما يقول فى موضع آخر :

**(( وما صنفت هذا الكتاب الا بعد ان وقعت لى خمسين سنة وما تركت فيها صاحب السكان الا ان اكون على راسه او من يقوم مقامى ))** .

ثم هو ينصح الربابنة أن يعنوا بصيانة السفينة فى كل وقت ، ولا يهملون خللا اصابها ولو بسيطا لئلا يتفاقم بل يسارعون الى معالجته فيقول :

**(( ولا ترى خللا فى السفينة وتهملها الى وقت آخر الا عنــد ضرورة أشد مما أنت فيه** ( أى الا بسبب أقوى ) **وجــود الموسم واختصر الشحنة** ( أى لا توثق المركب بأكثر من حمولتها ) **واحسب حساب الحازمين العارفين ))** .

ولابن ماجد آراء مبتكرة فى كيفية تفصيل قلع المركب وبيان ابعاده وطريقة صنعه وشده على الصارى وهو يذكر كل ذلك فى أبيات مفصلة فى الفصل العاشر من حاوية الاختصار ، وفى هــذه الأبيات كلمات كثيرة غريبة لا شك فى أن بعضها مقتبس من لغات اخرى ويحتاج الى تحقيق وبحث يخرج بنا عن الهدف المقصود من هذا الكتاب . ومن تلك المصطلحات نقتبس الكلمات الآتية :

الكنجة ـ الجوس ـ الدامان ـ داسج ـ المح ـ الرك ـ الفرمن ـ السيك ـ الجامور .

---

(١) انظر قائمة المصطلحات فى النهاية .

# الفصل الثاني

# الربان

أما الربان فهو صاحب المركب فى البحر وسيده والمسئول مسئولية تامة عن سلامة السفينة والركاب والبضائع . واذا كان الأمر كذلك ، فابن ماجد يولى عناية تامة لاختيار الربان ويتطلب فيمن يرشح نفسه لهذا المنصب أن يكون لديه استعداد خاص وأن يصل الى مستوى معين يؤهله لذلك . ونحن نلخص من كلام ابن ماجد الذى ردده فى مواضع مختلفة من مؤلفاته ما يجب أن يكون عليه الربان فى ثلاثة أمور :

١ – أن تتوفر للربان صفات انسانية معينة ومستوى أخلاقى معين .

٢ – أن يحصل قدرا معلوما من الفنون الملاحية وعلم الفلك يؤهله لتعرف طريقه فى البحر بالنهار أو بالليل بالقرب من الساحل وفى أعالى البحر .

٣ – أن يواصل الدراسة والتحصيل والتدريب على فنون البحر على الدوام .

وتعاليم ابن ماجد فى هذا الصدد تصلح لأن تكون دستورا للبحر فى كل الأوقات والعصور وليست قاصرة بحال من الأحوال على العصر الذى عاش فيه . بل انها فى الواقع تقاليد المهنة المثالية يتوارثها الأبناء عن الآباء . ثم انه نفسه كان ربانا ينتمى لأسرة ربابنة نشأ وترعرع فى البحر وسلخ فيه أكثر من خمسين سنة من عمره وفهم أسرار هذه الصنعة العظيمة ، وأراد أن ينفع بها غيره .

اما فيما يتعلق بالصفات الانسانية والأخلاقية التى يجب أن يتحلى بها الربان **فتتضح كلها أولا من القديسية التى يضفيها ابن ماجد على عمل الربان ، فهو يمثل الخروج الى البحر كأداء الفريضة سواء بسواء** اى كمن يخرج فى رحلة للحج ابتغاء وجه الله فهو يبدأ هـذه الرحلة فى العادة بالاعداد لها والاخلاص والتفانى فى العمـل ونبل المقصد والترفع عن الصغائر وحسن اختيار الصحبة ، ويبدأها أيضا بالطهـارة والنظافة ، طهارة البدن والروح . أنظر اليه يقـول : **(( وينبغى أنك اذا ركبت البحر تلزم الطهارة فانك فى السفينة ضيف من أضياف البارى عز وجل فلا تغفل عن ذكره ..واتركما لا يعنيك، وانه جميع الركاب عن كثرة المزاج فى البحر فما ينتج منه الا الشر والبغض والعداوات .. ولا تركب سـفينة الدلالة والهـداية وأنت فيها غير مطاع ولا تأخذ دركها على نفسك.. فلا تكون الا مطاعا ، واستشر وهذب الرأى ، فان ركوب الانسان عند من لا يسير مسيره صعبا فى بحر أو بر )) .**

ويلخص ابن ماجد الصفات التى يجب أن يتحلى بها الربان فى الفقرات التالية :

**(( وينبغى للمعلم أن يعرف الصبر من التوانى ويفرق بين العجلة والحركة ( ويكون ) عارفا بالأشياء عزاما فتاكا ، لينا فى قوله عادلا لا يظلم أحدا لأحـد مقيما على الطاعة لربه متقيا لله تعـالى لا يغضب التجار على حقوق الا على شىء وقع عليه القول أو جرت به العادة كثير الاحتمال ، عالى الهمة ، صبورا مقبولا بين الناس ، لا يسعى فيمـا لا يصلح له ، أديبـا لبيبا والا فليس هو معلم بالقاعدة )) .**

وأى صفات خير من هذه يجب أن يتحلى بها رجل يأمنه الناس على أرواحهم وأموالهم . ثم هو ينصح الربابنة دائما باليقظة وقلة النوم وأن ينيبوا عنهم مساعدا لهم فى مكان القيادة عند الحاجة ، فعمل الربان عمل هام لا يحتمل الخطأ وهو يقول **ان الخطأ فى العلوم**

**الأخرى قد يكون مغتفرا** أما خطأ الربان فلا يغتفر واليك نص مقالته :

« ولا تكون ذو غفلة ، **فان الخطــا فيه فعل داع لتلف الأرواح والأموال** وهو أصعب شيء بعد خدمة الملوك . وساير العلوم خطؤها لفظى يمهلك المراجعة ، وهذا لم يمهلك والعلم فحل لم يعطك بعضه حتى تعطيه كلك » .

فاذا ما توافرت فى الربان هذه الصفات وجب أن يتقن مهنته . « ومواد الامتحان » الذى يجب أن يجتازه الربان ليكون مؤهلا للمهنة يلخصها ابن ماجد فى الفقرات الآتية :

**فاولها معرفة المنازل والأخنان** ( منازل القمر ومواقع النجوم ووردة الرياح ) **والدير والمسافات والباشيات والقياس والاشـارات وحلول الشمس والقمر** ( علوم رياضية وفلكية ) **والأرياح ومواسمها ومواسم البحر** ( علوم الأرصاد الجوية والبحرية ) **وآلات السفينة وما تحتاج اليه وما يضرها وما ينفعها وما يضــطر اليه فى ركوبها** ( قواعد الملاحة ) **وينبغى تعرف المطالع والاستوايات وجلسة القياس وترقبه ومطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها وبعدها ومحورها** ( الفلك والرصد ) **ان كان معلما ماهرا** » .

ويضيف الى ذلك قوله :

« **وينبغى أن تعرف جميع البرور وندخاتها واشاراتها كالطين والحشيش والحيات والحيتان والموازر والأرياح وتغير الأمواه ومد البحر وجــزره فى كل طريقة** ( وهى علــوم الاقيانوغرافيا بمعناها الواسع ) .. **ويكمل جميع الآلة ويتفقد فى أحضان السفينة وآلاتها ورجالها ولا يشحنها غير العادة ولا يطلع فى مركب الا يطاع فيه .. ولا مركبا بغير اعتداد** ( ليست معدة اعدادا تاما ) **ولا فى موسم ضيق ويحترز عن الأخطار فى مثل عدة ورجال وغيره** » . وقد جمعت هذه الفقرات فى الواقع جميع المؤهلات العلمية التى يجب أن يتقنها الربان حتى تتوفر له الثقة التامة فى نفسه ويأمن الناس ركوب سفينته .

وهو فوق هذا يؤكد ضرورة التجريب وتكرار القياس والرصد

فى مواضع كثيرة سبق أن أشرنا الى بعضها . فالمعلم أو الربان فى نظره **كلمته موثوق بها وعلمه يجب أن يفوق علم جميع من سواه على المركب** ليحظى بالاحترام اللائق بمكانته .

ونخرج من كل ذلك بأن العلوم التى يجب على الربان أن يلم بها ليكون ربانا ماهرا يمكن تلخيصها فيما يأتى :

١ – علوم رياضية وفلكية .

٢ – قواعد الملاحة الأساسية .

٣ – معرفة حالة البحر والأنواء والرياح ( أرصـــاد جوية وبحرية ) .

٤ – المام بآلات الرصد والقياس وطرق استعمالها وصيانتها ( كالبوصلة والمربع والأسطرلاب وغيره ) .

٥ – قسط من علوم الأقيانوغرافيا الطبيعية والبيولوجية يعينه على فهم خواص المياه والأحياء البحرية والطيور التى يستدل بها على قرب السواحل وطبيعة القاع وجس الأغوار .

وهو يحذر الربابنة من علل البحر فيقول « **وأعلم أن للبحر عللا فاحذر منها أولها نوم المعلم وحط الجاه فى الليل فى مكان وفى النهار فى مكان غيره** ( أى الخطأ فى رصد النجم القطبى ) **وذلك مما يطول الطريق .. خصوصا عند الموجة والتقاصير والمركب الناقع المزمن فى الماء فيحسب المعلم أن المركب شاد على صدره وهو يجرى على العمرانيات .. »** .

وهو ينهى أيضا عن الوضع غير السليم عند أخذ الأرصـــاد فيقول :

« وانه مما يفســـد صحة القياس .. وتغميض احدى عينيه والبعض يفتح الجميع والأصح يفتح اليمين ويغمض اليسرى والقياس باليد اليسرى من فساد القياس .. » .

وابن ماجد يقسم « المعالمة » الى ثلاثة أقسام ونجملهم فيما يلي:

١ ــ ربان قليل الخبرة « يروح ويجيء مرة سالما ومرة غير سـالم » .

٢ ــ ربان « حاذق ماهر فى كل مكان يسافر اليه قد جربه » .

٣ ــ ربان « خبير لا يخفى عليه شيء من مشكلات البحر » يدون خبرته فى مصنفات فينتفع به الناس فى حياته وبعد مماته .

وعلى ذلك فابن ماجد يحث الربابنة دائما على الاطلاع وزيادة التحصيل وسهر الليالى وسؤال العارفين فى المسائل الغامضـة ، ولا يتأتى ذلك الا بدراسة أصول العلم وأساسياته ويضرب لنا مثلا بنفسه فقد تعلم الحساب وهو صغير ، حساب العرب والهنـد والفرس حتى يتمكن من مقارنة قياساتهم ويمحصها . أنظر الى قوله :

« فاذا قدر الانسان يفعل شيئا غير معرفة البحر وحسـابه فليفعل .. واذا عجز فليعمل بعلمنا فاجتهدوا فيه **فانه علم نفيس ولا يتم الا بتمام العمـر وما لا يدرك كله لا يترك كله وينبغى أن لا يتكبر فيه الانسان ..**
**وينبغى البعـد عن الخيـلاء عند كمـال العلم والنهـاء**
**وينبغى لعارف هـذا العلم أن يسهر الليل ويجتهد فيه غاية الاجتهاد ويسال عن أهله وعن حزبه حتى يحصل مراده لأنه علم عقل وكثرة السؤال فيه ترقية لباقيه . ومن أدعى الرياسـة بغير كمال أسبابها وأدواتها فقد أخطأ ..** » .

أو قوله :

« واعلم أيها الطالب أن كل علم يحتمل أن يشتغل به طالبه من المهد الى اللحد كلما تفنن فيه وأدمن علينه ظهر له منه شيء لم يكن عند غيره حتى يكون مصنفا ... » .

هذا وينصح ابن ماجد الربابنة بأن يدرسوا الكتب التى أوردها فى قائمة طويلة وسبق أن أشرنا اليها من قبل ويسميها **الكتب الكبار** وهى التى تقابل ما نعرفه اليوم باسم **كتب المراجع ومنها كتب الأزياج المشهورة وكتب تقويم البلدان وكتب فلكية تتعلق بقياس النجوم ورصدها والشمس والكواكب والبروج والتقويم وعلوم الميقات أو حساب الزمن** .

وهكذا نرى **ابن ماجد فى القرن الخامس عشر الميلادى قد وضع لنا دستورا البحر يصلح لكل زمان ومكان** .

# الفصل الثالث
# المجرى

والمجرى عند ابن ماجد هو المسار الذى يجب على الربان أن يسلكه فى البحر من وقت قيامه من ثغر أو موقع حتى دخوله الموقع التالى فى أقل وقت ممكن ، وهو الطريق الملاحى فى عرف الملاحين . ويعين الربان على السير فى المجرى المضبوط **المرشدات الملاحية** التى تكلمنا عنها من قبل وكانت تسمى على وقت ابن ماجد باسم « الراهمنجات » مفردها « راهمانى » أو راهمانج وهو يحث الربابنة قبل القيام بالرحلة على التأكد من سلامة الأجهزة كالبوصلة وآلات القياس وألا ينسى الربان المرشد الملاحى أو الراهمانج .

ويعتمد الطريق الملاحى الذى يسلكه الربان سواء بالليل أو بالنهار على المعلومات الآتية :

١ ــ تحديد خط العرض برصد ارتفاع الشمس نهارا أو بالنجوم والكواكب ليلا .

٢ ــ تحديد الاتجاه بالبوصلة البحرية أو بمعرفة مطالع ومغارب نجوم ملاحية معينة ، وذلك بالنسبة للنجم القطبى الشمالى وهو المعروف عند العرب باسم **« الجاه »** اذا كانت الملاحة فى نصف الكرة الشمالى أو بالنسبة للقطب الجنوبى ويحدده النجم « **سهيل** » فى نصف الكرة الجنوبى .

٣ ــ معرفة مواسم الرياح واتجاه هبوبها وشدتها ليضبط الربان طريقه ويصحح الانحراف فى خط السير .

٤ ـ الاستدلال بمعالم أرضية كقمم الجبال والمنارات والرؤوس البارزة فى البحر والجزر عند دخـــول الثغور أو اثنـــاء الملاحة الساحلية . كما أن بعض هذه المعالم أيضا تصحح للملاح موقعه فى أعالى البحار .

٥ ـ معرفة المد والجزر وخواص المياه وطبيعة القاع وعمقه والنباتات البحرية والحيوانات البحرية والطيور البحرية التى تدل على قرب الشاطىء أو على جزر ومواقع بعينها .

وقد فصل ابن ماجد كل هذه الأمور تفصيلا كبيرا فى مؤلفـــاته واراجيزه كما وصف لنا أكثر من عشرين طريقا ملاحيا مشهورا فى « راهمانجات » ضمنها خبراته الشخصية وبها معلومات مبتكرة لم يتوصل اليها أحد قبله . وسندع تفصيل النجوم الملاحية وطرق قياس ارتفاعها لفصل قادم وسنتناول فى هذا الفصل شذرات متفرقة من كتابات ابن ماجد للتدليل على أهمية المعلومات الأخرى الضرورية لتحديد الطريق الملاحى عند الخروج الى البحر .

ففيما يتعلق بالسفر أو الخروج الى البحر من السواحل المختلفة للمحيط الهنـــدى سواء أكان ذلك من ساحل الهند نفسه أم من الساحل العـــربى أو الافريقى نرى ابن ماجـــد يتكلم عما يسميه « غلق البحر » أو « تغليق البحر » ويعنى ذلك أن هناك مواسم معينة للسفر من كل ساحل من السواحل . وتعتمد هذه المواسم بالضرورة على اتجاه الرياح الموسمية فى المحيط الهندى وهى المواسم التى يسميها « بمواسم السفر » ونحن نعلم أن هذه الرياح تعكس اتجاهها مرتين فى السنة فى هذا المحيط ، ففى المدة من ابتداء الربيع الى آخر الصيف تهب هذه الرياح من المحيط الى سواحل شبه القارة الهندية وذلك لأن الحرارة الشديدة تسخن الرياح فوق شبه القارة الهندية فتخف وتصعد ويحل محلها رياح من البحر الى اليابسة . وتنعكس الآية فى الفترة من اكتوبر او نوفمبر الى فبراير حين يكون الضغط

**الجوى عاليا فوق شبه القارة الهندية لبرودة الهواء ، وخفيفا فوق المحيط ـ فتندفع الرياح من شبه القارة الهندية الى الغرب نحو المحيط** . ويتبع ذلك بطبيعة الحال تغير مجرى التيارات المائية ، فاذا كانت المركب الشراعى تسير ضد الرياح وضـــد التيار فانها تتعرض لأخطار كثيرة ولذلك كانت هناك فترات غير ملائمة للملاحة أو الخروج من السواحل المختلفة فى أوقات السنة المختلفة . وتختلف هذه الفترات فى طولها وفى موسمها من ساحل لساحل وهذا هو ما يعنيه ابن ماجد « بتغليق البحر » ويؤيد ذلك قوله فى الحاوية :

| | |
|---|---|
| وينبغى معـــرفة الأريـــاح | ومغلق البحـــر والمفتـــاح |
| فغلقه يمكث ربع عــــام | مدة تسعون من الأيـــام |
| اذا بدا الدبران وقت الفجـر | ما ينبغى الفلك عليه يجـــرى |
| حتى يرى الفلك استوى بالزبرة | فجربوا حيه معا وغــــزره |
| من أول المايتين يافطينـــا | لأول المايتين والتســـعينا |
| فهذه التسعين فها الغلقـــا | حقيق من جاز بها أن يشـقى |
| من مضض الوحشة والتنـدم | وكثرة الوسواس والتـــألم |
| أما الضرورات فكم منها جـرى | كم جاز فيها أحمق وخاطـرا |

وقبل أن نشرح هذه الأبيات يجب أن ننبه القارىء الى أن السنة الفلكية عنـــد ابن ماجـــد هى السنة الفارسية المعروفة بتقويم « النيروز » وتبدأ فى ٢١ مارس تقريبا . ومن هذا التاريخ يحسب ابن ماجد الأيام فيقول مثلا « أربعين النيروز » أو « مائتين النيروز » .

ويعنى بذلك مرور شهر وعشرة أيام على بدء السنة فى الحالة الأولى أو ٢٠٠ يوم على بدء السنة فى الحالة الثانية ، فاذا فهمنا ذلك فاننا نستطرد فى شرح الأبيات التى اوردناها من كلامه فى الحاوية فهو يريد أن يقول لا تخرج الى « **جوزرات** » على ساحل الهند فى المدة من ٢٠٠ يوم منذ بدء النيروز الى ٢٩٠ يوما أى فى خلال الثلاثة الشهور التى تبدأ من أواخر اكتوبر لأن الرياح فى تلك المدة وكذلك

التيارات تكون نحو الغرب ، فاذا أردت الوصول الى الهند من الساحل العربى أو الأفريقى أو ساحل الخليج الفارسى الى جوزرات فى تلك المدة فانك تتعرض لأخطار شديدة لأنك بذلك تخاطر بالسير فى مدة تغليق البحر أو بمعنى آخر فى الموسم غير الملائم للسفر . فانك اذا فعلت قاسيت مضاضة الوحشة والندم وكثرة الوسواس والألم وراودك الخوف الدائم على سلامة مركبك . وتسمى الرياح الموسمية الغربية بالكوس أو الدبور أما الرياح الشرقية فتسمى بالصبا أو القبول .

وعلى الرغم من ذلك قد يخاطر بعض الملاحين فى السير فى مدة تغليق البحر وليس ذلك من الكياسة فى شىء .. وفى تلك المدة أيضا يرى الناظر نحو الغرب نجم « الدبران » فى الفجر وهذه اشارة عدم ملاءمة الوقت للسفر .

وللرياح بعامة عند ابن ماجد مواقيت معلومة وحدود فى أول هبوبها وآخره ووسطه وهى معلومة عند (( **سفارة البحر** )) على حد قوله . وهناك أيضا الرياح النكباء أو العواصف الشديدة التى تهب من آن لآخر فى المحيط الهندى ولها هى الأخرى علامات ومواسم يعرفها الربان بالخبرة ، ويعرف ابن ماجد « النكباء » بأنها كل ريح تهب من بين الريحين « كالجاهى والمغيبى والسهيلى والمطلعى » .

اما عن طبيعة الرياح فى البحر الأحمر فيتكلم ابن ماجد أيضا عن السير تحت الريح وفوق الريح ولا ريب انه كان ذا مهارة فائقة فى التحكم فى الشراع فى هذه الأوقات .

ومن المعلوم فى البحر الأحمر أن الرياح تهب من شمال شمال غرب الى جنوب جنوب شرق فى المدة من مايو الى سبتمبر محدثة تيارا مائيا يدفع المياه السطحية لهذا البحر عبر باب المندب الى المحيط الهندى . وتنعكس الرياح فى النصف الجنوبى لهذا البحر فى فصل الشتاء أى تهب من الجنوب الى الشمال محدثة تيارا فى هـــذا الاتجاه .

ولابن ماجد طريقة بسيطة فى التعرف على الرياح وهى أن تنصب على المركب عودا ( عامودا ) وتعلق فيه قطعة قماش من الحرير تعرف بها اتجاه الريح ولا تختلف هذه الطريقة فى اساسها عن الطريقة التى نعرفها اليوم .

ويتكلم ابن ماجد بعد ذلك عن الاشارات التى يحتاج اليها الربان فى معرفة البر ومداخل الموانى المختلفة أو يهتدى بها فى طريقه فى البحر وذلك مثل الطين والحيات والطيور المائية والحوت والحشيش، وكل هذه رموز يعنى بها فى الواقع المسائل الآتية :

١ ـ طبيعة القاع .

٢ ـ الأسماك والحيوانات والطيور البحرية المميزة للمياه المختلفة .

٣ ـ الطحالب والحشائش البحرية المميزة .

٤ ـ لون ماء البحر فى المناطق المختلفة .

ومن ذلك قوله فى الحاوية أيضا :

والطين والحيـــات والأطيـــار
والحوت والحشيش خذ أخبارى

لا تعتـــبر الا بما جربتــــه
أو يكن الواصف قد حققتــــه

ويصف ابن ماجد سواء فى كتاب الفوائد أو فى الحاوية ظاهرة التألق الضوئى لماء البحر وهى ما أشرنا اليه من قبل تحت عنوان الاضاءة البيولوجية ويقول ان مثل هذه الضوء يفسد قياس النجوم ليلا اذ لا يتضح معه الأفق بسهولة ونقول عن خبرة ويقين ان هذه الملاحظة دقيقة للغاية ، ففى أماكن معينة وأوقات خاصة فى المحيط الهندى تظهر كائنات دقيقة من نوع البلانكتون على السطح بكميات كبيرة تضفى على الماء لونا أحمر ، كما تظهر فى الليل كائنات مضيئة

سبق الاشارة اليها ، ووجود هذه الكائنات من غير شك يعتبر دلالة على خواص معينة للماء ولربما أمكن الاستدلال بها على وجه التقريب على الموقع . وجدير بالذكر أن مناطق وجود التيارات المنبثقة من الأعماق كما على سواحل بحر العرب وأمام الصومال تتميز بوجود مثل هذه الكائنات . كما أن بحر العرب نفسه بين خطوط طول وعرض معينة فيه تظهر فيه ظاهرة أخرى عجيبة وهى هلاك الأسماك بالجملة نتيجة صعود طبقة من الماء فقيرة فى الأكسجين الى السطح (١) .

ومن العلامات الأخرى طبيعة القاع سواء أكان طينيا أو صخريا أو من الرمال ، ويتكلم ابن ماجد عن قيعان معينة فى الخليج الفارسى وعلى ساحل العرب من كل نوع كما يتكلم بتفصيل كبير عن الشعب المرجانية فى البحر الأحمر وفى المحيط الهندى بعامة ، ويذكرها بأسمائها وقد يطلق على التكاوين المرتفعة احيانا اسم « ظهرة » وهو اسم عربى صحيح يحدد بالضبط المعنى المقصود من هذه التكاوين بالنسبة للملاحة .

ويتكلم أيضا عن الأماكن الضحلة ويسميها التقاصير أى التى تعوق الملاحة ويحذر من الوقوع على مثل هذه الأماكن بالليل فيقول بعد أن يذكر جانبا من خبراته فى البحر الأحمر :

« وكل ذلك وقع علينا واحزم كل الحزم فى ذلك المكان اذا اخذ عليك الليل أن تترك المركب بغير السنبوق حواليه والمادة والأنجر والبلد ، فان رأيت شيئا من القطع أو الوصول تحت الماء فاعلق به . وأصبح قاصدا البر بأول النهار وان خفت من الحاج على أنجرك سلسل الخراب بالحديد والسنبوق ولا بأس فى الأنجر الصينية فى ذلك المكان » .

---

(١) انظر كتابنا بعنوان « الثروة المائية فى الجمهورية العربية المتحدة ووسائل تنميتها . طبع دار المعارف ١٩٦١ » .

ومن علامة قرب البر أيضا رؤية الطيور البحرية والأسـماك المميزة للمناطق المختلفة ومنها المنجى والكريك والسكلان والقرعا وغيرها « فيقول » والكريك أقرب من المنجى للساحل ( أى لساحل بر الزنج والصومال ) وكذلك قوله عن المنطقة بين جزيرة مدغشقر وجزيرة سقطرة :

« والحقيقة أن من بر القمر شعب تحت الماء منحدر الى ما بين الفال وسقطرة وله حواس وتنور وقد رأينا جميع اشـاراته من الحشيش والحيتان ويمكن أن يكون حوالى ذلك الشعب معدن العنبر .. وفى النادر ترى على ذلك الشعب الطيرة القرعاء التى باطنها أبيض وهى أكبر من المنجى فيحسبها الناس منجى وليس هى منجى وربما ترى حشيشا فى النادر . وأما الكريك وهى السمكة التى تعرف فى البحر فى الكبرة من البتان والتهاول . فاذا رأينا تلك الاشارات لم تحمل بر السومال بالريح الطيب سوى أربعة أزوام ( أى مسيرة نهار كامل ) أو أقل فى المركب السابق ( الذى يجرى بسرعة ) .. » .

« وتكرر وصف مناتخ السومال لأنها مناتخ القاصدين لبيت الله الحرام وغيرها . **وأما أم الصنانى وهى الطيرة الزرقاء فى بطنها بياض تكدر بالزرقة فربما تراها وأنت سهيلى ( جنوبى ) سقطرة واذا صرت بين سقطرة والبر انقطعت هى والمنجى وربما لم ينقطعا وليس عليهم قانون .. »** .

ومن علامات البرور عند ابن ماجد أيضا رؤية الملامح والمعـالم الجغرافية على السواحل كقمم الجبال والرؤوس البارزة وتعاريج الساحل نفسه . ولابن ماجد تعريف للمياه الاقليمية وهو مفهوم جدير بالاعتبار بالنسبة لتاريخ تحديد المياه الاقليمية التى يمكن أن نعتبر رأيه فيها من الناحية التاريخية ذا قيمة كبيرة .

ويتلخص هذا المفهوم فى القاعدة الآتية :

**« ولكن البحر ليس هو بحر احد من هؤلاء الطوايف ( يعنى اهل الصين والهند والزنج والفرس وغيرهم ) اذا غيبت البرور عن نظرك ما عندك الا معرفتك فى النجوم والهداية بها » .**

يقصد انه اذا ما اختفى الساحل عن مرمى البصر صار المركب فى البحر الطليق الذى ليس هو بحر أحد من الطوائف التى ذكرها .

وهو رأى جدير بالاعتبار أيضا من الناحية السياسية فحاجة العرب لسواحل هـــذه البلاد والملاحة فيها أكثر من حاجة أهلها للسواحل العربية ، بل الواقع أن العرب كانوا مهيمنين على التجارة والملاحة فى كل تلك البلاد منذ القرن الثامن الهجرى تقريبا وكانت أغلب التجارة لهذه الدول فى يد الربابنة العرب وذلك لثقة التجار الأجانب فى المراكب العربية وملاحيها كما أوردنا فى فصول متقدمة ـ بل ان الربابنة العرب كما ذكر المؤرخون كانوا يتمتعون باعتبار خاص عند عمال الجمارك سواء فى الهند أو فى بلاد الصين .

ولنعد الى الحديث عن الاشارات الجغرافية فى كتابات ابن ماجد وهى التى يصحح بها الربان خط سيره أو طريقه فى النهار وهى بخلاف العلامات الفلكية ليلا .

ونكرر قوله عن مناتخ ( مداخل ) جوزرات فى هذا الصدد كالآتى :
« وقد ذكرنا فى علم الاشارات فى هـــذه المناتخ فى السبعية ( الأرجوزة السبعية ) ما لا عليه مزيد . . ومعرفة الجبال لا تعتمد الا على ما جربته بنفسك ونظرته بعينك . وأما مناتخ جوزرات فقد جمعناها فى اشارة واحدة وهى فى جبل جلنار اذا كان قبت رأسه قطعة واحدة وهى عنك فى مطلع العيوق ( النجم المعروف باسم Capella ) فأنت بشوران بلد التنبول • وان تقسم رأسه قطعتين وكانت الشرقية أكبر فأنت بشوران للمغارب » .

وفى موضع آخر من كتاب الفوايد يقول :

« وجمعنا فى الأرجوزة الهادية التى مطلعها « الحمد لله الحسيب الهادى » جم فوايد لمن سافر من الأطواح وهراميز ومكران واليمن ومكة لهذا الطريق وطرق كنكن جميع فوائد واشارات لم يلقاه المعلم فى رهمانج ( أى لا توجد مدونة فى أى مرشد ملاحى آخر ) ولا فى كتابة ولا فى راس شخص واحد » .

ولا تقتصر هذه الاشارات على الجبال بل تشمل أيضا الأشجار المميزة للجزر مثل « مهايم النارجيل ( جوز الهند ) تراه اذا طرحت على الخور وهى ساحل أبيض .. اذا دخلت الخور يأتيك يمينا كأنه منارة ( ويؤيد ذلك بالقياس أيضا فيقول ) وهناك القياس تسعة محتكم وسهيل والسلبار أربعة ونصف قياس عادة » .

ورغم أنه لا يوافق على السفر فى الغلق ( غلق البحر أى الموسم غير الملائم ) فانه يذكر أيضا اشارات للمعالمة الذين تفوتهم المراسى الهامة على ساحل الهند وغيره من السواحل التى ندخها .

وأما الجزر المترامية فى المحيط فيفرد لها فصولا فى كتاباته ومنها **الجزر الكبار** فى المحيط الهندى وهى القمر ( مدغشقر ) وجاوة وسرنديب وقد سبق أن أشرنا اليها .

ويذكر أيضا كثيرا من الجزر الصفار التى « ندخها » ومعالمها ومنها جزر الكومور التى تقع على خط عرض ١٢ جنوب خط الاستواء فى وسط المحيط ( وهى الآن من المستعمرات الفرنسية ) وقد زرنا هذه الجزر فى بعثة الكشف الدولية للمحيط الهندى عام ١٩٦٤ ووضح لنا من أسماء المدن والبلاد أن سكانها من أصل عربى منذ زمن طويل اختلطوا بالزنوج وتعدادهم نحو ١٦٠ر٠٠٠ نسمة وهى جزر عديدة متفرقة بها جبال بركانية تكسوها غابات خضراء على سفوحها ومروج وشجيرات فى المنخفضات ومطرها غزير وتنمو فيها أشجار جوز الهند والفلفل والقرفة والعطور وقد زارها ابن ماجد مرارا وذكر من جبالها جبل **قرطالة** الشامخ ، ومن جزرها

دمونى وملالى وانجزيجا وعليها بنادر وقرى أسماؤها عربية محرفة مثل محلة ومجيدى ( ربما نسبة الى احمد بن ماجد ) وقد قضينا بهذه الجزر يومين واستضافنا خلالهما قاضى المسلمين وفقيههم وامامهم الشيخ الفاضل السيد محمد عبد الرحمن وفى بلدة موروني عددنا أكثر من ثلاثين مسجدا فى ميدان واحد وأهلها جميعهم مسلمون متمسكون بدينهم يحفظ الأطفال الصغار منهم القرآن عن ظهر قلب . وبيوتهم تبنى بحجر الجرانيت وتطلى بملاط سميك ونوافذها ضيقة ربما لمنع الحرارة . وبهذه الجزر أيضا مسلمون من الهنود عددهم قليل وهم من سلالة التجار والبحارة الهنود القدامى ويعمل أغلبهم فى التجارة .

ويحذر ابن ماجد الربابنة أيضا من الرؤوس البارزة فى البحر فى الليل فيقول :

لكن تحذر يا فتى بالليـــــل
من كل راس خارج طـــــويل
فالروس تحصى هنـــاك بالعـدد
يطول فيهـــا الشرح فى وقت النكد
فأول يلقـــاك فج الـــــوادى
فيه ترى الأشجار والأعـــــواد
وراس حنبيص مع الجـــــزيرة
بيضا تراها منه نحـــو الديرة

وفى الأرجوزة التى اقتبسنا منها هذه الأبيات أيضا وصف شيق دقيق لمعالم الساحل والمنطقة بين الساحل الأفريقى وبر العـــرب وصفات مجارى زيلع . وجدير بالذكر أن فى هذه الأرجوزة أيضا تسجيل لأسماء كثير من المدن والقرى والبنـــادر التى اندرست أو حرفت وتحتاج الى اعادة تحقيق ومطابقة على الأسماء التى تشتهر بها اليوم . وهذا بحث طويل يحتاج الى متخصص فى هذا الموضوع من الناحيتين التاريخية والجغرافية .

# الفصل الرابع

## الملاحة الفلكية

### عند ابن ماجد

ربما كان هذا الفصل هو أشق فصول الكتاب وأصعبها لمن يتصدى للكتابة عن ابن ماجد ، وعلى الرغم من ذلك فان هذا الموضوع هو أهم أعمال هذا الربان الملاحية على الاطلاق . وقد أطنب المؤلف فيه كثيرا وقلما يخلو مصنف من مصنفاته من الخوض فيه ، وذلك يدل على براعة ابن ماجد بحق فى علم الفلك وعلى أن قياساته كانت دقيقة مبتكرة وعلى أن مشاهداته للنجوم ومطالعها ومغاربها كانت هى الأخرى دقيقة للغاية .

وتنحصر الصعوبات التى تعترض الباحث فى هذا الموضوع فى راينا فى النقط الآتية :

١ ـ ان الاصطلاحات الفنية والوحدات التى استعملها ابن ماجد تشمل كلمات مشتقة من لغات أخرى فمثلا كلمة « زام » مشتقة من الهندية بينما كلمة مثل « باشى » وجمعها باشيات « ليس لها أصل عربى أو هندى أو فارسى معروف حتى اليوم » . ثم أن ما يقصده ابن ماجد بمصطلحات مثل اعتدالات واستواءات واستقامات وغيرها قد لا تؤدى نفس المعنى المقصود منها دائما .

٢ ـ أن قياسات ابن ماجد بالنسبة لموقع النجم القطبى فى القرن الخامس عشر يصعب جدا تطبيقها فى الزمن الحاضر لاختلاف موضع النجم القطبى خلال هذه المدة ، ومن المعلوم أن هذا النجم تغير موقعه من القطب الشمالى منذ ما قبل الميلاد حتى اليوم .

٣ ـ صعوبة اللغة التى استعملها ابن ماجد وبخاصة فى أراجيزه التى تشبه الرموز حينما يتكلم عن القياسات ، ومدلول بعض النجوم التى استعملها .

٤ ـ لم يوضح ابن ماجد بالتفصيل الآلات التى استعملها فى القياس ورصد النجـــوم وهى حتما كانت تختلف عن الآلات التى استعملها البرتغال . وهو كما قلنا من قبل قلما استعمل الأسطرلاب فى البحر لأن حركة المركب تجعل قياس زاوية الارتفاع غير دقيق .

٥ ـ ان مفهوم ابن ماجد لمعدل تغير خط العرض بالنسبة لارتفاع النجوم وهو ما يقصـــــده بكلمة « ترفا » يصعب فهمه للغاية . كما لا تتضح من كتابات ابن ماجد كيفية معرفة خط الطول .

وقد حاول بعض المستشرقين من امثال دى سوسير العـــالم الرياضى السويسرى (١) وجيمس برنسبس (٢) التوصل الى شرح بعض هذه المصطلحات والطرق بمحاولات جدية للغاية ، وبالرجوع الى كتاب « محيط » لسيدى على ريس الأميرال التركى الذى ترجم بعض أعمال المعلمين أحمد بن ماجد وسليمان المهرى الى اللغة التركية كما سبقت الاشارة ، والى مفهوم توماشك Tomaschek وماكس بتنر Max Bittner ، المستشرقين اللذين درسا كتاب محيط وعلقا عليه باللغة الألمانية . وقد وجد دى سوسير بالفعل اختلافات فى مفهوم سيدى على لقياسات ابن ماجد .

وعلى أى الأحوال فان هذه الدراسات لا يمكن اعتبارها منتهية ولا تزال تحتاج الى مزيد من التحقيق والتدقيق .

(١) Léopold de Saussure : Commentaire des instructions nautiques. de Ibn Majid et Sulayman El-Mahri (.in Ferrand 1928).

(٢) Notes on the nautical instruments of the Arabes. Journ. Asiat Soc. B. engal 1836.

وسنورد هنا فى هذا الفصل شرح بعض المصطلحات الفلكية التى استعملها ابن ماجد وتقسيمه لوردة الرياح على ضوء ما استطعنا التوصل اليه . وقبل أن نفعل ذلك يجب أن نمهد بمقدمة عن الملاحة الفلكية واستخدام مجموعات النجوم فى التعرف على الاتجاه بالبحر ، متحاشين قدر الامكان الدخول فى تفصيلات رياضية يشق فهمها على غير المتخصص . ويجب التنويه فى هذا الصدد **بأن الملاحة الفلكية تعتمد الى حد كبير على دراسة حساب المثلثات المستوية وحساب المثلثات الكروية .**

ونبدأ هذا التمهيد بذكر الكرة السماوية (١) التى تظهر لأى راصد على سطح الأرض كنصف كرة مقلوبة ترصعها النجوم والكواكب التى نراها بالليل ــ بصرف النظر عن سطح أبعادها الحقيقية عن الأرض كأنما هى مثبتة على السطح الداخلى لنصف الكرة المقلوبة أو قبة السماء التى يمكن اعتبارها جزءا من محيط دائرة عظمى ( كرة ) ذات نصف قطر لانهائى ومركزها هو مركز الأرض . ويطلق على هذه الكرة اسم **الكرة السماوية** أو قبة السماء .

وتدور الأرض داخل هذه الكرة السماوية الثابتة حول محورها من الغرب الى الشرق كما هو معلوم . ولكن الراصد على الأرض لا يلاحظ هذا الدوران ويخيل اليه أن الكرة السماوية نفسها هى التى تدور ، مثلما ينظر الراكب فى قطار متحرك الى قطار آخر واقف على رصيف مجاور فيخيل اليه أن هذا الأخير هو الذى يتحرك وحركته فى الاتجاه المضاد .

وعلى ذلك تظهر لنا الكرة السماوية كأنها تدور من الشرق الى الغرب ، ومن ثم تظهر الشمس والنجوم كأنها تشرق من شرق خط

(١) اعتمدنا فى هذا التمهيد على كتاب الأميرالية البريطانية للملاحة ج ٢ ( ترجمة العقيد الفونس صادق ) .

زوال الراصد وغرب غربه . ويعرف خط الاستواء السماوى بانه الدائرة العظمى على الكرة السماوية الناشئة عن تقاطع مستوى خط الاستواء الأرضى فى الكرة السـماوية ، كما يعرف القطبان السماويان الشمالى والجنوبى بأنهما النقطتان التى يقطع فيهما امتداد محور الأرض الكرة السماوية . كذلك لا يعطى مظهر نجوم السماء فى الليل أية فكرة عن أبعادها الحقيقية عن الأرض . وبعد هـذه النجوم عنا فى الواقع يقاس بعشرات السنين الضوئية أو بمئاتها اى انها على أبعاد خيالية من الأرض اذا ما علمنا أن الضوء يسير بسرعة ٣٠٠٠٠٠ر٠٠٠ كيلومتر فى الثانية الواحدة ونحو ستين مرة مثل هذه المسافة فى الدقيقة ثم ستين مرة أخرى للسـاعة ثم اليوم فالشهر فالسنة .

وعلى ذلك فالزاوية التى بين الراصد وأى نجمين من نجـوم السماء تكون ثابتة تقريبا فيما عدا تغيرات طفيفة ناشئة عن حركة الأرض فى مسارها .

وحينما يكون الجرم السماوى قريبا نسبيا من الأرض كالشمس مثلا فان موقعه على الكرة السماوية يتغير تغيرا ملحوظا بالنسبة لموقع الأرض فى فصول السنة المختلفة ، وهكذا تبدو الشمس للراصد على سطح الأرض كأنها تكمل دائرة كاملة على الكرة السماوية على مدار السنة ، وهى دائرة تميل على خط الاستواء السماوى بزاوية قدرها ٢٧/٢٣° وهى الزاوية التى تمثل ميل محور الأرض .

وتسمى النقطة التى تمر بها الشمس حوالى يوم ٢١ مارس ( وهى نقطة الاعتدال الربيعى ) بالنقطة الأولى من الحمل ( برج من البروج المعروفة ) والنقطة الثانية التى تمر بها الشمس حوالى يوم ٢٣ سبتمبر ( وهى نقطة الاعتدال الخريفى ) بالنقطة الأولى من الميزان ( برج الميزان ) .

وهناك تعريفات أخرى يجدر ذكرها فى هذا المجال منها **خطوط**

**الزوال السماوية** وهى انصاف دوائر عظمى تصل بين القطبين وتناظر خطوط الطول الأرضية تماما .

وتعتبر مواقع الأجرام السماوية ثابتة على الكرة السماوية بالنسبة لخط الاستواء السماوى ولخط زوال سماوى ثابت بنفس الطريقة التى يحدد بها موقع مكان على سطح الأرض بالنسبة لخط الاستواء الأرضى ولخط طول أرضى ثابت . ويختار لهذا الغرض خط الزوال السماوى الذى يمر خلال نقطة الاعتدال الربيعى كدليل .

أما **الزاوية الزمنية النجمية** لجرم سماوى فهى الزاوية المحصورة بين خط الزوال المار بنقطة الاعتدال الربيعى وخط الزوال المار بالجرم السماوى على أن تقاس من الخط الأول غربا .

واما **المطلع المستقيم** لجرم فهو الزاوية بين خط الزوال المـــار بنقطة الاعتدال الربيعى وخط الزوال المار بالجرم السماوى على أن تقاس من الخط الأول شرقا .

ويستعمل المطلع المستقيم لتحديد موقع الجرم السماوى على الكرة السماوية .

واما **الميل** فهو المسافة الزاوية للجرم السماوى شمال أو جنوب خط الاستواء السماوى مقاسا بالدرجات . وهو يشبه العرض على الكرة الأرضية .

وميل الشمس يتراوح كما هو معروف بين ٥ر٢٣°ش ، ٥ر٢٣°ج ثم يعود الى قيمته الأولى بعد ١٢ شهرا .

أما **البعد القطبى** فهو البعد الزاوى من الجرم السماوى الى القطب المرتفع فوق أفق الراصد وعندما يكون القطب المرتفع والميل شماليين أو جنوبيين فان البعد القطبى يساوى ٩٠° ـــ الميل أما اذا كانا مختلفين أى احدهما شمالى والآخر جنوبى فيكون البعد القطبى مساويا ل ٩٠° + الميل .

اما **سمت الراصد** فهى النقطة التى يتقاطع فيها امتداد الخط الواصل من مركز الأرض الى الراصد مع الكرة السماوية ويكون ميل السمت مساويا بالضرورة لخط عرض الراصد .

واما **الأفق السماوى** او **الحقيقى** فهو الدائرة العظمى على الكرة السماوية التى تبدو فيها اى نقطة منها على مسافة ٩٠° من سمت الراصد .

أما الأفق الظاهرى فهو الأفق الذى يقيس الراصد منه ارتفاع اى جرم سماوى ، **وهو الدائرة الصغرى على سطح الأرض التى يبدو عندها كأن البحر والسماء قد تلاقيا او تماسا .**

وعند قياس ارتفاع النجوم يراعى أن تتفادى الارتفاعات الكبيرة ويستحسن الاقتصـــار على أخذ الارتفاعات التى تقل عن ٦٠° وابن ماجد نفسه يوصى بذلك .

أما **النجم القطبى** وهو الذى يطلق ابن ماجد عليه اسم « **الجاه** » فهو النجم الذى يقع الآن بالقرب من القطب الشمالى على الكرة السماوية وهو من المرتبة الثانية من درجة اللمعان وقد حسب علماء الفلك أن ميله اليوم يبلغ ٨٩° شمالا بدلا من ٩٠° وهى القيمة التى تجعله ينطبق تقريبا على القطب الشمالى السماوى . وعلى عهد ابن ماجد كان هذا النجم يعتبر مطابقا للقطب الشمالى السماوى ، وعليه فان ارتفاعه يكون مساويا لخط عرض الراصد .

## ( أ ) مجموعات الكواكب والنجوم

تعتبر الكواكب قريبة نسبيا من الأرض ويخيل للرائى من الأرض أن هذه الكواكب تتحرك بالنسبة لمواقع النجوم الثابتة خلفها . وتستعمل من الكواكب الثمانية المعروفة أربعة فقط في الملاحة هى: **الزهرة والمريخ والمشترى وزحل** حيث أن درجة لمعانها تسمـــح برؤيتها . أما النجوم فتوجد على أبعاد شاسعة عن الأرض كما ذكرنا وتختلف هى الأخرى فى درجة لمعانها . وتقدر هذه الدرجة تقديرا

نسبيا بستة مراتب حسب درجة اللمعان وذلك منذ عهد بطليموس ؛ ويتبع ابن ماجد تقسيم بطليموس للنجوم الى ست مراتب حسب درجة اللمعان . والنجوم التى ترى بالعين المجـــردة لا تزيد عن ٥٠٠٠ نجم ويقول ابن ماجد انه عرف منها عـــلى الأقل نحـــو ١٥٠٠٠ نجم : أما النجوم المستعملة فى الملاحة منها فلا يزيد عددها على اربعين نجما معروفة المواقع . وتظهر أكثر النجوم الملاحية بالقرب من مجموعات محددة معروفة من النجوم وبذلك يسهل التعرف على النجم المرصود . ومن هذه المجموعات :

**( أ ) مجموعة الدب الأكبر :**

ويطلق عليها اسم المحراث وتعتبر من المجموعات النجمية الهامة اذ يمكن التعرف منها على النجم القطبى وذلك برسم خط يمر خلال الدليلين .

**(ب) مجموعة الدب الأصغر :**

وتشبه مجموعة الدب الأكبر من ناحية الشكل وتنحصر اهميتها فى الملاحة فى أنها تحتوى على النجم القطبى وهو يمثل نهاية يد المحراث .

**(ج) ذات الكرسى :**

وتوجد فى الناحية المضادة لمجموعة الدب الأكبر بالنسبة للنجم القطبى وعلى نفس المسافة تقريبا ويمكن رؤيتها فى السماء عـــلى الدوام كما تساعد هذه المجموعة فى التعرف على مجموعة الفرس الأعظم او « المربع » التى استعملها ابن ماجد كثيرا فى قياساته .

**( د ) مجموعة الفرس الأعظم او المربع :**

والضلع الذى يصل بين النجمين « الفارس والغنيب » من هذه المجموعة يكاد ينطبق على خط الزوال المار بنقطة الاعتدال الربيعى وكذلك يمكن الاستفادة بهذه المجموعة فى فهم التوقيت النجمى .

**(هـ) مجموعة الحمل :**

وهى الأخرى معروفة للملاحين .

**( و ) مجموعة الجبار :**

ومنها نجما « ابط الجوزاء والرجل » والخط المار بينهما يشير الى مقدم التوأمين . والحزام فى هذه المجموعة يشـــير الى نجمة الشعرى اليمانية فى مجموعة الكلب الأكبر . وتقع مجموعة الكلب الأصغر التى تحتوى على نجم الشعرى اليمانية ومجموعة الثور التى تحتوى على نجم « الدبران » قريبا من مجموعة الجبار .

**( ز ) مجموعة الصليب الجنوبى :**

وبها اربعة نجوم تحدد شكل الصليب وترى فى الســـماء الى الجنوب على شكل صليب .

**أما النجوم الملاحية** فيمكن التعرف على مواقعها كما ذكرنا بدلالة المجموعات النجمية الشهيرة متقدمة الذكر . وأهم هـــذه النجوم الملاحية التى ورد الكلام عنها كثيرا فى مؤلفات ابن ماجد هى :

**١ ــ آخر النهر :**

ويقع فى منتصف الخط الواصل بين سهيل اليمن وفم الحوت .

**٢ ــ الدبران :**

يقع على امتـــداد حزام الجبار ويتميز الدبران بلونه المائل للاحمرار .

**٣ ــ الطائر :**

يقع على امتداد الخط المرســوم من العيوق خلال النجم كأنه فى مجموعة الكرسى .

**٤ ــ قلب العقرب :**

وهو الآخر يميل للاحمرار .

**٥ ـ السماك الرامح :**

ويقع على امتداد انحناء ذيل الدب الأكبر وهو من ألمع النجوم .

**٦ ـ المرزم :**

هو أحد النجوم الثلاثة التى تحدد مربع مجموعة الجبار .

**٧ ـ ابط الجوزاء :**

فى نفس المجموعة السابقة ويميل للاحمرار .

**٨ ـ سهيل اليمن :**

هو من ألمع النجوم بعد الشعرى اليمانية ،ويقع على امتداد الخط الواصل بين فم الحوت وآخر النهر .

**٩ ـ العيوق :**

يقع على بعد ٥٤٥ تقريبا من القطب الشمالى من الناحية المضادة للدب الأصغر ويكون مع نجمى ابط الجوزاء ومقدم التوأمين مثلثا متساوى الأضلاع تقريبا .

**١٠ ـ مقدم التوأمين :**

ويقع على امتداد الخط الواصل من نجم الرجل الى النجم المتوسط فى حزام الجبار .

**١١ ـ فم الحوت :**

ويقع على امتداد الخط الواصل من مجموعة المربع فى اتجاه عكس اتجاه النجم القطبى .

**١٢ ـ النجم القطبى :**

ويقع على امتداد الخط الذى يمر بالدليلين ( الفرقدين عند ابن ماجد ) فى مجموعة الدب الأصغر . وارتفاع هذا النجم يكون مساويا لخط عرض الراصد ، وقد اعتمد عليه ابن ماجد اعتمادا كبيرا فى قياساته .

**١٣ ــ مؤخر التوامين :**

يقع بالقرب من مقدم التوأمين ( وهو الفرع المؤخر عند ابن ماجد ) .

**١٤ ــ الشعرى الشامية :**

ويكون مع نجمى الشعرى اليمانية وابط الجوزاء مثلثا متساوى الأضلاع تقريبا .

**١٥ ــ قلب الأسد :**

ويقع على امتداد الخط الواصل من المرزم الى ابط الجوزاء على بعد ٥٦° تقريبا من ابط الجوزاء .

**١٦ ــ الرجل :**

وهو أحد النجوم الثلاثة التى تحدد أركان الشكل الرباعى فى مجموعة الجبار .

**١٧ ــ الشعرى اليمانية :**

وهو من ألمع النجوم ويقع فى جنوب شرق مجموعة الجبار على امتداد الحزام .

**١٨ ــ السماك الأعزل :**

يقع على امتداد انحناء ذيل الدب الأحمر بعد المرور على السماك الرامح .

**١٩ ــ النسر الواقع :**

يقع على امتداد الخط الواصل من العيوق الى النجم القطبى وهو فى عكس اتجاه العيوق وعلى نفس بعده من النجم القطبى .

هذه هى بعض النجوم الملاحية الشهيرة فى نصف الكرة الشمالى ، وتوجد أخرى غيرها كثيرة ورد ذكرها فى ابن ماجد وبخاصة من النجوم التى ترى بوضوح فى نصف الكرة الجنوبى .

ويلاحظ أن رصد النجوم يكون عادة فى الفجر أو فى المساء بعد الشفق كما ينصح ابن ماجد دائما فى مقالاته • ويرصد النجم بمعرفة ارتفاعه واتجاهه .

أما معرفة الوقت عند ابن ماجد فبالشمس نهارا وبمنازل القمر والحركات الظاهرية للنجوم مساء .

ويلخص ابن ماجد فى الفصل الثانى من حاوية الاختصار النجوم الملاحية الشهيرة فى الأبيات الآتية :

| | |
|---|---|
| فأول معـــــرفة المنـــازل | وهاكها شـــامية يا ســـائلى |
| الشرطين والبطين والثــريا | والدبران بعدهم تهيـــــا |
| وهقعة من بعـــدها والهنعة | والذراع والنثرة والطرف معه |
| وجبهـــة وزبرة والصرفة | ما فى صفاتى لك قط حـــرفة |
| وبعدها العـــواء والسـماك | هم آخـــر الشامية الزواكى |
| والغفـــر والزبان والاكليــل | أول اليمانية يا خليـــــلى |
| القلب والشـــولة والنعائم | وبعدها البـــلدة تطلع دايم |
| ثم السعود الأربعة والفـــرع | يا طال ما فصـــل عليه الشرع |
| أعنى المقدم والمؤخـــر فافهما | وبعدها الحـوت سيبدو فاعلما |
| فهذه المنـــازل السـوارى | تقطع كل الفلك الــــدوار |
| وكلما غاب من المنـــــازل | نجم له ضـــد يلوح واصـــل |
| وكل نجم صـــار منهن الوتد | فضده فى الأرض مع أهل الرصد |
| وينبغى معـــرفة الطوالــــع | والغاربات والوتد الرابــــع |

ويعطى ابن ماجــد تفسيرا لأسماء هذه النجوم فيقول عن « الشرطين » مثلا « أن منزلته تطلع بالفجر بعدماية وستة وخمسين من النيروز وسمى بذلك لأن للعرب شرطا للرحيل والنزول عند نو الشرطين ، وتسمى النجوم الثلاثة من الشرطين نجوم الاخذ لأن مبدأ أطوال النجوم يؤخذ بها .. وهم أيضا مبدأ المنازل .. والشرطين من النجـــوم المثناة وكذلك من المثناة الذراعين والسماكين والمقدمين

والفرعين والزبانين والسابقين وهما شرقى الاكايل والقلب يطالعونهم والفارطين والأولين والأعرجين وهما ثالثى النعش ورابعه والعوهتين وهما بقرب الذنبين والحوتين والجميع بجنب الفرقدين والفارطين وهما يقدمان النعش فى الطلوع والغروب وهما فى صورة الدب الأكبر على خشم الدب والذنبين والحوتين فى صورة الدلفين والصليبين ، وهما المربع والعوايد والفرقدين ويسميان الحاجزين والاكليلين أكليل العقرب والفكة التى تسمى صفحة المساكين والقدرة والمسحلين وهما الحمارين والعمودين والضفدعين وليس منهم البطين ، وعنـد استقلال منزلة الشرطين يستوى ويتكامل قياس التير والسلبار التى ركبت عليها الأرجوزة التى مطلعها :

يا سائلى عن صفة القيـــاس اعلم وعلمه جميع النـــاس

ويســتوى قياسهم عنــد غروب النسرين فى الاقليم الأول والشمالي . ويقاس ساكب الماء وشاهده سهيل . ويستوى قياس السلبار فى غروبه والذراع الشامى فى طلوعه ، ويقاس التير والواقع فى بعض الأقاليم الجنوبية . . والحمل يسمى الكبش بلفظ العرب ، فلذلك سمى بطين لاشتقاقهم به ولصغر نجومه ، انهم من القـــدر الخامس ( فى درجة اللمعان ) . . والثريا يطلع منزلتها بالفجر بعد ماية واثنين وثمانين فى النيروز وهى سعيدة سميت الثريا لأنها فى نوها بالفجر » .

ويستطرد ابن ماجد فيصف أصل اشتقاق أسماء المجموعات النجمية عند العرب ويستشهد بكتاب « التصاوير » الذى صــنفه أبو الحسن الصوفى وفيه كل صورة بعدد نجومها وقدرها ومحلها وقسمتها على الثمانية والأربعين صورة ، فمثلا مجموعة الحمل والسنبلة والميزان « كانت هذه الصورة تعبد فى الجاهلية كصورة رجل واقف ورأسه للمغارب والشمال ورجلاه للمطالع واليمن وله منطقة وسيف متوشح به ومنطقة تسمى السفافيد مع بعض العرب من أهل البوادى

والشرقى من الثلاثة هو المشرق الأصلى لأنه تسعون درجة على القطب الشمالى وتسعون درجة عن القطب الجنوبى ويسمى فم ( القيطس ) ..

والذراعان تطلع منزلتهما بالفجر بعد مايتين وأربعة وثلاثين فى النيروز وهما رياحين وسعدين وسميا بذلك لأنهما ذراعا الأسد احدهم شامى يطلع من قرب مطلع الواقع والآخر يمانى يطلع من قريب نسر الطاير .. » وهكذا .

وانما ذكرنا ذلك لأن أغلب المؤلفين الغربيين يقررون فى كتب الملاحة بأن أسماء مجاميع النجوم لا تعنى شيئا ولا تنطبق على مسمياتها والواقع أن لها أصلا قديما عند العرب (١) ولا تزال هذه الأسماء العربية الأولى هى المستعملة فى كتب الملاحة الغربية والشرقية الحديثة بتحوير بسيط فى بعض الأحيان واليك مثالا على ذلك :

| اسم النجم | المرادف الأفرنجي |
| --- | --- |
| الرجل | Rigel ... ... ... ... ... |
| آخر النهر | B-Achernar ... ... ... |
| قنطورس | B-Centauri ... ... ... |
| الطائر | Altair ... ... ... ... |
| ابط الجوزاء | Betelguese... ... ... ... |

ويقول ابن ماجد فى طريقة قياس العروض ان القطبين ( يعنى طرفى محور الأرض ) (( **ليس هما بنجمين بل هما مكانين حائلين بين المشارق والمغارب** .. لأن العروض تؤخذ من القطب لا تؤخذ من نجم الجدى الذى هو السميا ، وبالعجمية الجاه ولو كان القطب لم يراه الناظرون ، فالعروض تؤخذ منه يدل عليه كوكب أبدى الظهور من

(١) انظر أيضا البيرونى فى « الآثار الباقية » كما ألمحنا من قبل .

الكواكب الشماليات كالميخ والجاه والفراقد ، اذا قست النجم فى غاية ارتفاعه وقسته فى غاية هبوطه عرفت أن المحور بينهما وهو كذا وكذا درجة عن خط الأفق فى قياس الاصطرلاب وخيط خط الاستواء شرقا وغربا يقاطعه خيط منتصف النهار حتى تصير الأرض ارباعا فخيط منتصف النهار طرفى الظلمات وخيط خط الاستواء مشارقه على جزاير الشلى ومغاربه على الجزاير الخالدات وقاطع الخيطين على وادى سرنديب » .

## (ب) آلات الرصد والقياس عند العرب

سبق أن ذكرنا الاسطرلاب وقلنا ان هذه الآلة تقيس ارتفاع الشمس والنجوم والنخيل والجبال وما اليها فوق الأفق معتمدة على مبادىء أولية فى حساب المثلثات وتنقسم دائرة الأسطرلاب الى ٣٦٠ درجة . ولكن هذه الآلة قلما كانت تستعمل فى البحر لأن حركة المركب وقلقلتها تجعل القياس غير دقيق . وعلى الرغم من ذلك كان الاسطرلاب من لوازم الملاحة لتحقيق القياس عند رسو المركب على البر أو عند سكون البحر . ومن ارتفاع الأجرام السماوية يمكن حساب خط العرض . وعرف العرب أيضا المربع أو الكوادرنت وهو آلة لها قوس مثل ربع دائرة ( ٩٠ درجة ) يربط ثقل فى مركزها والقوس مدرج الى درجات ويقاس الارتفاع بواسطتها بايجاد الزاوية المكملة للزاوية بين الخيط والنجم كما هى الحال فى الاسطرلاب . ولقد اكتشف الانجليز كما ذكرنا من قبل فى القرن السابع عشر الميلادى آلة السدس ( وهى تمثل سدس الدائرة أى قوسها مدرج الى ٦٠ درجة ) من هذه الآلة العربية القديمة وتعتمد آلة السدس على مطابقة صورة النجم بمرآة عاكسة مثبتة على الآلة ويحرك ذراع على القوس لهذا الغرض ، ومنه يمكن ايجاد الزاوية .

ولكن كان للعرب أيضا طرق أخرى يستعملونها فى البحر فى قياس ارتفاع النجوم والأجرام السماوية غير الاسطرلاب من غير شك ،

بيد أن احدا لم يستطع التكهن بهذه الطرق أو الآلات التى استخدموها على وجه اليقين . وبالرجوع الى ملاحى جزر المديف فى المحيط الهندى تمكن عالم انجليزى يدعى جيمس برنسبس James Princeps ، ذكرنا مرجعه فيما سلف من صفحات من التكهن ببعض هـــذه الأدوات والطرق المتوارثة منذ عهد ابن ماجد . الا أننا بالرجوع الى مؤلفات ابن ماجد نفسه نجد أيضا أنه يذكر بايجاز طريقة القياس باستعمال ما يسميه **الخشبة** ، كما يذكر طرقا أخرى كذلك . ومن جميع هذه المراجع والمعلومات التى تجمعت لدينا أمكننا أن نحصر هذه الطرق فى الآتى :

**ا ــ طريقة القياس بغير آلات :**

حقا لقد فطن العرب بما لديهم من فراسة الى أهمية تركيب اليد والأصابع والذراع وما وضعه الله من حكمة فى هذه التراكيب فاستعملوها فى قياس ارتفاع النجوم بدون الاستعانة بآلات . وهذه أبسط الطرق واقدمها فى الواقع . وابن ماجد نفسه يصف طريقة لتحديد القبلة تعتمد على قبضة اليد والذراع الممدودة فى حالة غياب البوصلة فيقول **« وكذلك دورة السماء ٣٢ جزء ( يقصد دائرة الأفق ) وكل جزء قبضة من الخنصر الى الابهام وأنت مستقبلها مادا بهـــا ذراعك ، فحط بيت الابرة أمامك وصل على أى خن جاء فى النظم على اى بلد أنت بها واقبض ببعض الأدلة المشار اليها عند عدم الحقة »** .

ومعنى هذا فى تصورنا أن قبضة اليد من الخنصر الى الابهام وهى تشير الى أسفل والذراع ممدودة الى الأمام تمثل ١/٣٢ جزء من محيط دائرة مركزها نقطة اتصال الذراع بالكتف ، وربما كان هذا هو الأساس الذى بموجبه قسمت الحقة العربية اى وردة الرياح العربية ( دائرة الأفق ) الى ٣٢ خنا ، كما أن هذا هو أول استعمال لليد والذراع فى معرفة الاتجاه .

أما الاستعمال الثانى للذراع والأصابع فيكون لمعرفة ارتفاع

جرم سماوى كنجم أو كوكب وطريقته أنك اذا مددت يدك الى الأمام وثنيت راحة اليد والأصابع مضمومة ، فانك تحصل على مقياس قدره أربع أصابع هى المحصورة بين الخنصر والسبابة ، فلو أنك جعلت الخنصر فوق الأفق تماما وكان ثمة نجم يرتفع عن الأفق بأربع أصابع ، فان هذا هو ارتفاع النجم . ويمكن الاستعانة براحة اليد الأخرى اذا زاد الارتفاع عن أربع أصابع لغاية ٨ أصابع كما يمكن تثبيت اليد والذراع والاستعانة بأصابع اليد السفلى مرة أخرى للوصول الى تدريج قدره ١٢ أصبعا . ولما كان ارتفاع النجم القطبى فوق الأفق يحدد خط العرض ، فانه يمكننا بسهولة معرفة خط العرض بهذا المقياس البدائى البسيط دون الاستعانة بالأجهزة . ومن هنا يجىء أصل اصطلاح وحدة الأصبع التى استعملها ابن ماجد فى قياس الارتفاع وفى تدريج دائرة وردة الرياح أو بيت الأبرة العربية فى مفهومنا .

وكان من الطبيعى والحال كذلك أن يختلف المقصود بمقياس الأصبع من ربان الى آخر تبعا لحجم أصابع يده ومن ثم فقد تم توحيد هذا المقياس بين العرب وجعله وحدة من الوحدات اتفقوا عليها : فالذراع يحتوى على ٢٤ اصبعا والاصبع عبارة عن ست شعيرات مضمومة بطون بعضها الى بعض والشعيرة عبارة عن ست شعرات من شعر البغل (١) وقد درجت خشبات القياس عند معالمة البحر على هذا الأساس .

٢ ــ **أما الطريقة الثانية لتقدير ارتفاع النجوم فبآلة خشبية بسيطة تعرف باسم (( الكمال ))** وتتركب هذه الآلة من قطعة خشبية على شكل متوازى مستطيلات فى وسطه خيط ، وهذا الخيط معقود به تسع عقد تقصر المسافة بين كل عقدة وأخرى بنسبة خاصة .

---

(١) انظر أيضا « أبو الفدا فى تقديم البلدان ص ٣ طبعة باريس سنة ١٨٤٠ » .

ولاستعمال هذه الآلة يوضع ضلع متوازى المستطيلات الأسفل على حافة الأفق وتقرب الآلة أو تبعد عن عين الراصد حتى يقع الضلع العلوى لمتوازى المستطيلات أسفل النجم مباشرة ثم يقرأ الراصد عدد العقد التى بين مركز متوازى المستطيلات وعين الراصد والقاعدة التى بنيت عليها هذه الآلة البسيطة مضبوطة للغاية ويعتمد تدريج الخيط وهو يمثل فى هذه الحالة الضلع الأسفل لمثلث قائم الزاوية ارتفاعه نصف قطر متوازى المستطيلات وزاوية ارتفاع النجم هى الزاوية المحصورة بين النجم والعين ومركز الآلة . فالتدريج على هذا الأساس مبنى على جيب تمام هذه الزاوية ويعطى زاوية الارتفاع راسا ، أو خط العرض . ويلاحظ أن التدريج فى هذه الحالة يشمل المساحة الملاحية فى المحيط الهندى فيما بين خطى عرض ٢٠ شمالا ، ٢٠ جنوبا على وجه التقريب فهو بذلك محدود بهذه المنطقة .

٣ ـ **أما الطريقة الثالثة فتعتمد على آلة خشبية أيضا تسمى باسم البلستى** Bilisti وهى مبنية على نفس قاعدة الآلة السابقة وتختلف عنها فى الاستعاضة بقضيب من الأبنوس مدرج يقوم مقام الخيط الذى عليه العقد وينزلق على هذا القضيب خشبة مربعة الأضلاع أو على شكل متوازى مستطيلات يمر قضيب الأبنوس من وسطها وتنزلق هى عليه بسهولة . ويقوم الراصد بتحريك المربع أو متوازى المستطيلات كما فعلنا فى طريقة « الكمال » حتى تصير الحافة السفلى له ملامسة للأفق والعليا ملامسة للنجم . وتمكن العرب من قياس ارتفاع الشمس بهذه الآلة أيضا باستعمالها من الخلف ، **وقد نقل البرتغال نفس هذه الآلة بتدريجها عن العرب واستخدموها فى معرفة ارتفاع النجم القطبى وبالتالى خط العرض وسموها الارباليت** Arbalète .

كما أمكن للعرب تدريج كل حافة من حوافى قضيب الأبنوس واستعمال الآلة المذكورة على أربعة أوجه .

٤ ـ **اما الطريقة الرابعة للقياس فبآلة خشـــبية تسمى اللوح** تحتوى عـلى تسعة الواح فى الواقع . أولها فى حجم اصبع الرجـل ومقسم الى أربعة أقسام كل قسم منها يسمى اصبع « والمسافة بين العيوق والزبان التى تقع فى الجبهة تساوى أربعة أصابع » (١). وهو مبنى على نفس مقياس قبضة اليد التى تكلمنا عنها آنفا .

واللوح الثانى يزيد اصبعا فى تدرجه عن الأول ، وكل لوح بعد ذلك يزيد بنفس الوحدة حتى اللوح التاسع . وكل هذه الألواح يجمعها فى الوسط خيط يمر من خلالها بحيث تكون المسافة بين كل لوح والتالى له نصف اصبع .

وفى المقابلة التاريخية بين فاسكودى جاما وابن ماجد يقرر المؤرخ البرتغالى « دى باروش » أن الأميرال البرتغالى أطلع الملاح المسلم على اسطرلابات خشبية لم يندهش لها ابن ماجد كما أطلع الأخير الأميرال على آلة من ثلاثة ألواح خشبية . ويقول المستشرق الفرنسى رينو Reinaud فى كتابه عن الجغرافية عنـد أهـل الشرق ( فى فصل جغرافية أبى الفدا ) « **ان هذه الآلات التى عرضها الملاح العربى لم تكن سوى نوع من الاربالبت ذى ثلاث خشبات واحدة مربعة وواحدة ضيقة والثالثة اصغر والجميع تنزلق على محور من خشب الأبنوس مدرج** » .

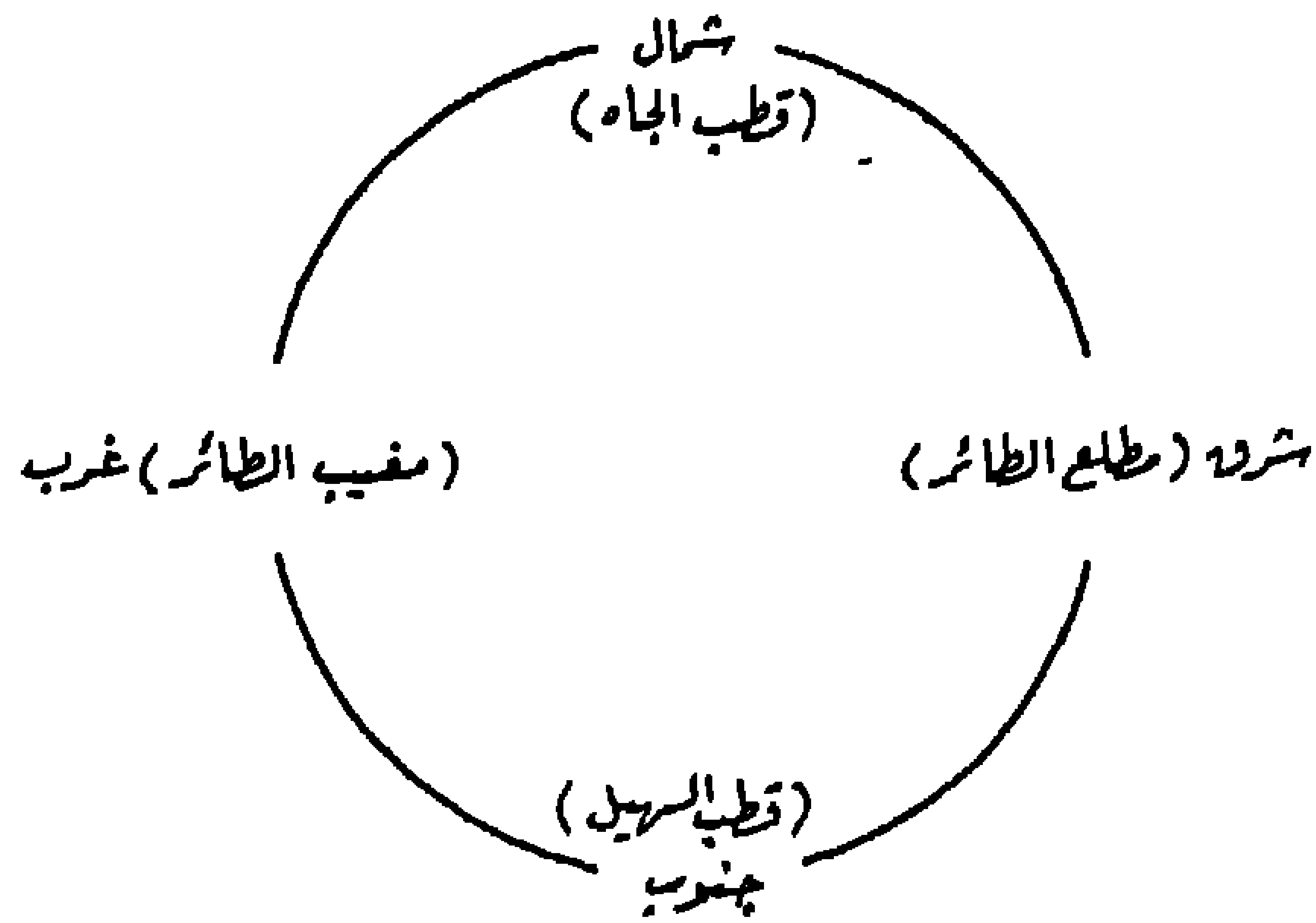
## (ج) تقسيم وردة الرياح العربية عند ابن ماجد

قلنا ان ابن ماجد قد قسم دائرة الأفق حسب الجهات الأصلية الى ٣٢ قسما هى المعروفة عنده بالأخنان ، وهو نفس تقسيم الحقة أو بيت الأبرة كذلك ، والواضح أن تقسيم وردة الرياح العربية كما ذكرنا فى أول الكلام كان أسبق من تقسيم البوصلة .

---

(١) ابن ماجد فى كتاب الفوايد .

وتقسيم وردة الرياح العربية يتبع مطالع أو مغارب نجوم معينة . أما الشمال فيشير اليه النجم القطبي الذي هو « الجاه » عند ابن ماجد . أما الجنوب فيشير اليه قطب السهيل أو نجم السهيل . وأما الشرق فيشير اليه مطلع الطائر وأما الغرب فيشير اليه مغيب الطائر أو غروبه ، فلو تصورنا هذه الجهات الأصلية الأربعة في الشكل التالي بنفس هذا الترتيب على الدائرة لكانت الأخنان أو المنازل بين كل جهتين أصليتين متتابعتين هي على النحو التالي :




( أ ) **فبين الشمال والشرق** ، نجد المنازل الآتية على الترتيب :

قطب الجاه ـ مطلع الفرقدين ـ مطلع النعش ـ مطلع الناقة ـ مطلع العيوق ـ مطلع الواقع ـ مطلع السماك ـ مطلع الثريا ـ مطلع الطائر .

(ب) **وبين الشرق والجنوب** ، نجد المنازل الآتية على الترتيب :

مطلع الطائر ـ مطلع الجوزاء ـ مطلع التير ـ مطلع الاكليل ـ مطلع العقرب ـ مطلع الحمارين ـ مطلع السهيل ـ مطلع السلبار ـ قطب السهيل .

(جـ) **وبين الجنوب والغرب** ، نجد المنازل الآتية على الترتيب :

قطب السهيل ــ مغيب السلبار ــ مغيب السهيل ــ مغيب الحمارين ــ مغيب العقرب ــ مغيب الاكليل ــ مغيب التير ــ مغيب الجوزاء ــ مغيب الطائر .

( د ) **وبين الغرب والشمال** ، نجد المنازل الآتية على الترتيب :

مغيب الطائر ــ مغيب الثريا ــ مغيب السماك ــ مغيب العيوق ــ مغيب الواقع ــ مغيب الناقة ــ مغيب النعش ــ مغيب الفرقدين ــ قطب الجاه .

وعلى هذا الأساس يكون عدد المنازل ٢٨ منزلة يمثلها مطلع أو مغيب هذه النجوم ويكون عدد الأخنان المحصورة بينها ٣٢ خنا .

ويمكننا أن نرتب هذه المنازل والأخنان أيضا على النمط التالى :

**قطب الجـــاه**

| | |
|---|---|
| مطلع الفرقدين | مغيب الفرقدين |
| مطلع النعش | مغيب النعش |
| مطلع الناقة | مغيب الناقة |
| مطلع العيوق | مغيب العيوق |
| مطلع الواقع | مغيب الواقع |
| مطلع السماك | مغيب السماك |
| مطلع الثريا | مغيب الثريا |
| مطلع الاكليل | مغيب التير |
| مطلع التير | مغيب الاكليل |
| مطلع العقرب | مغيب العقرب |
| مطلع الحمارين | مغيب الحمارين |
| مطلع السهيل | مغيب السهيل |
| مطلع السلبار | مغيب السلبار |

**قطب الســـهيل**

وجدير بالذكر ان مفهوم القطب الشمالي السماوى والقطب الجنوبي السماوى كان معروفا قبل ابن ماجد بزمن طويل فيقول المسعودى فى مروج الذهب ( ٩٤٣ م ) قبل ابن ماجد بستة قرون ما نصه : « ففلك البروج يسمى الفلك الكلى وبه يكون الليل والنهار لأنه يدير الشمس والقمر وسائر الكواكب من المشرق الى المغرب فى كل يوم وليلة دورة واحدة على قطبين ثابتين أحدهما مما يلى الشمال وهو قطب بنات نعش والآخر مما يلى الجنوب وهو قطب سهيل » .

ونفس هذا التقسيم تقريبا لبيت الأبرة العربية لا يزال يستعمل حتى الآن على الساحل الشرقى لأفريقيا . وقد نشر ادوار ستير E. Steere فى عام ١٨٩٤ ملخصا لوردة الرياح المستعملة فى اللغة السواحلية ترجمتها كما يلى :

**جـــاه**

| **فرجادى مطلعى** | **فرجادى مغاربى** |
|---|---|
| نعش | نعش |
| نجـــر | نجـــر |
| لواجر | لواجـــر |
| ديابو | ديابو |
| سماك | سماك |
| سريا | سريا |
| **مطلعى** | **مغـــاربى** |
| سوسا | سوسا |
| تيرى | تيرى |
| لكاديرى | لكاديرى |
| حمارينى | حمارينى |
| شيلى | شيلى |
| سنوبارى | سنوبارى |

**قطبـــو**

وهو نفس تقسيم بوصلة ابن ماجد تقريبا وبنفس النجـــوم ولكن مختصرة مع تحريف فى بعض أسماء النجـــوم يوافق لغة السواحلية . ويلاحظ أنهم يرمزون للقطب الجنـــوبى بكلمة قطب فقط ، كما أن نفس التقسـيم أيضا لا يزال متبعا عند ملاحى جزر المديف واللكاديف بالمحيط الهنـــدى أيضا حتى اليوم وهو تقسيم يختلف عن تقسيم وردة الرياح عند الأوروبيين لسبب بسيط هو أنه مبنى على النجوم الملاحية الشهيرة للمحيط الهنـــدى وهى اضبط النجوم بالنسبة لملاحى هذه المناطق .

وحتى عهد قريب جدا كان هذا التقسيم هو المتبع فى الملاحة فى البحر الأحمر بعامة ، ويقول العالم الطبيعى النمساوى كلوتزينجر الذى عاش سنوات طويلة فى القرن الماضى فى مصر يعمل طبيبا فى الحجر الصحى بالقصير وجاب صحراواتها وكتب عن جيولوجيتها فى كتاب قيم له (١) ترجم الى اللغة الانجليزية ما يلى عن الملاحة فى البحر الأحمر فى ذلك الوقت .

« وتحمل المراكب الكبيرة بوصلات ملاحية عليها أسماء النجوم لكن الربابنة لم يكونوا يستعملونها كثيرا لصفاء الجو ، بل كانوا يعتمدون على مطلع نجوم معينة فى الملاحة ويهتدون الى الطريق بهذه النجوم ليلا وبالمعالم الأرضية كالجبال وما شابهها نهارا . . والى جانب النجم القطبى كانت هناك نجوم أخرى يهتدى بها الربابنة ، فلو أرادت سفينة أن تأخذ الاتجاه الجنوبى الشرقى على سبيل المثال فان مطلع العقرب يحدد هذا الاتجاه ويسير عليه الربان . . » .

ويضيف كلوتزنجر قوله :

---

(١) C. B. Klutzinger : Upper Egypt, its people and products etc.. 1878.

« وينقسم قرص البوصلة تبعا لهذا النظام الى ٣٢ قسما بخطوط تمر بالمركز والخط الأساسي منها يمر بنقطتي الشمال والجنوب ويقسم النصف الشرقي عن النصف الغربي لقرص البوصلة . وعلى النصف الشرقي دونت مطالع النجوم وعلى النصف الغربي مغاربها ، وهناك خط رئيسي آخر يمر بين نقطتي الشرق والغرب يحدد مطلع الشمس ومغيبها في الاعتدالين وبعد ذلك تأتي أسماء النجوم الآتية على القرص من الشمال الى الجنوب :

١ ـ الجاه ( النجم القطبي الشمالي ) .
٢ ـ الفرقد ( من نجوم الدب الأصغر ) .
٣ ـ النعش .
٤ ـ الناقة ( الذي يعرف باسم Cassiopeia ) .
٥ ـ العيوق (Capella) .
٦ ـ الواقع (Lyra) .
٧ ـ الأحيمر أو السماك .
٨ ـ الثريا (Pleiade) .
٩ ـ الجوزاء (Orion) .
١٠ ـ المرزم (Sirius) .
١١ ـ الاكليل .
١٢ ـ عقرب (Scorpio) .
١٣ ـ حمارين .
١٤ ـ سهيل (Canopus) .
١٥ ـ سلبار أو سندبار .
١٦ ـ قطب ( يعني قطب السهيل ) أي نجم القطب الجنوبي» .

والنجمان الأخيران لا يريان خارج المنطقة المدارية .

وكل خن من أخنان الحقة عند ابن ماجد يمثل ٧ أصابع ، وعلى ذلك تكون الدائرة العربية عنده مقسمة الى ٢٢٤ أصبعا أو درجة ،

بينما الدائرة عند بطليموس وعند الافرنج تنقسم الى ٣٦٠° وتقسيم ابن ماجد هذا يلائم الملاحة فى المحيط الهندى بشكل واضح ولا يزال يستعمل كما ذكرنا فى أرجاء كثيرة من هذا المحيط بواسطة ملاحى الشراع .

على أن هذه الأخنان تعين الملاح على تعرف طريقه فى البحر الطليق ويحذر ابن ماجد من الاعتماد عليها فى المضايق الخطرة فيقول :

**اياك أن تجرى عليها بالنظـــر        فى موضع فيه مضيق وخطـر**

وجدير بالذكر أن العرب لم يعرفوا الانحراف المغناطيسى للبوصلة الا فى القرن الثامن عشر الميلادى وذلك عن الأوربيين .

## ( د ) وحدات القياس عند ابن ماجد

قلنا ان الدائرة عند ابن ماجد تنقسم الى ٢٢٤ أصبعا ، والأصبع وحدة قياس ارتفاع النجم القطبى أو النجوم القريبة منه ، ويقابل الدرجة فى تقسيمنا المعاصر . وهو فى الواقع جزء من قوس دائرة ويسمى القوس الذى يقيس هذا الارتفاع « بالترفا » ويقـــول ابن ماجد « وكل أصبع يسمى ترفا » .

ولاصطلاح « الترفا » عند ابن ماجد معنيان فى الواقع أحدهما هو المكافىء للأصبع كما ذكرنا (بالنسبة لارتفاع النجم) ، وأما الاصطلاح الثانى فهو المكافىء لتغير خط العرض بمقدار أصبع واحد .

**ومعنى ذلك اننا لو فرضنا أن مركبا يتجه من الجنوب الى الشمال من نقطة ثابتة فقطع مسافة تعادل تغير ارتفاع النجم القطبى ( وبالتالى خط العرض ) بمقدار أصبع واحد لكانت هذه المسافة هى الترفا .**

أما كلمة زاما فهى وحدة قياس المسافة المطلقة فى البحر وتعادل المسافة التى تقطعها المركب الشراعى فى الأحوال المتوسطة فى خلال

٣ ساعات . اى ان هناك صـــلة وثيقة أيضا بين **الاصبع والترفا والزاما .**

والأخيرة تعادل مسيرة ١٢ ميلا بحريا على اعتبار أن المركب تسير بسرعة ٤ عقدة أى ٤ ميل بحرى فى الساعة فى الأحوال المعتادة .

ولما كانت الدائرة عند بطليموس والغربيين تنقسم كما قلنا الى ٣٦٠ درجة والدائرة العربية لملاحى المحيط الهندى تنقسم الى ٢٢٤ أصبعا .

فحينئذ يكون الأصبع مكافئا ل ٣٧/ ١° ( على التقسيم الغربى للبوصلة البحرية ) .

ولما كانت الدرجة عند خط الاستواء تعادل ٦٠ ميلا بحريا .
فالاصبع = ٩٧ ميلا بحريا .

والميل البحرى كما نعلم يعادل = ١٨٥٢ مترا .

والاعتبار الملاحى عند ابن ماجد يتلخص فى أمرين نجملهما فيما يلى :

**١ ـ قياس المسافة التى تقطعها المركب بين نقطتين .**

**٢ ـ قياس زاوية السير وخط العرض .**

أما خط الطول عند ابن ماجد فلم يكن له اعتبار فى الواقع لان هذا يعتمد على قياس الزمن بالكرونومتر والأخير لم يكتشف الا فى القرن الثامن عشر .

واليك بعض النتائج التى يمكن استخلاصها من قياسات ابن ماجد كما حسبها العالم دى سوسير :

١ ـ اذا ظهر نجم الفرقد ( وهو النجم ب من نجوم الدب الأصغر كما يعرف عند الأوربيين حديثا ) على ارتفاع أصبع واحد فوق

الأفق ، ( أى على ارتفاع ٥١/٣٧ ) فالراصد على هذا الأســاس يكون على خط عرض ٦ درجة جنوب خط الاستواء .

٢ ــ واذا ظهر النعش بمقدار ٣/٤ اصبع فوق الأفق يكون الراصد على خط عرض ٥٢٦ جنوبا .

٣ ــ واذا ظهر الجاه ( النجم القطبى ) على ارتفاع ١٧ أصبع فوق الأفق يكون الراصد على خط عرض ٣٨ /٥٣٥ شمالا .

أما « الباشي » فكلمة لم يستدل على أصلها حتى الآن وان كان معناها قد شرحه ابن ماجد نفسه .

ويقصد بهذه الكلمة ارتفاع نجم معلوم بالنسبة للنجم القطبى حينما يكون الأخير على أقل ارتفاع ممكن فوق الأفق . وعلى سبيل المثال هناك باشي للفرقدين ومعلوم أن هذين النجمين لهما ستة مواقع أثناء دورانهما حول القطب ، فارتفاع الفرقدين بالنسبة للنجم القطبى أثناء وجوده على أقل ارتفاع ممكن فوق الأفق هو باشي الفرقدين . ويعدد ابن ماجد « باشيات » النجوم الآتية بتفصيل كبير : الزبان ــ النعائم ــ سعد بلع ــ المقدم ــ الشرطين ــ الدبران ــ

هذا وقد تكلمنا سابقا بما فيه الكفاية عن وردة الرياح وبيت الأبرة ولا نعتقد أن ابن ماجد هو مخترع البوصلة البحرية بل كانت معروفة عند العرب قبله وان كان مخترعها الأصلى أو بتعبير ادق أول من طبقها للملاحة البحرية من العرب غير معروف .

وانما يعزى لابن ماجد ادخاله تطبيقا أو تحسينا جوهريا على بيت الأبرة وهو (( **تجليس المغناطيس على الحقة** )) على حد تعبيره . **ومعنى ذلك فى رأينا هو تثبيته الابرة الممغنطة فوق سن من الوسط لتتحرك حركة حرة فوق قرص وردة الرياح .**

ويؤكد ابن ماجد فى مواضع كثيرة من مؤلفاته ضرورة ضبط القياس وذلك بأن « يكون بين الأفق والماكداك ( الخشـــب ) قيد

شعرة « كحد السكين يراه الناظر ، وكذلك بين النجم والماكداك قيد شعرة » .

ولابن ماجد فوق ذلك رسالات أو مقالات فى حساب الميقات واختلاف السنة القمرية والشمسية وحساب النيروز العربى والسلطانى وعدة الشهور القبطية والرومية وما اليها مما يدل على سعة وطلاعه وبراعته فى الحساب . وقد سبق أن ألمحنا لذلك عند الكلام على « الحاوية » .

ولا يسعنا فى ختام هذا البحث الا أن نورد هنا شهادة مؤرخ برتغالى قديم هو خودى باروش ممن أرخوا لرحلة فاسكو دى جاما فى كتابه الكبير عن « آسيا » يعترف فيها فى الفصل المتعلق « بخصوبة جزر البحرين » بأن **« جميع ما كتب عن هذه المنطقة فى كتبنا الجغرافية** Geographia Universalis **مستمد من المعلومات الجغرافية العربية والفارسية والتى نملك منها خمسة مؤلفات منها مؤلفين عربيين وثلاثة بالفارسية »** .

# الفصل الخامس

# مصطلحات علمية

آثرنا الا نختتم هذا الكتاب دون ذكر ثبت لبعض المصطلحات العلمية التى ورد ذكرها فى مصنفات ابن ماجد . ولما كنا مقيدين بحجم معين الكتاب فسوف نقتصر على ذكر المهم من هذه المصطلحات ورغم ذلك فلا يمكن اعتبار هذه القائمة كاملة بحال من الأحوال . ولكى تكون كذلك فانها تتطلب جهدا وعملا مستقلا يخرج بالكتاب عن الهدف المقصود منه . ويجدر التنويه كذلك بأن ابن ماجد قد استخدم كثيرا من المصطلحات الملاحية المشتقة من لغات أخـــرى كالهندية والفارسية ، كما لجأ فى أحيان كثيرة الى استخدام مصطلحات دارجة ربما قد شاع استعمالها بين ربابنة المحيط الهندى فى ذلك الوقت ، ولا يزال بعضها يستعمل بين ربابنة الشراع حتى اليوم فى جزر ذلك المحيط .

وقد رأينا من الأوفق أن نقسم هذه المصطلحات الى أقسام ثلاثة حسب الآتى :

(أ) مصطلحات ملاحية .

(ب) تحقيق لبعض المواقع الجغرافية والتاريخية التى وردت فى مصنفات ابن ماجد .

(جـ) بيان بأسماء النجوم الملاحية والمجاميع النجمية ومرادفاتها فى اللغات الأوربية .

ورأينا من الأوفق كذلك واستكمالا للفائدة أن نضمن المصطلحات الملاحية بيانا بأنواع السفن الشائعة التى كانت تتكون منها الأساطيل العربية فى القرون الوسطى ، وبيانا آخر بأسماء مراتب البحارة .

## ( أ ) المصطلحات الملاحية

« **الأسطول** » وهو لفظ يونانى قديم من (Stolos) استعمله العرب ويرادف لفظ « **العمارة** » ويقول ابن خلدون فى مقدمته « قيادة الأساطيل من مراتب الدولة وخططها فى ملك المغرب وافريقية مرؤوسة لصاحب السيف وتحت حكمه .. » .

ويراس الأسطول « **أمير البحر** » أو امير الماء وقد حرفت هذه الكلمة عند الافرنج الى « الأميرال » أو « الأدميرال » وهى ترادف أيضا كلمة « الملند » عندهم كما ذكر ابن خلدون أيضا .

وكانت السفن العربية تبنى فى « **دار الصناعة** » وقد استخدم الافرنج هذه الكلمة فعرفت بالاسبانية Darcinah ثم حرفت فى التركية الى ترسانة أو ترسخانة .

وقد عرفت دور الصناعة العربية البحرية فى القرون الوسطى فى ثغور طرابلس وبيروت والقيروان وسوسة والاسكندرية ودمياط كما بنى عرب الأندلس فى المغرب دورا للصناعة فى دانية وشلطيش ولقنت وملقا وفى سبتة وطنجة ورباط وفى ميناء « سلا » على المحيط الأطلسى .

اما فى البحار الجنوبية فقد اشتهرت موانى القلزم ( السويس ) وعيذاب والبصرة وهرمز وسيراف وعمان .

واستخدم العرب من أنواع الأخشاب فى صنع المراكب : اللبخ وهو اعلى أصناف الخشب والسنط والسنديان والجميز والنخيل كما استوردوا اخشابا أخرى من البندقية ومن الأناضول ، ويرد فى ابن ماجد ذكر استعمال خشب الساج أحيانا فى صنع المراكب .

## انواع السفن العربية :

يقول ابن خلدون أيضا عن السفن انها « أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه فى الماء بقوادمه وكلاكله ليكون ذلك الشكل أعون لها فى مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التى للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما فى الأساطيل » وليس أبدع من هذا الوصف فى الواقع لجسم السفينة الانسيابى الخطوط الذى يقلل من مقاومة الماء لحركتها .

والفاظ الخشب والقارب والسفينة والمركب والفلك الفاظ عامة على الأغلب . وقد ذكر ياسين الحموى ( ١٩٤٧ ) وعلى محمود فهمى ( رسالة دكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٥٣ بعنوان القوة البحرية للمسلمين فى شرقى البحر الأبيض المتوسط بين القرن السابع والقرن العاشر الميلادى ) بيانا بأنواع السفن العربية التى ورد ذكرها فى كتب الرحالة والمؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى من أمثال المقدسى وابن بطوطة وابن خلدون وابن جبير ، نذكر من بينها ما يلى :

١ ـ العدولية : نسبة الى قرية فى البحيرة أو الى قبيلة من قبائل العرب .

٢ ـ السفينة : سميت كذلك لسفنها الماء أى قشرها لوجه الماء .

٣ ـ الخلية : سفينة عظيمة يتبعها زورق صغير .

٤ ـ القرقور : سفينة تحمل الزاد والكراع للأسطول واصلها اسبانى من « كاراكا » وربما أخذنا نحن عنها « الكراكة » .

٥ ـ الشينى : من الشونة وهى المركب المعد للجهاد فى البحر وكانت من اهم قطع الأسطول الاسلامى وعليها أبراج وقلاع وتحمل فى المتوسط نحو ١٥٠ رجلا .

٦ ـ الطراد : سفينة حربية أكثر شبها بالبرميل تستعمل فى نقل الخيول والفرسان وقد استعملها الافرنج وأطلقوا عليها اسم Tarida

٧ ـ الحزاقة : ضرب من السفن فيها مرامى للنيران وهى خفيفة الحركة .

٨ ـ الشلندى : مركب حربى كبير مسطح لحمل المقاتلة والسلاح وهى معربة عن اللاتينية Chelandium ، وتعرف عند الأتراك باسم ماعونة وقد اقتبسنا هذا اللفظ الأخير فى اللغة الدارجة .

٩ ـ الجلاسة : وهى معربة من كلمة Galeasse ، وهى من السفن الحـــربية الكبيرة تسير بالشراع والمجداف وهى أثقل من الشونة .

١٠ ـ الغراب : وكانت معروفة عند الرومان والقرطاجنيين وهى مركب عريض مرتفع الجوانب مقوس المقدمة .

١١ ـ البطسة : سفينة عظيمة الحجم لها قلوع كثيرة ولها أسطح عالية وطبقات .

١٢ ـ المسطح : وهى الأخرى سفينة عظيمة تجرى خلف السفن الصغيرة .

١٣ ـ الحمالة : مركب حربى تحمل الزاد والرجال وغلمان الخيالة وصناع المركب .

١٤ ـ الهورى : وهى من أسماء السفن التى أخذها العرب عن الهند وتستعمل فى نقل البضائع الخفيفة .

١٥ ـ البارجة : سفينة كبيرة مكشوفة من سفن القتال معربة عن الهندية .

١٦ ـ السنبوق أو السنبوك أو الصنبوق : فى الأصل مركب صغير يتبع المراكب الكبيرة وهى معربة عن الفارسية وتطلق اليوم على السفن الشراعية المتوسطة الحجم ذات القلعين . وقد ورد استعمالها كثيرا فى مؤلفات الرحالة والجغرافيين العرب فى القرون الوسطى .

١٧ ـ الصندل : وأصلها فارسى وتعنى أصلا الزورق أو اللنش الذى يجلب الماء والمؤن للسفن الكبرى وقد اقتبسنا هذه الكلمة فى مصر لصنادل النيل المصنوعة من الحديد التى تنقل الأحجار والبضائع .

**مراتب البحارة :**

وقد جاء ذكر بعضها فى مقدمة ابن خلدون وفى غيره من كتب التراث كما خصص لها الشيخ أبو الفضل العلامى فصلا فى كتابه « اكبرنامة » الذى كتبه حوالى عام ١٥٩٥ م فى عهد الامبراطور أكبر . والواقع أن طاقم المركب كان يختلف حسب سعة المركب . واغلب الكلمات الدالة على مراتب البحارة من أصل هندى أو فارسى وفيما يلى بعض هذه المراتب :

١ ـ أمير البحر : قائد الأسطول .

٢ ـ ناخده أو ناوخده أو نواخده : وهى كلمة فارسية تعنى فى الأصل صاحب المركب وتطلق جوازا على الربان .

٣ ـ اشتيام وجمعه اشاتمة ( ويقول ابن خرداذبة اشتيامو البحر أيضا ) : وهى فارسية وتعنى الربان أيضا ( أنظر المعرب للجواليقى ) .

٤ ـ المعلم : لفظ عربى يطلق على القبطان أو ربان المركب وشاع استعماله فى اللغات السواحلية والجاوية وغيرها فى المحيط الهندى .

٥ ـ التنديل : رئيس الخلاصى أو البحارة وهى كلمة هندية .

٦ ــ خاروة : أيضا هندية وتعنى البحارة .

٧ ــ السرهنك : نائب القبطان ( هندية ) .

٨ ــ ناخداخشب : متولى توزيع الخشب للوقود على الركاب ويشرف على تحميل وتفريغ السفينة .

٩ ــ بهندارى : هندية وتعنى متولى التموين على المركب .

١٠ ــ قرانى : كاتب الحسابات على المركب .

١١ ــ سكانجير : ما نعرفه اليوم باسم ( الضومنجى ) وأصلها هندى .

١٢ ــ بنجرى أو فنجرى : بحار يصعد على الصارى ليرى الأرض ويرقب العواصف وحالة الجو .

١٣ ــ الجمنتى : نوع من البحارة يفرغ السفينة من الماء المتجمع فى قاعها .

١٤ ــ صاحب السكان : متولى الدفة .

١٥ ــ النوتى : الملاح بعامة .

١٦ ــ المنادى : مبلغ أمر الربان الى الملاحين بصوته .

**أدوات السفينة وأجزاؤها :**

القلع = الشراع .

المجداف = ما تجدف به السفينة مأخوذ من جدف الطائر اذا رد جناحيه للخلف .

المردة = خشبة تدفع بها السفينة .

السكان = دفة السفينة .

الأنجر أو الأنكر = مخطاف يثبت السفينة فى القاع وهى كلمة معربة عن اليونانية « لنكر » ويذكر ابن ماجد الأنجر الصينى وهو بخلاف العــــربى الذى كان يتركب من ثقل من الحجــــارة أو الرصاص مثبت فى دعائم من الخشب .

الدقل = سهم السفينة .

الجؤجؤ = صدر السفينة .

الكوثل = ذنب السفينة .

دبوسة المركب = مقدمتها .

القلس = حبل السفينة من الليف وهو ضخم متين .

الدسار = خيوط تسد بها ألواح السفينة .

الخرز = ثقوب تظهر بين الألواح من طول البقــــاء فى الماء وبفعل الحيوانات البحرية .

البلد = حبل به ثقل لسبر الأعماق .

النول = جعل السفينة ( النولون ) وهى كلمة يونانية الأصل تعنى ما يدفعه المسافر الى المركب من الأجر .

الحقة أو الديرة = بيت الأبرة أو البوصلة العربية ويثبت فى وسطها أبرة ممغنطة تتحرك على محور . وكانت فى العصور السابقة تطفو فوق قطعة من الخشب أو الفلين فى وعاء به ماء كما طرقت على شكل السمكة . والأغلب أن ابن ماجد قد ثبت المغناطيس على محور اذ يقول « ومن اختراعنا فى علم البحـــر تركيب المغناطيس على الحقة بنفسه ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع فى كتاب » .

الفانوس = المصباح .

الخن = القوس على الديرة بين مطلعى نجمين أو مغيبهما ويقول ابن ماجد انه مقتبس من أخنان المركب وأصل الكلمة فارسى .

المغناطيس = هو الأبرة المغناطيسية المثبتة فى الحقة وتتحرك على محـــور .

مصطلحات فى تفصيل قلع المركب = الكنجة ـ الجوس ـ الواسج ـ الح ـ الرك ـ الفرمن ـ السيك ـ الجامور .

**مصطلحات بحرية :**

ازيب = ريح جنوبية .

استقلال ( النجم ) = وصوله الى اعلى ارتفاع فوق الأفق .

اسطرلاب ( اصطرلاب ) = كلمة يونانية تعنى آلة قياس زاوية ارتفاع الأجرام فوق الأفق وهى عبارة عن قرص معدنى مقسم الى ٣٦٠ درجة ويعرف بميزان الشمس ومن اجزائه **الدلاقة** : وهى حلقة يعلق بها ثم **العروة** وهى الداخلة فيها ثم **الكرسى** وهو الجزء البارز من المخيط ثم **العضادة** وهى المسطرة التى تدور عــلى ظهره منطبقة عليه ومثبتة فى المركز ثم **الهدفتان** وهما الصنجتان الصغيرتان القائمتان على العضادة على زوايا قائمة فى كل واحدة منها ثقب يقابل ثقب الأخرى ، ثم قوس الارتفاع وهو المرسوم على ظهره المجزاة ثم منطقة البروج وهى الدائرة المقسومة باثنى عشر قسما غير متســـاوية مكتوب فيما بينها أسماء البروج . ولاستعماله عاق الاصطرلاب بيمينك مستقبل الشمس بجهة المشرق وحرك العضادة حتى يدخل شعاع الشمس من ثقب الهدفة العليا ويخرج من ثقب السفلى ويصير ظلها ساترا لجميع العضادة السفلى فما وقع عليه طرف العضادة من الأجزاء فهو الارتفاع .

اشائر = جمع اشارة وهى العلامات التى يستدل بها الملاح على طريقه فى البحر من معالم جغرافية أو فلكية أو اخرى تتعلق بطبيعة البحر أو القاع وكذلك الطيور والأسماك وما اليها .

اصبع = وحدة تدريج دائرة البوصلة ويوازى درجة واحـــدة وسبعة وثلاثين دقيقة . كما يستخدم كوحدة لقياس قوس ارتفاع النجم فوق الأفق .

افرنج = بمعنى البرتغال أو البرتقال أو الفرتقال .

الباب = باب المندب أو باب المندم .

باشى = ارتفاع نجم بالنسبة للنجم القطبى ( الجاه ) وهو على اقل ارتفاع فوق الأفق .

برور = جمع بر بمعنى ساحل .

بندر = مكان .

بلستى = لوح خشبى بوسطه خيط عليه عقد يرصد به ارتفاع النجوم .

ترفا أو ترفى = تعادل اصبعا واحدا من قياس الارتفاع أو المسافة التى يتغير فيها خط العرض بمقدار أصبع واحد وهى كلمة فارســـية .

تقاصير = أماكن رملية ضحلة غير ملائمة لمرور السفن فوقها ويسميها الادريسى اقاصير .

جلسة = التهيؤ لرصد ارتفاع النجم .

حقة أو حق = بوصلة .

خشب = تعنى سفينة كما تعنى آلة قياس أو رصد النجوم وجمعها خشبات .

خن = جزء من ٣٢ جزء من اقسام البوصلة ( انظر الخن ) أيضا .

خور = خليج صغير .

دبور = الرياح الموسمية التى تهب من الغرب لاشرق .

ديرة = طريق ملاحى .

ذبان = وحدة لقياس الارتفاع تساوى ٤ أصابع .

رق = شعب .

رهمانج أو رهمانى أو رحمانى أو رمانى = كلمة فارسية مغربة تعنى كتاب الطريق ( من راه = طريق ونامه كتاب ) وتستعمل بمعنى المرشد الملاحى .

زام = كلمة هندية وهى وحدة لقياس المسافة المطلقة فى البحر وتعادل مسيرة ٣ ساعات بالشراع أى حوالى ١٢ ميلا بحريا .

زباد = طيب معروف يؤخذ من سنور الزباد وهو حيوان من فصيلة القط يعيش فى جاوة ويسمى الطيب أيضا بالزهم .

زحن = قيظ .

شعب = حاجز مرجانى .

صبا = الرياح الشرقية وتطلق على الرياح الموسمية الشرقية وهى ضد الدبور .

ظحلة = ضحلة وهى القاع القريب غير الملائم للملاحة .

ظهر = ضد بطن وهو القاع الساحلى المرتفع .

غبة = جونة .

غلق البحر = قفله بالنسبة للملاحة فى مواسم معينة غير ملائمة للسفر .

فشت = أتول مرجانى وهو الحاجز المرجانى الدائرى الذى يضم بداخله لاجونا أو بحيرة ضحلة .

قياس = رصد ارتفاع النجم فوق الأفق .

كوس = الرياح الموسمية الغربية .

كمال = آلة لقياس ارتفاع النجم تشبه البلستى ويعتمد تقيمها على جيب تمام زاوية الرصد .

مجرى = طريق ملاحة بمعنى مرحلة بحرية .

مد = ارتفاع مستوى سطح البحر بفعل جاذبية القمر وضده الجزر . والمد أيضا بمعنى التيار البحرى وقد شاع استعمال الكلمة بالمعنى الأخير عند مؤلفى العصور الوسطى العرب .

مراتب النجوم = تقسيمها حسب درجة لمعانها الى ست مراتب منذ عهد بطليموس .

مرسى = ميناء .

مرق = اللجوء الى الشاطىء ومنها ارقاق .

مل = ساحل أوسيف ومنه السيف الطويل ( ساحل الزنج ) .

مغزر = الخروج للبحر الطليق أو الابتعاد عن الشاطىء ومنها اغزار .

مغلق = قفل البحر فى الموسم غير الملائم للسفر بالشراع .

نتخ أو ندخ = تعرف على الطريق الملاحى بمعالم جغرافية أو ملاحية لضبط الطريق وبخاصة عند الدخول فى الموانى واصل الفعل ندخ بمعنى صدم ومنه البدخة أو النتخة .

موسم = موسم السفر بالشراع بالنسبة للرياح الموسمية .

نيروز = بدء السنة عند الفرس وهو أول دخول الشمس برج الحمل ويوافق ٢١ مارس تقريبا .

## (ب) تحقيق بعض المواقع الجغرافية والتاريخية
## التى ورد ذكرها فى مصنفات ابن ماجد

**أولا ـ البحار :**

١ ـ بحر القلزم العرب ( البحر الأحمر ) .
٢ ـ بحر الهند أو البحر الكبير ( المحيط الهندى ) .
٣ ـ بحر فارس ( الخليج العربى أو الفارسى ) .
٤ ـ البحر المحيط ( بحر الصين الجنوبى ) .
٥ ـ بحر المهراج بالصين .

**ثانيا ـ الجزر :**

١ ـ سقطرة او سوقطرة او سوقطرى = جـــزيرة على مدخل خليج عدن .
٢ ـ القمر أو مدكسكر = ( جزيرة مدغشقر ) .
٣ ـ الفال أو الفالات = جزر اللكاديف .
٤ ـ ديبجات = جزر الملديف .
٥ ـ خوريا موريا = جزر فى بحر العرب الى الجنوب الشرقى من ساحل عمان .
٦ ـ جزر انجزيجا ودمونى وملالى = من مجموعة جزر كومور على خط ١٢° جنوب خط الاستواء بالمحيط الهندى .
٧ ـ جزر هندرابى والبحرين = فى الخليج العربى أو بحرفارس .
٨ ـ جزيرة سيلان أو سرنديب جنوب شرق الساحل الهندى .
٩ ـ جزيرة ناكبارى أو ناجبارى = نيكوبار .

١٠ ـ جزيرة سرجل = فى جنوب ارخبيل نيكوبار .

١١ ـ جزيرة فلوسنبلين = بين السيام ونيكوبار .

١٢ ـ جزيرة فلوفيننج = فى شمال سومطرة .

١٣ ـ جزيرة شمطرة = ج . سومطرة .

١٤ ـ ملاقة أو ملعقة أو معلقة = السيام .

١٥ ـ جزيرة الملي = جاوه ( أو الواق واق ) .

١٦ ـ جزيرة العرب = شبه الجزيرة العربية .

١٧ ـ جزر : ملوان ـ واسينى ـ قنبلو ـ الخضراء ـ زنجبار ـ وميزى وتقع أمام ساحل الزنج فى شرقى افريقيا .

١٨ ـ جزيرة فلولو = وتقع غربى سومطرة .

**ثالثا ـ الرءوس المشهورة :**

١ ـ راس الحد = جنوب عمان .

٢ ـ راس الجمجمة = فى جنوب شبه الجزيرة العربية .

٣ ـ راس الثور = باليمن على ساحل البحر الأحمر .

٤ ـ راس الفيل = فى جزيرة سيلان .

٥ ـ راس مدور = وهى المعروفة باسم ديو وتقع فى شبه جزيرة جوزرات بالهند .

٦ ـ راس الملح = فى شمال جزيرة مدغشقر .

٧ ـ راس جردفون على ساحل الصومال فى مقابلة جزيرة سوقطرة .

**رابعا ـ السواحل والثغور المشهورة التى ندخلها ابن ماجد :**

١ ـ الساحل الأفريقى وعليه الأقاليم الآتية من الجنـــوب الى الشمال :

(أ) **اقليم سفالة** = وعليه ثغور : كلوانى ـ سفالة ـ مستبيجى ( ملبيونى ) ـ سنجاجى ـ كلوة .

(ب) **بر الزنج** = وعليه ثغور : منبسة ـ ملندى ـ كتاوه ـ براوه .

(جـ) ساحل الهيراب والسيف الطويل ( الصومال وبربر ) = وعليه ثغور مقدشوه ـ جرويل ـ مرونى ـ حافونى .

٢ ـ سواحل شبه الجزيرة العربية = وعليها ثغور : جدة ـ حمضة ـ الحديدة ـ موشج ـ عدن ـ الأخوار ثم ساحل عمان وعليه ثغور ظفار ـ الأطواح ـ غبة الحشيش ـ رأس ســارق ـ قلهات .

٣ ـ سواحل خليج فارس وعليه ثغور جلفار ـ سيراف ـ هرموز أو جرون .

٤ ـ ساحل الدكن ( جوزرات ) وعليه ثغور : ديو ـ كمباية ـ دامان ـ سومنات ( سوراث ) مهايم ـ دابول ـ مكران .

٥ ـ ساحل المليبار ( الهند ) وعليه ثغر كاليكوت ـ هيلى .

٦ ـ ساحل شولى أو صولى أو الشوليان وهو ساحل كروماندل ـ

٧ ـ سواحل الملايو واندنوسيا وعليها ثغور : قفاصى ـ تنبورك ـ قاسلار ـ سندا وأرخبيل دنج دنج فى اندنوسيا .

## (جـ) النجوم الملاحية ومرادفاتها

| | |
|---|---|
| النسر الواقع | Vega |
| الدب الأصغر | Ursa minor |
| الدب الأكبر | Ursa major |
| الثـــور | Taurus |
| السماك الأعزل | Spica |
| الشعرى اليمانية | Sirius... |
| العقـــرب | Scorpion |
| الرجـــل | Rigal... |
| قلب الأســـد | Regulus |
| الشعرى اليمانية | Procyon |
| الجبـــار | Orion... |
| الفرس الأعظم | Regasus |
| فرساوس | Perseus |
| المرفق | Mirfak |
| المرقب | Markab |
| الأسد | Leo |
| الحمـــل | Hamal |
| التوأمان | Gemini |
| فم الحوت | Fomalhaut |
| الدب | Dubhe |
| الذنب | Denab |
| الصرفة | Denebola |
| ابط الجوزاء | Betelgeuse... |
| المرزم | Bellatrix |

| | |
|---|---|
| الكلب الأكبر | Canis major |
| الكلب الأصغر | Canis minor |
| سهيل اليمن | Canopis |
| العيـــوق | Capella |
| ذات الكرسى | Cassiopia |
| مقدم التوأمين | Castor |
| قنطورس | Centaurus |
| آخر النهـــر | Achernar |
| الدبران | Aldebaran |
| القـــائد | Alkaid |
| الفـــرد | Alphard |
| الفـــارس | Alpheratz |
| الطـــائر | Altair |
| قلب العقرب | Antares |
| السماك الرامح | Arcturus |
| المرأة المسلسلة | Andromeda |
| الواقع | Lyra |
| الثريا | Pleiada |
| الإكليـــل | Corona |

ويتضح من هذه القائمة أن أسماء أغلب النجوم الواردة فيها قد أخذها الأوربيون عن الأسماء العربية بنصها مما يشهد بفضل الملاحة العربية على أوربا منذ قرون طويلة .

# المراجع

**المؤلفون الشرقيون :**

ابن بطوطة ( ١٣٢٥ ــ ١٣٥٤ م ) : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ( طبعة بيروت ) ٩

ابن جبير ( ١١٨٥ م ) : ترتيب الرحلة ( نشر وليم رايت عام ١٨٥٢ م ليدن ) .

ابن خرداذبة ( ١٨٤٦ م ) : المسالك والممالك ( نشر دى خويه عام ١٨٨٩ م ليدن ) .

ابن خلدون ( ١٣٣٢ ــ ١٤٠٦ م ) : المقدمة ( دار التحرير للطباعة والنشر ــ ١٩٦٦ القاهرة ) .

ابن الفقيه الهمدانى ( ٩٠٢ م ) : كتاب البلدان ( نشر دى خويه عام ١٨٨٥ م ليدن ) .

ابن ماجد ( شهاب الدين أحمد ) ( ١٤٦٦ م ) : حاوية الاختصار فى اصول علم البحار ( مخطوطة باريس ) .

ابن ماجد ( شهاب الدين أحمد ) ( ١٤٩٣ م ) : حاوية الاختصار فى اصول علم البحر والقواعد ( مخطوطة باريس ) .

ابن ماجد ( شهاب الدين أحمد ) ( ١٥٠١ م ) : الأرجوزة السفالية ( مخطوطة لننجراد ) .

أبو الفدا ( ١٣٢١ م ) تقويم البلدان ( نشر رينو ودى سلان عام ١٨٤٠ م باريس ) .

أبو الفضل العلامى ( ١٥٩٥ م ) : أكبر نامه ( انظر فران ١٩١٣ ) .

الأدريسى ( ١١٥٤ م ) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ( نشر جوبير عام ١٨٣٦ ــ ١٨٤٠ م باريس ) .

البيرونى ( حوالى ١٠٠٠ م ) : الآثار الباقية ( نشر ساشاو عام ١٩٢٣ ليبزج ) .

الدمشقى ( ١٣٢٥ م ) : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ( نشر مهرن طبعة ليبزج ١٩٢٣ ) .

السيراف ( حوالى ٩٥٠ م ) : انظر ( رحلة التاجر سليمان ) .
الغرناطى ( أبو حامد ) ( ١٠٨٠ - ١١٧٠ م ) : تحفة الألباب ونخبة الاعجاب ( نشر فران عام ١٩٢٥ باريس ) .
القبجاقى ( بيلق ) ( ١٢٨٢ م ) : كتاب كنز التجار ( مخطوطة باريس ) .
القزوينى ( ١٢٢٥ م ) : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ( نشر فوستنفلد عام ١٨٤٩ جوتنجن ) .
المراكشى ( ١٢٣٠ م ) : جامع المبادىء والغايات فى علم الميقات .
المسعودى ( ١٩٤٧ م ) : مروج الذهب ( دار التحرير للطباعة والنشر ١٩٦٦ - ١٩٦٧ القاهرة ) .
المقدسى ( ٩٨٥ م ) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ( نشر دى خوية عام ١٩٠٦ ليدن ) .
المقريزى ( ١٤١٧ - ١٤٢٢ م ) : الخطط .
المهرى ( سليمان بن احمد ) ( ١٥١١ م ) : العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية ( مخطوطة باريس ) .
المهرى ( سليمان بن احمد ) ( ١٥١١ م ) : تحفة الفحول فى معرفة الأصول ( مخطوطة باريس ) .
المهرى ( سليمان بن أحمد ) ( ١٥١١ م ) : المنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر ( مخطوطة باريس ) .
النهروالى ( قطب الدين ) ( ١٥٧٧ م ) : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ( مخطوطة القاهرة ) .
بزرج بن شهريار ( ١٩٥٣ م ) : عجائب الهند ( طبعة ليدن ١٨٨٦ ) .
حاجى خليفة ( ١٦٦٠ م ) : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ( طبع القاهرة ١٨٥٧ م ) .
سليمان التاجر ( ٨٥١ ) : ( رحلة التاجر سليمان انظر فران ١٩١٣ ) .
سيدى على حسين ( كاتب رومى ) ( ١٥٥٧ م ) : المحيط فى علم الأفلاك والأبحر ( انظر توماشك ١٨٩٧ م ) .

**مؤلفات حديثة**

أنور عبد العليم ( ١٩٦٧ ) : الربان العربى أحمد بن ماجد وآثاره العلمية فى علوم البحار ( باللغة الانجليزية ) ( بحث منشور بمجلد المؤتمر الدولى الأول لتاريخ علوم البحار الذى عقد فى موناكو فى المدة من ١٢ - ١٧ ديسمبر عام ١٩٦٦ ) .

انور عبد العليم ( ١٩٦٧ ) : كتاب الفوائد فى أصـــول علم البحر والقواعد لشهاب الدين احمد بن ماجد ( بحث منشور فى تراث الانسانية عدد مارس ١٩٦٧ ــ القاهرة ) .

انور عبد العليم ( ١٩٦١ ) : اضواء على قاع البحر ( سلسلة المكتبة الثقافية ــ الكتاب رقم ٤٨ القاهرة ) .

حسن كامل الصـــيرفى ( ١٩٥٧ ) : المـلاح الشاعر ( مقال بمجلة المجـلة ــ القاهرة ) .

حسين فوزى ( ١٩٤٣ ) . حديث السندباد القديم ــ القاهرة .

جورج فضلو حورانى ( ١٩٦٣ ) : العرب والملاحة ( باللغة الانجليزية ــ طبع بيروت ) .

شوموفسكى ( تيودور ) ( ١٩٥٧ ) : ثلاث راهمانجات المجهولة لأحمد بن ماجد ربان فاسكودى جاما وهى مأخوذة عن النسخة العربية الوحيدة التى توجد فى معهد الاستشراق عنى بنشرها وتحقيقها وترجمتها الى اللغة الروســية تيودور شوموفســكى ( نشر أكاديمية العلوم السوفيتية : موسكو ولننجراد ) ( باللغة الروسية ) .

كراتشكوفسكى ( اغناطيوس يوليانوفتش ) ( ١٩٥٧ ) : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ( باللغة الروسية ) نقله الى اللغة العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ( نشر الادارة الثقافيـــة بجامعـة الدول العربية فى جزءين ــ القاهرة ) .

على محمود فهمى ( ١٩٦٦ ) : رسالة دكتوراه قدمت لجامعة لندن ونشرتها الدار القومية بالقاهرة فى جزءين بالانجليزية . الأول تحت عنوان : التنظيم البحرى الاسلامى فى شرقى البحر الابيض المتوسط من القرن السابع الى القرن العاشر الميلادى والثانى تحت عنوان القوة البحرية فى شرقى البحر الأبيض المتوسط لنفس الفترة .

محمد ياسين الحموى ( ١٩٤٧ ) : الملاح العربى أحمـــد بن ماجد ( طبعة دمشق ) .

نالينو ( كارلو ) ( ١٩١١ ) : علم الفلك ــ تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى ( ملخص المحاضرات التى القـاها بالجامعـة المصرية حضرة الفاضل السنيور كرلو نلينو الأستاذ بالجامعة المصرية وبجامعة بلرم بايطاليا . طبعة روما ) .

**المؤلفون الغربيون** ( انظر المراجع فى فن الكتاب ) .

## محتويات الكتاب

# صدر من سلسلة أعلام العرب

| اسم الكتاب | المؤلف |
| --- | --- |
| ١ ـ محمد عبده ... ... ... | عباس العقاد |
| ٢ ـ المعتمد بن عباد ... ... ... | على ادهم |
| ٣ ـ جابر بن حيان ... ... ... | د . زكى نجيب محمود |
| ٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون ... | د . على عبد الواحد وافى |
| ٥ ـ ابن تيمية ... ... ... ... | د . محمد يوسف موسى |
| ٦ ـ معاوية ... ... ... ... | ابراهيم الابيارى |
| ٧ ـ سيد درويش ... ... ... | د . محمد أحمد الحفنى |
| ٨ ـ عبد القاهر الجرجانى ... ... | د . أحمد بدوى |
| ٩ ـ عبد الله النديم ... ... ... | د . على الحديدى |
| ١٠ ـ عبد الملك بن مروان ... ... | د . ضياء الدين الريس |
| ١١ ـ مالك ... ... ... ... ... | أمين الخولى |
| ١٢ ـ القلقشندى ... ... .. ... | د . عبد اللطيف حمزه |
| ١٣ ـ الطبرى ... ... ... ... | د . أحمد محمد الحوفى |
| ١٤ ـ الظاهر بيبرس ... ... ... | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ١٥ ـ ابن الفارض ... ... ... | د . محمد مصطفى حلمى |
| ١٦ ـ المختار الثقفى ... ... ... | د . على حسنى الخربوطلى |
| ١٧ ـ الوليد بن عبد الملك ... ... | د . سيدة اسماعيل الكاشف |
| ١٨ ـ الأصمعى ... ... ... ... | د . أحمد كمال زكى |
| ١٩ ـ زكريا أحمد ... ... ... | صبرى أبو المجد |
| ٢٠ ـ قاسم أمين ... ... .. ... | د . ماهر حسن فهمى |
| ٢١ ـ شكيب أرسلان ... ... ... | أحمد الشرباصى |
| ٢٢ ـ ابن قتيبة ... ... ... ... | د . عبد الحميد سند الجندى |
| ٢٣ ـ أبو هريرة ... ... ... ... | محمد عجاج الخطيب |
| ٢٤ ـ عبد العزيز البشرى ... ... | د . جمال الدين الرمادى |
| ٢٥ ـ الخنساء ... ... ... ... | محمد جابر الحينى |
| ٢٦ ـ الكندى ... ... ... ... | د . أحمد فؤاد الاهوانى |
| ٢٧ ـ الصاحب بن عباد ... ... | د . بدوى طبانه |
| ٢٨ ـ الناصر بن قلاوون ... ... | د . محمد عبد العزيز مرزوق |
| ٢٩ ـ أحمد زكى ... ... ... | أنور الجندى |
| ٣٠ ـ حسان بن ثابت ... ... ... | د . سيد حنفى حسنين |

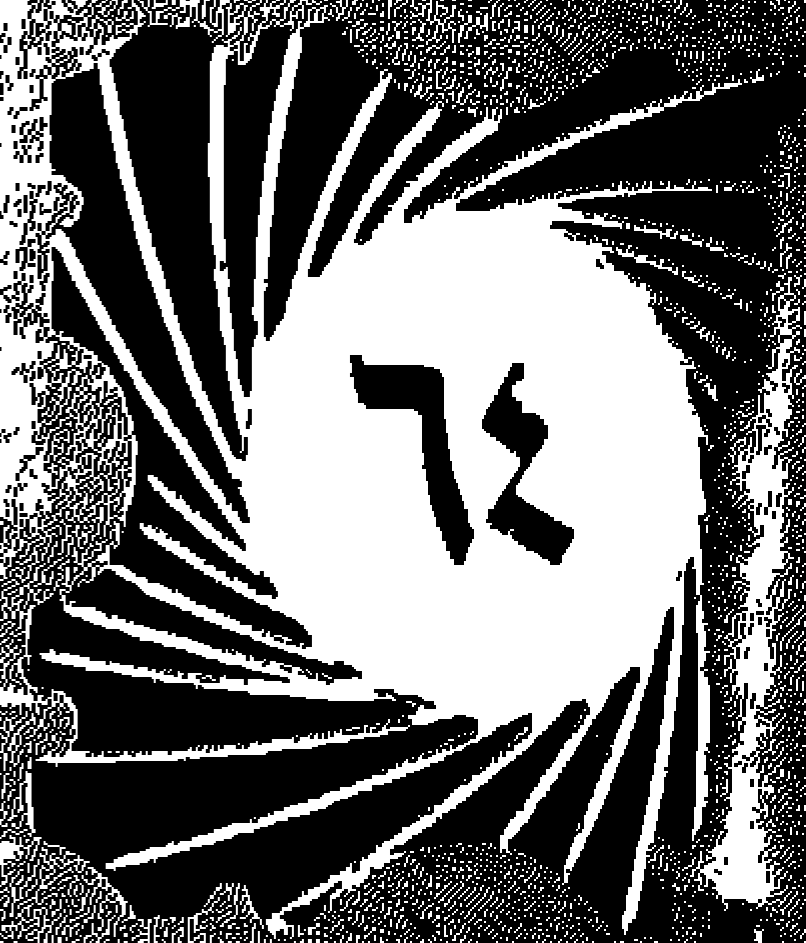
| اسم الكتاب | | المؤلف |
|---|---|---|
| ٣١ ـ المثنى بن حارثه الشيباني | ... | عقيد محمد فرج |
| ٣٢ ـ مظفر الدين كوكبوري | ... | عبد القادر احمد |
| ٣٣ ـ رشيد رضا | ... ... ... ... | د . ابراهيم أحمد العدوى |
| ٣٤ ـ اسحاق الموصلي | ... ... ... | د . محمود احمد الحفنى |
| ٣٥ ـ ابو حيان التوحيدي | .. ... ... | د . زكريا ابراهيم |
| ٣٦ ـ ابن المعتز العباسي | ... ... ... | د . أحمد كمال زكى |
| ٣٧ ـ الزهاوي | ... ... ... ... ... | د . ماهر حسن فهمى |
| ٣٨ ـ ابو العلاء المعرى | ... ... ... | د . عائشة عبد الرحمن |
| ٣٩ ـ أحمد لطفى السيد | .. ... ... | د . حسين فوزى النجار |
| ٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين | ... | د . فوقية حسين |
| ٤١ ـ صلاح الدين الأيوبي | ... ... ... | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ٤٢ ـ عبد الله فكرى | ... ... ... ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٤٣ ـ عبد الله بن الزبير | ... ... ... | د . على حسنى الخربوطلى |
| ٤٤ ـ عبد العزيز جاويش | ... ... ... | أنور الجندى |
| ٤٥ ـ ابن رشيد القيروانى | .. ... ... | عبد الرءوف مخلوف |
| ٤٦ ـ محمد عبد الملك الزيات | ... | محمود خالد الهجرسى |
| ٤٧ ـ حفنى ناصف | ... ... ... ... | محمود غنيم |
| ٤٨ ـ أحمد بن طولون | ... ... ... ... | د . سيدة اسماعيل الكاشف |
| ٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى | ... ... | احمد سعيد الدمرداش |
| ٥٠ ـ احمد فارس الشدياق | ... ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٥١ ـ المهدى العباسى | ... .. ... | د . على حسنى الخربوطلى |
| ٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى | ... | د . محمود رزق سليم |
| ٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى | ... ... ... ... | د . حسين فوزى النجار |
| ٥٤ ـ زرياب | ... ... ... ... ... | د . محمود أحمد الحفنى |
| ٥٥ ـ الكندى « المؤرخ » | ... ... | د . حسن أحمد محمود |
| ٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى | ... ... ... | د . زكريا ابراهيم |
| ٥٧ ـ ابن النفيس | ... ... ... ... | د . بول غليونجى |
| ٥٨ ـ السيد أحمد البدوى | ... ... | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ٥٩ ـ المأمون | ... ... ... ... | د . محمد مصطفى هداره |
| ٦٠ ـ المقرى | ... ... .. ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٦١ ـ جمال الدين الافغانى | .. ... | عبد الرحمن الرافعى |
| ٦٢ ـ الجاحظ | ... ... ... ... ... | د . أحمد كمال زكى |
| ٦٣ ـ ابن ماجد | ... ... ... ... ... | د . أنور عبد العليم |

دار الكاتب العربي

# مجلة الكتاب العربي

اقرأ في هذا العدد:

أعلام العرب




# محمد توفيق البكري

تأليف

دكتور ماهر حسن فهمي

ابريل سنة ١٩٦٧

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

أعلام العرب

٦٤

# محمد توفيق البكري

تأليف

دكتور ماهر حسن فهمي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة
١٩٦٧

# المقـــدمة

كان حر أغسطس يلفح الوجوه ، وكان وقت الظهيرة عندما تركت منزلى فى اقصى القاهرة ، لانى على موعد مع احد اقرباء السيد محمد توفيق البكرى فى أقصى القاهرة من الطرف الآخر ، وكنت اعجب لهذا الموعد المبكر ، ولكنى كنت اومن بانها فرصة أخيرة ، ظفرت بها بعد عناء شديد ، فليس من السهل أن يصل الباحث الى معارف واقرباء أديب من أدباء أول القرن ، الا بعد أن يدور دورانا متصلا مملا ، وقد يصل فى النهاية وقد لا يصل على الاطلاق ، فأنا اذن سعيد الحظ ، ولا ينبغى أن أدع الفرصة تفلت من يدى خاصة والسيد على وشك الرحيل الى أوربا أو أمريكا .

استقبلنى السيد وجلس ، على كتفه ببغاء ، ودهشت ، ولكن ليس هذا ما جئت من اجله ، وران علينا صمت كنت أختلس خلاله نظرات الى بشرته البيضاء المشربة بحمرة وعينيه الزرقاوين ، واحاول ان أستعيد صورة السيد محمد توفيق البكرى فى ذاكرتى ، وكانت اشجار الحديقة تخفف كثيرا من شدة الحر فطاب لى الجلوس وأدرت الحوار التالى :

ــ كنتم تعيشون مع السيد رحمه الله فى سراى الخرنفش ، وسمعت أنه كان يحاول تأليف كتاب جديد بعد عودته من لبنان ، فأى موضوع فكر فى معالجته ، وهل تحتفظون بشىء مما كتبه ؟

ــ نعم كان يحاول تأليف كتاب ((صهاريج الزمرد)) بعد ((صهاريج اللؤلؤ )) كما قال لى ، وكتب منه صفحات طويلة ، ولكنى كنت

اعيش فى جناح بعيد عن جناحه بالقصر ولا أدرى مصير هذه الأوراق .

ـ سمعت أن أحد المستشرقين أرسل للسيد كتابا يناقش فيه آراء السيد البكرى فى كتابه (( المستقبل للاسلام )) وأن هذا الكتاب كان موجودا بمكتب السيد محمد توفيق ، فهل قرأتم هذا الكتاب وهل تذكرون شيئا من محتوياته ؟

ـ لا أذكر شيئا من ذلك .

وأحسست أن الفرصة الأخيرة التى كنت أعلق عليها املا فى ملء الثغرات الكثيرة بحياة السيد البكرى تضيع بل ضاعت فعلا ، فطويت الأسئلة التى أعددتها ، وقلت أدعه يسترسل مع ذكرياته أفضل من هذه الأسئلة المحددة .

ـ عشتم سنوات أربع مع السيد قبل وفاته فما هى معلوماتكم عنه من حيث عاداته وطباعه وصلاته لمن حوله ، أو بمعنى آخر ما هى ذكرياتكم عن هذه الفترة ، وما هو الانطباع الذى تركه فى نفسكم ؟

ـ ( بعد دقائق طويلة من التفكير ) كان يحب الأطفال الصغار من أبناء الأسرة .

وخرجت وأنا افكر فى الطريق الشاق الطويل الذى يقطعه كاتب السيرة لعلم من أعلام العرب فى اول هذا القرن ، فها هو ذا مصدر من أهم مصادر الترجمة يكاد يفقد كل قدرته على العطاء ، والأمر ليس قاصرا على البكرى ، ولكنه يشكل ظاهرة عامة الا فيما شذ وندر . واذا فقدنا مذكرات الأديب وخطاباته ودقائق حيـــاته فى صلاته الانسانية ، فقد بقى مصدر آخر هام ، وهو الدوريات ، خاصة اذا كان الرجل يملأ سمع الدنيا فى حياته ، على ندرة هذا الرجل .

والحقيقة المرة الثانية أن قارىء الدوريات القديمة محكوم عليه بالأشـــغال الشاقة . فعليه أن يصـــعد يوميا الى مكتبة القلعة

فلا يصلها حتى يكون قد استنفد أكثر طاقته ، والمكتبة بحكم موقعها فى منطقة عسكرية لا تفتح أبوابها للرواد الا فى الصباح ، وعلى الباحث أن يعيد الكرة مرة ومرات كلما طال بحثه ، ولابد أن يطول لأن الدوريات غير مفهرسة ، فاذا أراد الباحث أن يطلع على الدوريات التى كتبت عن البـــكرى أو كتب فيها ، فعليه أن يتصفح جميع الدوريات التى صدرت فى فترة حياة الشاعر ، أو بمعنى آخر يقرأ عشرات الصحف لعشرات السنين ، وقد يعثر مرة أخرى على شيء وقد لا يعثر . ويزيد من عناء الباحث أن كثيرا من هذه الدوريات قد تحولت صفحاتها الى مزق من كثرة الاستعمال الذى لا طائل وراءه . ولكنى فى هذه المرة وصلت الى شيء كثير ، فقد اتصل الرجل عن كثب بالأحداث السياسية ، ولمع فجاة كما خبا فجاة ، فاهتمت به الصحف ، تتحدث عنه حديث المفتون أو حديث الناقم ، شـــان رجال السياسة دائما .

أما المصدر الثالث فهو مؤلفات الرجل نفسه ، وأهمها (( صهاريج اللؤلؤ )) الذى حوى أدبه ورسم أدق خلجات نفسه وانطباعاته ازاء كثير من أحداث الحياة التى مر بها . وله بعد ذلك مختارات من الشعر العربى القديم ومختارات من الرجز جمعها فى كتابيه (( فحول البلاغة )) و (( أراجيز العرب )) ، وهى مختارات تنم عن ذوق رفيع . أما البكرى المفكر فنستطيع أن نجده فى كتابه (( المستقبل للاسلام )) الذى يخطط فيه لمستقبل الأمة الاسلامية . وأما كتاباه (( بيت الصديق )) و (( بيت السادات الوفائية )) ، فقد أفدت من الأول على وجه الخصوص فى تصوير جانب من حياة أسرته وحياته . ولم أتحدث عنهما بالتفصيل فى باب مؤلفاته الأدبية ، لأنهما بعيدان عن الأدب ، فموضوعهما التراجم من الوجهة التاريخية الصرفة ـ لآبائه وأجداده واقاربه ، وأكثر ما فيهما أحداث صيغت صياغة يغلب عليها التقرير المباشر .

واما المصدر الأخير ، فهو الدراسات التى عرضت لحياته وانتاجه عرضا موجزا سريعا ، اعتمد فيها مؤلفوها فى اكثر الأحيان على ما كتبه السيد محمد توفيق بنفسه عن حياته فى كتابه (( بيت الصديق )) ، ودرسوا شعره على قلته دراسة فيها شىء من التفصيل ، ونثره على تنوعه دراسة جزئية . وهى قليلة لا تتجاوز اصابع اليد ، أهمها (( شعراء العصر )) لمحمد صبرى و (( على فراش الموت )) لطاهر الطناحى و (( شعراء مصر وبيئاتهم )) للعقاد و (( فى الأدب الحديث )) لعمر الدسوقى . ومن الواضح ان هذه الكتب جميعا تعرض للبكرى فى فصل من فصولها عرضا أقرب الى المقالة منه الى الدراسة باستثناء الكتاب الأخير ، فقد درس عمر الدسوقى شعر البكرى دراسة واعية ، وان كان قد مر على شىء من نثره مرورا سريعا ، وعلى حياته مرورا أسرع لم يزد فيه على ما ذكره البكرى عن حياته . ومن أجل هذا كان دارس البكرى بحاجة الى جهد أكبر لتصوير حياة الرجل وتقويم انتاجه الأدبى بكل أنواعه ، وفى كلا الحالين ، يحس الباحث فعلا أنه (( طلب لطعن وحده والنزالا )) .

ولا اريد أن أفيض فى الحديث عن مناهج السير ، فقد تحدثت عنها فى بعض كتبى من قبل ، ولكنى حاولت فى دراسة البكرى أن أصور حياته كما لو كان على مسرح الحياة ، مستهدفا الحقيقة قبل كل شىء ، بينما حاولت أن أكون عالميا صرفا فى دراسة انتاجه الأدبى والفكرى .

# البابُ الأولُ
# حيَاته

# ملامح العصر

لا سبيل الى دراسة النصف الثانى من القرن الماضى فى بلدان الشرق ومصر بصفة خاصة ، الا بدراسة الغراس الذى غرسه جمال الدين الأفغانى ، فهو محرك الأحداث وصانع الأعلام فى هذه الفترة ، وما من اصلاح سياسى أو اجتماعى أو دينى الا وجمال الدين هو ملق بذوره ، وما من عالم من اعلام النهضة أو الاصلاح الا وتتلمذ عليه أو تأثر بآرائه . كل نداءات الحرية وكل الدعوات الثورية باعثها جمال الدين ، فاذا اتسمت هذه الفترة بارتعاشة اليقظة ، فان بداية الصحو كان مع ظهور جمال الدين فى مصر عام ١٨٧٠ .

وكانت الأحداث فى ذلك الوقت قد ساعدت على تنمية الشعور بالرابطة الاسلامية وتغذية الاحساس الذى يهدد شعوبها أمام الاستعمار الغربى المتربص بها فيدعوها الى التجمع والى الالتفاف حول الدعوة الى الجامعة الاسلامية التى كان جمال الدين أكبر دعاتها . وتتركز دعوته السياسية فى تحرير الشرق من سيطرة الغرب ولفت أنظار المسلمين الى ما وصلوا اليه من ضعف وتأخر حتى طمع فى بلادهم الأجانب فاستولت فرنسا على الجزائر وروسيا على القوقاز وانجلترا على الهند وهولندة على أندونيسيا . فلا يفتأ يردد لتلاميذه « كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا ووضعت من اقدارنا ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها الا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه ، لو أدينا حقوقا تطالبنا بها تلك الكلمة التى تهل بها ألسنتنا وتطمئن قلوبنا بذكرها وهى كلمة الله العليا ، هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ، وهل

كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الأعداء الا وأقدامنا فى صياصيهم وأيدينا على نواصيهم ؟ ان لأبنـــاء الملة الاسلامية يقينا بما جاء به شرعهم ، لكن اليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرضه الله عليه من ذلك الدين ؟ . . أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ولا يرد مشربنا ولا يخدم شريعتنا ولا يرقب فينا الا ولا ذمة » (١) .

بمثل هذه الكلمات النارية والمناقشة الموضوعية لمعنى الترابط والتراحم والتكتل من أجل الجهاد كان ينطلق صوت جمال الدين فيتردد صداه بعيدا فى ربوع الوطن الاســـلامى يبث روح العزة القومية عن طريق العقيدة السليمة وخلق الأمل فى النجاح مكان اليأس المر الذى يجتره الناس فى صمت ، والاصرار من أجل تحقيق الهدف الكبير مهما كانت مشاق الرحلة بدل الاتكال والاستسلام .

وتلقف السلطان عبد الحميــــد الفكرة ، وهو خليفة الدولة العثمانية الجريحة ، التى عبث ذئب الاستعمار بأطرافها ينهش ما استطاع منها ويبتلع ما يتمكن من ابتلاعه . وكانت الخلافة قد فقدت قوتها السياسية ، واستحالت رمزا لا حول له ولا قوة ، فرأى فى هذه الدعوة ما يعيد الى الخلافة هيبتها والى الخليفة سلطانه السياسى والدينى ، وتكتل العالم الاسلامى من ناحية أخرى قوة هائلة تستطيع أن توقف قوى الاستعمار عند حده فيفكر مرة ومرات قبل أن يحاول مشاكسة دولة الخلافة حتى لا يثير هــذا التجمع المتحفز ، وهكذا احتضن الدعوة وأرسل دعاته الى كل البلاد الاسلامية سواء فى ذلك ما يقع فى نطاق الدولة العثمانية أو ما يقع خارجها ، وهو مقتنع بأن هذه الدعوة تستطيع الوقوف أمام الدعوة

---

(١) الوحدة الاسلامية والوحدة السياسية لجمال الدين الأفغانى ص ٢٤ .

الى الجامعة الصقلبية التى تسعى الى ضم كل صقالبة أوربا مهما اختلفت حضارتهم ومذاهبهم الدينية للتخلص من النفوذ الألمانى والسيطرة التركية ، والوقوف أيضا أمام نظرية « جلادستون » التى ترمى الى تخليص الدول المسـيحية الأوربية نهائيا من الدولة العثمانية (١) .

ونجد وثيقة تاريخية وقعها علماء المسلمين ، تبين انتشار الدعوة فى البلاد الايرانية ومحاولة نشرها فى غيرها من البلاد الاسلامية عن طريق التبشير والنذير : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه ومن والاه . أما بعد فليعلم الواقفون على كتابنا هذا من اخواننا المسلمين كافة ، جمع الله شملهم وهداهم ، والى الخير والصلاح وفقهم . انه من الواجب على عموم سكان الكرة الأرضية من المسلمين الناطقين بكلمة التوحيد ، المؤمنين بالنبى العربى الأمى المنزل عليه القرآن المجيد ، أن تتحد كلمتهم ، ويبذلوا غاية جهدهم فى اعلاء كلمة الله العليا ، وان اختلفت أجناسهم ومذاهبهم ، وكذا يجب على الدولة الايرانية ، وكذا سائر الحكومات الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها وأن يتحدوا مع الدولة العليا العثمانية الحائزة لمنصب الخلافة الكبرى ، والمستشرفة بخدمة مهبطى الوحى الحرمين الشريفين ، ويسلكوا معها فى طريق السعادة والنجاح لهذه الأمة المحمدية ، ويجتنبوا ما فيه افساد للمقاصد الخيرية لهذه العصابة الأحمدية ، والا فالمستقبل معاذ الله وخيم . ونسأل الله اللطف وهو الهادى الى الصراط المستقيم » (٢) .

كل دعوة اصلاحية اذن فى نطاق هذا الاطار السياسى الدينى ترتد الى هذا الأصل ولا تعتبر غريبة على المجتمع الإسلامى فى هذه الفترة ، فقد بدأ العلماء يجتمعون ويتناقشون بعد التقاطع والتدابر ،

---

(١) الاحتلال الانجليزى ص ١٧ .

(٢) القومية العربية والشعر المعاصر ص ١٢ .

وسرت روح جديدة فتحت الأبواب لتيار من الوعى يناقش الأمر على مستوى العلماء وعلى مستوى الشعب .

تخيل الكواكبى ـ فى كتابه أم القرى ـ مؤتمرا فى مكة يجمع ممثلين من مختلف الأقطار الاسلامية يبحثون فيه حالة الأمة ويرسمون سبل الاصلاح ، ولا شك أنه كان يعبر فى ذلك عن أمانى الأمة وأملها في وجود هذا المؤتمر ، فالأسئلة التى يجيب عنها العلماء ، هى نفس الأسئلة التى شغلت الناس زمنا ، وحاول كل منهم أن يجد لها الجواب . فلا ريب أن حالة من الركود والضعف العام كانت تخيم على الشرق الاسلامى ، وما من شك فى أن الاسلام برىء من ضعف المسلمين وهو الذى يحث على القوة .

هل البعد عن تعاليم الدين هو السبب فى هذا الخمول ؟ هل فقدان القادة والزعماء الأقوياء العادلين ؟ هل الذى أوصل الى هذا التردى ؟ هل التنافر والتقاطع بين علماء الاسلام كان طريق التنافر والتقاطع بين أجزاء الأمة الاسلامية ، بحيث أصبح المستعمر يستولى على جزء من الأمة فلا تحرك بقية الأجزاء ساكنا ؟ السبب دينى أو سياسى اذن ؟ وكل هذه الأسئلة أسباب أو نتائج ؟ كلها جروح فى جسم الأمة الاسلامية لابد أن تلتئم ، سواء أكانت سياسية أم دينية ، ولم يكتف المؤتمر بالبحث فى الأمراض وعلاجها ، بل اقترح انشاء جمعية دائمة تعنى باصلاح المسلمين ، وتشرف على تنفيذ برنامجها فى الاصلاح (١) .

ولم يكن البحث فى أسباب انهيار هذا البناء الاسلامى قاصرا على العلماء وحدهم كما قلنا ، وانما كان الوعى قد بدأ ينضج ويتفجر بعد أن سلطت الأضواء على هذا الجسم المريض ، ورواية ـ السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين ـ التى الفها محمد كاظم ميلانى التاجر

(١) أم القرى ( القاهرة ـ ١٣١٦ هـ ) .

بالاسكندرية تعرض لنفس الموضوع من وجهة نظر الجمهور . فهى تتناول تناولا تغلب عليه الروح القصصية رأى أفراد القصة ــ وهم شخصيات عادية من المجتمع ــ فى التفكك الموجود بين المسلمين وفى البدع المنتشرة باسم الدين وفى الاعراض عن تعاليمه ؛ وفى فتح باب الاجتهاد فى الدين حتى نساير حاجات العصر ومتطلبات الزمان كما كان يقول جمال الدين (١) .

ولكن السؤال الذى كان يجول بالخواطر فى ذلك الوقت هو الوسيلة التى يلتئم بها الشمل ، وهل نستطيع فى سهولة أن ننقى الدين من شوائبه وأن تكتل الناس حول قيم جديدة ، أم أن السبيل الأيسر هو طريق السياسة وارشاد الناس الى المطالبة بحقوقهم ، والى الاصرار على وجود الدستور الذى يزيل الأحقاد الطبقية فيلتف الناس حول مبادئه ، ومن هنا تكون بداية الاصلاح الشامل ؟

كان جمال الدين الأفغانى فى الواقع يرفع العلمين معا ، فهو يدعو فى كل مكان الى فهم الدين الصحيح وفتح باب الاجتهاد الذى سدته الجهالة والكهانة وتنقية الاسلام من البدع التى عدها الناس دينا ثانيا ، ومن هنا يجتمع الناس حول راية الاسلام ، وهو فى نفس الوقت يلفت نظر الرعية الى حقها فى محاسبة الراعى « ماذا تنفع الحكومة الصالحة اذا كان الشعب غير صالح ؟ لقد علمنا التاريخ أن الحكومة لا تستقيم الا اذا كان فى الأمر رأى عام يخيفها ويلزمها أداء واجباتها ، والوقوف عند حدها ، فاذا لم يكن ذلك فالطبيعة البشرية تملى على الحكام أن يستأثروا بالمنافع ، وغاية ما يتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوتة بوقتها ، فاذا زالت حل محلها من لا يصلح ، اذ لا شأن للأمة فى اختيارها ولا رقابة لها على أعمالها » (٢) .

---

(١) السبب اليقين الاسكندرية ــ ١٩٠٢ .

(٢) زعماء الاصلاح ص ٥٨ .

فتعالت نداءات الحرية تحاول أن تدك صروح الاستبداد فى كل مكان ، فها هو ذا « مصطفى فاضل » يرفع خطابه الى الخليفة مصورا فيه حالة المسلمين المؤسفة التى قد تكون باعثا على الثورة ، ومصورا فيه اتهامات الأوربيين لديننا بأنه سبب الضعف ، ومطالبا فيه بالحرية وبالدستور ، وهو خطاب جرىء جراة توضح حقيقة الوعى الذى بدأ يستشرى ، وترسم صورة حية للنفوس التى يثيرها الظلم والاستبداد . « لم يبق فى قوس صبر المسلمين منزع ، فقد بلغ بهم الضر نهايته ، وأكلت أجسامهم الآلام ، وامسوا لا قدرة لهم على كتمان ما فاض عن نفوسهم من الضجر والرزايا ، ومن الخطر على أسرتك وعلى أمتك أن تترك اليأس يتولى الرعايا .. هب الأمة دستورا صحيح الجسم رحيب الصدر خصيب التربة ، وحفه بالأمان ، وخطه بما يضمن الاخلاص فى انفاذه والأمانة فى الجرى عليه ، وبما يصونه من العبث به مدى الأيام ، دستورا يتساوى أمامه المسلمون والنصارى فى الحقوق وفى الواجبات ، ليسود الوئام ، ويهبط على الكل السلام ، وترد حجة الذى يقول من اهل الغرب : ان التآلف بين الغالب والمغلوب محال » (١) .

وها هو ذا الكواكبى يجمع مادة كتابه « طبائع الاستبداد » فيعرض لأثر الاستبداد فى افساد الأخلاق مبينا أن الانسان يمتاز بالارادة ، والاستبداد يفقد الارادة ، ويبين الحكمة فى احتمال ما فى الحرية من مضار فيرجع تلك الحكمة الى حرية النقد وهو فى عهد الاستبداد غير مقدور عليه . ثم يعرض لأثر الاستبداد فى افساد الدين فيصبح الدين عبادات مجردة عن معانيها ونظريات بعيدة عن التطبيق ، ومن هنا كان أثره واضحا فى افساد التربية أيضا ، ومنعكسا على كل أعمال الدولة وموظفيها . والأغنياء هم دعائم المستبد

(١) من أمير الى سلطان ص ٨ .

اما الفقراء فيخافهم خوف النعجة من الذئاب وهم يخافونه أيضا خوف الطيور الصغيرة من النسر .

وهكذا تعمق الكواكبى نفسيات المستبدين ونفسيات الرعية محللا مدققا لينتهى آخر الأمر الى أن كل عللنا يمكن أن ترد الى الاستبداد . والذين يظنون أن تأخرنا يرجع الى الجهل أو الفقر أو الى ترك الدين هم بين مخطىء وبين عارف يمنعه الاستبداد أن يقول ما يعرفه . وانتهى الكواكبى الى تقديم مجموعة من المشاكل وضعها بين ايدى المفكرين ودعاهم الى بحثها وختم هذه المشاكل بالمشكلة الكبرى وهى كيف نتخلص من الاستبداد ؟ ورأى أن لا سبيل الى ذلك الا بالتوعية الفكرية والحماسة العاطفية لحب الحق والعدالة (١) .

ثم ها هو ذا « عرابى » يشهر سيفه فى وجه الخديو مطالبا باسقاط الوزارة المستبدة واعلان الدستور . ولم يكن ممكنا أن يخطىء عرابى بهذا التأييد الشعبى لو أن الناس ظلوا يعتبرون الخديو ولى النعم وصاحب الأمر والنهى ، فمن الواضح أن تيارا واعيا قد بدأ يسرى قويا متدفقا يحاول أن يجرف أمامه كل السدود . ولكن مرحلة اليقظة فى عمر الشعوب أشبه بمرحلة الصبا فى عمر البشر ، يحس المرء بدماء الفتوة تجرى فى عروقه فيحاول أن يجرب يديه ، ومن هنا لم يقدر لعرابى كل النجاح فى ثورته ، فما لبث المجلس النيابى أن حل وما لبث الاستعمار أن جثم على صدر مصر التى شغلت الى حين بتضميد جراحها .

فقد سجن من زعماء الثورة من سجن وشرد من شرد ، واستولى اليأس على الناس ، وفشى فيهم روح التخاذل ، ودب دبيب السعايات . وفقد الصديق صديقه بعد الذى كان من شهادة بعضهم

---

(١) طبائع الاستبداد ص ٩٩ .

على بعض تحت ضغط المحققين وهول الارهاب . وكره النـــاس السياسة وانطووا على أنفسهم لا يرجون الا السلامة . واخـــذ الاحتلال فى غمرة من يأس الناس وموت الهمم وارتماء الخديو فى أحضان أولياء نعمته ، يثبت أقدامه ويدعم كيانه . وتوالت الوزارات المستسلمة نوبار ثم رياض ثم مصطفى فهمى ، وأخمدت أنفاس الصحافة لأدنى شبهة يتوهم فيها التعريض بالاحتلال أو الخديو ، فمنعت «العروةالوثقى» التى كان يصدرها جمال الدين ومحمد عبده فى باريس من دخول مصر ، وألغيت صحف « الوطن » و « مرآة الشرق » و « الزمان » كل ذلك والناس فى لامبالاة لا يرتفع صوتهم بمعارضة أو تذمر ، أو قل انهم فى مرحلة الدهشة من وقع الصدمة وعنف المفاجأة .

وكان أول صوت ارتفع باسم الوطن والوطنية بعد الاحتـــلال هو صوت صحيفة « المؤيد » التى ظهر العدد الأول منها فى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ ، وقد جاء فى فاتحته « وما لنا أن لا نقوم بشعائر تطالبنا بها الاحساسات الطبيعية والحاجات الوطنية ودواعى الحياة الدينية والأدبية وكمال التحقق بحقيقة الوحدة الجامعة الجنسية . فنسألك اللهم أن ترشدنا الى خير ما أردنا وأحسن ما نريد » ، وارتفع صوته للمرة الأولى منذ الاحتلال باثارة مسألة الجلاء ، فأخذ يتساءل عن الاصلاح الذى تعلق عليه بريطانيا جلاءها عن مصر ، وماذا تم منه وهنا يلتفت الى الاستعمار الاقتصادى ويحذر الناس منه ويدعوهم الى التكتل والاتحاد . وهكذا كان صوت « المؤيد » هو البشير بأن مصر لم يزل فيها بقية من حياة واحساس وأن فترة الدهشة والذهول قد بدأت تنداح (١) .

ومن هنا بدأت تتكون الأحزاب فى مصر ، الحزب الوطنى وزعيمه مصطفى كامل وجريدته « اللواء » ، وحزب الاصلاح على المبادىء

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ١ ص ١٤٣ .

الدستورية وزعيمه على يوسف وجريدته « المؤيد » وحزب الأمة وزعيمه محمود سليمان وجريدته « الجريدة ». وهكذا انبعثت الفكرة الوطنية من جديد ولكنها اتخذت شكلين متباينين ، أحدهما يتحدث عنها حديثا عاطفيا والآخر يتحدث عنها حديث المصلحة ولا يستهدف اثارة الناس ولكنه يحاول اقناعهم ، ولا يتغنى بالوطن المحبوب ولكنه يتحدث عن النفع المادى والمصلحة المشتركة التى تجمع بين ساكنيه .

وكان الفريق الأول ممثلا فى مصطفى كامل وهو يدعو الى جامعة مصرية اسلامية ولا ينكر الرابطة العثمانية ولكنه يتخذها وسيلة لمناواة الانجليز ، وكان الفريق الثانى ممثلا فى حزب الأمة ، وهو يدعو الى جامعة مصرية خالصة ولا يعترف بالرابطة العثمانية لأنها لون من الوان الاستعمار كما انه لا يعترف بالجامعة الاسلامية لأنها وهم لا سبيل الى تحقيقه . وكانت الدعوة الأولى أقرب الى القلوب جذبت كثيرا من الناس بينما انصرفوا عن الدعوة الثانية لأن دعاتها من كبار الملاك الذين لا يعنون الا مصالحهم الخاصة يتحدثون عن النفع المادى ، هذا الى أنهم قد انصرفوا الى الحديث عن الاصلاح ولم يهاجموا الاستعمار الذى كانوا يوادونه حرصا على مصالحهم .

أما حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية فلا يختلف كثيرا فى مبادئه عن الحزب الوطنى وان كان من ورائه الخديو يعمل على مؤازرته ، كما كان كرومر من وراء حزب الأمة يؤازره . وهكذا كانت الوطنية فى هذه الفترة مختلطة بالدين — ونلمح جذور الفكرة فى هذه الدعوة منذ جمال الدين — حتى قيام الحرب العالمية الأولى التى كانت حدا فاصلا بين عصرين متباينين فى مفهوم الوطنية .

هذه المرحلة اذن كان التيار السياسى ينبع فيها من الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، أو الدعوة الى التكتل على أساس دينى ، ولكن روافد الثورة الفرنسية كانت قد بدأت تصل الى الشرق ومن هنا نلمح فكرة العدالة والحرية والمساواة والحقوق والواجبات أو بمعنى

آخر الدعوات الدستورية وما تلا ذلك من أحداث الثورة العرابية ثم مرحلة الصدمة أو اللامبالاة حتى تجددت الدعوة الوطنية وتحدد مفهومها العقائدى فى أعقاب الحرب الكونية الأولى .

اذا تتبعنا بعد ذلك النزعات الاصلاحية وهى تصور الحياة الاجتماعية والموقف الفكرى فى وقت واحد ، وجدنا ان مرحلة الثورة العرابية قد مرت فى حياة الناس سريعا وكأنها لم تكن ، فعادوا الى اليأس والانطواء ينظرون حولهم دون اكتراث ، وأدرك العقلاء أن تهذيب الشعب واصلاح عيوبه هو الخطوة الأولى فى سبيل اية نهضة ، فأخذوا يكشفون عن مواطن الضعف والمرض فى حياتنا وينبهون اليها فى لين الواعظ المشفق على قومه الحريص على هدايتهم حينا ، وفى عنف المغيظ المحنق الذى غلب عليه الضيق بالفساد حينا آخر . وبرز من المصلحين طائفتان متميزتان ، طائفة تدعو الى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية وطائفة اخرى تدعو الى الاحتفاظ بتقاليدنا الاسلامية والشرقية .

كان الداعون الى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية من ذوى الثقافات الأوربية ، الذين جذبتهم مظاهر الحياة فى أوربا ، فعاشوا فى بيوتهم حياة أقرب اليها ، واقترن فى أذهانهم حاضر الشرق الضعيف بتقاليده الموروثة ، وفترت صلاتهم بالحياة الشرقية ، فراحوا ينادون بالاقتداء بالغربيين فى أساليب حضارتهم المزدهرة . وكان للمستعمر مصلحة واضحة فى فرنجة المصريين جميعا باسم التجديد أو المدنية ، وقد عبر اللورد « لويد » عن ذلك حين قال : « لقد أوجد اللورد كرومر شركة وطيدة بين بريطانيا ومصر ، وهذه الشركة مهما تغيرت أشكالها لأزمة للشريكين ، وهذا يجعل استمرارها لا مندوحة عنه ، فعلينا ان نقوى كل ما لدينا من وسائل التفاهم المتبادل بين البريطانيين والمصريين .. وليس من

وسيلة لتوطيد هذه الرابطة ، أفضل من كلية تعلم الشبان من مختلف الأجناس المبادىء البريطانية العليا » (١) .

فالدعوة الى المدنية الأوربية اذن كانت تجتذب نفرا من اهل البلاد ، وقد يبالغون فى دعوتهم الى نبذ التقاليد الشرقية ، حتى يجرهم ذلك الى الاستخفاف بعاداتنا وقيمنا الروحية فى بعض الأحيان ، كما صنع ولى الدين يكن فى مقالاته التى كان ينشرها فى المقطم وجمعها فى كتابه الصحائف السود . فهو يطلب للمرأة الحرية المطلقة . ولكن أسلوبه بعيد عن الموضوعية شديد السخرية من عادة الحجاب ، وهو يجهر بافطاره فى رمضان فيضع عنوانا لمقاله « اكذوبة ابريل واكذوبة رمضان » .

وطبيعى أنه كان هناك فريق يتمسك بتقاليده ودينه ومثـــله الشرقية ، لم تبهره الحضارة الغازية فيسير فى ركابها وتغلب عليه صفة الطفرة . رأى ان الانسياق وراء تقليد الغربيين فى كل شيء سوف يفقد الأمة احساسها بكيانها ، ويدفعها الى الفناء فى الحضارة الغربية ، فنادى بأن النهضة لا ينبغى أن تقوم الا على أســـاس التمسك بقيمنا . فيكتب « رفيق العظم » فى احدى مقالاته ، مبينا أن نهضتنا الصحيحة لا تقوم الا على أساس تنقية الدين من الشوائب التى علقت به على مر السنين ، ثم الالتفات بعد ذلك الى الاصلاح المدنى ، بعد أن تكون الأمة كلها قد وعت دينها على حقيقته . ثم يؤيد رأيه بالرجوع الى التاريخ ، فأوربا لم تنهض نهضتها الا بعد الاصلاح الدينى الذى دعا اليه « لوثر » فى القرن السادس عشر ، ثم كان الاصلاح المدنى بعد تحرر العقول من كل قيد زائف (٢) . وهؤلاء الدعاة الى التمسك بالحضارة الاسلامية ، لا يفتأون يحذرون

---

(١) المقتطف مايو ١٩٢٦ ص ٥٣٠ .

(٢) المقتطف مايو ١٩٠٤ ص ٤٠٢ .

من خبث دعوة الغربيين ، ومن الاندفاع وراء تقليد لا يستند الى واقع حياتنا ولا الى مقوماتنا . وفى مجلة « التنكيت والتبكيت » لعبد الله النديم مجموعة من القصص حول هذا الموضوع . فقصته التى جعل عنوانها « مجلس طبى لمصاب بالافرنجى » وقصة « عرب تفرنج » تصوران مدى اندفاع بعض الناس فى تقليد الأوربيين حتى فى مساوئهم (١) .

على أن هذا الاختلاف بين الفريقين ، وهذا التناقض الحاد فى تقبل الحضارة الغربية وفى رفضها ـ بما فيها من حسنات ومن سيئات ـ نجده مصورا تصويرا قويا فى « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى الذى صدر بالقاهرة لأول مرة عام ١٩٠٧ . والكتاب يصور حياتين ، حياة جيل عاش فى النصف الأول من القرن الماضى وجيل عاش فى النصف الثانى من ذلك القرن وأوائل القرن العشرين . فيعرض لفكرة المساواة فى الحقوق وفى الواجبات ، وابناء الجيل الأول يعرفون أن السلطة كلها كانت مركزة فى يد الوالى وأن طبقة « الباشوات » لها من الحقوق ما ليس لغيرها ، وعليها من الواجبات أقل من غيرها بحكم الاقطاعيات التى تملكها أو الألقاب التى تحملها ، ولكن أبناء الجيل الجديد الذين تأثروا بالمفاهيم الغربية يعرفون المساواة أمام القانون . ويصدم الباشا ـ وهو بطل الموقف ومن الجيل الماضى الذين قدر لهم أن يشهدوا الحياة الجديدة التى تبدل فيها كل شىء ـ حين يرى أنه لا يختلف أمام القانون عن أى صغير أو حقير ، فيقول : « ما هذه الخطوب والملمات ، لقد كنت أظن أن ما وقع لى أمس كان لسخط ولى نعمتنا الداورى الأعظم وغضبه على عبده بمكيدة كادها لى أعدائى أو فرية افتراها حسادى ، فلذلك صبرت لحكم الضرورة ، وامتثلت على تلك الصورة .. ثم انى أعمد بعد ذلك انشاء العقاب ، عقاب القتل والصلب فى هؤلاء

(١) سلافة النديم جـ ١ ص ٧٩ ، ٨٢ .

الأدنياء السفهاء والأشقياء الأغبياء جزاء ما اجترأوا عليه فى معاملتى واقترفوه من جهل منزلتى ، ولكنى سمعت فى الحبس — ويا سوء ما سمعت — أن الدول دالت والأحوال حالت . وانكم أصبحتم فى زمان غير ذلك الزمان ، وفى حال من الفوضى يصح فيها قول ذلك المكارى انه هو والباشا فى المنزلة سواء » (١) .

ثم ينتقل الى الحديث عن التقدم العلمى وخاصة فى الطب — وهو مثل من أمثلة الرقى — حين أصيبت البلاد بالوباء ، ويعجب الباشا لهذا التقدم العلمى الكبير ، ويستمر فى مسيره مع عيسى بن هشام ، فينتقل الى الجانب الثانى من المجتمع حيث تتركز سيئات المدنية : فهى طبقة « حديثة النشأة حديثة التربية لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ، لم يرسخ الايمان فى قلوبهم ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم ، ولم يتأدبوا بأدب الدين ، ولم يرتاحوا لحسن اليقين . بل اقتصرت بضاعتهم على ما تلقوه فى المدارس من العلوم الآلية ، والفنون الصناعية ، دون علوم التربية النفسانية والفضائل الروحانية . وخلت صدورهم من آيات الله والحكمة ، قد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون بالشرائع والازدراء بالايمان ، ولم يحيطوا بشىء من العلوم الموضوعة لتقويم النفوس وتطهير الطباع » (٢) .

وقد ارتمت هذه الطبقة فى المباذل التى حملتها الينا الحياة الغربية مع ما حملت ، ولم يقتصر الأمر على سكان المدن ، بل ان بعض أهل الريف الموسرين الذين عرفوا طريقهم الى المدن الكبيرة كالقاهرة كانوا يأتون للهو والمجون ويقعون فى أحابيل الخلعاء وسماسرة الفجور ، يدمنون الخمر ويرتمون فى أحضان الرذيلة ، لا يردعهم رادع ولا يحسبون حسابا لما ينفقونه فى فنون الخلاعة .

---

(١) حديث عيسى هشام ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٢ .

ويخلص المويلحى الى تصوير حسنات المدنية الغربية الغازية وسيئاتها ، مختتما بما على الشرق أمام هذا التيار ، من اقتـــداء بالغربيين فى تقدمهم الصناعى وتطورهم العلمى ، مع التمسك بفضائل الشرق التى تنبع من روحانيته الخصبة . وهكذا فهم الناس الحرية فهما خاطئا فى كثير من الأحيان ، فهموا منها التحلل من التقاليد تحللا أشبه بالفوضى ، بينما فهمها العقلاء بمعنى المساواة فى الحقـــوق والواجبات . ومن هنا وجدنا عبد الله النديم يخصص مجلة الطائف للحديث عن أمراضنا الاجتماعية التى جاءت نتيجة الفهم السيىء لمعنى الحرية . وهذا فى الواقع هو سر التخلخل الاجتماعى الذى أصاب الشرق فغلبت المادية على حياة الكثيرين ، والمرء فى حاجة الى السـمو الروحى الى جانب البسطة المادية ليحتفظ بتوازنه فى الحياة (١) .

تلك اذن صورة العصر الذى عاش فيه صاحبنا البكرى ، فاذا رأيناه داعيا للاصلاح الاجتماعى على أساس اسلامى ، أو داعيا للاصلاح السياسى فى نطاق الجامعة الاسلامية فهو متأثر بأحداث عصره وبآراء الرائد الأول جمال الدين ، واذا وجدنا بعد ذلك تأثره الشديد بالثقافة العربية والقيم الشرقية ثم تأثره القوى بالثقافة الأوربية ومحاولته الملاءمة بين الحياة الشرقية وضروب المدنيـــة الأوربية الغازية فهو ابن العصر الذى يمر بمرحلة تفاعل شـــديد ومخض قوى لا يلبث أن يقطع الشك باليقين .

---

(١) الاتجاهات الفكرية لجميل صليبا ص ٥٨ .

# فى بيت البكرى

يحفظ لنا تاريخ الأنساب قصة هذا البيت الذى ينتسب الى أبى بكر الصديق فى الأصل ، ثم يتفرع فيصل الى الحسن بن على ، كلما ورد فى « بيت الصديق » . واهتمام العرب بأنسابهم معروف منذ العصر الجاهلى ، وكل البيئات القبلية تحفظ أصولها وفروعها وتفاخر بها ، ولم يستطع الاسلام فى الواقع أن يقضى قضاء تاما على العصبية للأنساب والتحمس لها فقد انبعثت قوية جارفة بعد وفاة الرسول كما نعلم واشتدت فى العصر الأموى وكانت محور كل صراع قام فى ذلك الوقت ، ولكن التطـــور الحضارى فى العصر العباسى ـ وما أعقب ذلك من عصور بطبيعة الحال ـ أذوى أشجار النسب فى كثير من الأحيان ، خاصة عندما قام الصراع الشعوبى بين العرب والفرس ، فأصبح الانتساب الى العرب عامة والانتساب الى الفرس عامة أيضا هو مجال النسب والتفاخر . ولكن بالرغم من مر السنين وتطور الأحداث وتقلب الحضارات وتغير النظرة الى دواعى الفخر ومجالاته بقى الأشراف يحتفظون بأنسابهم ، كما تحفظ أسرة البكرى أنسابها الى اليوم .

وتذكر الروايات أن محمد بن أبى بكر قد دخل مصر واليا عليها من قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ولكنه ما لبث أن قتل من دعاة بنى أمية . ثم رحل بعد ذلك الى مصر بعض بنى الصديق فى القرن الأول الهجرى فقطعوا البحر الأحمر الى الصعيد حيث ألقوا عصا التسيار . يقول المقريزى : « وكان بالصعـــيد من قريش بنو طلحة وبنو الزبير وبنو شيبة وبنو مخزوم ، فأما بنو طلحة فهم ينتسبون الى طلحة بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله

عنه ، ومنازل بنى طلحة هؤلاء كانت بالبرجين وطحا » (١) . وبقى بنو طلحة أربعة قرون تقريبا ، حتى اذا كانت أيام صـــلاح الدين الأيوبى ، نجد فرعا منهم قد رحل الى الشام وفرعا آخر رحل الى الفيوم . وفى خزانة السادة البكرية ، وقفية مؤرخة فى شـــوال سنة ٥٨١ هـ تشترط أن يقوم البكريون بالتدريس فى المدرســة الشافعية التى أسسها الملك المظفر ابن أخى صلاح الدين الأيوبى بالفيـــوم .

ولم تخرج لنا الأسرة البكرية أساتذة المذهب الشافعى وحدهم ، فكثير من كبار العلماء والشعراء ينتسبون الى الدوحة الصديقية أمثال الفخر الرازى البكرى الفيلسوف المفسر ، والشريف الرضى الشـــاعر والفيروزبادى الصديقى صاحب القـــاموس المحيط وابن الجوزى والسهروردى وغيرهم ممن حملوا مشاعل العـــلم والفقه ، أو ممن جذبهم تيار السياسة فوصلوا الى الامارة مثل على خان أمير حيد آباد ، أو عرضت عليهم الخلافة فى مصر مثـل شيخ الاسلام محمد جلال الدين البكرى فى القرن التاسع الهجرى ، وترجمته مفصلة فى ذيل الطبقات للشعرانى والضوء اللامع للسخاوى وفى الجزء الثانى من رحلة عبد الغنى النابلسى . ويحكى تاريخ النسب أن هذا الشيخ الجليل كان أول من نزل القاهرة من الأسرة البكرية .. يقول الشعرانى فى ترجمته : « كان من العلماء العاملين ، وله القدم الراسخ فى علوم التصوف والفقه والأصول وغير ذلك ، أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ كمال الدين البكرى .. وكان رضى الله عنه يكرم كل وارد عليه من أمير وفقير أو غنى أو حقير ويقدم لكل واحد ما يناسبه ، وكان كثير الأدب والحياء كريم النفس جميل المعاشرة حلو الكلام كأن الله تعالى عجن طينة جسده من سائر المحاسن . وكان

(١) بيت الصـــديق ص ٦ نقلا عن البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعـــراب .

على طريقة العرب فى الكرم والنخوة والمروءة وكان كثير الشفاعات عند الأمراء وغيرهم وكانوا يهابونه ويجلونه وكان مهيب المنظر عليه خفر العلماء » (١) .

ويحكى التاريخ أن جنود مصر حين ثاروا على السلطان «الغورى» وارادوا خلعه من الملك ، توجهوا الى الشيخ جلال الدين البكرى ، وطلبوا اليه أن يقبل الخلافة على المسلمين فى مصر ، بعد أن توسموا فيه كل الصفات التى ترشحه للخلافة من علم وتقوى وشجاعة ، وبعد أن فضلوه لانتسابه الى أبى بكر الصديق ، الذى كان خليفة لبلاد المسلمين . « فقال اصبروا فان سلطانكم قريب ، ثم وقع ما وقع وجاءهم السلطان سليم » (٢) .

ويستمر التاريخ فى قصته ، فتتتابع فصول الأسرة البكرية وعلى رأس كل فصل عالم من الأعلام ، حتى يتوقف عند السيد على البكرى الصديقى ــ والد السيد محمد توفيق البكرى . والواقع أن حياة هذا الرجل لا تكاد تختلف عن حياة آبائه ، ولكنها حياة عريضة بمعنى أنها صورة مكبرة لحياة أجداده وصورة مصغرة لحياة أمة كلها . فهو المرجع الأعلى فى الشئون الدينية ، وهو نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ورئيس الأسرة البكرية أو خليفتهم . وفى بيته كانت تعقد أخطر الاجتماعات الدينية والسياسية . وفى مكتبة البكريين صك كتب بمنزل السيد على عند تولية الشيخ البيجورى مشيخة الجامع الأزهر ، ومضمونه ان الترشيح لهذا المنصب الكبير انما يتم عن طريق اختيار السيد على البكرى .

« الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين . انه لما كان فى يوم الأحد المبارك الموافق ١٩ شعبان سنة ١٢٦٣ حضر

(١) « بيت الصديق » ص ١٠٠ .
(٢) بيت الصديق ص ١٠٢ نقلا عن رحلة عبد الغنى النابلسى .

بمجلس سعادة الأستاذ الأعظم السيد البكرى نقيب السادة الأشراف حالا ، دامت سيادته ، حضرة شيخ الاسلام وعلامة الأنام ، الشيخ ابراهيم البيجورى المذكور .. قبل حضور الفرمان الشريف بتوليته على الجامع الأزهر ، ووقع الاتفاق ان يكون على احسن حالة واتم صفة من الكمالات التى يقتضيها مظهر شياخة الأزهر على طبق احوال السلف وأن يكون طبق الأصول المعروفة للجميع الموافقة للطباع الحميدة من سعة الصدر وحصول الحلم وعدم التعرض للأمور التى لا تدخل تحت رسوم الجامع الأزهر مثل ما يتعلق بالزوايا وبالفقراء التى تحت حكم سعادة السيد البكرى .. » (١) .

وقد اجتمع فى منزله اعيان الأمة ووضعوا اللائحة الوطنية التى تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربا ، حتى لا تتدخل أصابع الدول الأجنبية فى شئون مصر ، وكان هذا من اكبر الاجتماعات التى شهدتها الدار ، فقد أحدث فى الناس شعورا بالقوة لم يلمسوه فى أنفسهم من قبل ، وأحسوا أنهم يستطيعون أن يعتمدوا على قوتهم وأن يوجهوا أمورهم كما يقول الشيخ محمد عبده (٢) ، ومن هنا لقبته الجرائد بشيخ الأمة .

وزاره الخديو اسماعيل بعد ذلك فىداره شاكرا له مسعاه ،طالبا منه أن يسعى مرة اخرى فى انقاص نسبة الفائدة على الديون المصرية ، فتوجه الى السير بارنج ــ لورد كرومر فيما بعد ــ واكبر الرجل هذه الزيارة من رجل الدين الكبير وشيخ الأمة ، ورفض السيد على البكرى أن يذوق شيئا قبل أن يسمع رأي السير بارنج فى انقاص نسبة الفائدة الكبيرة ، فأجيب الى طلبه فى الحال ، وخرج يملأ القلوب والأفواه كما كان يقال عنه (٣) .

(١) راجع نص الصك فى « بيت الصديق » ص ٤٢ .

(٢) تاريخ الأستاذ الامام ج ١ ص ١٦١ .

(٣) روى لى هــذه القصة السيدان حسن فائق البكرى وسيف الدين البكرى قريبا السيد محمد توفيق .

وكان هذا البيت الذى شهد كل تلك الأحداث بالأزبكية ، مطلا على بركتها المشهورة . يقول الجبرتى : « ان الرغبة فى سكن هذه البركة انما كان لتسريح النظر وانبساط النفس باتساعها واطلاقها وخصوصا أيام النيل حين تمتلىء بالماء فتصير لجة ماء دائرة بركارية مملوءة بالزوارق والقنج والشطيات المعدة للنزهة تسرح فيها ليلا ونهارا . وعند دخول المساء يوقدون القناديل بدائرها فى جميع قواطين البيوت فيصير لذلك منظر بهيج لا سيما فى الليالى المقمرة فيختلط ضحك الماء فى وجه البدر والقناديل وانعكاس خيالها كأنها أسفل الماء ايضا وصدى أصوات القيان والأغانى فى الليل لا تعد من الأعمار اذ الناس ناس والزمان زمان » (١) .

وفى أواخر أيام اسماعيل عند تنظيم بركة الأزبكية وما حولها اخذت دار السيد على البكرى المذكورة وأعطاهم الخديو بدلا منها سراى سعيد باشا بالخرنفش ، وهى سراى ضخمة انتقلت اليها الأسرة البكرية فملأت اجنحتها العديدة ، ومنها كان يخرج المحمل الشريف وفيها كانت تقام ليالى المولد النبوى كما يقول على مبارك فى الخطط التوفيقية (٢) .

كان هذا هو منزلى الرسمى الذى تقام فيه الاحتفالات والاجتماعات الهامة ، وتسكنه الأسرة البكرية كلها كما قلنا ، أما فى الشتاء فينتقل الى بيته بضواحى شبرا ، وهناك على مدى النظر لا تكاد ترى سوى بساتين وحدائق وخضرة مترامية ، أما البيت نفسه فآية فى الفن العربى خاصة فى الزخرفة ، واذا دققت النظر ، وجدت دائرة كبيرة تحكى قصة البيت بماء الذهب منظومة فى قصيدة طويلة مطلعها :

كتب الحسن بأقلام الذهب     فى طراز لازوردى عجب

---

(١) راجع بيت الصديق ص ٣٩٧ .

(٢) راجع بيت الصديق ص ٤٠٠ .

وأما فى الصيف فينتقل الى قصره بالروضة ، وقد تخير هذا القصر لذلك الوقت من العام ، فموقعه على النيل وانفساح الأرض على الضفة الأخرى من النهر ، بحيث لا يرى الناظر سوى المزارع والشجر يكشفه أمام الرياح الرطبة ، بينما يمتلىء النيل بسفن ومراكب المتنزهين فى ليالى الصيف (١) .

وقد شهدت كلّ هذه القصور مجالس العلم التى كان يعقدها السيد على البكرى ، فيتصدر تلك المجالس بجسمه الضئيل ووجهه النحيل ولحيته البيضاء وعمامته الكبيرة ، ويلتف حوله العلماء يناقشونه فى أمور الدين ، وكثيرا ما يتبـــدل المجلس فيحيط به الوجهاء يتناقشون فى الأوضاع السياسية ، أو يقصده فى تلك الدور ذوو الحاجات من أبناء الأمة أو من أدباء الوطن العربى .

وفى أحد تلك القصور ــ قصر الروضة ــ وفى فجر ليلة الجمعة ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٨٧ هجرية الموافقة لسنة ١٨٧٠ ميلادية ، ولد محمد توفيق ، وكان الولد الثانى للسيد على البكرى الذى نيف على الستين . ولم يكن من الممكن أن تنجب له زوجه الأولى ولدا ثانيا بعد أن بلغت سن الشيخوخة ، وبلغ ابنهما عبد الباقى العشرين من عمره ، ولذلك تزوج ثانية وهو فى هذه السن ليسعد بنعمة الأبناء مرة أخرى . ولم يلبث الصيف أن انقضى فانتقلت الأسرة الى قصر الخرنفش ، وهناك درج الطفل وقضى طفولته السعيدة .

كان هذا الطفل محط عناية الجميع فى القصر الكبير ، فما أسعد الأب الشيخ بولده الصغير ، يزيل بابتسامته كل متاعب الحياة ، وما أسعد الطفل بهذه الرعاية التى يلقاها من الأهل والجـــوارى والعبيد ، كلهم يحنون عليه لضعفه البادى فى نحوله الشـــديد ، ويحبونه لملاحة قسماته ، ويعجبون به لأن رأسه الكبير كان يوحى بذكاء شديد تظهر بوادره فى هذه السن المبكرة .

---

(١) بيت الصديق ٣٩٩/٤٠٠ .

بدأ الصبى يقرأ القرآن فى بيته ، وبدأ يتعلم مبادىء اللغة العربية ، ولم يكن عسيرا عليه أن يدرك معنى الآيات مبسطا . حتى اذا أتم قراءة القرآن وتعلم مبادىء العربية ، دخل المدرسة العلية التى أنشأها الخديو توفيق لأنجاله ، وانتقل اليها أبناء كبار الرجال فى مصر . وهناك درس مبادىء الرياضة والتاريخ والجغرافيا واللغتين العربية والفرنسية ، ولم يجذبه شىء فى دراسته قدر ما جذبته اللغات .

كان الوقت شتاء عندما انتقلت الأسرة الى مقرها بشبرا ، وكان السيد على البكرى الذى نيف على السبعين قد اقعدته الشيخوخة بأمراضها ، ولم يلبث أن ودع الحياة ليلة السابع عشر من ذى القعدة سنة سبع وتسعين ومائتين وألف للهجرة الموافق لسنة ثمانين وثمانمائة وألف للميلاد ، وترك ولده عبد الباقى يخلفه فى مناصبه وكان فى الحادية والثلاثين من عمره ، كما ترك ولده الصغير محمد توفيق يذوق اليتم صبيا لم يتجاوز العاشرة من عمره .

كان الصبى فى مأمن من أحداث الدهر وغوائله ، فأملاكه موفورة ، وأخوه كفيل برعايته ، ولكن الصبى فقد حنان الأبوة ، وبقى معنى الحياة والموت يداعب خياله الصغير دون أن يقوى على تفسيره . وكلما لاح له شبح أبيه وعز عليه أن يراه ، وكلما افتقد عطف الأبوة ، أسرع الى المقابر يذرف الدمع :

أيقطر هذا الدمع كالشمع أو أحمى
ويصبح هذا الهم كالسهم أو أصمى
وتخشع نفسى كلما شمت باللوى
قبور بنى الصديق اذ رفعت ثما

وكأنما كان لهذا الحادث أثره المباشر فى انطواء الصبى ، فانكب على علومه يستوعبها ولا يكاد يعرف غيرها مجالا لفراغه ولطاقته ،

فلم يكن مهيئا بطبيعة تكوينه الرقيق للعب والمزاح الحاد كأكثر الصبية فى عمره . وزاده انكبابا على القراءة ، ما كان بينه وبين الأمير عباس حلمى نجل الخديو توفيق من منافسة على الأولوية . ولم يكن يغيظ الأمير الصغير شيء الا أن يتفوق عليه أحد أبناء الشعب ، فكان يعمد الى مضايقة توفيق البكرى بطرق ممجوجة كلما كانت الأولوية من نصيبه . حدث مرة أن أمـــر الصبى اليتيم فى مطعم المدرسة بأكل الجبن المقدم له وهو يعلم أن توفيق البكرى لا يحب هذا النوع من الطعام ، وانصاع الصبى لأمر الأمير ثم ما لبث أن تقيأ بعد حين ، وكره الجبن كراهية اشد منذ ذلك الوقت ، فلم يذقه الى آخر عمره (١) . وكأن القدر قد ربط مصيرهما منذ ذلك الحين ، فقد صعدا معا ، ثم ما لبثا أن هويا من حالق ، فى وقت يكاد يكون واحـــدا .

لم تطل اقامة توفيق البكرى بالمدرسة العلية فقد أغلقت فى أعقاب الاحتلال ، وسافر أبناء الخديو الى أوربا لاتمام دراساتهم ، وعكف فتانا على اتمام ما بدأه من علوم تحت اشراف بعض الأساتذة ، ولم يكن هناك ما يشغله عن شغفه بالقـــراءة ، فانعدام المنافسة لا يثبط عزيمته ، والاحتلال نفسه ، لم يكن فى هذه الفترة من عمره قادرا على أن يدرك آثاره . وهكذا تقدم الفتى بعد اربع سنوات لامتحان البكالوريا فى مصر ، فكان أول الناجحين .

لم يكن أمامه بعد ذلك الا أن يتجه اتجاه آبائه فيلتفت الى علوم العربية وعلوم الدين ، وهو لن يجد أمامه عقبة الغموض التى طالما اشتكى منها طلاب الأزهر لأن ثقافته تمكنه من متابعة تلك العلوم وعقله وسنه يمكنانه من فهم ما قد يغمض على غيره . وهكذا أيضا بدأ الطالب الفتى يشغل نفسه بالنحو والصرف ، ويعيد قراءة

(١) روى لى هذه القصة السيد حسن فائق البكرى : وكان السيد توفيق لا يفتأ يذكرها له .

القرآن محاولا التعمق فى فهمه بالرجوع الى أمهات التفاســـير . ثم درس الحديث والفقه والأصول . وفى هذه المرة جذبته البلاغة العربية ، فها هو ذا يقرأ علوم المعانى والبيان والبديع فلا يجد فيها مصطلحات متحجرة ، وانما يجد فيها مادة حية شديدة الخصوبة ، قادرة على أن تضع يد الأديب على سر الابداع والتفوق الفنى ، حين يدرك ما وراء هذه المصطلحات من ايحاءات ، وهكذا كان الأديب البليغ فى العصور الذهبية .

وبعد أن آنس من نفسه القدرة على التعمق والبحث وحده فى تلك العلوم تقدم لشيخ الجامع الأزهر الشيخ الانبابى ليختبره بنفسه فيما يدرس بالأزهر من العلوم ، ففعل وكتب له اجازة قال فيها :

« وممن اعتنى بعد ما اقتنى ، وقطع المفازة فطلب الاجازة ، ولدنا النبيل العالم النجيب الجليل ، فخر السلالة الهاشمية وطراز العصـــابة الصديقية ، السيد محمد توفيق ، نخبة نسل صاحب رسول الله أبى بكر الصديق ، بعد أن قرأ على رسالة الأوائل للشيخ عبد الله بن سالم البصرى ونبذة من الأصـــول والفقه والحديث والتفسير ، وطرفا من العلوم العربية كالنحو والصرف والمعـــانى والبيان والبديع ، مع جودة الالقاء وحسن التوضيح والتقرير ، فلما لاح لى كوكب صلاحه ، وفاح لى نشر مسك فلاحه ، ورأيته أهلا لتلك الصناعة ، وجديرا بتعاطى هاتيك البضاعة ، حيث أفاد وأجاد وأجاب ، وكشف عن المعانى النقاب ، وأخذ من الفنون بأقوى طرف ، وأراد الاقتداء فى أخذ الأسانيد بمن سلف ، فبادرت لطلبه باعطائه بلوغ أربه » (١) .

وهكذا أصبح الشاب ذو الثقافة المدنية من علماء الدين وهو فى الثانية والعشرين من عمره بشهادة شيخ الأزهر . فكان يتزيى بزى

---

(١) بيت الصديق ص ١١ .

الشيوخ ، جبة وعمامة ضخمة يكاد ينوء بها جسده النحيل ، ووجهه الأبيض الشاحب وملامح وجهه الوسيم الدقيق تكسبه سمت العلماء ووقارهم فى ريعان الشباب وعنفوانه . ولم تلبث الأحداث أن جرت مسرعة عجلة لا تتأنى ولا تتلبث ، فها هو ذا الخديو توفيق يودع الحياة ، ويعود ولده عباس حلمى من أوربا ليتولى الخديوية وهو اشد ما يكون انكارا لأبيه ــ خضوعه واستسلامه للمستعمر . ولابد أن تثير عودة عباس حلمى ذكريات توفيق البكرى القديمة معه ، فترى ماذا يخبىء له القدر فى مستقبل الأيام مع زميل صباه ومنافسه القديم ؟

# شيخ المشايخ

اثنا عشر يوما فقط مرت على وفاة الخديو توفيق ، وهو غارق فى ذكرياته ، حتى اقتلعته الأحداث اقتلاعا ، ففى ليـــلة الثلاثاء التاسع عشر من جمادى الثانية سنة تسع وثلاثمائة وألف الموافق لسنة ألف وثمانمائة واثنتين وتسعين ، ودع أخوه عبد الباقى الحياة وهو أشد ما يكون شبابا . ترى هل يتحمل هو مسئولية المناصب التى شغلها عبد الباقى وهو فى هذه السن ؟ ولكنه طالما اعتمد على نفسه وارادته فى مراحل حياته السابقة منذ عرف اليتم صغيرا . ولم يلبث أن استدعاه الخديو عباس وولاه الوظائف الموروثة فى بيت البكرى جميعا ، المشيخة البكرية ، ومشيخة المشايخ الصوفية ، ونقابة الأشراف . ثم صدر الأمر بتعيينه عضوا دائما فى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، وأنعم عليه الخديو بكسوة التشريف من الدرجة الأولى وبالنشان المجيدى الثانى .

والواقع أن شيخ البكرية كان يتولى مشيخة الطرق الصوفية من زمن ولهذا تداخلت اختصاصات المشيختين . قال جورجى زيدان فى تاريخ التمدن الاسلامى : « مشيخة الطرق الصوفية من المناصب الدينية التى حدثت بعد حدوث الصوفية . ولصاحبها التكلم على جميع الطرق . والشأن فى هذه الطرق أن لكل طريقة شيخا ولكل شيخ خلفاء فى القرى والأمصار ولكل خليفة مريدين . فالشيخ يدير أمر الخلفاء والخلفاء أمر المريدين من حيث ارشادهم ومراقبتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتربيتهم ونحو ذلك . ولشيخ المشايخ الولاية العامة على الجميع . ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها أعمالهم وتتوحد بها مقاصدهم ، بل كانت

كل طريقة أو زاوية مستقلة بنفسها فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن . فلما انشأ السلطان صلاح الدين الأيوبى خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية جعل لشيخها شبه تقـــدم على غيره من المشايخ ، وكان لا يولى عليها الا أعاظم رجال الدولة من الأكابر والأعيان كأولاد شيخ الشيوخ ابن حموية مع ما كان لهم من الوزارة والامارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش . ووليها ذو الرياســـتين الوزير الصاحب تقى الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز وغيره . وما زالت الحال كذلك الى أن توحدت رئاسة الصوفية بمصر فى القرن التاسع للهجرة فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكرى ، وكان من أعظم رجال عصره علما ودينا . قال الشعرانى عنه ( ولو قلت انه أعلم أهل زمانه لم أبعد عن الصواب ) ثم تولى بعده ابنه الامام شيخ الاسلام العلامة الشهير ابو السرور البكرى ,وانتقلت بعده الى ذريته ولا تزال الى الآن فى البيت البكرى الصديقى بمصر » (١) .

فلهذه الوظيفة اذن التكلم على سائر الطرق الصوفية والتكايا والأضرحة والزوايا التى بالقطر المصرى ، ولكنا اذا نظرنا الى الفرمان الصادر من سعيد باشـــا الى السيد على البكرى بتولى المشيخة البكرية وجدنا الاختصاصات تتداخل كما قلنا فهو « يتكلم عـــلى طوائف الفقراء الصوفية وسائر التكايا والأضرحة والزوايا .. حكم تقريره الشرعى وطبق نصه الواضح المرعى ، وحيث صار تمكينه من ذلك خلفا لأسلافه بنى الصديق حسب اللياقة والأهلية التى توسمت فيه بالتحقيق ليجرى ما يتعلق بأمورها كما استمرت عليه عادات السلف ذوى المجد والشرف ، وأن يحكم بين الفقراء على موجب قوانينهم القديمة مع رعاية قواعد التحقيق المستقيمة » (٢) .

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ٢٦١ .
(٢) بيت الصديق ص ٣٧٨ .

أما نقابة الأشراف فلها تاريخ أطول من مشيخة الطرق الصوفية . فالشرف فى الأصل بمعنى الرفعة وكان يطلق فى الجاهلية على عظماء العرب ، فلما جاء الاسلام خصه ببيوت قريش ، وجعلهم أكفاء فى النسب ومن هذه البيوت بيت هاشم وجاء الاسلام ورئيسه العباس ابن عبد المطلب ، وبيت تيم بن مرة ورئيسه أبو بكر وبيت عدى ورئيسه عمر . ولهذا نجد فى كتب التاريخ فلانا الشريف العباسى وفلانا الشريف العلوى ونحو ذلك . وأما حصر الشرف فى ذرية على رضى الله عنه فذلك حديث العهد نسبيا ، وهو منذ زمن الفاطميين . وقد حرص القوم منذ الصدر الأول على حفظ أنساب تلك البيوت ، فأحدثوا وظيفة نقابة الأشراف ، وهى وظيفة عامة تشمل التكلم والنظر فى أنساب جميع الأشراف من أهل تلك البيوت . وربما كان تحت ادارتها عند تكاثر أبناء بعض الفروع نقابات أخرى فرعية كنقابة الطالبيين ونقابة العباسيين . ومركز هذه الوظيفة كان من الجلال والرفعة بحيث نجد الشريف الرضى نقيب الأشراف فى بغداد يخاطب الخليفة قائلا :

عطفا أمـــير المؤمنين فاننــــا ... فى دوحة العـــــلياء لا نتفرق
ما بيننــا يوم الفخــــار تفاوت ... أبدا كلانا فى المعــــالى معرق
الا الخـــــلافة ميزتك فاننى ... أنا عاطل منهــــا وانت مطوق

وقد بقيت تلك المكانة لنقيب الأشراف فى الدولة العثمانية ، فهو مقدم فى التشريفات الرسمية على جميع رجال الدولة حتى رئيس الوزراء وشيخ الاسلام . ولم تزل هذه الوظيفة فى البيت البكرى من القرن الثانى عشر الهجرى ، حتى صدر المرسوم الخاص بتولى السيد محمد توفيق البكرى نقابة الأشراف فى ٢١ يناير سنة ١٨٩٢ .

« انه لمناسبة انتقال المرحوم السيد عبد الباقى أفندى البكرى نقيب الأشراف وكون هذه الوظيفة من قبل مع والده وجده من مدة ،

ومنزلهم من المنازل الشهيرة التى من سجايا دوام بقائها معمورة مفتوحة قد اقتضت ارادتنا احالة تلك الوظيفة الى عهدة أخى المرحوم المشار اليه وهو السيد محمد توفيق أفندى البكرى والتأشير على معتاداتها وعوائدها باسمه كما كان المرحوم أخوه ، وبناء عليه لزم اصداره لعطوفتكم لاجراء ايجابه كما اقتضت ارادتنا » (١) .

كانت مهمات السيد توفيق اذن متعددة الجوانب فهو مسئول عن النظر فى شئون هذه الطوائف من حيث اصـــلاح ذات البين والقضاء ، لأنه أشبه برئيس وزراء هذه الجماعات ، يجتمع بأهل النظر منهم فى صورة دورية ، فاذا كانت شعب الطرق الصوفية وحدها اثنتين وثلاثين شعبة منها الرفاعية والقادرية والأحمـدية وغيرها ، أدركنا عظم المسئولية الملقاة على عاتقه . والأمر لا يتعلق باصلاح ذات البين بين أفراد هذه الفرق فقط ، وانما يتعلق أيضا باصلاح أمورها وتنظيمها وتطوير مراسيمها بحيث تصبح قوة لها فعالياتها ، بدلا من أن تصبح تصرفاتها فى المناسبات وفى غير المناسبات بدعا مستنكرة من طوائف المثقفين .

أما الأمر الآخر فيتعلق بالمواسم نفسها ، فهو مسئول عن تنظيم بعض الاحتفالات ، فمن المتعارف عليه أن يحيى ليالى رمضان فى قصره بالترانيم الدينية والتوسع فى أعمال الخير والبر كما كان يصنع أجداده . ومن مسئولياته الرسمية الاستعداد لمراســيم المحمل فى كل عام ، فتخرج الكسوة من قصره فى احتفال ضخم يحضره الخديو وكبار رجال الدولة وتسير وراء المحمـــل الفرق الصوفية بأعلامها وبيارقها .

كان على السيد توفيق البكرى شيخ البكرية ونقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية أن يقوم بكل ذلك ، وكان عليه أيضا

---

(١) بيت الصديق ص ٣٩٦ .

أن يستعد كل عام للاحتفال الضخم بالمولد النبوى . يقول على مبارك فى خططه عن المولد النبوى : « هو اليوم الذى استنار بطلعته الوجود وأضاءت منه عوالم الغيب والشهود . قد جـــرت عادة الممالك الاسلامية شرقا وغربا بالاحتفال به وتعظيمه واجلاله ، ولم يحدث ذلك الا بعد القرون الثلاثة ، غير أنه بدعة حسنة لاشتمالها عـــلى الاحسان للفقراء وتلاوة القرآن الكريم والذكر والصلاة على رسول الله ، واظهار السرور والفرح بمولده الشريف ، ولقد أثنى الامام الكبير أبو شامة مزيد الثناء على الملك المظفر صاحب أربل المتوفى سنة ثلاثين وستمائة بما كان يفعله من الخيرات فى هـــذه الليلة الشريفة » (١) . ويذكر ابن خلكان فى ترجمة الملك المذكور ، أن احتفاله بالمولد الشريف النبوى يقصر وصف الواصفين عن الاحاطة به ، غير أنه لابد من ذكر نبذة يسيرة منه ، ثم أطال فى تلك النبذة اليسيرة ، فروى كيف كان العلماء والصوفية وذوو الفضل من القاطنين بالبلاد القريبة منه يفدون عليه مع خلق كثير ابتداء من المحرم الى أوائل ربيع الأول ، فيرسم بعمل عشرين قبة أو أكثر ، بكل قبة خمس طبقات ، فاذا استهل صفر زينت تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة ، وفى كل يوم يمر الملك بعد صلاة العصر على جميع تلك القباب ثم يعود الى القلعة . وكان يحتفل بالمولد كل سنة ليلة الثانى عشر من ربيع الأول وسنة ليلة ثمان منه مراعاة للخلاف فى ذلك ، فاذا كان قبل المولد بيومين ، أخرج من الابل والبقر والغنم شيئا زائدا عن الوصف الى محل المولد ، فيذبحونها ويتفننون فيها بأنواع الأطعمة الفاخرة . وفى ليلة المولد ينزل الملك من القلعة وبين يديه من الشموع ما لا يحصى وفى جملتها أربع شمعات من الشموع المختصة بالمواكب التى تحمل الواحدة منها على بغل موثقة بالحبال يسندها رجل من خلفها . وفى صبيحة تلك الليلة توزع الخلع السنية

(١) راجع بيت الصديق ص ٤٠٤ .

على الصوفية والعلماء ثم ينزل هو الى الخانقاه وتجتمع الأعيـــان والرؤساء وكثير من الناس وينصب له برج من الخشب له نوافذ يشرف منها على الناس بميدان فى غاية الاتساع تعرض عليه فيه الجند ذلك اليوم فاذا تم العرض وفرغ الوعاظ من الوعظ قدم فى ساحة الميدان السماط العام الذى لا يوصف ولا يحد ما فيه من الطعام والخبز ويمد سماط ثان لخواص الناس المجتمعين عند كرسى الوعظ المنصوب بجانب البرج . وقبل مد هذين السماطين يخلع الملك على جميع الحاضرين والوافدين . ثم يحمل من ذلك الطعام الى دور جماعة كثيرة ولا يزال كذلك الى العصر ويبيت هناك تلك الليلة ، ثم يدفع لكل شخص من الوافدين شيئا من النفقة وهكذا دأبه كل سنة كما شاهده ابن خلكان بنفسه . هذا فى المشرق أما فى المغرب والأندلس ، فقد ذكر « المقرى » فى « نفح الطيب » أن السلطان « أبا حمو » كان يصنع مآدب تدعى اليها الأشراف والعامة ثم أطنب فى وصف الفرش والنمارق والشموع وحلية المجالس فى تلك المآدب ما يفوق الوصف . وتطوف على الحاضرين مباخر بأيدى ولدان يلبسون الحرير . وبأعلى ( الساعة الدقاقة ) فى ذلك المجلس أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه وفيها أرقم خارج من كوة وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، وبطرفيها بابان كبيران وفوقها قمر بدر يسير سير نظيره فى الفلك وكلما انقضت ساعة انقض من البابين الكبيرين عقابان مع كل واحد منهما صنجة يلقيها الى طست مجوف بوسطه ثقب يفضى الى داخل الساعة فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة وتبرز منه جارية محتزمة بيمناها رقعة فيها اسم الساعة نظما . كل ذلك والمسمع قائم ينشد مدائح سيد المرسلين (١) .

---

(١) راجع « بيت الصديق » ص ٤٠٥/٤٠٧ .

وهكذا كان البكريون بمصر يحتفلون بالمولد النبـــوى اعظم احتفال . ففى أوائل العشرة الأخيرة من شهر صفر فى كل عام تصنع بمنزلهم مأدبة فاخرة يدعى اليها كافة مشايخ الطرق الصوفية والأضرحة والتكايا ، والوجوه والأعيان ، فيدخل أرباب الطرق بالبيارق رافعين أصواتهم بالذكر والصلاة على الرسول ، ثم يعين لكل واحد من الصوفية ما يخصه من ليالى المولد لاحيائه ، وفى اليوم التالى تفتتح المقارىء بالمنزل ، مؤلفة من نحو مائتى قارىء ، مع ايقاد الشموع الكثيرة العظيمة ، ويخلع السيد البكرى على مشايخ الطرق . ثم تضرب الخيام على شكل دائرة ولا يزال ذلك الى ليلة الرابع من ربيع الأول . ثم تزدان خيمة السيد البكرى ويحضر الخديو ويخلع على السيد فروا نفيسا . وفى ليلة الثانى عشر يقرأ المولد النبوى فى خيمة السيد باحتفال ضخم يحضره النظار والعلماء والأعيـــان ويحضر الخديو الى خيمته المضـــاءة بالأنوار الى جوار خيمة السيد البكرى ، التى تبقى طول الليالى زاهية بالتلاوة والأذكار ، باهية من أضواء الشموع ، عامرة بالخيرات وأنواع البر (١) .

على أن الأمر أخطر من كل ذلك ، فدور الصوفية فى الحقيقة دور خطير حتى ان الخطوط التى ترسم فى افريقية لبيان حدود الاسلام وراء خط الاستواء تنتقل متقدمة الى الجنوب فى كل عام ، من أثر فتوح مشايخ الطرق فى مجاهل افريقية ، فاذا كان لهم هذا الدور الذى يحاول مبعوثو الأزهر أن يقوموا به اليوم ، فمن المحتم اذن أن يفهم كل صوفى دوره وأن يدرك حقيقة الدين دون شوائب أو بدع ، وأن يكون هناك قانون عام ينظم أمور المتصوفة .

لم يفكر السيد محمد توفيق البكرى ابن الثانية والعشرين فى كل هذه الأمور الخطيرة أول الأمر ، ولكنه ما لبث أن دفع الى التفكير الجدى دفعا ، فها هو ذا « محمد رشيد رضا » يحادثه مرة ومرات

---

(١) « بيت الصديق » ص ٤٠٦ .

فى وجوب اصلاح الطرق الصوفية ، والاصلاح لا يقوى على القيام به الا رجال من أهل العلم الصحيح والأخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه المحاولة (١) . ولكن كيف يمكن اصلاح نخبة من الرجال لاصلاح المجموع ؟ ولم يكد يفكر فى الاجابة عن هذا السؤال حتى طالعه عبد العزيز جاويش بخطاب مفتوح يهاجم فيه بأسلوبه العنيف أوضاع الطرق الصوفية قائلا : « لا نزال نرى ما أنكرنا على السيد البكرى الانكار كله فى قعوده عن ازالة المنكرات التى يقع فيها العامة من المسلمين على وهم أنها من الاسلام وهو منهم براء ، ولا يكسب منها فى الدنيا الا البلاء ، وفى الأخرى الا الخزى والعار ، رأينا ما لو أراد السيد أن يمحوه غاضبا للدين لكان مثابا وموفقا ، ولأثنى عليه المسلمون فى كل مكان ، رأينا الضلالات يقترفها بعض مشايخ الطرق نهارا جهارا فى ساحة العباسية وحلوان وفى غيرهما من الأماكن التى احتفل فيها بالمولد النبوى بين سمع السيد وبصره ، وعلى مرأى ومسمع من علية علمائنا هداة الأمة وأخيارها ، وحمـــاة الشريعة السمحة وأنصارها . نصبت حلقات الذكر فكانت مراقص تميد بالراقصين على نغم المزاهر وغناء المغنين ، وهم يحسبون أنهم يذكرون الله ، تعالى الله عن الهزيان علوا كبيرا ، ماذا يصنع السيد البكرى اذا كان يغض عن مثل هذه الضلالات ، وهو لو شاء لمنعها أن تقام ، ولتطهرت منها ساحة الاسلام » (٢) .

وهكذا بدأ السيد توفيق يفكر فى الاصلاح ، ولم يلبث أن طالع الناس بمقاله الذى نشر بجريدة « المؤيد » تحت عنوان « اصـــلاح الطرق الصوفية » ، معترفا فيه بأن العقلاء قد طالبوه باصلاح الأمور التى لها مظاهر عامة يراها الناس من وطنيين وأجانب . ومن أهمها المواكب التى يشاهدها الجميع كل يوم فى أزقة المدن

(١) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ١٢٩ .
(٢) عبد العزيز جاويش ص ٢٠٨ .

وطرقات القرى كالموكب الأحمدى وغيره ، وكانت فى الأصل موعدا سنويا لاجتماع رجال الطريقة ثم تحولت الى مواكب للمنكرات . ومنها اجتراء البعض عـــلى اقامة احتفالات دينية فى أماكن عامة ليشاهدها بعض السائحين ، أو اقامة تلك الاحتفالات فى منازل بعض الأجانب المقيمين بمصر . ومنها أيضا الموالد التى يصاحبها ويتخللها كثير من الأمور التى تخالف الآداب الشرعية وينعكس به الغرض الخيرى الذى يقام المولد من أجله . وهناك أخيرا الأذكار التى يقيمها الصوفية فى كل محل وناد وكثير منها مباين للذكر الشرعى المقصود فى الكتاب والسنة .

وقد قرر المجلس الصوفى منع عمل المواكب باسم الصوفية فى القاهرة والأقاليم الا بأذن من المشيخة حتى يمكن مراقبة ومنـــع ما يتخللها من الأمور المنافية للآداب ، ثم كتب الى وزارة الداخلية طالبا تنفيذ هذا القرار . وتحدث مع اللجنة المشكلة لتعديل قانون العقوبات ، المنبثقة عن مجلس الشورى ، فجعلت عقوبة القيـــام باحتفالات دينية فى منازل الأجانب أو للترويح عن السائحين ، هى الحبس ، وقد تنبه الى أن العقوبات الصوفية فى هذا الشأن قد لا تجدى ، لأن من يقوم بمثل هذه الاحتفالات قد لا يكون من رجال الصوفية .

أما الموالد فلو توقفت اقامتها لحين الحصول على ترخيص من مشيخة الطرق الصوفية ، لكان فى ذلك تضييق على الناس ، ولكن وضعت مادة خاصة بذلك فى لائحة الصوفية تشترط أن لا يجاور مكان المولد شىء ومما ينافى الآداب الشرعية كالألعاب والسخريات ونحوها . كذلك نصت لائحة الصوفية على فصل كل من يقيم الأذكار بهيئة مخالفة للآداب الشرعية كالتمايل والرقص والتخبط ، وتنفيذ ذلك منوط بوكلاء المشيخة فى كل جهة وبالرأى العام فحيثما وجد شيئا من ذلك ، فمن حقه بل من واجبه أن يحيط المشيخة العامة

علما به وهى مسئولة بعد ذلك عن تنفيذ قراراتها (١) .

ثم فكر فى أمر الدعـــاة ، فوجد ان خير سبيل الى تقويمهم وتوجيههم ، وجود دستور مستمر من القرآن يستنير به مشايخ الصوفية وخلفائهم فى تربية المريدين وارشاد السالكين ، ومن هنا كلف بعض شيوخ الصوفية بوضع ذلك الدستور فى صورة كتاب بعنوان « التعليم والارشاد » ورسم لهم فصوله وكتب مقدمته . وبذلك أحس أنه قام بدور هام فى تقويم الصوفية أمام نفسها وأمام العامة وأمام العقلاء كما كان يدعوهم .

(١) المؤيد ١٩٠٥/٦/٣ .

# فى أوربـا

كانت هذه هى المرة الأولى التى يركب فيها السيد البكرى ، ظهر البحر راحلا الى أوربا ومنها الى القسطنطينية . كل شيء يثيره ، وكل شيء يبعث على الدهشة ، دهشة الغريب المتطلع ، وذهول الحائر الذى لا يفترق عن ذهول البدوى أو الريفى الراحـــل الى العاصمة . واذا كانت عينه قد اعتادت تلك الصور وهذه الرؤى وهو يتردد على أوربا مرة ومرات فيما بعد ، فقد بقى انطباعه الأول فى ذاكرته ، لا يكاد يبرح خياله زمنا .

ليس هناك احساس قوى بالوداع ، ولعل الفرحة برؤيا الدنيا لأول مرة غلبت ذلك الاحساس ، ولكن هناك احساسا بالخوف والقلق من ركوب البحر يسرى كلما هبت الريح ولعبت بالسفينة . ومن خلال الخوف والقلق نلمح مشاعر الفنان وهو مفعم بالنشوة لرؤيا الأصيل والليل والهلال وهدوء البحر حينا بعد حين . وتنبعث موسيقى هادئة حالمة وسط السمار وتتلألأ أضــــواء السفينة ، فلا يحس بالرحيل ولا يحس أنه فى سفينة ، بل يشعر شعورا قويا أنه لم يفارق المدينة (١) .

ويصل الى أوربا ، فيفجؤه العمران الضخم ، والحضارة المزدهرة ، والحدائق المترامية والمتاحف الفنية ، ومرح الناس وتمتعهم بالحياة ، وتقدمهم العلمى وتطورهم الفكرى والسياسى . ويتطلع الى الحياة من حوله ، فيجد فكرة الحرية السياسية التى أتت بها الثـــورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر قد تطورت الى أيديولوچية جديدة يعتنقها المجتمع ، فأصبحت حرية اجتماعية ، وحقوقا للعامل ، والغاء

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ١٦/٤ .

للرق ، وانطلاقا للمرأة . وكان قد استقر رأى المفكرين والفلاسفة على أن لكل فرد شخصية خاصة يجب أن يحتفظ بها ، وأن لكل فرد أن يحكم عقله ونفسه فيما يلقاه من نظم ومشاكل . وشاعت هذه الفردية فى أوربا وأمريكا منذ أوائل القرن التاسع عشر .

وكانت محاولة الاشتراكيين منذ النصف الثانى من القــــرن الماضى ، تهدف الى ادراك المساواة الاجتماعية والاقتصادية الى جانب السياسة التى اعترف بها القانون . فى سنة ١٨٢١ دافع سان سيمون عن حقوق العمال . وفى سنة ١٨٤٠ كتب برودن كتابه « ما هى الملكية ؟ هل السرقة » وفى سنة ١٨٦٧ كتب كارل ماركس كتابه « رأس المال » . وهذه السلسلة من رجال الثورة الاشتراكية هى التى أظهرت الطبقة العاملة ، وحاولت أن تخلص أفرادها من براثن الرأسمالية الخبيثة ، وانتهت أيضا بأن الغى الرق ، واصبح العبيد ينعمون بما ينعم به الأحرار . وكان « داروين » قد كتب « أصل الأنواع » عام ١٨٥٩ ، وتناول فيه تطور العضويات فى سلسلة تسير من جيل الى جيل ومن زمن الى زمن فى طريق الرقى المتدرج . وفكرة التطور هذه شغلت العلماء فى أوربا ، واعتنقها المثقفون فى النصف الثانى من القرن الماضى . عالج الأدباء نظرية الأنواع الأدبية وتطور فروع الأدب ، وعالج علماء الاجتماع التطور الاجتماعى بعد دراسة القبائل البدائية ، ومقارنتها بتطور الشعوب المترقية فى سلم المدنية . واكتشف الفلاسفة أن للانسان ارادة فى حياته ، وكل شئون الحياة بدأت ناقصة لكنها اكتملت بالارادة ، فاذا سلمت ارادة الانسان من أسر الشهوات فلابد من التطور الى الدرجة المرجوة من الكمال .

وهكذا بدأت عقلية الشاب المثقف تتفتح على قيم جديدة ، وكان أهم ما لفت نظره فكرة الاشتراكيين عن المساواة ومحاولة القضاء

على ويلات الانسان فى ظل التفرقة الطبقية . فاذا قرنا قوله فى المقارنة بين أوضاع الطبقة المترفة فى مصر وبين الطبقة المحرومة أول هذا القرن ، وجدنا سخطه وبرمه حين يقول : « فبينما ترى قصورا وثراء ، وحبـــورا وسراء ، وعربات تترى ، يعدو أمامها السليك والشنفرى ، وخراج قرية أو قريتين ، يذهب فى لهو ليلة أو ليلتين ، نجد أرامل صناعا ، وأيتاما جياعا ، وشيخا يعمل وهو فى أرذل العمر ، يقعده العجز وينهضه الفقر ، أو عذراء كادت تبيع عرضها للاحتياج ، أو مريضا عاجزا عن العـــلاج .. حال تطرف العيـــون ، وتثير الشجون » (١) . تلك النغمة الحزينة الثائرة اذن جذورها ترتد الى ذلك الأصل ، وهى نغمة جريئة فى بيئتنا تلك الأيام المبكرة .

وقد كانت اللغة الفرنسية التى يتقنها عونا له فى اسناده وفى اتصاله بالبيئات المثقفة وفى اطلاعه الواسع على الانتاج الفــكرى والأدبى ، وعلى الأخص بطبيعة الحال فى فرنسا التى أحبها ، واكثر من الحديث عنها وعما شاهده فيها . فهو يزور « البانثيون » ويقف على قبر نابليون ، والحق أنه معجب بالبطولة أينما كانت ، فقــد تحدث من قبل طويلا عن صلاح الدين الأيوبى وانتصاره عـــلى الصيلبيين ، وها هو ذا اليوم يعجب بعبقريته من بلاد الصليبيين ، ولكنها البطولة التى يمجدها ويعتبرها ميراثا للانسانية جمعاء .

ويزور متحف « فرساى » فلا يقف كثيرا أمـــام التماثيل ، ولا يخطف رواق المرايا ناظريه ولكنه يتوقف عند لوحة الرســـام « جيرارد » التى تحكى احدى مواقع نابليون ، فينفعل بها انفعال الفنان كأنما رأى الموقعة رؤيا العين ، فيحاول أن يرسم بكلماته ما رسمه « جيرارد » بأصباغه (٢) .

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ١٥٨ .

(٢) صهاريج اللؤلؤ ص ٧٢ وما بعدها .

ويجوس فى مدينة باريس بعد ذلك ، فيشاهد « برج ايفل » وتجمع السائحين حوله ، ويتعجب من ضخامة البنيان وارتفاعه . ثم يتجول فى غابة بولونيا الشهيرة ، ويتحدث عن أحواض الزهر وروعة الطبيعة وهندسة التنسيق التى استطاعت الفنان تقليد الطبيعة فى هضابها وتفجر الماء منها وانتشار الورود على حافاتها ، ولا يكاد يترك كبيرة أو صغيرة فى الغابة الا وقف عندها ، حتى شعابها وحتى الأضواء والحصباء ، ولكنه يتوقف طويلا عند حديقة النبات بها وحديقة الحيوان . ولا يملك فى النهاية الا أن يودع الغابة ويودع باريس ويرحل الى بقعة أخرى من أوربا ، الى النمسا .

وفى النمسا لا يكاد يجذب انتباهه الا مرح أهلها وحفلاتهم الراقصة ، خاصة فى « ڤيينا » العاصمة ، التى تزيت بأروع لباس من بساتينها . ويمضى يقص علينا صور الترف فى تلك الحفلات وأماكنها ، واعجاب الناس بالفن فى كل الوانه ، النحت والتماثيل تملأ كل ميدان وتوجد فى كل قصر ، وتنسيق الزهور ، وملابس الناس ، وحتى حركات الراقصين . والترف فى الزخرفة وفى الخمور التى تسيل أنهارا فى تلك الحفلات وفى الصواريخ التى تستمر زمنا وترسم صورا رائعة فى الفضاء ، وهو وسط هذا كله غريب حائر ، يحس بالحرمان وبالحنين الى بلده الذى يشعر فيه بالطمأنينة فيترنم :

أم هب من مصر صبا — أم طار برق أشقر
أم قد ذكرت بطاحها — وهى البساط الأخضر
والنيل فى لباتها — عقد يلوح مجوهر . . .
انى بمصر ودونها — بحر يعج ويذخر
يا سائر الفلك المسخر فى خضادة يمخر
اقر التحية جيرة — حيث الكثيب الأعفر (١)

---

(١) خضارة : البحر ( صهاريج اللؤلؤ ) ص ٨٧ .

وهو قد عالج الشعر من قبل وتمرس به ، ولكنه لا يقوله الا عن تجارب صادقة مهما تباعدت بينها الأوقات ، وهكذا فاض به الحنين فتغنى بمصر . ولكنه لا يستطيع العـــودة ، انه فى طريقه الى القسطنطينية ، الى عاصمة شرقية بعد أن رأى العواصم الغربية . عجيبة هى القسطنطينية « فقد يخال من يجوز فيها ، ويتقلب فى نواحيها ، انه فى دنيا صغيرة ، لا فى بلدة كبيرة . فثم عربى واعجمى ، ورومى وكردى ، وطماطمة صفر ، وصـــقالبة حمر ، والعمـــامة والسربوش ، والقبعة والكنبوش ، ولسان التركمان ، وفصـــاحة عدنان ، ورطانة الزط والسودان . وســـنة وشيعية ، ونصرانة ويهودية ، وجند مشاة وركبان ، كأنهم فى يوم المهرجان . . » (١) .

ويزور مسجد « أيا صوفيا » وهو من معالم القسطنطينية ، ولكن المساجد الضخمة الأثرية بمصر كثيرة ، فلا يتوقف عنـــده الا ريثما يتحول الى منتزه « البندلر » متجولا فى أنحائه ، منفعلا أمام كل لوحة من لوحات الطبيعة فيه . وهو قد رأى من قبـــل صورا من الفتنة فى أوربا ، ولكنه لم يهتز الا أمام الروح الشرقية وفتنة الشرقيات « حسن للترك والجرج ، لا يوجد عند الافرنج ، اللهم الا صورا فى ألواح رفائيل ، مثل بها اسرافيل وميكائيل ، أو صفات فى أشعار دانتى ولامارتين ، صوروا بها الخلد والحور العين . فلما لمحتها أشرت اليها بالكف ، فأومأت لك بالطرف ، فحسبتها أقرب من مداركة ، فاذا هى أمنع من عاتكة » (٢) .

على أنه لم يقصـــد من كل رحلته هذه الا أن يزور أعـــلام القسطنطينية ، فهو ليس سائحا يتجول دون هدف ويسير عـــلى غير هدى . آن له أن يقابل « السيد أبو الهدى الصيادى » نقيب الأشراف بالأقطار الجلية وصدر الصدور فى الدولة العلية . ومن

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨ .

الحق أن الآراء قد تضاربت فى تحليل شخصيته فهو رجل غامض مغامر استطاع أن يستولى على قلب الخليفة وعقله ، وأن يزيح من طريقه كل معارض من بطانة السلطان . وهو داهية زين للخليفة امورا لم يرض عنها الشعب وتحض بالدين لا تصل اليه يد كبير أو صغير . وهو بعد هذا متهم فى خلقه ، ولكنه على ما يبدو جرىء لا يعبأ بشىء ، وجراته لا تقف عند حد . وهكذا اقتنع بعد زيارته له أو كاد يقتنع أنه رجل عربى رحب الصدر ، كريم جواد مثل الأولين ، ولعل بأسه هو الذى دفع حاسديه الى اظهار الطاعة واخفاء العصيان (١) .

وكان هناك الفيلسوف الحكيم جمال الدين الأفغانى ، ألا ينبغى له أن يطرق بابه ؟ انه أشبه بالسجين ، لا يستطيع الرحيل عن القسطنطينية ، ولكن داره مقصد العلماء من كل قطر مثلما كان مجلسه فى مصر منذ سنين . ويوم كان جمال الدين بمصر يوجه الحاكمين ، ويحث على الثورة ، كان هو صغيرا ، فهل ينبغى أن تفوته هذه الفرصة الآن ، ولعله لا يتمكن من رؤياه بعد اليوم ؟ ان أبا الهدى الصيادى قد أوقع بين جمال الدين وبين الخليفة منذ عبث بمسبحته فى حضرة السلطان وخرج ليقول ان الخليفة يعبث بالناس ، أليس من حقه أن يعبث بمسبحته ؟ ولكن السيد توفيق البكرى لا يعبأ برأى أبى الهدى الصيادى ولا يهتم بمراقبة الخليفة لجمال الدين ، فيزوره فى مجلسه ، ويدور بينهما حوار حول مستقبل الاسلام (٢) ، يخرج بعده البكرى وهو أشد اقتناعا بالرجل الجسور

(١) نفس المرجع ص ٤٠ .

(٢) لم يذكر السيد توفيق البكرى فى حديثه اسم جمال الدين الأفغانى ، ولكن صفات جمال الدين تنطبق كل الانطباق على هذا الحديث . وقد صرح السيد البكرى فى كتابه « مستقبل الاسلام » ص ١٨ أنه التقى بجمال الدين وتحادثا حول مستقبل الاسلام ، ومن المعروف أن السيد البكرى كان صغيرا =

المتواضع الذى قال يوم رحيله عن مصر « ان الأسد لا يعدم فريسته أينما كان » .

ولم تفارق خياله صورة السيد جمال الدين وهو فى مجلسه بين مريديه ، ربعة فى طوله ، وسط فى بنيته ، قمحى فى لونه ، عصبى فى مزاجه ، عظيم الراس فى اعتدال ، عريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين ، ضخم الوجنات ، جليل المنظر ، متزن الصورة . ويتتبع حياته من أفغانستان الى ايران الى الهند الى مصر الى روسيا الى فرنسا الى القسطنطينية ، وهو يترك فى كل مكان حل به أثرا أى أثر ، داعيا الى الوحدة الاسلامية التى جاهد عمره كله ليرى نورها يضىء الشرق ، فلم يقدر له فى حياته أن يحقق أمله الكبير ، وان كان قد أضاء شعلة الفكر فى العالم الاسلامى . « قضى العمر الا الأقل ، وكاد يحول الأجل دون الأمل ، وهو شمل لم يؤتلف ، وكنز لم يكتشف » (١) .

ولم يلبث أن أفاق من تأملاته على دعوة السلطان ، ولا شك أن لقاء الخليفة كان الهدف الأكبر من رحلته كلها بعد أن أصبح ذا مركز دينى فى مصر . وسره أن يكرم الخليفة وفادته ، وأن يرى فيه نبوغا أكبر من سنه ، فيمنحه رتبة الوزارة العلمية . ولم يسبق فى تاريخ الدولة العلية أن أعطيت هذه الرتبة لعالم أو سياسى مرة واحدة ، أو أخذها وهو فى الثانية والعشرين من عمره مثلما أخذها السيد توفيق البكرى ، فخرج من اللقاء مبتهجا مزهوا وهو يترنم :

عطايا تظنـــــاها لاعظـــــام قدرها
أمانى نفس أو رؤى من مهــــــوم

= حين كان جمال الدين بمصر ، وان المكان والزمان الوحيدين اللذين يمكن أن يلقاه فيهما هو القسطنطينية فى ذلك العام ، لأن السيد البكرى لم يرد القسطنطينية قبل وفاة السيد جمال الدين الا هذه المرة .

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٤٨ .

ايادية أبدت خافى الشـــعر للورى
وكان مجنـــا مثـــل سر مكتم

كذلك زهر الروض يبدو من الثرى
اذا ما سقاه مسجم بعـد مسجم (١)

---

(١) قالت جريدة المؤيد فى عددها الصادر بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣١٠ .

« ان الرتبة الجليلة التى انعم بها سيدنا ومولانا امير المؤمنين وسلطان المسلمين على حضرة سماحتلو سيادتلو السيد توفيق أفندى البكرى نقيب السادة الأشراف هى من أقدم الرتب فى الدولة العلية بل يمكن أن يقال انها تأسست مع تأسيس الدولة العلية العثمانية . وذلك أن السلاطين الأولين العظام من آمال عثمان لما كان نصب أعينهم أمر الجهاد واعلاء كلمة الله بين العباد وتأسيس مملكة وملك عظيم لم يجتمع قط لغيرهم :وكان مدار أعمالهم وأساس اجراءاتهم العدل الذى عليه مدار الدين الاســلامى المبين ، جعلوا قاضيا مخصوصا يقضى فى معسكرهم خلاف الحواضر والمدن ، وذلك لكثرة تنقلاتهم واستمرار وجود الجيش العامل تحت السلاح . ولما انتظم أمر السلطنة السنية وفتحت القسطنطينية سنة ٨٥٨ هـ وصارت المملكة مؤلفة من قسمين عظيمين احدهما بأوربا ويعرف بالروم ايلى والثانى بآسيا ويسمى بأناضول ولكل منهما جيش قائم به لاستمرار الحروب فى كلا الطرفين ، قسم السلطان أبو الفتح الغازى محمد خان الثانى وظيفة قاضى عسكر الى قسمين سمى كلا منهما باسم القسم التابع اليه جيشه وذلك فى زمن صدارة قره مانلى باشا المتولى سنة ٨٨٢ هـ . ومن ذلك الحين استمرت هذه الوظيفة على ما هى عليه ثم بتوالى الأيام صارت هذه الوظيفة رتبة اسمية تعطى لكبار العلماء ، ولا يتولى الوظيفة بالفعل الا اثنان منهم كل سنة والباقى يتداولونها على حسب ترتيبهم وسابقية تواريخ توجيهها اليهم . ولما انتظمت الرتب المتداولة الآن فى الدولة العلية فى زمن ساكن الجنان الغازى عبد المجيد خان ، جعل لون الجبة التى يلبسها فى المواكب الرسمية قضـاة عسكر الروم ايلى والاناضول خضراء . أما عنوان أصحاب هذه الرتبة فهو ( سماحتلو أفندم حضر تلرى ) ويقال لمجموع أصحابها ( الصدور ) . وبالجملة فهذه الرتبة هى أعظم رتب الدولة العلية ... وفى ذلك ما يغنى عن بيان ما احرزه سماحته من تعطفات الحضرة الشاهانية عن أهلية واستحقاق . »

ولعل أكبر ما أسـعده فى ذلك أنه تكريم لمصر فى شخصه ، فلم يسبق أن حظى بهذه الرتبة من علماء مصر أحد قبله ، ولم يزدد عدد الذين نالوها فى الدولة العلية كلها عن أربعـة وعشرين عالما .
وها هو ذا يعود الى مصر والذكريات تتزاحم فى خاطره عن زيارته لأوربا ولتركيا ، ولقائه لعلمائها ، واستفادته من هذه الرحلة ، وحديث الصحف فى القاهرة ، المؤيد والأستاذ ، عن الكسب الذى نالته مصر ، يوم قلده الخليفة بيده ذلك الوسام .

# فى سراى الخرنفش

عندما فكر السيد محمد توفيق البكرى فى الزواج ، كانت فرصة الاختيار أمامه كبيرة ، فهو شاب وسـيم وصاحب مركز مرموق ، ومحدث لبق ، ومثقف واسع المعرفة . ووالدته ما زالت على قيد الحياة تستطيع أن تخطب له أجمل الفتيات وأكثرهن ذكاء وأوفرهن حظا من شرف النسب . ولكن الواقع أنه كان يفكر فى أمر آخر ، فى بيت السادات الوفائية . فهو البيت الوحيد الذى ينافس بيت السادات البكرية الشرف ، وطالما انتقلت نقابة الأشراف من هنا الى هناك ، أليس من واجبه اذن أن يجمع البيتين فى بيت واحد عن طريق النسب ؟ انه يعلم أن السيد عبد الخالق السادات أب لثلاث بنات : حفيظة واسماء وصفية . وكثيرا ما رأى صغراهن صفية تغشى المجالس مع أبيها وأعجب بجمالها وذكائها وحديثها الذى ينم عن ثقافة نادرة فى فتيات العصر . أليس من المتوقع أن تكون الأخريات فى مستوى الصغرى من حيث الثقافة والجمال ؟ ان السيد عبد الخالق السادات يرفض أن يزوج احدى بناته الا لمن يضارعهن شرفا فى النسب ، وهو لا شك محق فى ذلك .

وهكذا تزوج السيد محمد توفيق البكرى السيدة حفيظة ابنة شيخ بيت السادات الوفائية ، ولكن أليس من المحتمل الا ينجب منها فتكون عقيما أو يكون هو العقيم ، وبذلك ينفصل البيتان مرة أخرى وتذهب جهوده أدراج الرياح ؟ وهكذا أيضا لم يهدأ باله حتى زوج ابن أخيه السيد عبد الحميد البكرى بشقيقة زوجه الوسطى السيدة أسماء .

وفى هذه الأثناء كان الشيخ على يوسف صديق السيد توفيق

البكرى الحميم قد أبدى رغبته فى خطبة السيدة صفية السادات بعد أن رآها فى كثير من المجالس ورآته ، والتقى بها فى ادارة « المؤيد » فصادفت منه هوى . ولبى السيد عبد الخالق السادات طلب الشيخ على يوسف وقبل الصداق على ذلك . ثم سافر الجميع الى الآستانة لقضاء الصيف بين ربوعه ، وكان من المتفق عليه أن يتم القران بعد العودة من الآستانة . ولكن لم يكد الجميع يعودون الى مصر ، حتى بدت بوادر المماطلة فى اتمام القران ، وكان بعض خصوم السيد على يوسف قد سعوا فى الوقيعة بينه وبين السيد عبد الخالق السادات ، فأقنعوه بأنه ليس كفؤا لشريفة من بيت الرسول . ولكن السيد على يوسف أحس أن هذا التراجع امتهان لكرامته ، فاتفق مع السيدة صفية السادات على عقد الزواج بعيدا عن دار أبيها . وذهب السيد على الى صديقه السيد توفيق البكرى يعرض عليه أن يوافق على اتمام العقد بسراى الخرنفش . لم يكن أمام السيد توفيق مجال للتفكير ، لأن السيدة صفية قد أبدت رغبتها فى الزواج من صديقه السيد على يوسف وهو حتى اذا لم يقبل ، فسيتم حتما فى بيت صديق آخر ، ثم هو يعلم تجبر السيد عبد الخالق السادات ، ويدرك أنه كاد يعضل بنتيه الكبيرتين من قبل ، والأمر فى هذه المرة لا يعدو الوشاية ، فوافق على الفور .

تم العقد فى بيت السيد توفيق البكرى وشهد عليه هو وابن أخيه السيد عبد الحميد البكرى وتولى الشيخ السقا امام الجامع الأزهر الوكالة عن السيدة صفية السادات وكان ذلك فى اليوم الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٩٠٤ . وفى يوم السبت الموافق للسادس عشر من يوليو نشرت صحيفة المقطم خبر عقد القران فى حفل حضره الكثير من العلماء ، فثار الشيخ السادات ثورة شديدة وكتب من فوره الى المقطم بأنه لا علم له بهذا الزواج وانه قد أبلغ الأمر الى السلطات . وذهب الى سراى الخرنفش غاضبا ،

ثم ألقى بعمامته أمام السيد توفيق البكرى محتجا على تصرفه ، وحاول السيد توفيق تهدئته واقناعه فلم يتمكن ، وتطور الأمر بعد ذلك الى قضية وتطورت القضية الى مسألة سياسية تدخلت فيها الحكومة لصالح السيد على يوسف لصلته القوية بالخديو ، وتدخل فيها قاضى القضاة لصالح السيد عبد الخالق السادات لأنه رأى القضية تتصل بالآداب الاسلامية ، وصدر حكمه بالحيـــلولة بين الزوجين حتى يبت فى القضية ثم صدر الحكم النهائى بعدم صحة العقد ، وأسدل الستار بعد ذلك على هذه القضية وقد أعيد عقد الزواج فى منزل السيد عبد الخالق السادات وبرضى منه (١) .

تلك كانت قصة الزواج ، والواقع أن السيد توفيق البكرى لم يغير شيئا من عاداته بعد أن تزوج ، ولم تبدل زوجه من طباعه او من نظام حياته . لم تكن على شىء من الجمال فتأسره وهو الفنان ، ولم تكن على حظ من الثقـــافة فتبادله الرأى أو تجاذبه أطراف الحديث ، وهو المحدث اللبق الموهوب . وهكذا كان يستيقظ فى الثامنة صباحا كعادته ، فتسرع جاريته « شهرات » بجريدتها الى شجرتى اللبخ المجاورتين لغرفته ، تهش العصافير المتجمعة ، حتى لا يزعجه صفيرها المتواصل الكثيف . ولا يلبث أن يأخذ حماما باردا أذيبت فى مائه قطع الثلوج سواء أكان الجو حارا أو باردا ، فذلك فى رأيه أصح للأبدان ، وأكثر جلبا للنشاط والحيوية . ثم يتناول قليلا من طعام الافطار ، على الا يكون اللبن ومستخرجاته بين الطعام ، فقد عافته نفسه منذ أمد ، ومن أجل ذلك يجلس وحده على المائدة .

ويتانق فى ملبسه أشد التانق ، حتى ليغير ملبسه ثلاث مرات يوميا ، وينتقى أفخرها وأشدها انسجاما ، ثم يضع عمامته الضخمة على رأسه الكبير ، ويتوجه الى زوجه والى بقية الأسرة ، يدور على

---

(١) على يوسف ص ١١٠ وما بعدها .

كل فى جناحه ، وهو يعرف موعد يقظتهم فى الصباح ، يسألهم عن حاجاتهم ، ويداعب صغارهم .

تلك كانت عادته ، قبل أن يستقل عربته ذات الخيول العربية الأصيلة ، فى طريقه الى صديقه السيد على يوسف بالمؤيد ، أو فارس نمر بالمقتطف . والحق أن صداقته لعلى يوسف كانت أقوى بكثير من كل صداقة غيرها ، خاصة بعد أن ربطت بينهما صلة النسب . وقد كانت هناك صلات أخرى تربط بينهما من قبل ، فكلاهما كاتب اديب يحمل فى أعماقه نفسا شاعرة ، وكلاهما من مذهب سياسى واحد ، هو الاصـــلاح على المبادىء الدستورية ، وكلاهما شريف النسب ينتمى الى بيت الرسول ، ولذا كثيرا ما تلازما فى مصر وفى رحلاتهما الى أوربا وكانا يجدان المتعة فى ذلك لاتفاق الطباع ، حتى فى الوان الطعام المفضلة . ولكن مظهرا خارجيا واحدا هو الذى يفصل بينهما فى أوربا اذا ما تلازما ، فالسيد على يوسف يتمسك بملبسه الشرقى وبتقاليده الشرقية ، أما السيد توفيق البكرى ، فهو يحاول أن يتلاءم مع البيئة فيلبس القبعة ، ولعله يرى أن ملابسه الدينية انما لبسها فى مصر رعاية لمنصبه الدينى (١) . وهكذا كانت صحبة العمر بين الصديقين لم تفرق بينهما الا احداث اقوى من الارادة ، بل خارجة عنها .

كان مجلس السيد توفيق البكرى بدار المؤيد سياسيا فى اغلب الأحيان يتناولان فيه الأوضاع فهما عضوان فى مجلس شورى القوانين وفى الجمعية العمومية ، أما مجلسه فى المقطم فكان يغلب عليه الطابع الأدبى ، ومن أجل ذلك كان يحضره بعض الشبان من شعراء العصر ينشدونه شعرهم ويستمعون الى نصائحه (٢) . ولم يكن منصبه الدينى بحائل بينه وبين طبعه الضاحك الطروب ، فقد كان حاضر

(١) رواية الأستاذ حسن فائق البكرى .

(٢) الراحلون من شعراء العصر ( المقتطف يناير ١٩٢٨ ) .

البديهة حلو الفكاهة . ومن لطائفه فى هذا المجلس أن الكاتب المعروف ابراهيم المويلحى أخبره ذات يوم أنه أعد عنوانا رائعا بمناسبة فتح الخديو لخزان أسوان فلما سأله عنه قال ( يفتح الخزان عباس ) . « قال البكرى : هذا شطر من الشعر ولست يا ابراهيم شاعرا وأنا شاعر فأنا أحق به منك ، أتبيعه بعشرين جنيها ؟ قال ابراهيم : لا أبيعه الا بمائة جنيه لا تسويف فى دفعها . فضحك البكرى وقال : كيف صدقت أنى رغبت فى الشراء ، هذا الشطر لا يصلح لأن يكون تاريخا لأنه منبىء بما سيكون » (١) .

وهكذا يستمر المجلس ، حتى يحين موعد الغداء ، فيدعو بعض أصدقائه الى الطعام الذى يعتمد أساسا على « القوزى » فى أكثر الأحيان . وغالبا ما يكون الشيخ الشنقيطى العالم اللغوى رفيقه فى الطعام . فهو منذ هبط القاهرة من أرض المغرب والسيد توفيق البكرى يحتضنه ويقوم على أمره ، ويقدمه الى أدباء مصر وعلمائها ، فأقام الشيخ الشنقيطى فى ربع البكرى لا يحمل هم الأيام . وفى أحيان أخرى يشترك معهما فى طعام الغداء أحمد العريس أو الشيخ خضر العالم الفلكى . فلم يكن من عادة السيد توفيق أن يأكل مع النساء شأن أهل العصر فى أغلب الأحيان .

فاذا ما قام بعد غفوة الظهيرة ، عاد ينتقى جبة جديدة ، ووقف لحظات أمام المرآة يطمئن الى أناقته الكاملة ثم يستقل عربته ولكن الى غير مكان فى هذه المرة ، فيظل يتجول ساعة أو بعض ساعة ، ثم لا يلبث ان يعود ، فيجلس فى حديقة السراى وحده . ولعل هذه الفترة من يومه أخصب الفترات ، فذهنه يجول معه فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل ، لم يكن يفكر فى زواجه الذى لا يعتبره سعيدا ، فهو قد حرم من نعمة الأبناء ، ولكنه متأكد أنه هو العقيم ، ويكفيه ان يجد من حوله أطفال أسرته يستغنى بهم عن حرمانه ،

(١) المرجع السابق .

ولم يكن يشغل ذهنه محيط بيته ، فهناك من يدبر شئونه على خير وجه ، عبد السلام رستم الكاتب النشط الذى يمسك دخل القصر وخرجه ، ومرجان أغا الشديد المراس يشرف على نظافته ويلاحظ أكثر من سبعين جارية بكل دقة . ولكنه كان دائم التفكير فى ثلاثة أمور ، الاسلام فى حاضره ومستقبله ، والوطن فى ماضيه وحاضره ، واللغة بين ماضيها ومستقبلها . يجول ذهنه فى هذه الدوائر جميعا فينتقل من هنا الى هنا فى وقت واحد . فاذا ما قطع عليه خلوته هذه كبير أو صغير من أفراد الأسرة ، لا يلقاه جالسا أبدا وانما يقف احتراما له ، فمن رأيه أن الاحترام المتبادل بين الجميع أن يطبق حتى على الصغير وحتى على الخدم ، ومن أجل ذلك يخفض جناح الذل للضعيف ، بينما يلقى القوى موفور الكبرياء . ومن أجل ذلك أيضا كان يعجب فيما بينه وبين نفسه حين يجد كثيرين من مشايخ الطرق الصوفية يلجئون الى ابن أخيه السيد عبد الحميد البكرى ليوسطوه فى أمر من الأمور ، ويتجنبون لقاءه مهابة منه .

فاذا ما حان وقت طعام العشاء فى حوالى الساعة السابعة مساء ، أحضرت له جاريته « شهرات » طبقا ضخما من الفاكهة ، وهذا هو عشاؤه لا يبدله . كان مغرما بالفاكهة نهما فى تناولها ومن أجل ذلك يتناولها وحده ، حتى اذا أحس بالامتلاء تناول الثمرة بعد الثمرة فامتص عصيرها والقى بأليافها .

ثم يتوجه الى حجرة المكتبة ، وكانت تحوى آلافا من الكتب العربية والفرنسية والمخطوطات النادرة . فهو قد نشأ على حب التراث ، فضمت مكتبته المراجع الأصيلة وأمهات كتب الأدب واللغة ، وكأنه شيخ عصرى بكل معانى الكلمة ، فاقتنى الكتب الفرنسية فى الاقتصاد والسياسة والأدب والفن ، وهو رجل دين قبل كل شىء ، فلابد أن يطلع على التفاسير وكتب التصوف والى جانب ذلك ، على دراسات المستشرقين حول الأديان بصفة عامة وحول الاسلام على

وجه الخصوص . ومن أجل هذا كان يقضى الساعات الطوال يطالع ويطالع فلا يمل ، حتى أصبح من أعمق الباحثين فى التراث العربى ومن أوسع الشباب العصرى ثقافة فى شتى فروع المعرفة .

وهو حين يكتب لا يتوقف أبدا ، وانما يتدفق تدفق من حدد موضوعه ولم شتات جزئياته فى ذهنه واستوعب بحثه ، واستعد للكتابة فأحضر عددا من الأقلام لا حصر له حتى لا ينتهى القلم أثناء اندماجه فى الكتابة ، ويتهيأ نفسيا ، ثم يبدأ فى كتابته واقفا فى بعض الأحيان ، ويقطع الغرفة ذهابا وايابا ثم يعود ليتدفق فى كتابته من جديد . ومن الغريب أنه كان يلجأ أحيانا الى طريقة شاذة حين يود ان ينتهى من كتابة موضوع ما فلا يعوقه معوق ، فيصعد فوق كرسى ثم فوق منضدة مرتفعة ، ثم يجلس فوق الكرسى حتى يستصعب عملية الهبوط ، فيظل يكتب الى أن ينتهى . وكثيرون من الفنانين والعباقرة لهم طرقهم الشاذة فى وقت الابداع ، فالزهاوى الشاعر مثلا كان ينبطح على وجهه فى كثير من الأحيان حتى ينتهى من قصيدته ، بل قد يظهر شذوذ الموهوبين فى غير وقت الابداع كما نعلم عن شوقى من دراستنا لحياته وطباعه ، وغيره من الشعراء العرب والأوربيين .

ولم يكن يقطع على توفيق البكرى خلوته هذه مع كتبه وأوراقه فى الليل الا زيارات الأصدقاء كأحمد العريس وعلى يوسف والشيخ حمزة فتح الله والمنفلوطى والمويلحى وسركيس ، فيظلون يسمرون فى صالون عباس الأول الذى يتسع لأكثر من مائة شخص حتى ساعة متأخرة من الليل .

وهكذا كان البيت الكبير بما فيه المبانى والحدائق وما فيه من الخدم والجوارى وما فيه من أثاث الملوك وقاعات الأمراء ، يخيم عليه الصمت فلا يحس فيه السيد توفيق البكرى الا بالوحدة ويتلفت

فلا يجد حوله الأبناء ولا يجد الى جواره الزوجة القادرة على ان تؤنس وحشته ، ولا يقطع عليه صمته الا طارق من الزوار ، ولكن أمرا واحدا كان يملك عليه وقت فراغه ويشغله عن نفسه ، وهو التفكير فيما وراء أســـوار البيته ، فى المجتمع الذى يعيش فيه وما ينبغى أن يقوم به من أجله . وبينما كان السيد توفيق يعيش هذه الحياة ، كان سكان الحى من حوله يتطلعون الى ساكن البيت الكبير بشىء من الغبطة ، وبشىء من القداسة أيضا .

# مجمع البكرى

كانت الظواهر كلها تتجمع أشبه بسحب ملبدة بالغيوم ، تنذر بعواصف شديدة تزعزع اللغة العربية الفصحى وتعيث فيها هدما وفسادا . فالصحف السياسية فى ذلك الوقت حديثة العهد أشبه بالوليد يستخدم كل ما يسمع من كلمات ، ومن هنا كثر استخدام الكلمات السياسية الأوربية من فرنسية وايطالية وتركية ، وهكذا ايضا كان يفعل المترجمون فى دوائر الحكومة ، وناقلو الكتب المدرسية ومؤلفوها ، فاختلط المعرب بالعامى وتسلل كل ذلك الى أساليب الكتاب عن عمد أو غير عمد فى بعض الأحيان . . وفكر عبد الله فكرى فى الأمر ، ودعا عام ١٨٨١ م الى انشاء أكاديمية تصون اللغة ، ولكن دعوته لم يسمع صداها لأن الأمور السياسية ما لبثت ان اضطربت ، وقامت الثورة العربية فعلا صوتها فوق كل صوت ، واعقب ذلك الاحتلال البريطانى ، فوئدت الدعوة فى مهدها (١) .

وعندما بدأت الأصوات ترتفع مرة أخرى مع بداية عهد عباس الثانى عام ١٨٩٢ ، قامت الدعوة مرة اخرى الى انشاء مجمع لغوى ، فالمبررات ما زالت قائمة ، بل لعلها ازدادت سببا أو أسبابا تجعل من قيام المجمع ضرورة لغوية وقومية ملحة ، فالثقافات الأجنبية بدأت تتسع دائرتها ، وتحمل معها من المصطلحات كل يوم جديدا ، والاستعمار البريطانى يهاجم اللغة العربية ويحاول أن يحصرها فى أضيق نطاق حتى يقضى عليها ، ومن هنا أصر على أن تكون لغة العلم فى المدارس هى اللغة الانجليزية . وكانت المدارس

---

(١) المقتطف ( يناير ١٩٢٨ ) محاولات لانشاء مجمع لغوى .

الأجنبية والصحف الأجنبية تغذى هذه النزعة ، حتى كادت تستولى العجمة على هذا الجيل كما يقول توفيق البكرى (١) .

ثم نشط المستر وليم ويلكوكس المهندس البريطانى المعروف، ودعا الى الكتابة باللغة العامية مدعيا أنها أقدر على أفهام الجماهير الأمية ، والمستشرقون كلهم عندما يهاجمون اللغة الفصحى يحسبونها جامدة غير متطورة وعاجزة عن استيعاب المفردات الجديدة . والواقع أن جهود مدرسة الألسن القديمة التى عاشت فى النصف الأول من القرن الماضى أجل من أن تنسى بعد جيل فقد ترجمت المصطلحات العلمية ، التى كانت تدرس فى مدرسة الطب ومدرسة الهندسة ومدرسة التمريض والمدرسة الحربية وغيرها ، وفتحت اللغة صدرها للاشتقاقات الجديدة ولم ترفضها . ولكن استخدام الصحف للمصطلحات الأجنبية وترجمة الانجيل فى هذه الفترة الى العامية يعنى أن على العربية المحاربة فى جبهتين ، جبهة العامية وجبهة الدخيل . وعلى الرغم من أن « محمد عثمان جلال » ترجم الى العامية بعض المسرحيات الفرنسية الا أن ذلك لا يعنى أنه كان يفضل استخدام العامية واحلالها محل الفصحى ، فالحقيقة أن التطور المسرحى فى هذه الفترة كان أفقيا وليس رأسيا ، بمعنى أن المسارح على كثرتها لم تكن تسير على خطة معينة لأن حركة التأليف لم يكن قد اشتد ساعدها ، ولذلك كانت حركة الترجمة والتقريب والتمصير تأخذ المكان الأول ، فمحاولات عثمان جلال فى هذه الفترة كانت تمصيرا أكثر منها ترجمة حتى يمكن أن يتذوقها الجماهير ، لأن فى النص الأصلى من الأسماء والمصطلحات والعادات والتقاليد ما هو غريب على المجتمع المصرى (٢) . على ان الأمر بعد كل هذا يتصل بلغة المسرح بوجه خاص فما زلنا الى الآن نحاول ايجاد لغة للمسرح ، بعضنا يؤثر الشعر وبعضنا يؤثر النثر الفصيح والبعض الآخر يفضل

(١) مقدمة صهاريج اللؤلؤ .

(٢) راجع الأدب والحياة فى المجتمع المصرى الحديث ص ٩٥ .

العامية على أساس أن المسرح صـــورة من الحياة بلغتها المحكية لا المكتوبة ولغتنا المحكية هى العامية وان كانت المسافة بينها وبين الفصحى قريبة قربا شديدا عند المثقفين وهكذا ينبغى أن تكون لغة الحوار المسرحى ، لا تتدنى الى العامية المبتذلة ولا تصل فى ارتفاعها الى التقعر والوعورة .

لم تكن العامية والدعوة اليها خطرا فى هذا الوقت فالفصحى لغة القرآن ولغة التراث ولغة التفاهم بين الوطن العربى كله والعامية فى ذلك الوقت لم يكن هناك من أهلها من يحاول دراستها ووضـــع القواعد لها ، وانما الداعون اليها غرباء ، ودعوتهم تبعث الريبة ، فلابد أن يقوم رد فعل ضدها يزيد الناس حرصا على اللغة الفصحى ، ومن هنا وهناك انبعثت فكرة انشاء مجمع لغوى فى هذه الفترة ، وكانت الدعوة فيها من التحذير والترغيب ما يزيدها اصرارا ووضوحا وقوة .

« ان اللغة العربية لم يعد يمكنها أن تجارى اللغات الأوربية ، مالم يقم فى البلاد جماعة كأعضاء الأكاديمية الفرنسوية يتولون أمر التعريب ووضع المصطلحات العلمية وتنقية اللغة من كل وحشى ومهجور . وقد رأينا من قبل أن الأكاديمية الفرنسوية قامت ونجحت بتعضيد ملوك فرنسا لها ، ورجونا أن يكون سمو عباس باشا ( وكان وقتئذ وليا لعصر الخديوية المصرية ) عضوا لهذا المجمع اللغوى ، ونعيد الآن التماسنا راجين من سموه أن يحله محل النظر ويشد أزر من يسعى اليه » (١) .

وما دمنا نسلم بأن اللغة أشبه بشجرة ضخمة تسقط أوراقها القديمة ثم تستقبل أوراقا جديدة على مرور الأيام كما يقول علماء اللغة ، فلابد من التهيؤ لاستقبال الألفاظ الجديدة ، ولكن هل نترك

---

(١) المقتطف فبراير ١٨٩٢ ( عباس الثانى خديوى مصر ) .

لكل صحفى أن يستخدم ما يشاء من الألفاظ بعيدة كانت أم قريبة من صياغة العربية ومشتقاتها ؟ الواقع أن الضرورة كانت تستدعى وجود جمع من علماء اللغة يرعون الفصحى ويتعهدونها بتوليد الألفاظ من المواد اللغوية ، فاذا مرنت الأذن على سماع الكلمة أصبحت فصيحة وفرضت نفسها فرضا على المعجم وعلى الكتاب . وهكذا يفتح المجمع اللغوى باب اللغة ولكن فى شىء من الحيطة ويقوم بعملية موازنة بين الجمود وبين التطور .

« فمهما تنوعت الغايات وتعددت الأهداف فى سبيل انشاء المجامع اللغوية واجتناء ثمراتها ، فلن يعدو أن يكون الهدف الأصلى التوسل بها الى سلامة لغة البلاد التى أنشىء المجمع فى ربوعها . وسلامة كل لغة تكون بأحد أمرين : الأمر الأول ــ المحافظة على ارثها المميز لها عن غيرها ، كنوع تأليف الكلام وطريقة ايراده وخصوصية أساليبه وروعة بيانه مع غرابة ايجازه . والأمر الثانى لسلامة اللغة زحزحتها عن الجمود والأخذ بها نحو التطور ، مع تطور أهلها المتكلمين بها ، فيجدون فيها المرونة المواتية فى التعبير عن أفكارهم ومستحدثات حضارتهم وبدائع تطورهم . ويجب التوفيق بين هذين الأمرين جهد الطاقة ، فلا ندع الاستمساك بأهداب لغتنا الموروثة يقف فى سبيل تطورها ، ولا نساير التطور وندخل اللهجات الى حد أن يطغيا على لغتنا الفصحى ويعملا على تحطيمها فتموت وتميتنا معها . أدرك هذا عصبة من كبار أدباء مصر ومترجميها منذ أواسط القرن الماضى وقد لمسوا الخطر فى تغلب التطور على اللغة الفصحى ، وخشوا أن يزعزع هذا التطور أركانها ويسلبها بيانها ، ولا سيما بعد أن غزتنا الأمم الأوربية بلغاتها » (١) .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٧ ( مجامعنا اللغوية وأوضاعها للشيخ عبد القادر المغربى ) ص ١٢٣ .

وهكذا نضجت الفكرة ووجدت التربة المهياة لنموها ، ففى النصف الأخير من سنة ١٨٩٢ اجتمع فى دار السيد توفيق البكرى بالخرنفش الشيخ الشنقيطى الكبير ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ حمزة فتح الله ، والشيخ حسن الطويل ، وحفنى ناصف ومحمد بيرم ومحمد المويلحى ومحمد عثمان جلال ومحمد كمال . وتذاكروا فى انشاء مجمع يؤدى للغة العربية ما تؤديه الأكاديمية الفرنسية للغة الفرنسية . ثم انتخبوا السيد محمد توفيق البكرى رئيسا لأول مجمع للغة العربية كما انتخبوا السيد محمد بيرم سكرتيرا له .

ولم تكن هناك خطة عمل ، وان كان هناك قانون يحدد هدف المجمع وشروط عضويته . فلم يفكروا فى محاولة وضع قاموس حديث أو تحقيق معجم قديم ، ولم يرسموا أسلوب التعريب ، ولا وضعوا منهجا للخطوات التى يبدأون بها ، فما من شك فى أن الميدان الاجتماعى والسياسى كان بحاجة الى التفاتهم أكثر من غيره ، ولكن هناك ميدان الأدب والاقتصاد والعلوم . كذلك لم يقسموا أنفسهم الى لجان تختص كل لجنة بدراسة ناحية من النواحى ، والدارس لجلساتهم يدرك أن ميدان الحياة الاجتماعية كان أكبر ما استرعى التفاتهم ، ولكن يبدو أن ما كان يتبادر الى أذهانهم عفو الخاطر من الألفاظ الدخيلة فى الحياة الاجتماعية ، هو ما اهتموا بتعريبه وحده .

كان المجلس قد اكتمل عقده فى احدى الجلسات التى عقدت مساء الرابع من فبراير عام ١٨٩٣ . وكان على السيد محمد توفيق البكرى أن يلقى بحثا ويترجم الى العربية عدة كلمات أجنبية تسللت الى اللغة . والواقع أن السيد البكرى كان قد استعد لهذا اليوم وأشرك معه الشيخ حمزة فتح الله فى اختيار واشتقاق الكلمة العربية المرادفة فى المدلول للكلمة الأجنبية . وهكذا وقف الرئيس الأول للمجمع اللغوى يلقى كلمة فى أخلاق الشاعر المتنبى ، حاول أن يستدل فيها من أشعار المتنبى على طباعه . ثم عرض ترجمة لعشر كلمات

اجنبية بعد ذلك وهى : مرحى لكلمة براڤو ، مدرة للأفوكاتو ، مسرة للتليفون ، عم صباحا لبون چور ، عم مساء لبون ســـوار ، حماد لمرسى ، بهو للصالون ، قفاز للجوانتى ، نمرة لنمرو ، وشـــاح للكوردون . فوافق الأعضاء جميعا على هذه الترجمة ، ثم قام محمد عثمان جلال فألقى تخميسة لقصيدة بانت سعاد . وانتهت الجلسة .

وفى الجلســـة التالية المنعقدة فى الســـابع عشر من فبراير عام ١٨٩٣ ، ألقى الســـيد البكرى بحثا بعنوان « الوفاقات فى العادات » عرض فيه بعض مظاهر الاتفاق فى العادات التى يشترك فيها العرب والافرنج كالتمثيل والرقص والتصوير والتهادى بالزهور واستعمال الورق مكان النقود وقت الحاجة ورفع ما على الرءوس للتنظيم واقامة التماثيل للرجل المشهور واقامة المتاحف وتقديم قائمة قبل الأكل تحتوى على أسماء الأطعمة . ويحاول التدليل على وجود هذه العادات عند العرب (١) . والواقع أن مرحلة التطور التى عاشها ذلك الجيل كانت تستدعى محاولة التوفيق بين المثل والتقاليد العربية والمثل والتقاليد الغربية الغازية لأن مراحل التقاء الحضارات وتصارعها توجد فريقين من المتطرفين ، فريق يذوب فى الحضارة الجديدة ويقتلع جذوره ، وفريق يزداد تمسكا بتقاليده ورفضا لكل غاز ، أما القاعدة الشعبية فهى التى تحاول التوفيق فى موقفها بين حدة الطرفين وأخذ ما فى صالح القديم وصالح الجديد ، وعلى هذا الأساس نفسه قام المجمع اللغوى الأول ليتدارك هذا السيل الغازى من الألفاظ الأجنبية ، الذى تبناه المتطرفون ورفضه المحافظون وحاول المجمع أن يوجد بديله فى العربية .

وفى هذه الجلسة نفسها ألقى محمد المويلحى كلمة فى أغراض المجمع يؤكد فيها حتمية وجوده فى مرحلة التطور هذه ، ثم ألقى

---

(١) راجع حاشية صهاريج اللؤلؤ ص ٢٥٨ وما بعدها .

عشر كلمات ترجمة لمسميات اجنبية ، وهى الطنف للبالكون ، والحراقة لمركب التوربيد ، والجديلة للموضة ، وبطاقة الزيارة للكارت ده فيزيت ، والمربة للكلوب ، والحذاقة لشهادة الدراسة ، والمعطف للبالطو ، وحصب الطريق لفرشها بالمكدام ، والشرطى لرجل البوليس ، والمشجب للشماعة . هاتان هما الجلستان المهمتان لمجمع البكرى ، وتلك هى الكلمات العشرون التى وافق عليها اعضاء المجمع اقترحها البكرى والمويلحى فى الجلستين الأخيرتين (١) . وقد أثار المجمع ضجة صحفية بطبيعة الحال ، فهو أول مؤتمر لغوى ، وتلك أولى الكلمات التى يتفق على تعريبها جمع من خـــيرة اللغويين ، فتناقلت الصحف هذه الكلمات ، وتصدى لنقدها جورجى زيدان فى « الهلال » ورد عليه عبد الله النديم فى « الأستاذ » .

يقول النديم : « رايت جريدة الهلال الغراء دخلت هذا الباب وقالت ( اننا لم نر فى لفظة مدرة الكفاءة التامة لتنوب مناب لفظة أفوكاتو بكل معانيها ، اذ ان هذا اللفظ فى اللغات الافرنجية يفيـــد المدافعة عن الآخرين فى الأمور الشرعية ، وهذا لا تفيده لفظة مدرة ، لأن المراد بها زعيم القوم والمتكلم عنهم بما له من الرئاسة عليهم كما هو الحال فى رؤساء الأحزاب وزعمائها . . أما الأفوكاتو فعلى خلاف ذلك كما لا يخفى ) ونحن نقول ان اللفظ يقوم بالمراد ، فانه كما يدل على السيد الشريف فى قومه ليدل على المقدم فى اللسان والسيد عند الخصومة والقتال ، والمقدم فى اللسان عند الخصومة صفة جامعة لكل ما يخاصم فيه سواء كان حقا شرعيا أو مدنيا أو جنائيا له أو عليه ، فهو أعم من لفظ محام الآتى فى مادة حمى الشىء منعه ودفع عنه ، وليس فيه معنى المطالبة بالحقوق ولا درء الحدود ولا رد الشبه ولا ابطال الدعاوى ولا تأييد سابق الأدلة والبراهين ولا تأويل معنى قانونى ولا تخطىء قاض ولا تفسيق

(١) محاولات لانشاء مجمع لغوى ( المقتطف يناير ١٩٢٨ ) .

شاهد ، وهذا كله يندرج فى الخصومة . على أن كل معنى أريد من أفوكاتو فانه فى معانى المدرة ، فانه رأس القوم والدافع عنهم وزعيمهم وخطيبهم والمتكلم عنهم ، ومن يرجعون الى رأيه ، ولسان القوم ، وليس فى معنى أفوكاتو أوسع من هذا ولا غيره ، وأما كلمة محام فانها فى غاية القصور عما يلزم وظيفة المدرة اذ ليس فيها سوى المنع والدفع ، وأما قول الهلال ( ولنا فيها اشتقاقات لتسهل استعمالها فنقول حامى عنه ويحامى عنه ومنه المحاماه مما لا يتأتى لنا فى لفظ مدرة ) فان الذى حملها عليه هو قول الليث فى المدرة ( أميت فعله ) ولو مشت العلال فى المادة حتى وصلت قولهم دره لقومه يدره درها ، لما انكرت الاشتقاق ، وعلى هذا فيقال فن المدارهة ، ودرة عنى خصمى أى دفعه ورده ، وهو ذو تدره القوم أى الدافع عنهم ، واذا قلنا درة أصله درأ فهو مبدل منه زاد المعنى وضوحا ، اذ يقال تدارأ القوم اى تدافعوا فى الخصومة ، فتكون هناك مفاعلة ، والترافع بالأفوكاتية لا يكون الا بين اثنين يبدأ كل منهما عن منيبه عنه ، وكما يقال فى المبدل منه يدارأ القوم يقال فى البدل تداره الخصمان ، ومن هذا يظهر أن المدره هو مقابل أفوكاتية من غير اخـــلال بشىء من معناه » (١) .

وهكذا انتقل النديم من كلمة الى أخرى مفندا رأى جورجى زيدان ، بتفسير لغوى طويل موافقا على كلمات المجمع لم يستثن منها الا القليل ، وفى ذلك يقول : « قال الهلال ( ان نمرة لا تؤدى المراد من نومرو الافرنجية ، بل هى غير معناها لأن نمرو تفيد فى الأصل العدد أو الأرقام ، وقد أطلقت على العلامات والأرقام التى يستخدمها التجار وغيرهم ليميزوا بها أصناف السلع بعضها عن بعض ، أما النمرة فهى النكتة من أى لون كان ، والنكتة النقطة السوداء فى الأبيض والبيضاء فى الأسود ، واذا جاز استعمالها بمعنى

(١) الأستاذ ٧ مارس ١٨٩٣ ( مجمع اللغة العربية بمصر ) .

نمرو فينقصنا الفعل منها اذ ليس فى اشتقاقاتها ما يقوم مقام نمر العامية ، وهذا نقص لا يسد الا بالتفتيش عن لفظ آخر يؤدى هذا المعنى ) ، والأستاذ يوافق الهلال فى مخالفة معنى نمرة العربية لمعنى نمرو الافرنجية .. فالأولى استعمال عدد . ثم قال الهلال ( وعندنا ان مادة رقم تؤدى الغرضين معا لأنهم يقولون رقم الثوب خططه واعلم بأن ثمنه كذا ، ومنه قولهم لا يجوز بيع الشىء برقم ، قلنا الرقم بمعنى نمرو تماما ) ولا يخفاه أن قولهم رقم الثوب خططه لا يفيد معنى العدد .. فالرقم بمعنى الكتابة وكتاب مرقوم بينت حروفه بعلاماتها من النقط والشكل » . ثم اعترض الأستاذ على كلمة « مرحى » لأنها تقال للرامى اذا أصاب أو تعجب من جودة رميه فهى خاصة بالرمى ، وبراڤو كلمة تقال لكل مصيب فى قول أو فعل وكل محسن فى أداء عبارة أو تحرير مطلب خطابى ، فمقابلها « بخ » فانها كلمة تقال عند تعظيم الانسان وعند التعجب من الشىء وعند المدح والرضا بالشىء . أما الحراقة فالأوفق أن تطلق على المركب الحربية ، وأما المرب بدلا من الكلوب فهذا اذا كان الكلوب الحديث ليلا ونهارا ، أما اذا كان للحديث ليلا فهو السامر أى مجلس السمار واذا كان للحديث نهارا فهو النادى . واخيرا فان الجديلة بمعنى الشاكلة فلا تؤدى معنى مودة غالبا لأن الشاكلة هى الشكل وهو عبارة عن الصور المحسوسة والمتوهمة والطريقة والمذهب ، والمراد من المودة نوع جديد يخالف سابقه من الأنواع (١) .

واذا نظرنا اليوم الى هذه الألفاظ التى وضعها المجمع الأول وجدنا أنه لم يعش منها الا القليل ، وهذا القليل نازعته الحياة الفاظ عربية اخرى . وقد كانت كلمة « أڤوكاتو » أكثر هذه الألفاظ الأعجمية شيوعا ودورانا على الشفاه يومئذ ، فرأى ذلك المجمع أن يستبدل بها كلمة « المدرة » غير أن كلا الكلمتين ماتت وعاشت بعدهما كلمة « المحامى » التى اقترحها جورجى زيدان ، وكذلك كلمة « مرحى »

(١) المرجع السابق .

بدلا من « براڤو » قتلت احداهما الأخرى وخلفتهما كلمة « بخ » لحين من الزمن ثم لم تقو هى الأخرى على الحياة وخلف الجميع التصفيق بالأيدى وقول « الله أكبر » فى بعض المواطن . وكذلك « نمرة » مكان « نومرو » ماتتا وخلفتهما كلمتا « رقم وعدد » اللتان اقترحهما جورجى زيدان وعبد الله النديم . على أن « نمرة » ما زال فيها رمق من حياة يتردد الى اليوم . و « عم صباحا عم مساء » مكان قولهم « بونچور بونسوار » ماتت الكلمات جميعا ورجع الناس الى ما مرنت السنتهم عليه من كلمات التحية عند اللقاء . و « المرب » مكان « الكلوب » ماتتا وورث استعمالهما ، لفظ النادى . و « مشجب » مكان « بورت مانتو » ماتتا واستغنى الجمهور عنهما بكلمة « شماعة » وان كانت كلمة « مشجب » لا يزال بها بعض ماء الحياة .

وهناك الفاظ عربية فصيحة وضعها مجمع البكرى فحيت وبقى مقابلها الأعجمى حيا وهى ( بطاقة وكارت ڤيزيت ) و ( شرطى وبوليس ) و ( بهو وصالون ) و ( معطف وبالطو ) و ( قفاز وجوانتى ) ، أما الكلمات الأعجمية التى استطاعت أن تميت مقابلها من الكلمات العربية التى اقترحها هذا المجمع فهى ( المودة أماتت الجديلة ) و ( شهادة الدراسة أماتت الحذاقة ) و ( البلكون أماتت الطنف ) (١) .

وأسدل الستار على مجمع البكرى بعد قيامه بعدة أشهر ، لأن الدولة لم تقف الى جانبه ، وهو نفسه لم يتخذ الوسائل الكفيلة ببقائه ، وكان النديم قد اقترح أن ينشىء المجمع قاعة للخطابة ويضع للدخول اليها رسما معينا ، ويصدر مجلة شهرية تتضمن أبحاثه ، ويقيم الأعضاء انفسهم بحسب تخصصاتهم ويقدم جوائز لمن يقدم اليه رسالة فى فن بعينه أو يحقق مطلبا يخصصه ، وقد تدارك المجمع اللغوى الآن كل تلك الثغرات ، فبقى قويا يحتل مكانته المقدرة له .

(١) مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٧ ( مجامعنا اللغوية واوضاعها ) .

# فى معترك السياسة

كان تفكير السيد البكرى يجول دائما خارج أسوار داره الكبيرة، فلم يكن فى داخلها ما يشغله عن الحياة العامة ، ومن أجل ذلك ألقى بنفسه فى معترك السياسة منذ وقت مبكر . والحقيقة أن الاحتلال فى ذلك الوقت كان يحاول أن يئد روح الوطنية فى النفوس بعسفه وطغيانه . « فصار عدم الاكتراث للوطنية شعار هذا الجيل والجيل الذى تلاه وأصبح سبيل النجاح سواء فى مناصب الحكم أو فى الحياة الاجتماعية عامة هو الولاء للاحتلال الأجنبى ، والزراية بالمبادىء الوطنية وقلة الاخلاص للبلاد ، ودرج الناس على هذه الحالة حتى ألفوها وحتى عدوها كأنها حالة عادية وكأن الخروج عليها ضرب من السخف أو الجنون ، وهكذا يمسخ الحكم الأجنبى نفسية الأمة ويفقدها روح القومية والكرامة وينشىء نفوسا مريضة يروضها على التفريط فى حقوق الوطن وتضحية مصالحه ، وألغى الاحتلال النظام الدستورى الذى نالته البلاد من قبل ، والذى كان أداة لمقاومة التدخل الأجنبى والحد من سلطة الفرد ، وكان يقرر سلطة الأمة ويجعل الوزارة مسئولة أمام مجلس نيابى كامل السلطة، وأنشأ بدلا منه نظاما صوريا قوامه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، وهما هيئتان محرومتان كل سلطة ونفوذ ، وبذلك فقدت البلاد فى وقت واحد استقلالها ودستورها ، وفقد الناس الطمأنينة على حياتهم وحريتهم »(١) .

(١) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١٧٥ .

والواقع أن صوت المؤيد كان أول بشير بأن مصر لم يزل فيها بقية من حياة ، ثم ظهر « الأستاذ » للنديم بعد ثلاث سنوات ، واثبت النديم أنه يحمل بين جنبيه نفسا هى أقوى من الكوارث وعزيمة لا تردها الهزيمة اذ استأنف جهاده الذى بداه مع عرابى ، واعلن الحرب الصريحة على الاستعمار ، ثم أخذ يلقى تبعة ما صارت اليه مصر من سوء الحال على أمراء مصر وزعمائها ، حتى انتهى به الأمر الى النفى ، وطويت صحيفة الأستاذ ولم يحل الحول على صدور العدد الأول منها . وتلقف الراية من يد النديم مصطفى كامل ، فقد اتصل به منذ عودته من منفاه الأول وعرف منه كثيرا من أسرار الثورة العرابية ودسائس السياسة البريطانية ، وبدأ جهــــاده عام ١٨٩٥ بمقاله الذى نشر فى الثامن والعشرين من يناير فى ذلك العام بجريدة الأهرام مطالبا الاستعمار بتحقيق وعوده فى الجلاء .

والحقيقة أن جراة مصطفى كامل كانت تمثل مرحلة سبقت عصرها ولكنها علمت العصر الا يتوقف أبدا ، فلم يكن من السهل أن يحمل الاستعمار عصاه ويرحل لمجرد نداء مهما كانت قوة صداه ، وعندما فكر البكرى هذا التفكير رأى أن المطالبة بالاستقلال الادارى لابد أن يسبق المطالبة بالاستقلال السياسى فرفع صوته مطالبــــا بالمجلس النيابى ، وكان أول مصرى نادى به ، قبل أن يبدأ مصطفى كامل جهاده الوطنى . فنشر فى مايو عام ١٨٩٣ مقالا بجريدة التيمس البريطانية يقول فيه : « وقد أنشىء فى مصر مجلس نواب بعد أن ساد فيها الاستبداد والظلم أربعة آلاف سنة ، فألغاه الاحتـــلال واستبدله بمجلس شورى القوانين ، وهو مجلس لا يحق له الا ابداء رأيه ، كما يبديه محرر جريدة فقط ، فالغاء مجلس نوابنا هذا نقطة من أشد النقط سوادا فى تاريخ الاحتلال » (١) . كان هذا فى نفس

---

(١) بيت الصديق ص ٢٤ .

الشهر الذى عين فيه عضوا بمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، فقد أحس أن الظروف كلها تدفعه للاندماج فى الحياة السياسية ، وهو لا شك قادر على أن يسهم بنصيب كبير فى هذه الحياة ، ولكن فى حدود الأوضاع السياسية والدينية التى يعيش فيها . فقد تفرق حزب الاصلاح الذى كونه جمال الدين الأفغانى من قبل واصبح على كل فرد يؤمن بحتمية التطور التاريخى أن يعمل فى ميدانه ، حتى تتجمع دروب الاصلاح جميعا . وفى نفس العام تحادث مكاتب « النيويورك هرالد » مع كبار الرجال فى مصر لينقل الى العالم وجهات نظر المصريين . تحادث مع فخرى باشا ، فكان جوابه أشبه بانتكاسة العليل بعد بداية الصحو ، وطعنة وجهها فى يسر وسهولة الى صدر مصر « اننى لو بقيت رئيسا للنظار لما ادخلت فى برنامجى اخراج الانجليز حـــالا من مصر عســكريين او ملكيين ، لأنهم اندمجوا فى المصالح المصرية لدرجة أنهم لو خرجوا منها لوقعنا فى حيرة لعدم وجود من يخلفهم فيها الا بعد مدة طويلة ، ولو كان الاحتلال فرنسيا أو ايطاليا لكانت النتيجة دفع البلاد الى حالة سيئة » (١) . انها وجهة نظر أصحاب المصالح ، الذين لا يعنيهم الشعب فى كثير أو قليل ، بل يخشون تيقظ الشعب على صـــوت الجهاد ، وانتزاعهم من بؤر الترف التى ينغمسون فيها الى الأذقان. والتزلف واضح أشد الوضوح ، لأن الاحتلال واحد ســـواء أكان انجليزيا أم فرنسيا ، ولا نستطيع أن نلتمس العـــذر لصاحب التصريح ، حين لم يقو على مهاجمة الاستعمار فى ذلك الوقت المبكر فقد كان من الممكن أن يصمت ولا ينطق كفرا ، على أن تصريح البكرى وضع الأمور فى نصابها حين قال : « ان مبدأه مصر للمصريين ، وهو ضد اى احتلال فرنسي أو ايطالى أو تركى ، كما أنه ضـــد

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم رقم ١ ص ٧٤ .

الاحتلال الانجليزى ، وانه يعتقد أن بلاده قادرة على حكم نفسها ، ويرى ضرورة استرجاع السودان » (١) . ففى الوقت الذى لا يتناسى فيه قضية السودان ، يجاهر بعدائه للاستعمار البريطانى ، ويصرح مرة ثانية بأن بلاده قادرة على حكم نفسها دون وصاية من أحد . وكان البكرى فى هذا الحديث أجرأ من رياض باشا وبطرس غالى وغيرهما ممن داروا حول الموضوع دورانا يزيل وضوحه ويغلفه بالغموض . ولا ينبغى أن تفسر دعوته الى مصر للمصريين على أنها دعوة اقليمية ، فالواقع أنها ظهرت قبيل الثورة العرابية وكانت تلك الثورة هى صوتها القوى ويدها الباطشة وقوتها المنفذة وكان محورها هو الحزب الوطنى الذى تألف قبيل الثورة من الرجال الذين تزعموها بعد ذلك . ولعلهم كانوا متأثرين بالتفكير الغربى ، لأنها لا شك كانت صدى للاتجاه العالمى نحو فكرة القومية فى القرن التاسع عشر . وكانت رد فعل لتسلط العنصر التركى على مصر . على أن مفهوم الوطن فى ذلك الوقت كان يختلف عن مفهومه فى أذهاننا اليوم .

ولكى تتضح الصورة ننظر الى رأى محمد عبده الذى تناول الموضوع أكثر من مرة ، فنراه يتحدث عن وجوب التفانى فى الوطن وحبه والذود عنه ، ثم لا يلبث أن يتحدث عن الجامعة الاسلامية ووجوب انتشال الأمة الاسلامية مما هى فيه من حالة الضعف ، مهاجما أعداءها ، الذين يستبعدون الدين من دائرة الوطنية . كانت هناك اذن دعوة للوطنية بالمعنى الأوربى ، ولكنها كانت مختلطة بالدين فى أذهان كثير من الناس ، وتستهدف انشاء رابطة عاطفية بين المصرى ووطنه تحفزه الى الاهتمام بأمره والعمل على رفعة شأنه وأداء واجبه نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة

(١) نفس المرجع .

اخرى . وربما كانت هذه الناحية الأخيرة هى المقصـودة بالتنبيه بنوع خاص ، لأن المصريين كانوا من قبل يؤدون الواجبات دون أن يعرفوا أن لهم فى مقابلها حقوقا . ولكن أصحاب هـذه الدعوة لم يفكروا على كل حال فى أن يستبدلوا هذه الرابطة بالرابطة الدينية أو يضعوها فى مقابلها .

وهكذا كان دعاة الحزب الوطنى بعد الثورة العرابية ، ذلك الذى تزعمه مصطفى كامل ، فهو يتحدث عن الوطن والوطنية حديثا عاطفيا ، ويتغنى به كما يتغنى العاشق بمعشوقه ، محاولا أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الجديد ، ولكن الدين والوطنية عنده توأمان متلازمان ، يصوران حقيقة واحدة . على أن فريقا آخر من دعاة الوطنية ، كان يحارب فكرة الجامعة الاسـلامية ، ويدعو الى أن يقصر المصريون اهتمـامهم على مصالح مصر ، ويحصروا تفكيرهم فيما يعود عليها بالنفع ، ويصور الوطنية على أنها المصلحة المشتركة التى تجمع بين المواطنين ، وكان هذا الفريق ممثلا فى مؤسسى حزب الأمة ، الذين كانوا يسمون أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية ، فهم ينظرون الى الوطن نظرة مادية خالصة ، والمواطنون مجموعة من الناس جمعتهم هذه السوق التى تسمى وطنا وعليهم أن يحرصوا على أن تظل هذه السوق قائمة (١) .

وفكرة البكرى عن الوطنية تنطبق على فلسفة الفريق الأول ، فهو يدعو الى اهتمام المصرى بوطنه ، والى اهتمام الوطن بأبنائه ، ولكنه فى الوقت نفسه يدعو الى الجامعة الاسلامية فكريا وعمليا ، وان كان هذا لا يعنى مطلقا سيطرة تركيا على مصر من جديد ، لأنه يؤمن بقدرة المصريين على ادارة دفة بلادهم ، واصلاح أمورها أكثر

---

(١) راجع الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ٥٠/٩٠ .

مما يستطيعه الغريب ، ويؤمن بأن خير مصر ينبغى أن يعود الى أبنائها وحدهم .

كان البكرى عضوا فى مجلس شورى القوانين وفى الجمعيـــة العمومية ، وهو يدرك أن مجلس شورى القوانين مجلس عجيب ، فمحظور عليه المناقشة فى المسائل السياسية أو مجرد ابداء رغبة ما فى كل ما التزمت به الحكومة بمعاهدات دولية كالدين العمـــومى او ويركو الآستانة أو قانون التصفية أو غيرها ، فهو مجرد صورة ، لولى الأمر أن يحله متى شاء ، وأما الجمعية العمومية فتستشار لابداء رأيها فى المشروعات التى تبعث بها اليها الحكومة كالسلف العمومية وانشاء أو ابطال الترع (١) . ومن أجل ذلك كان التفكير فى انشاء مجلس نيابى خطوة هامة وحتمية من أجل مشاركة الشعب فى تقرير أمره ومصيره ، ومن أجل ذلك أيضا كان التسويف مرة بعد أخرى من جانب المستعمر ومن جانب الخديو فى وجود مجلس ايجـــابى .

وعندما قدم ولى عهد بريطانيا الى مصر ، خطا البكرى خطوة أخرى ، فكتب له كتابا مفتوحا نشر فى « المؤيد » يقول فيه : « ولكن الأمة التى كان لها دستورها النيابى قبل عهد الاحتلال ــ ولم ينشأ مجلس شورى القوانين بشكله الذى عليه فى أول عهد الاحتـــلال الا على وعد من ( اللورد دوفرين ) مندوب بريطانيا العظمى اذ ذاك أن يكون هذا المجلس بعد قليل من السنين مجلسا نيابيـــا كاملا يساعد الحكومة على أداء وظيفتها أحسن أداء ــ لابد وأن تذكر هذا الامتياز الذى كان لها دائما كما أنها لا تنسى هذا الوعد بالحصول عليه ، وهى اليوم أكثر ما تكون ذكرى له ، رجــاء أن تكون زيادة سموكم سببا كبيرا فى مساعدة عاجلة من دولة بريطانيا العظمى لنيل

---

(١) تاريخ الحياة النيابية فى مصر جـ ٤ ص ٥٥٢/٥٥٤ .

المصريين دستورا نيابيا شريفا . ذلك هو الدستور الذى التمسته الجمعية العمومية ( وأعضاء مجلس شورى القوانين من جملتها ) من جانب الحكومة الخديوية رسميا قبل سنتين . ذلك الدستور الذى قال عنه جلالة والدكم المعظم أخيرا فى البرلمان ( أن البلاد التى منحتها الامبراطورية الانكليزية حكومة نيابية أدى ذلك الى نموها وتقدمها وسعادتها كما أدى الى ازدياد روابط الصداقة بينها وبين الامبراطورية ) فتفضل يا صاحب السمو الملكى واجعل هذه الزيارة الشريفة خير مذكر لدولة بريطانيا العظمى بالوفاء بوعدها فى أول عهد احتلالها ، ليبقى لهذه الزيارة أشرف ذكرى وأدومهـــا لدى المصريين » (١) .

واذا لم تكن كلمات الخطاب قوية كما ينبغى ، فالعصر كله لم يكن يستطيع الا فى النادر ، أن يتكلم بأسلوب أقوى من هذا اذا ما خاطب المستعمر ، خاصة اذا كان الخطاب موجها لولى العهد . واذا أدركنا أن الخطاب نشرته بعد ذلك الأهرام والمقطم والجوائب وكثير من الجرائد الأجنبية . « وأثار ضجة كبيرة فى الرأى العام المصرى » (٢) و « فعل بمصر فى النفوس والعقول ما تفعله شعلة النار القيت فى بحر من البترول » (٣) . أدركنا قيمته فى زمنه وفى محيطه ، ولم يكن يملك البكرى ولا غيره أن يصنع أكثر من محاولة تكتيل الرأى العام نحو هدف معين ، وأكثر من مخاطبة المستعمر فى صورة خطاب مفتوح . وسواء أكان هذا الخطاب المفتوح الذى وجهه البكرى الى ولى العهد بايعاز من مجلس الشورى (٤) ، أو لم يكن ، فان دلالته لا تخرج عن أمر واحد ، هو أنه صورة من صور الجرأة ، ودليل من دلائل الروح الوطنية . ثم كان الاتجاه الى السلطة المحتلة بعد أن فشلت جهود الجمعية فى حمل الخديو على انشاء المجلس

---

(١) بيت الصديق ص ٢٥ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ قسم ٢ ص ٩٤/٩٥ .

(٣) المؤيد ١٩٠٦/٤/٣ وما بعده .

(٤) مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ قسم ٢ ص ٩٤/٩٥ .

النيابى بدلا من مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية (١) ، ثم اتجه مجلس شورى القوانين مرة ثانية الى الخديو بعد أن خاب أمله فى المستعمر واستيقن أن نيل حق من حقوق الأمة عن طريقه أبعد من الأحلام .

كان ذلك آخر اكتوبر عام ١٩٠٨ ، عندما عرض الموضوع على بساط البحث ، فظهر فريق معارض فى وجود حياة نيابية سليمة بمصر ، ومعارض فى تحميل الشعب مسئوليته ، فريق له صلات مريبة ، وقد علقت جريدة « المؤيد » على النقاش ، وتناولت بالتشريح طائفة المعارضين محاولة كشفهم أمام الرأى العام فقالت : « حصل جدال طويل أمس بين أعضاء مجلس شورى القوانين بشأن طلب المجلس النيابى ، وقد استمر الخلاف نحو ثلاث ساعات ، انتهى بتقرير البحث فى كيفية الطلب الى ديسمبر . ويوجد فى المجلس الآن فريقان مختلفان فى جوهر الموضوع ، وأكثر من فريقين فى شكله . فأما الفريقان المختلفان فى جوهر الموضوع ، فهم كل الأعضاء المندوبين تقريبا ، ومعهم بعض الدائمين وهم سماحة السيد البكرى وعلى شعراوى . وهؤلاء يطلبون الحكومة النيابية على كل حال . ومعارضوهم قليلون ، وقد ظهر منهم بالأمس سعادة طلبة باشا سعودى على تردد فى عدم طلب المجلس النيابى من أصله ، أو فى طلب توسيع اختصاصات المجالس النيابية الحاضرة ، ومعه سعادة موسى باشا غالب قاطعا بعدم طلب المجلس النيابى من أصله ، وكذلك حضرة مفتاح بك معبد ، وهؤلاء الثلاثة كانت الوكالة البريطانية قد رشحتهم ، الأولين لصداقة اللورد كرومر معهم بالذات ، والثالث لوساطة السير جارستن » (٢) .

---

(١) تاريخ الحياة النيابية فى مصر ج ٤ ص ٥٥٤/٥٥٥ .
(٢) المؤيد ١٩٠٨/١١/١ .

وهكذا كانت هناك أصابع الانجليز وأصابع الخديو ، تحرك بعض أعضاء المجلس من خلف ستار بغية التسويف ، ونجحت فى تسويفها لأن المجلس لم يكن يملك من السلطات ما ينفذ بها قراراته ولم تكن قراراته ملزمة ، مهما كانت صادقة فى دقة تصديرها لآمال الشعب وأمانيه . وهكذا أيضا لم يتحقق الحلم وبقى معلقا عاما بعد عام .

وفى ذلك الوقت كانت هناك أحداث ضخمة تحدث فى دولة الخلافة ، فقد ثار الجيش وأجبر الخليفة على منح البلاد دستورها، ولعل ذلك هو الذى دفع أعضاء مجلس شورى القوانين الى المطالبة بالدستور فى مصر . ولم تكن هذه الأحداث لتمر دون أن تتناولها الصحف المصرية بالتعليق فما زالت مصر ترتبط ارتباطا عاطفيا وأدبيا بالدولة العثمانية ، فنشط محررو الصحف ، وكان من أخطر تلك الأحاديث التى أدلى بها رجال السياسة فى مصر ، حديث السيد توفيق البكرى الذى نشرته صحيفة اللواء .

يقول السيد محمد صادق عنبر محرر اللواء : ذهبت اليه ، فوجدت جمعا يتناقشون فى السياسة ، بعد أن كان المصريون منكبين على الملاهى أو منعزلين وسألته :

ــ ما حال الدولة العلية ، وما كان يعوزها من قبل ؟

ــ كان بعض أدباء الافرنج يقول ان الدولة العلية كبرج بيز ( المعروف ببرج بيشة فى ايطاليا ) سلامته فى بقائه معوجا ، فاذا أريد تقويمه سقط ، ولكن الأيام قد اظهرت خطأ هذا القول ، وقول كل موئس منها ، ودلت على أنها ملأى حياة وقوة ، وانما كان يعوزها الثورة ، **وذلك لأن الحرية التى لا يتم بغيرها فلاح هى كما قال السياسيون (( تؤخذ ولا تعطى ))** .

ــ هل من موجب للخوف من الحالة الحاضرة سواء من الداخل أو الخارج ؟

ـ لا خوف على الحالة الحاضرة مطلقا ، وانما اذا وجد بعض الخوف فهو من أمرين : الأول داخلي والثاني خارجي . أما الأول فانه يخشى استمرار الجيش على الاستئثار بالقوة فيصبح البرلمان آلة له بدلا من أن يكون هو آلة البرلمان . وقد سمعنا في التاريخ أن قائدا استأثر في زمن ما بالقوة ، فلما وقع الخلاف بينه وبين البرلمان أخلاه وكتب على بابه ( منزل للايجار ) .. وأما الخارجي فهو أطماع الدول والولايات البلقانية في الدولة .

ـ ماذا يرى سماحة السيد في « جمعية الاخاء العربي العثماني » ؟

ـ قصارى القول ان غاية هذه الجمعية التفاني في خدمة الأمة العربية على الخصوص والجامعة العثمانية على العموم وهي تعلم قبل كل أحد أن تآلف هذه العناصر في الجامعة العثمانية كاجتماع الجواهر الفردة في فص من الماس ، لا ينتج تفرقها الا اضمحلال قيمتها .

ـ ما رأى سماحتكم في تصريح انوربك فيما يتعلق بمركز مصر ؟

ـ كانت مصر في حكم الدولة الفاطمية فأهملوا ادارتها حتى دخلها الفرنج ، فأرسل السلطان نور الدين ملك الشام قائده شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي لفتحها ففتحها ، ولما استقر أمرهما جمع صلاح الدين قواد الجند وأشار عليهم باستقلال مصر عن الشام فقام عمه شيركوه ونهره وقال له لو طلبك السلطان نور الدين لكنت أول من يسلمك اليه ، ولما انفض الاجتماع على غير طائل ، سأل صلاح الدين عمه عن سبب معارضته فقال له : انك جاهرت بأمر لم تكن قادرا عليه ، وخشيت أن يكون ثم جواسيس لنور الدين فيخبرونه بالأمر فيفاجئنا بما تكره ، على أنه لو طلب منا مصر الآن لحاربناه على كل شبر من أرضها . فعبارة انور بك الآن

هى فى السياسة كعبارة شيركوه فى ذلك العهد ، على أنه سواء كانت تلك العبارة ظاهرية فقط أو كانت حقيقية ، بمعنى أنهم فضلوا فى الظروف الحاضرة مصلحة الدولة العلية على مصلحة مصر ، وضحوا بالجزء لحفظ الكل ، فهم وشأنهم فى مصالحهم ، ولنعمــــل نحن لمصلحتنا ما فيه النفع لنا .. على أنى أعتقد أنه متى استقر أمر الدولة العلية على الأسس الدستورية وملكت قواها ، فاعتقادى أن انكلترا ذاتها هى التى تعرض عليها مسألة الجلاء قبل أن تعرضها الدولة على انجلترا .

ــ يعلم سماحة السيد أن الرأى العام يلح فى طلب الدســـتور النيابى الحاحا شديدا ، وقد بلغ من الثبات والقوة والتمسك بهذا الطلب حدا يستحيل معه أن تعطل ارادة الأمة ، فماذا يرى سماحة السيد ازاء هذه الحالة ؟

ــ ان رأيى اليوم رأيى الذى جاهرت به منذ ستة عشر عاما ، وهو وجوب منح مصر الحكومة النيابية ، وقد عملت على تحقيقه ، ولا أزال أعمل ، وهو ما زادته الأيام الا استقرارا ، فان مصر قد فقدت نفسها منذ فقدت الدستور ، ولا تجد ذاتها الا حين تجد ذات الدستور ، **وان ارادات الأمم محال أن تعطل** .. ان أول من أدخل فكرة الدستور بالمعنى الحقيقى فى مصر هو السيد جمال الدين الأفغانى ، فانتشرت هذه الفكرة بين أصحابه أو تلاميذه من الوزراء والعلماء والصحافيين وغيرهم من ذوى المكانات ، وفى آخر أيام الخديو الأسبق طلبت منه الدول ذات الشأن مطالب أراد أن يردها بصوت الأمة فأجابه الى طلبه ، وجعلت ثمن الاجـــابة منح مصر الدستور ، وقد وضع ذلك كله فى اللائحة الوطنية المشهورة التى قدمت الى اسماعيل باشا فى يوم مشهود على يد المرحوم الوالــد السيد على أفندى البكرى كما هو معروف ، فقبلها الخديو ، ولكن الدول أصرت على عزله فعزل ، ورؤى اذ ذاك تأجيل تنفيذ مشروع

الحكومة الدستورية فاستقال شريف باشا .. ولذلك تألفت فى حلوان جمعية سرية برئاسة شريف باشا .. هذه هى حقيقة سير الحرية ، وفلسفة الثورة العرابية .

– من هنا يعلم أن ما أجرته ( جمعية الاتحاد والترقى ) هناك اليوم عين ما أجرته ( جمعية حلوان ) هنا أمس وأن الثورة هى التى أوجدت العرابيين لا أن العرابيين هم الذين أوجدوا الثورة .

– نعم . ثم انه لما كان الاحتلال ، قبرت فكرة الدستور ، ومضى على ذلك من سنة ٨٢ الى سنة ٩٢ وهى لا يسمع لها ذكر فى كتابة أو خطابة ، فلما توليت نقابة الأشراف فى سنة ١٨٩٢ ونزلت الى ميدان السياسة العمومية ، وضعت نصب عينى أن أحيى تلك الفكرة وأخرجها من القبر وأعمل على منح مصر الدستور ، وذلك لأنى وجدت أنه لا سبيل لأن تجد مصر نفسها بعد أن فقدتها الا بالدستور . فرحلت الى انكلترا والآستانة العلية وكان لى فى ذلك سعى متواصل ، ثم عدت الى القاهرة وجاهرت بهذه الفكرة .. وما زلت أسعى فى هذا السبيل وأكلم أهل الحل والعقد فى تحقيق تلك الفكرة لما يترتب على تنفيذها من الخير فى الحال والمآل حتى قال اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » ، انى كنت أفاتحه دائما فى أمر الحكومة الشورية ، ويمكننى أن أقول انه مع بعد الأفكار اذ ذاك عن منح مصر حكومة دستورية ، أمكننى أن أقنع من فى يدهم زمام الأمور بوجوب توسيع نطاق مجلس شورى القوانين توسيعا جوهريا ، ولم يمنع من هذا وذلك الا وقوع الأزمة الوزارية وتراخى العلائق بين عابدين وقصر الدبارة سنين عدة ، على أننى فى تلك المدة لم أفتأ أنشر هذه الفكرة فى الرؤوس وأغرسها فى النفوس ، وأتحين الفرص لابرازها الى عالم الوجود بلا كلل ولا ملل .

**وهنا يحق أن أذكر ذلك البطل المقدام العظيم الذى أبلى فى الوطنية البلاء الحسن أعنى المرحوم مصطفى كامل باشا ، فقد أبلى**

**ما ابلى وجاهد ما جاهد ، ومن جهاده الحميد انه دعا الى الحكومة الدستورية وحمل على الاستبداد حملات صادقات .. على انى بعد ان رأيت الانقلاب السياسى الأخير ارى أن بروجراماتنا القديمة وبروجرامات الأحزاب المصرية أصبحت غير كافية لمستقبل مصر ، فلابد من جعل البروجرام من الآن « استقلال مصر استقلالا تاما واتحادها مع الدولة العلية اتحادا دائما أشبه باتحاد المجر مع النمسا فيتكون منهما دولة قوية عظيمة فى الشرق الادنى » .**

ـ البعض يعلق منح الدستور الآن على الكفاءة التامة للمصريين، فما راى سماحة السيد (١) ؟

ـ ان من يعلق منح الدستور الآن على الكفاءة التامة التى ينشدونها للمصريين ، هو كذلك الحلاق الذى كتب على باب الدكان « غدا أحلق بالمجان » ، وذلك أن الكفاءة لا تتم الا بالدستور ، فتعليق الدستور على الكفاءة تعليق على محال .. أن فى النواب المصريين اليوم من هم أرقى بكثير من نواب البرلمان الانكليزى عندما عقد لأول مرة . قال السيد سميلز « ان دستور الحكومة الانكليزية أمضاه قوم يجهلون الكتابة وما أمضوه الا بالعلامات وأسسوا حرية الانكليز وهم يجهلون القراءة والكتابة » . ومن العجيب أن تتمكن مصر من قرن من ايجاد حكومة منظمة الادارة فى الداخل عظيمة الفتوحات فى الخارج ، وتوصم بعد ترقى مائة عام بأنها عاجزة عن مثل ذلك .

ـ ما رأى سماحة السيد فى الجامعة الاسلامية بمناسبة ما زورته عجوز الجرائد الشمطاء ( التيمس ) على انور بك وعزوها

---

(١) اشارة الى التصريحات الصحفية التى كان يدلى بها شوقى شاعر الخديو فى هذه الفترة وتتضمن راى الخديو فى تعليق الدستور على الكفاءة .

اليه القول بأنه « ليس للجامعة الاسلامية محل فى خطة لجنة الاتحاد والترقى » ؟ .

ـ ان رأيى فى الجامعة الاسلامية من قديم أنها قسمان دينية وسياسية . فالجامعة الدينية موجودة لوجود روابطها وهى العقيدة الاسلامية أولا وأخوة الاسلام ثانيا والقبلة التى تتجه اليها وجوه المسلمين مرارا فى كل يوم ثالثا . وأما السياسة وهى التى يعنيها الافرنج بلفظة "Panislamism" ، ويخشونها جـــد الخشية فغير موجودة لفقدان الرابطة فى كل أمر سياسى وتلك الرابطـــة هى « المصلحة » . وذلك لأن المســـلمين ليس من مصلحتهم الآن ان يسعوا فى ايجاد جامعة اسلامية بهذا المعنى « اى اتفاق سياسى اسلامى مركزه الدولة العلية » لأنهم يعلمون أنهـــم لو فعلوا ذلك أوجدوا ازاءها بالطبع جامعة مسيحية أو جامعة وثنية شـــديدة الضرر عليهم (١) .

ان ما يلفت النظر فى هذا التصريح هو تأكيده أولا على جانب الدستور ، فمرحلة الحماسة الفياضة التى عاشتها الدول الاسلامية بعد اعلان الدستور العثمانى ، كان لابد أن يتردد صداها فى مثل هذا التصريح ، واذا كان البعض يعلق الدستور على وجود الكفاءة فهو تعليق على محال لأن الكفاءة التامة لا تتأتى الا بوجود الدستور أولا ، وايرادات الأمم محال أن يعوقها معوق أو يعطلها معطل ، فهى أن لم تعط لابد أن تؤخذ ، وكما أوجدت الثورة العرابيين ، تستطيع الثورة الجديدة أن توجد من هم أكفأ من العرابيين . انها دعـوة صريحة الى الثورة لنيل الحقوق ، والى الاقتداء بالدولة العثمانية من أجل الدستور ، واشادة فى نفس الوقت بأبطال الوطنية وان كرههم الخديو مثل مصطفى كامل ، ثم دعوة صريحة الى بداية مرحلة

---

(١) اللواء ١٩٠٨/٩/١٠ ، ١٩٠٨/٩/٢٠ .

جديدة فى التفكير ، فلم تعد تكفى البرامج الحزبية الماضية التى تهادن من أجل المصلحة ، أو تحارب بالخطب ، أو تكتفى بجزء من الحق وتدع للمستقبل الباقى . ولكنه فى الوقت نفسه مؤمن بالجامعة الاسلامية ، مؤمن بها من قديم كما يقول ، فمنذ أعوام طويلة ألف كتابه « المستقبل للاسلام » يؤكد فيه هذا الايمان ، ولكنه ايمان الجامعة من زاوية خاصة ، ايمان برابطة أشبه ما تكون بجامعة الدول العربية اليوم ، وهى لاشك خطوة مرحلية لها مبرراتها فى ذلك الوقت الذى كان فيه الاستعمار والدول الغربية تنظر الى الدعوة للجامعة الاسلامية نظرة مريبة ، وتسعى بكل جهدها الى تحطيمها . ولكن الصلات الموجودة بين الدول الاسلامية أقوى من أن تنمحى ، فلا بد اذن من تطوير هذه الصلات وتنظيمها والاستفادة منها .

ومن اجل هذا كانت له جهود عملية فى الدعوة الى المؤتمر الاسلامى الذى دعا اليه اسماعيل غصبرنسكى ، أحد مسلمى روسيا وصاحب جريدة « ترجمان » التركية ، حين قدم الى مصر أواخر عام ١٩٠٧ . ففى فندق كونتننتال بالقاهرة اجتمع عدد كبير ممن رحبوا بفكرة المؤتمر ، وكان ذلك أول نوفمبر من نفس العام (١) ، والقى اسماعيل غصبرنسكى كلمة فى الجمع تحدث فيها عن وجوب تشخيص الداء لمعرفة الدواء ، فالأمم الاسلامية متخلفة ، بينما يسير ركب الحضارة الغربية مسرع الخطو « وكشف النقاب عن أسباب انحطاط الأمة الاسلامية لا يتيسر تيسرا كاملا لفرد أو فردين ، بل لا مندوحة للبحث فى ذلك عن عقد مؤتمر اسلامى عام يجتمع فيه علماؤنا وفضلاؤنا ثم يتفاوضون فى الشئون الاسلامية » . ويتحفظ فى حديثه فيرى أن المؤتمر ينبغى أن يقصر جهوده على

---

(١) المؤيد ١٩٠٧/١١/٢ .

البحث فى الامور الاجتماعية والاقتصادية ، ويدع الأمور السياسية، حتى لا يفهم أن هدف المؤتمر الدعوة الى جامعة اسلامية سياسية.

ثم تحدث بعده الشيخ على يوسف ، فتناول فى كلمته تاريخ الدعـــوة الى المؤتمر ، منذ أوجده عبد الرحمن الكواكبى خيالا ، وحشد له فى ذهنه مندوبيه ، ورأى أن كتابه « أم القرى » خـــير دليل للمؤتمر الجديد ، ولم ينس « المستقبل للاسلام » الذى ألفه توفيق البكرى واهميته فى هذا المجال . فهذان هما المرجعان لكل مهتم بأحوال المسلمين الفلسفية والاجتماعية .

وعقب ذلك شكلت اللجنة التحضيرية للمؤتمر ، وقد ضمت عددا من الأعلام على رأسهم :

سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر الأسبق .

السيد توفيق البكرى نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية .

السيد على يوسف .

رفيق العظم .

وفى منزل السيد توفيق البكرى ، اجتمع نحو ستين من العلماء والأدباء ليلة الجمعة ١٤/١١/١٩٠٧ وكانوا قد دعوا من قبل لهذا الاجتماع الذى خصص للنظر فى الدعوة الى المؤتمر الاسلامى العام ، وجرت مناقشات استمرت أكثر من ساعتين ، وقرر المجتمعون ان تسمى اللجنة التحضيرية لجنة تأسيسية وأن تضع اللجنة مشروعا للمؤتمر على أن تجتمع بعد ذلك للبدء فى عملها ، بمنزل السيد توفيق البكرى بالخرنفش (١) . ولم تلبث اللجنة التأسيسية أن وضعت

---

(١) المؤيد ١٦/١١/١٩٠٧ .

قانونا للمؤتمر (١) ، طبعته وارسلته مع دعوة عامة مطبوعة بالعربية والتركية والفارسية الى الجرائد الاسلامية فى كافة الأقطار . وتناول القانون « موضوع المؤتمر » ولخصه فى ثلاثة أمور :

١ ـ البحث فى الأسباب التى أوجبت تأخـر المسلمين من الوجهة الاجتماعية ومما داخل الدين من البدع ، والنظر فى ازالة تلك الأسباب ، وفيما يؤدى الى رقيهم .

٢ ـ لا تقبل الآراء التى تعرض من الوجهة الدينية الا اذا كان لها سند من الكتاب أو السنة أو الاجماع أو القياس .

٣ ـ لا يجوز التعرض فى مناقشات المؤتمر وابحاثه للمسائل السياسية أيا كان نوعها .

وفى نهاية الجلسة انتخب السيد توفيق البكرى وكيلا للمؤتمر ، وتتبعت الصحف أنباء المؤتمر ، وارسلت جريدة « المؤيد » مندوبها الى السيد البكرى تستطلع رأيه فيه ، وطلعت على قرائها بهـــذا الحديث الذى يبين فيه وجهة نظره فى أحوال الأمة الاسلامية .

« نتمثل محدثنا على أحد مقاعد تلك القاعة الكبرى الفخيمة المفروشة بأنفس الطنافس والمذهبة السقوف والجدران ، نحيف الجسم ضئيله كأنما الدرس والبحث قد أطفآ فيه جذوة الشباب وأشعلاها فى عينيه البراقتين اللتين تحدثانك قبل لسانه عن علم واسع واطلاع كبير حتى أنه لا يكاد يبدى رأيا دون أن يؤيده بقول فيلسوف كبير أو عالم أوربى أو شرقى شهير ولا يكاد ينتهى من أحدوثته عن أمر حتى يرد على لسانه ذكر أمر آخر ، وذلك دليل على كثرة اطلاعه وشديد انقطاعه الى البحث والاستقصاء ، بل لا يزوره زائر حتى يجده فى تلك المكتبة الى جانب القاعة الكبرى بين المحابر والدفاتر . قال لنا سماحته عن المؤتمر الاسلامى انه

---

(١) راجع المنار اول مايو ١٩٠٨ .

مؤتمر اجتماعى لا سياسة فيه ولا شبه سياسة ، واذا لم يكن له من فائدة سوى تعـــارف الاختصـــاصيين بأدواء الأمـــة ، لأن الاختصاصيين بهذه الأدواء سيدعون للبحث فيه ، لكانت لنا منه نتيجة عظيمة كنتيجة سائر المؤتمرات طبية وعلمية وزراعيـــة . والأمة الاسلامية مقيدة بدينها ، فلا يسوغ أن تترك الدين جانبا ، فهى ليست مقيدة بعقلها فقط .. وقد أوضح لنا التاريخ أن هذا الدين موافق للترقى بل هو بنفسه مرق للأمم التى تدين به بدليل أنه ظهر فى أمة كانت متفرقة فوحدها ، وجاهلة فعلمها ، وفقيرة فأغناها ، وضعيفة فملكها معظم المعمور . فاذا كنا قد رأينا بعد فعله هذا انحطاطا بين المسلمين فلابد أن يكون ذلك لعوارض أخرى دخلت عليهم باسم الدين وهى ليست منه ..

« أما الجامعة الاسلامية فهى قسمان : دينية وسـياسية ، فالسياسة التى يعنيها الافرنج بلفظة بانسلافيرم غـــير موجودة ، أما الجامعة الدينية فهى موجـــودة .. والتعصب الدينى بمعنى التحمس الى آخر درجة النفع للذات وأول درجات الضرر للغير فهو موجود ، وأما التعصب الذي يصل الى الاضرار فهو غير موجود فى تاريخ الأمة الاسلامية بحمد الله ، ولكنه وقع بأفظع حالة فى العالم الوثنى حيث قرضوا المسيحيين ومرسليهم مرارا ، وأحسن الصور المنصوبة فى الفاتيكان مقر البابا ، صور المسيحيين الذين قتلهـم الوثنيون على أشكال فظيعة تقشعر لها الأبدان .. » (١) .

ولم يلبث اسماعيل غصبرنسكى أن رحل الى الآســـتانة ، والحقيقة أنه كان شخصية مريبة ، ففى أول حديث له عن المؤتمر بمصر يلح على ذكر التمدن الغربى ووجوب اللحاق به ، ثم ها هو ذا يترك المؤتمر ويرحل الى الآستانة ، وهناك ينشر فى جريدته (ترجمان

---

(١) المؤيد ١٩٠٧/١١/٢٤ .

أحوال زمان) « أن أحد أذكياء الترك يريد أن يلقى فى المؤتمر خطابا يبين فيه أن ارتقاء أمة الترك يتوقف على انفصالها من العربية لغة ودينا وسياسة » (١) . ثم يعود فيصرح بأن المؤتمر ينبغى أن ينعقد فى الآستانة لا فى مصر وكان ذلك بعد نفى السلطان عبد الحميد (٢) . وتتوالى الأحداث بعد ذلك مؤذنة بانهيار الفكرة (٣) وتفرق الدعاة ، وبذلك يسدل الستار .

---

(١) المنار ١٩٠٨/٥/١ .

(٢) المؤيد ١٩٠٩/٨/٢٥ .

(٣) كان المنفلوطى قد هاجم المؤتمر وهو يائس من نجاحه بسبب أحوال المسلمين أنفسهم ، وذلك فى المؤيد ١٩٠٨/١١/٢٨ .

# بين البكرى وبين الخديوى

لا شك أن صلة الزمالة أيام الدراسة لم تكن قد انمحت من ذاكرتى عباس باشا والسيد توفيق البكرى عندما تولى عبـــاس الخديوية ، وكان البكرى هو المرشح للمناصب الموروثة فى بيتـه بعد وفاة أخيه الأكبر ، فولاه عباس المشيخة البكرية ومشـــيخة المشايخ الصوفية ونقابة الأشراف ، وعينه بعد شهور عضوا دائما فى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية . ثم لم يلبث أن أنعم عليه فى نفس العام ــ عام ١٨٩٢ ــ بكسوة التشريف من الدرجـــة الأولى وبالنيشان المجيدى كما ذكرنا . ولكن الأحداث السياسية لم تلبث أيضا أن فرقت بينهما ثم جمعتهما لتفرقهما بعـــد حين فرقة أبدية .

والواقع أن عباسا كان محور الحياة السياسية والوطنية فى ذلك الوقت ، فقد تولى الحكم وهو شباب صغير ، وكان واسع الأمل يريد أن يكون ملكا حقيقيا لا دمية فى يد الاحتلال . وكان مصريا فى روحه كما حكم عليه كرومر فى لقائهما الأول (١) ، ومن هنا بدأت الأمة تتجزأ على مناهضة الاحتلال .

كان دائما ينعى على أبيه ضعفه واستسلامه للاحتلال ، ولذلك كان أول ما فكر فيه عندما تولى الحكم أن يغير رجال حاشيته الذين ورثهم عن أبيه ، والذين الفوا أن يذلوا أنفسهم أمام المستعمرين .

---

(١) عباس الثانى ص ٢١ وما بعدها .

بدأ عباس حكمه شديد الرغبة فى التودد الى الشعب ، يستقبل طوائفهم المختلفة مرتين كل شهر ، ويصدر عفوه عن عدد كبير ممن اشتركوا فى الثورة العرابية فى السنة الأولى لحكمه ، ويرد اليهم رتبهم وشاراتهم ويعيدهم للخدمة . وهو يستعرض الجيش المصرى مرتين فى ذلك العام ، ويحيى شهر رمضان بتلاوة القرآن والاستماع الى تفسيره مع رجال حاشيته . وهو يطالب بخـــروج الجيش الانجليزى من القلعة ، ويتصل بالمديرين مباشرة دون الرجوع الى كرومر كما جرت عادة والده من قبل . وقد نجح نجاحا مؤكدا فى بث شعور الكراهيـــة للانجليز فى قلوب المصريين ، ولذلك لم يكن عجيبا أن يلتف المصريون حوله ، وقد أقر كرومر بنفوذ عباس وقدرته على تكتيل الشعب المصرى ، واعترف بزعامته حين قال ان المبادىء قد بدأت فى الظهور تحت اسم جديد هو لقب ( الخديوية ) ، والى ذلك أشار خطباء العصر وكتابه (١) .

كان يشجع مصطفى كامل على اصدار صحفه المختلفة وتأسيس الحزب الوطنى ، ثم أمده بالنفوذ وبالمال ، وكان يحاول أن يجمع حوله ضباط الجيش وأن يحثهم على عدم الاستسلام والخضوع لرؤسائهم الانجليز ، وكان يحث الموظفين على الاحتفاظ بكرامتهم والتمسك بحقوقهم واختصـــاصاتهم ازاء رؤسائهم من ممثـــلى الاستعمار البريطانى . وكان يعرض عن الذين يتوددون الىالانجليز، ويبدى عداء صريحا لكل من يلوذ بهم ، ويسىء استقبالهم فى القصر فى مختلف المناسبات . ومن أجل ذلك كله لم يكن هناك مفر من اصطدام عباس بكرومر ممثل الاحتلال . وبدأ أول صدام حين عزل الخديو رئيس وزرائه مصطفى فهمى وكان من أوثق الناس صـــلة بالانجليز ، ثم عين بدلا منه **حسين فخرى** وطلب اليـــه تشكيل

---

(١) الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها .

الوزارة مكتفيا بابلاغ كرومر بما تم ، فأصدر كرومر أمره الى الموظفين البريطانيين بأن لا يعترفوا بالوزارة الجديدة ، ووجد الخديو الشاب نفسه وحيدا أمام السياسى العجوز ، فالكتلة الشعبية لم تتجاوز قوتها فى ذلك الوقت التأييد المعنوى ، وقنصلا فرنسا وروسيا اللذان كانا يشجعانه قد تخليا عنه ، وكانت النتيجة الوصول الى حل مقبول من الطرفين ، وهو أن يتولى **مصطفى رياض** الوزارة الجديدة .

وظن كرومر انه لقن الخديو درسا ، وكان يتوقع أن يجد فى رياض - عدو المبادىء العرابية القديم - عونا على ترويض عباس ، ولكن رياضا انقلب مؤازرا الخديو ، فمنع الموظفين الانجليز ممن جرت العادة أن يحضروا مجلس الوزراء من حضوره ، وقرر أن تكون العربية هى لغة التعليم فى المدارس الأميرية ، بعد أن كانت معظم الدروس تلقى بالانجليزية ، وكثر الصدام بين الموظفين المصريين والانجليز ، وتشجعت الصحف الوطنية على مهاجمة الاستعمار .

لذلك لم يمض على تلك الأزمة عام حتى تصيد كرومر فرصة أخرى لتوجيه لطمة جديدة قوية الى عباس ، حين وجد الفرصة مواتية فى حادثة تافهة ، احتك فيها **الخديو بكتشنر** - سردار الجيش وقتذاك ، فبادر كرومر الى الاتصال برياض يطلب تقديم اعتذار رسمى من الخديو ينشر فى الصحيفة الرسمية ، ويهدد بخلعه .

واسرع رياض الى مقابلة عباس فى جرجا - وكان فى رحلة الى الحدود - قبل عودته الى القاهرة ، وقد ملأ الرعب قلبه ، وأقنعه بقبول شروط كرومر ، فلم يجد الخديو بدا من قبولها ، وكانت هذه الحادثة ضربة قاضية لنفوذ عباس فى الجيش . وقد استنكرت الصحف فى ذلك الوقت موقف رياض من الخديو بمساعدته الانجليز على املاء شروطهم واذلال عباس .

ولم يدم الحال على ذلك طويلا ، فقد تضعضع عباس بعد هاتين اللطمتين ، ولم يدر ماذا يصنع ، فالجيش والشرطة ــ على ضآلتهما وضعفهما فى ذلك الوقت ــ فى يد كرومر ، وهؤلاء الذين اصطفاهم مثل مصطفى كامل وعلى يوسف لا تتجاوز وسائلهم الخطب والمقالات ، وبعض كبار المصريين قد بدأوا يسرعون الى موكب الظافر ، مثلما حدث مع حسين فخرى الذى رشحه عباس لرئاسة الوزارة من قبل ، فقد أدلى بتصريحه السابق الذى استخذى فيه أمام الاستعمار ورآه أهون من غيره ، ومثلما حدث عندما انضوى ماهر باشا وكيل الحربية تحت لواء كرومر مستيئسا من مقاومته ، وكان من ألد أعدائه من قبل ، وكما حدث أخيرا عندما أخذ رياض يتزلف الى الاستعمار بعد أن أقاله عباس من رئاسة الوزارة عقب حادث الحدود .

بدأ لعباس بصيص ضئيل من الأمل يشع من باب الخليفة ، فتتبعة وطرق باب السلطان عبد الحميد ، يرجو أن يجد عنده الملجأ من كرومر .. وكان عبد الحميد غارقا فى متاعبه الخاصة ، وهو نفسه عاجز عن مقاومة الدول الأوربية فكيف يدفع الضر عن غيره ؟ وأخذ كرومر يرقب رحلات عباس الى الآستانة ، وعلى فمه ابتسامة ساخرة . وتتابعت رحلات عباس الى الآستانة عام ١٨٩٣ ، ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ ، ثم انقطعت حين نصح السلطان للخديو أن يثق بفعل الزمن ، وحين بدأت صلته بالسلطان تفسد بعد مكائد الأمير حليم الصدر الأعظم ، الذى كان طامعا فى عرش مصر (١) ، فقد التقى عباس فى الآستانة بجمال الدين الأفغانى ، وأفزع ذلك السلطان ، وجسم له الصدر الأعظم شبح الخوف ، فسأله السلطان فى غضب « أتريد أن تجعلها عباسية ؟ » (٢) .

(١) الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ١٥٧ وما بعدها .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم ١ ص ١١٣ .

وتكاد ترتبط صلة الخديو بالسلطان قوة وضعفا بصلة توفيق البكرى بالخديو ، ففى عام ١٨٩٥ ، استعفى توفيق البكرى من نقابة الأشراف ، وفى ذلك يقول : « انى لما كنت رئيسا للجلسة الميزانية فى مجلس شورى القوانين طلبت أن يرتب للأزهر مبلغ من المال ثم سعيت حتى رتب له ألفا جنيه ، ولم يكن لى غرض فى ذلك الا مساعدة العلماء ، وهم أولى الناس بالمساعدة والمعاونة ، فوشى بعض أعدائى بى لدى الجناب الخديوى وزعم أن لى فى ذلك مقصدا سياسيا ، فتغير خاطره .. وقد أذكرتنى هذه الحادثة حادثة الشريف الرضى فى استقالته من نقابة الأشراف ببغداد سنة ٣٨٤ هجرية لتشابههما فى الظروف والأحوال ، وقد ذكر الشريف استقالته فى قصيدة لامية حيث قال :

وما حط الأعادى لى محلا
ولكن حط عنى الدهر ثقلا

فان اخذوا الأقل من المعالى
فقد تركوا من الصون الأجلا

محمد طال ما شمرت فيها
فدونك فاسحب الذيل الرفلا (١)

ولكن ما هو هذا المقصد السياسى ؟ أكان الخديو يخشى من البكرى ما خشيه السلطان من الخديو ؟ أكبر الظن أن طموح البكرى كان قد بلغ أوجه ، وكانت الدلائل كلها تدعو الخديو الى أن يتخذ منه موقفا ، فمنزلته من السلطان منزلة الابن ، بل لقد قال لى السلطان عند الانصراف من زيارته : « لقد صرت من الآن ابنى » (٢) ولم يقلها للخديو ، ومنحه من الأوسمة ما لم يمنحها لمصرى . وهذا

(١) بيت الصديق ص ١٦ .
(٢) شعراء العصر جـ ١ ص ١٩٥ .

الزهو الذى يتملكه ، فى أول قصيدة يمدح بها الخديو ، يبدؤها بهذا الفخر الذى يثير الشكوك ويسىء الظنون :

وانى من البيت الذى تعلمينه     أقام عمـــود الدين لما تأودا
وأول هـــذا الأمر نحن أساته     وآخره حتى يكون كما بدا (١)

ألا يدعو هذا الى الارتياب ؟ لقد كان أبو بكر يلى أمر المسلمين بعد الرسول ، فما معنى أن يعود الأمر الى البيت البكرى ؟ أليس فى هذا دليل على أن « فى رأسه عقل طامح أخطر الطموح ، يسبح فى أجواء مصر وتركيا ؟ » (٢) ثم ها هو ذا يبغى أن يكسب الى صفه أكبر هيئة دينية فى مصر ، حين يدعو الى الاصلاح المادى للأزهر .
وهكذا فترت الصلة بين الخديو عباس وبين السيد توفيق البكرى .
والواقع أن « عباسا » استطاع فى أول حكمه أن يضم الى صـــفه عددا من ضباط الجيش وكثرة من المواطنين ولكنه لم يلبث أن خسرهم حين استيقنوا ضعفه أمام الانجليز ، فمنذ اضطره كرومر الى الاعتذار لكتشنر . وحين كان عباس يخسر الأصدقاء والأولياء، كان الانجليز يجدون فى اصطناع الأصدقاء والأولياء ويسرعون الى احتضان كل خصم له ، مظهرين انفسهم فى صورة المدافعين عن الحرية والعدل ، المقامرين للظلم والطغيان ، فكسبوا الى جانبهم العمد والمشايخ بتأييدهم فى التخلص من نفوذ الباشوات وكبار الملاك . ونجح كرومر فى عقد صلات ود مع كثير من رجـــال الدين مثل شيخ الأزهر والمفتى وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ، لعلمه بقوة نفوذهم الشعبى وبحرص عباس على اصطفائهم والاســـتعانة بنفوذهم (٣) .

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ١٦٦ .
(٢) صاحب صهاريج اللؤلؤ لزكى مبارك ( البلاغ ١٩٣٢/٨/١٩ ) .
(٣) الاتجاهات الوطنية ص ١٩٢/١٩٣ .

والواقع أن كرومر كان يهتم بعقد هذه الصلات مع رجال الدين على وجه الخصوص لسبب آخر يضاف الى المبررات السابقة ، فهو يهدف الى ابعاد الشبهة عنه فى تعصبه ضد الاسـلام ، وهو يهدف بعد ذلك الى تمكين هؤلاء من عملية التطوير التى يمكن أن يقوموا بها حتى ينفسح المجال أمام الحضارة الغربية لتثبيت أقدامها دون مقاومة . ولعله رأى أيضا أن السـيد توفيق البكرى ورقة رابحة يمكن أن يلعب بها ضد الخديو فى وقت من الأوقات ، وهذا أكثر ما كان يفزع الخديو ، فهو لا ينسى أن كرومر هدده بالخلع منذ حين ، وهو يدرك أن « محمد عبده » لا يحظى بتأييد كل الهيئات الدينية كالأزهر مثلا ، من أجل محاولاته للتطوير ، ولكنه يدرك أيضا أن السيد توفيق البكرى يحظى بهذا التأييد ، ومن أجل هذا كان لابد أن يوقع بينهما مهما كلفه الأمر ، حين تسنح الفرصة ، خاصة بعد أن ترامى اليه ما يتحدث به كرومر عن البكرى فى موضـع الاعجاب الشديد بشخصيته « كان يقتبس فى محادثتى عن حقوق الانسان آراء چان چاك روسو وذلك بلغة فرنساوية بليغة . ومتى جاء بالآراء الضعيفة بيانا لمزايا الحكومة النيابية وسألنى أن أعيره بعض كتب ليستفيد منها ( فلسفة الثورة الفرنسية ) عند ذلك سألت نفسى عما اذا كنت فى يقظة أنا أم فى منام ، وكان هذا الشيخ العصرى الجامع بين مكة من جهة وباريس من جهة اخرى ، آخر ما أنتجه الاسلام فى رقيه » (١) .

يقول العقاد :

« وكان على حذر دائم من الخديو عباس لأنه — فى ذكائه واطلاعه على ما وراء الستار ومصاحبته لعباس منذ أيام الدراسة — **لا يجهل سياسـة البيت العلوى من جميع البيوتات** التى اشتركت قديما

---

(١) المؤيد ١٠ مارس ١٩٠٨ ( كتاب كرومر ) .

وحديثا فى خلع الولاة وتنصيبهم بمراجعة الباب العالى فى الآستانة وأولها بيت البكرى العريق . وسياسة عباس لم يكن بها جفاء نحو جميع البيوتات ذوات الرئاسة الدينية ، فانه كان يحاول جهده أن يحل فيها أشياعه ومريديه ، وينحى عنها الأقوياء من أبنائها ذوى الشخصيات الملحوظة فى الدوائر العليا ، وأحذر ما كان يحذره أولئك الذين تتصل العلاقة بينهم وبين كبار الأجانب من السفراء ووكلاء الدول ، ولم يكن أقرب الى هذه الأوساط من السيد توفيق البكرى لمعرفته باللغات الأجنبية ونشوئه نشأة الأمراء فى المعاهد الأوربية . ومن يدرى ؟ .. »(١) .

كل هذا كان يحدث عام ١٨٩٦ ، فاذا ما أقبل العام الجديد ، تأزم الموقف تأزما خطيرا بين البكرى وبين الخديو . ففى الوقت الذى كان السيد توفيق البكرى يمدح السلطان بعد الانتصار فى الحرب اليونانية بقصيدته :

أما ويمين الله حلفة مقسم
لقد قمت بالاسلام عن كل مسلم ...
له فى الأعادى حملة يعرفونها
وأكبر منها حملة فى التكرم
عطايا تظناها لاعظام قدرها
أمانى نفس أو رؤى من مهوم(٢)

فقرأها السيد أبو الهدى الصيادى أمام الخليفة فى محفل كبير ، وقوبلت بالاستحسان ، ثم أصدر الخليفة أمره بحفظها فى المكتبة السنية (٣) ، ولم يلبث السلطان أن أنعم عليه بميداليتى الامتياز

(١) المجلة يناير ١٩٦٣ ( وراء التراجم والسير للعقاد ) .
(٢) صهاريج اللؤلؤ .
(٣) شعراء العصر جـ ١ ص ١٩٥/١٩٦ .

الذهبية والفضية (٨) . فى هذا الوقت نفسه ، تنشر « الصاعقة » لصاحبها أحمد فؤاد فى ٧ نوفمبر من نفس العام قصيدة هجاء فى الخديو مطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد
وملك وان طال المدى سيبيد (٢)

يذكرنا مرآك أيام أنزلت
علينا خطوب من جدودك سود

رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا
سهام بلاء وقعهن شديد

فلما توليتم طغيتم وهكذا
اذا أصبح القولى وهو عميد

أعباس ترجو أن تكون خليفة
كما ود آباء ورام جدود

فيا ليت دنيانا تزول وليتنا
نكون ببطن الأرض حين تسود

وقد ثبت من تحقيق النيابة أن المنفلوطى هو ناسخ القصيدة بناء على تكليف من السيد توفيق البكرى ، يقول العقاد : « والذى لا نشك فيه أن القصيدة كانت من نظم البكرى مع مشاركة قليلة للمنفلوطى فى بعض أبياتها لأن المناظرة بالآباء والأجداد والمقابلة بين

---

(١) ببيت الصديق ص ١٦ .

(٢) الشوقيات المجهولة جـ ٢ ص ١١٤ ( راجع أيضا المؤيد ١٨٩٧/١٢/٢٧ ، مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم رقم ١ ص ٢٣٨ ) .

وقد حاول شوقى شاعر الخديو ان يرضى اميره فعدل فى المطلع قائلا :

قدوم ولكنى اقول سعيد    وملك وان طال المدى سيزيد

الدخيل ( القولى ) والأصيل ( البكرى ) تخطر لسليل بيت الصديق ولا تخطر للمنفلوطى »(١) .

ولم يلبث كرومر أن تدخل فى الأمر فعزل النائب العام المصرى لأنه رفض تغيير المحقق ، ووضع مكانه محقق بريطانى ، وهكذا خرج السيد توفيق البكرى من التهمة ، فصدر حكم محكمة السيدة زينب فى ١٤ نوفمبر بادانة أحمد فؤاد ومصطفى لطفى المنفلوطى (٢) . فازداد الخديو تصميما على الدس بين كرومر وبين السيد توفيق البكرى ، مستعينا على ذلك بدهائه المعروف ، وبجهود أحد أتباعه المقربين اليــه فى ذلك الوقت وهو حفنى ناصف ، حتى تمكن من الايقاع بينهما .

فذهب حفنى ناصف الى السيد توفيق البكرى وناقشه فى الأدب وطلب اليه أن يترك الشعر لأنه ليس من عمله وانما هو من عمل من اشتهروا به وتفوقوا فيه ، فغضب البكرى وتحداه أن ينظم كل منهما لساعته قصيدة ثم يلجآن الى حكم يفاضل بينهما وقبل حفنى ناصف ولكنه اشترط الا تكون فى غرض من الأغراض المتواترة ثم اقترح أن تكون فى الغزل بالمذكر ووافق البكرى . وقرأ حفنى ناصف قصيدة البكرى ثم اعترف له بالتفــوق ، ومزق قصيدته هو موهما البكرى انه مزق القصيدتين ، ولكنه احتفظ بقصيدة السيد توفيق حتى أوصلها للخديو ، وهذا بدوره أوصلها الى كرومر ، فكانت آخر العهد بين كرومر وبين البكرى فلم يزره فى احتفال من الاحتفالات الرسمية التى اعتاد أن يزوره فيها فى بيته بالخرنفش بعد ذلك (٣) .

---

(١) المجلة يناير ١٩٦٣ ( وراء التراجم والسير كما عرفناها للعقاد ) .
(٢) الشوقيات المجهولة جـ ٢ ص ١١٤ .
(٣) المجلة يناير ١٩٦٣ ( وراء التراجم والسير كما عرفناها للعقاد ) .

من أجل ذلك فترت صلة البكرى بحفنى ناصف بعد أن وقف على تفاصيل الحادث ، وسجل حفنى ناصف مظاهر هذا الفتور فى رسالة وجهها للبكرى يقول فيها : « كتابى الى السيد السند لا أجشمه الجواب عنه ، فذلك ما لا انتظره منه ، وانما أسأله أن ينشط الى قراءته ، ويتنزل الى مطالعته ، وله الرأى بعد ذلك أن يحاسب نفسه أو يزكيها ، ويحكم عليها أو لها .

فقد تنفع الذكرى اذا كان هجرهم
دلالا فأما ان مـلالا فلا نفعـا»

زرت السيد ويعلم الله أن شوقى الى لقائه ، كحرص على بقائه، وكلفى بشهوده ، كشغفى بوجوده ، فقد بعد والله عهد هذا التلاق ، وطال أمد الفراق ، وتصرم الزمان ، وأنا من رؤيتـه فى حرمان ، فسألت عنه فقيل لى أنه خرج لتشييع زائر ، وهو عما قليـل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ، ولم أزل أعد اللحظات، وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج صحن الدار ، وظهر الاستبشار ، على وجوه الزوار ، وجـاء السيد فى موكبه ، وجلال محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهينمنا بكماله ، فمر يتعرف وجوه القوم حتى حاذانى ، وكبر على عينه أن ترانى ، فغادرنى، ومن على يسارى ، وأخذ فى السلام على جارى ، وجر السـلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا فى هذه الحال أوهم جارى ، أنى فى دارى ، وأظهر للناس ان شدة الألفة ، تسقط الكلفة ، ومر السيد بعد ذلك من أمامى ثلاث مرات ، ومن الغريب انه لم يستدرك ما فات :

تمرون الديار ولم تعوجـوا كلامكم على اذن حـرام

وكنت أظن أن مكانتى عند السيد لا تنكر ، وأن عهـدى لديه لا يخفر ، فاذا أنا لست فى العير ولا فى النفير ، وغيرى عند السيد كثير ، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير .

ومن مدت العليا اليـــه يمينها فأكبر انسان لديه صـــــغير

ولا أدعى أني أوازى السـيد صانه الله فى علو حسـبه ، أو أدانيه فى علمه وأدبه ، أو أقاربه فى مناصبه ورتبه ، أو أكاثره فى فضته وذهبه ، وانما أقول ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره لسماع الأغانى والأذكار ، وشهود الأوانى على مائدة الافطار ، وبين من يزوره للسلام ، وتأييد جامعة الاسلام ، وأن يفرق بين من يتردد عليه استخلاصا للخلاص ، ومن يتردد اجابة لدعوة الاخلاص ، وأن لا يشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد ، وقناص الشوارد بنقباء الموالد ، ورواد الطرف ، بأرباب الحرف .

فما كل من لقيت صاحب حاجــــة
ولا كلّ من قابلت سائلك العـــرفا

فان حسن عند السيد أن يغضى عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يغضى عن جميع الناس ، والا فلماذا يطوف على بعض الضيوف ، ويحييهم بصنوف من المعروف ، ويتخطى الرقاب « لصروف » ، ويخترق لأجله الصفوف ، فان زعم السيد أنه أعلم بتصريف الأقلام، فليس بأقدم هجرة فى الاسلام ، وان رأى أنه أقدر منى على اطرائه ، فليس بممكن أن يتخذه من أوليائه .

ولا أروم بحمـــــد الله مـــنزلة
غـــيرى أحـــق بها منى اذا راما

وانما أصون نفسى عن المهانة والضــــعة ، ولا أعرضها للضيق وفى الدنيا سعة .

وأكــــرم نفسى اننى ان أهنتهــــا
وحقك لم تكرم على أحــــد بعــدى

فلا يصعر السيد من خده ، فقد رضيت بما ألزمنى من بعده ،

ولا يغض من عينه ، فهذا فراق بينى وبينه ، وليتخذنى صاحبا من بعيد ، ولا يكلمنى الى يوم الوعيد .

كلانا غنى عن أخيـــــه حياته ونحن اذا متنا أشـــــد تفانيا

ومنى على السيد السلام على الدوام ، ومبارك اذا لبس جديدا ، وكل عام وهو بخير اذا استقبل عيدا ، ومرحى اذا أصاب ، وشيعته السلامة اذا غاب ، وقدوما مباركا اذا آب ، وبالرفاء والبنين اذا أعرس ، وبالطالع المسعود اذا أنجب ، ورحمة الله اذا عطس ، ونوم العافية اذا نعس ، وصح نومه اذا استيقظ ، وهنيئا اذا شرب ، وما شاء الله كان اذا ركب ، ونعم صباحه اذا انفجر الفجر ، وسعد مساؤه اذا أذن العصر ، وبخ بخ اذا نثر ، ولا فض فوه اذا شعر ، وأجاد وأفاد اذا خطب ، وأطرب وأغرب اذا كتب ، وأذا حج البيت فحجا مبرورا ، واذا شيع جنازتى فسعيا مشكورا ، والسلام »(١) .

ولم يستمر الحال على هذا طويلا ، فصلة البكرى بالسلطان تقوى يوما بعد يوم ، وفى عام ١٩٠٠ أنعم عليه بميدالية الليـــاقة الذهبية ، وعلى والدته بنشان الشفقة المرصع من الدرجة الأولى(٢)، وصلة الخديو بالسلطان لم تستمر فاترة مـــدة طويلة ، فما لبث الخديو أن زار الآستانة عام ١٩٠١ ، وعاد راضيا عن البكرى ، ومدح البكرى مهنئا بعيد جلوسه ، وكانت قد ألفت لجنة للتحكيم فى قصائد المديح ، فنالت قصيدة البكرى المدالية الذهبية الأولى(٣) . والواقع أن الخديو كان قد سعى فى التقارب بينه وبين البكرى منذ بداية هذا العام حين فكر فى دسائس الشيخ أبى الهدى الصيادى له عند الخليفة ، ولم يكن هناك من يقوى على توطيد الصـــلة بين

---

(١) جواهر الأدب ص ١٠٦ وما بعدها .
(٢) بيت الصديق ص ١٧ .
(٣) صهاريج اللؤلؤ ص ١٧٢ .

الخديو وبين أبى الهدى الصيادى سوى توفيق البكرى ، وقبل البكرى أن يقوم بالمهمة ، فأرسل لأبى الهدى الصيادى كتابا مع حسين زكى الموظف بالقصر يقول فيه : « صاحب السماحة والسيادة الوالد الأعظم أدام الله بقاه ، ان الأمر هنا جميعه على ما يسر سيدى حفاوة به ودعاء له .. وان حامل هذا الى سيدى حضرة حسين زكى بك ، مرسل من قبل الجناب الأسمى والملاذ الأعظم ، فليعتمد عليه سيدى فيما ينقله اليه من ذلك المقام ، والأمل فى تلك الهمم الهاشمية والذمم الأحمدية ، أن تحقق كل ما يسر ويذكر ، ويؤثر بالشكر ، أدام الله مجدها وأبقاها » (١) .

ولكن الخديو كان قد بدأ يجيد فن المكائد ، فعندما وصل الى مصر صديق الشيخ أبى الهدى وهو شاب صغير اسمه شكيب ، ظن الخديو أنه يستطيع الوصول عن طريق شكيب الى كثير من أسرار الشيخ أبى الهدى التى تجعله يطأطىء رأسه — لأن العلاقة بين الشيخ وبين شكيب كانت موضع شبهات — وكلف الخديو البكرى وابراهيم المويلحى بالاهتمام بأمر هذا الشاب ، وبلغ ذلك أبا الهدى فغضب على البكرى والمويلحى معا ، وأسرع المويلحى يكتب لأبى الهدى ملقيا التهم يمينا ويسارا بعيدا عنه ، ولكنه فى نفس الوقت أوضح فى خطابه كثيرا من الخفايا حين يقول : « ارى أن سيدى متغير الخاطر على لأجل مسألة شكيب ولا أعلم ما السبب. والحال أنه بمجرد وصول التلغراف بقدومه .. أمرنى الخديو بأخذه مع كافة أمتعته من المحل الذى هو فيه الى لوكاندة الجزيرة ودفع عنه الأجرة وهو يقيم على نفقته وله عربة مخصصة للفسحة، وجماعة سموه تتردد اليه كل يوم .. وأمر المنافق البكرى بكفالته وله معه خلوات مخصوصة وأتباعه وحشمه تقف حرسا ، ولا اعلم

(١) مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ قسم ١ ص ٣٥٠ .

ما أقول غير ان سوء حظ الأصدقاء يجعلهم محل الشبهات وهدف الأخطاء . . وسموه ظن أن عند شكيب مفتاح الكنوز من أسراركم ومن أسرار السراى . . » (١) .

وأرسل البكرى للشيخ أبى الهدى يأسف لعدم ثقته به ، ويتنصل من اتهامه له ويعيب عليه جفوته فى خطاب يقول فيه : « بعد تقبيل يدكم الكريمة ، فان لى كلاما ان كتمته امرضنى فلا بد أن أذكره ليعلم سيدى أنى عانيت كل صعب فى سبيل اخلاصى له منذ عشر سنوات ، فكيف يجوز أن يكون الجزاء على ذلك ارسال مكاتيبى الخصوصية الى عزيز مصر . . والى القاء الشبهة على وعلى غيرى ثم نسبتى بعد ذلك الى التزوير . . وما كنت أتخيل هذا ، ولكن قام عليه البرهان ، ولا غرو أن يكون ذلك وأكثر ما دام للوشايات من عثمان بدرخان وأمثاله قبول لديكم واستحسان منكم . على أننا لم نقصر يعلم الله مع احد من المنسوبين اليكم فقد قمنا لعثمان بما رفه حاله ورغد عيشه ولكن قابل الاحسان الذى عملناه لأجلكم بالكفران ولولاكم لم يجد ما يسره فى مصر . وانى لأنظر الى هذه الأعمال وما تؤدى اليه كل يوم من فساد وما أصلحناه من الحال ، وما كنا نؤمله فى الاستقبال فيأخذنى الأسف العظيم »(٢) .

واتصل البكرى بالخديو منذ ذلك الحين ، وقويت صلته به ، واستعان به « عباس » مرة ثانية عندما اختلف مع كرومر حول مشروع « صناديق التوفير » . فهو فى نظر اللورد كرومر يمنع السرقات لأن ادخار الناس بالمنازل يغرى السارقين ، فينبغى التوسع فى المشروع ، وعارض الخديو فى اجتماع مجلس النظار ، لأن المشروع لم يستوف صيغته الشرعية ، والناس تعتبر الفائدة

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥١ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٥٢ .

من الربا . فغضب كرومر للاعتراض ، ورأى الخديو أن يدعم مركزه بالاستناد الى حجة فى الدين ، فدعا البكرى واتفق معه على وضع مشروع جديد ، وفعـــــلا أتم البكرى المشروع المقترح وقدمه للخـــديو (١) .

كان ذلك عام ١٩٠٣ ، وفى هذه السنة نفسها أعاد اليه الخديو نقابة الأشراف (٢) ، وأخلص للخديو أيما اخلاص ، وولاه ولاء ضحى فيه بصداقته للأستاذ الامام محمد عبده وتقديره له واعترافه بفضله ، « وكان الخديو قد غضب على الشيخ محمد عبده لصلته بكرومر ولأنه عصى بعض أوامره الخاصة باطلاق يده فى الأزهر . فأوحى البكرى الى الخديو بحمل بعض أعضاء مجلس ادارة الأزهر على الاستقالة لتكوين حزب قوى ضد الشيخ محمد عبده بدل المستقيلين »(٣) . يقول صاحب « مذكراتى فى نصف قرن » : « ولم يفلح البكرى فى مهمته فألقى التبعة أمام الخديو على شيخ الأزهر ، وقد استغربت حينما حادثنى سموه فى الأمر وردد أمامى كلمة ( جزويت ) وصفا للشيخ وهى الكلمة التى قالها البكرى . فكان الخديو يردد حتى ألفاظه لا أفكاره فقط »(٤) .

وقد بعث البكرى الى الخديو برسالة أوضح فيها أسباب فشله فى المهمة قال فيها : « أخبرنى محمد بيرم بك أمس بخبر .. وذلك الخبر هو أن الشيخ محمد عبده توجه أول أمس الى اللورد كرومر وقال ان سمو مولانا الخديو يريد رفتى ورفت مجلس الادارة جميعه، وطلب منه أن يتداخل فى الأمر ، فقال اللورد بانه لا يمكنه التداخل، ولما يئس الشيخ محمد عبده منه قال ائذن لى حينئذ أن أتوجه

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم ٢ ص ٣١ .
(٢) بيت الصديق ص ١٧ .
(٣) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم ٢ ص ٣٤ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٨ .

للاسكندرية ، وأتكلم مع سمو الخديو ، فقـــال له اللورد : انا لا أمنعك أن تتوجه ، ولكن الأليق أن تنتظر سموه الى أن يحضر ، فخرج الشيخ محمد عبده وقابل بطرس باشا غالى ، فأشار عليه بالسفر الى الاسكندرية ، فقال الشيخ محمد عبده لكثير من أصحابه ( انى سأسافر فى هذا المساء الى الاسكندرية لمقابلة ولى النعم ) فأشيع الخبر فى مصر بأنه سافر حتى انه كتب فى بعض الجرائد ، ولكنى طلبت مقابلة الشيخ محمد عبده أمس فحضر عندى فسألته عن المسألة بوجه الاجمال لأعرف فكره ، فوجدت أنه خضع وغـــير الموضوع حيث قال :

( انه لا يوجد أدنى توقف منا فى تغيير مجلس ادارة الأزهر ، ولكن لم نفهم قصد سمو أفندينا تماما ، فنحن ننتظر مقابلتـــه بالذات لنفهم الغرض فننفذه ) وكذلك شيخ الجامع قال لشفيق بك صباحا بأن المشايخ مستعدون لتقديم الاستعفاء ولكن لسمو أفندينا بالذات ، وهذا كله غير ما كانوا يقولونه قبل مقابلة الشيخ عبـــده لكرومر ، ورأى عبدكم أن سموكم لا تظهرون لهم أدنى غضب ، ولكن حيث انهم لم يفهموا ولم يثقوا بأن أكون أنا واسطة بين سموكم وبينهم ، فسموكم تفهمونهم المسألة ، وتأمرونهم بتنفيذها فى الحال وقبل صدور الأمر بالتنفيذ تتكلمون مع اللورد كرومر فيها من باب حسن المعاملة » (١) .

ويبدو أن الخديو كان يهدف حقيقة الى تدعيم سلطته الدينية وآلتها الأزهر وماليتها الأوقاف ، وقد حدث بهذا كثيرين قائلا ان أوربا تهاب البابا والسلطان لمركزهما الدينى ، وهذا الأمر يبدو هينا لولا وجود الشيخ محمد عبده ، ومن أجل هذا كانت الحرب التى

---

(١) على فراش الموت ص ١٢٨ .

لا هوادة فيها بين الخديو وبين الشيخ محمـــد عبده (١) . وقد استغل الخديو فتوى الامام المعروفة بالفتوى الترنسفالية ، وكانت من أعظم ما تلمسته الصحف المعادية للتشنيع به ، وخلاصة المسألة أن أحد المسلمين في الترنسفال أرسل الى الشيخ محمد عبده يستفتيه في ثلاثة أمور ، أولها لبس القبعات وثانيها أكل اللحوم التى يذبحها نصارى الترنسفال على غير طريقة المسلمين ، اذ يضربونها بالبلط ولا يذكرون عليها اسم الله ، وثالثها صلاة الشافعية العيدين خلف الحنفية ، مع ما بينهما من خلاف فى فرضية التسمية وفى تكبيرات العيدين ، وقد أفتى محمد عبده بجواز الأمور الثلاثة ، ولكن المسألة التى أثارت عليه الشغب هى المسألة الثانية ، التى أفتى فيها بجواز أكل لحوم النصارى مستندا الى قوله تعالى ( اليوم أحـــل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ) فقد قال تعالى هذا بعد تحريم الميتة ، ورأى أن المضروبة بالبلطة هى غير الموقوذة التى حرمها الله ، لأن الموقوذة التى تقتل بغير محدد من عصا أو حجر (٢) .

فأراد الخديو أن يعريه من مناصريه جميعا ليقف وحده أمام غضبة الناس ، وعهد الى توفيق البكرى فى اقناع محمد رشيد رضا صاحب المنار وتلميذ الشيخ محمد عبده ، وفعلا قابله البكرى وطلب اليه باسم الخديو أن يسكت عن الدفاع عنه ، ووعده بتمهيد السبيل أمامه للقاء الخديو الذى يرغب فى مساعدته على تطوير مجلة المنار خدمة للاسلام ، بالمال وبالنفوذ ، فاعتذر صاحب المنار لأن الفتوى مبحث دينى ، والمنار مجـــلة دينية ، فكيف تسكت عن أدق اختصاصاتها (٣) .

---

(١) راجع البند السادس عشر من تقرير يوسف طلعت الى المابين ( تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده ج ١ ص ٥٦٦ ) .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦٨ وما بعدها .

(٣) نفس المرجع ص ٥٨٦ .

ولم يحقق الخديو حلمه فى المركز الدينى الذى اراده ليدعم به سلطانه ، والواقع أنه بدأ يضطرب فى تفكيره ، ويتخبط فى تصرفاته ، فهو تارة يفر من الاستعمار الى الخليفة ، وتارة أخرى يفر من الخليفة الى الانجليز ، وبينما كان عباس يشجع اعضاء « تركيا الفتاة » الفارين الى مصر من ظلم عبد الحميد ، اذا به ينقلب الى محاربتهم تقربا للسلطان ، وبينما هو مقبل على الشعب يحتضن مطالبه ، ويشجعه على تقديم العرائض للمطالبة بالدستور التماسا للحد من نفوذ كرومر ، اذا به يتنكر للشعب وزعمائه ويعرض عن مطالبه حين يرى اقبال « جورست » ـ خليفة كرومر ـ عليه ، فيحارب الحرية ويزج بالأحرار فى السجون . وكان هذا التخبط داعيا لاختلاف آراء الناس فى عباس ، أكان مؤمنا بالوطن ولكنه غلب على أمره ؟ أم أن حبه للملك وتعلقه بما يحيط به من أبهة وجاه كان اكبر من حبه للوطن وللحرية ؟ أم أنه كان يسعى الى زيادة نفوذه واطلاق يده من كل قيد ، فهو يلتمس الوصول الى هذه الغاية من كل سبيل ، وهو اذن لا يكره الاحتلال الانجليزى نفسه ، ولكنه ينافس الأيام وينازعه السلطان ؟ مهما يكن من دخيلة نفسه فقد انتهى الى نهاية لا يختلف عليها اثنان ، انتهى الى اليأس والانحلال ، وانصرف الى المال يجمعه فى شره ، وكان انحرافه سببا فى تحول الشعب عنه ، ثم سخطه عليه ومهاجمته له ، منذ وقف للمرة الأولى تحت العلم البريطانى بجوار اللورد كرومر سنة ١٩٠٤ (١) .

والواقع أن السيد توفيق البكرى كان قد نفض يده من كرومر منذ أمد ، ثم استيأس من عباس ونفض يده منه بعد الحادثة السابقة ، ولم يتنكر البكرى لمبدئه الذى دافع عنه طيلة حياته ، وهو المطالبة بالدستور والحرية ، فعندما عبر « شوقى » شاعر

---

(١) الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ١٧١ وما بعدها .

عباس عن رأى الخديو فى تعليق الدستور على نضج الأمة ، رد عليه البكرى فى حديثه السابق مع صحيفة اللواء عام ١٩٠٨ .

وهنا يبدأ الفصل الأخير فى قصة حياة البكرى ، فقد غضب عليه الخديو غضبا شديدا ، اضطره الى ان يمدحه ، ولكن القصيدة تصور مصرع الحرية فى مصر ، وفيها يقول :

يا زمنـــا حــدثانه ... ما تنتهى فتبتـــدى
أحس قومى انهـــم ... احــرار غير اعبـــد
ليست لهـــم بلادهم ... وهى لكل أحـــد
فهـــم لذاك اصبحوا ... فى مبرق ومرعــــد
لم يرتضـــوا بذلة ... كالعـــير أو كالوتد
أو بهرج شـــيد على ... مســـتقبل مهـــدد
كم شـــدة عادت على ... أصحابها بالسؤدد (١)

(١) المؤيد ١٩٠٩/٣/٢٢ .

# الرحيل

لو كان يدرى الخديو أن القدر قد ربط بينه وبين زميله القديم ، لفكر مرة ومرات قبل أن يقلب له ظهر المجن ، ويصب عليه جام غضبه . ولكن ترى ماذا كان وراء هذا الغضب الجديد من أسرار قديمة ؟ هل يرجع غضبه الى تلك المقالة التى تحدى فيها رغبته فى تأجيل الدستور (١) ؟ أم يرجع الى تحديه أن يظفر لمصرى آخر بتلك الرتبة الفريدة التى نالها من الخليفة (٢) ؟ لا شك أن السبب الثانى يدعو الى الدهشة والى التساؤل عما أثاره فى هذا الوقت ، ولماذا لم يكن التحدى فى هذا الشأن منذ سنين . ولكن الحقيقة أن الخديو حاول فعلا فى هذه الفترة أن يظفر بذلك اللقب لبعض المصريين وفشل فى محاولته (٣) ، مما قد يدعم هذا الرأى . ولكن هل هناك أسباب أخرى خفية (٤) ، أم أن هناك رواسب قديمة ،

---

(١) على فراش الموت ص ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٣) نفس المرجع ص ٤٥ .

(٤) تروى أسرة البكرى وعلى رأسها السيد حسن البكرى والسيد سيف الدين البكرى والسيد أحمد مراد البكرى الذى كان آخر شيخ للطرق الصوفية من أسرة البكرى ، بأن السبب يرجع الى يوم الاحتفال بالمحمل وجرت العادة أن يذهب الخديو الى بيت البكرى فى ذلك اليوم ، فلما ذهب لم يجده بانتظاره ، ثم حضر البكرى متأخرا فرماه الخديو أمام الحاضرين بسوء الأدب ، فرد عليه البكرى ردا قاسيا كان منه قوله « من جدى ومن جدك ؟ » فتوعده الخديو وخرج غاضبا . يقول العقاد : ( وكانت آخر كلمة وجهها السيد توفيق الى الخديو عباس : لست : أنا القليل الأدب ، أنا وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك ) راجع المجلة يناير ١٩٦٣ « وراء التراجم والسير » .

وكانت تلك الأسباب والتكهنات الجديدة أشبه بالقشة التى قصمت ظهر البعير ؟

الحقيقة أن فتور العلاقة بينهما كان واضحا منذ أربع سنوات، وكان السيد توفيق البكرى قد ضاق به وبالناس جميعا ، واعتزل فترة من الزمن ، كتب فى أثنائها مقالة فى العزلة التى تصور بركانا من زفير ملتهب ، وقذيفة تتفجر من الغضب ، وصف فيها الحاكم واستبداده وجهله ، ووصف فيها الطبقة المترفة الناعمة ، وتبديدها للأموال بلا حساب ، لأنها جمعته من دم الفقير وعرقه ، حين امتصت طاقته وتركته ، مريضا جائعا ، وله فيها خطرات اشتراكية ، ترسم ثورة نفسية عن الأوضاع السيئة فى المجتمع ، وفيها يقول : « أما الحاكم فأكثر ما لقيت امرؤ ان أونس تكبر ، وان أوحش تكدر ، وان قصد تخلف ، وان ترك تكلف ، امع لا يضر ولا ينفع ، قبة جوفاء ، تردد ما يلقى فيها من النغم ، ان لا فلا وان نعم فنعم ، القاب واكاليل ، على شخص فى مرسح التمثيل ، فان طرحت الألقاب ، ونزعت هاتيك الثياب ، ألفيت تحتها العجب العجاب .. الى تيه وخيلاء ، وعنجهية وكبرياء ، كأنه جاء براس خاقان ، أو ادال دولة بنى مروان .. رويدك ربما علت الجيف وانحط الدر فى الصدف ، وارتفع فى الميزان ، جانب النقصان ، على أن الانسان ، اذا لم يكن فيه غير جثمان ، فكلما علا يصغر ، لمن ينظر ، وربما حسن الأفن ، تعظيم الوثن .

لعمرى لقد هانت على الناس أمة يدبر سيف أمرها ولقيط

« وأما أبناء السامة فان أحدهم غادة ينقصها الخجاب ، ينظر فى المرآة ولا ينظر فى كتاب ، انما هو لباس ، على غير ناس ، كما تضع الباعة مبهرم الثياب ، على الأخشاب ، ورماد تخلف عن نار ، وحوض شرب أوله ولم يبق منه غير أكدار ، آباء وأحساب ، وحال كشجر الشلجم احسن ما فيه ما كان تحت التراب ، الى رطانة

بالعجمة بين الأعراب ، أبرد من استعمال النحو فى الحساب .. ميسر يلعب ، ومال يسلب ، وخدن يخدع ، وكلب يتبع ، وعطر ينفح ، وفرس يضبح .. أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل ان المال وسيلة لا غاية ، فان أصبت منه الكفاية ، فقد بلغت النهاية ..

وأما العامة أيدك الله فهم عظم على وضم ، وصيد فى غير حرم ، بسيد مأسور ، والاخشيد فى يد كافور ، ويتيم غنى ، فى يد وصى .

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فبينما ترى قصورا وثراء ، وحبورا وسراء ، وعربات تترى ، يعدو أمامها السليك والشنفرى ، تجد أرمل صناعا ، وأيتاما جياعا ، وشيخا يعمل وهو فى أرذل العمر ، يقعده العجز وينهضه الفقر ..

« رحماك ان عزلة بين كرم واعناب ، ودواة وكتاب ، لهى الجماعة والأنس ، للنفس »(١) .

كانت هذه الخطرات سابقة على عصرها بزمن ، ورد الفعل الطبيعى هو الاستياء والضيق بها وبكاتبها ، ومهما كان السبب المباشر لثورة الخديو ، فان هذه العوامل جميعا اشتركت فى اثارته، فتوعد البكرى ، وحاول توفيق البكرى أن يستل سخيمته ، بقصيدته السابقة ، ولكنها كانت فى الواقع أكثر إثارة له ، بما فيها من هذه الأبيات السياسية .

وهنا تبدأ مرحلة العزلة الثانية ، فقد طغى عباس وتجبر وكمم الأفواه ونشر الدسائس ، وعين الأمير « حسين كامل » رئيسا

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ١٠٢ وما بعدها .

لمجلس شورى القوانين ؛ وأصدر قانون المطبـوعات الذى سلب الصحافة حريتها وقيدها بقيد من حديد ، فاستقال البكرى من الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ، وقد يقال غير ذلك فى اسباب استقالته ، والحقيقة أن ذهنه فى هذه الفترة كان يصور له قدرة الخديو على اغتيال الحريات والأفراد أيضا ، وأحس أنه غير قادر على تحمل المسئوليات فى هذا الجو ، فلم يلبث أن استقال من مشيخة الطرق الصوفية أيضا فتولاها ابن أخيـــه الشـيخ عبد الحميد البكرى .

كانت بداية النهاية حين أحس بالعيون تقتفى آثاره ، وتنقل ما يقع فى أسماره (١) ، وفى بعض ذلك ما يذهب برشـــد الحليم . « وكان الشيخ على يوسف يتردد عليه بالزيارة ليخفف عن صديقه ما يقاسيه من الوساوس النفسية والاضطرابات العقلية ، فيصيب منه تارة يقظة ورشدا ، وتارة أخرى قلقا وانسياقا مع الأوهام .. وكان اذا اشتدت به الحال نهض ففتش تحت الأسرة والمقاعد ووراء الأبواب والستائر خشية أن يكون أحد رجال الخديو متربصا به . وأخذ يبعث بالرسائل الى النائب العمومى ليحميه والى محافظ العاصمة ليبعث اليه من رجال البوليس من ينقـــذه ، ثم يكتب البرقية تلو البرقية الى بطرس باشا غالى رئيس النظار ويشكو له رجال الخديو ، ويتهمهم بتآمرهم عليه ، فيرد عليه رئيس النظار بأن الحكومة ستتخذ الاجراءات اللازمة لحمايته ، ثم يأمر النائب العمومى أن يزوره فى قصره ليطمئنه .. » (٢) ولكن الداء كان قد استفحل ، فبدأ يشك حتى فى أقرب الناس . ذهب مـــرة الى على يوسف فى ادارة المؤيد وكان هناك يوسف سركيس ، فلما أوعز على يوسف الى النادل أن يأتيه بكوب من الشراب صـــاح به

---

(١) صاحب صهاريج اللؤلؤ لزكى مبارك ( البلاغ ١٩٣٢/٨/١٩ ) .
(٢) على فراش الموت ص ١٤٥/١٤٦ .

« وأنت وسركيس قد اتفقتما على تسميمى ؟ » (١) وعبثا حاولا تسكين روعه . واستمر الوهم يعمل عمله ، حتى قررت الأسرة أن تذهب به الي « مستشفى العصفورية » بلبنان عام ١٩١٢ . ولم يمض على ذلك عامان حتى سقط عباس عن عرشه ونفى ، عند قيام الحرب العالمية الأولى .

أحد عشر عاما انقضت مسرعة عجلة لا تتأنى ولا تتوقف فى مسيرها ، وما قيمة الزمن فى حسابه ، نهار وليل ثم لا جديد اللهم الا غضون بدأت تزحف على وجهه الأبيض ، وشيب كسا هامته وخضب شعره وألبسه رداء الشيخوخة ، فقد تجاوز الخمسين من عمره ، وتغيرت الدنيا من حوله فى أعقاب الحرب ، ولا جديد يغيره ، أو يخرجه عن أوهامه .

كان ذلك فى الخامس عشر من أكتوبر عام ١٩٢٣ ، عندما مر صديقه السابق يوسف سركيس ، بمستشفى العصفورية ، فتذكر السيد محمد توفيق البكرى ، الذى نسيه الناس بمصر فى غمرة أحداثهم السياسية ، ثورة شعبية ضخمة ، واستقلال مشروط ، قبله البعض ورفضه الآخر ، وأحداث الحاضر ، قد تلهى الناس عن الماضى ، ولكن يوسف سركيس بلبنان ، والى جوار البناء الضخم والحدائق المترامية ، التى تصور له حيا من أحياء أوربا ، وذهب الصديق يسأل عن صديقه القديم فتمنعه ادارة المستشفى من لقائه معتذرة بأن أكثر من زائر جاء من مصر بحجة مشاهدته ، وحاول سرا أن يحمله على التوقيع على أوراق معينة تتعلق بأموره العائلية والمالية ، **ثم كانت الحرب ولم تتمكن الأسرة من ارسال نفقاته** ، ثم اقتنعت ادارة المستشفى بأسباب الزيارة ، وما لبث الحاجب أن مضى ليأتى بالسيد .

---

(١) مجلة سركيس ( عدد يوليو واغسطس ١٩٢٣ ) .

وبقي سركيس (١) جالسا يستعيد ذكرياته مع السيد توفيق البكرى . « رأيته فأعجبت ، شاب ناهض ، زى حسن ، جبة طالما لمست الجماهير أطرافها تبركا ، عمة طالما انحنت لها الرءوس احتراما وتكريما ، وسمعته فطربت ، ينشد شعرا ناظر فيه فحول الشعراء ، ويرسل نثرا فى ( صهاريج اللؤلؤ ) فكأنه أنفاس العشاق ، وزرته فى سراى الخرنفش ، عاصمة فى عاصمة ، قصر يفاخر بتاريخه وزخرفه أفخم القصور ، ورافقته فى عربته ، كل خطوة ترتفع الأيدى لتحيته ، وتحنى الرءوس . كذلك كان سماحة السيد محمد توفيق البكرى الزعيم الدينى الشاعر المجيد الناثر البليغ جليس الملوك والأمراء » (٢) .

وأبصر الحاجب يأمر شبحا أن يتبعه ، فصدع بأمره ، أقبل يمشي على مهل ، تلك عادته ، رافعا رأسه محدقا ببصره ، تلك عادته ايضا ، ثم لما صار على مسافة خطوات منه رآه وقد تبينه فعرفه ، فأخذ يمشي على مهل ونكس راسه حتى اقترب فغض بصره ووقف

---

(١) كان من أهم الأحداث التى ربطت يوسف سركيس بالبكرى ، ما اعتادته اسرة البكرى من اقامة حفل فى كل عام يسمى « حفل الكنى » . وكان السيد عبد الحميد البكرى ابن شقيق السيد محمد توفيق البكرى يوزع الالقاب على الحاضرين ، فحضر يوسف سركيس ، وعندما جاء دوره لقبه السيد عبد الحميد بأبى لهب ، فغضب ، ولكن السيد توفيق ذهب اليه واعتذر وترضاه ووبخ ابن أخيه ، وطلب سركيس الا ينشر قصيدة شوقى فى هذا الحادث ، وكان سركيس قد شكا الى شوقى ، فقال شوقى :

آل أبى بكر لكم ... فى الناس ارفع الرتب ...
وكان فى ليلة ... مقربة من اقترب
يمنح من شاء الكنى ... مجاملا لمن طلب
فما لكم من بعده ... اتيتم مالا يحب
لقبتم أبا الضيا ... ضيفكم أبا لهب

(٢) مجلة سركيس سبتمبر واكتوبر ١٩٢٣ ( صوت من قبر الأحياء ) .

خاشعا ، ولم يملك سركيس دموعه ؛ لقد تبدلت الصورة تماما ، حذاؤه ضخم منكر ، وجبته رثة صفراء ، وقفطان ممزق ، يصل بعضه بعضا « بدبابيس » ، وعلى رأسه « طاقية » ، وقد شاب شعر رأسه ، وطالت لحيته . لحظة من الذعر والدهشة والجمود ، استولت على صديقه ، قبل أن يكفكف دمعه ، ثم مضى يسأله :

— اهلا بمولانا السيد ، كيف حال سماحتكم ؟

— بخير والحمد لله .

— أنا قادم من مصر لأزوركم .

— شكر الله فضلك .

— أتذكرنى يا مولانا ؟

— نعم اذكرك واذكر أيام المؤيد .

— هل أنت مرتاح هنا ؟

— لا بأس .

— هل يسمحون لكم بالمطالعة ؟

— ليس لدينا وقت .

— أتنظمون شيئا من قبيل ( اول خيط الكفن ) ؟

— فضحك وقال : لا .

— هل تذكرون كتاب ( صهاريج اللؤلؤ ) ؟

— كيف لا .

— أتأمرون بشيء أخدمكم به ؟

— شكر الله فضلك .

— أترغبون أن أرسل لكم بعض الكتب .

— ليس لدينا وقت .

— بماذا أقدر أن أخدمكم بمصر ؟

— ولا حاجة ، فقط ارجوك أن تقول لابن أخى عبد الحميد ان يأتى او يرسل من يأخذنى من هذا المكان فلم تبق حاجة لبقائى .

كل هذا ولم يرفع رأسه ولا نظر الى صـــديقه ، ثم استأذن وانصرف ، فمشى مطرقا بضع خطوات ثم انتصب ورفع رأســه ومضى يضرب الأرض بعصاه ، أما يده اليسرى فتقبض بعنف على قطع مكسورة من مرآة . واخبر الطبيب يوسف سركيس أن المرآة ملازمة له لا يتركها لأنها فى زعمه تطرد الشياطين ، وهو دائما يتجول دون رقيب أو يستمع للخطباء من مرضى المستشفى . على أن من المحقق أن مرضه غير قابل للشفاء ، أما اضطرابه العقـــلى فليس خطيرا ، لأنه حافظ لكثير من قواه ، يحادثك حديث العقلاء ، ويكثر من المطالعة ، ومن الغريب أنه مع وجوده فى المستشفى من عهــد بعيــد فهو ما يزال يذكر المكتبات والناشرين ، فيدفع الى ادارة المستشفى بقائمة كتب من حين الى حين يطلب شراءها ، فيجدون كل كتاب وارد بالقــائمة موجـــودا لدى الناشر أو المكتبة التى حــــددها (١) .

وتزعم سركيس حركة ضخمة تهدف الى اعادة السيد البكرى الى مصر ، فمرضه غير قابل للشفاء ، وهو ما يزال يحتفظ بكثير من قواه العقلية ، وليس من المروءة أن يترك على هذا الوضع الشائن غريبا وحيدا ، يستثير منظره أقسى القلوب . ولم تلبث بقية الصحف أن شاركت فى الأمر ، فكتب حوله حسين شفيق المصرى بمجلة « السيف » يقول : « يا أيها الناس ، كان أوجه أهل هذا البلد ، وأرفعهم مقاما وأعلاهم بيتا واشرفهم نسبا وأعظمهم حسبا وأقربهم الى رسول الله وأوسعهم علما وأبلغهم نثرا وأجودهم شعرا ، السيد توفيق البكرى صاحب قصر الخرنفش وشـــيخ مشايخ الصوفية ورئيس نادى العظماء والعلماء والأدباء ، الذى عرفناه وكل رأس لا يرتفع اليه الا لينظر الى الهيبة والوقار وابهة المنصب وفخامة المقـــام ...

(١) سركيس اكتوبر ١٩٢٣ ، اغسطس ١٩٢٥ .

« أصبح يقوده من لم يكن أهلا لمسح حذائه ويزجره من لو كان دابة ما رضيه لمركبته ، وتولى أمره من لم يكن يصلح لتقبيل يده .. يسأم الخسف ويعامل معاملة مجانين الجهلاء الفقراء وأموال أوقاف أجداده الوف الوف مؤلفة يخطئها العد .. يا حزنا على أغلى الناس حلة جديدة فى أطمار بالية ، ويا بكاء العيون على من كان يكاد ينتعل النجوم ونعلاه اليوم نعلا أبى القاسم ، وذوبى يا نفوس حسرة على الشيخ الأعز ، أصبح أذل من سندان حداد يحمى حوله بالنار ، ثم تتناوبه المطارق . الغوث الغوث النجدة النجدة ، يا مصر ، يا حكومة ، يا أمة مصر ، هاتوا الشيخ واجعلوه فى دار يطعم فيها ويكسى ويخدم الى أن يموت »(١) .

وكتبت جريدة « المحروسة » ناعية على ابن اخيه ترفه ، بينما عمه على هذا الوضع ، ثم استنجدت له أهل الفضل ، وكتبت « الصاعقة » تلح فى عودته . وتحت ضغط الرأى العام ، سافر بعض أعضاء الجمعيات الى بيروت ، والتقوا بمدير المستشفى وتأكدوا أن حالة السيد الصحية لا تقتضى بقاءه ، وانه يستطيع الاقامة فى بيته ، فرأت أسرته أن تعيده .

وعاد الى مصر عام ١٩٢٨ ، مهدوم البنية منهوك القوى ، يخطو الى القبر ويستقبل الفناء ، وما زالت أوهــامه ملازمة له ، لكن يتخللها فى بعض الأحيان فترات يثوب فيها الى رشده ويذكر سابق عهده ، ويروى لمحدثيه جميل أيامه وما سمح به الدهر من لحظات باسمة ، ويستعيد الأحداث ويسوق الذكريات ، وكلما مر على حادث ذكر رجاله المحسن منهم والمسىء ، حتى اذا أتى على حادث الشيخ محمد عبده استغفر لنفسه وندم . وقبل وفاته بأيام كان اذا جاء ذكر الشيخ محمد عبده وما وقع له معه ، قال لمن حوله « أخشى أن

(١) راجع سركيس يوليو واغسطس وسبتمبر واكتوبر سنة ١٩٢٣ واغسطس وسبتمبر سنة ١٩٢٥ وما نقله عن المجلات الأخرى .

يذكر عنى كل من يعرض للكتابة فى هذه الحـــادثة ، أننى أخطأت وأننى آسف لهذا الخطأ » (١) .

وكان حديث هذا الندم آخر أحاديثه ، فلم يسمع منه بعده حديث مستقيم ، حتى كان السبت الثالث عشر من أغسطس عام ١٩٣٢ ، حين وافاه الأجل ، وشيعه رجـــال الطرق الصوفية بالبيارق الى الأمام . وكتب زكى مبارك فى رثائه (٢) يقول : « أيها الرجل الذى مشى به عقله الى وادى الجنون ، انا نرثى لك ونعطف عليك ، ونؤمن بأنك فهمت يوما اخوانك سكان هذه الأرض فهما هو عين الصواب ، ونحمد الله الذى منحك ما اشتهيت من العزلة فى مصر ولبنان ، الى أن اختار لك الراحة الباقية فى عالم الخلود » .

---

(١) على فراش الموت ص ١٥٠ .

(٢) البلاغ ١٩ اغسطس ١٩٣٢ .

# الباب الثاني

# إنتاج الأدوية

# الكاتب

عندما أتم القرن التاسع عشر ربعه الثالث ، كان الصراع بين المدنية الاسلامية والحضارة الغربية قد دخل دورا فعالا فى الوطن العربى بوجه عام ، وفى مصر على وجه الخصوص . والواقع أن مصر بدأت تطلع على ضروب من الحضارة الغربية منذ أول ذلك القرن . وعندما نقرأ قول الشيخ حسن العطار فى ذلك الوقت ـ عقب خروج الفرنسيين من مصر ـ نحس ان كلمته « وان مصر لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها »(١) ، لها مدلولها القوى فى التعبير عن الرغبة التى بدأت تجتاح العقول للتعرف على تلك الحضارة ، وفى نفس الوقت بداية التشابك الحضارى بين الشرق والغرب .

ثم كانت البعثات العلمية التى استمرت طوال القرن الماضى عاملا فعالا فى خلق هذا الجو ، وحين ندرك أن تلاميذ رفاعة الطهطاوى قد ترجموا فى فروع المعرفة ما يقرب من الفى رسالة وكتاب ، نستطيع أن نتصور هذا التفاعل الحضارى فى مجال الفكر ، بل فى بعض نواحى الحياة العامة ، لأن التأثر الفكرى ينعكس على سلوك المرء فى حياته الخاصة والعامة أيضا . ومن المؤكد أن « مدرسة الألسن » ما كانت تقوم الا بعد مرحلة من التهيؤ النفسى للاقتناع بدورها ، وأن « مدارس البنات » التى انشئت فى مراحل متقاربة خلال النصف الثانى من القرن الماضى ، ما كانت تقوم كذلك ،

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٣٨ .

الا وهذا التشابك الحضارى يأخذ مداه ، خاصة اذا عرفنا أن مدارس البنين نفسها لم تكن تجتذب أبناء الشعب فى أول القرن الماضى . وهكذا نستطيع أن نتصور بداية التطور فى فن العمارة وفى طرق المواصلات وفى الملابس وفى الأطعمة وأسلوب تناولها وفى العادات والتقاليـــد .

يقول السيد توفيق البكرى فى « الوفاقات فى العادات بين الافرنج والعرب » : ( وكانت عادة البالو أو ما يقاربها معروفة عند ملوك الاسلام ، وكانوا أحيانا يصورون الوقائع التاريخية كما تفعل الفرنجة اليوم ، وقد كانوا يستعملون الورق والجلود مكان النقود فى وقت الحاجة كما تفعل الدول الآن ، وكانوا يتهادون بالزهور والرياحين فى أيام المواسم والأعياد كالافرنج ، كما كانوا يرفعون ما على رؤوسهم للتعظيم . كذلك كانوا يقيمون تمثالا للرجل المشهور عندهم أو الصالح ليبقى ذكره بينهم ، وكانت النسوة يرسلن ذيول ثيابهن ولا وسيما فى الحلل النفيسة التى يلبسنها أيام المواسم . ومن عاداتهم الانحناء فى السلام ، فانها كانت عادة لبعض قبائل العرب كغسان . وما هو عادة الآن عند الافرنج وكان مستعملا عند بعض ملوك العرب ، تصوير الملوك على السكة المضروبة من الدنانير والدراهم ، وبيوت الأمتعة وهى المعروفة الآن « بالانتقخانة » وهى مواضع تحفظ فيها الآثار القـــديمة من ملابس الملوك وآثارهم ، والاستئذان قبل الدخول فى المحلات اما بدق الباب أو غــــيره ، وتقديم ورقة الطعام قبل الأكل وفيها اسماء الأطعمة التى ستقدم فى الخوان ) (١) . ولسنا بصدد مناقشة هذا النص مناقشة تاريخية لنتبين صحة آرائه ، ولكن مدلول النص واضح من حيث محاولة الملاءمة بين العادات والتقاليد الغربية الغازية وبين العادات والتقاليد

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٢٥٨ .

الشرقية ، فقد ينفر بعض الناس من الجديد ما لم تكن له جـذور قديمة ، وقد يقارن البعض الآخر بين العادات الشرقية والغربية مستهجنا كل ما هو شرقى ، وتلك هى طبيعة الناس فى عصور التقاء الحضارات ، أو ذلك هو « قانون تلاقى المدنيتين » (١) . فالواقع ان الربع الأخير من القرن الماضى بالذات قد شهد حدثين كبيرين أولهما انتشار المطبعة العربية وما أعقب ذلك من حركة الطباعة الهائلة التى التفتت الى التراث ونشرت أمهات كتب الأدب ودواوين الشعر ، ثم ظهور الصحف العربية والدوريات وعلى الأخص «الهلال والمقتطف» . وقد حرصت هذه الدوريات على نقل كثير من المعارف الغربية والفكر الغربى ، ولعبت دورا كبيرا فى تصوير الحضارة الغربية بصورة محببة الى الشرقيين . أما الأمر الثانى فهو الاحتلال وما أعقبه أيضا من محاولات للتطوير ـ لا للتطور ـ وتذويب القيم الاسلامية واحلال القيم الغربية بدلا منها ، ومهاجمة الدين نفسه واللغة العربية الفصحى . وهكذا دخلت الحضارة الغربية بمحاسنها ومساوئها فى صراع عنيف مع الحضارة الشرقية الموروثة ، وكان لابد أن ينقسم الناس على أنفسهم ازاءها . فهناك فريق اندفع مع الجديد لا يبقى على شىء ، وفترت صلاته بالحياة الشرقية ، واقترن فى ذهنه حاضر الشرق الضعيف بتقاليده الموروثة ، فراح ينادى بوجوب الأخذ بالحضارة الفنية الغازية فى كل صورها كما قلنا ، وهناك فريق آخر زاده هذا الغزو الغربى تمسكا بتقاليده وقيمه الموروثة ورأى ان تقليد الغربيين سوف يفقد الأمة احساسها بشخصيتها فلا ينبغى اذن أن تقوم نهضتنا الا على جذور من قيمنا وتقاليدنا وديننا . أما الفريق الثالث فهو الذى وقف حائرا بين

---

(١) تيارات أدبيـة بين الشرق والغرب ( راجع الفصل الخاص بقانون تلاقى المدنيتين ) .

المتناقضات الاجتماعية والفكرية ، يحاول أن يأخذ خير ما فى الجديد ويمزج بصالح الموروث فى الحياة وفى الفكر معا .

وقد وضح هذا الصراع فى الأدب وفى أسلوب التعبير . اما فى الشعر فنجد البارودى والكاظمى وعبد المطلب وهم يمثلون المدرسة المحافظة خير تمثيل والى جوارهم فى نفس الفترة ظهرت مدرسة جديدة تتمثل الجديد وتولى وجهها نحوه ممثلة فى مطران وشكرى والمازنى والعقاد . أما الفريق الذى حاول أن يأخذ من صالح الجديد والموروث فتمثله مدرسة شوقى التى اكتسحت الميدان لأنها تستند الى قاعدة شعبية ضخمة فلا تمثل تطرفا الى اليمين أو الى اليسار . وهكذا كان الشأن فى النثر أيضا ، ولكن النثر كان له مظهران ، مظهر المحافظة ومظهر التجديد ، أما المحافظة فتتجلى فى « صهاريج اللؤلؤ » للبكرى و « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى و « أسواق الذهب » لشوقى ، ولكن الواقع أن الصحف اليومية والدوريات بصورة عامة ، كانت تضطر الكاتب الى ضروب من التعبير عن حاجات العصر وأحداثه ؛ وتضطره أيضا الى نبذ الزخارف اللفظية التى تعنى التأنق والاحتفال ، لأن الصحافة يومية أو أسبوعية ، فليس هناك وقت لمثل هذا التأنق وذلك الاحتفال ، ومن أجل هذا غلب أسلوب المجددين ــ الذين نبذوا السجع والزخرف ــ على كتاب المقالات الصحفية ، كما غلب أيضا على الكتاب الذين تعمقوا الثقافة الغربية ، ووجدوا النثر يقوم هناك بكثير من مهام الشعر فى التعبير عن حاجات العصر فى أسلوب بسيط يستطيع أن يقرأه الناس وأن يفهموه ، مثلما نجد فى كتابات « قاسم أمين » أو فى مقالات « أديب اسحق » و « مصطفى كامل » ممن زاولوا العمل الصحفى .

ولكن لماذا تخير السيد محمد توفيق البكرى هذا الأسلوب المسجوع الملىء بالغريب ؟ ألأنه قرأ مقامات الحريرى ونثر أبى العلاء ؟

ولكنه قرأ أيضا فلسفة اليونان كما قرأ كثيرا من كتب التـــاريخ والأدب الفرنسي (١) .

يقول في مقدمة ( صهاريج اللؤلؤ ) : « هذه كلمات من النثر ، وأبيات من الشعر ، ضمنتها نخبا من الحكم ، وأقاويل من جوامع الكلم ، وذكرى من مغربة الأخبار ، ونعوتا لبعض الأناسي والآثار ، ومثلات في المواعظ والاعتبار ، وشعشعتها بأنظار الجهابذة المتقدمين، والحكماء المتأخرين ، كما تشعشع الراح ، بثغبان البطاح ، فجاءت بحمد الله من البلاغة في القرار المكين ، والركن الركين ، **وقد التزمت في أكثر عبارتها فصح الحجاج ، ولسان رؤبة بن العجاج ، وأنا أعلم أن من الأدباء اليوم من ينفر من الغريب ولا ينفر من الدخيل ، لاستيلاء العجمة على هذا الجيل** ، فلم يثنيني ذلك عن أن أودع كلام الأعراب ، بهذا الكتاب ، وأحدو في اثر تلك الرفاق ، بما في هـــذه الأوراق »(٢) .

من الواضح اذن أنه يأخذ الطرف المقابل الى غايته ، ان كان غيره ينفر من الغريب ولا ينفر من الدخيل كما يقول بل يستحسن هذا الدخيل ويتشدق به ، لأنه في وهمه دليل التطور والرقي ، فالانسلاخ عن لغة الأجداد والدعوة الى الكتابة بالعامية أو الحديث باللغة الأجنبية كان ظاهرة جديدة تستدعى أن يقف الطرف المعارض موقفا جادا منها ، ومن أجل ذلك كانت الدعوة الى المجمع اللغوى التي تبناها البكري من قبل ، ومن أجل ذلك أيضـــا كان أسلوب المؤلف الذي انتحى هذا النحو . ولا شك أن نشأته الدينية ومركزه الديني كان عاملا من العوامل التي دفعته الى الحفاظ على أسلوب العربية ولغة القرآن ، وقد أعانه على هذا الأسلوب كثرة محفوظة من الغريب ، فهو صاحب « أراجيز العرب » ، ونحن نعلم أن الرجاز

---

(١) راجع صهاريج اللؤلؤ ص ٣٨ ، ٧٠ ، ١٢٦ ، ٢٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢/١ .

على وجه الخصوص كانوا يهتمون بغريب اللغة ، كما أعانه بوجه عام سعة اطلاعه وعمق ثقافته العربية ، وبوجه خاص اهتمامه باللغة ومفرداتهـــا .

واذا كان أسلوب البكرى يهتم بالسجع والغريب واستيعاب الكثير من الأمثال العربية ، فان احتفاله الشديد بالتشبيه يفوق كل احتفال ، واهتمامه به يفوق كل اهتمام بغيره ، حتى أصبحت اداة التشبيه ، أظهر حرف فى أوائل جمله كما يقول العقاد (١) . ولكن لماذا احتفل البكرى بالتشبيهات كل هذا الاحتفال ؟ الواقع انه كان مجددا فى الصناعة الفنية ، بالرغم من أن أدواته فى هـــذه الصناعة أدوات مستعملة . فاللفظ مغرب أشد الاغراب والسجع نغمة موسيقية حظيت باهتمام الكثيرين من الكتاب العـــرب ، والتشبيه والمثل كذلك ، ولكن الجديد هو التصوير الذى أدار حوله صناعته الفنية ، والذى أسعفه فى هذا المجال أن كثيرا من مضامينه معاصرة جديدة ، بل ان كثيرا من موضوعاته شعرية ، فنثره شعر من حيث الخيال ومن حيث الموضوع كما يقول عمر الدسوقى(٢) . وكأنه أراد أن يتحدى المجددين الذين يحسبون التجديد أمرا شكليا يتعلق بالأدوات ولا يتعلق بالصياغة ، أو يحسبون الأدوات الموروثة لا تتسع لجديدهم ، **بالضبط كما يحسب أصحاب الشعر الحر اليوم أن أدوات الشعر العربى الموروث لا تمكنهم من التعبير عن تجاربهم الجـــديدة .**

ولكن الأمر هنا أخطر بكثير ، لأن الكاتب على هذا الوضع قد يقع تحت وطأة التشبيه القديم والمثل الموروث فلا يفيده بقدر ما يفكك صوره ، ولا يسعفه فى رسم الجزئيات وانما يبتلعه المثل والتشبيه،

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٧١ .

(٢) فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٣٨٠ .

فلا بد من عملية تمثل كامل لهما حتى يخرج كل منهما أشبه ما يكون بالظل الذى يوضح ملامح الصورة عند الرسام ولا يطمس معالمها ، أو بمعنى آخر لابد أن يستحيل التشبيه والمثل الى ملك خالص للكاتب كما يقول زكى مبارك (١) .

ولابد من المقارنة لتتضح الفكرة وتنجلى معالمها ، ففى احدى قصائد الشاعر الفرنسى « فكتور هوجو » واسمها « واترلو » يصف الموقعة الشهيرة التى انهزم فيها نابليون ، وفيها يقول : « لقد وقع فى هذا السهل موقعة كبرى خلط الموت فيها الجيوش فماجت به كما يموج الماء فى حوض مفعم ، وكانت فرنسا فى ناحية وأوربا تقاتلها فى ناحية ، فخاب ثمة أمل الشجعان وحقت عليه الواقعة . أبكى على هذه الموقعة وحق لى البكاء ، اذ هؤلاء الشجعان كانوا خيرة الرجال ، وقد فتحوا الأرض ودوخوها ، وطردوا عشرين ملكا وجازوا جبال الألب ونهر الرين . وقد كانوا الى المساء هاجمين ومنتصرين ومضايقين ( لولنجتون ) القائد الانكليزى اذ حازوه الى الغابة ، وكان نابليون والنظارة فى يده يقلب نظره تارة فى وسط الجيش اذ يراه كأنه حصيد وتارة يتأمل الأفق كأنه البحر فى ظلامه . وبينما كان يؤمل مقدم الجنرال ( جروش ) لنجدته اذ رأى قدوم الجنرال ( بلوخر ) عدوه ، فانقطع الرجاء وتغير الأمر فى الحرب وأخذت المدافع الانكليزية تحصد مربعات الفرنسيين ، وأصبح السهل بما فيه من الدماء والقتل المستحر كفوهة متقدة تسقط فيها الفيالق كأنها قطع من حائط ، فلما رأى ذلك نابليون وأدرك الخطر بحذقه العجيب وحسن نظره أمر جيش الحرس وهو أعظم فيالق الجيش الفرنسوى وعلى رؤوسهم الخوذ اللامعة بالتقدم ، فحيوا مليكهم وتقدموا للموت باسمين على أنغام الموسيقى ، فلم يلبث

---

(١) البلاغ ١٩٣٢/٨/١٩ .

نابليون حتى نظر الى هؤلاء الأبطال وقد التحموا فى الموقعة ، وصاروا يتساقطون فى تلك الفوهة المحرقة صابرين ، فريقا بعد فريق ، حتى لم يبق منهم أحد ، وعندها انقطع الرجاء وامر جنوده بالتقهقر ، فانهزم هذا الجند الذى طالما هزم العالم بأسره قبل »(١) .

ومهما تحدثنا عن ضعف الترجمة فى نقل الحس الفنى او جرس الكلمة ، خاصة حين نحيل الشعر الى نثر وعلى الأخص الى لغة غير لغته ، الا أننا نهدف الى المقارنة من زاوية أخرى لا تخطئها الترجمة ، وهى زاوية التصوير ، فمن الواضح أن الشاعر تقريرى هنا أشبه بالمؤرخ من هذه الناحية ، ولكن البكرى حين أراد ان يصف احدى وقائع نابليون نثرا ، ذهب الى متحف فرساى وأدام النظر الى صورة الموقعة التى رسمها « جيرارد » ، بل ان الصورة هى التى أوحت اليه التعبير عنها ، تلك هى موقعة ( أسترليز ) : « كأنى أنظر اليه يوم ( استرليز ) وقد خرج لقتاله القيصران ، فى يوم أرونان ، ( فصابت بقر ) ، ( وما يوم حليمة بسر ) ، فاصطف حياله الروس ، كالسطور فى الطروس ، وثبتوا فى الأخـــاديد ، كالجلاميد ، واندعروا فى السهول ، كالوعول . وأقبل النمساويون فى كتيبة جأواء ، وململمة شـــعلاء ، ينزل أولاها وليس بنازل ، ويرحل أخراها وليس براحل ، فقابلهم من جيش الفرنسيس ، بالدهياء الدردبيس ، دوسر بسط جناحيه على الشعاب ، كما بسطت جناحيها العقاب ، فلا ترى ثمة الا أعلاما تخفق ، وحديدا يبرق ، وجنودا فى الماذى كأنها صخور فى ماء ، أو أفاعى عرماء ، أو أسود والسيوف أنياب ، أو عقارب شائلات الأذناب ، ثم حـم القتال ، وزلزل الزلزال ، واتقد الوهج ، وسطع الرهج ، فكأنما ترى جانا من مارج من نار ، أو اعصارا يدور فوق اعصار ، وكأنما

---

(١) المقتطف يناير ١٩٠٠ .

مدينة فى حريق ، وسماء تهطل برحيق ، وكأنما فكت الشياطين وانسابت الثعابين . وكأنما فى قلب الأرض وهل ، وعلى خدها من الدماء خجل ، وكأنما فى الجو من الدخان والنار ليل وشروق ، ومن الرصاص والشفار وبل وبروق ، وكأنما كسرت قبة السماء ، فهوت بما فيها من نور وظلماء ، وكأنما كل صف من الجنود يميل بحائط من جهنم ، فيلقاه الآخر من الحديد بلج من يم ، فما ينكفىء ، حتى ينطفىء ، وبين ذلك خيول تكدس ، وسلاح يضرس وجماجم تفلق ، وأشلاء تفرق ، ومنا ومنون ، وطعن كأنه طاعون ، وشهيق وزفير ، وعير ونفير ، وصرعى كأنما غالتهم الكؤوس ، وواد يسيل على العلمين فقاقيعه الرؤوس ، ومقلة فى مخلب طائر ، وكبد فى رجل عاثر ، وبنان فى ناب وحش كاسر . هذا ونابليون قد أشرف على المرقب ، فوق نهد سهلب ، ثبت فى الغمعان ، كأنه خنذيذة من كتفى ثهلان ، لا تهوله كثرة البهم ، ولا جموع الأمم ، كأن جنده قليل من ضرم ، فى كثير من فحم ، يقلب عينه يمنة وشامة ، ويخبر أخبار زرقاء اليمامة ، فتطوى الجنود لأمره وتنشر ، وتقدم وتأخر ، كأنه فى هذا الهرج والمرج ، أمام رقعة من الشطرنج ، الى أن يبدو له النصر من خلل القتام ، كما تلوح الشمس من تحت الغمام »(١) .

نلاحظ فى هذا النص أمرين ، الأمر الأول أن كل تشبيه يرسم جزئية ، ثم تتعاون الجزئيات جميعا على تحديد ملامح الصـــورة النهائية أو اللوحة الكاملة ، فهو ها هنا أشبه بالرسام يصدر ملامح الجيوش وقد اصطفت للحرب ، وارتفعت الأعلام ولمعت السيوف ، والتهبت الأفق بنيران المدافع وارتمى صرعى الحرب أشبه بالسكارى لولا المزق المصبوغة بالدماء حولهم ، ووسط هذا الجو كله ، يأخذ الرسام زاوية معينة يسلط عليها الضوء حتى تحتل جانبا كبيرا من

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٧٠ وما بعدها .

اللوحة ، تلك هى صورة نابليون المنتصر . أما الأمر الثانى فيتعلق بالمثل الذى أحاله ملكا خالصا له ، ولو حاولنا أن نتتبع ما أتى به البكرى هنا من أمثال لطال بنا الأمر ، ولكن القارىء لا يكاد يحس لأول وهلة بالأمثلة العربية الكثيرة التى استفاد منها فعمقت صوره، واذا تركنا المثلين اللذين بدأ بهما ، وجدنا بعد ذلك ( الدهيـــاء الدوسر ) وفى المثل ( أبطش من دوسر ) وقوله ( أو اعصارا يدور فوق اعصار ) وفى المثل ( ان كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا ) وقوله ( وعير ونفير ) وفى المثل ( لا فى العير ولا فى النفير ) ، الى غير ذلك مما اقتبسه من القرآن وضمنه مقطوعته .

وهكذا كان البكرى فى وضعه ، والواقع أن أكثر الكتاب على هذا النحو ، لأننا نستطيع أن نقسم نثره الى ثلاثة أقسام : الوصف ، والمديح والرثاء ، الاجتماع ، وكلها كما نرى موضوعات شعرية ، وقد غلب الجانب الأول على الكتب . وهو شاعر حتى فى اختيار الزوايا التى ينظر فيها الى الطبيعة : البحر ، الأصيل فى الماء ، الهلال، الليل والنجوم ، خليج القسطنطينية ، أيا صوفيا ، منتزه ، حسان القسطنطينية ، الريف ، الفجر ، الزرع ، الغـــدران ، الصيف ، الشتاء ، ليلة راقصة ، غاب بولونيا ، الرحيل ، العزلة . وليس له بعد ذلك الا ثلاث مقطوعات فى وصف الشخصيات ومقطوعة واحدة فى الرثاء ، وأخرى عرض فيها لأوضاع المجتمع وطبقاته ، وهاجم تلك الطبقات هجوما مرا قاسيا .

ومن الواضح أن أكثر حديثه عن الطبيعة المصرية التى أحبها ، وصور منها عدة لوحات ، « كلوحة الفجر » فى الريف المصرى ، فهناك الطبيعة عارية لا يحجبها حجاب الصناعة والمدنية الكثيف ، ولوحة « المزرعة » بسنابلها وزهورها ولكنها مزرعة مصرية لا تخلو من نخيلات تقف بقامتها المديدة والغربان واقعة على رطبها ، ومن تحتها الماء يجرى ، ثم لوحة « النواعير والأبقار » . ولكنه قادر على

أن يجمع هذه اللوحات فى اطار واحد عريض ، فيخرج منها بصورة واحدة تتحرك مناظرها ، صاخبة بالحياة .

« يا ما أحيلى الوحدة فى الريف ، وذلك المشتى والمصيف ، والجو السجج والظل الوريف ، فجر يلوح فى الأفق ، كالنور فى عين الزرق ، وضياء ينبثق فى الفضاء ، كما ينبثق الماء ، وشمس تبدو للاشراق ، فى الآفاق ، كبودقة من ذهب ، أو قنبلة ترمى باللهب ، فيرتفع جرس كل حيوان ، كممنون فى الأوثان ، فللانسان تسبيح وتكبير ، وبلابل حنين وهدير .. وسنابل خضر ، وبراعم صفر ، وعهن منفوش ، ويقطين ومردقوش ، وعرف الخزامى ، وعـرق الرخامى ، وكروم وأعناب ، وأباريق قد همت باعشاب ، ونخيل مواقير بالقنى ، من البرنى ، لا تزال الغربان واقعة على رطبه ، واكدة فى شذبه ، وفى خلال هذه الخضرة ، مياه ونهر ، فمن جدول فى ظل نخل ، وحوض تحت أثل .. ونواعير كأنها عشاق ، بعد فراق ، لم يبق فيها غير ضلوع ، وأنين ودموع ، قد أوشم النبت حولها وطر ، واستدار الحرج وأخضر ، وثم سائمة الأنعام ، بين الحقول والآجام ، ترتع فى مرابضها ، وتمرح فى مراكضها »(١) .

ومن الغريب أن القارىء لشعر شوقى يكاد يحس بتأثره فى بعض القصائد بنثر البكرى فى الموضـوعات المتشـابهة كخليج القسطنطينية ، وليلة راقصة ، ومرثيته الوحيدة التى نلحظ وجه الشبه بينها وبين رثاء شوقى لاسماعيل صبرى حين ينتقلان الى الحديث عن فلسفة الموت وعظته وعبثه بالراحلين الى وادى العدم فها هو ذا شوقى يردد فى قصيدته :

أجـل وان طـال الزمـان موافى

أخلى يديك من الخليل الوافى ...

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ١٠٥ وما بعدها .

وترى الجمـــاجم فى التراب تماثلت

بعد العقـــول تمـــاثل الأصـــداف

وترى العيـــون القـــاتلات بنظرة

منهوبة الأجفـــان والأســـياف

وتراع من ضـــحك الثغـــور وطالما

فتنت بحـــلو تبســـم وهتـــاف

بينما يقول البكرى : « انظر الى هذه المقابر ، بالحاجر ، ففيها بلاغ ومعتبر ، لمن ادكر .. وخدكان يصان عن قبله ، تعيث فيه الأرضة والنملة ، وثغور كأنها أقاح ، أو حبب على راح ، تنثر فى البوغاء ، وتخلط بالحصباء ، وعينين كأنهما سنانان ازرقان فى عامل ، أو سحرا الملكين ببابل ، أضحيتا فى الحجاج ، كما قال العجاج .. » (١) .

وقد يزول عجبنا اذا عرفنا أن شوقى كان فى بعض الأحيان يقرأ مقطوعات من النثر ويتأثر بها فى شعره ، كما حدثنا عن ذلك صاحب كتاب « اثنا عشر عاما فى صحبة أمير الشعراء » أكثر من مرة ، واذا عرفنا أن قصائد شوقى متأخرة فى نظمها عن نثر البكرى فى كتابه « صهاريج اللؤلؤ » ، خاصة وقد كان للكتاب صداه البعيد فى تلك الأيام ، وعلى الأخص عندما شرح المجتمع فى مقاله عن « العزلة » .

واذا كان حديث البكرى فى مرثيته حديثا فلسفيا يثير الاعتبار أمام وادى العدم ، فحديثه عن شخصياته بوجه عام حديث يصور النفس أكثر مما يصور المظهر ، بمعنى أنه لا يعطى الملامح الخارجية للشخصية وتفردها عن بقية الشخصيات ، وانما يعمد الى نفسيتها يشرحها ويدقق فى خباياها . والواقع أننا نحتاج الى الناحيتين فى رسم الشخصيات فلا تكتمل الشخصية بالمظهر الخارجى وحده ،

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ١٩٦ ، ٢٠٣ .

ولا يستغنى التشريح النفسى عن الملامح الظاهرية . وكأن البكرى رأى تميز الانسان عما حوله من مظاهر الطبيعة بأحاسيسه وبمشاعره الباطنية وتفكيره فاهتم بها ، فى حين كان اهتمامه مركزا على الوصف الخارجى للوحاته التى نقلها عن الطبيعة فلم يحاول أن يغير جزءا من ملامحها ، بل نقلها لنا كما هى فى الواقع ، ولم يحاول أن يضفى عليها شيئا من أحاسيسه . ونحن حين نقرأ رسم الشخصيات لمعاصره قاسم أمين ، نجد الجانب الآخر هو الغالب ، حين يرسم لنا شخصية الجبان المتظاهر بالشجاعة ، أو شخصية النهم الأكول(١)، فيدقق فى الحركات ، حتى يخرج بصورة تستثير الضحك ، أما البكرى فيعمد الى الجانب الثانى كما قلنا ، وفى حديثه عن صلاح الدين الأيوبى نرى ذلك واضحا حين يقول : « ظهر فى الأمة سميذع نقاب ، كأنه قسور غاب ، قلب حول ، لو عادته نجوم الأفق لعاد ذو الرمح منها وهو أعزل . يعبس وهو راض كالسحاب ، يضحك وهو غاضب كالقرضاب ، عاجل العفو آجل الانتقام ، كأن الملوك صف وهو الامام ، طبيب بأدواء الأمم حذاق ، يعالج تارة بالسم وطورا بالترياق . واحد لم يختلف فى فضله اثنان ، نطقت بمآثره ألسن الخرسان والخرصان ، فقرت بظهوره القلوب ، واذا هو صلاح الدين يوسف ابن أيوب »(٢) .

ولن تتم لنا الفكرة عن كتابه « صهاريج اللؤلؤ » الا اذا عرضنا لمقالته الاجتماعية . ونحن نعلم أن محاولة الاصلاح الاجتماعى قد بدأت بصورة قوية أيام جمال الدين ، حين حاول مخض المجتمع المصرى ، وركز جهده ــ من هذه الناحية ــ فى الاصلاح الدينى باعتباره أساس الاصلاح الاجتماعى ، وتلقف الراية من بعده تلاميذه ،

---

(١) راجع فصل الكاتب المبدع ( قاسم أمين ) .

(٢) صهاريج اللؤلؤ ص ٢٧٢ .

فتحدث الكواكبى فى « طبائع الاستبداد » عن عيوب المجتمع وردها جميعا الى الاستبداد كما قلنا ، وتحدث النديم بعد الاحتلال فى « التنكيت والتبكيت » عن التفرنج وانتشار المباذل والخمور ، وكان قاسيا فى مقاليه « عربى تفرنج » و «مجلس طبى لمصاب بالافرنجى»، وتحدث قاسم أمين فى كتابه « أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ » عن اللامبالاة والكسل العقلى والأنانية المنتشرة بين الموظفين ، ولكن أحدا لم يمسك بيده مبضع الجراح كما أمسك به البكرى ، ولم يهاجم التفرقة الطبقية كما هاجمها البكرى ، فالحديث فى هـذه الفترة كان يصور « الفقر من مولودات الطبيعة » (١) ، ولكن حديث البكرى نكأ الجراح ، وكشف الطبقة المترفة التى الانتها النعومة حتى لم تعد تصلح لشىء ، وابتعدت فى أسلوب حياتها وتفكيرها عن المجتمع ، حتى أصبحت تتكلم لغة غير لغته ، وتعيش على قيم غير قيمه . طبقة معطرة فى مظهرها ، ولكن خباياها يترسب بها خـداع الجشع ورائحة التحلل . والى جانب هذا اللين المعطر الذى يقف أمام القصر وعربته الى جواره ، صورة الشيخ المهدم تفوح منـه رائحة العرق فى أرذل العمر ، وصورة اليتيم الجائع ، وصورة المرأة الشريدة ، وكثير من مظاهر الحرمان فى أبشع صوره وأذل ألوانه(٢) .

وكأن المجتمع كله أصبح بعد الاحتلال على وشك الانهيار ، فحتى الصديق لم يعد موضعا لثقة صديقه ، ولا أهلالها ، وئدت الشجاعة وكثر الخداع والملق ، والتطالب على المنافع ، لولا تلك القلة المؤمنة التى تجاهد ولا تمل الجهاد . « وأما الأخلاء ، والصحب والسجراء ، فحسبك من رجل عون فى كل أمر لم ترده ، ونصير فى كل مطلب لم تقصده ، فان عرض لك بعض الحاج ، فالعلوى يسترفد الحجاج ،

(١) راجع منتخبات أمين حداد ص ٨٧ .

(٢) راجع فصل « الرحيل » .

ماء ، يتلون بلون الاناء ، ونيلوفر يدور مع الشمس فى الاصباح والامساء ، ان جددت فاليك ، أو شقيت فعليك ، مدح مع المادح ، وقدح مع القادح ، أجسام متدانية ، وقلوب متنائية ، ان كان خبر سوء فحماد الراوية حدث عن البحر ولا حرج ، مئذنة فى ظاهر مستقيم وباطن معوج .. رحماك ان عزلة بين كرم وأعناب ، ودواة وكتاب ، لهى الجماعة والأنس ، للنفس ، وان اجتماعا بكبير يبغض ويزار ، أو رئيس لا يجد نفسه فى الليل ولا تجده فى النهار ، أو عدو ليس من صداقته بد ، أو حقود ذله أظهر منه الود ، أو حسود ملق ، كالذبالة يضحك ويحترق ، أو جاهل متعاقل ، أو متفصح وهو باقل ، أو صغير به كبر ، أو خدين فيه غدر ، لهو وأيم الله الوحشة والوحدة ، والسلولية والفدة » (١) .

واذا كان البكرى قد هرب من الواقع المر الى عزلته بالريف ، فقد وجد العزلة لا تحقق الأحلام ، فعاد الى الجهاد مرة ثانية أشد التصاقا بالواقع ، ولكن بقيت لنا من عزلة تلك الصورة الداكنة التى رسمها للمجتمع فى مرحلة من مراحل تطوره ، والتى لم يقدر البكرى على محوها . وكان أبشع الجوانب فى صورته ، هو التفرقة الطبقية التى سلط عليها الأضواء وعرضها على الناس فى متحفه ، علهم يكتشفون أنفسهم وطريقهم ، طريق الثورة وحتمية الحل الاشتراكي . فالبؤس نفسه لا يولد الثورة ، والفقر حين يصاحبه الجهل والمرض لا يدفع صاحبه الى تغيير الأوضاع ، ولكن الاحساس بالفقر وبالبؤس ، والتفات البؤساء والمحرومين الى واقعهم واكتشافهم لأنفسهم هو الذى يولد فيهم الأمل ويدفعهم الى الخلاص . يقول زكى مبارك : « حدثنى أحد الأدباء أن البكرى اغتصب وصف ( وابور البر ) من المرحوم أحمد مفتاح وأعطاه دينارين ، وأن المرحوم

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ١٤٢ ، ١٦٢ .

تردد بين الرفض والقبول ، ثم وجد الدينارين انفع وأبلغ فتنازل طائعا عن وصف ( الوابور ) ليضمه البكرى الى رسالته عن رحلة القسطنطينية » (١) . والواقع أن البكرى الذى رأيناه ، ليس هو الذى شبه « الدابور » بالثعبان ، فسواء أصحت هذه التهمة أم لم تصح ، فالبكرى فى نثره عامة هو الفنان المصور ، وهو الثائر المؤمن بحتمية التغيير .

ويقول عمر الدسوقى : « ولكنك تتخيل كأنه فى صراع بين حاسته الفنانة وبين حنينه للقديم . لقد حفظ كثيرا من امثال العرب وحكمهم وشعرهم ، وأحاط بغريب اللغة احاطة عالم ، وقد حشدها حشدا فى كتابه صهاريج اللؤلؤ .. كأنه يتباهى بكثرة ما وعت ذاكرته من ذلك »(٢) . ولكن الحقيقة كما قلنا انه استطاع أن يحيل الأمثال والحكم الى ملك خالص له ، ولم تضطرب فيها شخصيته الفنية ، ولم تبتلعه الأمثال الموروثة . واكبر الظن أن الصراع بين حاسته الفنانة وبين حنينه للقديم ، لم يكن صراعا بالمعنى المفهوم للكلمة ، فقد كان بعض كتاب العصر يرجعون باللغة الى ما قبل العصر العباسى ، أو الى عصور الصحة والسلامة والبراءة من فساد العجمة ، فنحن محتاجون لتذوق نثر البكرى وصوره الى أن ننفض غبار الزمن عنها وندرك مدلولات الكثير من غريبه ، وهذا هو السبب فى قول العقاد عنه « ان الصنعة أفسدت الطبيعة » (٣) . والواقع أنه لم تكن هناك صنعة وانما هى أدوات قديمة استطاع أن يرسم بها صوره الجديدة المعاصره ، ولكنك تحس بآثار تلك الأدوات الموروثة من عهد بعيد تترك ظلالها على صوره . أما السجع فقد بدأ يتراجع فى هذه الفترة تحت وطأة الهجوم المستمر لكتاب العصر .

---

(١) البلاغ ١٩٣٢/٨/١٨ .
(٢) فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٣٥٨ وما بعدها .
(٣) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٦١ .

ومن الغريب أننا نجد كاتبا كالشدياق يهاجم السـجع بقوله : « السجع للمؤلف كالرجل من الخشب للماشي ، فينبغي لي الا أتوكأ عليه لئلا تضيق بي مذاهبـه » (١) . ولكنه يتمسك به في كثير مقالاته التي جمعها في كتابه « الساق على الساق » . ومن الواضح أن مهاجمي السجع كان أكثرهم من كتاب الصحف الذين اضطروا بحكم عملهم الى التخلص منه ، خاصة اذا كانت المقالة تتعلق بالأخبار والأحداث ، وقد كان البكري في خطاباته ودراساته يؤمن بأن السجع لا يصلح لصياغة الخبر وسهولة الوصول للفكرة فتخلص منه ، ولكن الأمر على خلاف ذلك في النثر الفني ، خاصة اذا كان الكاتب يملك ناحية اللغة ، ولا تضيق به مذاهبه كما يقول الشدياق ، فهو أشبه بالقافية في الشعر ، فالشاعر القادر لا تعوقه القافية عن التعبير ، وحتى في الشعر الحر ، نجد الشاعر يعمد الى القوافي الداخلية للتنغيم ، وعلى الأخص حين يكون تعبير الشاعر بالصور ، فهو في حاجة الى الموسيقى التصويرية . وهكذا كان الشأن في نثر البكري فهو مصدر يحتاج الى نفس الموسيقى التصـويرية ، لأن الايقاع يؤثر في السمع والصورة تؤثر في البصر ، واستمتاع أكثر من حاسة في هذا المجال الفني الخالص له قيمته في تعدد نواحي التأثير ثم ترسيبه في النفس ليبقى الى أمد طويل .

---

(١) الساق على الساق ص ٥٢ وما بعدها .

# الشاعر

كان الصراع الأدبى كما قلنا يدور فى مصر أواخر القرن الماضى واوائل هذا القرن نتيجة الاحتكاك بين الثقافة الغربية والموروث الشرقى . وكان المقتطف كما كان الهلال يحملان لواء هذه الدعوة فى كثير من المقالات التى ترسم بداية الصراع . ولكن النماذج التى أمام شعراء هذه الفترة كالبارودى وعبد المطلب والبكرى وشوقى هى النماذج العباسية التى بدأت المطبعة العربية تطبعها . ومن الحق أن هذه النماذج كانت تصور عصرها أروع تصوير ، ولكن هل يستطيع الشاعر الحديث الذى عاش على هذا الغذاء الفنى ، داخل ذلك الاطار الثقافى أن يخلص من تأثيره ؟ وهل يستطيع الشاعر المؤمن بالمحافظة على قداسة الموروث أن يطور فى فنه اذا ما قرأ شيئا من الشعر الغربى ؟ بل هل يستطيع الشاعر الذى عاش فى هذه البيئة وفى تلك الفترة أن يجابه الناس بالجديد دون أن يخشى عواقب الطفرة ؟

كانت الأصوات تتعالى من حين الى حين منادية بالدعوة الى التعبير عن العصر ، فالشاعر العربى فى العصور القديمة كان يصف الأماكن التى يراها والتى له فيها ذكريات ، وكان يبدأ بالحديث عن الطلل لأن طبيعة حياته التى تقتضى الرحيل الى مساقط الغيث ، كانت تقتضى أيضا الفراق الأبدى الذى كتب عليه أن يتجرعه بعد الرحيل ، فليس له الا تلك البقايا من الديار يفتتح بمناجاتها حديثه، كما يفتتح المرء حديثه بأمر مقدس . وهو فى مديحه يشبه الممدوح بالسحاب بالمطر وبالبحر ، لأن المطر سر الحياة فى الصحراء ، وان

كان الرجل الحضرى الذى يرتوى من الأنهار ويعيش على التجارة لا يدرك تمام الادراك نعمة المطر ، بل لعله يتوقعه بشىء غير قليل من الضيق ، وهو فى غير ذلك من مضامين شعره مرتبط أيضا بالبيئة ، فالفخر الذى يأنف منه الذوق الحضرى ان لم يكن فخرا عاما بالوطن مثلا ، كان غرضا هاما من أغراض الشعر قديما لقوة العصبية القبلية . ولكن عصرنا الحديث تبدلت فيه القيم وتطورت فيه الحياة الاجتماعية فما بالنا نرتبط بالقديم ارتباطا جعلنا نعيش بأجسامنا فى القرن العشرين وبخيالنا فى القرون الاسلامية الأولى ، بل قبل الاسلام بقرون ؟ ألم يكن الشعر مرآة لحياة العرب من قبل ، فما بال مرآتنا لا تعكس الا صورهم وحياتهم ؟

كان الحديث عن مضمون الشعر يدور على صفحات المقتطف والهلال وكان كتاب هذه الأحاديث بعض ذوى الثقافة الغربية الذين يقارنون بين الأدب هناك وبين أدبنا ، فيجدون أن مرحلة النهضة الأدبية بحاجة الى دفعات قوية ، ويجدون الحديث هناك يدور حول المضمون وحول الشكل ، وهكذا التفتوا أيضا الى شكل القصيدة من حيث مظهرها الخارجى ، فالى أى حد ينبغى أن يلتزم الشاعر بالقافية الواحدة ؟ ان الرتابة الموسيقية ثقيلة على القارىء ، وهى فى نفس الوقت قيد أثقل على الشاعر ، تضطره بحكم تقيده بالوزن الى أن يحيد عن فكرته الى الوادى الذى تشاؤه القافية لا الذى يرغب فيه الشاعر ، ومن أجل ذلك ظهر فى الشعر الأوربى لون حر فى قوافيه هو الشعر المرسل ، وهكذا أيضا ينبغى أن يسير الشعر العربى فى نفس الطريق (١) .

والقارىء لشعر البارودى يجد فعلا أن كثيرا من قصائده كانت متأثرة بالمثل الفنية الموروثة فى القصيدة من حيث مضمونها وشكلها .

---

(١) راجع المقتطف ١٨٩٢ ( الشعر والشعراء ) ص ١٥٠ ، ١٩٠٠ ( بلاغة العرب والافرنج ) ص ٢٩٣ ، الهلال ١٩٠٤ ( الصنعة والترصيع ) ص ٥٦٨ .

فذكر الأماكن العربية فى الجزيرة والتغنى بالأطلال فى مطالع القصائد والحديث الطويل عن النوق واستمطار الغيث يتردد فى شعره مرة ومرات ، بل ان كثيرا من صوره وتشبيهاته مستمدة من اطاره الثقافى لا من رؤاه المعاصرة . واذا كان البارودى قد نفى فى أعقاب الثورة العرابية ، فقد استمرت مدرسته وكان عبد المطلب خير نموذج يمثلها ، ولكن عبد المطلب كان بدويا ، فهو أصيل فى حديثه عن كثير من تلك المضامين (١) ، ولكنا نجد شاعرا آخر لعله لم يرتبط بالموروث ارتباط بقية الشعراء ، بل ارتبط بالثقافة الفرنسية والفكر الغربى — يحفر رافدا جديدا فى تيار الشعر العربى الحديث ذلك هو مطران الذى يعتبر رائد المدرسة الابتدائية ، وقد أحدث ديوانه الأول الذى ظهر عام ١٩٠٨ ضجة فى الأوساط الأدبية .

فما موقف شاعرنا البكرى من هذين الاتجاهين ؟ لم تنس بعد الاتجاه الذى اتجه اليه فى نثره من قبل ، فقد كان مصدرا لعصره بأدوات قديمة ، ولكنه كان يلقى بتلك الأدوات بعيدا فى خطاباته ودراساته . وبمعنى آخر أن الموروث المقدس كان يتغلب على الجديد الذى رآه فى أوربا وفى قراءاته للأدب الغربى ، ولكن شعره لم يكن قادرا على أن يخلو من ظلال هذا الجديد . وفى نفس الوقت كان شوقى يحاول التجديد فى رفق واحتياط حتى لا يجابه النـــاس بالجديد ، فهما من مدرسة واحدة ثقافتها العربية عميقة وثقافتها الغربية واسعة مع اختلاف هنا أو هناك فى العمق أو السعة ولكن البكرى كان يشده الموروث بينما كان شوقى يجذبه الجديد فيحتاط فى محاولاته .

ومن هنا وجدنا شعر البكرى بصورة عامة تعبيرا عن مشاعره فى مواقف خاصة كالمديح أو الوصف أو الرثاء أو الغزل أو الحكمة ،

---

(١) راجع فصل « الشعراء المحافظون » فى تطور الشعر العربى فى مصر .

وهى أهم الأغراض التى نظم فيها على قلة نظمه . وما دام الشعر تعبيرا عن تجربة وجدانية ينفعل بها ، فهو تعبير انفعالى لا يلجأ فيه الى محفوظه من الغريب ، بقدر ما يلجأ الى الوضوح والابانه ، لأن العقل يتحكم فى النثر أكثر مما يتحكم الانفعال ، والانفعال يتحكم فى الشعر أكثر مما يتحكم العقل ولحظات الأنفعال لاتدع مجالا للتفكير فى المحفوظ والغريب . يقول مطران (١) : « أما نظمه فمتين ، وله فيه نظرات الى زمانه ، ولكنها اشبه شيء بنظرات موجهة من عهد عهيد الى عهد جديد . ليس له فكر عام ثابت يتجه اليه ، ولو التفاتا ، فى أكثر ما ينظمه ، كما يلتفت حافظ الى اجتماعياته ، وشوقى الى أخلاقياته ، فهو يقول اجابة لدعوات الطوارىء ، ويلبس لكل حالة لبوسها .

على أننا انما أشرنا الى انتفاء الجامعة التى تجمع ، ولو بصلة ضعيفة ، بين أقسام شعره لأسباب منها : أن السيد شاعر مباه بالشاعرية عن حق ، وكان فى وسعه أن يحل فى الرتبة الأولى من شعراء زمانه ، لو أنه أراد أن يكون من زمانه ، ولكنه انتهى الى عصر آخر ، فلم يبلغ ولن يبلغ هو ولا سواه أدباء ذلك العصر لأنهم كانوا يأخذون اللغة رضاعا وفطاما ، وعادة يقظة ومنام وعشرة ومعاش ، ومنها أن السيد طالع شعر الأفرنج ، وعلم منه المهمة العليا التى ينتدب لها الشاعر لا بين أمته منفردة ، بل بين الأمم جمعاء أحيانا ، ومنها أن سماحته أدري بأن الشعر فى بلد محتاج الى التربية والتأديب كمصر ، واذا لم يكن الا طوائف أسطر ترسم مقسومة الى اشطر ففضل الشاعر رب المقاصد والمعانى على الوزان مقطع العروض ليس بالكبير ، وهو اذن بما يقتضيه من المنزلة والتجلة غير جدير .

---

(١) مختارات المنفلوطى ص ٧٦ ( الطبعة الثانية ) .

هذا وللسيد من المقاطيع الشعرية مالا يدع فى معناه مقالا لقائل ، ولا مجالا لجائل ، فلو جارى فى كثيره قليله لأصبح قطبا من أقطاب الزمان فى الجمع بين البلاغة والبيان ، أما وطريقته العامة ما وصفناه ، فالكلمة التى تغلب فى وصف شعره أنه فى القرن الرابع عشر المحمدى شعر البعثة الجاهلية . »

وقد يكون فى هذا الرأى بعض الحق ، ولكنه ليس كل الحق ، فمن المؤكد أن منهج البكرى يختلف عن منهج مطران وأن البون بينهما بعيد ، ولكن من المؤكد أيضا أن شعر البكرى ليس شعر الجاهليين وانما هو شعر المدرسة المحافظة على النسق الموروث فى النظم ، وان كانت هذه المحافظة لا تخرجها عن شخصيتها التى تعيش فى مرحلة الصراع بين الجديد وبين القديم . فهو ما يزال يستفتح القصيدة بذكر دور مية واللوى وذكر الفراق (١) ، ولكن ألم يصنع ذلك شوقى وغيره من معاصريه ؟ (٢) الأمر اذن لا يرجع الى البكرى بصورة خاصة ، بقدر ما يرجع الى تلك المدرسة الشعرية التى تأثرت بالقديم فى كثير من ملامحه .

وعندما نهم بقراءة مدائحه ندرك أن المديح فن استهلكه الشعراء من قبل فلن نتوقع أن نرى جديدا من حيث المديح الخالص ، خاصة اذا مدح الخديو ، فهو فى مديحه له لا يستجدى ، ولا يطيل ضنا بكرامته وهو المفامر بشخصيته وبنسبه وبشاعريته ، وانما هو واجب يؤديه كما عرفنا من سيرته ، فهو يستر هنا ضعف الاحساس بالزخارف اللفظية فى كثير من الأحيان . وها هو ذا يبتدىء بذلك النسب الذى أشرنا اليه ، ثم

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٨٤ ، ١٦٥ .

(٢) انظر الشوقيات جـ ١ ص ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ، ١٢٥ ، ٢٤٠ .

يعرج على وصف السفينة التى أقلته الى مصر ، وقد عدل عن وصف الناقة التى كانت توصل الشاعر الى الممدوح وتشق به الصحارى ، الى السفينة التى أوصلته الى مصر وشقت به عباب البحر ، وهو فى هذا الوصف متردد بين القديم والجديد .

أخوض عبابا فوق فلك تظنها
على سروات الماء قصرا مشيدا
تهاوى به مثل العقاب وتارة
ترقى من الأمواج صرحا ممردا
وترزم حينا فيه حتى كأنها
تجوز على العلات حزنا وقرددا
خضارة مرآة السماء فلم تزل
ترى وجهها فيها وان بعد المدى
فان أشرقت فيه الغزالة خلتها
كعين بجوف البحر تقذف عسجدا
وان لاح تحت الماء بدر رأيته
كماوية يعلو على متنها الصدا
كأنا وقد جزنا لمصر فرنجة
حنيف تخطى من ضلال الى هدى
نؤم بها العباسى فى دست ملكه
كما أم سفار على الجهد موردا (١)

فمن الواضح أن نسيج الشاعر عباسى ، والجو العام للأبيات نشتم منه روائح العباسيين أو من سبقوهم فارزام السفينة من ارزام الناقة ، وتشبيه هويها بهوى العقاب قديم ، ولكننا أمام سفينة تقصد مصر والعباس ، وأمام لمحات تصويرية

---

(١) ضهاريج اللؤلؤ ص ١٦٨ .

جديدة ، كتشبيه البحر بمرآة كبيرة ترى فيه السماء وجهها ، وتشبيه الشمس فوق البحر بعين تقذف عسجدا ، والبدر بصورته الفائمة فوق الماء كالمرآة الصدئة ، واجتياز أوربا الى مصر ؛ كما يتخطى الحنيف الضلال الى الهدى . وربما كان هذا الاحتفال الشديد بالتشبيه نوعا من التأثر بابن المعتز العباسى كما يقول العقاد (١) . فكل صفة مهما بلغت من الوضوح لابد لها عنده من تشبيه يؤكدها ، كأن التشبيه مقصود لذاته (٢) .

فاذا ما تخلص الى مديح « العباسى » لم يزد عن وصفه بالحلم والحزم والكرم والشجاعة وبعد النظر ، وهى أوصاف استنفذت صورها حتى احترقت ، وقد أتى شارحا « صهاريج اللؤلؤ » بنماذج كثيرة من الشعر العباسى فى تلك الصفات . وقد حام حول هذه الأوصاف نفسها عندما مدحه مرة ثانية فى قصيدته عن مصر فلم يزد على أن قال :

ملك بضوء جبينه تسقى البلاد وتمطر
السيد المحصن العلا والجوهر المتخير
العدل مما ينشر والمجد مما يدخر
خلق حوى كل الفضا ئل فهى عنه تؤثر
جود وبأس فى الورى بهما يخص ويشهر

وله فى مدح السلطان « عبد الحميد » قصيدة واحدة مدحه فيها بما قام به من الدفاع عن الاسلام والمسلمين ، ثم انتقل الى وصف المعركة ، فأعطانا صورة الجيش الذى ملأ الأرض والتوى فى طرقها كما تلتوى الغدران فى مسالك الجبال ، ثم التقى الجيشان فكان كل فارس مسلم أشبه بالنسر ، وكل رومى فريسة

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٧٥ .
(٢) فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٣٧٠ .

فى يده ، ثم يلح على مخيلته فلا يخرج منها الا بصورة ترددت من قبل ، صورة الدخان وقد ملأ الجو والنار تلمع من حين الى حين كما يلمع البرق والصواعق وسط السحب الدكناء ، ثم يلوح النصر فى النهاية . ومن الواضح أن صورته السابقة فى انتصار نابليون التى رسمها نثرا أروع من هـــذه بكثير ، لأنه انفعاله بالصورة التى رآها فى متحف فرساى صبغ لوحة بالصدق الفنى ، أما هنا فان اللوحة من عمل المخيلة ، فهو لم ير الموقعة ولا شاهد صورتها وانما اعتمـد على المخيلة وبها حشد من صور المواقع القديمة فعنصر الصدق الفنى هنا يكاد يكون مفقودا .

أما ويمين الله حلفـــة مقســم
لقد قمت بالاسلام عن كل مسلم (١) ...
أسال فجاج الأرض بالجنـــد يلتوى
كأغـــدرة الوديان فى كل مخـــرم
فمن كل مغـوار ترى الـــروم دونه
طرائد وحسن بين أظفـار قشعم ...
عليـــه دخان يقطـر الجمـر بينـه
كأســـود دجن بالصـــواعق يرتمى

وليس غريبا أن يمدح البكرى السلطان « عبد الحميد » بدفاعه عن الاسلام ، هذا المديح الذى أنكره عليه بعض الكتاب (٢) ، فهو لم يطوح بالاسلام كما يقولون ، ولكنه دافع عنه بقدر ما يملك وما يطيعه ، فهو خليفة المسلمين أولا وهو الداعى للجامعة الاسلامية ثانيا ، وقد التفت حوله أفئدة المسلمين فى هذه الفترة وانبعث

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٥٠ .

(٢) فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٣٦٧ .

شعور دينى جارف يربط بين المسلمين ، ومن هنا وجدنا الشعراء جميعا يمدحونه بدفاعه عن الاسلام والمسلمين عن عقيدة لا عن تزلف ، فكثيرون لم يروه ولم ينالوا شيئا من عطاياه مثل احمد محرم واحمد الكاشف وغيرهما ومع ذلك لهجت السنتهم بالمديح . « وعبد الحميد » هو الذى وقف فى وجه المطامع الصهيونية فى فلسطين خلال فترة حكمه حينما اغروه بأموالهم لسد العجز فى الخزينة فقال لهم لن تنالوا فلسطين الا على أشلائى . ولم يشوه سيرته الا اليهود ، والاستعمار البريطانى الذى حارب الدعوة للجامعة الاسلامية بكل قوته . ولم تلغ الخلافة ويتمزق شمل المسلمين الا بعد خلعه (١) .

وله قصيدة فى رثاء والده بعنوان « أبى » عارض فيها المتنبى حين رثى جدته . ويبدؤها بالدعاء لقبره بالسقيا كما كان يصنع الشعراء القدماء ، ومن الواضح أنه قالها فى وقت متأخر لأن والده مات وهو طفل صغير ، ومن أجل ذلك لا نجد مرة أخرى حرارة الانفعال وانما نجد عمل المخيلة ومديح الميت بالكرم والحسب والتدين والعلم والفصاحة . والمعارضة فى حد ذاتها دليل على انكسار حدة الانفعال وعنف التجربة .

على أن البكرى فى مقطوعاته الصغيرة شاعر حقيقة ، وهى مقطوعات فى الحكمة ، والحكمة (٢) من فلسفة الخاصة ، كما أن المثل من فلسفة العامة . ومن الواضح انها خلاصة تجارب ونظرات فى المجتمع . فمن ذلك قوله عن سعى المرء فى سبيل المجد ، وما قد يعترضه من صغار العقبات ، ولكنها تكون كافية لتوقفه عن المسير :

---

(١) راجع الاتجاهات الوطنية ( فصل الجامعة الاسلامية ) وحركة البعث ( فصل الحياة السياسية ) .

(٢) صهاريج اللؤلؤ ص ٢٠٨ وما بعدها .

وفى وسعة المرء نيل العلا وقد يمنع المرء ما يمنع
صغير من الأمر يلهيه عن بلوغ العظائم أو يقطع
كعين تحيط بهذا الوجود جميعا ويحجبها اصبع

ثم يقول فى قطعة أخرى ، ان غضبة الأحمق فى لسانه وسبه وافحاشه ، ولكن غضبة العاقل فى فعله ، فاذا ضاق صدره بانسان أسكت لسانه واستعمل عقله ، وكأنى انظر الى قصته مع حفنى ناصف فى قوله :

ان أحرجوا صدرك لا تنبعث
للقذع بالفحشاء أو مثله
فغضبة الأحمق فى قوله
وغضبة العاقل فى فعله

وله مقطوعتان يصور فيهما الجهل واثره فى استبداد الحكام بالرعية ، فليس للحاكم حول ولا قوة بغير الناس ، فهم اشبه بصانع صنم ثم يرجوه ويخشاه ، ويرى فى احداهما أن الظلم عقوبة الجهل :

لا تعجبوا للظلم يغشى أمة
فتنوء منه بفادح الأثقال
ظلم الرعية كالعقاب لجهلها
ألم المريض عقوبة الاهمال

ويرى العقاد انه تأثر فى ذلك بقول أبى العلاء :

« ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها (١) »

واذا جاز أن يكون البكرى قد تأثر فى المقطوعة الأولى بقول

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٥٨ .

ابى العلاء ، فلم يتاثر فى الثانية بشعر المعرى ولكنه تأثر بقول فولتير ( الظلم الواقع على أمة ، عقاب لها على جهلها ) (١) .

ويصور فى قطعة من هذه الحكم المتناثرة ، ظهور الشعرة البيضاء وما توحيه من بداية النهاية ، وكأنها أول خيط من خيوط الكفن تنسجه الحياة بعد ذلك ، حتى اذا تم نسجه لبسه صاحبه ، فهى تقف بنا على باب الشيخوخة ، وتجعلنا نتأمل الحياة تأملا عميقا كلما تكاثر المشيب ، وقد صور « شوقى » من بعد تكاثر المشيب وشبهه بالحريق يحيط بخيط الحياة الواهى ولكننا نغفل عنه (٢) .

وقد سبقهما « ابن الرومى » حين شبه خضابه للمشيب بملابس الحداد ، يلبسها حزنا على وداع الشباب . ولكن العقاد حين قارن بين البكرى وابن الرومى فى هــــذا المعنى ، رأى فى قول ابن الرومى تهكما جائزا ولــكن قول البكرى بعيد حيث لا يخطر على البال أن شعرة الشيب الأولى خيط من خيوط الكفن لا على سبيل الجد ولا على سبيل التهكم (٣) . وهكذا كان شأن النقاد القدماء فى تخطئة المعانى ، فهم يقيسونها قياسا منطقيا ، من حيث ينبغى أن يكون الاحساس هو المقياس الحقيقى .

واذا تركنا هذه المقطوعات وجدنا له بعد ذلك قصيدة فى وصف مصر واخرى فى السياسة وان عرجت على مديح العباس دون جديد فى فن المديح نفسه ، أما الثالثة ففى الغزل وهى التى سماها « ذات القوافى » .

وقصيدته فى وصف مصر (٤) ، قالها وهو بأوربا ، يحس بالغربة ،

---

(١) المستقبل للاسلام ص ٣٣ ، وقد اقتبس البكرى نص فولتير فى كتابه .
(٢) فى بيته : حريق أحاط بخيط الحياة تعجبت كيف عليهم قبى .
(٣) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٥٩ .
(٤) صهاريج اللؤلؤ ٨٤ وما بعدها .

ومن أجل ذلك يتعانق الاحساس الصادق بالمخيلة ، يغريه التشبيه فيندفع وراءه ، ولكن الأبيات حقيقة فواحة بزفرات الحنين :

أم قــد ذكرت بطاحهـــــــا     وهى البســـــــاط الأخضر
والنيـــل فى لباتهـــــــا     عقـــــد يلــوح مجـــوهر
وغصـــــــونها لـــــدن تميـــــد بمـــــا ثقـــل وتثمــر
فــكأنهن ولائـــــــــد     فى حليهـــــــا تتــكسر
هى مثـــــل لوح صــــــور الفردوس فيه مصـــــــور
يا جنـــــة يجنى الجنى     فيهـــا ويجـــرى الـكوثر
أنا شـــاعر فى وصـــفها     لـكنها هى أشـــــــعر

فهو هنا يصور البساط الأخضر رمز مصر الخصيبة ثم يعود فيحلى جيد مصر بعقدها الفريد ، بالنيل ، وفى هذه الخضرة المترامية تتعالى الأشجار وغصونها محملة بالثمار أشبه بالصبايا يتكسرن فى مشيهن وهن حاليات ويحس أن صورته لم تعبر عن كل أحاسيسه فيعود ينظر الى صورته والى صورة مصر فيشبهها بلوحة صورت فيها الجنة ثم تتمثل له جنة حقيقية فيناديها علها تسمع نداءه .

ويستمر فى القصيدة ، فنراه فى بعض أبياته يقتفى أثر البحترى فى وصف ايوان كسرى حين يعرض لوصف قصر عابدين والصور التى تزينه وقد مثلت عليها الوقائع الحربية ، كما لاحظ ذلك عمر الدسوقى (١) من قبل :

فتـــرى الوقائـــع منظـرا     وكأنمـــا هى مخبـــــر
والجنـــد تخطـــر فى الحـــديد فدارعـــون وحسر
والخيـــل بين عجاجهـــا     تخفى وحينـــا تظهـــر
وتظن أحيـــــــاء به     فتمس كيمـــا تخبـــر

(١) فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٣٧٢ .

ثم يصف نساء مصر وقد خرجن للنزهة بين أرجاء الجزيرة فى مركباتهن ، فصور المركبة بالمشكاة والحسناء فيها بالمصباح ، وينتقل بناظريه وخياله بين ربوع مصر فيذكر الجيزة ويتوقف عند حديقة الحيوان ، ولكن انفعاله كان قد هدأ فيظهر عمل المخيلة فى تأليف التشابه :

فيها النعامة والحبارى والمها والقسور
كسفين نوح اظهرت ما كان فيها يضمر
وجداول كسبائك بسنا الأصيل تعصفر
ماء كبلور يذوب وأدمع تتقطر
وعليه من نسج الصبا درع هناك ومغفر

وقد تأثر فى هذا الوصف بقول « ابن المعتز » :

غدير ترجرج أمواجه
هبوب الرياح ومر الصبا
اذا الشمس من فوقه أشرقت
توهمته جوشنا مذهبا

وينتقل الى وصف المتحف وقد حشدت فيه أجساد الفراعنة ، فيستثيره المنظر وهو يفكر فى الموت والحياة ، فيرى الدنيا مسرحا تمثل فيه رواية الحياة والليل ستارة المسرح ايذانا بانتهاء فصل وابتداء فصل جديد ، والشمس نور ذلك المسرح والناس هم الممثلون ، هذا يمثل جنديا وذاك سوقة ، وثالث فى دور الملك ورابع فى دور التابع ، ثم ينتهى المسرح ويخلع هذا تاجه وذاك ملابسه ، فاذا بهم جميعا قد تساووا .

نشرت به أمواتهم فكأنما هو محشر
رمسيس أين مطارف الديباج أين الجوهر
نم فى رقاد ليس فى أحلامه ما يذعر

فالمـــوت نوم أكبـــر والنـــوم مـــوت أصـــفر
دنيـــا تشـــابه ملعبـــا والليـــل ســـتر يســـتر
الفصـــل يضـــحك والثريا الشمس فيـــه تنـــور
جنـــد هنـــاك وسوقة ومتـــوج ومســـخر
فاذا طـــرحت ثيابهـــم ســـاوى الأعـــز الأحقـــر

ثم ينتقل الى ذكر الأزهر وهو يحفل بالعلوم كما تحفل خلية النحل بالجنى ، والى الأزبكية ويلتقط لهـــا عدة مناظر ، منها منظر الشمس وهى تلوح بصفحتها أشبه بالحسناء تنظر فى مرآتها ، ويمر أمامه فى شريط الذكريات ، منظر القلعة بعد ذلك وقد قامت مآذنها وامتدت عالية كالحق لا ميل فيه ولا عوج ، وتتعدد الصور وتتكاثر فيهتف من أعماقه :

فى كل ركن مخبـــر وبـــكل ســـفح منظـــر

ولكن هناك من الصور ما توارى وخبأته يد الزمن وأصـــبح رؤيا نائم وان بقيت الأهوام شاهدة شهادة حق لا تنكر ، فالمجد خالد لا تزول أناشـــيده . وما زال يتـــردد فى أسماعنا نشـــيد الانتصار حين تحولت مصر الى مقبرة للغزاة يوم جاءها الصليبيون فأسر ملكهم . وهو مؤمن بالمستقبل يحدوه الأمل فى قدرتنا على أن نعيد أمجادنا ، مؤمن بالتطور وبميلاد شعب جديد فى مصر . وهكذا نلاحظ فى هذا الوصف الممتع الطويل قدرة الشاعر الكبيرة على التصوير مثلما رأيناها من قبـــل فى نثره ، ولا نلمح هدوء الانفعال الا حين تلح عليه المخيلة بصور الماضى .

أما قصيدته السياســية ، فقد أخفى مقصده تحت عنوان « فصل الربيع » ثم عاد فأخفاه ثانية عندما مدح الخديو فى نفس القصيدة ، ولكن مقصده واضح ، فبلاده التى أحبها ، قد أصبحت مطمعا لكل مغامر غريب ، فالسلطة فيها للخـــديو الغريب ،

أو للاستعمار الغريب ، بل لكل أحد من دون أبنائها ، ففى كل يوم يسمعون وعيدا ويرون حدثا لأن المستبدين لا يهمهم هذا الشعب فى كثير أو قليل ، ولكن الشعب لا يرضى الذل ، فهو صاحب الأمجاد الخالدة ، وليس من سبيل الى خداعه عن آماله ، ولكن ما السبيل الى تحقيق تلك الآمال ؟ ان الضغط يعقبه الانفجار ، فطريق الثورة اذن هو الطريق الوحيد الذى ترفرف فى نهايته أعلام السيادة .

| | |
|---|---|
| يا زمنا حدثانه | ما تنتهى فتبتدى |
| احس قومى أنهم | احرار غير أعبد |
| ليست لهم بلادهم | وهى لكل أحد |
| فهم لذاك أصبحوا | فى مبرق ومرعد |
| لم يرتضوا بدلة | كالعود أو كالوتد |
| او بهرج شيد على | مستقبل مهدد |
| ككفن مزركش | من فوق ميت ملحد |
| كم شدة عادت على | أصحابها بالسؤدد |
| كالعود أحيا نشره | احراقه فى الموقد |

ولعلنا لاحظنا بعد كل هذا أن الغريب فى شعره قليل قلة نادرة على عكس نثره ، ولاحظنا أن للمخيلة عملها وتدخلها الكبير فى نثره على عكس شعره الذى لم تعمل عملا فيه الا فى القليل النادر ، أما أكثره فهو صادر عن الاحساس الصادق ، ولعلنا لاحظنا أيضا أن شعره قليل اذا ما قورن بنثره ، ويعلل لذلك العقاد حين يقول : « كان يكتب كثيرا ولا ينظم الا عرضا فى أثناء الكتابة أو فى خاطرة عابرة قلما يسترسل معها الى الاطالة ، فاتسعت له فى النثر مجالات السليقة الشاعرة ، وظهرت فيه لفتات الشاعر وأغراضه ، وخصائص ذوقه وفكره ، ولعله لو أطال النظم كما أطال النثر لكثرت موضوعاته وتساوت فى هذه المزية قصائده ومقاماته ، وربما

كان البكرى ممن يرون كما كان يرى الأقدمون ( أن الشعر أسرى مروءة الوفى وأوفى مرءوة السرى ) وأن الانقطاع له والاكثار منه لا يجملان بصاحب المقام الدينى والحسب العريق ، وليست الكتابة كذلك عند أصحاب هذا الرأى ولا سيما الكتابة التى تصاغ فى قالب الرسائل بين الأكفاء ولا يطلع عليها القراء الا اذا طالعهم بها أديب من محترفى الصناعة ، ليتولى هو شرحها وتقديمها الى الناس كما جرى فى كتاب ( صهاريج اللؤلؤ ) ديوان البكرى الجامع لنخبة نثره وشعره . ويؤيد ذلك أن البكرى طبع كتابه ( أراجيز العرب ) وشرحه وقدمه ... فهو يتقدم هنا بنفسه ولا يحتاج الى شارح غيره لأن التأدب بحفظ الأشعار ورواية الأخبار مما يطلب من الأسرياء فى الزمن القديم ، ولأن التأليف والتفسير فى الأراجيز والمختارات أشبه باملاء الدروس منه باحتراف الكتابة ، أما اذا ظهر له كلام منثور كما ظهر فى ( صهاريج اللؤلؤ ) فالأجمل أن يكون اظهاره وشرحه موكولين الى غيره » (١) وهكذا ترك البكرى للشيخين أحمد الشنقيطى وأبو بكر محمد لطفى المنفلوطى شرح « صهاريج اللؤلؤ » .

يقول الشارحان : « يظن بعض الناس أن الشعر كما قيل فى تعريفه ( الكلام الموزون المقفى ) وهو ليس كذلك ، بل الشعر هو كما قال صاحب السماحة المؤلف فى وصف أحد البلغاء ( شاعر الا أنه فيلسوف وفيلسوف الا أنه شاعر ، فكره عالم الحقيقة والمثال ، لأن الفلسفة شعر الا أنها حقيقة والشعر فلسفة غير أنه خيال ) وانما الكلام الموزون المقفى هو المحل المختار الذى يسكنه الشعر ، ومن الطف تعبيرات العرب تسمية هذا المحل ( بالبيت ) فيقولون بيت الشعر الذى يسكنه ، لأن الذى جرى عليه الاختيار

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٧٠ .

من قديم هو وضع كثير من الشعر فى ذلك المحل وهى ( الأوزان الموسيقية ) . على أن معظم الشعر وأجوده لم يوضع فى ذلك المحل بل أختير له النثر المرسل ، والمرسل المسجع فى العربية وهذا الذى يسميه الافرنج ( الشعر المنثور ) أما القافيــة فقد جرى الاصطلاح عليها أيضا تتميما للنغم الموسيقى أى الوزن ، الا أن العجم من فرس وافرنج وغيرهم جعلوها بطريقة سهلة لأنهم جعلوا لكل شطرين قافية أو لكل أربع شطرات قافية ونحو ذلك ، فلم يقيدوا الشعر الا بقيـــد خفيف يسهل معه البلوغ الى جميع الأغراض وتناول كثير من الأفكار ، أما العرب فقد جعلوا القافية واحدة فى كل القصيدة ، فأصبحت الاجادة فى الشــعر عنــدهم أو البلوغ به الى التعبير عن المقاصد المختلفة من أصعب الأمور ... وقد أراد المؤلف بهذه القصيدة التى أسماها ( ذات القوافى ) ايجاد مثال للشعر المتعدد القوافى فى العربية وفك هذا القيد الشديد المانع للشعر من الارتقاء » (١) .

وهذا الالتفات المبكر الى شــكل القصيدة العربية والرغبة الملحة فى تحطيم قيد القافية ذات النغمة الرتيبة يؤكد رأينا بانه واحد من تلك الحلقة الذهبية التى أخذت بصالح القديم دون أن تتعصب الى حد فناء الشخصية وبصالح الجديد دون أن تحاول اقتلاع الجذور ، مؤمنة بأن التطور هو عملية بناء وليس عملية اقتلاع . ومن أجل ذلك نلاحظ ــ كما لاحظ العقاد (٢) ــ اننا أمام ناظمين أحــدهما يولى وجهه شطر الموروث فيتحدث عن دورمية والآخر يولى وجهه شــطر حركة التجديد فيضع ذلك المضمون القديم فى شكل جــديد ، هو الشعر المرسل ويسمى

(١) صهاريج اللؤلؤ ( حاشية ص ٣٤٠ ) .
(٢) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٦٢ .

القصيدة « ذات القوافى » (١) . وليس فى القصيدة جديد من حيث المضمون فهى غزلية استطاع شـــارحاها أن يردا أكثر أبياتها الى أصولها فى الشعر العربى ، ولكنها بقيت ترمز الى المدرسة الشعرية التى ينتمى البكرى اليها ، رمزا قويا لا لبس فيه ، أعنى الكلاسيكية الجديدة .

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٣٤١ .

# النـّـاقد

ما زال النقد بين الفن والعلم موضع اختلاف ، فعلى الرغم من الدراسات النفسية التى أخذت طريقها الى النقد الأدبى محاولة تعميق مفاهيمه ، ففرقت بين عمل المخيلة وعمل الاحساس وتعرضت للتجربة والصدق الفنى ، وأخذت تشرح دوافع الابداع تشريحا ، وعلى الرغم من تأثر النقد فى مراحل تطوره بالمنطق حينا وبالمنهج التاريخى حينا آخر ، وبعلوم الاجتماع والأجناس والجمال فى عصرنا الحديث ، الا أن الجانب الذوقى ما زال له مكانته الكبيرة فى ميدان النقد الأدبى . وما من شك فى أن الذوق نفسه يصدر عن عوامل متشابكة كالبيئة والثقافة والوراثة والعادة ، الا أن أحكامه فى النهاية ذاتية .

فعندما كان الناقد العربى القديم يحكم على البيت بأنه أشعر ما قيل فى الغزل أو الهجاء أو المديح كان يصدر عن ذوق ، وعندما كان ابن سلام يقسم الشعراء الى طبقات ، كان مقياس التفضيل بين الشعراء الذين عاشوا فى بيئة واحدة وفى زمن واحد هو المقياس الفنى أى كثرة الشعر وجودته ، وهو فى ناحية الجودة يصدر عن ذوق أيضا . وكذلك عندما كان المفضل الضبى يجمع مفضلياته ، وعندما كان الأصمعى يجمع أصمعياته ، وأبو تمام يصنف حماسته ، كانوا جميعا يقومون بعملية نقدية تتلخص فى انتقاء قصائد بعينها ، واختيار أبيات بعينها من بعض القصائد ، على أساس ذوقى ، وان كان الذوق فى كل هذه الحالات ، هو ذوق الناقد المثقف . وكذلك الشأن عندما صنف البارودى مختاراته والبكرى « فحول البلاغة » « وأراجيز العرب » فى عصرنا الحديث .

ومن الواضح أن مختارات البارودى ومصنفات البكرى تهدف أول ما تهدف ، الى احياء التراث ، فهى محاولة تضـــاف الى محاولات العصر كله ، التى كانت تنظر الى التراث نظرة الكلاسيكيين الأوربيين الى التراث اليونانى ، وان كانت نظرة العرب أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن الى تراثهم أكثر عمقا وشمولا . فهو يمثل لهم الفكر الاسلامى واللغة العربية والمثل العليا فى عصور السلامة والقوة ، ومن الغريب أن المطلع على « معجم المطبوعات العربية » الذى يضم كل ما طبع حتى عام ١٩١٩ ، يجد أن أول ما لفت نظر المعاصرين من التراث ، هو الأدب بشعره ونثره (١) ، لأنه فى نظرهم مرآة حياتهم وسجل قيمهم ومعجم لغتهم ، وهو من ناحية أخرى الجانب الخصب فى انتاجهم الفنى الذى يهدف الى بناء الانسان نفسه قبل بناء حضارته المادية . واذا استطعنا أن نكون الانسان العربى الحديث تكوينا سليما ، استطعنا أن نضمن بعد ذلك انطلاقه الى بناء حضـــارته الجديدة على أسس سليمة من الماضى القويم . ونحن نستطيع أن نستعين بالأوروبيين فى انشاء طرق المواصلات أو بناء دار الأوبرا أو غير ذلك ، فتعمل بأيد مصرية وتصبح مواصلات مصرية أو مسارح مصرية ، والحقائق العلمية حقائق انسانية عامة لا تختلف من بيئة الى بيئة ولكن العادات والتقاليد والمثل العليـــا هى التى تختلف وهى التى تصور ايمان الانسان أو الحاده ، وتماسكه أو انحلاله وفلســـــفته فى الحياة بصورة عامة من حيث نظرته للحق والباطـــل والجمال والقبح والخير والشر .

ويرتبط بهـــذا الهدف أمر آخر يتعلق بالتوجيه فى صناعة الأدب ، فقد كان على الأديب الناشىء قديما (٢) أن يحفظ الكثير

(١) راجع أيضا قصة الأدب فى العالم جـ ٣ قسم أول ص ٣٣٨ وما بعدها .
(٢) المقتطف يناير ١٩٠٦ .

من شعر الجاهليين والاسلاميين أو أن ينشر ديوان الحماسة ، والهدف من ذلك تكوين الأديب تكوينا لغويا وفنيا . وهكذا الشأن في « فحول البلاغة » « وأراجيز العرب » للبكرى ، فمن المسلم به أن الأراجيز تحوى من غريب اللغة مالا يستوعبه أى نص أدبى آخر ، فهو يهدف اذن الى تكوين الأديب المعاصر تكوينا لغويا ، بعد أن شاع الدخيل ، ثم يهدف بعد ذلك الى تقديم نماذج جيدة من الشعر والنثر في العصر العباسي لتكون أشبه بالاطار الثقافى للأديب يكونه تكوينا فنيا ، فلا يظلع بعد ذلك أو يسقط وهو يرتقى سلم الشعر الطويل ، فالمثل الأعلى فى الشعر هو هذه النماذج التى ينبغى أن نحتذيها فى فترة الانبعاث ، وتلك مهمة الناقد الموجه للأديب .

اختار البكرى من فحول البلاغة ، ثمانية شعراء هم مسلم ابن الوليد وأبو نواس وأبو تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز والمتنبى وأبو العلاء . وكلهم عباسيون كما نرى ، ففى هذا الاختيار معنى تفضيلى للشعر العباسى من حيث القيمة الفنية ، أو هو قمة الشعر العربى فى مراحل تطوره . ولكن الواضح أن ما اختاره لأبى العلاء يقارب نصف الكتاب كله ، وقد وقف طويلا عند نثره قائلا : « ان لأبى العلاء رسائل كثيرة فى الأدب كأحسن ما كتب الكاتبون ، وقد نحا فيها منحى الشعر من الاكثار من التشبيهات والمعانى المخترعة وغيرها من المحسنات .»(١) فهو يرى نثر أبى العلاء نوعا من الشعر المنثور فيه خيال الشاعر ودقة تصويره ونبض أحاسيسه ، وموسيقاه الممثلة فى السجع ، ومن المؤكد أن البكرى يتأثر أسلوب أبى العلاء فى نثره الفنى ، أو شعره المنثور الذى تحدثنا عنه فى « صهاريج اللؤلؤ » ، ولكل ذلك فهو لا يفرق

---

(١) فحول البلاغة ص ١٨٨ .

بين هذا اللون من النثر وبين الشعر فى مختاراته أو فى كتابه السابق .

وقد علق المقتطف على ظهور الكتاب قائلا : « هو سفر جامع للمختار من شعر ثمانية من فحول الشعراء ... ونصف الكتاب للمختار من شعر المعرى ونثره ونصفه للمختار من شعر بقية الشعراء ، وفيه معانيهم المخترعة وتخيلاتهم العالية ... وعلق على بعض الشعر شرحا موجزا ، وعلى نثر أبى العلاء المعرى شرحا مسهبا كثير الفوائد . وقد بلغنا أن سماحته ألف لكل شاعر من هؤلاء الشعراء كتابا قائما بنفسه جمع فيه ترجمته ونعوته وكيفية تصوراته فى الشعر وطريقته فى الصناعة والانتقاد على أقواله ... وحبذا لو اسهب فى شرح الشعر فى هذا الكتاب وبين ما فيه من المعانى المبتكرة وقسمه اقساما بحسب موضوعه أو بحسب قوافيه واضاف اليه فهرسا يستدل به على موقع كل فصل والى رؤوس الصفحات ، ما يعلم به اسم الشاعر الذى فيها شعره تسهيلا للمراجعة » (١) .

لاحظ المقتطف اذن احتفال البكرى بأبى العلاء المعرى فى شعره ونثره ، واذا كنا قد فسرنا سر اهتمامه بنثره الفنى يرجع الى اعتباره لونا من الشعر ، فان سر اهتمامه بشعره يرجع دون شك الى ما فيه من فلسفة وحكمة ، أو بمعنى آخر ما فيه من مواقف انسانية . واذا كان قد أطال فى تفسير نثر أبى العلاء ، فذلك يرجع الى الاشارات الكثيرة فى نثره التى تتعلق بحقيقة تاريخية أو بمثل قديم ، وكل هذا يحتاج الى تفسير للقارىء . أما الشعر ـ خاصة وهو شعر عباسى ـ فلا يحتاج الا الى تفسير بعض غريبه ، أو الوقوف عند معنى غامض ، دون أن يعمد الى شرحه شرحا قد يقتل

(١) المقتطف يناير ١٩٠٦ .

موسيقى الأبيات وما فيهـــا من ايحاءات جمالية ، فمن المؤكد ان الكلمة عند الشاعر ذات طاقة ايحائية مركزة بحيث يصعب او يستحيل على الناثر فى كثير من الأحيان أن يرفعها ويضع مكانها كلمة أخرى ، أو يحاول تفسيرها دون أن يفقـــدها كثيرا من حيويتها .

ونحن نعرف أن البكرى لم يترك لنا فيما ترك من مؤلفات ، تراجم لشاعر أو لمجموعة من الشعراء ، فلعله رغب فى ذلك ، ولكن لم تسعفه الظروف التى مرت به ، حتى يتفرغ لذلك العمل . ولكن ملاحظة المقتطف الأخيرة هى الجديرة بالوقوف عندها . فلو قسم لنا البكرى مختاراته حسب الموضوع ، لوضع يدنا على سر اختياره للقصيدة . ومن اجل ذلك فنحن محتاجون للاجابة عن هذين السؤالين : على اى أساس اختار قصائده ؟ وعلى اى أساس كذلك انتقى أبياتا بعينها من القصائد ؟ .

ان القصائد الكاملة نادرة فى مختاراته ، ولـكننا نجد سينية البحترى التى عارض بعض صورها فى وصفه لقصر عابدين كما مر بنا ، ونجد دالية المعرى « غير مجد فى ملتى واعتقادى » التى تأثر البكرى بقوله فيها : « وشبيه صوت النعى اذا قام بصوت البشير فى كل ناد » وذلك فى مقطوعة :

وما اذن القوم لمـــا اقاموا صـــلاة الجنازة يوم الوفاة
واذن للطفـــــل يوم الولاد فهـــذا الاذان لتلك الصلاة

ومن الواضح أن القصيدة الأولى وصفية أشبه باللوحة الكاملة وأن الثانيـــة تزخر بالحكمة العميقة ، فسر الجمال عنده يكمن فى الأثر النفسى الذى تتركه القصيدة فى قارئها ، وهكذا نستطيع أن نفسر اختياره .

فالشاعر عندما يهجو مثلا يكون مغيظا ولكن القارىء لا يشاركه

هذا الفيظ ، وعندما يمدح يرغب فى العطاء والقارىء لا يناله شىء من ذلك العطاء ، وكذلك الشأن فى المواقف التى لا يتجاوب القارىء مع الشاعر القديم فيها ، على عكس المواقف الانسانية الخالدة . ومن النـادر أن نجد قصيدة كاملة فى الوصف أو فى الحكمة ، ومن هنا كانت القصائد قليلة ، على خلاف المقطوعات .

وأساس اختياره لأبيات معينة من القصيدة يرجع الى هذه الناحية ، وقد أعانه على ذلك ، أن البيت الشعرى المفرد ، مستقل بافادته عما قبله وعما بعـده كما يقول ابن خلدون فى مقدمته ، وقد ترتب على هـذا انه استطاع انتقـاء الجـزء الذى يبغيـه من القصيدة والذى يصور وحدة فكرية أو صورة مستقلة ، فالقصيدة العربية بوجه عام متعـــددة الأغراض ، ومن الحق أن الشاعر كان يعرف حسن التخلص من غرض الى آخر ، ولكن ذلك لا يمنع أن انتقاء جزء معين كالوصف مثلا وترك جزء آخر كالمديح لا يخل بوحدة القطعة المنتقاة .

وهكذا انتقى البكرى أبياتا للمتنبى فى الحكمة تحكى تجربة انسانية وتقطر لنا الألم تقطيرا ، وترك بقية قصيدته « عيد بأية حال عدت يا عيد » التى يهجو فيها كافورا هجاء مرا ، لأن الهجاء تجربة فردية محضة ، أما الأبيات التى اختارها فهى اللحن الباكى للشاعر الذى جرب قسوة الأيام وتجرع مرارة اليـأس وذاق عذاب الحرمان :

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبـــدى
شـــيئا تتيمـــه عين ولا جيـــد

ياســـــاقيى أخمـــر فى كئوســكما
أم فى كئوســـكما هم وتســــــهيد

أصـــخرة أنا مالى لا تحـــركنى
هـــذى المدام ولا هـــذى الأغاريد

اذا أردت كميت اللون صـــافية
وجـــدتها وحبيب النفس مفقـــود

ماذا لقيت من الدنيـــا وأعجبهـــا
أنى بما أنا باك منـــه محســـود

وترك كثيرا من قصيدة المتنبى فى « شعب بوان » ووقف أمام اللوحة الرائعة التى رسمها الشـاعر للجنة وقد توقفت الخيل لا تود أن تبرحها الى أرض أخرى والندى يتساقط كالجمان على أعراف تلك الخيل ، ولكن الشـاعر الفارسى يواصل سيره واغصان الأشجار الملتفة على مدى النظر تحجب الشمس عنه ، الا أشعة من ضيائها تنير له الطريق ولا تلفحه بقسوة الحر ، وانما ترسم من خلال الغصون دوائر ذهبية تنتشر أمامه أشبه بالدنانير ، فاذا ما صـــعد ببصره الى ملقى الدنانير التى تفر من يديه ، لم يجد الا الغصون وقد أثقلتها الثمار . ولكنه ثمر عجيب يبدو أمام الناظر لصفائه ونقائه الشديد كأنما هو شراب قد تجمد أو « أشربة وقفن بلا أواني » ، فاذا ما سرح الطرف الى الأمواه على جانب الطريق ترامت الى مسامعه موسيقى عذبة تنبعث من صليل الحصى كلما عبثت به المياه فى حركتها الدائبة كما تتحرك أيدى الغوانى الحاليات فتترامى الى مسامعنا وشوشة الحلى المنغمة . فالشـاعر هنـا لا يلتقط الصورة كما يلتقطها المصور وحسب ، وانما يحرك صوره تحريكا يعجز عنه الرسام ويعطينـا فسحة من الزمن فى هـذه الحركة ، بينمـا يتجمد الزمن فى يد المصور . وهكذا نرى كيف كان البكرى يتخير القصيدة أو يتخير الأبيات .

وفى نفس العام صدرت للبكرى مختاراته من أراجيز العرب كما قلنا ، ولم تجمع من قبل فيما نحسب مختارات للرجز ، وكأنما أحس أن الرجز من حيث المستوى الفنى دون الشعر ، فاحتاج أن يقدم لكتابه بقوله :

« وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب سماع الرجز من الشعر . روى أن العجاج أنشد أبا هريرة ( ساقا بخنداة وكعبا أدرما ) فقال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يعجبه نحو هذا من الشعر . وقد كان الرجز ديوان العرب فى الجاهلية والاسلام ، وكتاب لسانهم ، وخزانة أنسابهم وأحسابهم ، ومعدن فصاحتهم ، وموطن الغريب من كلامهم ، ولذلك حرص عليه الأئمة من السلف واعتنوا به حفظا وتدوينا . قيل ان أبا سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ، كان يحفظ الف أرجوزة ، وقيل مثل ذلك عن أبى تمام حبيب بن أوس الطائى وغيره . ومن وصاياهم المعروفة رووا أبناءكم الرجز فانه يهرت أشداقهم » .

فالتفاته الى الرجز اذن نوع من التأثر بالسلف فى توجيه الناشئة توجيها لغويا وفنيا ، فهو فن العرب الخلص وموطن الغريب ، كانوا يهتمون بتنشئة أبنائهم على روايته ، ومن أجل هذا يختار منه المقطوعات لأشهر الرجازين ، ويفسر ما غمض منه . وكأنما يكتسب عنده الرجز صفة قريبة من القداسة لأن النبى كان يحب سماع هذا اللون ، فهو يرد مقدما عمن قد يتساءلون عن قيمة هذه المختارات اذا كان القدماء انفسهم لم يعنوا بانتخاب مختارات منه .

وما كاد يصدر الكتاب حتى تناوله المقتطف بالنقد قائلا : « يندر أن ننتقد كتابا من الكتب التى تهدى الينا لأسباب اولاها بالذكر أننا رأينا الكتاب يتهيبون الانتقاد ويخاصمون المنتقد

حاسبين أنه يقصد لهم شرا ولا سيما اذا كانوا يكتبون للتعيش ، وهم لو أنصـــوا المنتقد لجازوه مالا ومدحا على انتقاده كتبهم ولا سيما اذا أبان مغامزها ومواقع الضعف فيها ، فلما وقع نظرنا على كتاب أراجيز العرب الذى ألفـــه صاحب السماحة السيد محمد توفيق البكرى شيخ المشايخ فى القطر المصرى ، قلنا هذا كتاب يستحق الانتقاد لأن مؤلفه لم يؤلفه للاكتساب ولا هو ممن يخشى أن تعرض بضاعته للنقد . ولابد من أن يكون قد تخير أبلغ الأراجيز وعلق عليها شرحا مسهبا فسر غريبها وبين مدلولاتها من حيث أخلاق العرب وعوائدهم ، ولو كنا نعلم أن ( الرجز من سفاسف القريض ) . فأخذنا نقلب الكتاب ونتصفح الأرجوزة بعد الأرجوزة ونتلو ما على أبياتها من الشرح الموجز والمسهب حتى أتينا على جانب كبير منه ، فأغلقناه آسفين على الوقت الثمين الذى اضاعه المؤلف فى جمعه وتحريره لقلة نفعه بالنسبة الى ما بذله فى تأليفه من المشقة وفى طبعه من النفقة . ولسنا نحسب هذا الكتاب أول دليل وأعظم برهان على فضل مؤلفه علامة الزمان كما قال أحد مقرظيه ، بل عندنا أن فى كل فصل من كتابه ( فحول البلاغة ) من الفوائد والفرائد ودلائل العلم والفضل اكثر مما فى هذا الكتاب كله ، فحبذا لو أتحفنا بمثل تلك النفثات لأن ديوان الانشاء واسع النطاق ، وقل أن تجد بين كتابنا من أتقن لغة الأعراب مثله ، واطلع على كنوزها وعرف أساليب البحث التى أتقنهـــا الأوربيون حديثا . وهى المعبر عنها بالتحليل والانتقاد . » (١)

ان ما قدره البكرى قد وجده فى هذا الانتقاد فالرجز حمار الشعر أو من المهمل واذا كان البكرى قد احتج لرأيه حين ذكر قيمته فان المقتطف لم يثبت رأيه بدليل كأنه قضية مفروغ منها ،

---

(١) المقتطف نوفمبر ١٨٩٥ .

وما زال الشرح موضع انتقاد بالرغم من أنه لم يترك كلمة دون تفسير ، وبالرغم من الاسهاب فى بعض المواضع التى تحتاج الى ايضاح أو مقارنة . ولم يتحدث المقتطف صراحة عن سوء الاختيار ، ولكن يفهم ضمنا من حديثه أن البكرى لم يوفق فى اختياره . وقد صمت صاحب الأراجيز فلم يرد على الانتقاد ، ولكن العدد التالى من المقتطف كان يحمل نقدا أقسى وهجوما اعنف لمحمد المويلحى ، وعلى الرغم من أن المويلحى لم يخرج فى انتقاده عن النقاط التى أثارها المقتطف من قبل ، الا أن حججه قوية ، وأسلوبه شديد السخرية . يقول المويلحى :

« وضع جامع الأراجيز فصلا فى تفضيل الرجز وعلو شأنه وسمو مكانته واستشهد على ذلك بقوله ( وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب سماع الرجز من الشعر وهذا أخبار حكمه حكم الحديث المرفوع لأنه لا يقوله الا معاين ، فكل مسلم يطالبه من أين له هذا وفى اى كتاب وجده وبأى سند يرويه . ثم استدل على تفضيل الرجز أيضا بقوله : ( روى أن العجاج انشد ابا هريرة ، فقال كان النبى يعجبه نحو هذا من الشعر ) وقد ذهب فى هذه الرواية الى غير المقصود منها وحملها على غير حقيقتها لأن المشار اليه فيها هو أوصاف النساء فى الشعر لا نفس الرجز ، وغرض الشاعر أن يسأل أباهريرة عن التشبيب بالنساء فى الشعر هل عليه فيه حرج فى الاسلام وأنشده هذه الأبيات :

قامت تريك رهبة أن تصرما ساقا بخنداة وكعبا أدرما

فقال أبو هريرة : ( كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد مثل هذا فلا يرى بأسا ... ) وعلى هذا فقد أخطأ جامع الأراجيز فيما ذهب اليه وتعمد نسبته الى النبى عليه السلام . وليس الرجز فى الموضع الذى وضعه فيه من الرفعة ، بل هو شىء حقير ، وبين علماء اللغة اختلاف هل الرجز شعر أو نثر ، ولم يكن له شأن عند العرب ولا مقدار ... وان كان الرجز من الشعر فهو من حثالة

القريض وغناء القصيد وهو عند العرب بمنزلة الزجل عند العوام فى أيامنا ، وما استعملته العرب فى جاهليتها الا وقت الضرورة وحين المناسبة فى بعض المواقف لأنه أقرب تناولا من الشعر ، ولم يقولوا منه الا البيتين أو الثلاثة ، وكانوا يقولونه ركبانا ومشاة ويساجلون به على الآبار ...

« وقد صدر جامع الأراجيز كتابه بقوله : ( هذا كتاب وضعناه فى ذكر المختار من أراجيز العرب وتفسير غريبها وشرح معانيها وتبيين مقاصدها ) ، ومن يتصفح الكتاب يجد أن جامعه لم يستوف شيئا مما جاء فى هذا القول ، وقد قصر كل التقصير عن الوصول الى هذا البيان وأشوى الغرض وأخطأ الاصابة . ونحن نبين هذا للقارىء الكريم بيانا جليا بذكر ما يحتمله نطاق المقتطف من الشواهد التى ننقلها عن هذا الكتاب ، وما نورده من النموذجات التى تدل على بغيته . قال الراجز :

عوجا تبـــارى ناعجـــا مفوقا أعيس محضا أو نجاة دمشقا

وقال الشـــارح ( مفوق أى معلم والعيس حمرة الى بياض والدمشق الخفيفة ) ... فعلى هذا يجرى الشرح وينهج ، لا يكاد فهم القارىء يمسك منه شيئا ويقف للبيت على معنى كأنما واضعه من شدة الاختصار يكتب تلغرافا صادرا عن البيوت التجارية ... واضف الى ذلك أنه كثيرا ما يقتصر على الكلمة الواحدة أو الكلمتين فى شرح البيتين والثلاثة والأربعة والقصيدة المستغلقة الألفاظ ... ونرد على ذلك أن الأبيات التى يروق لجامع الأراجيز ومفسر غريبها وشارح معانيها ومبين مقاصدها أن يحل معناها ويشرحه ، اما أن يردد الفاظها بذاتها ويقتصر عليها وأما أن يذكر عنها جملة موجزة مضطربة ...

« أما ما قاله جامع الأراجيز عن تبيين مقاصدها ، فلم نفقه له معنى بعد أن أتينا على الكتاب اطلاعا ، فان أراد معانى الشعر فقد رأيت ما رأيت من ذلك ، وأن قصد به بيان المناسبات والوقائع

التى قيلت لأجلها القصيدة ولأى سبب وضعت وما هو تاريخها ومن المقصود بها ومن الممدوح فلم نعثر لذلك على شيء يستحق الذكر سوى أنه ابدل اسم الممدوح بغيره فى قصيدة العجاج اللامية التى يمدح بهـــا يزيد بن معاوية فرفعه ووضـــع مكانه يزيد ابن عبد الملك ...

« هذا وليس الذى جمعه صاحب الكتاب بالمختار من الأراجيز ، فقد أساء الاختيار وأخطأ الانتخاب ووقعت يده على القصائد المحشوة بحواشى الألفاظ وصخرى القوافى وغليظ المعانى ، حتى ان القارىء ليخرج من الكتاب وما فى يده شىء منه وما يعلق بذهنه بيت فرد من تلك الأبيات ، لا بل جلمود من صم تلك الجلاميد ... ويقول قوم ان كتاب الأراجيز ليس لصـــــاحبه والنزاع واقع فى أمره . » (١)

ومن الواضح أن نقد المويلحى يدور فى جملته حول النقاط التى اثارها المقتطف من قبل كما قلنا ولكن بصورة أقسى وبحجج أقوى ، ولكن الجديد فيه أنه يثير امرين آخرين ، أولهما يتعلق بجامع الأراجيز نفسه ، والحقيقة أن هذا الرأى أثير فى ذلك الوقت على أساس أن جامعه هو الشيخ الشنقيطى العالم اللغوى ، ولكن أى فخر يزيد من قيمة البكرى أن ينسب الكتاب اليه ؟ ثم أليس البكرى نفسه من أكبر المتعمقين فى أدبنا العربى ومن أكبر لغويى ذلك العصر ؟ لقد أثيرت فى ذلك الوقت مسألة تحقيق « لسان العرب » وكتب مصطفى لطفى المنفلوطى حول هذا الموضوع وأراد ان يرشح احد اللغويين لذلك العمل الضخم ، فلم يجد أمامه خيرا من البكرى (٢) . وموضوع الالتفات الى التراث وجمع المنتخبات فيه ليس جديدا

---

(١) المقتطف ديسمبر ١٨٩٥ .

(٢) المؤيد ١٩٠٧/١١/٢١ .

عليه ، فهو صاحب « فحول البلاغة » . ولو غضب الشنقيطى حقيقة لما شرح « صهاريج اللؤلؤ » الذى صدر بعد ذلك ، فشرح من الأدلة القوية على بطلان الاتهام ، الأمر لا يعدو ما يثار دائما عندما يؤلف أديب من غير المحترفين كتابا ، أو يكتب قصة أو مسرحية أو ينظم قصيدة فسرعان ما تدور العيون حول أقرب المحترفين اليه ، ثم تدور الألسنة بعد ذلك مشككة فى نسبة ذلك العمل اليه ، لأنه أقرب أن يكون من عمل المحترف الذى يتعيش من قلمه ، وما زالت تتردد أمثال هذه الشبهات فى أيامنا هذه دون سند قوى أو حجة مقنعة .

أما الأمر الثانى فيتعلق بقيمة الرجز من حيث استحسان الرسول له ، فرأى المويلحى أن مدلول النص يتعلق باستحسان الرسول للغزل وحده وليس للرجز الذى تضمن وصف النساء ، لأن الرجز نثر أو شعر ردىء . والواقع أن موسيقى الشعر عنصر جوهرى من عناصر تأثيره فى النفوس ، فاذا فقد الشعر تلك الموسيقى وضحت فيه النثرية الشديدة ، والرجز لما فيه من السعة فى قبول الزحافات والعلل ما لا يوجد فى بحر آخر ، يفقد النغمة الموسيقية التى اعتادتها الأذن فى الشعر ، واغلب الظن أن البكرى لم يجمع مختاراته من الرجز ليتذوق القارىء رفعة الفن ، بقدر ما كان يهدف الى أن يحصل القارىء غريب اللغة ، ومن أجل ذلك كان السلف يروونه أبناءهم . واذا كان النص الذى أورده البكرى عن أبى هريرة موضع خلاف فى تفسير دلالته ، فان هناك من النصوص مالا تحتمل اختلافا ولا لبسا .

وهكذا لم يصمت البكرى هذه المرة ، ففى العدد التالى من المقتطف نشر رده ، ولم يدخل فى ملاحاة مع المويلحى ، وانما وجه رده للانتقاد الأول ، وان كان قد رد على حجج المويلحى فى مقالة دون أن يشير الى قراءته لنقده ، فيقابل الحجة بحجة

اقوى ، ويدحض فكرة بعد فكرة . فاذا كان الناقد قد يرى سوء الاختيار فالتحدى هو أبلغ رد ، وعليه أن يأتى ببعض الأراجيز التى تفوق تلك المختارات لتكون موضع مقـــارنة أمام الناس ، وأما اختصار الشرح وتقصيره عن توضيح عادات العرب ، فذلك يخرج من حدود الكتاب وعن الشرح اللغوى الذى يهدف اليه ويحتاج الى كتاب مستقل ، ولكنه كان يعرض لأحـوال العرب كلما اقتضى المقام ذلك ، واستدعى تفسير النص أن يعرض لشىء من التفصيل . وكان واضحا أن قوة الحجج التى ساقها البكرى وكثرة مصادره التى رجع اليها فى رده كافية لاقفال باب المناقشة بعد أن قال الكلمة الأخيرة .

ونجد تحـدى الواثق ودقـة الباحث حين يقول فى رده : « ان المنتقـد يرى أن ما جمعنـاه من الأراجيز ليس من أبلغها كما كان يؤمله ، والجواب عنه أننـا نطالبه بأرجوزتين فأكثر من كلام العرب ابلغ مما أوردناه ، ونقول الآن انه لا يجد ذلك وان قلب الأوراق الكثيرة واستنفض الأسفار الجمة . ولا ندرى كيف لم يجد حضرته فى جميع ما جمعناه من الأراجيز أرجوزة تروقه وتعجبه ، على أن احدى ما اخترناه منها كان سبب اتصال الأصمعى بالرشيد العباسى وحظوته عنده ...

« ويرى حضرة المنتقد أن الشرح الذى علقناه عليها ليس مسهبا مفسرا لغريبها وليس مفصلا للأخلاق والعوائد . والجواب عن ذلك اننا ما زلنا نقرأ شروح المتقدمين فلا نراها مسهبة مطولة ، بل تكون على متونها كالثوب على لابسه ان قصر عيب وان طال عثر به . وما زلنـــا نلوم المتأخرين على التطويل فى شروحهم والخروج عن الموضوع بالاستطرادات المخلة والتوسعات المملة ... وأما الأخلاق والعوائد ونحوها فلم نر أحدا من المؤلفين العالمين بصناعة

التاليف والترصيف يرى ان محل ذكرها كتاب شرح وضع لتفسير غريب الأراجيز ، بل لم نر أحدا ممن عانى شرح كلام العرب فعل ذلك قبل . هذا التبريزى فى شرحه للحماسة والآمدى فى شرحه لمفضليات الضبى والأصمعى وابن حبيب وغيرهم لم يخرجوا جميعا فى شروحهم عن حد ما سرنا عليه فى كتابنا بل لم نخرج نحن فى شرحنا عن طريقتهم فى شروحهم . ولكننا مع ذلك لم نغفل عما اقتضاه المقام من ذكر أحوال العرب فى أسفارهم وتنقلاتهم ، وما اعتادوا ذكره عند الوقوف على الديار وطلب الصيد ونحو ذلك . أما التوسع فى جميع عاداتهم وأحوالهم ومعارفهم واخلاقهم وأديانهم وعلومهم فلا يكون استيعابه الا فى كتاب بل كتب تؤلف بهذا الخصوص ...

« وقال حضرة المنتقد ( ولو كنا نعلم أن الرجز من سفاسف القريض ) أقول لو وفى هـذا الموضـوع حقه من البحث والتروى قبل ان يكتب فيه لقال كما قال امام الائمة فى فنون الأدب وشيخ الشيوخ فى علوم العرب الامام يونس النحوى ، قد قيل له من أشعر الناس فقال العجاج ورؤبة فقيل له لم ـ ولم تعنى الرجاز ـ فقال هم أشعر من أهل القصيد ، انما الشعر كلام فأجوده أشعره . هذا واذا كان الرجز من سفاسف القريض كما يقول ، فما بالهم عند المفاخرة بأديب أو شاعر يقولون كان يحفظ كذا الف أرجوزة . قال صاحب العقد فى أول باب رواة الشعر ، قال الأصمعى ( ما بلغت الحلم حتى رويت اثنتى عشرة الف أرجـوزة للأعراب ) ... وقد رأينا الجاحظ وهو أعلم النـاس بالعربية وفصحها يقول فى كتاب ( البيان والتبيين ) وقد أراد وصف ابراهيم السـندى بالبلاغة ( وكان يتكلم كلام رؤبة ) ولم يقل النابغة ولا الأعشى ... وقال يعقوب بن داود : « لقيت الخليل بن أحمد يوما بالبصرة فقال لى : يا أبا عبد الله دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم ،

فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : هــــذا حين انصرفت من جنازة رؤبة ) . . . » (١)

ومن أجل ذلك كانت أكثر مختــاراته « لرؤبة والعجاج » فهما اشهر علمين من اعلام الرجز كما يقول يونس ثم اختار بعد ذلك الكثير من اراجيــز « ذى الرمــة » ومن المعروف أنه أكبر شــــاعر مصور فى الأدب العربى ولوحاته التى رسمها للصحراء وللطبيعة الصــــامتة ولحيوان الصحراء والحركة التى أجراها والزوايا التى اختارها تضعه على قمة المصورين (٢) ، ثم اختار مقطوعات لبعض الرجازين الآخرين بذوق الناقد وحس الفنان . والرجز كما هو معروف كان أبياتا قليلة تلقى عند امتياح بئر أو فى حادثة طارئة ، فهو أشــــبه بالجملة الشــــاردة تلقى للتمثل ، وتحمل فى مضمونها شيئا من فلسفته العامة ، ولم تطول الأراجيز الا على يد الاسلاميين كالعجاج ورؤبة وذى الرمة . ونستطيع أن نلمس ذلك فى كل مقطوعة من مختاراته ، حتى أبيات الغزل تحوى شيئا من فلسفته العــامة فى دلالة الوجد على الحب الضائع ، عندما نستمع الى الراجز يقول :

دع المطــــايا تنسم الجنوبا ان لهــــا لنبــــأ عجيبــــا
حنينهـــــا وما اشتكت لغوبا يشهد أن قد فارقت حبيبــــا
ما حملت الا فتى كئيبـــــا يسر ممـــــا أعلنت نصـــــيبا
لو ترك الشــوق لنــــا قلوبا اذن لا ترنا بهن النيبـــــــــا
ان الغريب يســـــعد الغريبا

هذه هى المقطوعة الأولى من مختاراته ، كل بيت فيها يصلح للتمثل به فى موقف من المواقف ، وفى المثل « لا افعل ذلك ما حنت

(١) المقتطف يناير ١٨٩٦ .

(٢) راجع لوحات ذى الرمة ( الأدب العربى فى العصر الأموى لشــوقى ضيف ) .

النيب » ، ولكن من الواضح أن الغريب فيها قليل وهى المقطوعة الوحيدة التى لا تنوء بالغريب ، ونراها تتحدث عن الغربة ويبدأ بها اراجيزه ، فلعلها كانت تتحدث عن غربة الناقد الفنان نفسه ، فقد صدرت « أراجيز العرب » بعد اقالة من نقابة الأشراف ، عندما تحمس لاصلاح الأزهر ففسر تحمسه تفسيرا سياسيا .
اما الأرجوزة التالية فهى لذى الرمة ، وهى تحوى الكثير من الصور ، كصورة الحمر الوحشية يرفعها السراب ويزهاها فيخيل لرائيها انها تسير ، وصورة النوق وهى ترسل أيديها الى الأرض أو ترفعها فى مسيرها كأنما هى أيدى النساء فى المآتم ، وأما الأرجوزة الثالثة فهى للعجاج وكلها فى وصف بقايا الأطلال ومناظر الرحلة ، باستثناء خمسة أبيات فى المديح أقرب ما تكون الى الحكمة منها الى المديح . ولم أتخير هذه الأراجيز تخيرا وانما هى أول ما افتتح به المؤلف منتخباته ، وسار على نفس النهج فى بقية المختارات . فعملية الاختيار اذن ما زالت تصدر عن ذوق يرى النص الجميل يرتبط ارتباطا مباشرا بتأثيره فى النفس .
واذا مضينا نتتبع المختارات ، نجد أن الشروح نفسها كانت تطول وتتحول الى مقارنات أشبه بمعرض كامل للصور ، اذا ما لاح أمامه منظر ينفسح وتتحرك رؤاه فى دقة . فها هو ذا فى الأرجوزة الخامسة ـ وهى لرؤبة ـ يشرح فى ايجاز مسير حمار الوحش وأتنه تتبعه الى مورد الماء ، تتلفع بالليل ، حتى اذا وصل القطيع الى المورد المليء بالمياه وقد فاضت على جوانبه ، خاضت فيها الأرجل فسمع لها خضخضة ، واقتربت الأفواه الظامئة ، ولكنها لم تبل صداها ، فقد فوق الصائد سهمه فتردت واحدة ثم اتبعه فتردى غيرها ، وعدا بقية القطيع لا يلوى على شيء .

فجئن والليل خفى المنسرق
اذا دنا منهن انقاض النفق

في المـــاء والساحل خضخاض البثق
بصبصن واقشعررن من خـوف الزهق
وبل نضـــح المـــاء أعضـــاد اللزق
وســوس يدعو مخلصـــا رب الفلق
ومتن ملســـاء الوتين فى الطبــق
فما اشـــتلاها صـــفقه للمنصفق
حتى تـــردى أربـــع فى المنعفـــق
بأربع ينـزعن انفـــاس الرمـق

وهنا يتوقف البكرى ليعرض قصيدة « لذى الرمة » تصور نفس المنظر ، وان كانت سهام الصائد لا تصيب . ولا يحاول الناقد تفضيل احدى القصيدتين ، ولكنه يقرر أن كلا الشاعرين قد أجاد الوصف وأبدع التصوير . فعين الناقد اللاقطة اذن ، كانت في القصائد ـ تتخير الصورة الفنية أو المقطوعة التى تصدر عن حقيقة فلسفية أو موقف انسانى كما ظهر ذلك فى « فحول البلاغة » ، وهكذا الأمر فى اختيار الأراجيز ، بالرغم من هدفها اللغوى الواضح .

وقد نتساءل عن شعر البكرى نفسه ، والى أى حد يتفق مع رأيه فى مختاراته ، أو بمعنى آخر هل اختلفت وجهة نظر البكرى الشـــاعر مع رأى البكرى الناقد ونظرته الى الشعر ؟ لقد تســـاءل عن ذلك من قبـــل ، المرزوقى فى شرحه لديوان الحماسة ، ورأى أن مختارات أبى تمام لا تتفق فى كثير من الأحيان مع وجهة نظر أبى تمام الشاعر ، وأجاب عن ذلك بأن اختيـــار الشاعر الناقد لا شأن له بنهجه فى الشعر لأن الناقد المنصف يستجيد كل شعر جيد وان خالف نهجه (١) .

---

(١) شرح المرزوقى لديوان الحماسة ص ١٣ ( القاهرة ـ ١٩٥١ ) .

والواقع أن البكرى الناقد يتفق مع البكرى الشاعر ، لأن خير شعره هو مقطوعات الحكمة ، ومطولة فى وصف مصر ، ثم وصفه للمعركة الحربية بين الجنود العثمانيين وبين اليونانيين . أما مدائحه للخديو ، فقد اضطر اليها اضطرارا كما أوضحنا من قبل ، ومع ذلك فالتكلف وفتور العاطفة فى أبيات المديح يستتران خلف الزخرف الشكلى وتفضحهما العين الناقدة للوهلة الأولى .

# المفكر

كان البحث يدور حول موطن الداء بجسم الأمة الاسلامية فى نهاية القرن الماضى ، وكان باعث الفكرة ومحركها هو جمال الدين الأفغانى كما ذكرنا . ولا شك أن الجذور الدينية العميقة فى أسرة البكرى ، وثقافة السيد محمد توفيق ومنصبه الدينى ، كل هذا كان يدفعه الى التفكير المتواصل مع المفكرين فى هـذا الموضوع الحيوى الذى شغل العقول . وعندما زار الآستانة عام ١٨٩٢ ، التقى بالسيد جمال الدين ، وكأن هذا اللقاء كان كافيا لبلورة الفكرة ووضعها موضع التنفيذ فى كتابه الذى ألفه عام ١٨٩٣ ، بعنوان « المستقبل للاسلام » .

والحقيقة أن شخصية جمال الدين القوية كانت تلهب حماسة مريديه ، وأفقه الواسع كان يفتح عقولهم على آفاق جديدة من الادراك ، كأنما يمسك بيده مبضع الجراح يشرح به معضلات الحياة أمامهم ، والبكرى معجب به أشد الاعجاب ، تحدث عنه فى « صهاريج اللؤلؤ » حديث المفتون ، وهو بعد فى كتابه « المستقبل للاسلام » يذكره مرة ومرات ويستشهد بآرائه ، ويأخذ قوله قضية مفروغا منها ، أو قانونا أزليا .

ويعالج فى كتابه هذا موضوعا طالما فكر فيه الناس ، ولكنه ينظم البحث ويعمقه لأول مرة ، فهو يقسم بحثه الى فصول ثم الى جزئيات ، ويثير فيها كل ما يجول فى الخواطر ، ويفند الآراء مستندا الى نتائج الباحثين المتخصصين . وهو يعلم أن منا من يأخذ أقوال الغربيين ، ومطاعنهم فى الشرق الاسلامى

مأخذ الحقائق العلمية التى لا تقبل المناقشة ، ولكنه يواجه تلك الآراء بنقيضها عند غيرهم من علماء الغرب أيضا . وهكذا تسلمه المقدمة الى الفرض ، ويسلمه الفرض بعد البحث الى النتيجة .

ويبدأ البكرى المفكر حديثه فى الفصل الأول من دراسته بمقدمة يعرض فيها لرأس مال الأمم ، فيراه يتوقف على أمرين طبيعيين ، هما كثرة السكان وخصب المكان . ويبدو هذا أمرا بديهيا ، التفت اليه ابن خلدون فى مقدمته والتفت اليه من الباحثين الأوربيين الكثيرون أمثال ( مونتورو ) و ( تين ) عندما تحدثا عن مستقبل الصين وروسيا . وترتبط بهذه المقدمة فكرة اخرى هامة كثر الحديث عنها اليوم وتتعلق بالموازنة بين الانتاج والاستهلاك ، لأن زيادة النسل وكثرة التعداد مع قلة الموارد توقع الأمم فى الضيق والشدائد أو فى الأوبئة والحروب . ومع أن هذه حقيقة أولية فقد تغيب عن أفهام وعقول بعض المسئولين مثلما غابت عن وزير معارف فرنسا فى خطابه الذى ألقاه على مجمع المعارف عام ١٨٦٨ عندما قال : « ان من يمكنه أن يزيد سكان فرنسا مليونا من النفوس يفيدها أكثر ممن يزيد حدودها بعض فراسخ من الأرض بواسطة الحرب والدم بألف ضعف » (١) .

ويرى البكرى أن هذا القول يخلو من الصواب ، لأن من يزيد مساحة بلد يزيد فى موارده ، فيجعل الزيادة فى السكان محتمة . ثم يستشهد برأى « ليبيج » فى هذا الموضوع عندما قال : « اقتضت الحال زيادة السكان فى بلدان أوربا زيادة كثيرة غير طبيعية حتى اختلت النسبة بين عديدهم وبين غلات تلك البلاد ، فلا يمضى غير حقبة من الزمن حتى تعجز الأرض عما يفى بحاجتهم

(١) المستقبل للاسلام ص ٨ .

مهما انهكوا قواها بمختلف الأسمدة ، وعندها لا يحتاج الى نظريات علمية أو قياسات فنية لايضاح الناموس الطبيعى الذى يأمر الانسان بأن لا يغفل عن المحافظـــة على أبواب رزقه ، ويعاقبه العقاب الأليم عند مخالفـــة ذلك . ولا يكون ثمة للأمم الأوربية من حيلة ولا مخلص الا أن تتفـــانى لتبقى ، فنرى اذن أمثال مجاعات سنة ١٣١٦ وسنة ١٣١٧ ، وحروب بعد ذلك تليها حتى يحمل الأمهات جيف القتلى لاطعام أطفالهن كما وقع ذلك فى حروب الثلاثين سنة المعروفة ، فكل ذى دربة وروية دقق النظر فى أمر ممالك أوربا ومستقبلها ، يجدها غير قائمة على أسس متينة بل على أسنة الابر . »

اذا كان راسمال الأمم فى المكان والســكان ، فما حظ الأمة الاسلامية من هـــذين الأمرين ؟ الواقع أن المتامل يجد العالم الاسلامى هو قلب الدنيا ، أما جناحها الأيمن فهو العالم الوثنى ، وأما جناحها الأيسر فهو العالم المسيحى . موقع العالم الاسلامى اذن هو موقع القلب ، وبقاعه أطيب بقاع الدنيا ، فيها النيل والفرات وسيحون وجيحون ، وفيها وديان مصر وسهول الهند وسواد العراقين وبطاح الأناضول وجبالها وريف فارس ، وهى ممتدة شاسعة من بحر الأطلنطيق الى ساحل الباسيفيك ، آخذة من حواشى سيبيريا شمالا الى جزر المحيط جنوبا ، وعـــدد سكانها ثلاثمائة وستون مليونا من البشر .

ولكن ألم يذهب بعض الغربين الى أن طبيعة أرض الشرق بجوها الحار ، مفسدة للهمم ، فهى نقمة بدلا من أن تكون نعمة ؟ ان هذا الرأى تفنده الأقيسة الصحيحة والآراء النافذة . وهنا يستشهد المؤلف برأى « ڤولتير » ليدحض هذا الرأى الباطل ، اذ لو كان سليما ما قامت الحضارات فى الشرق الذى ساد الدنيا

زمنا ، بل ما ضعفت أمة بعد قوتها ، والواقع غير ذلك ، فها هي ذى الأمم الغربية نفسها وأرضها لم تتغير وجوها لم يتبدل ولكن الذى تبدل فيها أخلاق أهلها . وقد أعجب من قبل الامبراطور « چوليان » بقوة أخلاق أهل باريس وجدهم وصلابتهم وطباعهم الهادئة ، ولكن أهلها كما يقول « ڤولتير » قد أصبحوا أخف احلاما وطباعا من فراشة . ثم أين عباقرة أثينا وروما اليوم ؟ ويستمر « ڤولتير » قائلا : « كان من عادة ( شيشرون ) » الخطيب الرومانى أن يهزأ بالانكليز ويتنادر عليهم حتى أنه كتب مرة رسالة لأخيه ( فانتوس ) الذى كان ضابطا مع قيصر في غزوته التى غزاها بانكلترا يسأله مستهزئا انكان وجد ثمةفلاسفة كبارا أو رياضيين عظاما . فهلا علم ( شيشرون ) أنه نشأ بعده فيها أعظم فلاسفة العالم ورياضييه ، تحت تلك السماء المظلمة بعينها . هـــذه كلهـــا أمثلة تدل على أن ليس للاقليم اثر يذكر فى ارتفـــاع الأمم وانخفاضها . »

من الواضح اذن أن الجو لا علاقة له بالتقدم والتأخر ، وأن رأسمال الاسلام كبير من حيث الأرض الطيبة وعدد السكان ، ولكن الا يعبث المستعمر الأوربى بهذه الأرض الطيبة ؟ أليس من الجائز أن يستوطنها الدخيل الأجنبى ويستولى على رأس المال ويبقى المسلمون أبدا عاطلين منه ؟ هنـــا يلجأ البكرى الى علوم الحياة يستعين بها فى الاجابة عن هذا التساؤل ، وهو فى حاجة الى الوقوف عنـــده لأن أعراض المرض ظاهرة بجسم الأمـــة الاسلامية . ويبدأ المؤلف مقررا أن الحيوان أو النبات أو الانسان لا يستطيع أن يعيش فى وسط غير مماثل لما نشأ فيه ، فلا يمكن للأسماك أن تعيش فى الصحراء ولا للناقـــة أن تدوم فى المـــاء ولا للنخيل أن ينبت بين الجليد وكذلك الشأنبالقياس الى الانسان والحيوان . وينقل رأى « لوبون » فى كتابه ( الفسيولوچيا ) حيث

يقرر أن التاريخ اثبت مرارا عجز أهل الشمال عن الاقامة الدائمة فى أرض الجنوب ، فالبربر وهم من أهل الشمال وبلاد الجليد فتحوا بلاد الرومان ولكن لم يمض قرن واحد حتى أفناهم الموت فلم يبق من القوطيين واحد فى ايطاليا . وهذه هى مصر ، حكمتها أمم كثيرة فأكلتهم وبقى الفلاح المصرى كما هو على أرضه . وكذلك عجز الرومان عن أن يستوطنوا أفريقيا مع أنهم استوطنوا أسبانيا وفرنسا وجعلوهما بلادا لاتينيــة . وقياســا على ذلك يتنبــأ بمستقبل الفرنسيين فى الجـــزائر ، فيرى انها ستهلك ذرارى فاتحيها . وقد صدق حدسه فى أيامنا هذه ، فقد تحولت الجزائر الى مقبرة للغزاة ، فحملوا عصيهم وعادوا من حيث جاءوا قبل أن تفنيهم الطبيعــة . فالأمة الاســلامية وان أصابها الضعف والتصدع فى كثير من جوانبها ، فانه لم يزل فيها من الخصائص ما تمتاز به على كثير من الأمم ، وذلك من أثر دينها وارث سلفها . وكثير من المبشرين أدركوا ذلك . مثل القسيس ( اسحاق طيار ) الذى يقول : « ان الاسلام يمتد فى أفريقيا وتسير الفضائل معه حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والاقدام من أنصاره ، ومن الأسف أن السكر والفحش والقمار تنتشر بين السكان ، بانتشار دعوة المبشرين . »

واذا اختلفت بهم البلدان وتنوعت الأجنـــاس وافترقت الألسنة فقد وحدتهم وحدة الاسلام وجمعتهم جامعــة الدين ، فوطن المسلمين هو مجموع الأمة الاسلامية ، « وهو الذى قيل فيه ، حب الوطن من الايمان» وليس المراد به حب التربة والمسكن والأهل والعشيرة ، ولو كان كذلك ما كانت الهجرة فى الاسلام ، فمن قال من المسلمين فى أية بقعة من الأرض « وطنى » فقد قال « دينى » . ولذا تجد المسلمين مهما تباعدوا أو تباغضوا لا تزال تعمل هذه الجامعة عملها فيهم ، فيفرحون ان أصاب الخير جزءا

منهم ويجزعون لنكبة تصيب بعضهم . فالجامعة على هذا الاساس تسير مع سنة العمران اذا نظرنا الى تجمع الأفراد فى شكل قبائل ثم فى شكل دول ثم فى صورة أمم . « وهذا لا ينافى أن كل أمة اسلامية تحفظ استقلالها وكيانها ، وانما تقوم الجامعة الدينية على جامعة الجنسية ، فيدافع جميع المسلمين بالتضامن عن جميع أرض الاسلام . »

انه نفس رأى جمال الدين الذى كتبه مرات فى جريدة العروة الوثقى ، فى الحث على اتحاد كلمة المسلمين بعنوان « الوحدة الاسلامية » أو « الجنسية والديانة الاسلامية » ، فعنده الا جنسية للمسلمين الا فى دينهم ، الذى لا يميز بين جنس وجنس لأن الرسول يقول : « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » . فلا فخار للأنساب ولا امتياز للأحساب ، ومن ثم قام بأمر المسلمين فى كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف فى جنسه ولا ورث الملك عن آبائه (١) . وكان هدف جمال الدين كما قلنا تكتيل المسلمين جميعا تحت جناح دولة اسلامية كبيرة مع احتفاظ كل دولة بكيانها الذاتى . وهى نفس النظرة التى ينظرها البكرى والتى طالعنا بها محمد عبده وغيره من تلاميذ ذلك الرائد .

الرابطة الدينية اذن رابطة قوية ، وتعاليم الاسلام السامية قد مدت جذورها فى أعماق المسلمين ، وما دام الأمر كذلك ، فان رأس المال السابق لابد أن يزداد مع الأيام ، فتتسع رقعة البلاد الاسلامية ، ويزداد عدد المسلمين ، بالرغم من كل العقبات التى تحاول أن تسد الطريق أمامهم ، لأن الاسلام يجتذب الكثيرين

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام جـ ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٤٩ ، ٢٧٦ .

من الوثنيين ويمتد جنوبا الى أعماق أفريقيا وشرقا الى جزر المحيط متخطيا الحواجز ، فهو دين المستقبل كما لاحظ ذلك بعض الباحثين الأوربيين أنفسهم ، ورأوا أن بســاطة العقيدة الاسلامية السبب الأول لسرعة انتشاره . وينقل آراء بعض المبشرين الذين سجلوا ملاحظاتهم فى هذا الشأن مثل ( اسحاق طيلر ) الذى يقول : « ليس أمر المسيحية واقفا عند العجز عن احداث مواطىء جديدة لأقدامها فقط ، ولكن المقام الذى هى فيه قد تعجز عن حفظه أيضـــا . ان دين الاســلام قد انتشر آنفا من مراكش الى واجا ومن زنجبار الى الصين ، وهو الآن ينتشر فى أفريقية بسرعة لا يتأتى عليها الوصف ، واننا لنرى الاسلام أوفق ما يكون لتهـــذيب الأمم المتوحشة وترقيتها . أما الديانة المسيحية فلا تنالها عقولهم ، وبذا قد نفع الاسلام المدنية أكثر مما نفعتها المسيحية . اذا دخلت الديانة المحمدية فى قبيلة زنجية محت عبـــادة الأوثان وأبطلت أكل لحوم البشر وواد الأطفال ، وانشأت فيهم النظافة وعزة النفس والوقار وكرم السجايا ، فيصير قرى الضيف بمنزلة الفريضة الشرعية ، ويندر السكر والقمـــار والمراقص الخزية ، وتعد العفـــة فى الاناث من خلائق التقوى ، ويفشو التناصح بالاحســـان والأخوة والوجدان . » كما لاحـــظ ( دى كاســـترى ) بســـاطة تعاليم الاســلام وخلوه من الأسرار والأحاجى ، والتيسير على متبعيه فى كثير من أمور دنياهم ، فهو دين متفق مع قانون النشأة الدنيوية ، أو بمعنى آخر ، هو دين الفطرة (١) .

ويترتب على ذلك عدة أمور كلها حقائق جذابة ، فالمساواة التى يدعو اليها الاســلام لا شك تغرى الفقراء وطوائف الهنود عـــلى اعتنـــاقه ، وينقـــل المؤلف عن ( لوشـــاتلييه ) وعن

(١) المستقبل للاسلام ص ١٨/١٩ .

( لودوفيج دى كنتاسون ) رأيهما فى الدعوة الى المساواة ، حين لم يفضل الدين عربيا على عجميا ومن هنا كانت الأمم التى تتفرق فى طوائفها وفى اجناسها تجـــده المخلص لها من أجل اقامة أركان المساواة والاخاء والحرية .

ويتوقف المؤلف طويلا عند حركة الصوفية وأثرها فى انتشار الاسلام . فمن الواضح أن العالم الاسلامى قد وقف عن التقدم والغلب أمام الدول الأوربية منذ فترة طويلة فاستطالت هـــذه الدول على الممالك الاسلامية وغلبت الكثير منها بالقوة العقلية والمادية ، ولـكن الذى أعجزها وضاعت معه قوتها وحيلتها هم الصوفية . وعلى هذا فالصوفية ـ فى رأى المؤلف ـ هم القوة الدالة على الحيوية والنماء فى العالم الاسلامى ، فتراهم فى افريقيا وفى الصين وفى الهنـــد وأواسط آسيا وجزر المحيط يدعون الى الاسلام ، حتى ان الخطوط التى ترسم فى افريقيا لبيان حدود الاسلام وراء خط الاستواء ، تنقل متقدمة الى الجنوب فى كل عام من أثر فتوحات مشايخ الصوفية فى مجاهل أفريقيا . وما دخل الفرنسيون قرية فى الـكونغو الا وجـدوا الصـوفية قد سبقوهم اليها وزرعوا جذور الاسلام فيها . ومن يطلع على المؤلفات الكثيرة التى تؤلف فى أوربا أواخر القرن التاسع عشر عن الطرق الصوفية وتاريخها ووسائل الدعاة ، يدرك أن موضوع الصوفية هى الشغل الشاغل للباحثين فى الاسلام . ويعجبون كيف يستطيع التاجر وطالب العلم والمجذوب أن يؤدى رسالته فى سهولة ، وفى ذلك يقول ( شاتلييه ) : « والخلاصة أن الاسلام مدين بكل فتوحاته السلمية وانتشاره فى الأقطار لجماعة الصوفية فمشايخ الطريق هم فى الحقيقـة الذين يديرون حركة الاسلام الحية ، ولا يخفى ما فى عملهم هـــذا من الخطر على المصالح الأوربية . » وبلغ من اهتمامهم أن كلفوا جماعة من الباحثين

برئاسة ( أوكتاف دويون ) للبحث فى أحوال الصوفية فطبعت أعمالها فى مؤلف ضخم ورسمت خريطة عامة توضح ما يوجد من الطرق فى كل بلد من بلاد الاسلام حتى تستعصى حركاتها وتنقلاتها فى الأقاليم .

ومن الواضح أيضا أن المؤلف يهدف من اشباع هذا الموضوع الى الرد على منكرى العقائد الصوفية والداعين الى تصفيتها باعتبارها مما دخل الاسلام فى القرن الثانى عن طريق الفرس بدليل أن مشايخ الطرق الأولين كلهم أعاجم كالجنيد التهاوندى وأبو يزيد البسطامى وابراهيم بن ادهم البلخى وبشر الحافى وسهل التسترى وغيرهم . والوصول الى المعرفة عند الصوفية فى زعمهم ليس من طريق النظر والتجربة ، بل من طريق الرياضة كالاهتزاز الشديد فى الذكر لتخليص النفس من الحس ، فهذه العقائد لم يجىء بها كتاب ولا سنة . ومن أجل ذلك يرد البكرى ذاكرا اعتراف الأوربيين بأنها الحركة الحية الباقية الآن فى الاسلام ، والتى فتحت للاسلام قدر ما فتحته سيوف الفاتحين الأولين . واصلاح الصوفية لا يكون بتصفيتها ، بل بتوجيه التصوف حتى يصبح مدرسة عظمى هدفها العلم بالشرع والعمل به (١) . وقد ألح البكرى بعد ذلك على هذه الفكرة وخطط لها ولكنه لم يتمكن من تنفيذها لأن الأيام أسرعت به الى نهاية أخرى .

ثم ينطلق البكرى الى فكرة أخرى لا شك انها من اسباب كثرة عدد المسلمين ، وهى تعدد الزوجات . فاذا كان كثرة النسل فى البيئات التى لا تجود فيها الطبيعة من دواعى تدهور الاقتصاد ، فان كثرة النسل فى البيئات الأخرى كانت من اسباب

---

(١) حاشية « المستقبل للاسلام » ص ٢٠ .

انتشـــار الاســـلام ، وتعدد الزوجات ســـلاح فى يد المسلمين يستطيعون اشهاره لزيادة العدد زيادة كبيرة فى وقت سريع بينما لا يستطيع ذلك أصـــحاب الديانات الأخرى ، وفى ذلك يقول ( دى كسترى ) : « ومن الوسائل الناجحة فى المسلمين لانتشار الاسلام ، الزواج ، فان سلاطين السودان يتزوجون من الأسر الوثنية لهذه الغاية ، ولا تمكث النساء وأولادهن حتى يصير الكل من أقوى الأسباب لانتشار الدين الاسلامى . »

هذه هى الأسباب التى دفعت بالاســـلام فى كل اتجاه ، وقد بلبلت هـــذه الفتوحات أفكار الأمم الأخرى حتى عدوها من الخوارق ، وتوقعوا أن يمتـــد ويتشعب ثم يكتسح البوذية بباسه القوى وهنا ينبغى على بقية الأمم أن ترقب الأمر بحذر شديد كما يقول ( وازيليف ) . وقد ردد نفس القول ( هانوتو ) وزير خارجية فرنسا فى مقاله الشهير الذى فنده محمد عبده ، فهو يتوقع أن يزداد عدد المسلمين فى الصين زيادة هائلة لأنه الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل الى التدين به ، كل ميل الى اعتناق دين سواه . ويعلل كاتب آخر من الأوربيين هذه الظاهرة قائلا : « ملأ الأوربيون بلاد الصين بجماهير المرسلين من كل ملة ونحلة ، وسهلوا لهم سبل التملك ووعدوهم بالمساعدة ، فأدخل هؤلاء المرسلون بعضا من أهل الصين فى دينهم بعد ما وعدوهم بالحماية الأجنبية من كل سلطة للقانون فجرأهم ذلك على ارتكاب ما تحرمه القوانين ، والاعتداء على أهل البلاد فنجم عن هذا معظم الأسباب التى أوجبت كره أهل الصين للمسيحيين كرها يشبه التعصب ، وبالجملة ان الأوربيين القائلين بالمساواة يعاملون اللون الأبيض من بنى الانسان معاملة الأخ لأخيه ، واللون الأصفر معاملة الرجل لخادمه واللون الأسمر معاملة السيد لعبده ، ويطلقون الرصاص على ذى اللون الأســـود كما يطلقونها على الوحش الضـــارى .

فالانسان كلما مال لونه الى السـواد كان نصـيبه من هؤلاء الخذلان وفاحش الامتحان ، ولهذا كان كره الأمم الشرقية لهم متكاثرا . »

من أجل ذلك كله ندرك أن حظ الاسلام من الأرض أوفر حظ وأن أرضه له لا يمكن أن ينتزعها منه غيره ، كما ندرك أن عـدد المسلمين يتزايد على الأيام ، وأن صفاتهم الفطرية قويمة وجامعتهم الدينية عظيمة ، فراسمال الاسلام ضخم ، ولا ينقصه الا الأمـور المكتسبة والأسباب الوضعية التى لابد أن تدفعه طبيعة العمران لتحصيلها شاء أو أبى فيصل الى ما قدره الله له من السعادة .

وهكذا ينتهى الفصـل الأول وقد أسلمنا المؤلف الى هـذا الرأى بعد نقاشه الطويل وأدلته العقلية والنقلية . ولكن المستشرق الانجليزى « مرجيليوث » متأثر بالعقلية الاستعمارية يقرأ هذه الدراسة فلا يناقش جوهرها وانما يرى أن الاستعمار البريطانى قد وفر الأمن للبلاد الاسلامية التى استعمرها فزاد عددها لأن الزيادة ـ كما يرى ـ قاصرة على مصر والهند ولا تتعداها الى الدول الاسلامية التى تحكم نفسها حكما مباشرا (١) .

وينتقل المؤلف الى الفصل الثانى من كتابه ، فيتناول فيه أسباب انحطاط الأمة الاسلامية . والحديث كما ذكرنا كان يدور حول هذه الأسـباب ، فأرجعها صاحب « السبب اليقين » الى البعـد عن تعاليم الاسـلام وأرجعها الكواكبى فى « طبائع الاستبداد » الى ظلم الحكام وطغيانهم ، وأتى الكواكبى مرة أخرى فى « أم القرى » بعـدة أسباب على ألسنة أعضاء المؤتمر الذى تخيله ، منها الجهالة وسيطرة الأوربيين على الدول الاسلامية .

---

(١) راجع مقال مرجيليوث فى المؤيد ١٩٠٧/١٠/١٦ .

ولكن البكرى لا يدخل الى صلب الموضوع مباشرة وانما يتحدث عن القوانين العامة التى تخضع لها الأمم جميعا فى ضعفها وارتقائها . ففريق من العلماء يرى أن هناك ناموسا طبيعيا تخضع له الأمم مثلما يخضع له الأفراد . والفرد اذا جاء زمن مشيه مشى وحده واذا جاء زمن النطق نطق وحده أيضا وكذلك المجتمعات الانسانية مسيرة بقانون أزلى أشبه بالقوانين الطبيعية والفلكية التى تسير الكواكب فى أفلاكها ، وكل مجتمع هو نتيجة حتمية لماض طويل الأمد يحمل معه كل بذور التحول ومراحل التطور التى يمر بها كما لا يبلغ المرء مرحلة من عمره ما لم يمر بالأدوار التى تفصله عنه . أما الفريق الثانى فيرى الأمة أشبه بالشمعة المذابة يمكن تشكيلها ، والارادة تفعل فى كيانها فعل المعجزات . قال بهذا أفلاطون وأرسطو وليبنيز وليكورنج وأوضح دليل على صحة هذا الرأى — فى نظر البكرى — اليابان التى استطاعت بارادة أبنائها تحقيق الأحلام .

ولكن ما السر وراء تحريك الارادة ؟ هنا يلجأ البكرى الى أبحاث الفلاسفة ويستعين بها . فليبنيز الحكيم يقول : « لو كان أمر التعليم موكولا الى لغيرت وجه أوربا فى أقل من قرن » و « ديدرو » يقول : « علة العلل فى ارتقاء أو انحطاط الأمم هو العلم أو الجهل » . هذا فرض واحتمال من الاحتمالات العديدة ومنها الاستبداد ولكن البكرى يدحض الفرض الأخير حين يقرر أن الحكومة لا تكون الا على قدر استعداد الأمة ، وما شذ عن ذلك لا حكم له ، لأن المصادفة قد توجد حكومة فوق قدر الأمة ، فلا تلبث أن تتبدل بموت القائم بها ، بحكومة اخرى تفسد كل ما أتت به الأولى . ومن الفروض التى كانت تجول بالخواطر أيضا انتشار البدع باسم الدين وتكاثرها حتى كاد أن يتوارى جوهر الدين نفسه ، فيقرر البكرى أن كل ذلك

يرجع الى الجهـل بالدين ، فلولا الجهل به ما تمكنت البـدع الفاسـدة من الانتشار . وهكذا يتخـذ المؤلف منهج البحث الاستقرائي ، فيدحض الفروض حتى لا يبقى أمامه الا الجهل فيقيم البنية على أنه علة العلل .

« هـذه الأرض وان تنوعت أسماء أجزائها فى المواضعة ، واختلفت ألوان بقاعها فى الخرائط ، فهى بسيط واحد ، فيه العامر والغامر ، والأمم فيه كأمة واحدة ، فيها القوى والضعيف ، وقد أوجدت المصادفة بعض هؤلاء فى حيز عامر مفعم بالنعم ، والبعض فى حيز غامر مملوء بالنقم ، وجبل الانسان على حب الأثرة لنفسـه ولو هلك فى ذلك أهل الأرض جميعا ... فوقع بين القوم بسبب ذلك ما يسمى بتنازع الحياة . وهو فى الواقع قتال بلا سيوف ورماح ، كل يطلب الطيبات لنفسه ويحرص على نزع ذلك من الآخر بقوة بأسه . معمعة يعيش فيها الجليد ، ويهلك الرعديد ، ويحيا القوى ويموت الضعيف ، فلهذا احتاج كل واحد أن يكون أقوى من قرنه ، فتراجعوا فى الأزمان الأولى الى القوة الجسمية ، حتى اذا سما العقل واستنبط من الأساليب ما طمس به قوة الجسم ، فزعوا الى القوة العلمية ، ولهذا قال بعض السياسيين ( الجاهل الآن كالأعزل فى القرون الوسطى ) فمن كان أكثر علما كان أكثر قوة ... ومن هذا يعلم أن جميع أحوال الأمة متوقفة على حـال أشخاصها من الجهل والعلم ، فان صلحت الأشخاص ، صلحت الأحوال والعكس بالعكس ، وبهذا جاء القرآن . قال تعالى ( ان الله لا يغـير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ) » (١) .

وللعلم نبعان فى الوجود ، الدين والحكمة ، فنأخذه من الدين

---

(١) المستقبل للاسلام ص ٣١ .

أولا ثم من الحكمة ثانيا ، وينقل عن « ابن مسكويه » رأيه في فرعي الحكمة النظرى والعملى . فبالنظرى يمكن تحصيل الآراء الصحيحة وبالعملى يمكن تحصيل الهيئة الفاضلة . ولكن هل هناك تباين بين الدين والعلم مثلما يرى بعض الناس ؟ الواقع أن ذلك باطل ، وانما وقع لهم هذا الوهم حين حصلوا من الدين ما ليس منه ، أو اخطأوا مقاصده . فالعلم عدو الأوهام المنتشرة بين الناس باسم الدين ولكنه ليس عدوا للدين الحق الذى تحاول هذه الأوهام ستره عن الأبصار . وقد يبدو شيء من العلم المتداول يناقض فى ظاهره الدين ، ولكن هذا كما يقول « هربرت سبنسر » ( من قبيل العلم الذى أكثره وهم ) ، وكما يقول « باكون » ( القليل من العلم يبعد من الله والكثير منه يقرب منه ) ، وفى ذلك يقول « هكسلى » أيضا : ( الدين والعلم كتوأمين متلاصقين ، فصلهما يؤدى الى موتهما ، فان العلم ينمو متى كان دينيا ، والدين يثبت متى كان علميا ) .

فالعلم الالهى أو الفلسفة الأولى هى أس العلوم ، وبداية الانطلاق والتطور ، هكذا قال جمال الدين الأفغانى عندما سأله « رينان » عن سبب عقم المدارس فى الشرق ، فقرر « أن سببه فقد الفلسفة الأولى منها اذ هى للعلوم كالسلك للعقد أو القاعدة للمسائل ، فان فقد السلك تبدد العقد أو عدمت القاعدة تناثرت المسائل . » أما الدين فليس هو مجموع حركات بدنية كما يفهم الناس أو لفيف من الأحاجى لا يصل اليها الادراك ، بل ارشاد الخلق الى الحق ثم هدايتهم بقواعده الى ما فيه سعادتهم ، ومن هنا يمتاز على العلم بأنه يجمع السعادتين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . وأما العلم فليس هو الأبواب المحفوظة التى يلقب أصحابها بالعلماء عند المسلمين اليوم ، بل هو أوسع من ذلك رحابا وأفسح مجالا ، فهو معرفة حقائق الوجود جميعا ، ولكل علم وظيفة

لا يقوم بها غيره فى جسم المجتمع ، كما لكل عضو وظيفة لا يقوم بها غيره فى جسم الانسان .

النتيجة واذن أن الجهـل هو سبب انحطاط الأمة الاسلامية ، الجهل بالدين والجهل بالحكمة أو بالعلم . « أما الدين فلو حكمناه فى نفوس أكثر المسلمين الآن ، وطبقناه على عقائدهم وأخلاقهم وأحكامهم لوجدنا لدى أكثرهم فى محل كل عقيدة قرآنية أو خلق دينى عقيدة خرنى أو خلقا آخر يكاد يضاد الأول على خط مستقيم . واذا كان الأول آلة للعلاء كان الثانى علة للانحطاط . ليس الغاية من الدين مجرد الانتساب اليه ، فان ذلك لا يهدى الى خير ولا يدفع عن شر . وانما العمل والانتفاع بكل ما جاء فيه هو الذى يرقى بصاحبه الى ذرى الكمال ، وذلك كالطب ، فانه لا يكفى أن يعتقد الانسان أنه نافع فيبرأ من مرضه وأوصابه وانما يحصل على ذلك باستعماله والائتمار بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه ...

« وأما العلم فحالهم فيه كحالهم فى الدين فهم كل يوم يبعدون عنه ويقربون من نقيضه ، ولهذا تجد الكتاب عندهم كلما كان أقدم كان أنفس وأجود ، بخلاف الأمم الحية ، فانه لا يقرأ الكتاب فيها اذا مضى عليه عشرون عاما . منذ كسرت أقلام المسلمين الأولين نرى العلم واقفا بيننا لا يتحرك ، أين الجماعات المشتغلة بالعلوم الالهية ؟ أين منشئو المذاهب والآراء ؟ أين المحامون عن العقائد ؟ أين المؤلفون فى الرياضيات ؟ أين المخترعون لعلوم لم تكن كالجبر والكيمياء ؟ أين من نقـل فلسـفة أوربا كما نقل أولئك فلسفة اليونان ؟ أين من شرح كتب كانت وديكارت مثلما شرح ابن رشد كتب أرسطو وابن كمونة كتب أفلاطون ؟ أين من جمع علوم الأوائل فى سفر شامل كما فعل الفارابى فى كتب التعليم الثانى ؟ أين من ألف فوق مائة مؤلف من الطب كابن سينا والرازى ؟ ... أكثر ما عند

المسلمين الآن اختلاف فى اعراب البسملة وبيان وجوه الصفة المشبهة وأمثالها ، وشيء من الفقه يعلمونه ولا يعملون به ، وما عدا ذلك فقشور من العلم فى المدارس الحديثة ، المقصود منها صنع موظفين للحكومات ، أو أجراء لبعض المهن كالطب والحقوق ونحوهما . » (١)

بمثل هذه القدرة على التفكير المتعمق ، استطاع البكرى أن يضع يده حقيقة على موطن الداء فى جسم الأمة الاسلامية وأن يقنعنا برأيه وهو يجوس خلال جبال من الأبحاث العلمية ، ويسلمنا النتيجة بعد أن خلصها من كل شوائبها . ومهما اختلط علينا الطريق الآن فى مسيرنا ، فان الحقيقة التى اهتدى اليها البكرى المفكر — وهى على بعد خطوات منا — تبقى الدليل الذى يقود ركبنا فى رحلة التطور .

اذا كان الجهل سبب الانحطاط والعلم سبب النهضة ودافعها وقوامها ، كان لابد من البحث فى وسائل هذا العلم . ولكن ألا يرى بعض اليائسين ، « أن الفساد حل بالمسلمين فى نفوسهم ، فى أمتهم ، فى دينهم ، وفى دنياهم ، وقد سكن فى كل عضو منهم علة وفى كل جارحة ألم وأزمنت الأدواء واستطرقت الى بعضها حتى أصبحت كل علة تسوق عللا ، وكل مرض يهيج أمراضا ، وغدا شبه الدور والتسلسل ، فيتيه فى هذا التيه ، ولا يدرى كيف يسرى ، وماذا

---

(١) حاول الكواكبى فى كتابه « طبائع الاستبداد » أن يرد كل العلل الى الاستبداد ، فهو فى رأيه سبب ما يحيق بالأمة من جهل وما يصيب الناس من ضلال . ولكن المتعمق يرى الاستبداد نتيجة وليس سببا والكواكبى نفسه عندما حاول أن يواجه الاستبداد ويقضى عليه ، رأى أن الوسيلة الوحيدة هى توعية الأمة وادراكها لحقوقها ، وهكذا وصل فى النهاية دون أن يشعر الى جوهر الأمر لأن التوعية والادراك يرتبطان بالمعرفة والعلم وانعدامهما يرجع الى الجهل ، وحين يوجد الجهل يصبح الاستبداد أمرا ميسورا وحقيقة واقعة .

يصلح وماذا يترك وأى دواء يستعمل ، وقد اختلفت الامراض وتباينت الآلام ، فيقف حائرا بائرا يائسا ، يرى أن خلق جديد أهون من اصلاح هذا » ؟ الواقع أن كل الأدواء ظاهرية فاذا صلح الجوهر ، تلاشت من تلقاء نفسها ، كما يحس المريض بالألم فى كل جزء من جسمه ويصور له الوهم ألوانا من العلل ، فاذا وضع يده على موطن الداء تلاشت الآلام كلها . وفى ذلك يقول البكرى : « فلمثل هذا الحائر المشتبه أضرب المثل الذى ضربه ( فكتور هوجو ) الشاعر الكبير قال : مثل سلطان الاستبداد ، مثل مصر بنى على بطائح ( النيفا ) فى الروسيا ، وقد جمد الثلج ماءها فشيدت القرى والمنازل على الجليد وسارت العجلات ودارت حركة المعاش فى الأسواق كأكثر ما يكون ، وضرب الرجل برجله الأرض فوجد أصلب من الصخر ، لا تعمل فيه المعاول ولا يقطعه الديناميت ، فقيل له ان هذا كله ظل زائل ، ولا يلبث الا عشية أو ضحاها حتى يمحى فلا يكون له أثر ، فكذب وأنكر ، وهاله الأمر ، وبينما هو كذلك واذا بشعاعة من الشمس سالت على هذه الدنيا الصغيرة فاذا هى حلم حالم . قال ( هوجو ) هذه الشعاعة هى الحرية ، واقول أنا هى العلم . » (١)

ومن المسلم به أن الدول الأوربية قد سبقتنا فى مضمار العلم ، فلا سبيل الى اللحاق بها الا عن طريق الأخذ منها أولا وهكذا شأن الحضارات دائما تأخذ ثم تعطى . وقد نختلف فى وسيلة الأخذ فيرى بعضنا أن ترجمته الى لغات المسلمين هو الأجدى ، وهو السبيل الذى سلكته كل الأمم السالفة فى نقل العلم اليها كما فعل العرب فى نقل علوم اليونان والسريان وكما فعل الأوربيون فى نقل علوم العرب ، حتى لنجد كثيرا من مؤلفات العرب الأصيلة مترجمة

---

(١) المستقبل للاسلام ص ٤٣ .

الى اللاتينيـــة ومطبوعة بها منذ قرون ، وهى مفقودة من البلاد الاسلامية . ونحن اذا ترجمنا العلم ، فقد نقلناه الينا ، وان تعلمنا اللغات فقط فقد نقلنا افرادا منا الى العلم . ولكن الفريق الآخر يرى الطريق الأوفق هو تعليم المسلمين لغة من لغات العلم وهى الفرنسية والانكليزية والألمانية لتكون لغتهم العلمية ، ففى رأيه أن سير المترجمين وسير العلم فى حركته اشبه ما يكون بالفرق بين راكب الناقة وراكب الباخرة ، فان بدأ كلاهما من نقطة واحدة ، فلا يلبثان أن يفترقا فيسبق العلم النقل ، ومن أجل ذلك غيرت الأمم الآن منهجهـا الى العلم واهتمت بتعلم اللغـــات كما فعلت اليابان .

يبدو أن كلا الرأيين وجيه ، ولكن الأجـدى علينا أن نوفق بينهما فنجعل تعلم اللغات الأوربية اجباريا فنعطى كل فرد مفتاح المعرفة ، ثم نجعل التعليم والتأليف بلسان الأمة . ومتى فعلنا ذلك امكننا أن نسير مع العلم لأن كتبه ونتائجه تصبح كتبنا ونتائجنا ، وأمكننا أن ننقل منـــه ما نشاء . غير أن معضلة تجابهنا هنا ، لا يغفل البكرى عنها ، وهى معضلة اللغة العربية من حيث قدرتها على استيعاب المصطلحات الحديثة . ومن العجيب أن يقترح البكرى هنا اتخاذ أحد المعاجم الموجودة بين أيدينا أصلا ، ثم نذيله بما استجد من مصطلحات ، ناقلين ألفاظ العلوم واصطلاحات الفنون كما هى بعد تحوير قليل تنتظم به فى صيغ اللغة الأصلية ، بينما كان يحاول ايجاد ألفاظ من متن اللغة أو يلجأ الى النحت والاشتقاق فى مجمعه الأول كما رأينا من قبل . وهنا يتفق البكرى مع معاصره «قاسم أمين» عندما هاجم الاشتقاق لأنه جهد لا لزوم له تنفر منه الأذن ، بينما تتقبل اللفظة الأجنبية بعد تحويرها (١) .

---

(١) راجع فصل « الكاتب » من كتاب قاسم أمين .

والواقع أن هذين هما الطريقان للتعريب وأسهلهما وأقربهما الى الأذن أيضا اللفظة الأجنبية المحورة ، وقد تنبه البكرى الى أن هذا الطريق بعيد عن مواد اللغة التى رتبت المعاجم على أساسها فرأى أن توضع الكلمات الجديدة بذيل المعجم ، ولكن المصطلحات الجديدة كلما تكاثرت أصبحت بحاجة الى ترتيب يختلف عن ترتيب المعاجم ومن ناحية أخرى لا نستطيع أن نعتبر اللغة قد هضمت هذه الكلمات وأفادت منها ، وانما تبقى غريبة عنها كما نستعمل اليوم كلمة « تليفزيون » أو كلمة « كوميديا » ، واذا كانت الأذن تنفر من الكلمة المشتقة ، فانها بتوالى الاستعمال والسماع تتقبلها ولا تعود تنفر منها ، وقد كان قاسم أمين يعجب لأن بعض الكتاب يستعملون أحيانا كلمة سيارة بدلا من « أوتوموبيل » ونحن اليوم ننفر من الثانية لا من الأولى . ومن الحق أن النحت والاشتقاق عملية شاقة ولكنها تثرى اللغة وتحفظ تراكيبها ، ومن أجل ذلك يأخذ المجمع اللغوى الآن بالرأى الثانى على الرغم مما فيه من مشاق .

هذه هى جهود البكرى فيما يتعلق بالنقطة الأولى من تخطيطه المفصل لجوانب العلم ــ تحدث فيها عن وسيلة نقله ورأى أن نقطع الطريقين معا ، ومن المسلم به أن هذا الحل هو أوفق الحلول ، خاصة اذا كانت مرحلة التطور تقتضى أن نقطع الشوط مسرعين ، ولا شك أننا اليوم نسير بخطى حثيثة لنلحق بركب العلم ، بعد أن فرضنا تعلم اللغات الأوربية ، وترجمنا وما زلنا نترجم الدراسات الأدبية والعلمية الأصيلة . وبقى أن يجيب البكرى عن بقية الأسئلة التى تتعلق بكيفية التعليم من حيث مناهجه ومعاهده ، والمال اللازم لذلك وكيفية تدبيره ، ومن يقوم بجهود التعليم فى تلك المرحلة التى تحارب فيها وسائل التعليم من أكثر من جانب .

« أما كيفية تعليم العلم وترتيب ذلك فأهم ما يجب أن يعمل فيه أن يكون التعليم عاما اجبـــاريا على ثلاث طبقات ( ابتدائى وثانوى وعال ) وأن يكون التلاميذ بقدر عشرين فى المائة من عدد السكان ، منهم واحد فى المائة للمدارس العالية وسبعة فى المائة للثانوية وما بقى فللمدارس الابتدائية . وأن يكون الأساتذة على نسبة واحد لكل خمسة عشر تلميذا فى المدارس العالية وواحد لكل ثلاثين فى المدارس الثانوية ، ولكل خمسين فى المدارس الابتدائية . وعلى هذا يجب أن تكون المدارس الابتدائية منتشرة فى كل قرية انتشار المساجد والزوايا والمدارس الثانوية فى كل مركز والمدارس العليا ( أى الجامعة ) فى أمهات المدن . وينبغى أن تكون الغاية عند الكافة من طلب العلم أن يكون المرء سعيدا فى رزقه ، سعيدا فى نفسه وفى فكره وفى بيتـــه وفى أمته ، لا أن تكون أداء الامتحان وأخذ الشهادة . » (١)

هذا النص يعرض فيه البكرى المفكر لعدة قضايا ، فيثير موضوع التعليم الاجبارى الذى لم يتحقق الا بعد وفاة البكرى بزمن طويل ، فهو يستعمل التطور ويجد التعليم الاجبارى أمرا جوهريا للاسراع به . والحقيقة أن هذه الفكرة ترجع الى تفكيره العام فى الطبقة الأرستقراطية التى احتكرت كل شىء حتى التعليم ، لأن مصروفات المدارس الثانوية مرتفعة ، وأجور التعليم بالمعاهد العليا القليلة أكثر ارتفاعا ، أما من شاء التعليم الجامعى فعليه أن يرسل بأبنائه الى أوربا ، وسياسة « دانلوب » بصورة عامة لا تهـدف الى ايجاد طبقـة مثقفـــة تستطيع أن تكشف عيوب الاستعمار ، وانما تهدف الى تخريج طبقة من الموظفين . ومن أجل هذا يدعو البكرى الى كسر الأرستقراطية والاستعمار ليصبح

(١) المستقبل للاسلام ص ٤٤/٤٥ .

العلم كالماء وكالهواء . وهى دعوة جريئة فى ذلك الوقت المبكر خاصة اذا ارتبطت بالدعوة الى انشاء الجامعة بل الجامعات كما يقول . وهى أول صوت يرتفع مناديا فى مصر بانشاء الجامعة ، قبل دعوة مصطفى كامل وقاسم امين ولطفى السيد بأكثر من عشر سنوات . وهو يدرك مهمة الجامعة ومهمة العلم كله ، فلا ينبغى أن نهدف الى مجرد الحصول على الاجازات العلمية ، وانما الهدف الأسمى البحث والتعمق فيه وفتح النوافذ جميعها ليتسرب تيار من الهواء النقى الذى يزيح الركود والجمود العلمى . أما النسب التى حددها لعدد الأساتذة فهى نسب مثالية ما زلنا نطمح فى تحقيقها ، لنرتفع بمستوى الدراسة ولتكوين شخصية الطالب الباحث ، ومن الواضح انه متأخر بالاحصائيات الأوربية فى هذا الشأن . فهى نظرة طموحة تمثل دعوة جريئة ، سبقت عصرها بزمن طويل .

ويستمر المؤلف فى حديثه قائلا : « ان جداول التعليم فى المدارس ( البروجرام ) هو بمثابة الجوهر ، وكل ما عداه فى مقام العرض ، فعليه يتوقف الفلاح فى الحياة أو الخيبة فيها . وطالما حرص الفلاسفة على تبيان اهمية هذا الأمر ، واهتمت به الحكومات . قال چان چاك روسو ( ان أكثر ما نتعلمه فى المدارس كأنما نتعلمه لننساه لا غير ، ذلك أن معظم مما لا نستفيد منه فى حياتنا مرة واحدة ) . وقال آخر : ( الفساد فى التعليم يفسد أمة بأسرها ) ، وقال هربرت سبنسر الفيلسوف الانكليزى : ( لو لم يكن عندنا من العلم الا ما نعلمه فى المدارس لكانت انجلترا اليوم على ما كانت عليه فى القرون الوسطى . فجميع ما عندنا من المعارف الكبرى التى صرنا بها امة عظيمة فى الدنيا ، لم تنشأ من المدارس المعدة لذلك ، بل من أكواخ حقيرة وزوايا مهجورة ) . وقال ( كوريون ) عن مدارس فرنسا : ( ان ثلاثة أرباع الوقت يضيع فيها سدى ) ، وقال ( هنرى دوڤيل ) فى جلسة عامة

بأكاديمية العلوم فى فرنسا : ( انى عضو فى المدرسة الجامعة ــ كلية باريس ــ من مدة ، وانى اليوم على وشك الاعتزال من الأعمال فأقول لكم قولا يجب أن يملأ كل اذن وهو انى ما دامت هذه المدرسة على هذه الحال ، فلا تسوق الا الى الجهالة ) .

« واذا كان الأمر من الأهمية بحيث استدعى ايراد هذه الأقوال عن مدارس أوربا ، وجب أن نجعله فى المنزلة القصوى من الاهتمـــام به ، ولا نقلد الأمم بنقــل بروجراماتهــا كما هى ، وقد سمعنا أقوال الفضلاء فى قيمة تلك البروجرامات وقلة جدواها فى التربية العامة ...

« والاختصاص بالفن الواحد من أهم الأمور فى بلوغ الغايات فى العلوم ، اذ العلم يعطيك من نفسه بقدر ما تعطيه من نفسك ، ومما يجب تعويد الطلبة عـــلى السير مع العلم كل يوم . وعـــدم الوقوف طول العمر عندما يتلقونه فى المدارس ، وذلك بالاطلاع على فهارس دور الكتب والوراقين والوقوف على كل ما يجـد فى الفن . » وهكذا يرفض البكرى مناهج التعليم الأوربية ، وهو يعرف أن الكثيرين ممن تغـذوا بغذاء الثقافة الأوربية ، سوف يعترضون ، ومن أجـل ذلك يسوق كل تلك الآراء ليؤكد وجهة نظره ، وليثبت أن تقليد الأمم لا يفقد الشخصية المستقلة وحسب ، وانما يجعلنا نقع فى أخطاء لا مبرر لها ، واذا اتسعنا فى تطبيق هذه النظرة قلنا ان القضية التى تثير نفس الرأى اليوم ، خاصـــة بأعضاء البعثات الذين يعودون وفى رؤوسهم المناهج الغربية التى درسوها ، ويقومون بتدريسها فى معاهدنا بالرغم من عدم ملاءمة بعضها لظروفنا ، فمشاكل لغتنـــا غير مشـــاكل لغاتهم ونظرتنا لتاريخنا غير نظرتهم لتاريخنا ، وظروفنا الاجتماعية غير ظروفهم ومشاكلنا النفسية أيضا غير مشاكلهم وقوانيننا تتصل بالشريعة

وقوانينهم تختلف بل ان أمراض المناطق الحارة غير أمراض المناطق الباردة وقل مثل ذلك فى بقية الدراسات .

ويدرك أن عصر الموسوعات قد انتهى ، وأن عصر التخصص قد بدأ من زمن فى أوربا ، بعد اتساع مجالات المعرفة ، ولا يمكن أن تتعمق دراساتنا ونكتشف مجاهل العلم ما لم نمنحه كل جهدنا ووقتنا ونسير معه العمر كله نتابع كل جديد فيه ، والا اضطررنا أن نبقى سطحيين بينما يتجاوز العالم السطح ويغوص الى الأعماق ، ويخرج كل يوم بجديد . وهى دعوة طبيعية ، فمع أننا أخذنا بمبدأ التخصص اليوم ، خاصة فى الدراسات الجامعية ، فما زلنا بحاجة الى مزيد من التخصص وتضييق دوائر البحث .

ولكن البكرى المفكر لا يحب أن يترك موضوع المناهج دون أن يقول رأيه فيه ليستكمل بحثـــه من كل الوجوه . وهو يدرك أن الأمر لا يحتاج الى مجرد نظرة مفكر ، وانما يحتاج دراسات مستفيضة وأوجه نظر متعددة ولذا لا يفصل فى المناهج وانما ينظر اليها نظرة عامة . فيرى التعليم الابتـدائى ينبغى أن يلم التلميذ فيه « بما يحفظ العقيدة » وهو مبادىء الالهيات ، ( ما يحفظ الجسم ) وهى مبادىء الصحة ، ( ما يحفظ النفس ) مثل علم الأخلاق ، ( ما يحفظ العائلة ) مثل تدبير المنزل ، ( ما يحفظ الأمة ) مثل مبـادىء السياســة والتاريخ ، ( ما يحفظ المال ) كالزراعة أو الصناعة أو التجـارة ومبادىء الاقتصاد والحساب وأما المدارس الثانوية فيتوسع الطالب فى دراسة هذه العلوم ، وتبدأ مرحلة التخصص فى المـدارس التجهيزية فيـدرس المادة التى يبغى التخصص فيها وما يتصل بها من العلوم ولغة أجنبية من لغات العالم . وأما المدارس العليا فيتعمق فيها الطالب الدراسة السابقة .

وهى نظرة واعية يطل منها على المعرفة بصورة عامة ولا يغفل عن جانب من الجوانب . والملاحظ انه ما زال يتبع منهج البحث الاستقرائى فى نظرته فيبدأ بالفرد فيما يحفظ عقيدته أولا وجسمه ونفسه وعقله بعد ذلك ، ويتدرج الى العائلة باعتبارها الخلية الاجتماعية الأولى ، ثم تتسع نظرته فتشمل الأمة وما يحفظها أو بمعنى آخر ينتقل من الخاص الى العام كما انتقل من قبل من الفرض الى القانون .

فاذا فرغ المؤلف من برامج الدراسة تطرق الى موضوع المال اللازم لذلك ويبدو أنه يائس من الحكومات لأنه يرى أن طريق الحكومة بالطلب منها والالحاح عليها والاستماتة فى ذلك قد لا يجدى ، فالاكتتاب العام الدائم والدعوة الى هذا المشروع بكل وسائل الأعلام ، أجدى من الاعتماد على الحكومة « وقد كان للسيد جمال الدين رأى فى ذلك ،وهو أن ينشأ صندوق يسمى ( صندوق المسلمين ) يوضع فى كل قرية وعلى كل طريق ومسجد ويجمع فيه المال لاصلاح أحوال المسلمين » . هذا اذا فشلت المحاولات المستمرة مع الحكومات ، ورفضت السلطات حتى فكرة فرض ضريبة جديدة تخصص لنشر التعليم . ومن المؤكد انه كان محقا فى سوء ظنه بالحكومة ، لأن الاستعمار البريطانى لم يوافق الا على انفاق ما يعادل واحدا فى المائة من ميزانية مصر ، على التعليم (١) ، واضطر الداعون الى الجامعة بعد ذلك ، أن يكتتبوا لمشروع الجامعة اكتتابا عاما كما هو معروف .

« أما البحث عمن يقوم بهذا الأمر فهو أهم الأبحاث وأس المسائل . الذى يقوم بهذا الأمر اما الأمة واما الحكومة .

(١) راجع فصل الحياة الاجتماعية ( حركة البعث فى الشعر العربى الحديث ) .

اما الأمة فما دامت فى الطفولية فلا يمكنها أن تميز خيرا من شر و أن تترك اللعبة وتشترى الكتاب ، وأما الحكومة فهى اما حكومة وطنية وهى فى الغالب الآن مع الأمم الاسلامية فى مقام السيد مع العبد ، فان تعلمت الأمة وارتفعت أصبحت فى مكان الوكيل مع موكله وهيهات هيهات أن تساعد على ذلك ، وأما الحكومة الأجنبية فهى بمثابة الوصى الطماع مع القاصر الغنى ، فمصلحتها أن تحول بينه وبين الرشد دائما واذ قد نفضنا ايدينا من هؤلاء جميعا ، فلم يبق أمل يرجى وامنية تنتظر الا من فئة قليلة بلغت الرشد فعرفت الحال والمآل ، اعنى بها ( عقلاء المسلمين ) ، هذه الفئة هى المسئولة وحدها ولا مسئولية على عامة الأمة ... » هو اذن يائس فى نهاية بحثه من الاستعمار ، يائس من الحكومة ، يائس من الأمة فى مجموعها ، ولكنه مدرك أن سكون الأمة أشبه بسكون العليل لا بصمت الموت ، ومدرك أن الفئة القليلة المؤمنة قادرة على أن تقوم بدورها وتدق ناقوس الخطر فتصحو الأمة من غفوتها فلا يمكن أن يكون استقلال بغير امة متيقظة ، ولا يمكن أن تتيقظ الأمة بغير العلم . واذا كان محور دراسته مصر ، فان تفكيره يمتد الى خارج حدودها ، فيدعو فى النهاية الى الافادة من المؤتمر الذى هيأه لنا الحج ، فهو مؤتمر عام ينبغى أن نشغله لبحث قضايا الشعوب الاسلامية واصلاح أحوال المسلمين والدعوة الى نشر العلم لأنه وسيلة الاصلاح .

ومرة أخيرة يجهز على دعاة الاستسلام والمشايعين للفكر الاستعمارى دون تبصر ، الذين يعتقدون أن الأوربين بدافع المدنية وروابط الانسانية لابد أن يصلحوا أحوال البلاد التى احتلوها كما عبر عن ذلك « روزفلت » فى احدى خطبه حين قرر

بتبجح واضح أن ما تأخذه الدول الاستعمارية من خيرات الدول المحتلة هو نظير ترقيتها . فيرمى البكرى هؤلاء السذج بالغفلة لأن الأوربيين يصلحون البلد لا الأمة مثلما نضع ثيابا مهندمة على تماثيل الخشب فى المحلات التجارية ، زخرفة على خراب ، والأمة لا يمكن أن تنازع غيرها سبيل الحياة الا معتمدة على نفسها ، لأن المستعمر لا يلتفت الا الى الاصلاحات التى تعود عليه هو بالنفع ، كمن يعمر بيتا بأجرته ثم يسكنه مدة طويلة حتى اذا خرج منه يوما كان البيت قد عاد الى حالته الأولى ، أو اشد سوءا . فاصلاح الفرد هو اس كل اصلاح حقيقى ، وهو مالا يفعله المستعمر ، بل يسعى جهده لصده ورده .

وهكذا استطاع البكرى المفكر فى كتابه هذا أن يصل الى النتيجة المنطقية لانحطاط العالم الاسلامى ، وان يرسم الطريق لاصلاحه ، مخططا لمشروعه ، ملتفتا الى كل جزئياته حين تحدث عن نقل العلم ومنهج التعليم وتدبير المال اللازم ، ونفض يديه من السلطتين الشرعية والفعلية واعتمد على الشعب فى القيام بهذا الدور الطليعى ، وسبق عصره فى كثير من القضايا ، شأن المفكرين الذين يرون اشراقة الفجر قبل غيرهم ، واعتمد فى دراسته على مناهج البحث الحديثة ، واطلع على مراجع لا حصر لها ، وأتى بحجج دافعة وهو يناقش ويفند آراء الغربيين الذين تلون النظرة الاستعمارية تفكيرهم ، وآراء الشرقيين الذين فقدوا صلابتهم وغررت بهم الدعايات .

ولن نستطيع أن نستكمل صورة البكرى المفكر الا اذا عرضنا لكتاب ( التعليم والارشاد ) الذى « رسم ترتيبه ووضع شكله وتبويبه السيد محمد توفيق البكرى ، وأشار بجمع ما يلزم هذا التبويب من المواد المفيدة والنقول العديدة ... ليكون سفرا جامعا

يقرؤه مشايخ الصوفية وخلفاؤهم للمريدين » كما جاء فى مقدمته .
ومن الواضح أن البكرى لم يكن يملك القدرة على تنفيذ مخططه فى كتاب « المستقبل للاسلام » من حيث انشاء المدارس والجامعات ، ورأى الا تكون دعوته نظرية ، فأراد أن يبدأ بتطبيقها فى المحيط الذى يملكه . واذا كان قد أشار فى برامجه السابقة الى أبواب الدراسة ، فان هذا الكتاب الجديد تفصيل لما أجمل من قبل ، فيتحدث عن باب « ما يحفظ العقيدة » ويقسمه الى العقائد والعبادات ، وباب « ما يحفظ النفس » ويقسمه الى الفضائل والرذائل فيستعين بعلم الأخلاق ، وقد كان بامكانه تعميق مفاهيمه لو استعان أيضا بعلم النفس . ثم نرى بعد ذلك باب «ما يحفظ الجسم» ويعنى به علم الصحة ، وباب « ما يحفظ العائلة » ، واذا كان هذا الباب غامضا فى كتابه « المستقبل للاسلام » فقد وضح مقصده هنا عندما عنون فصوله بما يجب على الرجل لزوجته وعلى الزوجة لزوجها ، وحقوق الوالدين وتربية الأبناء . ولكن أخطر ما فى هذا الكتاب ، البابان الأخيران ، باب « ما يحفظ الأمة » وباب « ما يحفظ المال » .

ومقدمة الكتاب ومنهجه يدلان على أن الأفكار للبكرى ، فعندما يعرض الكتاب للحكومة الاستبدادية ندرك أن البكرى يعبر عن رأيه فى هذا الموضوع ، لأن الأفق الواسع الذى يتضح من خلال العرض لا يمكن أن يكون الا للبكرى المفكر ، وصاحب الثقافة الواسعة ، ويبدو أن البكرى ترك لمشايخ الطرق الصوفية الحديث عن الأبواب الأولى التى هى من صميم عملهم ، ثم كان وراء كل جزئية فى البابين الأخيرين ، خاصة وأن الأمر لا يحتاج الى سعة الأفق وحسب ، وانما يحتاج الى الجرأة الشديدة التى اعتدناها من البكرى قبل ذلك ، وهكذا نستطيع أن نفسر وجود مثل هذا النص فى ذلك الفصل . « ان طول مكث الشرقيين تحت نير

استبداد المستبدين ... تمنع القلم عن أن يجرى على قرطاس بيد شرقى فى البلاد الشرقية ، بذكر **الحكومة الجمهورية** ، وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين ، وان المسوسين بها اعلا شأنا وأرفع مكانة من سائر افراد الانسان ، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هـــذا الاسم دون من عداهم ... ان الرعايا لايزالون يتحملون المتاعب والأوصاب ، ويكدون أيام سنيهم ، ويسهرون لياليهم مشتغلين بلا فتور بالفرس والحرث والحصد والدرس ، والندف والحلج والغزل والنسج ، مهتمين بالحدادة والنجارة ، والملاحة والتجارة ، ساعين فى حفر الأنهر وانباع المياه ، وانشاء الجداول والجسور ، متكبدين آلام التغرب فى الحر المبيـــد والبرد المميت ، كى ينالوا ( أى الحكام ) أرغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، ويحوزوا الراحة والرفاهية والحظ والسعادة ، وهؤلاء الظلمة لا يفترون عن السعى فى سلب ما بأيديهم جبرا ، وغصب ثمار مكاســبهم وفوائـــد متاعبهم رغما ، ولا يدعون لهم مما اكتسبوه بكد يمينهم وعـــرق جبينهم سوى ما تقـــدم به حياتهم الدنيئة ، حتى تراهم بعد اقتحام هذه الأخطار وتحمل تلك المصاعب ، لا يقتاتون الا بكسرات خبز رديئة ناشفة يبلونها بدموعهم المنسكبة من جور ولاتهم الفاتكين ، ولا يسترون أبدانهم الا بخلق رثة مرقشـــة بدمائهم السائلة من سياط حكامهم الجائرين ، ولا يسكنون الا فى الأكنة المنخفضة والأخصاص الخسيسة ، كأنهم أنعام حرمتهم الطبيعة من المزايا الانسانية ... » (١)

أى جراة تلك التى دفعت البـكرى الى هذا الهجوم العنيف والحديث الصريح الذى يكشف عورات المجتمع الاقطاعى كما

---

(١) التعليم والارشاد ص ٥٩٦/٥٩٨ .

كشـــفها من قبل عنـــدما قارن بين المحرومين والمترفين فى « صهاريج اللؤلؤ » ولكن الانفعال يبلغ حده فى هذا الهجوم ضد الظلمة الجائرين من الحكام كما يقول . انها دعوة واضحة لا الى مجرد الثورة هـذه المرة ، وانما الى اقامة حكم جمهورى لأنه الحكم الوحيد الجدير بالبشر فى عصرنا الحديث .

عندما نقرأ هـــذا القول فى فصل « الحكومة الجمهورية » ، وعندما نقرأ « فصل الاقتصاد الشخصى والسياسى » فى باب « حفظ المال » ، حين يدعو الى الادخار والحد من الاسراف ، واستغلال المدخرات فى الاستثمار ، نحس أننا نقرأ لكاتب معاصر ، وندرك أن هذه العبقرية قد سبقت عصرها بأكثر من نصف قرن ، واذا كانت دعواته الى نشر التعليم وفتح الجامعات واقامة الحكم الجمهورى والحـــد من الاسراف ، قد تحققت فى هذه الأيام ، فما زالت أصـــداء صوته من نصف قرن ، ترن فى أسماعنا ، مؤكدة أننا نسير على الطريق الصحيح الى الهدف الذى كان يراه بعيدا ونراه اليوم قريبا .

# الفهرس

## صدر من سلسلة أعلام العرب

| اسم الكتاب | المؤلف |
|---|---|
| ١ ـ محمد عبده ... ... ... | عباس العقاد |
| ٢ ـ المعتمد بن عباد ... ... ... | على أدهم |
| ٣ ـ جابر بن حيان ... ... ... | د . زكى نجيب محمود |
| ٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون ... | د . على عبد الواحد وافى |
| ٥ ـ ابن تيمية ... ... ... ... | د . محمد يوسف موسى |
| ٦ ـ معاوية ... ... ... ... | ابراهيم الابيارى |
| ٧ ـ سيد درويش ... ... ... | د . محمد أحمد الحفنى |
| ٨ ـ عبد القاهر الجرجانى ... ... | د . أحمد بدوى |
| ٩ ـ عبد الله النديم ... ... ... | د . على الحديدى |
| ١٠ ـ عبد الملك بن مروان ... ... | د . ضياء الدين الريس |
| ١١ ـ مالك ... ... ... ... ... | أمين الخولى |
| ١٢ ـ القلقشندى ... ... .. ... | د . عبد اللطيف حمزه |
| ١٣ ـ الطبرى ... ... ... ... | د . أحمد محمد الحوفى |
| ١٤ ـ الظاهر بيبرس ... ... .. | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ١٥ ـ ابن الفارض ... ... ... | د . محمد مصطفى حلمى |
| ١٦ ـ المختار الثقفى ... ... ... | د . على حسنى الخربوطلى |
| ١٧ ـ الوليد بن عبد الملك ... ... | د . سيدة اسماعيل الكاشف |
| ١٨ ـ الأصمعى ... ... ... ... | د . أحمد كمال زكى |
| ١٩ ـ زكريا أحمد ... ... ... | صبرى أبو المجد |
| ٢٠ ـ قاسم أمين ... ... .. ... | د . ماهر حسن فهمى |
| ٢١ ـ شكيب أرسلان ... ... ... | أحمد الشرباصى |
| ٢٢ ـ ابن قتيبة ... ... ... ... | د . عبد الحميد سند الجندى |
| ٢٣ ـ أبو هريرة ... ... ... ... | محمد عجاج الخطيب |
| ٢٤ ـ عبد العزيز البشرى ... ... | د . جمال الدين الرمادى |
| ٢٥ ـ الخنساء ... ... ... ... | محمد جابر الحينى |
| ٢٦ ـ الكندى ... ... ... ... | د . أحمد فؤاد الاهوانى |
| ٢٧ ـ الصاحب بن عباد ... ... | د . بدوى طبانه |
| ٢٨ ـ الناصر بن قلاوون ... ... | د . محمد عبد العزيز مرزوق |
| ٢٩ ـ أحمد زكى ... ... ... | أنور الجندى |
| ٣٠ ـ حسان بن ثابت ... ... ... | د . سيد حنفى حسنين |

| اسم الكتاب | المؤلف |
|---|---|
| ٣١ ـ المثنى بن حارثه الشيبانى ... | عقيد محمد فرج |
| ٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى ... | عبد القادر أحمد |
| ٣٣ ـ رشيد رضا ... ... ... | د . ابراهيم احمد العدوى |
| ٣٤ ـ اسحاق الموصلى ... ... | د . محمود احمد الحفنى |
| ٣٥ ـ ابو حيان التوحيدى .. ... | د . زكريا ابراهيم |
| ٣٦ ـ ابن المعتز العباسى ... ... | د . أحمد كمال زكى |
| ٣٧ ـ الزهاوى ... ... ... ... | د . ماهر حسن فهمى |
| ٣٨ ـ ابو العلاء المعرى ... ... | د . عائشة عبد الرحمن |
| ٣٩ ـ احمد لطفى السيد .. ... | د . حسين فوزى النجار |
| ٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين ... | د . فوقية حسين |
| ٤١ ـ صلاح الدين الأيوبى ... ... | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ٤٢ ـ عبد الله فكرى ... ... ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٤٣ ـ عبد الله بن الزبير ... ... | د . على حسنى الخربوطلى |
| ٤٤ ـ عبد العزيز جاويش ... ... | انور الجندى |
| ٤٥ ـ ابن رشيد القيروانى .. ... | عبد الرءوف مخلوف |
| ٤٦ ـ محمد عبد الملك الزيات ... | محمود خالد الهجرسى |
| ٤٧ ـ حفنى ناصف ... ... ... | محمود غنيم |
| ٤٨ ـ احمد بن طولون ... ... ... | د . سيدة اسماعيل الكاشف |
| ٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى ... ... | احمد سعيد الدمرداش |
| ٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق ... ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٥١ ـ المهدى العباسى ... .. ... | د . على حسنى الخربوطلى |
| ٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى ... | د . محمود رزق سليم |
| ٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى ... ... ... | د . حسين فوزى النجار |
| ٥٤ ـ زرياب ... ... ... ... ... | د . محمود احمد الحفنى |
| ٥٥ ـ الكندى « المؤرخ » ... ... | د . حسن احمد محمود |
| ٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى ... ... ... | د . زكريا ابراهيم |
| ٥٧ ـ ابن النفيس ... ... ... | د . بول غليونجى |
| ٥٨ ـ السيد احمد البدوى ... ... | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ٥٩ ـ المأمون ... ... ... | د . محمد مصطفى هداره |
| ٦٠ ـ المقرى ... ... ... | محمد عبد الغنى حسن |
| ٦١ ـ جمال الدين الافغانى | عبد الرحمن الرافعى |
| ٦٢ ـ الجاحظ ... ... ... | د . احمد كمال زكى |
| ٦٣ ـ ابن ماجد ... ... ... ... | د . انور عبد العليم |
| ٦٤ ـ محمد توفيق البكرى ... ... | د . ماهر حسن فهمى |







دار الكاتب العربي للطباعة والنشر تقدم في ١٠ أبريل ١٩٦٧

العدد الخامس والثلاثين من :

# مجلة الكاتب العربي

رئيسا التحرير :

**على أدهم**

**الدكتور عبد الحميد يونس**

> يطلب من باعة الصحف ومن مكتبات الشركة القومية للتوزيع: "مكتبات الدار القومية، ودار التأليف والترجمة، ودار القلم سابقا" الثمن ١٠ قروش

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

اقرأ في هذا العدد :

أهم موضوعات العدد :

- عصر ورجال
  على أدهم
- ثروت أباظة في أدبنا المعاصر
  محمد على العريان
- شابلن وسيرته الذاتية
  على شلش
- الديانة اليونانية القديمة
  أمين سلامة
- ديوان قال المساء
  عبده بدوي
- تجارب شعرية
  بين مصطفى السحرتي وعبد الصبور مرزوق
- عدا الأبواب الثابتة

